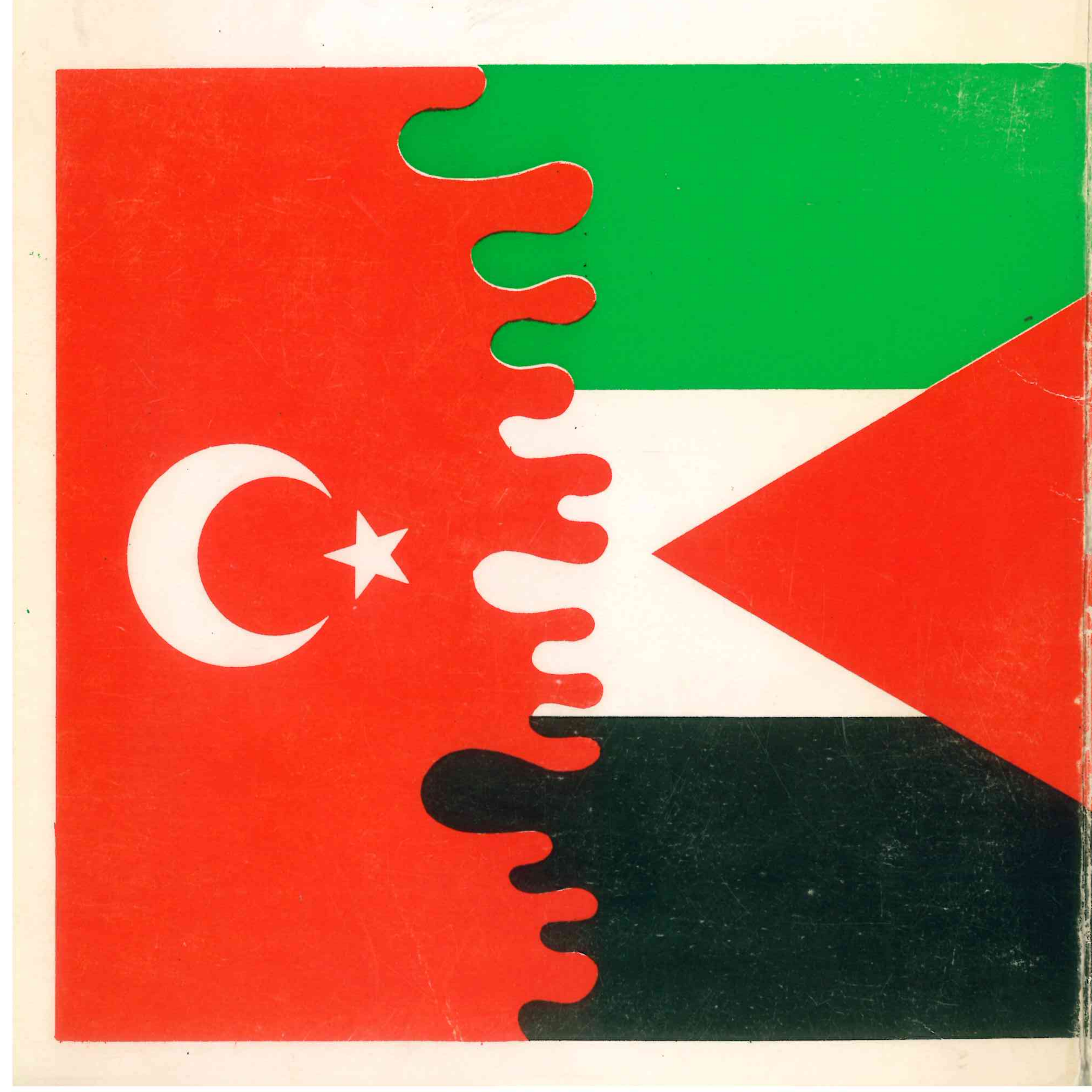
طبعة جديدة منقحة

العرب والعثمانيون

١٥١٦ - ١٩١٦

الدكتور عبدالكريم رافق



العرب والعثمانيون

الغلاف بريشة الفنان عبد القادر ارناؤوط

الدكتور عبد الكريم رافق

استاذ تاريخ العرب الحديث والمعاصر في جامعة دمشق

استاذ محاضر في الجامعتين الاردنية واللبنانية

استاذ زائر في جامعات الولايات المتحدة الامريكية

بنسلفانيا ،(بنسلفانيا) ،شيكاغو، كاليفورنيا

(لوس انجلوس) ويليم اند ماري

العرب والعثمانيون

١٥١٦ - ١٩١٦

الطبعة الثانية

دمشق-١٩٩٣

الإهداء

إلى ذكرى والدي سمعان رافق

عبد الكريم

الطبعة الاولى ، دمشق ـ ١٩٧٤

العرب والعثمانيون

مقدمة الطبعة الثانية ١٩٩٣

شهدت العقود الثلاثة الأخيرة اهتماماً متزايداً بتاريخ الوطن العربي إبّان الحكم العثماني. ويُعزى هذا الاهتمام الى رغبة في تقصي هذا التاريخ الذي اصابه الاهمال في السابق على مافيه من غنى في المصادر، المحلية والاجنبية، ومن فاعلية عربية على المستويات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية. وتاريخ العرب في القرن العشرين يحمل، في أوجه متعددة، بعضاً من سمات ذلك التاريخ بسلبياته وايجابياته. ومن هنا المحاولات الجارية في أكثر من جامعة ومؤسسة عربية وأجنبية لتقصي جوانب هذا التاريخ بتعمق وفهم على ضوء أهم المصادر المتوفرة.

وقد لقي كتاب «العرب والعثمانيون» هذا اقبالاً عند طباعته الاولى عام ١٩٧٤ لانه يتبع منهجاً جديداً، اذ اعتمد المنظور العربي في دراسة التاريخ فعالج التطورات في الاقطار العربية افقياً، بابعادها الاقتصادية والاجتماعية، في فترات زمنية محددة تعكس الاوضاع العثمانية ككل. ولم يعتمد التاريخ القطري الذي يجتزيء التاريخ العربي ويعمّق النظرة القطرية على حساب البعد العربي لهذا التاريخ، وهو

المتواصل أبداً منذ أقدم العصور، دعامته حضارة واحدة ضاربة الجذور في وطن واحد.

وينصب اهتمامنا الآن على الدراسات الاقتصادية والاجتماعية في الوطن العربي في العهد العثماني، التي هي في اساس الاحداث السياسية. وقد جمعنا بعض ماكتبناه من بحوث في هذه الميادين في كتاب خاص بعنوان: «**بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث**». وكلنا أمل ان تتسع دائرة المختصين بتاريخ العرب الحديث في العصر العثماني في الاقطار العربية، مشرقها ومغربها، لالقاء مزيد من الضوء على قرابة أربعة قرون من حكم الدولة العثمانية، وردود الفعل العربية على هذا الحكم.

دمشق/صيف ١٩٩٣

عبد الكريم رافق

مقدمة الطبعة الاولى

هـذه محاولـة لدراسة تاريـخ العرب ، في المشرق والمغرب ، طـوال أربعمائة سنة مـن الاحتلال العثماني والاوربي ، وفق مخطط هادف ، يتتبع تطور العلاقة بين الحاكمين والمحكومين ، ويلقي الضوء على موقف العرب من حاكميهم • ونلاحظ أن ظواهر رئيسية انتظمت العـالم العربي ، في معظم أرجائه ، في العهد العثماني ، مع اختلاف ضئيل في النوعية والشدة •

وحين كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها ، في القرن السادس عشر ، احتلت البلاد العربية ، وقضت على الثورات التي قامت فيها ، وحققت فترة طويلة من الهـدوء • وعندما ظهر الضعف في الدولة العثمانية ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر وطيلة القرن السابع عشر ، لاسباب عسكرية واقتصادية وسياسية ، بدأت التحديات المحلية للسلطة العثمانية بالظهور • وحـدث ذلك أولا في صفوف العساكر ، ثم بـين الامـراء والكتل المتنفذة ، مثل المماليـك • وكـان طبيعيـآ أن تبـدأ هـــذه التحديـات في مناطـق الاطراف ، حيث السلطة العثمانية ضعيفة ، ثـم تنتشر باتجـاه الداخل • وعندما غـدا الضعف العثماني انحطاطـا ، في القرن الثامن عشر ، اتسعت قاعدة التحدي والثورة على العثمانيين حتى بلغت مستوى الشعب ، على شكل هرمي ، فعمت الثورات بـين الجماهير ، في المدن والأرياف ، وقاوموا الولاة العثمانيين ، الذين حاولوا ظلمهم • وظهرت ، في الوقت ذاته ، أسـر محلية حاكمة ، ضمن الاطار العثماني ، مثـل آل العظم والزيادنة في بلاد الشام ، وآل الجليلي في الموصل ، والقرمانليين في ليبيا • كما نشطت الامارات العربية في مناطق الخليج العربي وعمان واليمـن • وتحدت الوهابيـة في الجزيرة

العربية سلطة العثمانيين الدينية والسياسية • وازداد كذلك شأن المماليك في مصر والعراق • واشتهرت أسر من العساكر والقرانصة في المغرب العربي • وتطور الأمر الى ظهور عدد من الطغاة ، مثل أحمد باشا الجزار في بلاد الشام ، وداود باشا في العراق ، ومحمد علي باشا في مصر ، الذين تحدوا السلطة العثمانية • وأدى ذلك كله الى تضاؤل هيبة السلطان العثماني والى بروز الشخصية المحلية •

وازداد التباعد ، بين العرب والعثمانيين ، في القرن التاسع عشر ، بانتشار الفكرة القومية بين الفريقين• وتعرض العالم العربي، في ذلك القرن، الى تدخل الدول الأوربية ، على مختلف المستويات ، واحتلالها أجزاء كبيرة من العالم العربي ، مما زاد الصورة تعقيداً • وبدأت ، بالنسبة للعرب ، مرحلة جديدة من النضال ضد الأوربيين والعثمانيين • وفي حين أخذت البلاد العربية في افريقية ، التي احتلتها الدول الأوربية ، تناضل ضد هذه الدول ، بعد أن غدا الوجود العثماني فيها اسمياً ، بقيت بلدان المشرق العربي تصارع ضد الاحتلال العثماني ، الذي اتبع أساليب استعمارية بمحاولته تتريك البلاد العربية بالقوة • وانتهى الأمر بثورة العرب على العثمانيين في عام ١٩١٦ • وبانتهاء الحرب العالمية الأولى وخضوع المشرق العربي للاستعمار الأوربي ، بدأ عهد جديد في تاريخ البلاد العربية تميز بوحدة النضال في سبيل التحرر والوحدة •

وسيرى القارىء في الهوامش كم أنا مدين لعدد من الباحثين ، من عرب وأجانب ، قاموا بدراسات اختصاصية حول بعض البلدان العربية ، في فترات معينة • وأشكر الزميل الاستاذ ناظم كلاس للملاحظات القيمة التي أبداها •

دمشق ، ايلول ١٩٧٤

عبد الكريم رافق

ثبت الموضوعات

ص

الفصـل الرابـع :

الفصـل الخامس :

العرب والعثمانيون

س

الفصل الأول

البلاد العربية والحكم العثماني

البلاد العربية قبيل الفتح العثماني

لمحة عامة

تعرض العالم العربي ، في القرن الحادي عشر ، الى خطرين خارجيين كبيرين ، من الغرب والشرق • فقد توغلت القوى الأوربية في اسبانيا وصقلية ، محتلة مناطق كبيرة كانت لحكام عرب • وبلغ هذا الخطر الأوربي أوجه في الحملات الصليبية على المشرق العربي ، التي بدأت في حوالي عام ١٠٩٦ واستمرت قرابة مائتي عام • وظهر الخطر الآخر من الشرق ممثلا بالتسرب التركي الى الخلافة العباسية ، ثم بالاحتلال المغولي لبغداد في عام ١٢٥٨ • وكان الاتراك السلاجقة ، وهم من قبائل الغز أو الأغز المشهورة بشدة بأسها ، قد تمكنوا بقيادة زعيمهم طغرل بك ، من احتلال بغداد في عام ١٠٥٥ ، وهزيمة حكامها الفعليين من البويهيين ، وهم سلالة فارسية شيعية ، حكمت بغداد منذ عام ٩٤٥ ، في ظل الخلفاء العباسيين المستضعفين • واتخذ الحاكم البويهي لقب سلطان • وتمكن السلاجقة ، في بضع سنين ، من انتزاع بلاد الشام من حكامها المحليين ومن الفاطميين ، وسرعان ما مدوا نفوذهم على مناطق كبيرة في الأناضول •

وتعتبر سيطرة السلاجقة في بغداد نقطة الذروة في تسرب الأتراك الى الخلافة العباسية ــ ذلك التسرب الذي بدأ منذ أن احتك العرب بالأتراك في آسيا الوسطى ، زمن الفتوحات العربية • وقد استخدم الأتراك على نطاق ضيق ، في الجيش والادارة ، منذ العصر الاموي • وكان أول من اعتمد

عليهم بشكل واسع ، بعد ذلك ، هو الخليفة العباسي المعتصم (٨٣٣-٨٤٢) ليوازن بهم الفرس والعرب ، على حد سواء ، خاصة وان هذه القوات التركية كانت بدون جذور محلية ، مما يجعل ولاءها متجهاً بالدرجة الاولى نحو السلطة المركزية • وامتاز الأتراك هؤلاء بصفات عسكرية جيدة ، وخاصة في مجال الفروسية • ومما زاد في تسلطهم شدة اعتماد الدولة عليهم ، لمجابهة الاخطار الداخلية والخارجية • ولكن دخول الأتراك الى الخلافة العباسية ، الذي تم في البدء بصورة افرادية ، عن طريق الأسر أو الشراء أو لقاء الضرائب ، سرعان ما تحول الى هجرة قبائل بكاملها ، تستهويها امكانات السيطرة على الخلافة العباسية المزدهرة • ومما ساعد أيضاً في توجيه هذه القبائل نحو الغرب صعوبة توسعهم باتجاه الصين ، التي ظهرت فيها آنذاك أسرة سونغ القوية ، بعد فترة من الفوضى [١]•

ورغم سيطرة السلاجقة في بغداد ، فقد بقيت الادارة تعتمد ، الى درجة كبيرة ، على البيروقراطية الفارسية • وكان أبرز ممثليها في هذه الفترة الوزير نظام الملك،الذي وطد قواعد الاقطاع العسكري • وبموجب هذا النظام يمنح الجندي ، عوضاً عن المرتب ، قطعة أرض كاقطاع،يتصرف بوارداتها لقاء تقديم نفسه ، وعدد من الرجال ، حسب مردود الاقطاع ، للخدمة العسكرية•وكان الاقطاع يمنح لعدد معين من السنين ، ولكنه أصبح بالتدريج وراثياً • وساعد هذا التنظيم على ربط المحارب بالأرض والدفاع عنها ، ونشط الزراعة الى حد كبير•ولكنه ، بالمقابل ، أوجد أزمات اجتماعية بسبب ظهور الخلاف بين الملاكين القدامى ، وأصحاب الاقطاعات الجدد • وسرعان ما تمزقت السلطنة السلجوقية الى دويلات • وفي وقت الضعف هذا بدأت الحملات الصليبية ، التي احتلت ، بصورة رئيسية ، الشريط الساحلي من بلاد الشام ، بالاضافة الى القدس•وبالرغم من اتخاذها المظهر الديني بقصد الابتهال لمشاعر الجماهير الاوروبية وايقاظ حماسها ، فان هذه

---

١ ـ انظر : Bernard Lewis, *The Arabs in History*, Hutchinson's University Library, London, 1968, pp. 146-8.

الحملات كانت في أساسها تجربة مبكرة في التوسع الاستعماري [1]. وتزعمها تجار من جمهوريات المدن الايطالية ، الذين شجعتهم التجارة التي اقاموها مع البيزنطيين والفاطميين ، على احتلال مراكز هذه التجارة . وتزعمها كذلك الاقطاعيون الاوروبيون الطموحون ، الذين بعد ان تزايد عددهم واشتدت المنافسة بينهم ، بحثوا عن الامارات والمجد في اماكن اخرى مشهورة تاريخياً واقتصادياً كبلاد الشام . وبدأت المجابهة العربية تتخذ دور التنظيم الداخلي ، فظهر زنكي الضابط السلجوقي ، الذي احتل الموصل في عام ١١٢٧ ، في محاولة لتوحيد بلاد الشام . ونجح في ذلك ابنه نور الدين ، الذي احتل دمشق في عام ١١٥٤ ، وأوجد مملكة قوية . ولكن الغلبة على الصليبيين تمت في عهد صلاح الدين ، المؤسس الفعلي للسلطنة الايوبية ، والذي أنهى الخلافة الفاطمية ، ووحد بلاد الشام ومصر ، وهزم الصليبيين في معركة حطين في عام ١١٨٧ ، واحتل القدس . وبقيت جيوب صليبية في المنطقة قضى عليها المماليك في النصف الثاني في القرن الثالث عشر .

لم يكد الخطر الصليبي يتلاشى حتى استفحل خطر المغول ، بزعامة جنكيز خان . فبعد ان وطد جنكيز خان جبهته الداخلية ، وجمع القبائل من حوله ، في مطلع القرن الثالث عشر ، وفرض سيطرته على الصين ، بدأ يغزو بلاد فارس ، في عام ١٢٢١ ، ولم يحد من ذلك سوى وفاته في عام ١٢٢٧ . ثم استؤنف الفتح ، باتجاه الغرب ، في عهد هولاكو ، الذي احتل بغداد ، في عام ١٢٥٨ ، وقضى على الخلافة العباسية فيها . وكان من نتيجة ذلك أن انهارت الادارة المدنية ، وتضررت الزراعة والاقتصاد ، في اعقاب تهدم اقنية الري وانتشار هجمات البدو ، واصبح العراق مجرد مقاطعة على الأطراف في امبراطورية مغولية تتمركز في بلاد فارس . وفقد العراق كذلك اهميته الاقتصادية في نطاق التجارة بين الشرق والغرب ،

---

٢ ـ انظر : *Ibid.*, p. 150.

وانتقلت مراكـز هـذه التجارة الى تركيا وفارس من ناحية ، والى مصـر والبحر الاحمر من ناحية اخرى •

بلاد الشام ومصر في عهد السلطنة المملوكية

حال دون استمرار هولاكو في فتوحاتـه ، باتجاه الغرب ، وقـوف القوات المملوكية ، بزعامة بيبرس ، في وجهه ، فهزمت جيوشه في موقعة عين جالوت ، في فلسطين ، في عام ١٢٦٠•وكان هذا امتحانا ناجحا للسلطنة المملوكية في أول عهدها • ويعتبر بيبرس (١٢٦٠ ــ ١٢٧٧) ، المؤسس الفعلي للسلطنة المملوكية ، اذ وحد بلاد الشام ومصر ، واستمر ذلك حتى سقوط السلطنة المملوكية في عام ١٥١٧ • وقد حصر المغول ضمن حدود العراق ، ومـدّ نفوذه على الحجاز والأماكن المقدسة فيه ، وأخضع النوبا المسيحية[١]•وليزيد بيبرس من شهرة دولته ، ويسبغ عليها صفةالشرعية، فقد دعا الخليفة العباسي للاقامة في القاهرة مجردا من كل سلطة سياسية • واستمر الخلفاء العباسيون يقيمون في القاهرة الى ان توفي آخرهم الخليفة الخامس والخمسون ، المتوكل على الله ابو عبد الله محمد بن يعقوب ، في ١٢ شعبان ٩٥٧/٢٦ آب ١٥٥٠ [٢] •

ومما تجدر ملاحظته انه بازدياد الاخطار الداخلية والخارجية ازداد الاعتماد ، في العالم العربي ، على القوى العسكرية ، وكانت هذه بالضرورة تركية ، من آسيا الوسطى ، ثم من سهوب روسيا • وقد نزحت منها بسبب كثافة السكان ونقص المواد الغذائية فيها،وكذلك بسبب اغراءالثراء وضعف السلطة في العالم العربي•وبلغ الأمر أن تسلمت هذه القوات الغريبة الحكم في عهد السلطنة المملوكية ، واحتمت بها الخلافة العباسية •

وسندرس السمات الرئيسية للسلطنة المملوكية لنتمكن مـن معرفـة

١ ــ انظـر : *Ibid.*, p. 154

٢ ــ انظر : محمد بن محمد أبي السرور البكري الصديقي ، عيون الأخبار ونزهة الأبصار مخطوط في دار الكتب المصرية ، رقم ٧٢ م ، الاوراق ١٣٨ ب ــ ١٣٩ آ •

الأسباب التي أدت الى انهيارها ، والتي مكنت العثمانيين ، في عامي ١٥١٦ ـ ١٥١٧ ، من احتلال بلاد الشام ومصر • وتقسم السلطنة المملوكية عادة الى فترتين : الاولى تمتد حتى عام ١٣٨٢ ، ومعظم مماليكها من منطقة القبجاق ، في سهوب روسيا ، شمالي سواحل البحر الأسود ، عند وادي الفولغا ؛ والثانية تمتد حتى سقوط السلطنة في عام ١٥١٧ ، ومعظم مماليكها من الشراكسة ، من منطقة القفقاس ، في جنوبي روسيا • وأشار بعض الاخباريين المصريين ، في العهد العثماني ،[1] الى الفترة الاولى باسم الدولة التركية ، والى الفترة الثانية باسم دولة الشراكسة • ومن المؤرخين ، من يطلق على الفترة الاولى اسم المماليك البحرية [2] ، وعلى الفترة الثانية اسم المماليك البرجية [3] • وتعزى أسباب التحول في جلب المماليك من منطقة القبجاق الى منطقة القفقاس الى تناقص عدد السكان في المنطقة الاولى، لكثرة ما نزح منهم من عناصر شابة ، سرعان ما لحقت بها أسر بكاملها ، وكذلك الى الحروب الأهلية والغزو الخارجي • وحين توصل السلطان برقوق ، القفقاسي الاصل ، الى الحكم (١٣٨٢ ـ ١٣٩٨) ، اعتمد على عناصر قفقاسية شركسية طغت على السلطنة •

ويستورد المماليك ، وهم عادة في سن المراهقة وغير مسلمين ، تجار ، يلقب واحدهم باللقب الفارسي خواجة ، ومعظمهم من الفرس ، ويبيعونهم في اسواق العبيد او النخاسة ، فيشتريهم السلطان والامراء ، ويدخلونهم في مدارس خاصة ، تعرف بالكتاب ، ومن هنا تسميتهم في هذه المرحلة بالكتابية • ويدربون على الفروسية وفنون القتال ، ويعتنقون الدين الاسلامي ، ثم يعتقون بموجب صك ، ويمنح واحدهم اقطاعا يعيش منه ، وحصانا وملابس عسكرية ، بالاضافة الى مرتب شهري يعرف بالجاماكية • ويتقاضى

---

١ ـ انظر مثلا المصدر السابق ، ورقة ٦ ب •

٢ ـ نسبة الى النيل ، المعروف لدى العامة بالبحر ، حيث توجد جزيرة الروضة ، التي اقيمت فيها ثكنات المماليك اول الأمر •

٣ ـ نسبة الى اقامة المماليك في ابراج في القلعة •

المملوك أيضا نفقات غير منتظمة تسمى بالنفقة ، تدفع عند اعتلاء السلطان الحكم،أو القيام بالحملات العسكرية.ومن شروط الاقطاع أنه لا يورث. وأفاد هذا في عدم ايجاد اسر اقطاعية متوارثة تتحدى السلطنة . ولم يقم صاحب الاقطاع عادة في اقطاعه بل في مراكز المدن ، ولهذا لم توجد قلاع وقصور في الريف ، وبالتالي مراكز سلطة محلية ، كما كان الامر في أوروبا في العصر الاقطاعي.ولجأت الدولة ، بين فترة وأخرى ، الى عملية الروك ، اي مسح الاراضي واعادة توزيع الاقطاعات ، ومن شأن هذا ان يزيل العناصر الضعيفة بين اصحاب الاقطاعات ، ويأتي بعناصر قوية لمصلحة السلطة الحاكمة .

وكما ان الاقطاع لا يورّث فكذلك ابن المملوك لا يصبح مملوكا ، لأنه مسلم حر . ومن هنا فالمملوكية لجيل واحد ، ويبقى المماليك باستمرار أغرابا عن اهل البلاد ، يتكلمون اللغة التركية السائدة في المنطقة التي قدموا منها . ويدخل أبناء المماليك ـ ويعرف أبناء عامتهم بأولاد الناس ، وأبناء السلاطين منهم بالأسياد أو أولاد المملوك ـ فرقا عسكرية ملحقة بالقوات المملوكية ، ليس لها كبير أهمية ، تعرف باجناد الحلقة ، ويدخلها ايضا افراد من السكان المحليين .

ويؤلف المماليك عماد الجيش في السلطنة المملوكية ، وأشهرهم المماليك السلطانية ، وهم ثلاثة اقسام : مماليك السلطان الحاكم ، ويعرفون بالمشتروات وبالجلبان ، أو الاجلاب ، وهم الاكثر نفوذا ، بسبب اعتماد السلطان عليهم ، ويكون ولاؤهم بالدرجة الاولى له ، لأنه هو الذي اشتراهم وحررهم ، وهو بالنسبة لهم استاذهم ؛ ثم مماليك السلاطين السابقين ، ويعرفون بالقرانصة ؛ ثم مماليك الامراء السابقين ، ويسمون السيفية . والى جانب المماليك السلطانية هناك مماليك الامراء ، وهم أقل أهمية من السابقين ، ولكنهم أكثر فعالية من اجناد الحلقة . ومن شأن هذا التعدد في الكتل في الجيش المملوكي أن يقوي المنافسة البناءة بين أفراده .

وحدث هذا حين كانت السلطة المركزية قوية ، والسلطان يتمتع بولاء مختلف الكتل • ولكن في أوقات الضعف ، تحولت هذه الكتل الى التنافس المميت فيما بينها • ولجأ السلطان ، لدعم سلطته ، الى الاعتماد أكثر فأكثر على مشترواته ، والى ضرب الكتل الاخرى ببعضها لاضعافها • وزاد في العداء بين طوائف المماليك تكتل كل طائفة على نفسها بفعل رابطة الخشداشية ، أي ولاء المملوك لزميله المباشر ، الذي شري ، ودرس ، واعتق معه [1] •

ومن الاسباب الاخرى التي ادت الى انحطاط الجيش المملوكي ، وبالتالي السلطنة المملوكية ، انهيار نظام التدريب العسكري ، بدلالة تهدم الميادين حيث تجري تمارين الفروسية • وزاد في الانحطاط عدم دخول السلطنة المملوكية في حرب كبرى منذ هجوم تيمورلنك على بلاد الشام ، في مطلع القرن الخامس عشر ، وحتى القتال مع العثمانيين في موقعة مرج دابق في عام ١٥١٦ • وأدى ذلك الى تقاعس الجنود عن القتال ، فانصرفوا الى التنازع مع بعضهم ، والتدخل في شؤون الدولة ، وابتزاز المال من الأهلين • وتناقص أيضا العنصر البشري المملوكي بسبب شح مناطق القفقاس بالعناصر الشابة ، وهجرة أسر بكاملها الى بلاد السلطنة المملوكية ، وكذلك بسبب الطواعين المتكررة التي عمت مصر في القرن الخامس عشر ، وقدر عددها باربعة عشر طاعونا ، في الفترة بين ٨١٩/١٤١٦ و ٩١٩/١٥١٣ – ١٥١٤ • وأصابت الطواعين أكثر شيء القادمين الجدد من المشتروات لعدم تأقلمهم بعد مع المناخ المحلي • ورافق اهمال المماليك تمارين الفروسية كرههم استخدام السلاح الناري اليدوي ، لأن هذا يقتضي ترجلهم عن خيولهم ، أو حملهم في عربات ، مما يتنافى مع تقاليد الفروسية • وزاد في

---

١ – انظر حول الجيش المملوكي : D. Ayalon, "Studies of the structure of the Mamluk Army", I, II, III, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies (BSOAS)*, Vols. XV. 2 (1953), pp. 203-228, XV. 3 (1953), pp. 448-476, XVI. 1 (1954), pp. 57-90, *Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom*, London, 1956.

وانظر أيضا كتابنا : بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ – ١٧٩٨) ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٨ ، ص ١٥ – ١٧ •

كرههم لهذا السلاح محاولة السلطنة المملوكية ، في أواخر عهدها ، تسليح فرقة من العبيد المحتقرين من قبل المماليك ، بهذا السلاح .وتظهر المحادثة التالية ، بين السلطان سليم الأول والأمير المملوكي الأسير كرتباي ، بعد فتح العثمانيين مصر ، شدة كراهية المماليك للسلاح الناري . قال كرتباي للسلطان سليم : « .. أنت أتيت لك عساكر من أطراف الدنيا من مصاري ومن روم وغيرهما وجئت بهذه الحيلة التي تحيلت بها الافرنج لما أن عجزوا عن ملاقاة عساكر الاسلام وهي هذه البندقية التي لو رمت بها امرأة لقتلت بها كذا كذا انساناً ونحن لو اخترنا الرمي بها ما سبقتنا اليه ولكن نحن قوم لا نترك سنة نبينا محمد (صلعم) وهي الجهاد في سبيل الله بالسيف » [1] .

ولم يعارض المماليك استخدام الدولة للمدافع في أغراض الدفاع ، وخاصة في حماية سواحل البحر الأحمر من غزوات البرتغاليين ، وكذلك سواحل المتوسط ضد العثمانيين والقراصنة الاوربيين ، وذلك لأن أمرها عهد به الى خبراء ، معظمهم من الاجانب . ولكنهم عارضوا في مرافقتها لهم ، واستخدامها في العمليات العسكرية ، لانها تعيق حركتهم . وبالمقابل فان حسن استخدام العثمانيين للسلاح الناري اليدوي ، وملاءمة الانكشارية المشاة لاستخدامه ، مكنهم من الانتصار على الصفويين في معركة جالديران في عام ١٥١٤ ، وعلى المماليك في موقعتي مرج دابق في ١٥١٦ والريدانية في ١٥١٧ .

وقد ساير الانحطاط العسكري الانحطاط الاقتصادي ، في السلطنة المملوكية ، وأسبابه داخلية وخارجية . فالدمار الذي أحدثه المغول في بلاد الشام ، وخاصة ابان غزوة تيمورلنك في ١٤٠٠ ــ ١٤٠١ كان عميق الأثر . وقد أعقبه تكرر حدوث الجفاف في مصر ،في القرن الخامس عشر ،

---

١ ــ انظر مخطوط تاريخ مصر لاحمد بن زنبل الرمال ، في المكتبة الوطنية في ميونيخ بالمانيا ، برقم Cod. Arab. 411 (تاريخ كتابة هذه النسخة ١٤ جمادى الاول ١٠٣٤ م) ، انظر ورقة ٤٦ أ .

وتلا ذلك مجاعات وطواعين عطلت الفعاليات البشرية والاقتصادية ،وخاصة الزراعة•وزاد في الأمر كثرة تمرد البدو ، نتيجة لضعف السلطة المملوكية، واعتدائهم على الفلاحين ، الذين خضعوا لنظام الحماية التي فرضت عليهم حتى وان لم يطلبوها ، وأصبحوا عرضة لابتزاز المال ، فلجأوا الى الهجرة من الريف الى مراكز المدن •

وصادف،في الوقت ذاته ، نقص في عائدات مصر من التجارة الخارجية بين أوروبا والشرق الأقصى ، والتي كانت تدر أرباحاً وافرة للسلطنة المملوكية ، سواء باسهامها مباشرة في هذه التجارة ، أو بتقاضي الضرائب عنها أثناء مرورها • ولجأت السلطنة المملوكية بضغط الازمات الاقتصادية التي تعرضت لها في القرن الخامس عشر ، الى تشديد قبضتها على سلع التجارة الخارجية ، فاحتكرت عدداً من المواد ، أهمها البهار ، كما أنها زادت من قيمة الأسعار والضرائب ، مما أغاظ أوروبا • ووجدت هذه متنفساً لها في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح من قبل البرتغاليين • ورغم أن المنافسة البرتغالية لم تكن آنذاك حاسمة بالنسبة للاقتصاد المملوكي،الا أنها حطمت احتكاره طرق المرور،وحرمته من مواد كثيرة، وتوضحت آثار ذلك في المدى البعيد • وعمد المماليك ، بتأييد البنادقة ، الذين وجدوا في البرتغاليين منافسين أقوياء لهم ، الى ارسال حملة بحرية في عام ٩١٤/١٥٠٨ الى الهند ، لمقاومة البرتغاليين ، ولكنها هزمت بعد نجاحات أولية حصلت عليها•وسيطر البرتغاليون في أعقاب ذلك على المحيط الهندي ، ومدوا نفوذهم على الخليج العربي ومداخل البحر الاحمر ، وشكلوا تحدياً كبيراً للدولة العثمانية التي حلت محل المماليك [١] •

العراق بين سقوط بغداد بايدي المغول والاحتلال العثماني

فشل المغول ، اثر احتلالهم بغداد والقضاء على الخلافة العباسية فيها

---

١ ـ انظر حول ذلك : F. Braudel, *La Mediterrannée et le Monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Paris, 1949, 431 ff.

عام ١٢٥٨ ، في مد نفوذهم على الأجزاء الغربية من العالم العربي • وتوقف توسعهم اثر هزيمتهم في عين جالوت في عام ١٢٦٠ ، واقتصر حكمهم على العراق،الذي ضم الى الامبراطورية المغولية ، ومركزها في بلاد فارس[1] • ولم يعد العراق يتمتع بمركز فعال في العالم العربي •

يعتبر هولاكو مؤسس السلالة الايلخانية المغولية ، التي اتخذت تبريز عاصمة لها،وهي واحدة من عدة سلالات انحدرت من جنكيز خان • وتعني كلمة ايلخان النائب ، الذي خلف هولاكو ، اثر وفاته في عام ١٢٦٥ • واقتصر حكم الايلخانين على بلاد فارس والعراق ، وضموا اليهم سلطنة سلاجقة الروم في الاناضول ، وأرمينية الصغرى في كيليكية ، ودخلوا في صراع مع السلالات المغولية الى الشرق والشمال منهم ، مما دفعهم أحياناً الى التحالف مع المماليك • ولم يكن الايلخانيون مسلمين ، بل وثنيين اعتنقوا البوذية • وبمرور الزمن تمثلوا حضارة الشعوب المسلمة التي حكموها ، وأعلن أميرهم قازان ، الذي رقي العرش في عام ١٢٩٥،اعتناقه الاسلام ، على المذهب السني ، بتأثير وزيره الطبيب ركن الدين ، الذي كان يهودياً في الأصل ثم اعتنق الاسلام • وتلاه في ذلك بقية المغول ، وزالت الهوة بين الحاكم والمحكوم • ولكن المنافسة العرقية أخذت في الظهور بين الفرس والمغول ، فتحالف هؤلاء مع الاتراك العثمانيين الذين تربطهم بهم اللغة الواحدة•وبدأت الثورات على الايلخانيين ومحاولات الانفصال عنهم• وخرجت من سيطرتهم الاناضول وبلاد الكرج ، وتبعها العراق ، الذي ظهرت فيه في عام ٧٤٠/١٣٤٠ سلالة مغولية عرفت بالجلائرية،واستمرت في الحكم حتى عام ٨١٣/١٤١٠•وفي عام ١٣٥٣ زالت السلالة الايلخانية وتوزعت مناطقها سلالات متعددة •

ومما يجدر ذكره أن الايلخانيين أقاموا علاقات ناشطة دبلوماسية وتجارية مع أوروبا ، وخاصة البندقية ، لعدة أسباب منها أنهم قبل

---

١ ـ انظر ص ٣ •

اعتناقهم الاسلام ، بحثوا عن حلفاء ، حتى بين الصليبيين لمجابهة رعاياهم المسلمين ، ثم محاولتهم تطوير نشاطهم التجاري لمواجهة المنافسة التجارية المملوكية • وربما تفسر هذه الأسباب التسامح الديني الذي لمسه المسيحيون واليهود ، في بعض فترات الحكم الايلخاني ، اذ أعفي المسيحيون من الجزية ، وسمح لهم ببناء المدارس ، في عهد أرغون (١٢٨٤-١٢٩١) ، بفضل سعد الدولة ، وزير المال اليهودي لدى الايلخانيين ، والذي عين أخاه حاكماً على بغداد • ومع ذلك فقد حدثت فترات اضطهاد للمسيحيين واليهود ، في عهد حكام ايلخانيين آخرين •

وقد تابعت الحياة الفكرية نشاطها في عهد المغول • وظهرت في اللغة الفارسية مؤلفات هامة ، مثل كتاب جامع التواريخ للوزير رشيد الدين ، الذي خص قسماً منه بتاريخ أوروبا ، وهذه أول محاولة من نوعها في بلد اسلامي للكتابة عن (دار الحرب) • وظهر شعراء مشهورون مثل سعدي في شيراز (توفي عام ١٢٩١) ، والشاعر الصوفي المشهور جلال الدين الرومي (توفي عام ١٢٧٣) صاحب كتاب المثنوي •

وبانهيار امبراطورية الايلخانيين ، وظهور سلالات متنازعة في أعقابهم أفسح المجال ، في أواخر القرن الرابع عشر ، لظهور مغامر جديد بشخص أمير سمرقند ، تيمور (وربما اشتق الاسم من الكلمة التركية « تمور » وتعني الفولاذ) ، الذي عرف أيضاً بتيمورلنك (أي الأعرج ، لاصابته في الحرب) • وقد تمرد على أسياده حكام مغولستان في عام ١٣٦٩ ، وأعلن نفسه حاكماً مستقلا ، واتخذ لقب بك ، أي أمير • ثم بدأ بالتوسع ، فأخضع بلاد فارس والقفقاس ، ثم احتل العراق ، وطرد حكامه الجلائريين • وقد احتل بغداد مرتين : الاولى في عام ٧٩٢/١٣٩٢-١٣٩٣ ، حيث لم يصبها دمار كثير ، والثانية في عام ٨٠٣/١٤٠١ ، حيث قتل كثيراً من سكانها، وهدم عدداً من أوابدها ، وفي عام ١٤٠٥ استردها الجلائريون • واحتل تيمور أيضا خوارزم وشمالي الهند • وفي عام ١٤٠٠ احتل دمشق ، ثم

الأناضول ، وهزم العثمانيين في معركة أنقرة ، في عام ١٤٠٢ • وكان حكمه أقسى ما عرفته البلاد العربية فتكاً وتدميراً • وبموته في عام ١٤٠٣ انهارت امبراطوريته ، وعادت السلالات القديمة الى الحكم [١] ، ولكن أحفاده ، وأشهرهم شاه رخ (١٤٠٧ – ١٤٤٧) وأبو سعيد (١٤٠٢ – ١٤٦٩) ، استمروا في حكم بلاد فارس ، وسرعان ما جابههم أعداء جدد ممثلين بامارتين تركمانيتين : امارة الحمل الاسود (قره‌قيونلو) الشيعية ، وامارة الحمل الابيض (آق قيونلو) السنية [٢] •

منذ القرن الحادي عشر ، اندفعت قبائل تركمانية في أواسط آسيا ، بضغط المغول المتجهين غرباً ، نحو مناطق الثغور في آسيا الصغرى • ولعبت هذه القبائل دوراً هاماً في تكثيف العنصر البشري ، في مناطق الحدود البيزنطية ، وبالتالي في خرق هذه الحدود في أعقاب معركة ملاذكرد (منزيكرت) في عام ١٠٧١ [٣] • وحين سيطر العثمانيون على الأناضول هرعت القبائل التركمانية المنتشرة فيه الى مناطق الثغور الاولى ، حيث شكلت ، في حوالي منتصف القرن الرابع عشر ، عدة امارات أشهرها امارة ذي القدر ، وعاصمتها البستان ، واستمرت حتى عام ١٥٢٢ • وكانت امارة عازلة بين العثمانيين والمماليك ، ومارس كل فريق منهما نفوذه من خلالها • أما امارة الحمل الاسود فكانت منطقة نفوذها شمالي بحيرة

---

١ – انظر حول سيرته : محمد بن عربشاه ، عجائب المقدور في أخبار تيمور، القاهرة ١٣٠٥هـ •

٢ – انظر حول امارة البستان ما كتبه F. Taschner تحت عنوان Albistan في الموسوعة الاسلامية ، الطبعة الجديدة (*Encyclopaedia of Islam*, new edition)
وسترمز اليها : E. I.2

وتصدر هذه الموسوعة أيضا بالفرنسية ، ثم انظر : بلاد الشام ومصر ، ص ٤٤–٤٦ •

٣ – انظر B. Spuler, "The Disintegration of the Caliphate in the East", *The Cambridge History of Islam*, 2 Vols., edited by P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, see Vol. I, pp. 150 ff.

وانظر أيضاً ما كتبه الدكتور عبد العزيز الدوري في *E. I.2* تحت عنوان : Baghdad

وان ، ثم مدت سيطرتها في عام ١٣٧٥ ، على الموصل ، التي كانت تحت السيادة الجلائرية • وفي عام ١٤٤٠ احتلت بغداد من الجلائريين ، وبقيت تحكمها حتى عام ٨٧٢/١٤٦٧ • ولكنها لم تستطع الصمود في وجه قبيلة الحمل الأبيض ، التي تمركزت في منطقة ديار بكر ، وتحالفت مع تيمور • وفي عام ١٤٦٧ انتصر اوزون حسن (حسن الطويل) على آخر أمراء قبيلة الحمل الاسود ، وضم هذه الأمارة اليه ، ثم مد نفوذه على شمالي العراق وبغداد وجزء من بلاد فارس ، بعد أن هزم حاكم فارس التيموري آبا سعيد عند تبريز عام ١٤٦٩ • ولم يحاول اوزون حسن التوغل شرقي فارس ، بسبب تهديد العثمانيين له • ولمجابهة هؤلاء حاول التحالف مع البنادقة دون جدوى • وبوفاته في عام ١٤٧٨ تمزقت امارته بين أبنائه ، ولم تعد تشكل خطراً على العثمانيين ، أو التيموريين ، ولكنها بقيت تحكم بغداد حتى عام ١٥٠٨ ، حين سقطت تحت سيطرة الشاه اسماعيل الصفوي •

وقد اشتهر الصفويون في بلاد فارس ، في مطلع القرن السادس عشر • وكانوا في الأساس امارة تركمانية شيعية ، تنتسب الى صفي الدين ،المتوفى عام ١٣٣٤ ، وهو صاحب طريقة صوفية في اردبيل في أذربيجان • ويعتبر الشاه اسماعيل المؤسس الفعلي للدولة الصفوية ، فقد اعترف بزعامته على بلاد فارس ، اثر هزيمته لجيش امارة الحمل الأبيض ، في منطقة شرور في عام ١٥٠١ ، ودخل تبريز في أعقاب ذلك ، حيث أعلن نفسه الشاه اسماعيل الأول • وأتبع هذا باعلانه التشيع مذهباً رسمياً لدولته ، مما باعد بينه وبين العثمانيين ، ولكن ذلك أعطى لرعاياه ولبلاد فارس نوعاً من الهوية الدينية والسياسية افتقدتها قبلا ، ولازمتها منذ ذلك الحين ، كما استلزم القضاء بالقوة على المعارضة في الداخل والدخول في صراع مع العثمانيين حول زعامة العالم الاسلامي •

وخلال عشر سنوات من دخوله تبريز ، احتل الشاه اسماعل جميع بلاد فارس ، وضم العراق الى دولته الصفوية • ففي عام ١٥٠٣ هزم نهائياً

أمارة الحمل الأبيض ، وضم ديار بكر بين عامي ١٥٠٥ و ١٥٠٧ ، وافتتح بغداد والمناطق الجنوبية الغربية من فارس في عام ١٥٠٨ ، وتغلب على أمير البستان في عام ١٥٠٧ ، ودخل بذلك ميدان الصراع على النفوذ ، في منطقة الأناضول ، الى جانب العثمانيين والمماليك . وهزم في الشرق في عام ١٥١٠ محمد شيباني ، خان تركستان في معركة قرب مرو ، وأمن بذلك حدوده الشرقية [١] .

وقد احتل العثمانيون ، في أعقاب هزيمتهم للصفويين في جالديران عام ١٥١٤ [٢] ، منطقة ديار بكر ، ودخلوا الموصل عام ١٥١٦ ، ولكن بغداد والبصرة بقيتا تحت الحكم الصفوي . وفي العشرينات من القرن السادس عشر تمكن زعيم كردي يدعى ذو الفقار ، من احتلال بغداد واعلان الخطبة باسم السلطان سليمان القانوني . ولكن الشاه طهماسب الاول استعاد المدينة في ٩٣٦/١٥٣٠ ، وبقيت في أيدي الصفويين حتى عام ١٥٣٤ حين إحتلها العثمانيون .

ومما تجدر ملاحظته أن بغداد أصابها كثير من الانحطاط في عهد الاسر التركمانية ، بسبب ادارتها السيئة ، فهجرها عدد من سكانها . وأدى اهمال أقنية الري الى حدوث الفيضانات المتكررة . وتحسن الوضع بعض الشيء في عهد الدولة الصفوية فاستفادت بغداد من امتداد رقعة هذه الدولة ، ووصلها عدد من التجار الفرس ، مما نشط الحركة التجارية فيها . أما البصرة ، فقد حكمها الايلخانيون ، ولكنها قاست من سوء الادارة وفوضى الثورات . ووصف ابن بطوطة ، في حوالي منتصف القرن الرابع عشر ، حالة الدمار التي كانت عليها . واستمر وضعها سيئاً ، في عهد

---

١ ــ انظر : عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ٨ أجزاء ، بغداد ١٣٥٣ــ١٣٧٦/ ١٩٣٥ ــ ١٩٥٦ ، جـ ٣ ص ٣٢٥ ــ ٣٥٢ وانظر أيضا :

R. Savory, "Safavid Persia", *The Cambridge History of Islam*, Vol. I, pp. 394 ff.

٢ ــ انظر ص ٥٦ .

الجلائريين والسلالات التركمانية ، ولم يتحسن كثيراً في عهد الصفويين [1] .

شبه الجزيرة العربية

باستثناء اليمن والحجاز ، حيث قامت أنظمة سياسية موغلة في القدم، فان معظم أجزاء الجزيرة العربية ، خضعت لأمراء القبائل البدوية ، واستمر ذلك حتى بعد أن مد العثمانيون نفوذهم اليها • ومما يجدر ذكره أنه بسيطرة الخلفاء الامويين في الشام أخذ شأن الجزيرة العربية يتضاءل • وكان الامويون يعينون الحكام على مكة وعلى كثير من أنحاء الجزيرة ، بينما كان الخليج العربي تابعاً لحكام البصرة ، وأشهرهم في العهد الاموي الحجاج ويزيد بن المهلب • وتمتعت الجزيرة بفترة من الهدوء لم تشهده في الحقب السابقة ، وطور الامويون شبكات الري فيها ، وقضوا على ثورات الخوارج ، واحتفظوا بسيطرتهم عليها •

وادى قيام الخلافة العباسية في العراق الى زيادة الاهتمام بالخليج العربي ، وبتجارة المرور فيه ، مع الصين وافريقية الشرقية • واستمر العباسيون ، قرابة قرن ، يعينون الولاة على الحجاز واليمن والمناطق الشرقية من قبلهم • ورغم ثورات الأباضية الخوارج في عُمان ، ودوام أمارتهم قرابة أربعة قرون ، فقد بقيت السيطرة للعباسيين • وفي النصف الثاني من القرن التاسع ظهرت مراكز تحدي جديدة ضد العباسيين ، مثل اليعافرة في اليمن ، الذين اتخذوا صنعاء عاصمة لهم • وقامت ثورة علوية استقلت باليمامة ، واستمرت حتى مجيء القرامطة • ولكن الخطر الأكبر شأناً ، على الخلافة العباسية ، اتى من شرقي الجزيرة العُربية ، حين نقل الثائر علي بن محمد نشاطه الى العراق الجنوبي ، وأسهم في اثارة الزنج على الدولة •

---

١ ـ انظر : H. Longrigg, *E. I.*2, s. v. al-Basra .

ثـم ازداد شأن الجزيرة العربية بقيام ثورات القرامطة فيها ، وخاصة في البحرين ، حيث شكلوا نواة دولة ، منذ مطلع القرن العاشـر الميلادي ، وبقيام الدولة الفاطميـة في مصر ، في النصف الثـاني من القرن العاشر ، مدّت نفوذهـا عـلى اليمن والحجاز ، بما في ذلك مكة والمدينة • وحـاول الفاطميون ، الى جانب نشر دعوتهم ، توسيع نشاطهم الاقتصادي ، وعملوا على تحويل طرق التجارة من الخليج العربي الى البحر الاحمر ، وذلك لاخضاع العراق • واقتضاهم ذلك السيطرة عـلى جانبي البحر الاحمـر ، فوطدوا سلطتهم في اليمن ، وأرسلوا دعاتهم منهـا الى الهند • وفي عهـد صلاح الدين الأيوبي أرسل أخاه طورانشاه الى اليمن،فاحتلها عام ١١٧٣، وأعلن تبعيتها للأيوبيين ، الذين استمروا في حكمهـا قرابة نصف قـرن • وافاد وجودهم على شواطىء البحر الاحمر حمايتها من الصليبيين الـذين أرسلوا حملة بحرية اليه • ورغم احتلال الايوبيين حضرموت ، لم يتمكنوا من ضمها اليهم • وفي عهد آخر حكامهم في اليمن ، مدوا سيطرتهم ، في الربع الاول من القرن الثالث عشر ، على مكة ، واقاموا حاكما عليهامؤسس السلالة الرسولية ، وكان من الاشراف • وقد تمكنت هذه السلالة ، بعد زوال الحكـم الأيوبي ، من مـد سيطرتهـا عـلى تعـز وزبيد ، واستمرت تحكمهما حتى عام ١٤٤٦ • وحين احتلّ المغول بغداد ، وحاولوا التوسع غربا ، بقيت الجزيرة العربية بمنأى عن خطرهم • واتخذ الامير الرسولي لقب خليفة المسلمين ، ولكن امكاناته عجزت عن الاستمرار فيه •

ومع قيام السلطنة المملوكية ، فرض الظاهـر بيبرس سلطته الاسمية على مكة والمدينة ، ولكنه ترك تصريف شؤونهما بيد السلالة الرسولية • وكثيراً ما تدخل المماليك لفض المنازعات بين أفراد هذهالسلالة•وفي أواخر حكم هذه السلالة ، ظهر تنافس تجاري بينها وبين التجار المصريين ، في البحر الاحمر • وقد بعث الرسوليون البعثات الى الهند وسيلان والصين ، وطوروا ميناء عدن حتى اصبح من اكبر مراكز التجارة مع الشرق •

وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر ظهرت عدة مراكز للسلطة في الجزيرة العربية•ففي حين استمرت السلالة الرسولية في حكم مكة والمدينة ، فقد انحسرت سلطتها عن زبيد وعدن ، وخلفتها فيها السلالة الطاهرية • وظهر زعيم آخر هو مانع بن ربيع المريدي ، جد الاسرة السعودية ، الذي هاجر من منطقة القطيف باتجاه نجد ، واستقر في وادي حنيفة [1] • وفي النصف الأول من القرن السادس عشر حدثت تطورات سياسية في اليمن ، وتسلم الحكم اول الائمة الزيدية ، واتخذ صنعاء عاصمة لـه •

وكانت هناك سلطتان كبيرتان ، خارج الجزيرة ، تتنازعان النفوذ فيها ، منذ القرن الخامس عشر ، وهما السلطنة المملوكية ، التي مدت نفوذها على البحر الاحمر والاماكن المقدسة في الحجاز ، والدولة التيمورية في بلاد فارس ، وخاصة في عهد شاه رخ ، الذي طالب السلطان المملوكي برسباي بالسماح لـه بتقديم كسوة الى الكعبة ، « ولو كان ذلك ليوم واحد »[2] ، وقد رفض طلبه بحجة ان امتياز تقديم الكسوة يعود ، منذ القديم ، لحكام مصر ، الذين أقاموا أوقافاً خاصة لهذا الغرض • وطبيعي ان المماليك رفضوا اشراك التيموريين في الاشراف على الأماكن المقدسة ، كما فعل العثمانيون من بعد مع الحكام الصفويين ، ومع نادر شاه ، في القرن الثامن عشر ، بسبب الاهمية السياسية التي يعنيها الاشراف على الاماكن المقدسة ، وحماية قوافل الحجيج اليها ، وأيضا بسبب رغبتهم بالانفراد بالسيطرة على البحر الاحمر وموانيه • وحين حاول أشراف مكة من السلالة الرسولية استغلال النزاعات في صفوف المماليك ، وبين هؤلاء وحكام فارس لزيادة استقلالهم ، لم يتسامح المماليك بذلك ، بل أعادوا المتمردين الى الخضوع ، واقام برسباي حامية عسكرية مملوكية في مكة •

---

١ ـ انظر : Rentz, *E.I.²*, s.v Djazirat al-'Arab.

٢ ـ انظر : Spuler, "The Disintegration of the Caliphate in the East", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. I, p. 223.

وبالاضافة الى الأهمية السياسية للبحر الأحمر ، بالنسبة لمصر ، فان أهميته الاقتصادية لم تكن اقل شأنا • فقد اهتمت مصر بتجارة الشرق الاقصى ، مثل البهارات والعطور ، للاستهلاك المحلي وللتصدير ، وجنت من ذلك أرباحاً كبيرة•وطالب التجار ، أصحاب النفوذ الواسع ، السلطنة المملوكية بحماية مواصلاتهم البحرية والبرية • وعبثا حاول الايلخانيون، حكام بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، تحويل هذه التجارة الى منطقتهم ، وذلك بقطع طريق الهند عن مصر • ومما يذكر أن النشاط التجاري الصيني،في عهد الأباطرة من أسرة مينغ ، قد زاد اتساعاً ، منذ مطلع القرن الخامس عشر ، واصبح للمصالح التجارية نفوذ حتى في البلاط الصيني•وأرسل الصينيون أساطيلهم التجارية،في الفترة بين١٤٠٥-١٤٣٣ ، الى غربي الهند ، وشمل نشاطهم الخليج العربي واليمن • ولكن الاضطرابات الداخلية في اليمن حولت التجارة من عدن الى جدة ، مما أغرى المماليك بالسيطرة عليها وانتزاعها من أشراف مكة في عام ١٤٢٥ • ولم يتحرك المماليك لمجابهة الخطر الصيني في المحيط الهندي ، ولم يعودوا الى استئناف تجارتهم مع الهند الا بعد انحسار النشاط الصيني في عام١٤٣٣• واستمر المحيط الهندي هادئا حتى أواخر القرن الخامس عشر ، عندما ظهر الخطر البرتغالي[١] •

وقد تعرضت أطراف الجزيرة العربية ، والمواني الهامة فيها ، الى الخطر البرتغالي منذ أن وصل فاسكو دا غاما الى الهند ، عن طريق رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٨ ، وكان دليله بحار عربي يرجح انه احمد بن ماجد النجدي•وسرعان ما ظهرت المراكب البرتغالية في البحر الاحمر• وفي عام ٩١١/١٥٠٥ احتل البرتغاليون جزيرة سوقطرة ، في خليج عدن ، وتسربت مراكبهم الى منطقة جدة ، وهزموا الاسطول المملوكي في البحر الاحمر في عام ١٥٠٩ ، ولجأ السلطان المملوكي الى العثمانيين يطلب

---

١ ـ انظر : Andrew Hess, "The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning of the Sixteenth-Century World War", *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 4 (Jan. 1973), No. I, pp. 57-58.

دعمهم [1] • وظهر البرتغاليون في منطقة عُمان والخليج العربي ، وأقاموا قاعدة تجارية في هرمز ، التي تسيطر علـى الخليج ، واستمروا فيها من ١٥٠٧ الى ١٦٢٢ ، وهددوا بذلك التجارة العربية في المحيط الهنـدي ، وبالتدريج احتكروا التجارة فيه •

المغرب العربي(٢)

قاسى المغرب العربي ، منذ مطلع القرن العاشر الميلادي ، من ثورات استمرت حتى حوالي منتصف القرن التالي•وبدأ هذه الثورات الفاطميون، الذين وجدوا في المغرب مكانا مناسبا لتحقيق طموحهم السياسي في الوصول الى الخلافة ، بعد أن حال العباسيون دون ظهورهم في المشرق • وفي عـام ٩١٠ أعلن مؤسس السلالـة الفاطمية ، عبيد الله المهـدي ، نفسه خليفة في القيروان ، التي احتلهـا من الأغالبة • وبقي هـدف الفاطميين الانتقال الى المشرق ، ونجحوا في احتـلال مصر ، وبنوا القاهرة في ٩٦٩ ، وجعلوها عاصمتهم في ٩٧٣ ، وأقاموا حلفاءهم الزيريين الشيعة ، من قبائل صنهاجة البربر ، حكاما من قبلهم على المغرب •

وفي عام ١٠٤٧ او ١٠٤٩ رفض الزيريون السيادة الفاطمية ، واعلنوا ولاءهـم للعباسيين ، وذلك ارضاءً للرأي العـام السني • ولـم يكن بامكان الفاطميين اللجوء الى القوة لاخضاع الزيريين فشجعوا عددا من القبائل البدوية ، المقيمة قرب وادي النيل ، وكانت بزعامة بني هلال ، على الهجرة الى المغرب (ومن هنا ما عُرف بتغريبة بني هلال) ، وتخلص الفاطميون بذلك من اعتداء هذه القبائل على الريف المصري • وفي عام ١٠٥٢ هزمت هـذه القبائل الزيريين • ولاقى النجاح الذي أحرزته شعبية لدى قبائـل

---

١ ـ انظـر : Halil Inalcik, "The Rise of the Ottoman Empire", *The Cambridge History of Islam*, Vol. I, p. 317.

٢ ـ تعبير جغرافي أطلقه عرب المشرق على المنطقة الى الغرب من مصر ، وتضم تونس والجزائر ومراكش • أما منطقة ليبيا اليوم فكان قسمها الشرقي : برقة ، عادة تحت نفوذ مصر ، وقسمها الغربي : طرابلس تحت نفوذ دول المغرب المختلفة •

أخرى في مصر والجزيرة العربية فهاجرت هي الأخرى الى المغرب • وقد رأى ابن خلدون ، في القرن الرابع عشر ، في هذه الهجمات البدوية مصدر اضطراب وفوضى ، ولكنها أفادت في نشر اللغة العربية بين البربر ، وخاصة خارج المدن[1] •

وفي حوالي منتصف القرن الحادي عشر حدثت غزوة بدوية اخرى قام بها البرابرة سكان الصحراء الغربية ، فاجتازوا جبال الأطلس ، واستولوا على المغرب الاقصى ، واسسوا ما عرف بدولة المرابطين (نسبة الى رباط ، وهو مركز صوفي ـ عسكري)، وجعلوا مراكش عاصمة لهم• واحتل أشهر زعمائهم ، يوسف بن تاشفين ، مدينة تلمسان ، ثم توسع في الأندلس ، لانقاذ أهلها ، كما ذكر • وهزم قوات قشتالة في معركة الزلاقة في ٢٣ تشرين الاول ١٠٨٦ • وأعجبت مراكز الحضارة الأندلسية المرابطين فانقلبوا الى حكام مدن ، على نقيض بني هلال ، الذين استمروا على حياة البداوة •

وحدثت انتفاضة قبلية بربرية اخرى ، في منطقة جبال الاطلس ، قادها الموحدون ، بزعامة ابن تومرت ، احتجاجا على حياة الترف لدى المرابطين ، وظهرت اهدافهم في تسميتهم ، بدعوتهم الى التوحيد ، اعتقادا منهم أن المرابطين قد أساؤا الى وحدانية الله•وفي عام ١١٤٥ هزم الموحدون المرابطين،واستولوا على المغرب بكامله فيعام ١١٦٠ ، وتوغلوا في الاندلس، واستولوا على مناطق جديدة لم يبلغها المرابطون • ونشطت الحضارة العربية ، وخاصة العمران ، في ظل الاستقرار والازدهار اللذان سادا في عهد الموحدين • وحين كان المشرق العربي يتمزق في أعقاب وفاة صلاح الدين ، كان المغرب العربي يزداد قوة وحضارة في عهد الموحدين •

ولكن المجتمع في دولة الموحدين اعوزه التجانس ، وتعالى الموحدون

---

١ ـ انظر : Roger Le Tourneau, "North Africa to the Sixteenth Century", *The Cambridge History of Islam*, Vol. II, pp. 217-221, 237.

على اتباعهم ، من بربر وأندلسيين ، وجعلوهم أدنى مرتبة منهم•وبالتدريج فقدت الطبقة الحاكمة نشاطها وقوتها الاولى ، وتدنت نوعية الخلفاء الموحدين ، وانتهى حكمهم في عام ١٢٧٥ [١] • ولم يسبق أن توحد المغرب في ظل اية دولة ، بما في ذلك الامبراطورية الرومانية ، كما حدث في عهدهم •

وانقسم المغرب ، بعد الموحدين ، الى ثلاثة ممالك : الحفصيون في تونس ، التي عرفها العرب باسم افريقية ، وبنو عبد الواد ، وتمثلهم الاسرة الزيانية،في منطقة تلمسان ، في المغرب الأوسط ، والمرينيون في مراكش ، في المغرب الأقصى•وأخذت كل مملكة تحاول التوسع على حساب الاخرى• ومنذ البداية فرض الحفصيون نفوذهم على الممالك الاخرى ، وادعوا الخلافة ، اثر احتلال المغول بغداد في ١٢٥٨ ، وتنقلت عاصمتهم ، في البدء بين القيروان والمهدية ، ثم استقرت في تونس ، التي ازدهرت كثيرا في عهدهم • وفي عام ١٢٨٤ انقسم الحفصيون على أنفسهم ، في أعقاب هزيمتهم أمام الحملة الصليبية التي نظمها لويس التاسع ملك فرانسا على شمال افريقية في عام ١٢٧٠ ، وانتقل زمام المبادرة السياسية الى المرينيين•ورغم استعادة الحفصيين لكثير من قوتهم ، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ومعظم القرن الخامس عشر ، فقد نشبت من جديد النزاعات الاسرية بينهم مما أفسح المجال للأسبان والعثمانيين للتدخل في تونس •

أما الملكية الزيانية في تلمسان [٢] ، فكانت تصارع للبقاء أمام منافسة قوية من المرينيين ، الذين احتلوها لفترات طويلة في القرن الرابع عشر ، ومن الحفصيين ، الذين سيطروا عليها في القرن الخامس عشر • وتعرضت

---

١ ـ انظر : Ch.-André Julien, *Histoire de L'Afrique du Nord*, Paris, 1952, pp. 76-131; Jamil M. Abun-Nasr, *A History of the Maghrib*, Cambridge, 1971, pp. 92-118.

٢ ـ انظر حول هذه الدولة ، وتاريخ المنطقة بصورة عامة : الدكتور محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، دمشق ١٩٦٩ ، ٧ـ١٢ •

كذلك لخطر البدو في منطقة وهران • ورغم هذه الأخطار ، فقد استمرت حتى حوالي منتصف القرن السادس عشر ، حين احتلها العثمانيون •

ولـم يستطع المرينيون توطيد سلطتهم في جميع بلاد مراكش حتى النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، وازدهر حكمهم في القرن التالي • ورغم أنهم حكموا حتى عـام ١٤٦٥ ، فقد قاسوا لمـدة قرن قبل ذلك من الصراع بين الاسر الكبرى والقبائل البدوية على النفوذ ، ومن تدخل حكام غرناطـة المسلمين وملوك قشتالة وأراغـون المسيحيين ، وكـذلك الزيانيين والحفصيين في شؤونهم • وفي عام ١٤٢٠ حكمت باسمهم الاسرة الوطاسية التي تمت اليهم بالقرابة • ومما يذكـر عن حكم المرينيين تبنيهم المذهب المالكي ، وبنائهم المدارس • واشتهرت في عهدهم جامعة فاس ، وهدفهم من ذلك مقاومة الحركات الصوفية التي انتشرت في الريف منذ أواخر عهد الموحدين ، ولكنهم توصلوا بالنتيجة الى صيغة توفق بين الشريعة الاسلامية ، كما تبناها علماء فاس ، والتعاليم الصوفية التي انتشرت بـين الجماهير [١] •

ولعل أهم ظاهرة ميزت تاريخ المغرب ، في القرن الخامس عشر ، تعرضه للغزو الأوربي • ويذكر أن التجار الاوربيين ، ومعظمهم من الايطاليين ، ظهروا في افريقية الشمالية ، منذ أواخر القرن الحادي عشر • وفي القرن التالي ، حاول نورمانديو صقلية ، في عهد روجر الثاني ، فرض نفوذهم السياسي والعسكري والاقتصادي عـلى افريقية الشمالية ، ولكنهم اصطدموا بمعارضة الموحدين القوية ، وهم في بـدء حكمهم • وما ان وطد الموحدون سلطتهم حتى أتاحوا المجـال للتجار الاوربيين للعمل في بلادهـم • وبلغ الامر ان الخلفـاء الموحدين ، في مطلـع القرن الثالث عشر ، استخدموا مرتزقة أوربيين ، من الأسبانيين ، في الجيش ، في الوقت الذي أخذ يزداد فيه النفوذ التبشيري الفرنسيسكاني في افريقية الشمالية • وبزوال حكـم الموحدين ، في أواخر القرن الثالث عشر ، ظهـر ، الى جـانب التجـار

---

١ ـ انظر : Le Tourneau, "North Africa to the Sixteenth Century", *The Camb. Hist. of Islam,* Vol. I, pp. 222-223; Julien, pp. 132-193; Abun-Nasr, pp. 119-158.

والمرتزقة والمبشرين الاوربيين ، حملات عسكرية أوربية هدفها السيطرة على سواحل المغرب لخدمة الأغراض التجارية بالدرجة الأولى [1] .

ولمعرفة هوية هذه الحملات العسكرية الاوربية يجدر بنا التعرف على التطورات التي طرأت على ميزان القوى في البحر الابيض المتوسط . فقد لعبت دويلات المدن الايطالية ، وخاصة جنوه والبندقية ، دورا هاما في تجارة منطقة المتوسط الشرقية ، منذ فترة الحروب الصليبية ، مستفيدة من انحطاط بيزنطة وتمزق القوى الحاكمة في المشرق العربي ، ولكن هذه الدويلات ، بسبب صغر حجمها ، وطبيعة المصالح التجارية لطبقاتها الحاكمة ، والمدى الجغرافي المحدود لنشاطاتها الاقتصادية ، والتنافس فيما بينها ، نجحت فقط في انشاء امبراطوريات استعمارية صغيرة على شواطىء المتوسط والبحر الأسود . ونظراً لأن قوة هذه الدويلات لم تقم على اساطيل كبيرة ، أو جيوش برية ضخمة ، وانما على مرونة سياسية ، وتفوق تكنولوجي بحري ، ونجاح تجاري ، فقد اهتم امراؤها التجار باقامة المراكز التجارية المحصنة في النقاط الاستراتيجية ، على خطوط المواصلات الرئيسية في المشرق ، للسيطرة على التجارة بين أوروبا والشرق . وفي منتصف القرن الخامس عشر كسبت البندقية المنافسة في التجارة الشرقية. ولكن تحديا من طرف آخر كان بانتظارها ، ففي عام ١٤١٥ استولى البرتغاليون على سبتة ، في شمالي افريقية ، في محاولة للسيطرة على الساحل الافريقي الشمالي . وبدأوا بنقل الذهب والمنتجات من افريقية السوداء بحرا الى لشبونة ، ونافسوا بذلك طرق القوافل المارة بمصر . وهدف البرتغاليون من هذا التوسع الافريقي الحلول محل البنادقة كموزعين رئيسيين للمنتجات الآسيوية والافريقية . وأرسل البرتغاليون الجواسيس الى رودس ومصر والبحر الأحمر وعدن لدراسة الوضع التجاري . وعندما سار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح كانوا عالمين بأهمية المنطقة

---

١ ـ أنظر : Le Tourneau, "North Africa to the Sixteenth Century", *The Camb. Hist. of Islam,* Vol. I, pp. 235-236.

العربية ، وعمدوا فورا الى عرقلة التجارة بين الهند ومصر ، والى التحالف مع الصفويين والأحباش ضد حكام مصر • وفي مطلع القرن السادس عشر أقام البرتغاليون على الساحل الاطلسي لمراكش ، بين طنجة واغادير ، مجموعات من المراكز التجارية ، للمتاجرة مع الداخل من ناحية ،ولحماية وتموين الخطوط البحرية من ناحية اخرى •

وفي اسبانيا حاولت دولة أراغون ، قبيل القضاء على آخر دويلات العرب في الاندلس بقليل ، في عام ١٤٩٢ ، التسلل الى المتوسط ، فأرسلت قراصنة كتالونيا ضد سواحل مصر وبلاد الشام ، وحاولت اقامة تحالف مع الأحباش•وفي أعقاب أتحاد قشتالة وأراغون ، وهزيمة العرب في ١٤٩٢ ازداد نشاط الاسبان في المتوسط ، فاحتلوا مليلة في المغرب الاقصى في عام ١٤٩٧ ، كما احتلوا وهران في عام ١٥٠٩ ، وعقدت مدينة الجزائر معهم هدنة في العام التالي ، ولجأ سكانها الى طلب المساعدة من القرصان التركي عروج • وفي تموز ١٥١٠ احتل الاسبان طرابلس [1] • ولكن الحرب بين الاسبان وفرنسا في عام ١٥١١ ، ووفاة فرديناند ملك أراغون،وقيام مشاكل الوراثة لدى شارل الخامس (شارلكان) الهابسبورغي ، حوّل اهتمام اسبانيا الى وسط القارة الأوربية ، وتوقف اهتمامها بمصر • وصادف في هذه الأثناء ، انشغال الاسبان بأمريكا ، فتحولوا من شمال افريقية اليها،واحتلوا المكسيك في عام ١٥١٩ ، والقيت مسؤلية مقاومة العثمانيين في اوروبا على امبراطورية آل هابسبورغ ، بزعامة شارل الخامس • وقبل أن يتحول شارل الخامس ، كما خطط ، الى فتح صقلية وشمال افريقية ، فوجيء بالاحتلال العثماني لمصر وبتوسع العثمانيين في شمال افريقية وفي أوروبا [2] •

السودان

أطلق الجغرافيون العرب ، في العصور الوسطى ، اسم بلاد السودان على المنطقة الممتدة جنوبي الصحراء الكبرى ، من البحر الأحمر حتى الأطلسي • أما تعبير السودان بامتداده اليوم ، فقد نشأ في

---

١ ــ انظر تفاصيل التوسع الاسباني في شمال افريقية في : Abun-Nasr, 161-2

٢ ــ انظر : Hess, 59 - 61

القرن التاسع عشر ليدل على المنطقة التي احتلها محمد علي باشا وخلفاؤه جنوبي مصر • وتمتد بلاد النوبا ، التي تشكل الجزء الأساسي من السودان وكانت مقر أقدم حضارة فيه ، بين الشلال الأول والشلال السادس ، شمالي نقطة التقاء النيل الأزرق بالأبيض ، وكانت تضم عدة قبائل • وقبل الفتح العربي لمصر ، بمدة قرن ، أصبحت النوبا مسيحية ، على أيدي مبشرين من مصر •

ولم يحرز والي مصر العربي ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، في حملته على بلاد النوبا ، ومحاصرته عاصمتها دنقلة ، أي نصر حاسم ، فعقد هدنة مع حكامها ، وتراجع الى مصر•ولم تقم محاولات أخرى في مصر لفتح النوبا لعدة قرون • وفي عام **١١٧٢** قاد طوران شاه ، شقيق صلاح الدين الأيوبي ، حملة تأديبية الى النوبا السفلى ، ولكنها لم تحقق نتائج دائمة • وجردت السلطنة المملوكية عدة حملات على النوبا ، ورغم أنها نجحت في اضعاف حكامها الا أنها لم تستطع ضمها الى مصر • ولكن القبائل العربية ، جنوبي مصر ، نجحت ، حيث عجزت الحملات العسكرية ، في التسرب التدريجي الى النوبا والتزاوج مع سكانها ، ونشرت فيها الدين الاسلامي واللغة العربية ، وأدى ذلك في القرن الرابع عشر الى انهيار المملكة النوبية المسيحية •

وتقسم بلاد النوبا الى قسمين : نوبا السفلى ، ودعاها العثمانيون بربرستان (بلاد البربر) ، وتمتد من الشلال الاول الى الشلال الثالث ، ونوبا العليا ، وراء الشلال الثالث ، وكانت تحت سلطة حكام سنار من الفنج• وتقع شرقي النوبا ، في تلال البحر الاحمر ، قبائل البجا ، وهي من عرق متميز ، ولم تكن نوبية ، أو سوداء اللون ، ويقابلها على البحر الاحمر كل من مينائي سواكن ومصوع ، اللذين احتلهما العثمانيون • وقد أعاقت منطقة البجا امتداد النفوذ العثماني الى الداخل •

وهناك اختلاف بارز بين القسمين الشمالي والجنوبي في السودان ،

فالشمال عربي اللغة بصورة غالبة ، ومعظم سكانه من المسلمين • وتتألف الأقلية المسيحية فيه من أبناء المهاجرين من مصر ولبنان في القرن التاسع عشر • أما القسم الجنوبي فيضم خليطاً من القبائل واللغات ، ويسود فيه المسيحيون •

وقبل الاحتلال العثماني لبعض مناطق السودان سادت فترة مظلمة في تاريخه بدأت منذ أواخر القرن الرابع عشر ، واستمرت حتى مطلع القرن السادس عشر ، حين بدأت تظهر تكتلات سياسية جديدة • وقد برز الفنج في سنار ، فوطدوا سيطرتهم في منطقة الجزيرة ، بين النيل الأزرق والنيل الأبيض ، على المجرى الرئيسي للنيل • ولكن النوبا السفلى بقيت خارج منطقة نفوذهم [1] مما أتاح للعثمانيين بسط نفوذهم عليها ، بواسطة ازدمر باشا •

قيام الامبراطورية العثمانية

يعتبر قيام سلطنة السلاجقة في بلاد فارس والعراق والأناضول ، في القرن الحادي عشر ، ثم توسعها ، بعد ذلك ، في بلاد الشام ، نقطة تحول في تاريخ المنطقة العربية ، وتاريخ الشرق الأدنى ، بوجه عام • فلأول مرة سيطر الأتراك على معظم الشرق العربي ، وفرضوا نفوذهم على الخلافة العباسية • ولئن فشلوا في تتريك البلاد العربية ، فقد نجحوا ، وخاصة في العهد العثماني ، في تتريك الأناضول • والسؤال الذي يطرح : من هم هؤلاء العثمانيون ، وكيف أنشأوا امبراطورية كبرى احتلت معظم البلاد العربية ؟•

وضعت أكثر من رواية حول أصل العثمانيين وقيام أول أمارة لهم ، بعضها من الجانب العثماني ، وبعضها من الجانب العربي • واختلط الخيال

---

١ ــ حول هذه الفترة المبكرة من تاريخ السودان ، انظر :

P. M. Holt, *A Modern History of the Sudan*, London, 1961, pp. 3-19, "The Nilotic Sudan ", The *Cambridge History of Islam*, Vol. I, pp. 327-330.

بالواقع الى حد حجب معه كثيراً من الحقائق الأساسية • والرواية الأكثر شيوعاً هي التي تبناها العثمانيون رسمياً ، في القرن الخامس عشر ، بعد أن أصبحوا ، في الواقع ، وباعتراف الدول الاخرى ، امبراطورية كبرى • وتنسب هذه الرواية أصل العثمانيين الى سليمان ، جد عثمان ، الذي ينتهي نسبه الى نوح ، عن طريق الغز أو الأغز • وكان سليمان حاكم ماهان ، في بلاد مرو ، وهرب منها ، مع قبيلته التركية ، بضغط المغول ، نحو بلاد الروم [1] فغرق في الفرات ، وأسس أحفاده الأمارة التركية •

ويلاحظ أن العثمانيين ، في هذه الرواية الرسمية ، التي وضعت بعد احتلالهم القسطنطينية في عام ١٤٥٣ ، قد حاولوا ربط حاضرهم المجيد بماض تليد ، فاستعاروا اسم سليمان بن قتلمش السلجوقي ، الذي أرسله أقرباؤه سلاجقة بغداد ، في الربع الأخير من القرن الحادي عشر ، الى الأناضول لتنظيم القبائل التركمانية الغازية فيه،وللتخلص أيضاً من مؤامراته عليهم في بغداد • ويبدو أن جعل سليمان ، في الرواية ، حاكماً على ماهان هدفه ربط اسمه باسم أبي مسلم الخراساني ، الذي ولد فيها ، كما أن انحدار العثمانيين من الغز ، أو الأغز ، وفق الرواية ، يقصد منه نسبة العثمانيين الى هؤلاء الأقوام الأتراك ، الذين عرفوا بشدة البأس [2] •

وليس غريباً أن ينحت نسب ، أو يزوّر أصل ، من قبل سلالة أو حتى فرد ، تبريراً لواقع مشرق ، ولكن المهم التساؤل هل تستطيع قبيلة هائمة ، يعوزها الاستقرار ومقومات الحضارة ، انشاء دولة بمثل هذه البساطة ، أم أن هناك شروطاً أخرى أتاح توافرها للعثمانيين انشاء دولتهم ؟

---

١ ـ تعبير أطلقه العرب على الأناضول ، نسبة الى سكانه البيزنطيين ، أصحاب مذهب الروم الأرثوذكس ، وكان للتعبير آنذاك مفهوم ديني ـ سياسي ـ جغرافي • وبزوال الحكم البيزنطي من الاناضول ، استمر استعمال تعبير روم ، بمعناه الجغرافي ، وأطلق على السلاجقة ، الذين شكلوا امارة في قونية ، فعرفوا بسلاجقة الروم ، وأطلق كذلك على العثمانيين الذين حلوا محلهم •

٢ ـ انظر مناقشة البروفسور P. Wittck للرواية العثمانية ورفضه لها في كتابه :
The Rise of The Ottoman Empire, London, 1938, pp. 6-15.

ان هـرب قبيلة عثمان ، بفعل ضغط المغول ، في القرن الحادي عشر ، كان جزءاً من ظاهرة عامة شملت قبائل تركمانية أخرى ، لجأت ، هرباً من المغول وخوفاً من السكن قرب مراكز السلطة ، الى مناطق الثغور المشهورة عند طوروس والفرات ، التي فصلت بين البيزنطيين والعرب ، منذ احتلال هؤلاء لبلاد الشام • وقد دب نشاط كبير في مناطق الثغور ، في أعقاب هـذا التدفق السكاني ، وازداد ضغط الغزاة على الطرف البيزنطي ، الذي كان يعاني آنذاك من ضعف كبير ، مرده العداء الاجتماعي بين طبقة الفلاحـين وطبقة الاقطاعيين التي تستغلهـا ، وكذلك العداء القومي بـين الأقليات ، وخاصة الأرمنية منها ، في منطقة طوروس ـ كيليكية ، والسلطة البيزنطية التي حاولت فرض مركـزية شديدة عليهـا • واستولى الغزاة عـلى مدينة أرضـروم في عـام ١٠٤٨ ، وقارص في ١٠٥٤ ، ومـلاطية في ١٠٥٧ ، وسيواس في ١٠٥٩ ، وقونية وعمورية في ١٠٦٨ • [١] وقـد تمتع الغـزاة المسلمون بحمايـة السلطان السلجوقـي في بغداد ألب أرسلان ، ولهـذا هب الامبراطـور البيزنطي رومان الرابـع ديوجـين للدفاع عـن ثغوره ، واصطدم الطرفـان في موقعة ملاذكـرد (منزيكـرت) ، في عـام ١٠٧١ ، وهزم البيزنطيون ، وأسر امبراطورهم • ولكن ألب ارسلان لم يتابع تقدمه، بل أطلق سراح الامبراطور ، وانكفأ عائداً الى بغداد،لأن هدفه الأول انتزاع بلاد الشام ومصر من الخلفاء الفاطميين الذين استولوا على الشام [٢] •

أدى اختراق الحدود البيزنطية الى اندفـاع الغزاة في الأناضول ، في وجـه مقاومة ضعيفة ، وأسسوا اول أمـارة لهم ، عرفت بامارة الدانشماند (نسبة الى زعيـم مـن بينهم عرف بلقبه الفارسي ، دانشماند ، أي الرجل العالم) ، في منطقة سيواس • واهتم سلاجقة بغداد بتنظيم أمر هذه القبائل

١ ـ انظر حول التوسع التركماني في الأناضول :

Osman Turan, "Anatolia in the period of the Seljuks and the Beyliks", *The Cambridge History of Islam*, Vol. I, pp. 231-233; Claude Cahen, *Pre-Ottoman Turkey*, London, 1968, pp. 66-72.

٢ ـ انظر حول موقعة ملاذكرد :

Claude Cahen, "La Campagne de Mantzikert d'après les sources Musulmans", *Byzantion*, t. IX (1934), pp. 624-638.

فأرسلوا سليمان بن قتلمش الى الأناضول ، و تمكن من انشاء سلطنة سلاجقة الروم ، في عام ١٠٧٥ ، واتخذ قونية عاصمة لها . واصطدم ابنه قليج أرسلان ، الذي خلفه ، بالحملة الصليبية الاولى التي هاجمت منطقته وكبدته خسائر كبيرة في عام ١٠٩٧ ، ولكنه صدها في معارك لاحقة . ثم عقد اتفاقاً مع الامبراطور البيزنطي ضد الصليبيين ، ومكنه ذلك من التحول للاهتمام بشرقي الأناضول ، حيث سيطرت أمارة الدانشماند ، التي مثلت الغزاة ، وبالتالي عدم الاستقرار . وبعد فترة طويلة من العلاقات العدائية معها [1] ، قضى سلاجقة الروم عليها في عام ١١٨٠ . وهرع الغزاة الى الثغور الجديدة ، في المناطق المرتفعة ، في القسم الغربي من الاناضول، التي تفصل المناطق البيزنطية عن مناطق سلطنة سلاجقة الروم .

ونشأت علاقات حسنة بين سلاجقة الروم والبيزنطيين ، لعدة أسباب منها انشغال كل من الفريقين بالخلافات الداخلية ، مما أدى الى استعانة كل جانب بفريق من الجانب الآخر ، كما حدث حين التجأ سلطان سلاجقة الروم ، كيخسرو الأول ، الى القسطنطنية ، في مطلع القرن الثالث عشر ، ومنها أيضاً زوال امارة الدانشماند ، التي كانت تثير التوتر بين الفريقين . ولعل أهم الأسباب احتلال الحملة الصليبية الرابعة للقسطنطينية في عام ١٢٠٤ ، مما اضطر البيزنطيين الى نقل مركز امبراطوريتهم الى مدينة نيقية . وخشي سلاجقة الروم خطر الصليبيين فعمدوا الى دعم البيزنطيين واقناع الغزاة بتحويل هجماتهم عنهم الى مناطق أخرى ، مثل امارة أرمينية الصغرى ، التي قامت في منطقة طوروس ـ كيليكية ، وولاية طرابزون المسيحية .

وباقتراب المغول من الأناضول في النصف الاول من القرن الثالث عشر، تدفقت قبائل تركمانية عديدة ، هرباً منهم ، الى مناطق الثغور الجديدة في

---

١ ـ انظر حول ذلك :

Cl. Cahen, *Pre-Ottoman Turkey*, pp. 72-107.
Turan, "Anatolia in the period of the Seljuks and the Beyliks", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. I, pp. 238-243;

الأناضول ، فزادت من قدرة الغزاة ، ولكنها أوجدت في الوقت ذاته أزمات اجتماعية ودينية بينهم ، أدت ، في عام ١٢٣٩ ، الى قيام ثورة بين التركمان في الأناضول بقيادة بابا اسحق (تعني كلمة بابا واعظاً تركمانيا شعبيا) ، وعرف أيضاً بلقب بابا رسول (بسبب ادعائه النبوة) ، والتف من حوله التركمان الفقراء • فدعاهم الى الثورة على الادارة السلجوقية الفاسدة ، وهزم أتباعه القوات السلجوقية ، واحتلوا ألبستان وملاطية وسيواس • ثم تمكن السلاجقة من قتل بابا اسحق والقضاء على حركته في ١٢٤٠ (١)• ومع ذلك ، فقد أضعفت هـذه الحركة حكمهم ، وزادت من تأزم العلاقات بينهم وبين الغزاة ، فامتنع هؤلاء عن مساعدتهم حين هاجمتهم قوات المغول في عـام ١٢٤٣ ، وهزمتهم رغـم دعـم البيزنطيين لهم • وخضع سلاطين سلاجقة قونية للمغول • وقـد أدى ذلك الى زوال سلطتهم عـلى الغزاة فاندفعوا في غزوهـم دون رقيب • واشتد ذلك في أعقاب تدفق القبائـل التركمانية ، من تركستان الى الأناضول ، هاربة من المغول ، وكذلك اثر عودة الامبراطورية البيزنطية الى القسطنطينية في عام ١٢٦١ ، واهتمامهـا بالجبهـة الأوربية ومخاطرهـا • وانطلق الغزاة في آسيا الصغرى ، وشكلوا فيها ، في النصف الثانـي من القرن الثالث عشر ، عـدة امارات غـزاة بيليكية (Beyliks ، نسبة الى أميرهـا الملقب Bey ، بك) ، من بينهـا امـارة عثمان • وتـمّ بذلك تتريك الأناضول • (٢) أمـا سلطنة سلاجقة الروم فقد حاولت الاستعانة بالمماليك ، وزار السلطان المملوكي بيبرس ، في عام ١٢٧٦ ، الاناضول ، ولكن خوف السلاجقة من المغول حال دون تعاونهم الوثيق مـع المماليك • ثـم احتل الايلخانيون ، حكام بلاد فارس ،

---

١ ـ انظر :
Turan, "Anatolia in the period of the Seljuks and the Beyliks", *The Camb. Hist. of Islam,* Vol. I, pp. 248-249.
Cl. Cahen, *Pre-Ottoman Turkey,* pp. 119-138.

٢ ـ انظر حول التطورات السابقة :
Wittek, *The Rise of the Ottoman Empire,* pp. 19-32,
"Le Sultan de Rum", *Annuaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire Orientales et Slaves, Mélanges Emille Boisacq,* VI (1938), pp. 363-368, "Deux Chapitres de l'Histoire des Turcs de Roum", *Byzantion,* t. XI (1936), pp. 295-301·

الاناضول ، وقتلوا السلطان السلجوقي سليمان ، في عام ١٢٧٧ • ورغم استمرار سلاجقة الروم حتى عام ١٣٠٨ ، فقد أصبحت الادارة بيد المغول ، وتلاشت الادارة السلجوقية •[1]

توزعت امارات الغزاة في الاناضول في ثلاث مناطق : الاولى في الجنوب حول أنطاليا ، في كيليكية ، وهي موجهة ضد أرمينية الصغرى وجزيرتي رودس وقبرص ، وشملت امارة كرمان ، التي حلت محل سلاجقة الروم ، وكانت أهم امارات الغزاة ، وكذلك امارات تكه ومنتشه وآيدين ، ومارست هذه الاخيرة نشاطها بحراً • والمنطقة الثانية في الغرب ، على حدود الامبراطورية البيزنطية ، بين قسطموني شمالا ودنيزلي (Denizli) جنوباً ، مروراً بكوتاهية ، وتشمل امارتي صاروخان وقره صى ، شمالي آيدين ، وامارة جرميان ، في منطقة كوتاهية ، وتلي كرمان في الاهمية ، وامارة عثمان • وتقع المنطقة الثالثة في الشمال ، على سواحل البحر الاسود مقابل امبراطورية طرابزون ، التي يحكمها فرع من البيزنطيين ، وتضم امارتي سينوب وجندر • وقد اعترفت هذه الامارات بسيادة السلاجقة ، ثم الايلخانيين ، ولكنها كانت مستقلة في الواقع •[2] ومع أن تقسيم الاناضول بين هذه الامارات كان مضعفاً له ومدعاة لتدخل أوروبا ، الا أن هذه الأخيرة كانت منشغلة بحروب المائة عام (١٣٣٧ ــ ١٤٥٣) ، كما أن سيطرة امارة عثمان واشتداد قوتها حال دون تدخل أوروبا •

بقيت امارات الغزاة ناشطة ما دام الغزو براً وبحراً متوفراً لها ، وكلما توقف الغزو في امارة انتقل غزاتها الى امارة أخرى ، حيث توافر ذلك • وقد استمرت امارة كرمان بعض الوقت ، لاستمرار الغزو فيها ضد

---

١ ــ انظر :

Turan, "Anatolia in the period of the Seljuks and the Beyliks", *The Camb. Hist. of Islam*, pp. 249-250.

٢ ــ انظر حول امارات الغزاة :

Ibid., pp. 251-253; Halil Inalcik, "The Emergence of the Ottomans", *The Cambridge History of Islam*, Vol. I, pp. 263-266; Wittek, *The Rise of the Ottoman Empire*, pp. 23-27.

ارمينية الصغرى الواقعة بقربهـا ، ولتمتعها ببعض التنظيم الذي ورثته عـن سلطنة سلاجقة الروم التي حلت محلها • ولكن امارة عثمان فاقتها في قوتها وطول بقائهـا رغم صغرهـا • ويعزى ذلك الى وقوعهـا مقابل القسطنطينية ولجوء الغزاة اليها باستمرار ،كما أن وضعها على الطريق الرئيسية التي تصل بـين القسطنطينية والمدن الرئيسية ، في بلاد الشام والعراق ، سهـل مدهـا بالعناصر المنظمـة ، كالعلمـاء والتجار والصناع ، ممـا ساعد في تنظيمهـا ، وبالتالي دوامهـا •

وكان التجار والصناع ، في الأناضول ، منتظمين في ما يشبه النقابات ، وتسمى الأخية (من أخ العربية ، أو ربمـا مـن Aki التركيـة ، وتعني الكريم) [1] ، يتعاون فيها أصحاب المهنة الواحدة للدفاع عـن مصالحهم • واتخذت هذه الرابطة مظهـراً اشتراكيا وعسكريا ، ولجـأت الامارات الى طلب دعـم منظمـات الأخية • وفي بعض الأحيان تسلمت هـذه المنظمـات الحكم ، كما حدث مثلا في أنقـرة وسيواس • وازدهرت منظمات الأخية في فترة الفوضى التي أعقبت الغزو المغولي للأناضول ، وخاصة منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر • وقـد وصف ابن بطوطة منظمات الأخية ، حـين زار الاناضول ، في النصف الاول من القرن الرابـع عشر فقال : « الأخية •• بجميع البلاد التركمانية الرومية ، في كل بلد ومدينة وقرية ، ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدي الظلمة وقتل الشـرط ومن لحق بهم من أهل الشر ، والأخي عندهم رجل يجتمع عنده أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم ، وتلك هي الفتوة أيضاً ، ويبني زاوية ويجعل فيهـا الفرش والسرج ومـا يحتاج اليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معائشهم ، ويأتون اليه بعدالعصر بما يجتمع لديهم فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما ينفق في

---

١ ــ انظر : H. Bowen and H. A. R. Gibb, *Islamic Society and the West*, Vol. I, in 2 parts, London, 1951, 1957, see I. i. 58-59, 64-65, 290, I. ii. 181-184.

الزاوية ، فان ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم ... وان لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعاتهم بالغدو ، وأتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم ، ويسمون الفتيان ويسمي مقدمهم الأخي »[1] .

وجمع بين الغزاة ومنظمات الأخية مجموعة من التقاليد في الأخلاق والسلوك مبنية ، في الغالب ، على التقى مع مزيج من التصوف ، عرفت بالفتوة ، وأصحابها بالفتيان . ورغم أن أصول الفتوة غامضة وان هذا التعبير اتخذ مظاهر مختلفة في أوقات مختلفة ـ أطلق في فترة ما ، وما زال في بعض المناطق ، على الشبان أصحاب البأس ـ فانه استخدم في عهد الخليفة العباسي الناصر (١١٨٠ ـ ١٢٢٥) ، لاعادة هيبة الخلافة في وجه الاخطار الخارجية،وخاصة منها الصليبيين ، فدعا الأمراء المسلمين للدخول في منظمة الفتوة التي بعثها . ورغم النجاح الذي لاقته دعوته ، فقد اقتصر نشاط الفتوة ، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، على الغزاة والأخية في الأناضول ، حيث أفادوا في تنظيم السكان داخلياً ، وفي التماسك ضمن المدينة وفي الادارة .

استفادت امارة عثمان من منظمات الأخية أكثر من غيرها ، بفضل المميزات الاخرى التي تمتعت بها . وأدى وقوعها أمام القسطنطينية الى تدفق الغزاة اليها باستمرار ، فأخذت تتوسع ببطء في وجه مقاومة البيزنطيين ، بزعامة أميرها الغازي عثمان . ولا يعرف عن نشاطه السابق الشيء الكثير ، ولكنه ، بسبب ضغط امارة جرميان عليه ، تحول وأتباعه الى الثغور الامامية ، وسيطر على المنطقة الممتدة بين اسكي شهر وسهول نيقية وبورصة . وفي عام ١٣٠١ حاصر نيقية ، عاصمة البيزنطيين قديماً ، ومن هنا شهرته بين الغزاة وخوف البيزنطيين منه . واعترف به سلطان سلاجقة الروم ، ولقبه بلقب بك (Bey) . وفي عهد اورخان ، ابن عثمان

١ ـ انظر :

Voyages d'Ibn Batoutah, ed. et trad. par C. Defrémery et B. R. Sanguinetti, 5 tomes, Paris, 1893-1926, voir t. 2, pp. 260-261.

وخليفته ، احتل العثمانيون بورصة في عـام ١٣٢٦ ، ونيقية في عام ١٣٣١ • وباحتلالهم امارة قره صى ، في عـام ١٣٤٧ ، أصبحوا سادة المنطقة المواجهة لاوروبا • وكان كل انتصار للعثمانيين يأتي الى صفوفهم بغزاة آخرين • وازدادت الامكانات العسكرية لامارتهم بأكثـر مما تتحمله مواردهـا أو مساحتها ، وتحتم عليهـا متابعة الغزو لاشغال الغزاة • ولمـا كان مجال ذلك قد أصبح صعباً في الأناضول ، لوقوع معظم المناطق في أيدي أمراء الغزاة الآخرين ، ولتعزيز البيزنطيين الدفاع عن الرقعة الصغيرة التي بقيت لهم فيه ، لذلك تطلعت امارة العثمانيين الى التوسع في أوروبا • وكانت علاقة الأمير العثماني اورخان حسنة مـع الامبراطور البيزنطي يوحنا السادس كانتاكوزيتوس • وقد طلب هـذا الأخير مساعدة العثمانيين ضد منافسه يوحنا الخامس باليولوغوس • وانتقل سليمـان بن اورخـان الى تراقية ، عـلى سفن بيزنطية ، لمساعدته ، في عـام ١٣٤٥ • وفي العام التالـي ازدادت العلاقات توطيداً بزواج اورخان من ابنة الامبراطـور يوحنا السادس • ولكن العثمانيين احتلوا ، أثناء عبورهم ، مراكز استراتيجية في أرخبيل غاليبولي ، تتحكم بالمواصلات البحرية بين الأناضول وتراقية ، ورفضوا التخلي عنهـا رغـم احتجـاج البيزنطيين • ووطـد العثمانيون قوتهـم في الهلسبونت بعقدهم اتفاقية مع جنوه في عـام ١٣٥٤ • وهكـذا فتح مجـال التوسع أمام العثمانيين في البلقان وأوروبا •[1]

وقد تغلب العثمانيون ، بقيادة مـراد الأول (١٣٦٠ ـ ١٣٨٩) عـلى تحالف من دول البلقان ، في معركة قوصوه ، في عام ١٣٨٩ ، واستولوا ، قبيل نهاية القرن ، عـلى معظـم الممتلكات البيزنطية في أوروبا ، باستثناء القسطنطينية • كمـا احتلوا بلغاريا وقسماً مـن صربية والبوسنة ، وتوغلوا في هنغاريا • وهزم العثمانيون في نيقوبوليس ، في بلغاريا ، في عام ١٣٩٦ جيشاً أوربياً ضم ملك هنغاريـا وحفيد ملك فرانسا • ولقب بايزيـد الاول

---

١ ـ انظر :

Inalcik, "The Emergence of the Ottomans", *The Camb, Hist. of Islam,* Vol. I, pp. 274-279.

العثمانـي ، تبعاً لذلك ، بالصاعقة ، واشتهر في العالـم الاسلامي كغـاز • وأرسل بايزيـد الاسرى المسيحيين الى القاهـرة وبغداد وتبريز ، حيث عرضوا في شوارعها ، ومجد العثمانيون كثيرا •[١] وكان من عادتهم ، في أعقاب انتصاراتهـم في البلقان ، أن يرسلوا وصفاً لذلك (فتح نامـه) ، وعبيداً وغنائم الى الحكام المسلمين • وأطلق العثمانيون على مناطق البلقان اسم روميلية (Rum-eli) ، أي بـلاد الروم ، نسبة الى مذهب الـروم الأرثوذكس السائد فيها [٢] •

وأظهر العثمانيون أنفسهم حماة الكنيسة الارثوذكسية،وفي الواقع منحوا اساقفة هذه الكنيسة اقطاع بعض الاراضي ، وتقربوا بذلك من عادة الشعب الذين يدينون بالمذهب الارثوذكسي • وزاد هذا في العداء الاجتماعي بين عامة الشعب في البلقان وحكامهم من الارستقراطية ، الذين كانوا اما من الكاثوليك أو متحالفين مـع دول كاثوليكية ، مثل البندقية والبابا • وأضيف هذا العداء الديني الى العـداء الاقطاعي ، بـين الطبقات العليا والدنيا ، في مجتمعات البلقان ، ومن هنـا تعاطف الشعب ، في كثير مـن الأحيان ، مـع العثمانيين •

تمكن العثمانيون من مد سيطرتهم على البلقان ، بواسطة جيش نظامي يتألف من نوعين من الجنود : السباهية (الفرسان) ، الذين منحوا اقطاعات لقـاء خدمتهم ، وكانوا دعامـة الجيش ، وعاملا رئيسياً في استمرار السيادة العثمانية ، لان بقاءهم في اقطاعاتهم مشروط ببقاء الدولة العثمانية ، ولهذا فمن مصلحتهم الدفاع عنها • ثـم الانكشارية [٣] ، وهـم مشاة بمعظمهم ، اخذوا ، في بادىء الامر ، من خمس الاسرى المخصصين ، بموجب الشريعة للدولة • ووجـد الى جانب الجيش النظامي هـذا ، الغزاة ، الذين كانوا ،

---

١ ـ انظر :
Inalcik, "The Emergence of the Ottomans", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. I, p. 290.

٢ ـ انظر : *Ibid.*, pp. 274-279

٣ ـ اللفظة تحوير لكلمتي Yeni çeri التركيتين ، وتعنيان الفرقة الجديدة ، تمييزاً لها عن الفرقة القديمة من الجنود السباهية الاقطاعيين •

شأنهم دائما ، يستقرون في مناطق الحدود ، ويفرضون تأثيراتهم عليها ، ويعملون ، بدافع من حماسهم الديني ، على جعل سكانها يعتنقون الدين الاسلامي ، بينما تبقى المناطق الداخلية ، التي احتلها الجيش العثماني ، على دينها المسيحي ، ويدفع أصحابها الجزية ، ويفيد هـذا مالية الدولة • وان استقرار الغزاة على الحدود يفسر ، الى حد كبير ، وجـود جاليات اسلامية حتى اليوم تعيش في مناطق الثغور العثمانية الاولى في البلقان ، واهمها في تراقية وألبانيا والبوسنة • أما الجاليات الاسلامية في منطقة الدوبردجا ، بين الدانوب والبحر الاسود ، شمال شرقي بلغاريا ، فيعتقد انهم ، في الاصل ، من الاتراك اتباع السلطان السلجوقي الرومي عز الدين كيكاووس الثاني، الذي لجأ الى البيزنطيين في عام ١٢٦١ ، واقام بينهم(١) •

ويبدو أن هذه العناصر المسلمة ، في مناطـق الحدود في البلقان ، قـد رفدت ، فيما بعد ، بعناصر أخـرى ، حـين طبق العثمانيون سياسة النفـي والترحيل Sürgün (حورت بالعربية الى سركن) ، التي سبق للسلاجقة ان استخدموها على نطاق واسع ، فنقلوا جماعات من الاناضول الى البلقان ، او بالعكس ، لاسباب تأديبية ، او لايجاد عناصر موالية للحكم ، او لنقل الخبرات • وتذكر سجلات الأوقاف ، في القرن الخامس عشر ، ان موجات كبيرة من فلاحي غربي الاناضول قد هاجروا الى تراقية ومناطق البلقان الشرقية ، وسكنوا في مئات القرى ، بمعزل عـن السكان المحليين • ونُقل الأتراك أيضاً الى المدن التي قاومت العثمانيين ، وسرعان ما تحولت الى مدن مسلمة•ويذكر مثلا أن مدينة سكوبية (في يوغوسلافيا حاليا) ، التي احتلها العثمانيون في عام ١٣٩١ قد اصبح فيها ، في عام ١٤٥٥ ، اثنان وعشرون حياً مسلماً مقابل ثمانية احياء مسيحية فقط(٢) •

---

١ ــ انظر : Wittek, The Rise of the Ottoman Empire, pp. 39-49, "De la Défaite d'Ankara à la prise de Constantinople", *Revue des Etudes Islamiques, (REI)*, 1938, pp. 1-8, "Les Gagaouzes - Les Gens de Kaykaus", *Roezmik Orientalistyczeny*, t. XVII (1951-2), p. 13.

٢ ــ انظر : Halil Inalcik, "Ottoman Methods of Cenquest", *Stvdia Islamica, II* (1954), pp. 122-129.

استغل العثمانيون انتصاراتهم في البلقان للتوسع في الاناضول • وكان هذا التوازن في الفتوحات ملازماً للدولة العثمانية طيلة وجودها ، فكل توسع في البلقان وازنه توسع في آسيا ، لتبقى العثمانيين قاعدتهم الآسيوية ـ الاسلامية • وبالمقابل ، فكل خسارة في اوروبا ، فيما بعد ، اعقبتها خسارة مماثلة في آسيا • وحين فقدت الدولة العثمانية البلقان ، في الربع الأول من القرن العشرين ، فقدت ، في الوقت نفسه ، بقية البلاد العربية • وعادت بعد ستة قرون من وجودها ، الى حيث خرجت ـ الى الأناضول ، وكأن تاريخها ، خلال ستمائة سنة ، هو مجرد توسع ، ثم انحسار ، دون تأثيرات حضارية عميقة •

وفي السنة التي تمركز فيها العثمانيون في غاليبولي (١٣٥٤) ، احتلوا أنقرة ، التي كانت آنذاك مركزاً اقتصادياً وسياسيا هاماً ، وبدأ بذلك التوسع العثماني في المناطق الداخلية الاسلامية ، وهذا ما اوقع العثمانيين في خلاف مع امير سيواس ، ومع امير كرمان ، الذي اعتبر نفسه، بعد احتلال قونية ، وريثاً لسلطنة سلاجقة الروم • والتف من حول هذين الأميرين أمراء الغزاة في الأناضول ، الذين أخافهم التوسع العثماني • ولكن الأمير العثماني مراداً الأول هاجم قونية ، وسحق مقاومة كرمان في عام ١٣٨٧ ، دون ان يقضي عليها •

واتبع العثمانيون ، الى جانب الحرب ، اساليب اخرى لضم امارات الغزاة ، كالتزاوج مع أسرها الحاكمة ، أو شراء أراضيهم ، أو منحهم بدلها اقطاعات في البلقان • ولكن الأمير العثماني بايزيد الاول (١٣٨٩ ـ ١٤٠٢) ، الذي خلف مراداً الاول ، عزم على القضاء على امراء الغزاة المتمردين ، وتم له ذلك بمساعدة فرق بلقانية • ثم عمد الى تطبيق القواعد العثمانية في الفتح ، التي شاعت آنذاك ، وهي احصاء السكان ، ومسح الاراضي وتوزيعها ، على شكل اقطاعات ، على اتباعه وجنوده ، مما يجعل لهم مصلحة في الدفاع عنها • وكان يسجل ذلك في سجلات تسمى دفاتر •

ادى احتلال بايزيد للامارات المسلمة في الاناضول الى ازمات في الامارة العثمانية كادت أن تقضي عليها • فسرعة الاطاحة بأمراء هذه الامارات ، الذين كانوا ، قبل كل شيء مسلمين وغزاة ، واستخدامه قوات غير مسلمة ، مثل الفرق البلقانية والبيزنطية ، وكذلك الانكشاريين ، الذين كانوا يعتبرون رغم اسلامهم من أصل مسيحي ، أثار عليه نقمة الغزاة والعلماء • وفي محاولة منه ليسبغ على عمله ، في القضاء على امارات الغزاة ، صفة الشرعية ، فانه ارسل في عام ١٣٩٤ ، يطلب من الخليفة العباسي ، المقيم في مصر ، اعطاءه لقب سلطان الروم ، رغم انه كان يتمتع ، في الواقع بسمعة اعظم من هذا اللقب • وقد منحه الخليفة ذلك ، لأن تحديد اللقب بالروم ، كما في عهد سلاجقة الروم ، لم ينتقص نظرياً ، من صلاحيات السلطان المملوكي ، الذي اقام الخليفة في كنفه • وربما ليؤكد للعالم الاسلامي انه لا زال زعيم الغزاة فقد ارسل السلطان بايزيد الاول جيشا لحصار القسطنطينية ، ولم يرفع الحصار عنها الا بظهور تيمور ، الذي يعتبر آخر فاتح مغولي خرج من سهوب آسيا الوسطى ، في أعقاب تفكك السلطة السياسية لدى المغول • وقد افتتح آسيا الغربية ، بما فيها بلاد الشام ، في الفترة بين ١٤٠٠ ـ ١٤٠٢ •

لجأ كثير من امراء الغزاة ، الذين هربوا من وجه العثمانيين ، في الأناضول الى تيمور ، وشجعوه على مهاجمة العثمانيين • وكان تيمور ، أثناء توسعه باتجاه بلاد الشام ، قد خشي توسع بايزيد في الأناضول واحتمال تحالفه مع المماليك ضده • وبعد ان احتل تيمور دمشق ، هاجم الجيش العثماني قرب انقرة ، في ٢٨ تموز ١٤٠٢ ، وهزمه ، واسر بايزيد وانتحر في العام الثاني ، واعاد تيمور امارات الغزاة الى سابق عهدها • ولم يبد رغبة لدمج الاناضول بدولته لانه كان يهتم بقتال المماليك • وادرك العثمانيون ، بعد ذلك ، ان مجال توسعهم الرئيسي في البلقان • واظهر لهم فشلهم العسكري تسرعهم في احتلال امارات الغزاة ، وعدم رسوخ قواعد دولتهم في البلاد التي احتلوها • ومما ساعد العثمانيين في سرعة اعادة قواعد دولتهم

نظام الاقطاع العسكري الذي اتبعوه ، اذ هرع الجنود السباهية الى اقطاعاتهم للتمتع بوارداتها ، وعادت بذلك هيبة الدولة العثمانية الى الريف أولا • ومع ذلك ، فقد دفع العثمانيون ثمن هزيمتهم حرباً أهلية دامت عشر سنوات (١٤٠٣ ـ ١٤١٣) ، بين ابناء بايزيد : سليمان الاكبر ، في ادرنة ، الذي اعترف به تيمور حاكما على البلقان ، ومحمد الاصغر ، الذي اعلن نفسه حاكما على منطقة سيواس ، وموسى ، الذي انحاز الى محمد في البدء ، ثم عمل لحسابه في البلقان ، وعيسى حاكم بورصة • ويعكس هذا التنوع في الأسماء اختلاط العثمانيين ، منذ أن كانوا غزاة ، بالبيزنطيين والبلقانيين ، وتزواجهم معهم • وبنتيجة هذا الصراع بين الاخوة ، انتصر محمد [1] •

حاول السلطان محمد الاول (١٤١٣-١٤٢١) ايجاد حلول لمختلف المشاكل التي اثارتها الحرب الاهلية ، ومن قبلها هزيمة انقرة امام تيمور ، فاهتم بالغزو في البلقان ، وشجع الغزاة ، كما أنه قام بنفسه باحتلال مناطق جديدة فيه ، واستمر هذا الاتجاه في عهد خلفيه : مراد الثاني ومحمد الثاني • ومما يدل على اهتمام السلطان محمد الاول بمتابعة الغزو نقله مركز العاصمة العثمانية من بورصة ، في الاناضول ، الى ادرنة ، في البلقان التي عرفت بدار الغزاة •

اما سياسة محمد الاول تجاه الامراء المسلمين في الاناضول ، فانه حاول ، على خلاف بايزيد الاول ، ان يربط نفسه بهم بروابط الصداقة ، وفرض نفوذه عليهم بالتدريج • واستمرت سياسة اللين تجاههم في عهد خلفائه • ويذكر أن السلطان مراداً الثاني حصل ، في عام ١٤٤٤ ، من علماء مصر ، على فتوى تعلن للعالم الاسلامي ، وخاصة الى شاه رخ ، خليفة تيمور ، شرعية الحملة ، التي كان على وشك القيام بها ضد امارة كرمان •

---

[1] ـ أنظر تفاصيل هذا الصراع وأسباب نجاح محمد بنتيجته ، بلاد الشام ومصر،ص٣٩ـ٤٠•

وكانت حجة العثمانيين ان الاسرة الحاكمة في كرمان قد تعاونت مع القوى المسيحية [1] •

وأبدى محمد الاول اهتماما ايضا بعامة الاتراك ، فكسب عطفهم وعطف علماء المسلمين • كما انه استبعد بذلك قيام التذمر بينهم واستغلاله من قبل مغامرين ، مثل قاضي العسكر الشيخ بدر الدين ، الذي ترأس حركة اجتماعية ـ دينية ، في الاناضول ، تدعو الى التآخي بين الاتراك والمسيحيين ، وشجع قيام ثورة على السلطان محمد الأول ، في ولاية أيدين ، في عام ١٤١٥ ، مستميلا اليه طبقات الشعب الفقيرة • وعمد السلطان محمد ، بعد القضاء على هذه الثورة ، الى التقرب من هذه الطبقات الفقيرة بأن رعى حركة خيرية ذات طابع صوفي أسسها ولي في انقرة هو الحاج بيرم •

ولم تكن رعاية الدولة العثمانية لهذه الحركة الصوفية حادثاً منعزلاً ، كما لم تكن الرعاية الاولى والاخيرة من نوعها • ان ذلك ، في الحقيقة ، تعبير عن الرابطة القوية ، التي شدت الدولة العثمانية الى الطرق الصوفية في مختلف فترات تاريخها • وقد ذكرنا كيف ان البدع المضطهدة ، وبينها الحركات الصوفية ، لجأت الى مناطق الثغور ، وطبعت الغزاة بطابعها • وهناك امثلة اخرى عن عمق هذه الرابطة ، ضمن الدولة العثمانية حين شكل دراويش الطريقة البكطاشية الصوفية فرقة خاصة بهم في الجيش الانكشاري • وقد اهتم السلطان سليم الاول العثماني ، اثر احتلاله دمشق ، بتكسريم مثوى محي الدين بن عربي (توفي عام ١٢٠٤ م) ، المدفون في صالحيتها ، فزاره ، وأمر ببناء تكية عند قبره • وحين قام الوالي العثماني ، جان بردي الغزالي ، في عام ١٥٢٠ ، بثورته ضد العثمانيين ، واحتل قلعة دمشق ، وجد فيها الصوفية بصحبة الجنود الانكشارية [2] • وكان أيضا

---

١ ـ انظر : Inalcik, "The Emergence of the Ottomans", *The Camb. Hist. of Islam,* Vol. I, p. 291.

٢ ـ انظر : محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، جزءان ، نشرهما محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ ، الجزء الثاني ، ١٢٤ •

من بين ما هاجمته الحركة الوهابية ، في القرن الثامن عشر ، تبني العثمانيين للعادات الصوفية المتطرفة ، التي أبعدتهم عن تعاليم الاسلام .

بقي على السلطان محمد الأول وخلفائه تبني سياسة واضحة تجاه الشعوب الخاضعة لهم في البلقان ، بعد ان اصبح امر ذلك ضروريا الآن . فالفتوح لم تعد ميسورة ، كالسابق ، لامتداد السلطنة العثمانية على مناطق واسعة ، ولمعارضة القوى الأوربية لتوسعها . وكان توقف الفتح ، أو الحد منه ، يعني توقف ، أو انقاص ، وارد الخمس من الغنائم ، بما في ذلك خمس الاسرى ، الذين جندوا في فرق الانكشارية . كما أن امتداد السلطنة العثمانية على مناطق واسعة أوجد لها التزامات جديدة . وترتب على ذلك ضرورة ايجاد قوات اضافية لاقرار الامن وتثبيت الادارة في هذه المناطق . فاذا جند العثمانيون أبناء الشعوب الخاضعة لهم في البلقان لأمكنهم ، من ناحية ، تلافي العجز في عدد القوات ، واتيح لهم ، من ناحية اخرى ، افقار هذه الشعوب الخاضعة من عنصرها الشاب ، وجعلها بالتالي اقل قدرة على التحرر . ولهذه الأسباب مجتمعة طبق العثمانيون ، في الفترة بين ١٤٣٠ و ١٤٣٨ ، في عهد السلطان مراد الثاني ، ما عرف بالدفشرمة (Devshirme) ، أي جمع الشبان . وكانت ترسل ، كل خمس سنوات لجان تطوف روميلية لانتقاء الشبان الأشداء منها ، وتدريبهم في مدارس خاصة ، فيصبح بعضهم موظفين اداريين ، واحياناً صدوراً عظاما ، وتدخل كثرتهم في الجيش الانكشاري [١] . وكانت المدن غالبا مستثناة من الدفشرمة ، التي اقتصرت على سكان الريف ، حيث يوجد عادة السكان الاشداء ، وغالبيتهم من الصقالبة والالبانيين . وهذا ما يفسر بروز هؤلاء بين الانكشارية وكون اللغة السلافية هي السائدة بينهم .

وبانحطاط الدفشرمة تدريجيا ، انتقلت الى آسيا الصغرى ، واصبح المسلمون الاحرار يجندون في فرق الانكشارية . وانهار نظام المدارس ،

---

١ – أنظر : Gibb and Bowen, I. i. 43, 56 ff.; P. Wittek, "Devshirme and Shar'ia", *BSOAS*, XVII. 2 (1955), pp. 271-278.

نتيجة لذلك ، واشتدت الفوضى ، وكثر التمرد في صفوف الانكشارية ، منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر • وبعد ان كان الانكشارية يرهبون اوروبا ، اصبحوا ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ،يرهبون بصورة متزايدة ، سلاطينهم العثمانيين ، الى ان قضى عليهم السلطان محمود الثاني في عام ١٨٢٦ •

لم يبق امام العثمانيين ، وقد بلغوا هذا المبلغ من السلطة ، الا احتلال القسطنطينية ، التي اصبحت اشبه بقلعة بيزنطية وسط بحر عثماني ،فأحتلها السلطان محمد الثاني (الفاتح) ، في عام ١٤٥٣ ، وجعلها عاصمة العثمانيين ، وبدأت بذلك فترة الامبراطورية العثمانية [١] •

مظاهر من الادارة العثمانية

من الضروري ، قبل البدء بمعالجة الحكم العثماني في البلاد العربية، التعرف على بعض مظاهر الادارة العثمانية ، التي اثرت ، فيأوجهها المختلفة، على تطورات الاحداث في البلاد العربية • ويرأس الادارة السلطان العثماني ، الذي عرف بلقب خنكار ، ويعني بالتركية السلطان الاعظم ، واحيانا بلقب باديشاه الفارسي ، ويعني الحاكم الاعلى • أما لقب الخليفة فلم يتخذه السلطانالعثماني ، بصورة فعلية ، حتى عهد السلطان عبدالحميد الثاني ، وكان هذا متفقا مع السياسة الاسلامية التي تبناها لمجابهة الحركات القومية ، وخاصة العربية ، من ناحية ، ولاخافة الدول الاوربية ، وخاصة بريطانيا ، التي كانت تحكم ملايين المسلمين في الهند ، من ناحية أخرى • وسبق للسلطان العثماني ان اضاف لقب خليفة الى القابه في معاهدة كجك قاينارجة ، مع روسيا ، في عام ١٧٧٤ ، التي تنازل بموجبها ، لأول مرة ،

---

١ ــ انظر حول أهمية سقوط القسطنطينية ، المقالات المنشورة في كتيب :
The Fall of Constantinople, a symposium held at the School of Oriental and African Studies (University of London), May, 1953.

وانظر خاصة مقالات : P. Wittek, "*Fath Mubin*"; B. Lewis, "Constantinople and the Arabs", and Stephen Runciman, "The Fall of Byzantuim".

عن مناطق تركية مسلمة ، في القرم • وكان اللجوء الى اللقب الديني لتغطية الهزيمة العسكرية والسياسية التي مني بها السلطان العثماني ، ثم توارى اللقب حتى ظهر في عهد السلطان عبد الحميد الثاني •

وباستثناء فترات قصيرة ، كما في الاقتتال بين ابناء السلطان بايزيد الاول على السلطنة بعد وفاته[1] ، في عام ١٤٠٣ ، وكذلك في ثورة الامير جم على أخيه السلطان بايزيد الثاني ، في عام ١٤٨١ ، ولم تشهد السلالة العثمانية نزاعات طويلة مميتة ، على غرار ما جرى في اوروبا • وكان الابن الأكبر يخلف أباه عادة • واعتاد السلطان العثماني على تعيين أبنائه حكاماً على الولايات ، مما اكسبهم خبرة ادارية افادتهم في الحكم • ولكن ازدياد خطر الاخوة على اخيهم الذي اصبح سلطانا ، دعت السلطان محمد الثاني ، (١٤٥١ — ١٤٨١) ، الى اصدار قانون يبيح للسلطان قتل اخوته • وجاءت ثورة جم على بايزيد وثورة اخوة السلطان سليم الاول عليه اثر اعتلائه الحكم ، في عام ١٥١٣ ، لتؤكد ضرورة ذلك • وحين توفي السلطان احمد الاول ، في عام ١٦١٧ ، خلفه أخاه مصطفى الأول ، لأن أبناءه كانوا صغارا • وصدر فرمان آنذاك ، بأن تعطى السلطنة لأكبر الاعضاء الذكور سناً في اسرة عثمان • وقلل هذا كثيرا من نصيب الابن في تولي السلطنة بعد ابيه •

ويلاحظ ان الحكام العثمانيين ، منذ بداية امارة عثمان وحتى نهاية حكم السلطان سليمان القانوني ، في عام ١٥٦٦ ، كانوا اقوياء ، بصورة عامة ، كما اقتضت طبيعة الظروف التي مرت بهم والفتوحات التي قاموا بها • ثم مالوا نحو الضعف ، في اعقاب توقف الفتوحات ، ولم يظهر في الفترة بين وفاة السلطان سليمان القانوني ومجيء السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٧) ، من استحق الشهرة سوى السلطان مراد الرابع

---

١ — انظر ص ٣٩ •

(١٦٢٣ ــ ١٦٤٠) ، الذي ارتفع الى مستوى المسؤولية الكبرى الملقاة عليه ، فاستعاد بغداد من الصفويين ، في عام ١٦٣٩ ، وكان قد قضى على الامير فخر الدين المعني الثاني في عام ١٦٣٥ .

ونتج عن توقف الفتوحات العثمانية ، وتحول الانكشارية بالتالي من ارهاب الاعداء الى ارهاب السلاطين والسكان ، وقيام دول اوربية قوية تعارض العثمانيين ، ان انقطع السلاطين الى حياة القصر (حياة الحريم) ، بما فيها من متعة ، وايضا بما فيها من مؤامرات ، وتركوا تصريف شؤون الدولة الى الصدر الاعظم .

وكان الصدر الاعظم ، حتى فتح القسطنطينية في عام ١٤٥٣ ، يعين من المسلمين الاحرار ، وخاصة من اسرة جندرلي . ثم اصبح يعين من نتاج الدفشرمة . وضمن السلطان بذلك ولاءه وطاعته . وبازدياد مسؤولياته ، في اعقاب انقطاع السلطان الى القصر ، اصبح له مقر خاص ، في عام ١٦٥٤،عرف بالباب العالي Babi-Ali (بالانكليزية Sublime Porte) حيث صرّف شؤون الدولة ، التي كانت قبلاً تتم في قصر السلطان . وبالتدريج اطلق اسم المكان على ساكنه .

واستفاد ايضا من انقطاع السلطان الى حياة القصر المسؤول عن امور الحريم ، وهو الكزلار آغا (من Kiz التركية وتعني قناة)، وكان له مساعدون من الخصيان الطواشية . وقد أتي بالقسم الاكبر منهم ، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، من القفقاس . وفي عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ ــ ١٥٩٥) ، اصبح للخصيان السود اليد العليا في الدولة ، وكان يؤتى بهم من السودان ، بطريق مصر . ونظرا لازدياد نفوذ الكزلار آغا فقد دخل في صراع على السلطة مع الصدر الاعظم . وهكذا اصبحت السلطة ثنائية في استانبول ، وانعكس اثر ذلك على الولايات .

ويمثل السلطة العثمانية في مركز كل ولاية حاكم يلقب عادة بالباشا،

وهـذا اختصار لكلمـة باديشاه الفارسية • وكانت رتبته في البـدء بيلـربي (Beyler beyi) ، أي بك البكوات ، أو والي ، وعلامة رتبته طوخان (ذنبا حصان) ، يعلقان على الراية امامه ، وهي عادة قبلية قديمة • وحين منح لقب وزيـر الى كثيرين مـن أصحاب الحظـوة ، وعينوا عـلى الولايـات ، علق على راية كل منهم ثلاثة اطواخ •

وتقسم بعض الولايات الى اقسام ادارية اصغر ، تعرف بالصنجق ، وحاكمها بالصنجق بك ، اي امير اللواء • وتعني كلمة الصنجق التركية الرايه او اللواء ، واطلقت على المنطقة التي يحكمها الصنجق بك ، الذي يعلق على رايته عادة طوخ واحد • وفي بداية الامارة العثمانية كان الصنجق الوحدة الادارية الاساسية ، ثم ، باتساع الدولة ، جمعت عـدة صناجق لتشكل ولاية او إيالة ، يرأسها بك البكوات ، أي بك الصناجق (يشار اليه ايضا بالجمع الفارسي مير ميران ، المحرفة من امير اميران) • وفي مصر أطلق على الوحدة الادارية (الصنجق) تعبير كشوفية ، وعلى حاكمها تعبير كاشف ، وهي استمرار للمصطلحات المملوكيـة ، بينما استخـدم تعبير صنجق فيها للدلالة على رتبة ، وليس على منصب • وينوب عن الوالي ، أثناء غيابه ، المتسلم (في مصر يشار اليه غالبا بلقب قائم مقام) ، ويطلق عـلى النائب الذي يتسلم الحكم بين عزل الوالي وتولية آخر لقب متسلم« ما بين »، ويعينه عادة الوالي الجديد •

ومن المؤسسات العثمانيـة الرئيسية الدفترخانـة التي تعنى بشؤون المالية ، والجدير بالذكر ان اراضي الدولة ، التي عرفت عادة باسم الاراضي الاميريـة ، او الميريـة ، نسبة الى امير ، كان يوزع قسم منها على شكـل اقطاعات ، بينما تجبى ضرائب القسم الآخر بواسطة الملتزمين •

وكانت الاقطاعات على ثلاثة أنواع : التمار (Timar) ، ويعطي واردا سنويا اقصاه ١٩٫٩٩٩ اقجة (وحدة النقد العثمانية الفضية ، وتسمى ايضا اسبر) ، والزعامت (Zi'amet) ، ويتراوح دخله بين ٢٠٫٠٠٠ و ٩٩٫٩٩٩

اقجة ، ثم اقطاع الخاص ، ويزيد دخله على مائة الف اقجة • وقد اعطيت التيمارات للجند السباهية (الفرسان) ، ليعيشوا منها ، ويجندوا آخرين من واردها • ومنحت الزعامت لضباط السباهية وكبار الموظفين ، بينما منح الاقطاع الخاص الى افراد الاسرة الحاكمة والمقربين اليهم ، كما الحق بعض المناصب الادارية لينفق أصحاب هذه المناصب من وارداته • وفي عهد السلطان سليمان القانوني احتكرت سلطات استانبول حق منح الاقطاعات (وكان قبلا يتصرف به الولاة) ، الا في حالات قليلة ، حين يكون الاقطاع صغيرا ، اي يقل دخله عن ستة آلاف اقجة ، فيخول ذلك الى الوالي • ويتمتع صاحب الاقطاع به مدى الحياة ، لان الاقطاع لا يورث ، بل يعود الى الدولة في حالة وفاة صاحبه • ويرأس الدفتر خانة ، التي تعنى بشؤون الاقطاع ، الدفتر اميني ، ويساعده موظفان : واحد يعنى بأمور التيمار ، ويسمى دفتردار التيمار (Timar defterdari) ، وآخر بأمور الزعامت ، ويسمى كاخيا الدفتر (Defter Kahyasi) ، وبانحطاط الاقطاعات وأصحابها ، وخاصة الجنود السباهية ، انحطت هذه الدائرة ، ودمج كثير من وظائفها في يد موظف واحد[1] •

وبالمقابل ازدادت اهمية الدائرة التي تعنى بالشؤون المالية ، اي حساب واردات ومصروفات الدولة ، وتسمى الدفترداريه ، ويرأسها الدفتردار • وفي البدء كان هناك دفترداران في الدولة العثمانية : واحد في الاناضول وآخر في روميلية • وحتى نهاية حكم السلطان سليمان القانوني وجد هناك دفتردار واحد لولايات بلاد الشام والعراق ، مركزه حلب ، ولقب بدفتردار عرب وعجم • ثم اقيم دفتردار خاص بكل ولاية ، نظراً لتشعب الامور المالية فيها[2] • ويعطى حق جمع الضرائب الى أشخاص

---

١ ـ انظر : محمد الأمين المحبي ، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٢٨٤/١٨٦٩ ، جـ ١ ، ص ٣٠ •

٢ ـ انظر :
B. Lewis, *E. I.²,* s.v. *Daftardar;* U. Heyd, *Ottoman Documents on Palestine, 1552-1615,* Oxford, 1960, p. 42, 69n. 3 (31).

يسمون مقاطعجية ، نسبة الى مقاطعة ، أو ملتزمين • وكانت مدة الالتزام ، في الأساس ، لسنة واحدة ، واشترط على الملتزم عدم تحصيل أكثر من النسبة المعينة • ولكن بانحطاط الدولة ، اصبح الملتزمون يستغلون مناصبهم ويجمعون اكثر من المبالغ القانونية ، ويسيئون بذلك الى الفلاحين والى اقتصاد الريف بصورة عامة • وبلغ من ازدياد سلطة بعض الملتزمين ، ازاء ضعف الدولة ، ان احتكروا الالتزام عدة سنوات ، واورثه بعضهم الى ابنائهم من بعدهم • واصبحت غالبية الملتزمين تتمتع بسلطة سياسية ، ولا ادلّ على ذلك من ظاهر العمر ، في فلسطين ، في القرن الثامن عشر •

ويرأس الملتزمين موظف يسمى المحصل ، وهو مسؤول عن جمع الضرائب منهم • وكان منصب المحصل ، في بعض الاحيان ، مندمجا مع منصب الوالي في الولاية ، كما كان الامر في ولاية الشام مثلا ، او منفصلا عنه ، كما في ولاية حلب • وحين كان الوالي هو المحصل فانه استخدم قوات الولاية لجمع مال الالتزام من الملتزمين • واضطر ، تبعا لذلك ، الى الاصطدام أحياناً مع الملتزمين المتمردين ، كما حدث مثلا في القتال الذي جرى بين والي الشام سليمان باشا العظم وظاهر العمر ، في الربع الثاني من القرن الثامن عشر • وعملت الدولة ، من ناحيتها ، على تخليص الفلاحين من ظلم الملتزمين ، الذين حاولوا ابتزاز اكبر مقدار من المال قبل عزلهم عن الالتزام ، فأحدثت ، في أواخر القرن السابع عشر ، نظام المالكانة ، الذي منح الالتزام مدى الحياة • وهذا يعني أن صاحب المالكانة لم يعد مهددا دائما بالعزل ، وبالتالي لم يعد مضطرا للاسراع في ابتزاز مال الفلاحين • وقد حدّ هذا النظام من الاستغلال وان لم يكن قد استأصله •

وكان الجند الاقطاعيون السباهية ، من اصحاب التيمارات ، من اقدم انواع الجنود في الدولة العثمانية • وكان لهم مصلحة في دوام الاقطاعات ، وبالتالى استمرار الحكم العثماني ، الذي منحهم اياها • وقد ضم السباهية خليطاً من الاجناس من اتراك وعرب واكراد ، وكان يرأسهم ضابط برتبة الآي بك (Alay beyi) ، ويختار من قبل اصحاب الاقطاعات ، ويعطى اقطاعاً

من درجة زعامت ، وقد وجد في الولايات التي وجد فيها الاقطاع ، مثل ولايات الشام • أما ولاية مصر ، مثلا ، فلم توجد فيها اقطاعات ، خوفا من تسلط المماليك عليها وعودتهم الى النفوذ من جديد،ولذلك فلم توجدفيها قوات اقطاعية • وقد اعطي موظفوها وجنودها المرتبات ، ولهذا عرفت بانها ولاية من نوع ساليانلي •

وبانحطاط الجند الاقطاعي ، الذي تمسك بالارض أكثر من اهتمامه بالحرب ، ولجأ الى دفع مال البدل عوضا عن الخدمة العسكرية ، ازداد الاعتماد على الانكشارية • وقد ترأس هؤلاء في استانبول آغا الانكشارية ، الذي كان مسؤولا عن تعيين آغا الحامية الانكشارية في مركز كل ولاية • وكانت هذه الحامية تقيم في القلعة عادة ، ويعهد اليها بحراسة أسوار وابواب المدينة ، وفي بعض الاحيان ، الاشتراك في حملات الوالي المحلية ، او حملات السلطان في الجبهات الرئيسية •

وقد قسمت الانكشارية ، في الدولة العثمانية ، الى ١٩٦ فرقة ، تسمى احداها اورطه • ولما كانت كل فرقة تقيم عادة في غرفة ، تسمى بالتركية اوضه ، فقد استخدمت هذه الكلمة كبديل عن اورطه • ويختلف عدد افراد الاورطه حسب المكان والزمان والحالة السياسية • ويتراوح ، في مختلف هذه الحالات ، بين خمسين وخمسمائة • والحقت الطريقة البكطاشية بالاورطة التاسعة والتسعين •

وحين فسد نظام الانكشارية ، وأهملت الدفشرمة ، ثم ألغيت،وأصبح بامكان السكان المحليين دخول هذا الجيش ، حدث شبه اندماج ، بين الانكشارية والسكان المحليين ، عن طريق التزاوج ، أو عن طريق انتساب الانكشارية الى اصحاب الحرف ، وبالعكس ، ليستفيد كل فريق من الآخر • وبازدياد انتساب السكان المحليين الى الفرق الانكشارية في الولاية للتمتع بامتيازاتها ، غلب الطابع المحلي على الانكشارية حتى اصبحوا يعرفون ، في بعض الولايات ، كما هو الحال في ولاية الشام ، باسم يرلية (Yerliyya)

من Yer التركية ، وتعني المحل • واضطر السلطان ، في كثير من الاحيان، ازاء اندماج الانكشارية بالسكان المحليين ، وعملهم لمصلحتهم قبل مصلحة الدولة ، ان يرسل فرقا جديدة لتسلم المسؤوليات الرسمية من اليرلية ، وتكون اكثر خضوعا للسلطان • ومن ذلك ارساله ، في عام ١٦٥٩ ، فرقة الانكشارية القابي قول (عبيد السلطان)، الى دمشق لموازنةالانكشارية اليرلية ، كما سنرى في بحث لاحق •

والى جانب السباهية والانكشارية وجد الجند الخاص او المرتزقة ، واستخدمهم حكام الولايات ، بصورة خاصة • وكانت نفقاتهم تدفع عادة من واردات الولاية • وقد ازداد اعتماد الولاة على الجند المرتزقة بازدياد الفوضى وانعدام النظام في صفوف السباهية والانكشارية ، وخاصة في القرن الثامن عشر • ولم يكن الولاة وحدهم الذين استخدموا هؤلاء الجند المرتزقة ، بل تجد بعض الامراء المحليين ، مثل فخر الدين المعني الثاني وعلي باشا جانبلاط ، وحتى بعض الملتزمين ، الذين اصبحوا امراء محليين، مثل ظاهر العمر،يحتفظون بمثل هذه القوات لتدعيم سلطتهم ضد الاعداء ، وخاصة ضد حكام الولايات التابعين لها •

واختلفت أنواع الجند المرتزقة اختلاف الزمان والمكان • وأقدمهم السكبان • وهذه الكلمة فارسية الأصل تتألف من مقطعين : سك وتعني الكلب ، وبان وتعني الصاحب أو الحامي ، وتعنيان معاً الكلابي ، أي الذي يقود الكلاب ، ويسير مع الأمير الى الصيد • وبالتدريج أطلقت هذهالكلمة على من كان موصوفاً بالبطالة [1] • وقد أطلق هذا التعبير على الجنود

---

١ ـ المحبي ، ج ٢ ، ٣٢٤ ؛ انظر أيضا : الحسن بن محمد البوريني ، تراجم الاعيان فيأبناء الزمان ، مخطوط في المكتبة الوطنية في فيينا،برقم Cod. Arab. 1190 Mixt. 346 الأوراق ١٠١ آ ـ ١٠١ب • ولم يطلع الدكتور صلاح‌الدين‌المنجد على هذه النسخة حين بدأ بنشر هذا المؤلف ، وقد أصدر منه جزأين حتى الآن في مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية حاليا) ، في سنتي ١٩٥٩ و ١٩٦٠ ، وقد استخدمنا هنا المصدر المطبوع ليسهل على القارىء الرجوع اليه ، ونظرا لوجود معلومات اضافية أحيانا في مخطوط فيينا ، ونظرا أيضا لعدم انتهاء الدكتور المنجد من نشر الكتاب فسنشير الى مخطوط فيينا حيث يفيد استعماله •

الذين استأجرهم الولاة العثمانيون ، أو السلاطين ، في القرن الخامس عشر ، وسلحوهم بالبنادق • واشتهر السكبان في القرن السادس عشر كرديف للجيش العثماني ، واعتبروا ، مع الانكشارية ، أقوى عناصره • وكانوا يتقاضون المرتبات في أوقات الحرب فقط • أما في أوقات السلم فكانوا يهيمون في الأناضول يبيعون خدماتهم لمن يطلبها • واستغلهم الثائرون ، المعروفون بالجلالية ، لتوطيد سلطتهم (١) ، ومن بين هؤلاء آل جانبلاط في منطقة كلس ــ حلب ، وكان زعيمهم علي باشا جانبلاط حليفاً لفخر الدين المعني الثاني ، أمير الشوف في جبل لبنان ، الذي استخدمهم هو الآخر ، في الثورة على العثمانيين •

ولم يعتمد الولاة في بلاد الشام ومصر ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، على الجند المرتزقة بشكل ملحوظ ، بسبب قوة سلطة الولاة نسبياً ، وبسبب عدم وجود متطلبات محلية تستدعي ذلك • وقد ازداد الاعتماد على هذه القوات في بلاد الشام ، في القرن الثامن عشر ، بسبب ما حدث من اضطرابات بين فرقتي اليرلية والقابي قول ، وبسبب تكليف ولاة دمشق بامارة الحج باستمرار ، منذ الربع الاول من القرن الثامن عشر ، مما اقتضى إستخدام قوات اضافية لحماية الحجاج •

وعلى عكس الوضع في بلاد الشام ، حيث الظروف مناسبة والحاجة ملحة للجند المرتزقة ، نجد أن الجند المرتزقة لم يلعبوا في ولاية مصر العثمانية في القرون الثلاثة الاولى من الحكم العثماني ، دوراً هاماً كالدور الذي لعبوه في بلاد الشام ، ولم تكن أنواعهم متعددة في مصر كما في هذه البلاد • ويمكن ارجاع ذلك الى طبيعة تكوين مختلف القوات العسكرية في مصر ، فالطوائف العسكرية السبع في مصر كانت كافية نسبياً للمحافظة على الأمن • وكان الحاكم في مصر ، اذا ما ثارت أو تمردت طائفة ما ، يلجأ الى الطوائف الاخرى لكبحها • وحين ضعفت الادارة العثمانية ،

---

١ ــ انظر حول السكبان في الاناضول : H. Inalcik, "The Heyday and Decline of the Ottoman Empire" *The Cambridge History of Islam,* Vol. I. pp. 346-347.

وانحطت بالتالي سلطة الولاة ، في القرن الثامن عشر ، لم يعتمد ولاة مصر على الجند المرتزقة لموازنة القوى العسكرية ، كما حدث في بلاد الشام آنذاك ، بل ظهرت قوة جديدة قامت بهذا العمل عوضا عن الولاة ، وهي طائفة المماليك التي كانت توطد قوتها منذ القرن السادس عشر ، وطغت على سلطة الولاة وعلى سلطة الطوائف العسكرية العثمانية الأخرى •

واشتهر من الجند المرتزقة في بلاد الشام ، في القرن الثامن عشر ، كل من اللاوند ، والدالاتية ، والمغاربة ، والتفنكجية • وقد اشتهر اللاوند في الأناضول ، منذ عهد السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١١) • والتسمية مشتقة من كلمة (Levantino) ، التي أطلقها سكان البندقية على البحارة الذين خدموا في أسطولهم ، وكانوا من أصل شرقي ، من سواحل آسيا الصغرى • واستعيرت هذه التسمية لبحارة الاسطول العثماني ، وحورت الى لاوند (Levend) ، وقد تمرد اللاوند ، أثناء خدمتهم في الاسطول ، فاستبدلوا بنوع جديد من البحارة عرفوا بالعزب ، في عهد بايزيد الثاني ، وانساح اللاوند المسرحون فيالاناضول وبلاد الشام يبيعون خدماتهم لمن يطلبها ، وبقيت التسمية قائمة رغم اختلاف أجناس العناصر التي اتخذتها ، كالأكراد والتركمان •

أما الدالاتية فتسميتهم مشتقة من كلمة (Deli) التركية ، وتعني الأحمق أو المجنون ، ودعوا بذلك نظراً لطيشهم ، وجندوا من أجناس مختلفة من الأناضول • وكان المغاربة عادة من أصل مغربي ، من شمال افريقية • وقد أتوا الى بلاد الشام ومصر بطريق القرصنة ، أو الحج ، أو المجاورة (قرب الأماكن المقدسة) ، واستخدموا كمرتزقة في البلدين • وقد وجد سبع طوائف من المغاربة في دمشق ، في القرن الثامن عشر منتسبة الى المناطق الجغرافية التي قدمت منها ، وهي : الفاسية ، والجزائرية ، والسوسية ، والتونسية ، والطرابلسية،والدراوية ، والمراكشية ، ويرأس

كلا منها شيخ يرعى شؤونهـا ، ويرأس الجميع شيخ المشايخ • [1] أمـا التفنكجية فتسميتهم مشتقة من (تفنكة) ، أي بندقية ، نظرا لكونهم من المشاة حاملي البنادق ، وكـانت عناصرهم من أصل محلي • فالتفنكجية ، مثلا ، الذين استخدموا في بلاد الشام فيالقرن الثامن عشركانوا بأكثريتهم من أصل موصلي أو بغدادي ، وغالبا ما عملوا كشرطة [2] •

وقد اعتمد العثمانيون المذهب الحنفي مذهباً رسمياً للدولة [3]• ولعب المفتون ، في استانبول وفي مراكز الولايات ، دوراً هاماً في مختلف المجالات• وكانت الأولوية ، في بـدء عهـد الدولة العثمانية ، للقاضي العسكر ، الذي رافق الجيش المحارب ، ثم أصبح المفتي رئيس العلمـاء ، في عهـد السلطان سليمان القانوني ، ولقب بشيخ الاسلام ، نظرا للدور الذي لعبه في التوفيق بين القوانين التي أصدرها السلطان سليمان (ومن هنا لقبه بالقانوني) ،وبين الشريعة • وكان يحق لمفتي استانبول اصدار فتوى بعزل السلطان نفسه • كما أنه هو الذي يعين المفتين في مراكز الولايات • أما المذاهب الأخرى فقد اختار أفرادها مفتيها من بينهم،وغالباً ما شغل المفتي منصبه حتى نهاية حياته•

وكانت الأولوية بين القضاة للقاضي الحنفي ، على خلاف ما كان عليه الوضع في السلطنة المملوكية حـين اعترف بقضاة المذاهب الأربعة • ويعين القاضي الحنفي في مراكزالولايات العربية ، من قبل قاضي عسكرالأناضول في استانبول ، ويبقى في منصبه عادة لعام واحـد ، بسبب وجود كثرة مـن المرشحين لهذا المنصب • وقد يمدد العام ، كما يمكن للقاضي أن يعين أكثر

---

١ ــ انظر سجل المحكمة الشرعية بدمشق ، رقم ٥٩ ، ص ٢٢٠ •

٢ ــ للحصول على دراسة تفصيلية حول طرق تجنيد واستخدام ومهام هذه الفرق المرتزقة في بلاد الشام انظر مقالنا باللغة الانكليزية وعنوانه :

"The Local Forces in Syria in the 17th and 18th centuries"

الذي القيناه في المؤتمر المنعقد بجامعة لندن ، في الفترة بين ٢٢ ــ ٢٤ ايلول ١٩٧٠ ، والذي ناقش الموضوع التالي :

War, Technology and Society in the Middle East

والأبحاث قيد الطبع في كتاب سيصدر خلال عام ١٩٧٤ •

٣ ــ انظر حول الموظفين الدينيين كتابنا :

The Province of Damascus. 1723-1783, 2nd ed. Beirut, 1970, pp. 42-51

وكذلك بلاد الشام ومصر ، ص ٨٢ ــ ٨٧ •

من مرة للمنصب ذاته • وعلى خلاف المفتين الذين عينوا جزئياً ، في القرن السابع عشر ، من بين السكان المحليين ، وكلياً ، في القرن الثامن عشر ، من بينهم ، فقد كان القضاة الحنفيون بمجموعهم تقريبا مـن الأروام ، أي سكان الأناضول وروميلية • وكان قاضي دمشق من أبرز قضاة بلاد الشام،واعتبر في مستوى قاضي مصر ، لكون البلدين عاصمتين سابقتين للخلافة • وقـد لقب بلقب قاضي القضاة ، وأحيانا بلقب ملا ، وتذكر أحيانا منلا ، والكلمتان مشتقتان من كلمة مولى العربية ، وتعني السيد • وأقـام قاضي دمشق ، في المحكمة الرئيسية ، التي سميت عادة بمحكمة الباب،وله نواب يصرفون شؤون القضاة في المحاكم الفرعية في الأحياء • وناب عن القاضي الحنفي ، بين عزله وتعيين خلفه ، نائب عرف بنائب مابين •

وهناك منصب نقيب الأشراف في مركز الولاية ، ويعين من قبل نقيب الأشراف في استانبول ، ويشرف على شؤون الأشراف المختلفة • وعلى غرار المفتي ، فقـد استمر نقيب الاشراف في منصبه فترة طويلة وعين من بـين السكان المحليين في القرنين السابع عشر والثامن عشر •

ولم يقتصر الأشراف على مذهب معين ، ولا على طبقة اجتماعية معينة • وقد وجد بينهم أناس من مختلف المهن والمراتب ، وان العلاقة القوية التي وجدت بين أصحاب الحرف والأشراف ، نظراً لوجـود كثير من الأشراف بين الحرفيين ، أفادت الأشراف من ناحيتي التنظيم والقوة ، ودعمهم أصحاب الحرف ، وهـم عادة ذوي سلطة سياسية • وقد لعب الأشراف دوراً ساسياً هاماً ، وخاصة في ولاية حلب [1] ، حيث عارضوا الانكشارية • ويبدو أن اشتهار أشراف حلب سياسيا سببه كونهم الطائفة الوحيدة التي أمكن للسكان المحليين أن يعبروا بواسطتها عن ازدياد قوتهم وأن يقاوموا ظلم الانكشارية • ويمكننا تفسير هذا الأمر بأن قرب حلب من مركـز العثمانيين ، ووقوعهـا بمتناول قواتهم قد أبقى الجنود الانكشاريين فيها أكثر مناعة تجاه محاولات

١ ــ أنظر حول ذلك H. Bodman, *Political Factions in Aleppo, 1760-1826*, North Carolina Press, 1963, pp. 79-102; J. Sauvaget, *Alep*, Paris, 1941, pp. 196-200.

السكان المحليين في الانضمام اليهم ، على عكس ما حدث في ولاية الشام حيث تحولت الفرق الانكشارية الى يرلية ، نتيجة التحاق السكان المحليين بهـا ، وكان ذلك بمثابة متنفس لهؤلاء السكان عبروا بواسطته عن قوتهم ، في عهد ضعف الدولة • ومثلما وقف يرلية دمشق يدافعون عن مصالح أهلهـا ضد ظلم القابي قول ، وقف أشراف حلب يدافعون عن مصالح أهلهـا ضد ظلم الانكشارية • ونتج عن ازدياد نفوذ الأشراف في حلب وحاجـة رؤسائهم للدعم المحلي ان حدث كثير من اساءة الاستعمال بالنسبة لامتيازات الأشراف، ممـا جعل نقيب الأشراف يوجه عدة مذكرات الى القضاة المحليين لوضع حد لذلك [1] •

---

١ ـ أنظر حول هذه المذكرات الوثيقة رقم ٥٦ ، تاريخ ٢١ جمادى الآخر ١١٤٦/(٢٤ تشرين الثاني ١٧٣٢) ، والوثيقة رقـم ١٩٦ ، تاريـخ ٧ شوال ١١٤٧/ (٢ آذار ١٧٣٥) ، والوثيقة رقم ٢٢٩ ، تاريخ ٢٣ ذى الحجة ١١٤٧/(١٦ آيار ١٧٣٥) ، من السجل رقم (١)(سجل قيد الأوامر العلية السلطانية من ربيع الآخر ١١٤٦ الى ذي القعدة ١١٥١)، وهو من سجلات المحكمة الشرعية بحلب ، المحفوظة في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق•

الفصل الثاني

السيطرة العثمانية في البلاد العربية في القرن السادس عشر

الفتح العثماني

تمهيد

وجدت ، في الربع الأول من القرن السادس عشر ، ثلاث قوى ، تجابه الواحدة الاخرى ، في منطقة الشرق الأدنى : الامبراطورية العثمانية ، والسلطنة المملوكية ، والدولة الصفوية الناشئة . وقد حدث الاصطدام الأول بين العثمانيين والصفويين ، وبنتيجته خرج الصفويون من ميدان السباق الى السيطرة والنفوذ في المنطقة العربية والأناضول . وكان الصفويون ، في عهد الشاه اسماعيل ، قد هزموا امارة الحمل الأبيض ، وأصبحوا أكبر امارة تركمانية ، تمتد من هراة في الشرق الى بغداد وديار بكر في الغرب ، وعاصمتها تبريز .[1] وقد أثارت هذه الامارة مخاوف العثمانيين بسبب دخولها الصراع على النفوذ حول امارة ألبستان ، واتصالها بالأوربيين ، في محاولة لايجاد الحلفاء ، وأهم من ذلك كله كونها تتبنى المذهب الشيعي ، وتحاول أن تنشره بحماس بين القبائل التركمانية ضمن الأراضي العثمانية في شرقي الأناضول . وكانت هذه القبائل تعارض التنظيمات العثمانية التي سلبتها استقلالها الذاتي . وفي أكثر من مناسبة اعتدى التركمان على الموظفين العثمانيين ، الذين حاولوا القيام بالاحصاء بينهم . وكان الحد من غزوات التركمان في الريف وبالتالي حماية الفلاح والزراعة منهم ،

---

١ ــ انظر ص ١٤ .

واجباً أساسياً للدولة العثمانية التي يقوم اقتصادها على الزراعة • وزاد في الأمر أن التركمان أظهروا تعلقاً بالطرق الصوفية التي تدعو الى تعاليم وطقوس تتفق مع حياتهم ، ومن هنا كثرة انتشار الطرق الصوفية بين التركمان ، وخاصة في أواسط آسيا ، منذ القرن الثالث عشر • وفي الواقع ، أخذت القبائل التركمانية في شرقي الأناضول تتجاوب مع دعوة الشاه اسماعيل الصوفية الشيعة ، لأنه تركماني مثلها • وقامت ، في عام ١٥١١ ، ثورة بين تركمان الأناضول ، بقادة رجل عُرف بلقب شاه قولي (عبد الشاه) ، وفي بعض المصادر بلقب شيطان قولي • وقد أعلن ولاءه للشاه الصفوي ،وتكاثر اتباعه ، واحتل كوتاهية ، وحاصر بورصة ، مما اضطر السلطان العثماني الى ارسال قوة قضت عليه •[1] وكان ذلك نذيرا للعثمانيين بالخطر الذي يمثله الشاه اسماعيل بالنسبة لسكان الامبراطورية العثمانية بالذات •

وازدادت العلاقات العثمانية ــ الصفوية تأزماً ، في مطلع عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢ ــ ١٥٢٠) ، حين ثار عليه بعض اخوته الطامعين في الحكم • فلجأ أحمد ، ابن أخيه الثائر ، الى الشاه اسماعيل ، الذي استغل وجوده لتأليب المعارضة على السلطان سليم • وسار هذا الأخير لقتال الصفويين ، وهزمهم في موقعة جالديران ، قرب تبريز ، في ٢٣ آب ١٥١٤، واحتل عاصمتهم تبريز ، وذكر اسمه في الخطبة في جوامعها • واتضحت بنتيجة هذه المعركة ثلاث نقاط رئيسية : أولاً ، فعالية بندق الرصاص والمدفعية التي استخدمها العثمانيون ضد قوى الصفويين المؤلفة بغالبيتها من التركمان الفرسان • وكان ذلك حاسماً في تاريخ المنطقة ، خاصة بعد أن انتصر هذا السلاح ، بعد سنتين،على المماليك ؛ ثانياً ، ضم الأناضول الشرقية نهائياً الى الامبراطورية العثمانية ، واحتلال ديار بكر ، ومنطقة مرعش في عام ١٥١٥ ، من أيدي زعماء التركمان ، وكان لذلك فوائد استراتيجية واقتصادية هامة ، فقد حمت الهضبة الاناضولية في الشرق الدولة العثمانية

---

١ ــ انظر : Inalcik, "The Rise of the Ottoman Empire", The *Camb. Hist. of Islam*, Vol. I, p. 314.

من الغزاة القادمين من أواسط آسيا ، كما سيطر العثمانيون ، نتيجة لذلك ، على طرق نقل الحرير الفارسي ، بين تبريز وحلب ، وبين تبريز وبورصه• وقدرت واردات ولاية ديار بكر في عام ١٥٢٨ بثُمن واردات البلقان بكامله[١] ؛ ثالثا ، الحاجة الى اعادة تنظيم الجيش والادارة في الدولة الصفوية ، بعد أن وهنت العلاقة السياسية بين الشاه والقبائل التركمانية المعروفة بالقزلباش ، وكذلك العلاقة الصوفية بينه كمرشد أكبر ، وبينهم كمريدين • وقد شغل ذلك الحكام الصفويين طيلة القرن السادس عشر مما مكن العثمانيين من احتلال العراق دون معارضة صفوية تذكر •

ولم يتابع العثمانيون ، بعد احتلالهم تبريز ، التوغل في الأراضي الصفوية لأسباب متعددة منها صعوبة اختراق الهضبة الفارسية ، والقحط في المنطقة بسبب « سياسة الأرض المحروقة » التي اتبعها الشاه الصفوي بعد انسحابه ، اذ أتلف كل ما يمكن أن يفيد منه العدو ، وهذه سياسة اتبعها الصفويون باستمرار • ويذكر أن الشاه طهماسب الاول (١٥٢٣-١٥٨٨) ، ازاء الصعوبات الداخلية في بلده ، جعل سياسته الدفاعية مبنية على الابقاء على مناطق الحدود في أذربيجان جرداء باستمرار في وجه العثمانيين • وقد تمرد الانكشارية أيضاً على فكرة متابعة الهجوم • وفي الواقع ، لم يكن هدف العثمانيين اشغال قواتهم في فتوحات غير ضرورية استراتيجياً وسياسيا ، وتجاوز السلطنة المملوكية الهامة وتركها تهدد مؤخرتهم • وقد قام العثمانيون باحتلال الموصل في طريق عودتهم •

وقد بددت هزيمة جالديران أسطورة الشاه المرشد الأكبر ، الذي لا يقهر ، ففقد احترام اتباعه ومريديه ، الذين لم يعودوا يقدمون له طاعة عمياء كالسابق ، واحتاج الى مقدرة كبيرة لاخضاع جنوده لأوامره ، ولجأ الى استجداء محبتهم وعواطفهم نحوه • وفي السنوات العشر التالية لم يقد الشاه عباس جنوده الى اية معركة ، بل إنصرف الى الصيد او الى الخمرة لتبديد حزنه ، وفقد تعبير الصوفي كثيرا من اهميته على توالي الزمن •

---

١ ــ انظر : *Ibid.*, p. 316.

وازاء فقدان الشاه اسماعيل لكثير من نفوذه فقد ازدادت ، بالمقابـل ، سلطة زعماء القبائل التركمانية وكبار الموظفين في البيروقراطية الفارسية • وخلال عـام من وفاة الشاه اسماعيـل في ١٥٢٤ ، نشبت حرب اهلية بين قبائـل القزلباش المتنافسة على السلطة ، ولم يتمكن الشاه طهماسب الاول ، وله من العمر عشر سنوات حين خلف اباه اسماعيل ، من السيطرة على الامور • وادرك الصفويون انه ، لتوطيد سلطتهم فيوجه التركمان المعارضينوالاعداء الخارجيين ، يجب التخلي عن الجيش القبلي ، وايجاد قوات جديـدة ، وبدأ ذلك في عهد طهماسب الاول ، الذي طـرد أفراد القبائل المتمردة من الجيش وبدأ بادخال عناصر جيورجية وشركسية مكانها • وساعده عـلى ذلك قيام سلم بينه وبين العثمانيين دام ثلاثين عاما ، بموجب معاهـدة أماسيا في عام ١٥٥٥ • وبلغت عملية تحديث الجيش اوجها في عهد الشاه عباس الاول (١٥٧٨ ــ ١٦٢٩) ، الذي انقص عدد جنود القبائل الى حد كبير ، واوجد جنودا من العبيد (Qullar) ، مزودين بالاسلحة النارية ، ويدينون بالولاء للحكومة المركزية • وكان يؤتى بالقسم الاكبر من هؤلاء الجنود الجدد من مناطق جيورجيا والقفقاس ، ويدربون في مدارس خاصـة • واستعادت بذلك الدولة الصفوية كثـيرا من هيبتها العسكريـة ، وتوالت اصطداماتها ، في القرن السابع عشر ، مع الدولـة العثمانيـة ، في مناطق الحدود[1] •

فتح بلاد الشام ومصر

منـذ ان احتـل العثمانيون القسـطنطينية ازداد اهتمامهم بالسلطنـة المملوكية ، واتخذ ذلك مظهر العداء أو الدعـم حسب الظروف • وحدث بين الطرفين صراع على النفوذ حول امارة ألبستان ، التي امتدت على الفرات

---

١ ــ انظر :

R. M. Savory, "The Principal offices of the Safawid State during the reign of Isma'il I (907-930/1501-24)", *BSOAS*, XXIII, 1 (1950), pp. 91-99; *Tadhkirat al-Muluk* — a manual of Safawid administration (circa 1137/1725), translated and explained by V. Minorsky, London, 1943, pp. 131-132.

الأعلى بين مرعش وملاطية ، وهي واحـدة من عدة امارات تركمانية (مثل الحمل الاسود والحمل الابيض) ، نشأت في مناطـق الثغور بسبب تجمـع التركمان فيهـا • وسميت هـذه الامارة « بألبستان » نسبة الى عاصمتها ، ودعيت كذلك بامارة ذي القدر ، أو القدرية ، على اسم اسرة تركمانية حكمتها في الفترة بين حوالي ١٣٥٣ و ١٥٢٢ ، حين احتلها العثمانيون • وقد تدخل المماليك والعثمانيون في شؤون هذه الامارة العازلة بين منطقتيهما ، فأيد كل منهما أميراً تركمانيا ، ومارس النفوذ من خلاله • ونتج عن هذا اقتتال بـين أفراد الاسـرة الحاكمة في امـارة ألبستان ، وتأزم في العلاقات المملوكية ــ العثمانية[1] •

ومما زاد هذه العلاقات سوءاً ايواء المماليك للثائرين على السلاطين العثمانيين ، مثل الامير جـم ، ابن السلطان محمد الثاني ، الذي ثـار عـلى اخيه بايزيد ، حين خلف أباه في السلطنة في عام ١٤٨١ • وقد لجأ جم الى المماليك ، وايده سلطانهم قايتباي ، ولـكن جم هزم ، ولجأ الى اوروبا ، حيث توفي عام ١٤٩٥[2] •

واتجهت العلاقات العثمانية المملوكية نحو التحسن ، في العقد الاول من القرن السادس عشر ، بسبب تهديد البرتغاليين والصفويين لكل مـن الدولتين • وقد ادى تدخل البرتغاليين في البحر الاحمر ، في هذه الفترة[3] ، الى طلب المماليك الدعم من العثمانيين ، وأرسل هؤلاء الى المماليك ثلاثين سفينة ، تحمل ثلاثمائة مدفع ، وأخشاباً • ولكن فرسان القديس يوحنا في رودوس استولوا عليها • وفي عام ١٥١١ نجح العثمانيون بايصال اربعمائة مدفع واربعين قنطارا (قرابة طنين) من البارود الى المماليك • كما ارسلوا قبيل عام ١٥١٢ ، عدداً من ضباط البحرية الى مصر للاشراف على سفنها •

---

١ ــ أنظر حول تاريخ هذه الامارة : F. Taschner, *E. I.²*, s.v. Albistan; H. Mordmann—(V. Ménage), *E. I.²*, s.v. Du'l-Kadr.

٢ ــ أنظر حول جم : H. Inalcik, *E. I.²*, s.v. Djem.
وابن طولون ، مفاكهة الخلان ، جـ ١ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٥٣ ؛ وبلاد الشام ومصر ٤٦ــ٤٨ •

٣ ــ أنظر ص ١٨ •

وزوّد العثمانيون المماليك بالخشب والقطران والحديد ، لصناعة السفن • ويبدو ايضا ان قراصنة عثمانيين من غربي الاناضول قد استخدموا في الاسطول المملوكي • [1] ويفسر هذا الدعم العثماني للمماليك بحرص العثمانيين على حماية مؤخرتهم في البلاد العربية من خطر برتغالي داهم ، مما يهدد استراتيجيتهم وحتى زعامتهم المنتظرة للعالم الاسلامي • كما ان صفة العثمانيين كغزاة ، يقاتلون أعداء الدين ، تحتم عليهم مقاومة البرتغاليين وحماية الاماكن المقدسة في الحجاز • ومن اجل هذا اوقف السلطان سليم العثماني ، كما فعل اسلافه من قبله ، الاوقاف في الاناضول للانفاق على الاماكن المقدسة ، وحظي مقابل ذلك باعتراف شريف مكة بحمايةالعثمانيين للاماكن المقدسة ، وتأكد ذلك بهزيمة المماليك على يد العثمانيين •

والخطر الآخر الذي قرّب ما بين العثمانيين والمماليك ، في القرن السادس عشر ، هو الخطر الصفوي • ففي عام **١٥٠٧** هاجم الشاهاسماعيل امارة البستان ، واخضعها لنفوذه ، وبذلك دخل ميدان الصراع على النفوذ حول هذه الامارة ، بعد ان كان ذلك مقتصراً على العثمانيين والمماليك • وقد اثار تبني الصفويين المذهب الشيعي بصورة رسمية قلق جيرانهم ، من عثمانيين ومماليك ، خاصة وانهم حاولوا نشره بين القبائل التركمانية • وزاد في الامر محاولة الشاه اسماعيل ايجاد حلفاء له في اوروبا ، وعثور المماليك على مكاتبات بينه وبين البنادقة بهذا المعنى [2] ، مما يهدد مصالح العثمانيين والمماليك على حد سواء • ولكن المماليك لم يدعموا العثمانيين ، حين هاجموا الصفويين وانتصروا عليهم في جالديران ، وذلك بسبب ضعفهم ، وأيضا خوفهم من ازدياد قوة العثمانيين • وفي الواقع ، حاول المماليك التفاهم مع الصفويين أثناء ذلك [3] • واستاء العثمانيون ، واتهموا

١ ـ Inalcik, "The Rise of the Ottoman Empire", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. I, p, 317,

٢ ـ أنظر : ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، جـ ١ ، ٣٤٣ ؛ محمد بن أياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الأجزاء ٣ ـ ٥ ، الطبعة الثانية ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٢ ، جـ ٤ ، ١٩١ ، ٢٠٥ •

٣ ـ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، جـ ١ ، ٣٤٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ؛ ابن اياس ، جـ ٤ ، ٢٢٠ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ •

المماليك بالتعرض الى قوافل المـؤن العثمانية المتجهة نحو الجبهة الصفوية • واشتكى المماليك بدورهم من تعرض العثمانيين لتجار المماليك ، الذين يأتون بالمماليك الشراكسة الى السلطنة المملوكية • وزاد في الأمـر رفض المماليك تسليم ابن أخ السلطان سليم الأول العثماني الذي لجأ اليهم ، وكان قد ثار عليه وهرب أولا الى الصفويين (١) •

اصطدم الجيشان العثماني والمملوكي ، في ٢٣ آب ١٥١٦ ، في مرج دابق ، قرب حلب ، وهـزم المماليك ، وتوفي السلطان قانصوه الغوري أثناء المعركة • ويعزى انتصار العثمانيين الى استخدامهم السلاح الناري اليدوي ، الذي لم يستخدمه المماليك • وقـد حرص السلطان الغوري عـلى سلامـة مشترواته وتوفيرهم لحمايته فلم يدفع بهم الى القتال ، في حين رمى في لظى المعركة بالقرانصة من مماليك السلاطين السابقين ، فتقاعسوا عن القتال حين علموا بهـذا التمييز • كما أن الخيانة انتشرت في صفوف المماليك ، وانتقل خاير بك ، والي حلب المملوكي ، الى جانب العثمانيين ابان القتال (١) •

واتجه السلطان سليم نحو حلب ، يرافقه الخليفة العباسي المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بـن المستمسك بالله ، الذي كـان بصحبة السلطان الغوري • ودخل حلب برضى أهلهـا ، الذين قاسوا من عساكر المماليك في السابق • وذكر اسم السلطان سليم في الخطبة في جوامع حلب يوم الجمعة في ٨ شعبان ٩٢٢/٣ ايلول ١٥١٦ ، ولقب بخادم الحرمين الشريفين • ثـم سار العثمانيون باتجاه الجنوب ، فاحتلوا حماة وحمص ، ووصلوا دمشق ، التي عين عليها جـان بردي الغزالي نائباً من قبل المماليك المنهزمين ، ولكنه هرب بدوره الى مصر • وقدم زعماء دمشق الخضوع للعثمانيين ، وكان على رأسهم قضاة المذاهب الأربعة ونقيب الأشـراف ونائب القلعة المملوكـي • وحاول العثمانيون ادخال تنظيمات جديدة تتعلق بالتأكـد من هوية أصحاب

---

١ ـ أنظر حول هذه التطورات : بلاد الشام ومصر ، ٤ ، ٩٦ـ٩٧ •

٢ ـ أنظر تفاصيل ذلك في : بلاد الشام ومصر ، ٩٦ ـ ١٠١ •

الوظائف الدينية ومستنداتهم ، وكذلك أصحاب الاقطاعات ومنشوراتهم ، وأجروا احصاء للسكان والممتلكات بغية فرض الضرائب عليها ، فأثار ذلك نقمة الدمشقيين • وكان السلطان سليم مقيماً آنذاك في برزة ، في ضواحي دمشق ، يراقب الامور ، فتدخل ، كمنقذ ، وألغى هذه الاجراءات • وعزل الوالي العثماني يونس باشا ، الذي أمر بها ،كما أنه وزع المال على العلماء • وزين ثوب المحمل الشريف الذي يرافق قافلة الحج الى الحجاز ، وزار قبر زعيم الصوفية محي الدين بن عربي في الصالحية ، ووزع المال على أهلها، وجلهم من العلماء والصوفية ، وذلك في محاولة منه لكسب التأييد الشعبي • ورغم القوة العسكرية التي تمتع بها العثمانيون والتي أذهلت الدمشقيين ، حين أطلقت قواتهم المدافع في تظاهرة عسكرية في برزة ، فظن أهل دمشق « أن السماء انطبقت على الأرض » [1] ، فقد كان العثمانيون بحاجة الى التأييد الشعبي ، لأن الخطر المملوكي في مصر ما زال قائماً ، على الأقل في أذهان الناس •

ويبدو أن السلطان سليماً لم يكن ، في هذه الأثناء ، مهتماً كثيراً بفتح مصر • لقد حطم امكان التحالف بين الصفويين والمماليك ، واحتل بلاد الشام ، وحصل على لقب حامي الحرمين الشريفين ، وفي كل هذا فوائد عسكرية ودينية كثيرة • ثم ان حملته على مصر ستعرضه لمخاطر اجتياز سيناء ، بما في ذلك تعرضه لهجمات البدو فيها ، وامتداد خطوط مواصلاته • وكان المماليك يجمعون قواتهم في مصر برئاسة السلطان طومان باي ، الذي بايعه والد الخليفة العباسي المحتجز لدى العثمانيين [2] • ويضاف الى ذلك أن توجه العثمانيين الى مصر من شأنه أن يشجع الصفويين على استغلال ذلك وتهديد مناطقهم • كما أن احتلال العثمانيين لمصر ستترتب عليه مسؤوليات دفاعية كبيرة ، وخاصة تجاه البرتغاليين في البحر الاحمر والمحيط الهندي •

---

١ ـ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، جـ ٢ ، ٣٠ •

٢ ـ محمد بن محمد أبي السرور البكري الصديقي ، التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية ، مخطوط في المكتبة الوطنية في فيينا ، رقم Cod. Arab. 925, A.F. 283 الاوراق ، ١٢١ أ ـ ١٢٣ ـ ؛ ابن اياس ، جـ ٥ ، ١٠٢ ـ ١٠٥ •

ولهـذه الأسباب عرض السلطان سليم ، وهو في دمشق ، عـلى طومان باي البقاء في حكم مصر شريطة أن يذكر اسم السلطان العثماني في الخطبة وعلى السكة • ولكن طومان باي رفض عرض التبعية هذا ، بتحريض من أمـراء المماليك • وازاء هذا الرفض ، وبالحاح من خاير بك ، الذي خشي على حياته من بقاء السلطنة المملوكية ، وطمع بحكم مصر ، توجـه السلطان سليم الى مصر ، وهـزم المماليك في موقعة الريدانية في ٢٣ كانون الثانـي **١٥١٧** • ودخل العثمانيون القاهـرة ، وخطب للسلطان سليم في جوامعها ، ودار قتال في شوارعها ، بين العثمانيين والمماليك ، استمر ثلاثة أيـام • وكان الخليفة العباسي بصحبة العثمانيين لاسباغ الشرعية ، أمـام الشعب ، عـلى فتحهم • ولجأ طومان باي الى شيخ بدو البحيرة حسن بن مرعي فسلمه الى العثمانيين ، فقتلوه وعلقوه في باب زويلـة في القاهـرة ، في ١٣ نيسان **١٥١٧** ، وسيطر العثمانيون على مصر [1] •

ومما يلاحظ على الفتح العثماني لبلاد الشام ومصر أن العثمانيين لـم يلقوا مقاومة تذكر في الاولى ، لأن المماليك كانوا قلة في بلاد الشام ، وهرب معظمهـم الى مصر في أعقاب هزيمة مرج دابق • كما أن الشعب لـم يقاوم العثمانيين ولم يدافع ، في الوقت نفسه ، عن المماليك ، بسبب ظلمهم السابق له ، بل وقف كالمتفرج ، وهو يستبدل حاكماً غير عربي بحاكم آخـر غـير عربي • أما في مصر ، حيث تمركـز المماليك ، فقد قاوموا العثمانيين بعنف أكبر • وحاول كل من الفريقين كسب الشعب المصري الى جانبه ، فقد أعلن العثمانيون ، عند وصولهم بلبيس ، في طريقهم لقتال المماليك ، أنهم سيعاملون السكان المحليين ، بما في ذلك الفلاحين ، باللين ، في محاولة منهم للتفريق بينهم وبين المماليك [2] • وبالمقابل ، أعلن طومان باي اسقاط الضرائب عن الفلاحين والبدو لمدة ثلاثة أعـوام ، لكسب تأييدهـم له • وفي الواقع ، كان

---

١ ــ انظر حول أحداث مصر في هذه الفترة : ابن زنبل ، ١٥٠ ــ ١٢٤ ب ، ابن اياس ، جـ ٥ ١٥٩ ــ ١٧٧ ؛ ابن أبي السرور ، التحفة البهية ، ٢٩ أ ــ ٣٢ ب •

٢ ــ انظر : Inalcik, "The Rise of the Ottoman Empire", *The Camb. His. of Islam*, Vol. I, p. 319.

موقف البدو المنتشرين في المناطق الاستراتيجية على الطريق الى بلاد الشام ، وفي الدلتا والصعيد ، حاسماً في تأييدهــم للعثمانيين وتخليهم عن المماليك • واستخدم العثمانيون بعض أمراء البدو في قتال المماليك •

وشعر العثمانيون ، بعد سيطرتهم على مصر ، بحرية أكثر في التعامل مع السكان المحليين ، وأعقبوا كل انتصار لهم باتخــاذ اجراءات غير شعبية ، كانوا قــد ترددوا في تنفيذهــا في السابق • فبعد انتصار الريدانية ، أرسل العثمانيون البشائر بذلك الى دمشق ، وأعقبوها بابطال العملة القديمة واصدار عملة جديدة، كما شددوا قبضتهم لضمان الأمن [1] • وحين أرسل العثمانيون الى دمشق أنباء شنقهم طومان باي والقضاء على مقاومة المماليك ، أعقبوا ذلك باجراء آخر «غير شعبي» ، وهو تخفيض سعر العملة العثمانية بمقدار النصف ، فتضرر الدمشقيون كثيراً ، ولكنهم لم يجرأوا على الثورة • واتخذت اجراءات أمــن مشددة لردع (الزعــر) ، الذين نشطوا في دمشق، في أعقاب الأنباء المتضاربة عن مصير العثمانيين في مصر • ويمثل (الزعر) العنصر المحلي الذي قاوم المماليك والعثمانيين عــلى حــد سواء • وأقــام العثمانيون (الخوازيق) في الحارات لأرهاب الأهلين ، وأوعــز الوالي والقاضي والدفتردار في دمشق بتسجيل الممتلكات ، داخل المدينة وخارجهــا ، وبالتفتيش عــلى المستندات المتعلقة بها لمعرفة التزوير فيها ، كما طلبت مستندات الأوقاف لتدقيقها [3] •

وفي مصر استمرت الادارة المملوكية في أعقاب الفتح العثماني ، وأبقي كثيراً من الموظفين المماليك ، مثل أينال السيفي وجانــم السيفي ، في مناصب الكشوفيات ، وكذلك في امارة الحــج والدفتردارية • واستمر شيخ قبيلة

---

١ ــ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، جـ ٢ ، ٤٣ ــ ٤٧ ، ٥٨ ــ ٥٩ •

٢ ــ أنظر حول نشاط الزعر • المصدر السابق ، ٤١ ــ ٤٣ ، محمد بن طولون ، أعلام الورى بمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دمشق ، ١٩٦٤ ، ص ٢٢١ •

٣ ــ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، جـ ٢ ، ٩٠ ــ ٩٥ •

هـوارة في امـارة الصعيد • وبقـي أصحاب الاقطاعات والأوقاف يتمتعون بامتيازاتهم • وأرسل السلطان سليم عدداً من أصحاب الحرف والصنائع الى استانبول للمساهمة في نشاطاتها ، كما فعل سابقاً حـين احتل تبريز عاصمة الصفويين • ثم غادر السلطان سليم مصر في ١٠ ايلول ١٥١٧ ، بعد أن عين عليها والياً خاير بك المملوكي • وكان قد سبقه الى استانبول الخليفة العباسي المتوكل على الله ، بناء على أوامر السلطان سليم ، ولكنه عاد الى مصر في أعقاب وفاة السلطان سليم الأول ، واستمـر في الخلافة حتى وفاتـه في ١٢ شعبان ٩٥٧/٢٦ آب ١٥٥٠ [١] •

وفي أعقاب عودة السلطان سليم الى دمشق من مصر أدخل اليها بعض التنظيمات ، فأمر بحصر البيوت فيها ، وكتابة أسماء أصحابها ، وفرض عليهم ضريبة جماعية ، وزعت عليهـم بشكل متفاوت ، حسب مراتبهـم في الغنى والفقر ، وفرضت كذلك ضريبة من القمح على كل حارة في دمشق •

وقد أبقى العثمانيون كثيراً من مظاهر الادارة المملوكية في بلاد الشام لفترة مؤقتة ، وذلك لدوام استمرار الامور ، وعينوا جـان بردي الغزالي ، والي حماة في عهد المماليك ، والذي انتقل الى صفوف العثمانيين عند فتحهم مصر ، والياً على دمشق • وأزالوا من السلطة بعض الأمراء الذين وقفوا الى جانب المماليك ، مثل التنوخيين أمراء جبل لبنان ، وأحلوا مكانهم المعنيين ، الذين أيدوا العثمانيين في معركة مرج دابق • وطرد العثمانيون الأمير البدوي ناصر الدين بن الحنش ، الذي سيطر على منطقة البقاع الغنية ، وبالتالي على الطريق الرئيسية التي تربط دمشق مع بيروت ، وعينوا مكانه الأمـير محمد ابن قرقماس الشركسي ، ولكن آل الحنش عادوا بعد ذلك الى حكم البقاع [٢] • وأبدى السلطان سليم اهتماماً بسلامة قافلة الحج الشامي •

---

١ ـ انظر ص ٤ •

٢ ـ انظر حول تاريخ آل الحنش في هذه الفترة :
Francis Hours, S. J. et Kamal Salibi, "Muhammad ibn al-Hanash Muqaddam de la Biqa', 1499-1518", *Mélanges de l'Université Saint-Joseph*, t. XLIII (1968), pp. 1-23.

فتح العراق

كان طبيعياً ، بعد أن احتلت الدولة العثمانية بلاد الشام ومصر أن تتطلع الى احتلال مركز الخلافة الآخر ، بغداد ، فتجمع بذلك بلاد المشرق العربي تحت سلطتها ، وتحول دون محاولات الصفويين الاستيلاء على العراق • وكان العثمانيون ، في أعقاب انتصارهم على الصفويين في جالديران عام ١٥١٤،قد فرضوا نفوذهم على الموصل وديار بكر وماردين وعينوا حكاماً من قبلهم عليها • كما هرع أمراء أردلان والعمادية وجزيرة ابن عمر ، لتقديم الولاء لهم • وأقيمت حامية عثمانية قوية في ولاية وان • ونتيجة لهذا التوسع في النفوذ العثماني ، فقد ضعف الحكم الصفوي فيبغداد وأصبح اسمياً في العراق الأوسط بصورة عامة • واستغل هذا الضعف زعيم قبيلة كردية ، يدعى ذو الفقار ، وكان حاكماً في أطراف لورستان ، فاغتال حاكم بغداد الصفوي ، وحل مكانه في عام ١٥٢٤ • ولكنه شعر بالعزلة والأخطار المحيطة ، فتحول وجهة استانبول ليكسب دعمها ، وذكر اسم السلطان العثماني في الخطبة وعلى السكة •

وحاول الشاه طهماسب الاول الصفوي ، في عام ١٥٣٠ ، اعادة فرض سيطرته على بغداد ، لكن بدون جدوى ، الا أن الخيانة نجحت حيث فشل السلاح • وتوصل طهماسب الى تأليب شقيقي ذي الفقار ضده ، فقتلاه في عام ١٥٣٠ ، وانتهت بذلك وصاية استانبول على حاكم بغداد ، وأخذ النفوذ الصفوي يتزايد فيها • وزاد في الأمر أن حاكم بتليس ، شرف خان ، قد خضع للنفوذ الصفوي ، بعد أن كان موالياً للعثمانيين • وبالمقابل ، لجأ حاكم تبريز الصفوي الى العثمانيين ، فبعثوا به لقتال شرف خان • ورغم هزيمة هذا الأخير ومقتله ، فقد كسب الشاه طهماسب مناطق جديدة ، ووجب على السلطان العثماني أن يحد من توسعه • واستاء العثمانيون أيضاً من محاولة الشاه طهماسب الأول اثارة القزلباش في الأناضول ، مقتفياً بذلك خطى سلفه الشاه اسماعيل • وبتشجيع من الصفويين حدثت ثورة في الأناضول بقيادة قلندر جلبي ، في عام ١٥٢٧ • ولم ينظر العثمانيون بارتياح الى العلاقات

الحسنة بين الشاه طهماسب وشارل الخامس (شارلكان) ، الذي اعتلى عرش آل هابسبورغ في فينا في عام ١٥١٩ • واستقبل الشاه مبعوثي شارل الخامس في عام ١٥٢٩ • وتضيف بعض المصادر أن استنجاد السنة في بغداد بالسلطان العثماني قد دفعه أيضا لانقاذهم من ضغط الصفويين •

عين العثمانيون الصدر الأعظم ابراهيم باشا قائداً على الجيش المتجه لاحتلال العراق ، وغادر استانبول في ٢ ربيع الآخر ٩٤٠/٢١ تشرين الاول ١٥٣٣ ، فأمضى فصل الشتاء في حلب ، ثم اتجه نحو ديار بكر • وجرت بعض الاشتباكات بينه وبين الأمراء المحليين ، في مناطق الحدود ، واعترف كثيرون منهم بالعثمانيين • ثم اتجه نحو تبريز ، فاحتلها في ١ محرم ٩٤١/ ١٣ تموز ١٥٣٤ ، وقدم له فيها الإمراء المحليون خضوعهم ، ومن بينهم أحد المقربين من الشاه طهماسب، ويسمى محمد خان بن ذي القدر • وخضع له كذلك أمراء غيلان وشروان ، الذين استمدوا ثروتهم من تجارة الحرير ، الذي يمر عبر تبريز الى حلب وبورصة ، ولهذا يهمهم ارضاء العثمانيين • وقد لحق السلطان سليمان القانوني بابراهيم باشا في تبريز ، واتجه الاثنان نحو بغداد ، عن طريق همذان ، بهدف السيطرة على الطريق التي تربط بغداد بالشمال والشرق • وقطعت القوات العثمانية بذلك امكانية نجدة الصفويين لبغداد • ولم يحاول الشاه طهماسب مجابهة الهجوم العثماني ، مما أخاف الامراء الخاضعين للصفويين والمنتشرين على الطريق الى بغداد ، فخضعوا للعثمانيين • ويذكر أن فصل الشتاء ، وكثرة الفيضانات ، وصعوبة اجتياز المناطق الجبلية في العراق الشمالي ألحقت بعتاد العثمانيين وقواتهم خسارة أكبر مما أوقعه بهم الأعداء • ثم جاءت الامدادات لتعوض عن ذلك • ووصل العثمانيون الى همذان في ٢٢ ربيع الثاني ٩٤١/٣١ تشرين الاول ١٥٣٤ ، ثم تابعوا مسيرهم الى خانقين ، فأرسل حاكم بغداد الصفوي ، محمد خان ، يعلن خضوعه للعثمانيين ، بعد أن عجز الشاه طهماسب عن مده بالمعونة • ودخل الصدر الأعظم بغداد في ٢٤ جمادى الثاني ٩٤١/٣١ كانون الاول ١٥٣٤ ، وبعد يومين دخلها السلطان سليمان ، وسط مظاهر الحفاوة الشعبية •

وأصدر السلطان أوامر مشددة الى عسكره بعدم التعرض للأهالي ، وحاز على رضاهم أيضاً بزيارته الأماكن المقدسة في بغداد ورصده المال لها ، سواء منها السنية أو الشيعية ، وقام بجهد خاص لاكتشاف قبر أبي حنيفة ، وأمر ببناء قبة عنده •

وهرع زعماء القبائل والأعيان الى بغداد لتقديم ولائهم للسلطان العثماني ، وكان من بينهم أمير البصرة البدوي ، راشد بن مغامس ، الذي كان قد استقل بها ، وذكر اسمه في الخطبة وعلى السكة ، فأبقاهم السلطان سليمان ولاة من قبله • وهكذا خضعت للعثمانيين البصرة ، والتلال اللورية، والحويزة ، وسيطر العثمانيون بذلك على واحد من الطرق التجارية الهامة التي تربط الشرق الأقصى بأوروبا ، بواسطة الخليج العربي وبغداد والموصل وحلب ، أو بواسطة بغداد ودمشق وصيدا • وترتب على العثمانيين بنتيجة ذلك ، مسؤوليات دفاعية جديدة ، خاصة ضد البرتغاليين فيمنطقة الخليج •

وبعد أن عين السلطان سليمان حاكم ديار بكر العثماني سليمان باشا والياً على بغداد ، وأبقى فيها قرابة ألفين من الجنود ، غادرها في ٢٨ رمضان ٢/٩٤١ نيسان ١٥٣٥ ، باتجاه أذربيجان ، واحتل كثيراً من القلاع الاستراتيجية ، في منطقة كركوك ، لحماية مناطقه المفتتحة • ووصل تبريز في ١ محرم ٢/٩٤٢ تموز ١٥٣٥ ، فاستسلمت له ، واضطر الشاه الصفوي الىطلب الصلح ، ووافق السلطان سليمان على ذلك ، وأخلى له تبريز مقابل تقديم الشاه الطاعة للسلطان • ثم غادر السلطان سليمان المنطقة ، ووصل استانبول في ٤ رجب ٢٩/٩٤٢ كانون الاول ١٥٣٥ •

وقد قسمت العراق الىأربع ولايات : بغداد وفيها ثمانية عشر صنجقاً ؛ الموصل وفيها ستة صناجق ؛ البصرة بدون صناجق ؛ وشهرزور وفيها عدد من الصناجق بلغت أحياناً العشرين ، بما فيها القلاع • وتقع ولاية شهرزور في منطقة جبال كردستان ، على الحدود مع الصفويين ، ولهذا تعرض الحكم

العثماني فيها باستمرار الى الأخطار . أما البصرة ، التي تقع في منطقة قبائل قوية ، فكانت دائماً مثار نزاع ، بين سلطات بغداد وهذه القبائل .[1]

واحتل العثمانيون في عام ١٥٥٠ ، القطيف ، في منطقة الخليج ، ثم مدوا نفوذهم الى الاحساء ، التي احتلوها في عام ١٥٥٢ ، وأبعدوا عن حكمها قبيلة بني خالد القوية . ولكن هذه القبيلة بقيت تقوم بالثورة تلو الاخرى حتى استعادت حكمها في عام ١٦٧٠ . وجعلت الاحساء ولاية عثمانية وقاعدة أمامية للدفاع ضد البرتغاليين المتمركزين في هرمز ، وكذلك ضد الصفويين. واشترك والي الاحساء مع والي البصرة في صد غزوات البدو عند مناطق الحدود مع الجزيرة العربية . وجرت محاولة فاشلة ، في عام ١٥٥٨ ، من قبل والي الاحساء لاحتلال البحرين ، التي كان يحكمها أمير تابع لخان منطقة لار . وكان هذا الامير حريصاً على عدم الخضوع للصفويين أو العثمانيين . واضطر الى الاستعانة بالبرتغاليين في هرمز لمقاومة مخططات والي الاحساء ضده . وعندما غزا البرتغاليون القطيف في ١٥٥٢ ، و ١٥٥٩ ، و١٥٧٣ أرسلت الأوامر الى البصرة ، وأحيانا الى بغداد،وليس الى الاحساء، للدفاع عنها ، مما يدل على أن أمر الخليج ترك لولاة البصرة بصورة رئيسية ، بينما اقتصر دور والي الاحساء على اخضاع البدو .[2]

فتح اليمن وشرقي السودان

تعرض المحيط الهندي وسواحل البحر الاحمر ، منذ أواخر عهد

---

١ ــ يراجع حول تفاصيل احتلال العثمانيين للعراق :

S. Longrigg, *Four centuries of Modern Iraq*, Oxford, 1925 (reprinted Beirut, 1968), pp. 12-26; R. Mantran, "Bagdād à l'époque Ottoman", *Arabica*, 1962, pp. 311-313; Inalcik, "The Heyday and Decline of the Ottoman Empire", The Cambridge History of Islam, Vol. I, pp. 330-331.

٢ ــ أنظر حول احتلال العثمانيين الاحساء :

J. Mandaville, "The Ottoman Province of Al-Hasa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", *Journal of the American Oriental Society (JOAS)*, Vol. 90. No. 3 (July-Sept. 1970), pp. 486-512.

السلطنة المملوكية ، الى غزوات البرتغاليين • [1] واضطر المماليك الى تركيز مدفعيتهم على سواحل البحر الأحمر للدفاع عنه ، كما أرسلوا نجدات عسكرية الى سلطان الهند المسلم ، مظفر شاه ، الذي استنجد بهم ضد البرتغاليين • وكانت القوات التي أرسلها السلطان المملوكي قانصوه الغوري لنجدته تتألف من اللاوند ، الذين كانوا من أصل رومي • وهذه القوات أرسلها العثمانيون الى مصر ، بقيادة سليمان رئيس وحسين الكردي ، لخدمة المماليك ، وبقيت فيها حتى الفتح العثماني • واتخذت هذه القوات مدينة جدة قاعدة لها ، وعين قائدها الأمير حسين الكردي والياً على جدة • ولم يثبت الأمير حسين الكردي في الهند طويلا ، ازاء الخطر البرتغالي المتزايد فيها وضعف المماليك آنذاك ، فعاد منها ، واستخدم قواته في القضاء على قوات السلطان عامر بن عبد الوهاب ، آخر ملوك بني طاهر في اليمن (بدأ حكم هذه الأسرة في اليمن حوالي عام ٩٥٨/١٤٥٤-١٤٥٥)• وتمكن الأمير حسين ، بمساعدة الزيدية ، أعداء السلطان عامر ، من احتلال زبيد في ١٩ جمادى الاول ٩٢٢/٢٠ تموز ١٥٢٢ ثم توجه لاحتلال عدن ، وكانت آنذاك مركزاً هاماً للتجارة والسفن القادمة من الهند ، ويحكمها الأمير مرجان العامري ، الذي كان تحت نفوذ حكام اليمن • وقد فشل الأمير حسين في احتلال عدن ، بعد أن تلقت مساعدة عسكرية وصلتها من تعز بقيادة شقيق السلطان عامر • واضطر الامير حسين في ٢١ رجب ٢٢/٢٠ آب ١٥١٦ ، الى رفع الحصار عن عدن ، والعودة الى جدة ، حيث تلقى أنباء هزيمة المماليك أمام العثمانيين • [2]

وكان السلطان سليم قد تلقى ، وهو في مصر ، خضوع شريف مكة السيد بركات بن يحي ، فولاه على الحجاز وجدة • وتمكن الشريف بركات من قتل الامير حسين الكردي ، نائب جدة ، فهربت قواته المملوكية من الحجاز الى زبيد ، في اليمن ، حيث الأمير برسباي المملوكي وتقووا

---

١ ــ انظر ص ٨ •

٢ ــ انظر : قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي ، البرق اليماني في الفتح العثماني ، وقد نشره حمد الجاسر تحت عنوان : غزوات الأتراك في جنوب الجزيرة (المسمى) البرق اليماني في الفتح العثماني ، دار اليمامة ، الرياض ١٩٦٧ ص ١١-٢٧•

فيها بدعم الزيدية ، وقتلوا السلطان عامر بن عبد الوهاب ، الذي كان قد تحصن في تعز ، وذلك في ٢٣ ربيع الأول ٩٢٢/١٥ نيسان ١٥١٧ • وبقتله انقرضت الدولة الطاهرية ، واستمر بعض افرادها في حكم عدن لبعض الوقت [١] •

وكان يتزعم القوات المملوكية في اليمن الامير برسباي ، والامير اسكندر ، والامير رمضان ، وهو قائد اللاوند • وقد قتل عربان اليمن الامير برسباي ، فخلفه الامير اسكندر ، قائدا على القوات المملوكية ، الا ان الامير رمضان ، وقواته الرومية الاصل ، اعلنوا الولاء للأروام (العثمانيين) • واضطر الامير اسكندر الى اعلان ولائه لهم ، فأرسل السلطان سليم اليه امراً باستمراره واليا على اليمن ، وذكر اسم السلطان سليم في الخطبة ، ومن بعده اسم السلطان سليمان • [٢]

وتميزت الفترة بين ٩٢٤ ـ ١٥١٨/٩٤٤ ـ ١٥٣٨ ، باضطراب كبير في احوال اليمن ، نظرا لوجود قوى مختلفة فيها تتصارع على النفوذ ، فهناك الولاة المحليون من اللاوند ، الذين قبلوا الخضوع للعثمانيين ، ولكنهم عارضوا استبدال باشوات عثمانيين بهم ؛ وهناك أيضا الزيديون ، والعربان المحليون ، وولاة جدة ، الذين يطمعون بالوصول الى حكم اليمن ؛ ثم هناك بقايا الاسرة الطاهرية الحاكمة في عدن • وقد شجع على هذه الفوضى في اليمن ارتباك أحوال مصر ، في الفترة بين الاحتلال العثماني والقضاء على الثورات فيها ، في عام ١٥٢٥ ، وكذلك ازدياد تهديد البرتغاليين لسواحل اليمن [٣] •

وازاء هذا الوضع المرتبك قام السلطان سليمان القانوني ، في عام

---

١ ـ المصدر السابق ، ٢٨ـ٣٥ •

٢ ـ المصدر السابق ، ٣٧ـ٣٩ ؛ وانظر ايضاً : عبد الصمد بن اسماعيل الشهير بالموزعي ، الاحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ، نسخة بالميكروفيلم مصورة عن نسخة مكتبة علي اميري باستانبول ، موجودة في معهد المخطوطات المصورة ، التابع للجامعة العربية في القاهرة ، برقم ١٠١ تاريخ ، فيلم ٧١٢ ، ورقة ٦ أ •

٣ ـ أنظر حول هذه الفترة المضطربة في اليمن : قطب الدين المكي ، ٤٠ـ٨٣ ؛ الاحسان ، ٦ ب ـ ٧ أ •

١٥٣٨ ، بارسال حملة الى الهند ، بقيادة سليمان باشا الخادم والي مصر، لمقاومة البرتغاليين ، والسيطرة على تجارة الشرق الأقصى • وأمر سليمان باشا بالتعريج على اليمن ليصلح ما فسد من حالها ، وقد احتل سليمان باشا عدن من حاكمها عامر بن داود ، من بقايا بني طاهر ، وذلك في النصف الاول من عام ٩٤٥/ النصف الأخير ١٥٣٨ ، وعين على اليمن حاكما يسمى بهرام • ثم سار الى الهند ، ولكنه ، كسابقه الامير حسين الكردي ، عاد منها بعد قليل ، وقيل في تفسير ذلك انه بسبب نزاعه مع أمراء الهند لغطرسته • وقد توقف سلميان باشا في اليمن ، في طريق عودته ، فقتل حاكمها ، في ٨ شوال ٩٤٥/٢٧ شباط ١٥٣٩ ، ووطد السلطة العثمانية في بعض مدنها الرئيسية ، وأقام الحكام فيها • واعتبر ذلك ابتداء الفتح العثماني لليمن [1] ، لأن السلطة العثمانية قبل ذلك كانت تقوم على ولاء الأمراء المحليين لها • وفي عام ٩٤٧/١٥٤٠-١٥٤١ ، أطلق العثمانيون ، لأول مرة ، لقب باشا على حاكم اليمن ، وكانت رتبته بيلر بيي (بك البكوات) ، وكان قبلا يحمل لقب بك فقط • [2]

ورغم التواجد العثماني في عدد من مدن اليمن ، وأبرزها زبيد ، فقد سيطر الأئمة الزيديون ، بقيادة الامير شرف الدين وابنه مطهر ، على جزء كبير من اليمن ، وخاصة الجبال ، بين كوكبان وعدن ، وحصنوا مدينة تعز • وفي عام ٩٥٣/١٥٤٦-١٥٤٧ ، وصل اديس باشا والياً على اليمن ، فاحتل تعز من الزيدية ، ووطد السلطة العثمانية في المنطقة الممتدة بين زبيد وسماره • وتألف جنوده من جماعة من اليمنيين ، الى جانب العثمانيين، فغدروا به وقتلوه • وقام ازدمر من بين صفوف العساكر ، وضبط أمرهم ، وقاتل الزيديين ، واحتل صنعاء منهم ، وأقام بها ، وذلك في سنة ٩٥٤/ ١٥٤٧-١٥٤٨ • وكان ازدمر مملوكاً شركسياً في الأصل ، ثم أصبح في خدمة العثمانيين ، وعين والياً على اليمن ، واستمر في ذلك حتى عام ٩٦٣/

---

١ ــ قطب الدين المكي ، ٨٤-١٠٥ ؛ الاحسان ٧ ب ــ ٨ آ •
٢ ــ قطب الدين المكي ، ١١٦ •

١٥٥٥-١٥٥٦ ، حين خلفه مصطفى باشا الشهير بالنشار • وتوالى ارسال الولاة العثمانيين الى اليمن في السنوات التالية •[١]

ثم كلف السلطان سليمان ازدمر باشا بفتح الحبشة ، بقصد حماية البحر الاحمر من هجمات البرتغاليين ، فغادر استانبول الى مصر ، حيث جمع جيشاً ، واحتل النوبا السفلى ، الواقعة بين الشلالين الاول والثالث ، مستفيدا من الصراع بين القوى المحلية • وأقيمت الحاميات العثمانية في في أسوان وإبريم وغيرها ، وعين كاشف مملوكي لادارة هذه المنطقة التي عرفت باسم بربرستان • ثم تقدم ازدمر باتجاه ساحل البحر الاحمر ، ليقيم فيه قاعدة ضد البرتغاليين ، من ناحية ، وضد الاحباش ، من ناحية أخرى • فاحتل منطقة حبش ، ولا تعني هذه الكلمة بلاد الحبشة الرئيسية ، بل المنطقة الساحلية على البحر الاحمر ، التي تضم مينائي سواكن ومصوّع ، وذلك حوالي عام ١٥٥٧ ، كما انه احتل زايله من البرتغاليين ، واصبحت الحبش ولاية يحكمها حاكم عثماني برتبة بيلربي ، وعين ازدمر عليها • وبعد وفاته في عام ٩٦٧/١٧٥٩ - ١٥٦٠ خلفه ابنه في حكمها[٢] • وبالاضافة الى الفائدة الاستراتيجية التي حصل عليها العثمانيون من فتوحاتهم الافريقية هذه ، يبدو أنهم استفادوا كذلك من المتاجرة بالذهب الافريقي ، وتمكنوا من المشاركة بتجارة التوابل مع الشرق الاقصى ، بحكم سيطرتهم على مواني هامة في الساحل الافريقي الشرقي[٣] •

التدخل العثماني في المغرب العربي

تعرضت الأسر الثلاث الحاكمة في شمال افريقية : المرينيون في المغرب الاقصى (مراكش) ، وبنو عبد الواد في المغرب الاوسط (الجزائر) ،

---

١ - المصدر السابق ، ١١٦ - ١٤٧ ، ١٥١ - ١٥٢ ؛ الاحسان ، ٨ أ - ١٠ ب •
٢ - قطب الدين المكي ، ١٤٧ - ١٥٠ ،
P. M. Holt, *A Modern History of the Sudan*, London, 1961, pp. 23-25, *Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922*, London, 1966, pp. 52-54.
٣ - Braudel, 364, 423, 614

والحفصيون في المغرب الادنى (تونس) ، قبيل نهاية القرن الخامس عشر الى تبديــلات جذرية في اوضاعهــا السياسية ، فمنها ما حلت مكانــه اسر جديدة ، ومنهــا ما أصابه انحطاط في السلطة • ففي مراكش نجح الوزير الوطاسي محمد الشيخ في تولي السلطة ، في أعقاب آخر امــير مريني ، ولكنه لم يفرض سيطرته سوى على فاس ، بينما رفض السكان البربر ، في جبال الاطلس ، واصحاب الطرق الصوفية ، في الداخل ، الخضوع له • كما ان البرتغاليين استولوا عــلى سبتة ، وطنجة وارزيلا ، وكذلك عــلى اغادير وصافي ، على الاطلسي ، ووصلوا الى مقربة من مراكش • واستولى الاسبانيون بدورهــم عــلى مليلة ، المطلة عــلى المتوسط ، في عــام ١٤٩٧ ، وتحكموا ، مع البرتغاليين ، في تجارة مراكش الخارجية • ولم يستطع الوطاسيون ، ازاء هــذه الاخطار الخارجية ، مواجهة خطــر داخلي آخــر تمثل في السعديين الاشراف ، الذين اعلن زعيمهم استقلاله في سوس ، في عام ١٥٠٩ ، ثم احتل ، بمساعدة القبائل ، المناطق الجنوبية من جبــال الاطلس ، وجعل مراكش عاصمته ، واخذ يهاجم الوطاسيين والبرتغاليين عــلى حــد سواء • وهــزم السعديون الوطاسيين في عــام ١٥٣٦ ، وفرضوا سيطرتهم على معظم المنطقة الوسطى من مراكش ، وتحولوا ضد البرتغاليين، فأخرجوهــم من مواني اغادير وصافي وارزيــلا ، في الفترة بين ١٥٤١ ــ ١٥٤٩ ، وسيطر السعديون على هذه المدن وعلى تجارتها مــع اوروبا • واستمروا في الحكم حتى عام ١٦٥٤ حين خلفهم العلويون[1] •

أما في الجزائر ، فقد تلاشت سيطرة بني عبد الواد على معظم مناطقها ، باستثناء تلمسان والقسم الغربي من البلاد • وفي تونس ، اقتصرت سلطة الحفصيين على مدينة تونس والمناطق المجاورة لها ، بينما سيطرت القبائل البدوية على المناطق الاخرى ، بما فيها مدن الساحل والداخل ، ونشأت في البلدين دويلات مستقلة ، بعضها في مدن المواني ، بين جربة ومراكش ،

---

١ ــ انظر : R. Mantran, "North Africa in the sixteenth and seventeenth centuries", *The Cambridge History of Islam,* Vol. II, pp. 239-241.

مثل تونس ، وبنزرت ، والجزائر ، ووهران ، التي حولتها حكوماتها الى قواعــد للقرصنة • واستغل الوضع الاســبانيون ، الذين حــاولوا ، تشبهــاً بالبرتغاليين ، السيطرة على السواحل ، غير مكترثين بالمقاومة المحلية المزقة • ولكنهم سرعان ما جابهوا مقاومة القراصنة الاتراك ، ثم الحكومة التركية نفسها • وقد احتل الاسبانيون ، في الفترة بين **١٥٠٥–١٥١١** ، مرسى الكبير ، ووهران ، وبجاية ، وطرابلس ، وجربة [١] • ولكنهم لم يتوغلوا في الداخل بسبب مخاطــر ذلك ، وأيضا بسبب انشغال الاسبانيين بالجبهة الأوروبية • وزاد الوضع تعقيدا دعوة سكان مدينة الجزائر القراصنة الاتراك لانقاذهم ، وابرز هؤلاء عروج •

وقد تعرض المغرب الاوسط والادنى الى غزوات القراصنة الاتراك ، الذين هزموا القوات الاسبانية ، توضعوا في البلاد أشبه بحكومات عسكرية • وسرعان ما اسس هؤلاء الغزاة الاتراك دويلات محلية ، اعترف بها السلطان العثماني ، ولكنها بقيت عرضة للاضطرابات الداخلية • وكان أبرز نشاطات هذه الدول ، المنتشرة بين طرابلس شرقاً والجزائر غرباً ، القرصنة لتأمين الموارد لحكامها ، ولكن هذا النشاط ادخلهم في منازعات مع الدول البحرية الاوروبية • ورغم ذلك فقد قامت علاقات تجارية بين هذه الدول الاوروبية وشمال افريقيا • واقام عــدد من التجار الاوروبيين في الجــزائر وتونس وغــيرها ، واستمر البحر المتوسط ، رغم اكتشاف طريق رأس الرجــاء الصالح ، يلعب دوراً في حياة الدول المطلة عليه ، وخاصة الدولة العثمانية ، التي مدّت نشاطها من شرقه الى غربه • ومع ان الحكم العثماني لشمال افريقية كان اسمياً الاّ انه اوجد وضعا سياسيا جديدا بالنسبة للدول الاوروبية التي استمرت تناضل ضده ثلاثة قرون [٢] •

---

١ ـ أنظر حول النشاط الاسباني في هذه الفترة : فارس ، تاريخ الجزائر الحديث، ١٣ـ٢١ •

٢ ـ أنظـر

Mantran, "North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", *The Camb. Hist. of Islam,* Vol. II, p. 238.

ومما يجدر ذكره ان امارات الغزاة على الساحل الجنوبي الغربي للأناضول [1] • قد وجهت نشاطها ضد الممالك المسيحية في جزيرتي قبرص ورودس ، وكذلك ضد جزر البحر الايجي وشبه جزيرة المورة ، واندفع هؤلاء الغزاة ، بعد ذلك ، في المتوسط حتى وصلوا الجزائر وتونس وحولوهما الى مناطق ثغور وقواعد لحملاتهم ضد المملكة الاسبانية التي طردت المسلمين من اسبانيا ، وضد الممتلكات الاسبانية في ايطاليا ، وعرف هؤلاء الغزاة في التاريخ الاوروبي باسم القراصنة •

واشتهر بين هؤلاء الغزاة ـ القراصنة التركي عروج ، الذي يشار اليه ، مع اخوته ، أحيانا ، بلقب بربروسا ، ويعني كما يجمع الباحثون ، ذا اللحية الحمراء • ومن المؤرخين من يحصرهذا اللقب باخيه خير الدين، وهو الأصح [2] • وكان عروج في الأصل من جزيرة ميتيلين اليونانية ، وهناك اختلاف حول هوية والده ، فمن قائل انه نحات تركي ، ومن قائل انه خزاف يوناني • ولعروج ، على الاقل ، ثلاثة اشقاء ، كانوا معه في المغرب ، وهم خير الدين واسحق والياس • وقد نشط عروج في الغزو منذ سن مبكرة ، ومارس نشاطه على سواحل المغرب • وأصبح له ولاخوته عدد من السفن تجاوز الثمانية في عام ١٥١٠ • واشترط حاكم تونس الحفصي ، ابو عبد الله محمد بن الحسن (١٤٩٤ ـ ١٥٢٦) ، اخذ قسم من الغنائم من عروج و اخوته لقاء السماح لهم باقامة قاعدة في مدينة جربة [3] •

ولجأ حاكم بجاية الحفصي الى عروج لمساعدته على طرد الاسبان من هذه المدينة ، ولكنه فشل في ذلك مرتين ، في ١٥١٢ و ١٥١٤ • ولم يؤثر هذا الاخفاق على شعبية عروج ، لأنه أقام علاقات وطيدة مع القبائل

---

١ ـ أنظر ص ٣١ •
٢ ـ فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٢٩ •
٣ ـ أنظر : احمد بن ابي ضياف ، اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، ٨ أجزاء ، تونس ، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٨ ، ج ٢ ، ٩ـ١١ •

المجاورة لمنطقته ، وزودها بالحبوب في اوقات المجاعات • وفي عام ١٥١٤ سيطر عروج عـلى ميناء جيجل • وحين توفي فرديناند ملك اسبانيا ، في عام **١٥١٦** ، انتهز الفرصة سكان مدينة الجزائر للتخلص من الحكم الاسباني ، وطلبوا مساعدة عروج ، فاحتل الجزائر في عام ١٥١٦ ، ثـم استولى عـلى مليانـه وتنيس وتلمسان • وفي عـام **١٥١٧** نظـم عروج المناطـق المفتتحة وتقاسم حكمها مع اخيه خير الدين ، فأخـذ هو الجزائر والمنـاطق التي استولى عليها في غربها ، واعطى لاخيه مناطق الشرق • وقتـل عروج في عام **١٥١٨** ، على يد الاسبان ، وله من العمر حوالي أربع وأربعين سنة •

خلف عروج اخاه خير الدين ، في زعامة القوات التركية ، وجعـل مركزه مدينة الجزائر • وليحمي نفسه من الاعداء في الداخل والخـارج ، فقد أعلـن تبعيته للسلطان سليم الاول العثمانـي ، الذي عينه برتبة بيلربي (بك البكوات) ، وأعطاه لقب باشا ، كما أرسل لـه ألفـي جندي وأربعة آلاف متطوع وكمية من المعدات • ومـع ذلك بقي وضعه مهدداً ، وخاصة من الاسبانيين الذين حاصروه في الجزائر ، وهزموه ، بعد ان تخلى عنـه بعض سكانها ، وكذلك القوات المحلية ، فانسحب منها ، في عام **١٥٢٠** ، وجعل مركـزه في جيجل • واحتل بونه ، وقسنطينة ، بـين عامـي **١٥٢١** و **١٥٢٢** ، ثـم الجزائر عـام **١٥٢٥** ، وقد استدعاه سكانهـا لانقاذهـم من الاسبانيين • وفي عام **١٥٢٩** ضم الى مدينة الجزائر الجزر الصغيرة المحيطة بهـا ، وأنشأ فيهـا ميناء الجـزائر ، الذين جعله مركـز القرصنة التركية غربي المتوسط • وكان خير الدين ، بين الفترة والاخرى ، يجدد ولاءه للعثمانيين ، الذين وجدوا في مناطقه ، الممتدة على ساحل الجزائر ، قواعد بحرية هامة لهم [١] •

---

١ ـ أنظر حول التطورات السابقة : فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، ٢٣ـ٣٣ ،
Le Tourneau, *E. I.²* s.v. 'Arudj, al-Djaza'ir; Mantran, "North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. II, pp. 238-254; Abun-Nasr, pp. 161-177; Julien, 250-259, 267-273.

وبعد ان وطد سلطته في الجزائر والساحل الاوسط للمغرب ، وجه خيرالدين اهتمامه للسيطرة على الساحل الافريقي الشرقي • وكانت تونس خارج النفوذ التركي ، وخشي خير الدين ان يعمد الاسبان ، في عهد الامبراطور شارل الخامس (شارلكان) ، الى اقامة قواعد فيها ، فلذلك عزم على احتلالها مستفيداً من الفوضى السائدة بين حكامها الحفصيين • فأحتل بنزرت وحلق الوادي وتونس ، في عام ١٥٣٤ [1] • وفي المدينة الاخيرة ، اعلن خير الدين نهاية الاسرة الحفصية • ثم ارسل حملة احتلت القيروان • وخشي شارل الخامس اتساع النفوذ العثماني في غربي المتوسط ، فاستغل طلب النجدة الذي وجهه اليه السلطان الحفصي المنهزم ، مولاي حسن ، وأرسل في عام ١٥٣٥ ، حملة احتلت حلق الوادي وتونس ، التي سيطرت على المواصلات بين الجزائر واستانبول ، فأقام حامية في الاولى ، واعاد الثانية الى حاكمها الحفصي ، مولاي حسن ، بسبب انشغاله في حروب أوروبا • وفي عام ١٥٣٦ عين السلطان سليمان القانوني خير الدين برتبة قبطان باشا على الاسطول العثماني في المتوسط ، واستدعاه الى استانبول للاعداد للعمليات البحرية ضد شارل الخامس وحلفائه • وعهد خير الدين الى نائبه حسن آغا (١٥٣٦ ـ ١٥٤٣) بادارة العمليات على الساحل الافريقي ، فصدّ هجوماً اسبانيا في عام ١٥٤١ • وفي عام ١٥٤٤ حلّ حسن باشا (١٥٤٤ ـ ١٥٥٢) ابن خير الدين ، محل حسن آغا ، في قيادة الاسطول ومنحه الاتراك ، بعد وفاة خير الدين ، في عام ١٥٤٦ ، لقب بيلربيي ، وسيطر على تلمسان باسم الأتراك • وهكذا خضع غربي الجزائر ، مثل شرقيها ، الى حكم الأتراك • وفي عهد البيلربي التالي صالح ريس (١٥٥٢ ـ ١٥٥٦) ، امتدت السيطرة التركية الى الجنوب ، حين اخضعت حملة وجهها الى مناطق الصحراء زعماء توقرت وورقلة ، وأقيمت حامية تركية في بسكرة [2] •

---

١ ـ ابن ابي ضياف ، ج ٢ ، ١٣ •
٢ ـ أنظر حول تفاصيل هذه الأحداث : فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، ٣٣ـ٤٧ •

وحدثت ، في هذه الاثناء ، اضطرابات في تونس بين سلطانها مولاي حسن وابنه مولاي حميدة ، الطامع بالسلطنة والمؤيد من قسم كبير من السكان . وسيطر الابن في القتال ، ورقي السلطنة في عام ١٥٤٣ ، وتسمى احمد سلطان . واستمر لمدة خمس وعشرين سنة يوزع ولاءه بين الأسبان والأتراك ، لكي يضمن استمراره في السلطنة . ولكن القرصان التركي طرغوت ، بالاشتراك مع بياله باشا ، قضيا معاً على نفوذ الاسطول الاسباني في سواحل تونس ، في عام ١٥٦٠ ، وحرما بذلك مولاي حسن من الاستنجاد به . وفي عام ١٥٦٩ نجح علج علي باشا ، الذي خلف طرغوت المتوفي عام ١٥٦٥ ، في قيادة الاسطول العثماني ، في احتلال تونس وطرد احمد سلطان منها . ولكنه لم يستطع احتلال ميناء حلق الوادي الذي بقي في أيدي الاسبان . وبعد هزيمة الاسطول الاسباني لاسطول العثمانيين في موقعة ليبانتو ، عام ١٥٧١ ، احتل دون جون ، شقيق فيليب الثاني ، ملك اسبانيا ، مدينة تونس ، وأعاد اليها السلطان الحفصي . ولكن القوات التركية بقيادة علج علي باشا وسنان باشا ، استعادت حلق الوادي وتونس ، وأنهت حكم الحفصيين [1] . وأصبحت تونس منذئذ ولاية تركية يحكمها بيلربي ، على غرار ولايتي الجزائر وطرابلس . واعترف الاسبانيون للعثمانيين ، في معاهدة عام ١٥٨١ ، بهذا الواقع مقابل احتلالهم مليله ومرسى الكبير ووهران ، وحافظت مراكش على استقلالها .

وفي الوقت الذي فرض فيه العثمانيون نفوذهم على تونس ضموا الى حكمهم مدينة طرابلس . ويذكر أن سكان طرابلس قد تخلصوا ، في أواخر القرن الخامس عشر ، من وصاية الحفصيين ، وشكلوا حكومة خاصة بهم تزعمها أحد أعيان المدينة . واستمر الأمر على ذلك حتى أوائل القرن السادس عشر ، عندما استولى الاسبانيون على طرابلس في ربيع الثاني ٩١٦/تموز

---

١ ـ أنظر تفاصيل اشتراك سنان باشا في العمليات في تونس، قطب الدين المكي ، ٤٦٤ـ٤٧٤ . وانظر ايضا : المحبي ، ج ٢ ، ٢١٦ .

١٥١٠ ، بعد أن احتلوا الجزائر وتونس • ولكن صعوبة الاحتفاظ بالمدينة ، بسبب بعدها عن اسبانيا ، وتعرضها لهجمات القراصنة ، وعدم تمكن الاسبانيين من احتلال المناطق المحيطة بها ، جعلهم يسلمونها الى فرسان القديس يوحنا ، الذين سبق وطردهم السلطان سليمان من رودس • ورغم بقائهم فيها عشرين سنة ، فانهم فشلوا في تحصينها ، واحتلها طرغوت في رجب ٩٣٧/ آب ١٥٥١ • وفي عام ١٥٥٤ عين طرغوت بيلربيا على ولاية طرابلس ، وأخذ يمد النفوذ التركي في الداخل ، وهزم ، مع بياله باشا ، الاسطول الاسباني ، واحتل جربة في عام ١٥٦٠ • وبعد موته خلفه في حكم طرابلس حاكم يسمى يحيى ، وقد ثار ضده الانكشارية ، وفشل في اخضاعهم ، فأرسل السلطان العثماني علج علي لاعادة الأمن والهدوء،وحكم طرابلس بين ١٥٦٦ و ١٥٦٨ • وفي عهد خلفه جعفر ، افتتح العثمانيون فزان في عام ١٥٧٧ • أما برقة فكانت تسيطر عليها القبائل البدوية ، في القرن السادس عشر • ويذكر أن السلطنة المملوكية في مصر قد مارست عليها نفوذاً اسمياً تمتع به العثمانيون حين احتلوا مصر • ولم تخضع برقة لحكام طرابلس العثمانيين ، بشكل فعلي ، حتى القرن السابع عشر ، فيعهد أسرة ساقزلي ، التي حكمت طرابلس ، ومدت سلطتها على برقة وفزان ، وبدأت بذلك تبرز صورة ليبيا • (١)



وهكذا شملت الفتوحات العثمانية معظم العالم العربي ، وأصبح العثمانيون القوة العظمى في العالم الاسلامي ، حماة الأماكن المقدسةوالمدافعين عن الحج • وزادت هذه الفتوحات من احترام العثمانيين في العالم الاسلامي وخارجه ، كما أنها أتت اليهم بفوائد اقتصادية كبيرة ، اذ تحكموا بالطرق التجارية ، بين الشرق الأقصى وأوروبا ، المارة في بلاد الشام ومصر ،

---

١ ـ انظر :
Mantran, "North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", ***The Camb. Hist. of Islam*, pp. 261-262; Abun-Nasr, pp. 189-195.**

وحصلوا على موارد كبيرة من عائدات التجارة والزراعة ، مما زاد في دعم الجهد الحربي والتوسع العثماني .

وفي الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية العثمانية تزداد سيطرة واتساعاً كانت أوروبا ، في النصف الاول من القرن السادس عشر ، تعاني من التمزق السياسي ، المتمثل بظهور الدول القومية، والتمزق الديني ، المتمثل بالكنيسة البروتستانتية ، التي حطمت هيمنة البابوية . وفي السنة التي فتح فيها العثمانيون مصر (١٥١٧) ، كان لوثر يعلق بنوده الخمسة والتسعين على باب كنيسة ويتنبورغ ، مهاجماً البابوية ، مما زاد في تمزق أوروبا ، بينما تجاوزت الامبراطورية العثمانية الحروب المذهبية ، بعد هزيمتها الصفويين في جالديران عام ١٥١٤ ، ووصلت الى مستوى الحروب العالمية في الخارج [١] .

وأضعف الصراع داخل الدول الأوربية ، وبين بعضها البعض ، مقدرتها على الوقوف في وجه العثمانيين . وفي حين امتدت الامبراطورية العثمانية ، في عهد سليمان القانوني ، من الجزائر الى بغداد ، ومن عدن الى الدانوب ، دب الشقاق بين دول غربي أوروبا ، فتعرض الامبراطور شارل الخامس الهابسبورغي ، الذي تزعم أوروبا ضد الأتراك ، الى مجابهة فرانسوا الاول ، ملك فرانسا ، الذي تحالف مع العثمانيين ضده ، في أعقاب هزيمته على يد آل هابسورغ ، في عام ١٥٢٥ . ويذكر أن فرانسوا الأول شجع العثمانيين على الاتصال بحلفائه ، الأمراء البروتستانت في المانيا ، امعاناً منه في ازعاج آل هابسبورغ . وأدرك العثمانيون أهمية هذا الاتصال . وفي رسالة بعث بها السلطان سليمان الى البروتستانت في عام ١٥٥٢ ، حرضهم ضد البابا والامبراطور الهابسبورغي ، ودعاهم لتوطيد تعاونهم مع ملك فرانسا ، ووعد ، مقابل ذلك ، بعدم ايذائهم في حملاته المقبلة في المانيا . ولاشك أن الضغط العثماني على آل هابسبورغ ، الذي حولهم عن الاهتمام بالانشقاق الديني ، في الفترة بين ١٥٢١ و ١٥٥٥ ، كان عاملا هاماً في توطد

---

١ ـ انظر : Hess, 73-77

قوى الاصلاح الديني في أوروبا • وبقي دعم الامراء البروتستانت والتحالف مع فرانسا من دعائم السياسة العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، والهدف من ذلك ابقاء أوروبا منقسمة على نفسها • وسمح العثمانيون لاتباع كالفن بحرية التبشير في هنغاريا ، وهذا ما يفسر اعتناق السكان في المناطق الخاضعة للعثمانيين في هنغاريا المذهب الكالفني ، بينما بقيت تلك الأجزاء منها ، الخارجة عن نفوذهم ، تابعة للكاثوليكية • وقد وعد السلطان العثماني الأمراء اللوثريين ، في البلاد المنخفضة وغيرها من المناطق الخاضعة لاسبانيا،بالدعم العسكري،بسبب مقاومتهم البابا والامبراطور الهابسبورغي• وبالمقابل ، دعا البروتستانت الفرنسيون (الهوغونوت) ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر،الى العودة الىسياسة التحالف بين فرانساوالعثمانيين، ومن هنا ردة الفعل القوية عند العثمانيين لدى سماعهم بأنباء مجازر سان برثوليو ضد البروتستانت في فرانسا ، في عام ١٥٧٢ • [1] كما أن العثمانيين حصلوا على دعم كثير من مسيحيي البلقان الارثوذكس ، الذين فضلوا الحكم العثماني وما منحه اياهم من امتيازات على الخضوع للدول الكاثوليكية في غربي أوروبا •

ومما يلاحظ أيضاً على فترة الفتوحات العثمانية اشتهار عدد من السلاطين ، كان آخرهم سليمان القانوني ، ارتفعوا الى مستوى المسؤوليات وهيأت لهم ظروف الدولة التوسعية مجالات الشهرة • وبالمقابل ، نجد أن التحديات العثمانية للشعوب المجاورة أوجدت لديها زعامات قوية ، سواء في أوروبا ، مثل شارل الخامس وفيليب الثاني وفرانسوا الاول ، أو في بلاد فارس مثل الشاه اسماعيل ، والشاه طهماسب الاول،والشاه عباس • وهكذا كان القرن السادس عشر عصر عمالقة بين الملوك والسلاطين أوجدتهم ظروف الفتح ومجابهته •

---

١ _ انظر : Inalcik, "The Heyday and Decline of the Ottoman Empire", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. I, 330.

القضاء على الثورات

ظهرت في أعقاب الفتح العثماني للبلاد العربية ، وخلال ثلاث سنوات منه ، سلسلة من الثورات قامت بها قوى مملوكية ، عملت لاعادة السلطنة المملوكية ، أو قوى عثمانية ناقمة على الادارة في استانبول ، أو قوى بدوية ومحلية حاولت الحفاظ على نفوذها •

وقد بدأ ثورات المماليك على العثمانيين جان بردي الغزالي ، والي دمشق العثماني (١٥١٧ ــ ١٥٢٠) ، الذي عين لهذا المنصب مكافأة له على مساعدة العثمانيين ابان الفتح ، وكان قبلا يشغل منصب والي حماة المملوكي• وكان الغزالي ، منذ مطلع ولايته على الشام ، مغالياً في اظهار الولاء للعثمانيين فوطد الأمن في دمشق وخارجها ، وقاد حملة ضد أمير البقاع البدوي ، ناصر الدين بن الحنش ، فقتله في عام ١٥١٨ ، بعد أن فشل السلطان سليم في ذلك ، وعين مكانه حاكماً عثمانياً • وبطش الغزالي أيضا ببعض الأمراء المحليين في نابلس وغيرها • وشن عدة حملات ضد بدو حوران وعجلون، الذين تعرضوا لقافلة الحج الشامي • وسر السلطان من أعمال الغزالي هذه ، وخاصة حمايته قافلة الحج ، وأغدق عليه الخلع • واستفاد الغزالي من ذلك ، وكسب رضى المسلمين ، وازداد بالتالي نفوذه في دمشق ، وهيبته في الولاية • (١)

واستغل الغزالي انتصاراته هذه لتعميق نفوذه في دمشق ، فعارض القاضي الحنفي ، ولي الدين بن الفرفور الدمشقي ، المعروف بطموحه وولائه للعثمانيين ، واضطره الى الهرب الى حلب ، وأقام مقامه القاضي شرف الدين بن مفلح • كما أن الغزالي أعاد بعض العادات المملوكية ، التي كان السلطان سليم قد أبطلها ، مثل دق الطبل في القلعة وعلى أبواب

---

١ ــ أنظر حول هذه الاحداث : ابن طولون ، أعلام الورى ، ٢٢٨ ــ ٢٣١ ، مفاكهة الخلان ، جـ ٢ ، ٨٣ــ٨٥ ، ٧٨ ــ ٩٩ ، ١١٣ ــ ١١٤ ، ١١٩ ــ ١٢١ ، نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة ، ٣ أجزاء ، نشرها جبرائيل جبور ، بيروت ١٩٤٥ ــ ١٩٥٩ ، جـ١ ، ١٦٩ •

المدينة • وأعاد الشهود الى المحاكم كالسابق • وفي محاولة أخرى لاستقطاب الناس من حوله ، أمر بمعاقبة العثمانيين الذين يتعرضون لهم • وقوى الدفاع عن دمشق بتحصينه أبواب المدينة •

وما ان علم الغزالي بموت السلطان سليم في ٢٢ ا يلول ١٥٢٠ حتى أعلن الثورة على العثمانيين ، فشرع بمحاصرة قلعة دمشق ، حيث الانكشارية الموالين للسلطان ، واحتلها في ٢٩ تشرين الاول ، ومنع خطباء المساجد من ذكر اسم السلطان الجديد سليمان • وفي محاولة لجمع المؤيدين ، اعاد الغزالي آل الحنش الى حكم البقاع • والتف من حوله ، في دمشق ، بقايا المماليك وشبان الحارات من الزعر ، الذين اغتنموا المناسبة كعادتهم ، لابراز قوتهم • وأبطل ملابس العثمانيين ، وأظهر ملابس المماليك • وأمر بايقاف بناء الجامع والتكية ، عند قبر محي الدين بن عربي التي كان السلطان سليم قد أمر ببنائها • وحاول الغزالي مدّ سلطته خارج دمشق ، فعين بعض الولاة من قبله على طرابلس وحمص وحماة ، ثم سار نحو حلب لاخضاعها • وبعد ان حاصرها اضطر الى التراجع ، في ٢٠ كانون الأول ، بسبب اقتراب الجيش العثماني المتجه اليه ، وعاد الى دمشق ، حيث اعلن نفسه سلطاناً ، ولقب بالملك الاشرف ، وخطب باسمه في الجامع الاموي يوم الجمعة في ١ شباط ١٥٢١ • وفي القتال الذي دار بينه وبين القوات العثمانية في برزة ، في ٥ شباط ١٥٢١ ، هزم الغزالي وقتل ، واحتل العثمانيون دمشق • وكانت هذه الثورة آخر ثورة للمماليك في بلاد الشام [١] •

وحدثت الثورة المملوكية الاخرى في مصر ، بعد اعلان ثورة الغزالي بعامين • ومما يلفت النظر عدم التوافق بين الثورتين ، وعدم دعم مماليك مصر لثورة الغزالي ، رغم طلبه الى زميله في الخيانة ، خاير بك ، الذي عينه العثمانيون والياً على مصر ، اعلان الثورة ودعمه • ولعل خاير بك

---

١ ــ انظر تفاصيل هذه الثورة في : بلاد الشام ومصر ، ١١٥ ــ ١٢١

كره ان تكون المبادرة في الثورة للغزالي ، الاقل شأنا منه سابقاً ولاحقا ، او لعله كان اكثر ادراكاً لقوة الدولة وصعوبة نجاح ثورة مملوكية ، ولهذا لم يمتنع فقط عن تأييد الغزالي ، بل اظهر استعداده أمام السلطان العثماني لقتال الغزالي ، ربما لاستبعاد اي شك في نواياه • وهكذا افتقد المماليك في مصر الزعامة التي تطلع اليها بعضهم لقيادتهم في الثورة ضد العثمانيين • ورغم أن كثيراً من المماليك في مصر قد أعلنوا ولاءهم للعثمانيين ، واستمروا في الادارة العثمانية ، كقوات عسكرية ، وأمراء للحج ، وحكام مناطق (كشاف) ، فان بعضهم أبطن العداء للعثمانيين ، وحاول بعض الغلاة من المماليك الناقمين الالتحاق بالغزالي ، فبطش بهم خاير بك •

واذا كان مماليك مصر قد أعوزتهم القيادة للاسهام في الثورة ، ولم يغتنموا فرصة وفاة السلطان سليم للثورة على خلفه،فقد فعلوا ذلك اثر وفاة خاير بك ، في عام ١٥٢٢ • وكان الثائرون بزعامة أينال السيفي ، كاشف الغربية،وجانم السيفي،كاشف البهنسا والفيوم•ويذكر أن هذين المملوكين قد ثأرا من مشايخ بدو آل مرعي فيمنطقة البحيرة ، بسبب تسليمهم السلطان المملوكي طومان باي للعثمانيين ، الذين قتلوه • وادعى الثائرون انهم لن يطيعوا السلطان سليمان الصغير السن ، ولن يتركوا الحكم لهؤلاء التركمان الذين لا يعرفون ملاقاة الفرسان • وتمركزالثائرون في منطقة استراتيجية ، في اقليم الشرقية ، حيث سيطروا على الطريق الرئيسية التي تربط مصر مع بلاد الشام ، كما انهم تحكموا بطريق المواصلات والمؤن بين الصعيد والقاهرة • وقد بطش العثمانيون بالثائرين المماليك هؤلاء [1] ، ولكن لم يقضوا على وجود المماليك في مصر او يمنعوا مجيئهم اليها ، ولهذا تكررت ثورات المماليك في المستقبل •

ولم يكن يمضي عام على بدء ثورة أينال وجانم السيفين حتى ثار ، في أواخر عام ١٥٢٣ ، والي مصر العثماني احمد باشا ، الذي عرف تبعاً

---

١ ــ أنظر : ابن زنبل ، ٨٥ آ ــ ٨٨ آ ؛ احمد شلبي ، ٣

لذلك بالخائن • وكان احمد باشا قد أسهم في الفتوحات العثمانية ، خاصة في البلقان ، وطمع بمنصب الصدارة العظمى • ولكن منافسه ابراهيم باشا ، الذي عين في هذا المنصب ، نجح في ابعاده بتعيينه والياً على مصر • وقد توفر لاحمد باشا في مصر عناصر الثورة الضرورية ، كبعد مصر ، وغناها ، ووجود المماليك الناقمين فيها ، والذين يجمع بينه وبينهم النسب الشركسي• وفي ٧ شباط ١٥٢٤ احتل احمد باشا القلعة التي سيطر عليها الانكشارية الموالين للسلطان ، ثم أعلن نفسه سلطانا في ١٢ منه ، وذكر اسمه في الخطبة وعلى السكة •

وبعد ان وطد أحمد باشا سلطته في القاهرة ، بتأييد عدد كبير من المماليك ، التفت الى خارجها ليحصل على ولاء البدو له•وكان هدفه اقامةقوة مناصرة له من بينهم تسيطر على الطريق الرئيسية ، بين الشام ومصر ، لمنع تقدم القوات العثمانية ضده • ولم يبرهن البدو عن وفائهم لاحمد باشا ، بل تحولوا ضده منذ ان علموا برجحان كفة العثمانيين • واشيع في القاهرة أن أحمد باشا ، باغراء ظهير الدين الأردبيلي ، قد تحول عن السنة ، واصبح من اتباه الشاه اسماعيل الصفوي • ونجحت هذه الشائعة ، التي تفتقر الى البرهان ، في اثارة الاهلين ضده ، واعلن قضاة المذاهب الأربعة كفره وأوصوا بالجهاد ضده • وقد قتل الأردبيلي في ٢٠ ربيع الثاني ٢٦/٩٣٠ شباط ١٥٢٤ ، كما قتل أحمد باشا بعده بسبعة أيام [1] •

وقد حدثت عدة ثورات للبدو في بلاد الشام ومصر ، في اعقاب الفتح العثماني ، ولكنها لا تتساوى ، من حيث الاهمية ، مع ثورات المماليك ، لانها

---

١ ـ أنظر : ابن زنبل ، ٨٨ آ ـ ٩٢ آ ؛ محمد بن عبد المعطي الاسحاقي ، اخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، القاهرة ، ١٣١٥ ، ص ١٣٥ ؛ علي بن حسن الشمالي، نزهة الناظرين فيمن تولى مصر من البشوات والسلاطين ، مخطوط في الظاهرية ، رقم ٨٣٧٦ ، ورقة ١٣ ب ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ ١ ١٥٦ـ١٥٩ ، ٢١٦ ؛مرعي بن يوسف الحنبلي ، نزهة الناظرين في من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط في المكتبة الوطنية في ميونيخ ، رقم Cod. Arab. 889 ، الأوراق ، ٢٠٦ ب ـ ٢٠٧ آ ؛ وكذلك : H. Inalcik, *E. I²*, s. v. Ahmaed Pacha Kha,in.

مألوفة في تاريخ المنطقة التي شهدت باستمرار الصراع بين سلطات المدن والقوى البدوية • ويرجح أحد الطرفين على الآخر بنسبة ما يكون عليه كل منهما من قوة وضعف • وطبيعي ان يثور البدو في فترة انتقال السلطة من دولة الى أخرى ، للحصول على ما يمكن من الامتيازات • وطبيعي أيضا الا تقف الدولة العثمانية ، وهي في أوج قوتها ، لامبالية إزاء ما يحدث •

وقد سبقت الاشارة الى ما قام به الغزالي من حملات ضد بدو البقاع وحوران وعجلون ، للمحافظة على الأمن ، وبالتالي ازدهار الريف والاقتصاد • وكان مهتماً أيضا في تأمين سلامة قافلة الحج من البدو • ولكن مثاله في الثورة على السلطة العثمانية ، واعتماده على الزعماء المتنفذين ، من بدو وأعيان ، يشجع هؤلاء على اقتفاء أثره • وربما لم يكن مجرد مصادفة أن البدو هاجموا قافلة الحج في العلا في السنة التي ثار فيها الغزالي • واذا أمكن للعثمانيين القضاء على ثورة الغزالي فلم يكن من السهل القضاء على تمرد البدو • وبقيت هذه المشكلة شوكة في جنب حكام المدن طيلة الحكم العثماني • واضطر ولاة دمشق الى شراء البدو بالمال ، حين لم يمكنهم اخضاعهم بالقوة ، وذلك لضمان سلامة قافلة الحج ، وعرف هذا المال بالصر • وكان يدفع نصفه لدى ذهاب القافلة ، ونصفه الآخر لدى عودتها، ويتضمن هذا المبلغ حق المرور ، والحماية ، وأجرة البدو كأدلاء للقافلة • وكثيراً ما امتنع أمراء الحج عن دفع النصف الثاني من الصر ، أثناء العودة ، وهذا ما يفسر كثرة اعتداء البدو على القافلة حين عودتها • وشجع البدو على القيام بذلك الطمع بالبضائع التي تحملها القافلة في طريق العودة [١] • وقد تنوعت أشكال اعتداءات البدو على قافلة الحج ، وكانوا عادة يملأون برك الماء في منازل الحج ، على الطريق السلطانية بين الشام والحجاز ، بالمواد السامة ، مما دعا السلطان الى بناء القلاع واقامة الحاميات للمحافظة

---

١ — انظر الدراسة المفصلة لقافلة الحج الشامي (تشكلها ، ذهابها ، قيادتها ، عودتها ، وأهميتها التجارية) في كتابنا : *The Province of Damascus*, pp. 52-76.

عليها • ونشطت الدولة العثمانية في بناء هذه القلاع في عهد السلطان سليمان القـانوني •

ولم يقتصر خطـر البدو ، في بلاد الشام ، على طريق الحج بل تعداه الى مناطق الريف وضواحي المدن • وقد قام بدو آل علي ، في عام ١٥٢٦ ، باعتداء على منطقة المرج ، في ضواحي دمشق ، وخرج والي الشام لطفي باشا وقاتلهم ، واعدم اثنين من زعمائهم • ولكن هذا العنف لم يقض على تمرد هؤلاء البدو اذ اعتدوا بعد سنتين على منطقة القسطل شمالي دمشق [١] •

اما في مصر فقد لعب البدو ، وخاصـة في مناطق الشرقية والغربيـة والبحيرة ، حيث سيطر عـلى التوالي بنو بقر ، وبنو بغداد ، وبنو مرعي ، دوراً هاماً في تأييد أو تقويض قوة الثائرين على الدولة ، كما رأينا في مثال ثورات زعماء المماليك واحمد باشا الخائن • وقـد عانى السلطان سليم ، اثناء فتحه لمصر ، وكذلك واليها خاير بك ، صعوبات كبرى في اخضاع البدو في فترة تبدل السلطة • وتكمن اهمية البدو في سيطرتهم على مناطق هامة استراتيجيا ، تتحكم بشبكات المواصلات الرئيسية ، او على مناطق هامة اقتصاديا ، تتحكم بطرق التجارة او بمناطق الانتاج • وقد سيطرت عـلى الصعيد ، الذي زود مصر بالحبوب ، قبيلة هوارة التي اعترف العثمانيون بزعامتها وحكمها له ، طالما انها تقدم الخضوع لهم • واستمر امراء هـذه القبيلة يحكمون الصعيد حتى الربع الاخير من القرن السادس عشر ، حين عين العثمانيون حاكما من قبلهم عليه ، مركزه جرجا • وقد كسبت السلطات العثمانية ولاء القبائل باعترافها بزعامتها ، أو بمنحها اقطاعات للدفاع عنها وعـن زراعتهـا ، مما جعلهـا أكثر استقراراً • ولجـأ العثمانيون أيضا الى السياسة التقليدية بتحريض زعيم قبلي ضد آخـر ، ضمن القبيلة ، او اثارة قبيلة على اخرى ، لاضعافهم ، او بشراء ولاء قبيلة ، لاستخدامها ضد قبيلة اخرى [٢] •

---

١ ــ انظر تفاصيل ذلك في : بلاد الشام ومصر ، ١٥٤ ــ ١٥٧ •

٢ ــ انظر أمثلة عن ذلك في : المصدر السابق ، ١٣٣ ــ ١٣٨ •

وقد فاقت الاخطار التي لاقاها العثمانيون من تمرد البدو في العراق، وخاصة مناطقه الجنوبية ، في أعقاب فتحهم له ، جميع ما لاقوه من أخطار البدو في بلاد الشام ومصر•وسبب ذلك أن البدو ، في البلدين الاخيرين ، وخاصة منهم اولئك على أطـراف البادية ، تألفوا من قبائـل صغيرة نسبياً ، اذا ما قيست بقبائل العراق،وتستطيع السلطة أن تسيطر عليها بقوة السلاح أو المال ، أو باثارة قبيلة ضد أخرى • وكثيراً ما كانت تستخدم هذه القبائل لصالحها ، لنقل الحجاج مثلا ، أو كعناصر عازلة بين سكان المناطق الآهلة من ناحية والقبائل الكبرى ، مثل العنزة،داخل البادية ، من ناحية أخرى• أما في العراق فعدد أفراد القبائل كان أكبر ، وحجمها أضخم ، وطموحها يتناول المدن ، وخاصة البصرة • ويفسر ذلك كـون جنوبي العراق أشبه بفوهة تتدفق منها القبائل من الجزيرة العربية ، وكونـه أيضاً منطقة هامـة في تجـارة المـرور ممـا يغـري القبائـل بالسيطرة عليه • وقـد تساهـل العثمانيون ، شأنهم عقب فتوحاتهـم ، مـع الاسـر المحلية التي قدمت لهـم الخضوع • ومن هذه الأسر أسرة راشد بن مغامس البدوية ، التي كانت تحكم البصرة ، فأبقاها العثمانيون في مكانهـا بعد أن قدمت لهم الخضوع في عام ١٥٣٨ ، ولكـن اجراءات العثمانيين في المحافظة على الأمـن في منطقة البصرة ، لضمان سلامة الطرق التجارية ، جعلت أسرة راشد تثور عليهم في عـام ١٥٤٦ • فأرسل والي بغداد ، أياس باشا ، جيشاً ضدها ، وقد هزمها ، ودخل البصرة ، وأقام الحكم العثماني المباشر فيها وفي مناطق الأطـراف ، في واسط والجزائر ، حيث تسيطر قبائل آل عليان ، التي تنتسب الى طيء• وكان أياس باشا ، أثناء سيره نحو البصرة ، قد هزم قشعم البدوي ، الذي ترأس مجموعـة القبائـل ، بين بغداد والبصرة ، وذلـك كخطوة أولى في سبيل اخضاع قبيلة راشد في البصرة • وبتلاشي زعامة قشعم وتسلطها عـلى غيرهـا من القبائـل ، ظهرت قبيلة المنتفق ، وأصبح لهـا النفوذ بعد ذلك • ويبدو أن حملات العثمانيين الناجحة ضد القبائل ، بـين بغداد والبصرة ، وفي منطقة البصرة ، قـد أثارت أحقادهـا ، فعادت الى الثورة ، في ٩٥٦/

١٥٤٩-١٥٥٠ ، بعد ثلاث سنوات من هزيمتها ، وهددت طرق المواصلات • فعين السلطان لقتالها والي بغداد ، علي باشا ، الذي نقل قواته براً ونهراً الى واسط ، ثم الى المدينة على دجلة ، حيث مركز آل عليان ، المسيطرين على منطقة الجزائر • وبعد معارك شديدة مع البدو ، امتدت حتى العام التالي ، فرضت السلطة العثمانية هيبتها ، ولكن لفترة قصيرة • [١]

ثم انتقل مركز التمرد ، في عام ٩٥٨/١٥٥١-١٥٥٢ ، الى شمالي العراق ، في منطقة شهرزور ، حيث سيطر الاكراد • وكان زعيم الاكراد في هذه المنطقة ، قد أعلن ولاءه للعثمانيين ، أثناء الفتح ، فأبقوه ، مثلما فعلوا مع أمير البصرة • ولكن الاضطراب بدأ يعم الآن منطقة شهرزور بتأثير عناصر تركمانية _ صفوية • فكلفت الدولة والي حلب ، عثمان باشا ، بقيادة حملة تأديبية تضم عدداً من جيوش الولايات الاخرى ، بما في ذلك بغداد • وهب للدفاع عن شهرزور عدد من الامراء الأكراد ، واستخدم الطرفان الأسلحة النارية • ولكن مناعة شهرزور حالت دون فتحها ، وتوفي القائد العثماني ، وتراجع الجيش منها • وعين السلطان والي بغداد ، علي باشا ، الذي سبق وهزم قبائل البصرة ، قائداً للجيش العثماني ، وأمره بمتابعة القتال • ويبدو أن مناعة شهرزور جعلت والي بغداد يميل الى المصالحة ، فاستخدم نفوذ بعض الزعماء الأكراد ، وحصل على خضوع حاكم شهرزور للدولة ، ووقع صلحاً معه ، وفعل ذلك مع الأمراء الأكراد المجاورين • وهكذا أبقى هؤلاء الامراء على نفوذهم المحلي ، كما حافظت الدولة العثمانية على هيبتها • ويبدو أن قوة الطرفين ، وخطر استغلال الصفويين للقتال وتهديدهم بغداد قد شجع على هذا التفاهم • كما أن موقع شهرزور على الحدود ، بين العثمانيين والصفويين ، وتركيب سكانها من الاكراد ، جعلها تحت تأثير الطرفين ، فكانت تميل الى طرف أو آخر حسب قوة الفريقين • وفي فترة القوة العثمانية الآن مال معظم زعماء

---

١ _ أنظر : العزاوي ، جـ ٤ ، ٤٩ _ ٥١ ، ٥٦-٥٧ •

الاكراد الى جانب العثمانيين ، ومن أشهرهم أمير العمادية ، الذي استخدمه العثمانيون في ٩٦١/١٥٥٣–١٥٥٤ لردع التركمان القزلباش ، الذين عاثوا فساداً في أماكن قريبة من بغداد [١] • وقد بقي زعماء شهرزور على ولائهم للعثمانيين طيلة القرن السادس عشر ، الى أن تقوى الصفويون ، وبدأوا تدخلهم من جديد في شؤون العراق •

ولكن الاستقرار في العراق الجنوبي ، في منطقة البصرة ، كان أقل دواماً من الشمال بسبب طبيعة المنطقة الاستراتيجية والتجارية مما أغرى القبائل على التمرد • كما أن كثرة القبائل في هذه المنطقة وتأثرها بالضغط ، أو التمدد القبلي ، في شمال الجزيرة العربية ومنطقة البادية من شأنه أن يؤثر على سلوكها السياسي أيضاً • وهكذا عادت القبائل الى التمرد • ولكن الدولة ، نظراً لأهمية منطقة جنوبي العراق ، وخوفاً من استغلال البرتغاليين المتربصين عند مداخل الخليج ، كانت تعمد الى سياسة القمع الشديدة •

وكان العثمانيون قد أرسلوا القبطان بيري بك من مصر ، في عام ٩٥٩/١٥٥١–١٥٥٢ ، لاسترداد عدن التي استخلصها البرتغاليون قبل قليل من العثمانيين ، وتم له ذلك • ثم توجه لاحتلال الطرف الشرقي من الجزيرة العربية لقطع خطوط التموين المحلي وتعطيل نقاط الاستناد على البرتغاليين ، فاحتل مسقط ، التي تسيطر على مدخل الخليج ، من أيدي البرتغاليين ، وتابع مسيره فسيطر على مضيق هرمز • ثم سار نحو البصرة ، ودخلها • ولكن الشائعات عن احتمال هجوم برتغالي معاكس ، لقطع خط الرجعة على الاسطول العثماني ، جعلت بيري بك يتراجع الى السويس ، فاتهم بالخيانة ، وأعدم • ويبدو أن صراعاً خفياً دار بينه وبين والي البصرة العثماني ، فدبر أمر التخلص منه •

ويبدو أن البرتغاليين تعرضوا في مضيق هرمز للاسطول العثماني المنسحب الى مصر ، فارتدت بعض قطعه الى البصرة حيث حصرت فيه •

١ ـ المصدر السابق ، ج ٤ ، ٥٧–٦٠ ، ٦٤ •

فكلف السلطان سليمان ، في عام ٩٦٠/١٥٥٢ ـ ١٥٥٣ ، واحداً من قادة بحريته المشهورين ، سيدي حسن علي بن حسين ، الذي اشتهر في خدمة خير الدين بربروسا وسنان باشا ، فتوجه في أوائل عام ٩٦١ الى البصرة ليترأس قطع الاسطول فيها • وقد اعترض طريقه البرتغاليون في مكانين : عند مضيق هرمز ، وقرب مسقط ، وأمكنه التخلص منهم • ولكن الأنواء البحرية دفعت به الى ساحل الهند • فعاد براً الى بغداد بعد أن باع السفن خوفاً من خطر البرتغاليين عليه فيما اذا عاد بحراً • (١)

ويبدو أن فشل الاسطول العثماني في خليج البصرة قد أضعف الهيبة العثمانية في المنطقة • فاستغلت القبائل ذلك للعودة الى التمرد • ويذكر أن والي بغداد ، مصطفى باشا،عزم في عام ٩٦١/١٥٥٣-١٥٥٤، على استخلاص الحويزة من أيدي طائفة محلية سيطرت عليها مستفيداً من وجود الاسطول العثماني في البصرة ، فعهد الى القائد سيدي حسن أن يتحفظ على ابن عليان، زعيم بدو الجزائر ، خوفاً من استغلاله انشغال الوالي للثورة عليه ، ولكن ابن عليان صد الحملة العثمانية وقتل عدداً من أفرادها •

وازدادت جرأة القبائل في منطقة البصرة ، اثر انسحاب الاسطول العثماني منها وهزيمته • واستغلت وفاة السلطان سليمان القانوني ، في عام ١٥٦٦ ، لتعلن الثورة من جديد بزعامة ابن عليان • فنظمت الدولة حملة ، في عام ١٥٦٧ ، بقيادة اسكندر باشا والي بغداد ، واصطحب معه والي شهرزور والبصرة ، بالاضافة الى عدد من الأمراء الأكراد وأمراء البدو من المناطق الشمالية ، وهزم البدو في منطقة البصرة • وبنت الدولة القلاع لتعزيز وجودها العسكري هناك • ولجأت أيضا الى قطع أشجار النخيل التي تعيش عليها القبائل • واضطر ابن عليان الى طلب الصلح ، لقاء دفعه ضريبة سنوية الى خزينة البصرة وتسليم بعض أولاد المشايخ كرهائن • ويذكر المؤرخون العثمانيون أن هذه أول مرة استخدم فيها القتال النهري ، من

---

١ ـ العزاوي ، جـ ٤ ، ٥٦ ـ ٨١ •

الجانبين ، علـى هـذا النطاق • [1] ويبدو أن القبائل في منطقة البصرة قـد استكانت ، لفترة ، للقوة العثمانية ، اثر هذه الموقعة • وستبقى قبائل البدو ، وخاصة في منطقة البصرة ، مراكز تحدي دائمة للدولة العثمانية •

وعلى غرار ما حدث في مناطق الاطراف في العراق ، ثارت ، في أعقاب الفتح العثماني لليمن،الاسرة الزيدية مستغلة زعامتها الدينية المحلية والتأييد الذي تمتعت به من قبل قوى متعددة•ولم يكن العثمانيون ، في فترة قوتهم ، في القرن السادس عشر ، بأقل تصميماً على اخضاع هذه الاسرة مما كانوا عليه في العراق ، خاصة وأنـه يهمهم عـدم افساح المجـال للبرتغاليين لاستغلال الاضطراب في اليمن للتدخل وتهديد طـرق التجارة في البحر الاحمـر ، وكذلك سلامة الاماكن المقدسة في الحجاز •

وقد واتت الزيديين الفرصة لاعلان ثورتهم ، في أعقاب مغادرة الوالي العثماني ، ازدمر ، ولاية اليمن ، في حوالي عام ١٥٥٥ ، وتكليفه بمهمة فتح مناطـق جنوبي مصر • وصادف ، في هـذه الاثناء ، اضطـراب الأوضـاع الاقتصادية ، بسبب انهيار قيمة الدينار الذهبي وارتفاع الاسعار • وأثر ذلك عـلى العساكـر العثمانيين في اليمن فانهارت قيمـة مرتباتهـم ، ولجـأوا الى الامام الثائـر مطهر بن شرف الدين الزيدي ، فاستغلهم لتعميق ثورته عـلى العثمانيين • واستفاد الزيديون مـن تقسيم العثمانيين اليمـن الى قسمين ، يحكم كلا منهما حاكم برتبة بيلر بي ، فقد جعلت منطقة التهايم ، التي تضم زبيد والسواحل ، حيث المدن والغنى ، قسماً ، وجعلت صنعاء والجبال حتى تعـز ، حيث الثورة والقتال ، قسماً آخـر ، وهـدف العثمانيون مـن ذلك توطيد السلطة العثمانية ، ولكن حدث نقيض ذلك ، اذ أدى هذا الانقسام الاداري الى قيام الخلاف بين حاكمي القسمين،كما أصبح العساكر فرقتين•

وازدادت الثورة الزيديـة حـدة في أعقاب وفـاة السلطان سليمان

---

١ ــ المصدر السابق ، جـ ٤ ، ١٠٦ــ١٠٩ •

القانوني واعلان الخطبة لابنه سليم الثاني في مدينة تعز • وكان الامام مطهر الزيدي قد احتل صنعاء في ٢٩ آب ١٥٦٧ ، واستولت قواته على مناطق أخرى ، بما فيها تعز وعدن • وقد كلف السلطان سليم الثاني والي مصر سنان باشا بالتوجه الى اليمن للقضاء على الثائرين ، فغادر مصر في ٢٢ آذار ١٥٦٩ ، واستعاد المناطق التي احتلها الزيديون • وبقي في اليمن قرابة عامين يوطد السلطة العثمانية ، ثم غادرها الى جدة في آذار ١٥٧١ ، بعد وصول الوالي العثماني بهرام باشا المعين على اليمن • وقد وصف قطب الدين محمد المكي انتصار سنان باشا على الثائرين بأنه الفتح الثاني العثماني لليمن (الفتح الأول كان في عام ٩٤٥/١٥٣٩)[١]• وكان هذا الانتصار سبب تأليف كتابه « البرق اليماني في الفتح العثماني » ، وقد كتبه بتكليف من سنان باشا •[٢]

وفي شمال افريقية تمكن العثمانيون من احباط عدد من المؤامرات التي حدثت في أعقاب وفاة بيلر بي الجزائر صالح رئيس ، في عام ١٥٥٦ ، أثناء هجومه على وهران ، حيث تمركز الاسبان • فقد نشب نزاع مسلح في مدينة الجزائر ، بين الانكشارية والقرصان ، بسبب ترشيح الأولين لقائدهم حسن كورسو ليخلف صالح رئيس ، في منصب البيلربي ، عوضاً عن الباشا الذي سمته استانبول • واضطر السلطان الى ارسال حسن باشا ابن خير الدين بربروسا الى الجزائر لاعادة الهدوء اليها ، وتم له ذلك في حزيران ١٥٥٧ •

وكان الوضع سيئاً أيضاً غربي الجزائر ، حيث حاصر الحاكم السعدي محمد المهدي مدينة تلمسان ، كما حاصر حاكم وهران الاسباني مدينة مستغانم • وقد اغتيل الاول في عام ١٥٥٧ ، وهزم الثاني وقتل في عام

---

١ ـ انظر ص ٧٢ •

٢ ـ انظر قطب الدين المكي ، ١٤ـ١٦ ، ١٥١ـ٦٠٣ : الاحسان ، ١١ آ ـ ١٥ ب ؛ ابن أبي السرور البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٤٥ آ ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، ١٩ آ ؛ الاسحاقي ، ١٣٧ ؛ أحمد شلبي ، ٦ ب •

١٥٥٨، ولم ينجح حسن باشا باخراج الاسبانيين من وهران ومرسى الكبير، رغم حصاره لهم مدة ثلاثة أشهر ، بين نيسان وحزيران ١٥٦٣ . وبقيت وهران في أيدي الاسبانيين حتى عام ١٥٩١ ، حين تخلوا عنهما لداي الجزائر ، بموجب معاهدة في ذلك العام .

واستدعي حسن باشا الى استانبول ، في عام ١٥٦٧ ، ليرأس الاسطول العثماني ، برتبة قبطان باشا، وخلفه محمد بن صالح رئيس ، فأعاد الهدوء الى الجزائر ، وسمح للانكشارية بتعاطي القرصنة ، وذلك لارضائهم والهائهم في الوقت نفسه . وحل مكانه في آذار ١٥٦٨ علج علي ، المعروف باسم قليج علي ، الذي شغل منصب قبطان باشا الاسطول العثماني غربي المتوسط ، الى جانب كونه بيلربي الجزائر ، واستطاع خلال حكمه الذي دام قرابة عشرين عاماً (١٥٦٨ - ١٥٨٧) ، من توطيد السيطرة العثمانية في كل من الجزائر وتونس وطرابلس . (١)

تنظيم الادارة العثمانية

لجأ العثمانيون ، في أعقاب القضاء على الثورات ، الى تنظيم الادارة العثمانية في البلدان العربية المفتتحة . وقد استمر تقسيم بلاد الشام الى ثلاث ولايات ، هي : الشام ، وحلب ، وطرابلس ، كما كان الأمر زمن السلطنة المملوكية . وامتدت ولاية الشام من معرة النعمان حتى العريش، ولكن ثورة الغزالي جعلت العثمانيين يعيدون النظر في حدود هذه الولايات بشكل لايتمكن معه الثائرون من استغلال اتساعها وضخامة مواردها المالية ، فاقتصرت ولاية الشام ، بعد ذلك ، على المنطقة الممتدة بين دمشق والعريش ، وقسمت بدورها الى الصناجق التالية : دمشق أو الشام مركز الولاية ، القدس ، غزة ، صفد ، نابلس ، عجلون ،

---

١ - انظر :

Mantran, "North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. II, pp. 252-3; Abun-Nasr, 172-3; Julien, 268-73.

اللجون ، تدمر ، صيدا مع بيروت ، والكرك مع الشوبك • وقسمت ولاية حلب الى الصناجق التالية : حلب مركـز الولاية ، اضنة ، كلّس،بيرهجك، بالس ، منبـج ، معرة النعمـان ، وتركمان حلب واعزاز • وتألفت ولايـة طرابلس من صناجق : طرابلس مركز الولاية ، حماة ، حمص ،سلمية، جبلة ، اللاذقية ، والحصن [1] • ولم تكن هـذه التقسيمات نهائية اذ كثيراً ما كان يلغى صنجق ما ، أو يدمج بآخر ، أو يؤسس صنجق جديد • وقد حدث في عام ١٦٦٠ ان سلخ كل من صنجق صفد ، وصنجق صيدا مـع بيروت ، عن ولاية الشام ، وتأسست منهما ولاية رابعة ، في بلاد الشام ، هي ولاية صيدا • وكانت بعض الصناجق في ولاية ما تلحق أحياناً ، بولاية اخرى لاسباب معينة ، كما حصل مثـلاً ، في القرن الثـامن عشر ، حين الحق صنجقا حمص وحماة بمنصب والي الشام ، على شكل مالكانة ، اي التزام ضرائبها مدى الحياة ، ليستفيد من عائداتها ، وذلك بعد ان اصبـح ولاة دمشق أمراء لقافلة الحج الشامي ومسؤولين مباشرة عن تأمين نفقاتها •

وقد ابقى العثمانيون ، في المناطق خارج المدن ، الزعمـاء المحليين ، الذين قامت زعامتهم اما على اسس دينية ، او اقطاعية ، او بدوية ، طالمـا انهم يقدمون الطاعة والضرائب للسلطة العثمانية • واعترف السلطان سليم الاول ، اثناء وجوده في دمشق ، بالمعنيين ، الذين قدموا له الولاء ، أمراء على جبل لبنان ، محل التنوخيين،الذين كانوا امراء الجبل في عهد المماليك، والذين أيـدوا ناصر الدين بن الحنش ، أمير البقاع البدوي ، الذي حاربه السلطان سليم [2] • وليوازن العثمانيون قـوة المعنيين اعترفوا بمنافسيهم آل

---

١ ــ انظر :

Ayn-i 'Alî, *Kavânin-i al-i Osman,* Fr, trans. by M. Belin in "Du Régimes des fiefs militaires", *JA*, XV, (1870), pp. 274-6; Evliya Efendi, *Narrative of travels in Europe, Asia and Africa in the 17th century,* tr. from the Turkish by Ritter Joseph Von Hammer, 1 Vol. 2 parts, London, 1834, 1846, pt. 1. p. 93; B. Lewis, "Studies in the Ottoman Archives-I", *BSOAS,* X. I (1954), pp. 153-5.

٢ ــ انظر : طنوس الشدياق ، اخبـار الأعيان في جبل لبنان ، جزءان ، الطبعـة الثانية ، بـيروت ، ١٩٥٤ (الطبعة الاولى ، بـيروت ١٨٥٩) ، جـ ١ ، ص ٢٨٧ ، ٢٩٣ ؛ عيسى اسـكندر المعلوف ، تاريخ فخـر الدين المعني الثاني ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٦٦ ص ٥٢ •

عساف التركمان ، الذين فرضوا نفوذهم على لبنان الشمالي ، التابع لولاية طرابلس ، ووقفوا الى جانب العثمانيين ابان الفتح ،فأعطوهم حكم كسروان وجبيل ، وجعلوا مركز حكمهم في غزير • وليحد العثمانيون من توسع آل عساف ، فقد اعترفوا بمنافسيهم آل سيفا الاكراد ، الذين تمركزوا في منطقة طرابلس ، وحكموها حتى النصف الأول من القرن السابع عشر [١]•
وقد دفع آل الحنش ثمن تمركزهم في البقاع الغني بقتال السلطان سليم لهم ، ومن بعده الغزالي ، الذي قتل زعيمهم ناصر الدين ، وطردهم من الحكم ، ثم اعادهم الغزالي الى السلطة ، اثناء ثورته ، ولكنهم اضعفوا بعد القضاء عليه • وحلت محلهم في البقاع ، في عهد السلطان سليمان القانوني ، اسرة بدوية أخرى هي آل فريخ • واعترف العثمانيون بامارة زعيمها منصور بن فريخ [٢] ، لكي يوازنوا به قوة آل الحرفوش المتاولة المسيطرين على منطقة بعلبك • كما انهم اعترفوا باسرة آل حمادة في البقاع الشمالي ليراقبوا بواسطتهم آل الحرفوش • وقدم أمير منطقة صفد البدوي ، ابن طراباي ، خضوعه للسلطان سليم ، فاعترف بسلطته ، وجعله نائباً على صفد [٣] •

واعترف العثمانيون ، في عهد السلطان سليمان القانوني ،باسرة الامير مصطفى ابي شاهين في حكم غزة ،واستمرت فيها حتى نهاية القرن السادس عشر • ومن مماليك هذه الاسرة المشهورين فروخ بن عبد الله ، حاكم نابلس والبلقاء • واعترف العثمانيون كذلك بسلطة الامير قانصوه الغزاوي في منطقة عجلون ــ الكرك ، بعد أن تعهد بالطاعة وتقديم أموال الميري [٤]•

وفي مصر اوفد السلطان سليمان ، في اعقاب القضاء على ثورات

---

١ ــ الشدياق ، ج ٢ ، ٣ــ١٥ •

٢ ــ المحبي ، ج ٤ ، ٤٢٦ــ٤٢٧ ، نجم الدين الغزي ، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم اعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر ، مخطوط في الظاهرية ، رقم ٤١ ، الاوراق ، ١٨٧ آ ، ٢١٢ آ ــ ٢١٢ ب •

٣ ــ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ٧٩ ، ٨٢ •

٤ ــ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ، ٢٠١ــ٢٠٢ ؛ البوريني ، ج ١ ، ١٩١ ؛ شرف الدين موسى ، ٣٨٣ آ ، ٣٩٠ ب •

المماليك ، وثورة احمد باشا الخائن ، وزيره الاعظم ابراهيم باشا اليها لينظم امورها • وصدر ، تبعاً لذلك ، القانون نامه ، الذي نظم امور مصر العسكرية والمدنية • فمن الناحية العسكرية ذكر القانون نامه ست طوائف عسكرية : **الجنليان** ، وتعني المتطوعين • وذكرت ايضاً باسم جمليان (جمع فارسي لكلمة جملي ، اي صاحب الجمل) ،بسبب استخدامافراده الجمال ، وايضاً باسم كمولية ، كما عند ابن اياس • وافراد هذه الطائفة من الفرسان الذين اشتركوا في فتح مصر ؛ **التفنكجيان** ، وافرادها من حاملي البندق الفرسان،والتسمية نسبة الى تفنك،اي بندقية ، **الشراكسة** ، وافرادها من المماليك • وقد اشير الى هذه الطوائف الثلاث باسمالسباهية، أي الفرسان • وكانت مهمتهم ، بصورة رئيسية ، توطيد الأمن في الأقاليم ؛ **المستحفظان** ، وهم الانكشارية ، ويسمون أحياناً باليكجرية ، وقد اشتركوا في فتح مصر ، واقاموا في القلعة وعرفوا بطائفة السلطان ، لأنهم مثلوا ، بصورة خاصة ، السلطة العثمانية في مصر ، وعهد الى هذه الطائفة بمهمة الشرطية ، ومن هنا قوتها في القاهرة ، وسيطر أفرادها على الالتزامات المربحة ، وعلى دار ضرب النقود ، وعنابر المؤن ، ومراكز المكوس ، مما زاد في نفوذها ؛ **العزبان** (من عازب) ، وكانوا مشاة مثل الانكشارية ، ومثلهم ايضاً اقاموا في القلعة ، ووازنوا قوة الانكشارية • وكانت مهمتهم حماية القلاع في القاهرة وخارجها ، وتحكمت هاتان الطائفتان بالسياسة في القاهرة ، وكثيراً ما اصطدمتا مع بعضهما ؛ **الجاووشان** ، وتذكر في المصادر العربية بالجاويشية ، ويبلغ افرادها أوامر الدولة ، ويكلفون بجباية الضرائب ، وقد سيطر المماليك ، حين تعاظم نفوذهم ، في القرن الثامن عشر ، على هذه الطائفة •

ولم يذكر القانون نامه الطائفة العسكرية السابعة ، **المتفرقة** ، التي شكل افرادها الحرس الخاص للباشا ، والتي لايوجد لها مثيل بهذا الاسم في الولايات العثمانية الاخرى ، باستثناء استانبول،حيث عُرف حرس

السلطان بهذا الاسم • ويذكر أنها تأسست في مصر، في عام ١٥٥٤، من المماليك، ثم انتسب اليها اناس جلبوا خصيصاً من استانبول ، ومنح افرادها امتيازات كثيرة ، واعطوا مرتبات عالية • وبازدياد سيطرة المماليك ، في القرن الثامن عشر ، اصبحت هذه الطائفة ميداناً لنفوذهم • وعهد الى افرادها ايضاً بملاقاة الحجاج العائدين لتأمين سلامتهم • ويبدو ان هذه الطائفة كانت استمراراً لفرقة مملوكية عرفت بالخاصاكية ، وشكل افرادها حرس السلاطين المماليك[١] •

اما من الناحية الادارية فقد ابقى القانون نامه كثيراً من التنظيمات المملوكية ، بأسمائها المملوكية أحياناً • ويرأس الادارة الباشا ، أي الوالي[٢] ، وهو من رتبة وزير ، ويسكن القلعة ، ويوازن سلطته آغاوات (قادة) الطوائف العسكرية ، والقاضي الحنفي ، والدفتردار • وينوب عن الباشا القائم مقام ، الذي يعرف في بلاد الشام باسم المتسلم • اما المتسلم في مصر فهو موظف عند الباشا يبلغ أوامره الى مختلف الجهات • واشترط القانون نامه على الباشا دعوة ديوان للمشاورة اربع مرات في الاسبوع • ولم يوجد مثل هذا الديوان بشكل منظم في الشام ، بل كان يعقد فيها حين تقتضي الحاجة •

وقد الغى القانون نامه الاقطاعات في مصر ، وجعلها ولاية من نوع سالیانلي ، اي ان موظفيها يتقاضون مرتبات ، وربما الهدف من ذلك منع المماليك من السيطرة على الاقطاعات وما يترتب على ذلك من اقامة مناطق نفوذ • وكانت اموال الميري تجمع من قبل ملتزمين ، وبعد ان تغطى

---

١ ـ انظر :
S. J. Shaw, *The Finanical and administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517-1798*, Princeton, 1962, pp. 191-6, *Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution*, Harvard, 1964, pp. 84-9, 94-5; P. M. Holt, "The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century", *BSOAS*, XXIV. 2 (1961), pp. 216, 223.

٢ ـ استخدم هذا اللقب في مصر للدلالة أيضا على رئيس الحراس الليليين •

النفقات المحلية ترسل المبالغ المتبقية الى السلطان عادة بطريق الشام ، وتسمى ارسالية خزينة ، او خزنة • وقد نظم ، في عام **٩٣٣ / ١٥٢٦ — ١٥٢٧** ، دفتر التربيع ، الذي عينت وضبطت فيه مساحات جميع الاقاليم في مصر ، وأعطي الالتزام بموجبه [١] •

وتألفت مصر من ولاية واحدة ، مركزها القاهرة • وقسمت الى اقسام ادارية عرفت باسم كشوفيات (مفردها كشوفية ، ويقابلها في بلاد الشام الصنجق) ، ويحكم كلاً منها كاشف ، كما كان الأمر زمن السلطنة المملوكية • وكانت مهمات الكشاف الرئيسية صيانة شبكات الري حماية للزراعة ، وجباية الضرائب [٢] • وقد استخدم تعبير الصنجق في مصر ليدل على رتبة وليس على وظيفة ، وعرف صاحبه بلقب بك وتقاضى مرتباً من الدولة • ويبدو أن الصناجق في مصر استمرار للامراء المماليك • ورغم أن ذكر الصناجق ورد في القانون نامه بشكل عابر ، الا ان نظامهم ومهماتهم كانت غامضة في مطلع الحكم العثماني • وبدأوا يشتهرون في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، حين اتهم اثنان منهم بقتل والي مصر محمود باشا في عام **١٥٦٧** ، كما اشتركوا بعد سنتين في الحملة التي قادها سنان باشا الى اليمن لاخضاع الزيديين الثائرين فيه [٣] • وازداد الصناجق شهرة في النصف الاول من القرن السابع عشر ، حين اتخذ هذا اللقب المماليك أصحاب السطوة آنذاك • وعين الصناجق كشافاً ، وأمراء لقافلة الحج ، ودفتر دارين ، وقادة للحملات العسكرية [٤] •

وقد قسمت العراق في اعقاب الفتح العثماني الى اربع ولايات : ولاية بغداد ، وتضم بالاضافة الى بغداد مركز الولاية ، ثمانية عشر صنجقاً ،

---

١ — انظر : أحمد شلبي ، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، مخطوط في جامعة Yale في الولايات المتحدة ، برقم Kandberg, 3 ورقة ٤ آ •

٢ — انظر :
Holt, "The Beylicate", p. 220, *Egypt and the Fertile Crescent*, p. 51.

٣ — أنظر : بلاد الشام ومصر ، ١٦٨ ، ١٧٤—١٧٥ •

٤ — أنظر حول الصناجق : Holt, "The Beylicate", pp. 214-8.

أو لواء ، ستة منهــا تضم اقطاعات من نوع زعامت وتيمار ، وهــي : الحلة ، زنك أباد ، الجزائــر ، الرماحية ، جنكولة ، قــره طــاغ ، والبقية لا تضم أي زعامت أو تيمار ، ولكن يوجد فيها اقطاع من نوع الخاص لأمير اللواء ، وهــي : درتنك ، السماوة ، البيات ، درنــة ، ده بــالا ، واسط ، كــرته ، دمير قبو ، قرانية ، كيلان ، آل صاح ، والعمادية ؛ ولاية البصرة ، ولم يكن فيها صناجق أو اقطاعات ، بل تجبى ضرائبها بواسطة الالتزام ؛ ولايــة الاحساء ، ولا توجـد فيهــا زعامت أو تيمار ؛ ولايــة الموصل ، وتضم ستة صناجق او الوية ، وهي : باجوان ، تكريت ، اسكي موصــل ، هرور ، بأنه ؛ ثــم ولاية شهرزور ، وتضم اقطاعات من نوع زعامت وتيمار ، وتقسم الى واحد وعشرين صنجقاً ، بالاضافة الى شهرزور ، وغــالب اسمــائهــا لا تعرف اليوم • وباستثناء ولايتي البصــرة والاحساء ، اللتين كانت لهمــا أوضاع خاصة اذ سيطرت عليهمــا ، لفترات طويلة ومتعددة ، اســر محلية حاكمة ، معظمها بدوي ، فان الولايات الاخرى تتشابه ، الى حــد كبير ، مع ولايات الشام في نوعية الوظائف والموظفين الاداريين الموجودين فيها •

ومنذ أن فرض العثمانيون نفوذهم عــلى بعض مناطق اليمن ، وخاصة الساحلية منها [١]، جعلوها ولاية عثمانية واحدة [٢]• ولم يعرف الاستقرار النسبي في المناطق التي سيطر عليها العثمانيون الا في عهد الوالي ازدمر ، الذي حكمها حوالي خمسة اعــوام ، بين ١٨ جمــادى الاول ٩٥٦ / ١٤ حزيــران ١٥٤٩ وعــــام ٩٦٢/١٥٥٤ــ١٥٥٥[٣] • وعمــد العثمانيون في شوال ٩٧٣ / نيسان ــ أيار ١٥٦٦ ، الى تعيين واليين في اليمن : أحدهما اعطي ولاية زبيد والتهائم والسواحل ، والآخر ولاية تعز وصنعاءوالجبال، في محاولة لتوطيد السلطة العثمانية في الظاهر ، وأيضاً لايجــاد المنــاصب

١ ــ أنظر ص ٧٢ •
٢ ــ المحبي ، ج ٢ ، ٢١٥ •
٣ ــ قطب الدين المكي ، ١٠٥ ــ ١٢١ •

للمرشحين • وكان لهذا الاجراء أثـر سلبي اذ انقسمت العساكر وتشتتت الامكانات الاقتصاديـة بنتيجته ، وضعف النفوذ العثمانـي بالتالـي ، ممـا شجع الناقمين المتربصين من زعماء البلاد على الثورة على الدولة العثمانية • وصادف في هذه الاثناء وصول نبأ وفاة السلطان سليمان القانوني ، في عام ١٥٦٦ ، فاستغل ذلك الامـام مطهـر الزيدي للثورة عـلى العثمانيين [١] ، وكلف الوالي سنان باشا بالقضاء على ثورته ، كما سبق القول [٢]•ويبدو أن ولاية اليمن عادت ، في اعقاب ذلك ، الى حكم والٍ واحد ، لأن المصـادر المحلية لم تعد تذكـر تعيين واليين • ويعلق صاحب « الاحسان في دخـول مملكة اليمن تحت ظـل عدالة آل عثمان » ، على الفترة التي تلت هزيمـة الزيدية بقوله : فلم تزل البكلربكية تتولى من الأبواب العالية واحداً بعـد واحد ••• الى الآن [٣] ، أي ربيع الثاني ١٠٣١ / شباط ـ آذار ١٦٢٢ ، الذي توقفت عنده احداث المخطوط •

ولم توجد في ولاية اليمن اقطاعات بل تقاضى موظفوها ، بما في ذلك الجنود ، المرتبات السنوية ، وعرفت تبعاً لذلك بأنها من نوع ساليانليْ ، أي سنوي [٤] • وما زاد عن الموارد ، بعد تسديد النفقات ، أرسل الىاستانبول•

٥ أما في شمال افريقية فنلاحظ أن العثمانيين ، بعد أن مدّوا نفوذهم على الجزائر وتونس وطرابلس ، قد نظموا الادارة فيها ، رغم الصعوبات التي اعترضتهم • ففي الجـزائر حدثت اضطرابات نتيجـة الصراع بين الانكشارية ورؤساء القراصنة • وكان خيرالدين وخلفاؤه قد اعتمدوا على الانكشارية في توطيد حكمهم • وقد جنّد هؤلاء من الاناضول ، وترأسهم الآغا ، وهو من صفوفهم • وكان عادة يبقى في منصبه مـدة شهرين ، ثم يعزل ، ويصبح آغا شرفياً • وقد نظم الانكشارية في فرق تسمى واحدتهـا

---

١ ــ المصدر السابق ، ١٥٩ـ١٨١ ؛ الاحسان ؛ ١١ ب •
٢ ــ انظر ص ١٢٦ •
٣ ــ انظر : الاحسان ، ١٦ آ ، وايضا ١٦ ب ــ ١٧ آ •
٤ ــ انظر : Gibb and Bowen; I. i. 148 n-3

أورطه أو أوضه • وكانت لهم أنظمتهم الخاصة بهم ، ومحاكم يحاكمون أمامها ، وديوان يدافع عن مصالحهم ويدير شؤونهم • ثم تدخلوا في شؤون القراصنة ، وقاسموهم الغنائم ، وأحياناً انخرطوا في صفوفهم • ولم يكن القراصنة بمجموعهم من الاتراك ، بل ضموا عناصر من قوميات مختلفة وقعوا في الأسر • وما دام على رأس الجزائر بيلربية أكفاء فقد خضع لهم كل من الانكشارية والقرصان • وأسهم هؤلاء الأخيرون بمد الحكم العثماني في الجزائر بالرجال والمؤن والمال • وعين البيلربية ، من قبل السلطان ، وعملوا كحكام مدنيين وقادة عسكريين ، وبقي واحدهم في الحكم مدة ثلاث سنوات•وتمتع البيلربية الأوائل في الجزائر ، بدءاً من خير الدين وانتهاء بقليج علي ، بسلطة أيضاً على تونس وطرابلس • وبعد عام ١٥٨٧ أصبح لكل من هذه البلاد وال خاص به • وينوب عن البيلربي نائب يسمى خليفة [١] •

وقد سبق القول [٢] أن سنان باشا وعلج علي قد أنهيا حكم الحفصيين في تونس ، في عام ١٥٧٣ ، واستعادا تونس وحلق الوادي ، وأصبحت تونس منذ ذلك الحين ولاية عثمانية يحكمها بيلربي • وقد أبقى العثمانيون في تونس أربعة آلاف انكشاري ، يرأس كل مائة منهم قائد ، يسمى الداي، ويرأس العسكر جميعاً الآغا • وأوجدوا (أمير لواء) لضبط البلاد وجمع أموال الجباية منها ، ويسمى الباي • وسمح لبعض أعيان البلاد بحضور ديوان العساكر ، وذلك بغية التقريب بين الجانبين [٣] •

وينسب توطيد الحكم العثماني في طرابلس الى طرغوت ، الذي عين بيلربياً عليها ، في عام ١٥٣٤ ، وانصرف الى اخضاع المناطق الداخلية للحكم العثماني • كما أنه احتل جربة ، وجعل طرابلس قاعدة لعملياته في القرصنة ضد الاسبانيين • وعلى غرار الجزائر وتونس ، وجد في طرابلس ديوان عسكري ساعد البيلربي في الحكم •

---

١ ـ انظر : Julien, 259-62, 273; Abun-Nasr, 177-8
٢ ـ انظر ص ٧٩ •
٣ ـ انظر : ابن ابي ضياف ، ٢٦ـ٢٧ ؛ Abun-Nasr, 178

وفي السودان اقتصر الوجود العثماني على ولاية الحبش ، التي ضمّت مينائي سواكن ومصوّع • وقد تضاءل النفوذ العثماني ، في هذه الولاية ، بعد عهد ازدمر ، الذي أنشأها • وربما كانت هذه الولاية مقسمة الىصناجق في القرن السادس عشر ، ولكن أوليا جلبي ، في القرن السابع عشر ، يذكر أنها لم تضم صناجق في عهده ، كما لم تضم زعامت أو تيمار • ولم تختلف سلطة العثمانيين ، في هذه الولاية ، في القرن السابع عشر ، عما كانت عليه في ولايتي اليمن والاحساء ، اذ كانت اسمية في جميعها [١] ، لكونها مناطق أطراف • ويذكر في النصف الثاني من القرن الثاني عشر أن حاكماً قبلياً حلّ مكان الوالي العثماني في حكم هذه الولاية ، ولقب بالنائب [٢] •

فترة الهدوء بالقوة

سادت الولايات العربية ، في أعقاب القضاء على الثورات فيها وادخال التنظيمات الادارية اليها ، فترة من الهدوء دامت في بلاد الشام ومصروالعراق قرابة نصف قـرن ، وتخللها كثير من الاضطرابات في ولايات الأطراف في البصرة والاحساء واليمن وشمال افريقية • وانعكست قوة الدولة وشهرتها المتزايدة ، خاصة في عهد السلطان سليمان القانوني ، على الولايات العربية ، فسادها جو من الرهبة ، وهي تشهد ، على فترات متقاربة ، اقامـة الزينات فيها ، تخليداً لانتصار عثماني كبير في أوروبا ، أو في غيرهـا من الجبهات • وتجلت هيبة الدولة ونشاط الادارة فيها في أشخاص الولاة الذين عينوا عـلى الولايات العربية • فقد أتوا اليها ووراءهـم أمجـاد عريضة في ميدان المعارك ، وهو المجال الرئيسي لصنع البطولات في عهد الفتوحات آنذاك ، وبرهنوا أنهم على مستوى المسؤولية الادارية ، فحققوا الامن ، وشيدوا الأوابد ، ومعظمها ذات نفـع خيري ، كالجوامع والمـدارس والسبـل ،

---

١ ـ انظر : Gibb and Bowen, I. i. 143n-6
٢ ـ انظر : Holt, *A Modern History of the Sudan*, p. 25

لتخليد ذكراهم • ولم تشهد أية فترة ، في العهـد العثماني ، ما شهدته الولايات العربية ، في هذه الفترة ، من نشاط اداري وعمراني •

وتجلى النفوذ العثماني في بلاد الشام ، في أعقاب القضاء على ثورة الغزالي في عام ١٥٢٠ ، في هوية كبار الموظفين ، فكان الولاة ، بلا استثناء من أصل رومي ، أي من غير السكان المحليين ، يتقبلون عزل الدولة لهـم وينفذون أوامرها بدون تمرد • وكان القضاة الحنفيون ، منذ أن عزل ولـي الدين بن الفرفور الدمشقي ، عـن منصب القاضي الحنفي في ٩٣٥/ ١٥٢٨–١٥٢٩ ، من أصل رومي • أما المفتون فنظراً لبقائهم في مناصبهم عادة حتى وفاتهـم ، كانوا يضمون أناساً من أصل محلي وآخـرين مـن أصل رومي • وكانت نسبة هؤلاء الأخيرين غالبة في هذه الفترة •

وقد أخلد السكان في ولاية الشام الى الهدوء ، وأذهلهـم ما رأوه من كثرة الجنود وعربات المدافع التي استخدمها العثمانيون في القضـاء على ثورة الغزالي • وقد عزّز العثمانيون الحامية الانكشارية في القلعـة في أعقاب ذلك • كما أن انتصارات العثمانيين ، بصورة خاصة في البلقان ، والزينة التي كانت تأمر بها الدولة في دمشق ، كما في غيرها من الولايات، في مثل هذه المناسبات ، أظهرت للسكان قوة الدولة وجبروتها • ويقول ابن جمعـة ، مثـلاً ، في أحـداث سنة ٩٣٢/١٥٢٥–١٢٥٦ ، « وفي يوم الأربعاء سادس عشري القعدة وصلت الى دمشق البشائـر بأن السلطان قـد انتصر على ملك مدينـة بدون مع مدينة قرون وأربع وعشرين قلعـة • وقتل فيها من المشركين مايتان وثمانون ألفاً ومن المسلمين ثمانون ألفاً ، فنودي بالزينة سبعة أيام ، ثم بعد خمسة أيام قدم البشير فنودي بالزينـة سبعة أيام أخر »[١]• وفي الفترة بين ٩٢٧ و ٩٣٦ زينت دمشق أربـع مرات احتفالاً بانتصارات العثمانيين العسكرية[٢]• كما أن حملات ولاة

---

١ ـ ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٩ •
٢ ـ المصدر السابق ، ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١١ •

دمشق ضد أمراء جبل لبنان ، عقب القضاء على الغزالي ، والاتيان برؤوس القتلى من الجبل ورميها في دمشق ، أرهبت سكان الجبل بقدر ما أرهبت سكان دمشق ، وزادت بالتالي من هيبة الدولة . ولم يتورع العثمانيون عن سجن العلماء أصحاب الشأن في دمشق آنذاك . ويذكر أن والي دمشق أياس باشا سجن في ٩٢٧/١٥٢١ الشيخ تقي‌الدين القاري الشافعي بسبب انتقادة للحنفية وقوله بأن العثمانيين أهل بدع . وقد أفرج عنه بتوسط أحد المعتقدين بابن عربي ، ولكنه حرم من امتيازاته [١] . وحدث أيضاً في ٩ شعبان ٩٤٢/٢ شباط ١٥٣٦ ، أن قتل والي دمشق محمد كزل باشا اثنين من العلماء ، رغم معارضة مفتي الحنفيه ، بتهمة أنهما رافضيان [٢] . وقام والي دمشق فرهاد باشا في ٩٢٨/١٥٢١-١٥٢٢ بسجن وتغريم الدمشقيين ، الذين هدموا الاصطبلات في بيوتهم بقصد عدم ايواء العثمانيين فيها [٣] .

وفي حلب شدد واليها عيسى باشا (٩٣٥-٩٣٧/١٥٢٨-١٥٣١) قبضته ضد نفر من أعيانها ، في أعقاب مقتل قاضي حماة الرومي فيها ، بسبب احتكاره الملح والحنطة ، وأهان خاصة العلماء [٤] . ووصف حسين باشا ، والي حلب ، في ٩٤١/١٥٣٤-١٥٣٥ ، بأنه « كان كثير القتل بغير سجل شرعي ، سفاكاً للدماء على صورة قبيحة من تكسير الأطراف والاحراق بالنار » [٥] . وتتبع مصطفى باشا ، والي حلب ، في ٩٥١/١٥٤٤-١٥٤٥ ، قطاع الطرق ، ليلاً ونهاراً ، بنفسه وعسكره ، وأظهر سطوته على اللصوص .

---

١ ـ ابن طولون اعلام الورى ، ٢٣٨ .
٢ ـ المصدر السابق ، ٢٤٧ .
٣ ـ المصدر السابق ، ٢٣٨-٢٣٩ .
٤ ـ محمد راغب الطباخ ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ اجزاء ، حلب ١٣٤٢ ـ ١٣٤٥/١٩٢٣ ـ ١٩٢٦ ، ج ٣ ، ١٧٧ ـ ١٧٩ .
٥ ـ المصدر السابق ، ج ٣ ، ١٩٩ .

والى جانب هذه النماذج من تسلط الولاة ، نجد أن بعضهم ترك في هذه الفترة ، آثاراً هامة ، فالوزير لالا مصطفى باشا ، الذي ولّي على دمشق في الفترة بين ٩٧١-٩٧٦/١٥٦٣-١٥٦٩ ، بنى الخان المعروف باسمه تحت قلعة دمشق ، ويقوم مكانه اليوم سوق الهال ، كما أنه بنى حماماً في سوق السروجية [١] • وقام مراد باشا ، بعد ذلك ، ببناء جامع في السويقة ، عرف بجامع المرادية نسبة له ، ولا يزال قائماً حتى اليوم [٢] • وحين ولي درويش باشا على دمشق في عام ٩٧٩/١٥٧١-١٥٧٢ ، أمر ببناء جامع فيها عرف باسمه ، وهو جامع الدرويشية المعروف اليوم قرب باب الجابية ، وذلك بالاضافة الى مآثر أخرى ، كعمارته لسبل مختلفة ولحمام ، بالقرب من الجامع الاموي ، ولقيسارية قرب سوق الجوخ [٣] • وفي عام ٩٩٩/١٥٩٠-١٥٩١ ، تمّ بناء جامع السنانية بدمشق قرب باب الجابية ، وكان قد أمر ببنائه سنان باشا الوزير الاعظم ، الذي عيّن والياً على دمشق عام ٩٩٨/١٥٨٩-١٧٩٠ ، وعزل في العام ذاته [٤] •

وفي حلب بنيت آثار هامة في هذه الفترة • ففي عام ٩٥٢/١٥٤٥-١٥٤٦ ، أمر خسرو باشا ، وكان وزيراً آنذاك في استانبول ، وسبق أن تولى حلب في عام ٩٣٨ ، كتخداه فروخ ، والي حلب ، ببناء جامع وتكية ضمت المدرسة الخسروية ، وأوقف عليهما خان وسوق • وبنى محمد باشا دوقه كين،والي حلب في ٩٥٧ عدة خانات فيها مثل الخان المعروف اليوم بخان الفرايين ، وخان النحاسين ، والخان المشهور بخان العلبية • وبنى

---

١ ـ ابن جمعة ، نشر المنجد ، ١٥ •
٢ ـ المصدر السابق ، ١٦ ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ، ٢٠٥-٢٠٦ •
٣ ـ ابن جمعة ، نشر المنجد ، ١٦ ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ، ١٥٠-١٥٢ •
٤ ـ ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٢٠ ؛ أنظر أيضاً : شرف الدين موسى الانصاري الشافعي ، نزهة الخاطر وبهجة الناظر ، مخطوط في الظاهرية ، رقم ٧٨١٤ ، الأوراق ، ٣٣٣ آ ـ ٣٣٤ ب ، ٣٨٢ ب •

بهـرام باشا ، أثناء توليه حلب عـام ٩٨٨/١٥٨٠-١٥٨١ ، جامعه المشهـور بالبهرامية في محلة الجلوم [١] •

نتساءل لمـاذا بنيت هـذه الأبنية ذات النفـع العـام في هـذه السنوات المتلاحقة ، ولماذا لم يبن مثلها في السنوات السابقة أو اللاحقة من العهد العثماني ؟ اذا تمعنا في شخصيات البناة ، وجدنا أن لالا مصطفى باشا مثلاً كان في السابق وزيراً أعظماً ، وقد اشترك في فتح قبرص • أمـا مراد باشا فيوصف أنه صاحب الخيرات والحسنات • وكان درويش باشا وزيراً أعظماً ، وقد توجه الى الحجاز أميراً على قافلة الحج في عام ٩٧٤/١٥٦٧ • أما سنان باشا فكانت له أعمال خير كثيرة في مختلف البلدان ، وقد اشتهر أمره باخضاع الثائرين في اليمن (١٥٦٩-١٥٧١) ، وبنى ما لا يقل عـن أربعين مسجداً جامعاً في مناطق مختلفة [٢] • وحـاز محمد دوقه‌كين والي حلب المناصب العالية في الدولة ، وكان أيضاً يمت بالقرابة الى السلطـان العثماني • وهكذا ، فبالاضافـة الى صفات الغنى والخـير والشهرة التي اتصف بها هؤلاء الولاة ، يجب أن نذكر أنه في هذه الفترة التي حكموا فيها بلغت الامبراطورية العثمانية أوج مجدها ، ونالوا هم من هذا المجد الشيء الكثير • فلا عجب بعد أن حاز هؤلاء الاشخاص المناصب العاليـة والشهرة في الدولة أن يخلـّدوا ذكرهم بهذه الأعمال الخيرية خاصة في دمشق عاصمة الخلافة سابقاً ومركز انطلاق الحجاج القادمين من أقطار مختلفة ، فيرى هؤلاء أعمالهم ، وينقلون أخبارها الى بلادهم • ولعل هذه الاسباب هي التي حدت بالسلطان سليمان القانوني لأن يأمر بناء التكيـة السليمانية في دمشق ، في موضع القصر الأبلق بالوادي الاخضر (مقابل

---

١ ــ الطباخ ، ج ٣ ، ١٨٠-١٨١ ، ٢٠٣-٢٠٤ ، ٢١٣-٢١٤ ؛ وانظر أيضاً : ابن الحنبلي (توفي ٩٧١ هـ) ، در الحبب في تاريخ أعيان حلب ، صدر منه ثلاثة أجـزاء ، تحقيق محمود الفاخوري ويحيى عبارة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٧٢و١٩٧٣، أنظر : القسم الثاني ، ج ١ ، ٥٨٤ ــ ٥٨٥ •

٢ ــ أنظر : الغزي ، لطف السمر وقطف الثمر ، الاوراق : ٢١٦ آ ــ ٢١٦ ب ؛ أنظر أيضاً : المحبي ، ج ٢ ، ٢١٤ ــ ٢١٧ ؛ البوريني ، ج ٢ ، ١٣٤ ــ ١٥٣ •

متحف دمشق اليوم) • وقد بوشر ببنائها في عام ٩٦٢/١٥٥٤–١٥٥٥ ، وانتهى ذلك في أوائل صفر ٩٦٧/ أوائل تشرين الاول ١٥٥٩ [١] •

ويدل بناء الخانات على نشاط التجارة في بلاد الشام في هذه الفترة • وكان الفرنسيون ، منذ عام ١٥٣٦ ، يتمتعون بامتيازات (Copitulations) شملت العلاقات التجارية ، في الدولة العثمانية ، وقد أعفتهم هذه الامتيازات من الخضوع لكثير من قوانين البلاد • وفي حين أن الفرنسيين اهتموا بالتجارة مع المناطق الجنوبية من بلاد الشام ، بواسطة مينائها الرئيسي صيدا ، فقد حصر الانكليز اهتمامهم في منطقة حلب ، واعتمدوا ، أكثر من الفرنسيين ، على تجارة المرور ، واستخدموا ميناء الاسكندرونة لنقل بضائعهم • وكانوا يستوردون الحرير من بلاد فارس ، ويصدرون اليها ، والى بلاد الشام ، المنسوجات الانكليزية ومواد الصباغة • وقد أسسوا في عام ١٥٨١ شركة بلاد الشرق (Levant Company) ، التي تركز نشاطها في بلاد الشام [٢] •

وكانت علاقات الولاة بالامراء في ولاياتهم تدور حول تحقيق الامن في أرجاء الولاية وجمع الضرائب (مال الميري) من الامراء الملتزمين • وفي عامين متتالين ، ١٥٢٣ و ١٥٢٤ ، شن والي الشام ، خرّم باشا ، الحملات على دروز الشوف ، فأخلدوا الى السكينة ، واستمر الامر كذلك حتى قيام فخر الدين المعني الثاني وتحديه للعثمانيين في العقد الاخير من القرن السادس عشر •

وقد شجع العثمانيون قيام امراء محليين متعددين ، في بلاد الشام ،

---

١ – انظر : الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ ٣ ، ١٥٦–١٥٧ •

٢ – انظر :

Alfred C. Wood, *A History of the Levant Company*, London, 1935, p. 11

وانظر ايضا :

P. Masson, *Histoire du Commerce Français dans le Levant au XVII^e Siècle*, Paris, 1896, pp. 371-96.

لايجاد نوع من توازن القوى بينهم ، ولعدم جعل اي امير قوياً الى درجة يهدد معها أمن المنطقة • ولهذا نجد في ولايتي الشام وطرابلس ، في القرن السادس عشر ، عدة امراء محليين استطاعوا ان يثبتوا نفوذهم محليـا ، فاعترف العثمانيون بسلطتهم [1] •

وحاول العثمانيون اخضاع القبائـل البدوية بالقوة ، وذلـك بشن الحملات التأديبية ضدها ، وبناء القلاع وتحصينها لمراقبتها • وعمدوا كذلك الى شراء خضوعها بالمال ، وذلك لتأمين سلامة قافلة الحج الشامي • وفيالواقع فقد ساد الاستقرار في الريف ، في هذه الفترة ، مما شجع الزراعة ونشط حياة القرية ، ويفسر هذا ازدياد عددالقرى في بلاد الشام في القرنالسادس عشر •

وشهدت ولاية مصر ، اثر القضاء على الثورات فيها ، واصدار القانون نامه الناظم لشؤونها ، فترة من الهـدوء تجلت فيهـا قوة الولاة في مصر وخارجها • فقد ذكر عن الوالي مسيح باشا الخادم (١٥٧٥ — ١٥٨٠) ، أنه قضى عـلى اللصوص وقطاع الطرق في مصر ، وأرهب الكشاف فيهـا • وشددت الدولـة من قبضتها عـلى الصعيد ، الذي يزود مصر بالحبوب ، فعينت عليه حاكماً من قبلها ، في الربع الاخير من القرن السادس عشر ، بدلاً من حكامه التقليديين ، مشايخ البدو من قبيلة هوارة ، الذين اعترفت بامارتهم عليه في اعقاب الفتح العثماني •

واشتهر من الولاة خارج مصر كل من سليمان باشا الخادم ، الذي ولي مصر مرتين ، بين ١٥٢٥ — ١٥٣٥ و ١٥٣٦ — ١٥٣٨ ، وسنان باشا ، الذي وليها ايضاً مرتين ، ١٥٦٧ — ١٥٦٨ و ١٥٧١ — ١٥٧٤ • واشتهر الاول بحملاته في اليمن والمحيط الهندي ، فاحتل عدن في ١٥٣٦ ، وقاوم البرتغاليين فيالمحيط الهندي ، وحاول السيطرة على تجارة الشرق الاقصى•

---

١ — انظر ص ٩٧ •

وفي طريق عودته وطد السلطة العثمانية في مدن اليمن الرئيسية[1]، واعتبر ذلك بدء الفتح العثماني لها • واشتهر سنان باشا بحملاته في اليمن ضد الثائرين الزيديين،واعتبر ذلك الفتح العثماني الثاني لها•[2]ويلاحظ في هذه الفترة ، طول عهد الولاة في مصر ، بالنسبة للفترات اللاحقة • ويذكر مثلا أن داود باشا حكم مصر أحد عشر عاماً (١٥٣٨ - ١٥٤٨) ويمكن تفسير ذلك بالهدوء النسبي الذي عمّ مصر ، وبالنفوذ الذي حصل عليه الولاة ، وبالخدمات التي ادوها للدولة ، وقد اصبح عدد منهم صدوراً عظاماً في الدولة العثمانية •

وعلى غرار الولاة في الشام ، قام الولاة العثمانيون في مصر ببناء ابنية مختلفة منها ما هو للنفع العام ، ومنها ما هو للنفع الخاص ، وجميعها خلدت أسماءهم ، وكانت تعبيراً عن النفوذ والغنى الذي بلغوهما • وقد بنى سليمان باشا الخادم عدة جوامع واسواق ووكالات (اي خانات او قيساريات، في تعابير بلاد الشام) • وبنى داود باشا مدرسة جعل لها اوقافاً • كما بنى سنان باشا عدة جوامع وربط وتكايا ، وقد اشتهر بذلك حيثما حلّ • وبنى الوالي اسكندر باشا (١٥٥٦ - ١٥٥٩) جامعاً ومدرسة وتكية وسبيلاً ، واوقف عليها الاوقاف • وبنى الوالي مسيح باشا مدرسة سميت بالمسيحية نسبة اليه ، ورصد لها الأوقاف [3] •

وفي العراق اظهر الولاة العثمانيون كثيرا من النشاط والبأس في تأمين النظام داخل المدن ، وفي قتال القبائل البدوية والكردية خارجها ، وكذلك في صد تدخلات وهجمات الصفويين عبر الحدود • ويلاحظ ان الولاة الذين اشتهروا في هذه الاعمال ، او تمتعوا بالسمعة في غيرها ، قد خلدوا

---

١ - انظر ص ٧٢ •
٢ - انظر ص ٩٤ •
٣ - انظر حول اعمال هؤلاء الولاة : احمد شلبي ، ٤ آ - ٧ آ ؛ الاسحاقي ، ١٣٦-١٣٧ ابن أبي السرور البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٤١ آ-٤٧ آ ، الكواكب السائرة ١٦ آ - ٢٠ ب ؛ علي بن حسن الشهالي ، ١١٣ آ - ١١٥ ب •

امجادهم في بغداد ببناء الجوامع وغيرها من الاعمال ذات النفع • ففي عام ٩٧٨/١٥٧٠ بنى والي بغداد مراد باشا جامع المرادية في حي الميدان • وفي عام ٩٩١/١٥٨٣ ، عمر مرقد الحسين في بغداد من قبل واليها • وفي عام ٩٩٦/١٥٨٧ عمّر والي بغداد سنان باشا جغال زاده ، الذي قام بحملات ناجحة ضد الصفويين ، جامع الصاغة ، او جامع الخفافين ، واعاد بناء التكية المولوية التي تعرف اليوم باسم جامع أصافية • كما بنى خاناً ، واسواقاً ، في بغداد ، مما يدل على ازدهار الحالة الاقتصادية فيها • وفي عام ١٠٠٨/ ١٥٩٩ بنى حسن باشا جامع الوزير في بغداد ، في اعقاب انتصاره على الثائر مبارك في منطقة البصرة ، واحاط الكرخ بسور وخندق لحمايتها من البدو [١] •

ونشطت الحياة التجارية في العراق ، في هذه الفترة ، واصبحت بغداد مركزاً تجارياً كبيراً للجزيرة العربية ، وبلاد فارس ، والامبراطورية العثمانية ، وزارها عدد من الرحالة والتجار الاجانب • وقد شاهد سيزار فريدريغو (Caesar Frederigo) في بغداد ، في عام ١٥٦٣ ، عدداً من التجار الاجانب • وذكر انطوني شيرلي (Anthony Shirley) انه رأى في بغداد ، في عام ١٥٩٠ ، أنواعاً مختلفة من البضائع الممتازة بأسعار مناسبة • وشاهد رالف فيتش (Ralph Fitch) ، في عام ١٥٨٣ ، رصيفا للمراكب التجارية في بغداد • وكانت بغداد الشرقية محصنة بسور وخندق ، بينما المنطقة الغربية مفتوحة ، وهي اشبه بقرية كبيرة • ووجد في بغداد دار لضرب النقود الذهبية والفضية والنحاسية[٢] •

أما في اليمن فبعد ان قضى سنان باشا على تمرد الزيديين واعاد الهيبة العثمانية الى البلاد ، استتب الامن في أعقاب ذلك • ويقول صاحب « الاحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان » ، ان البلاد

---

١ ــ أنظر حول هذه الأبنية : العزاوي ، ج ٤ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٤١ــ١٤٢ •

٢ ــ أنظر : A. Duri, *E.I.*², s.v. Baghdad.

أمنت وطابت خواطر العباد • وكان الولاة العثمانيون ينشرون في اليمن أجنحة العدل والاحسان والأمن والأمان [1] •

وكان الهدوء من أبرز مظاهر حكم الوالي بهرام باشا ، الذي تلا سنان باشا • وقد حكم اليمن مدة خمسة أعوام ، وعرف عنه الشدة والتنكيل ، مما أرهب الأهلين في كافة أرجاء اليمن [2] ، وجمع الأسلحة النارية من السكان المحليين لمنعهم من القيام بالثورات • ومع ذلك انصرف بهرام باشا الى التنظيم والعمران ، فضرب السكة في مدينة ملحط ، فعرفت تبعا لذلك بالملحطية • وبنى فيها جامعاً وابنية اخرى ، فيها وفي تعز ، شارك فيها مساعدوه [3] • وفي عهد الوالي مراد باشا (٩٨٤-٩٨٨/١٥٧٦-١٥٨١) ، تأكد الامن والهدوء • وقد كافح مظاهر التسلط بين الاداريين والجنود العثمانيين مما أرضى السكان المحليين ، وجعلهم أكثر خضوعاً ، خاصة وانه كافح اية بادرة للثورة بينهم • ولم يتدخل هذا الوالي في نزاعات الزيديين الداخلية اعتقادا منه ان اي تدخل سيساعد على رص صفوفهم وتكتلهم ضد العثمانيين • وقد اتاحت فترة الهدوء لمراد باشا بناء عدد من الابنية الهامة منها السمسرة الكبيرة (اشبه بالتكية) ، شرقي مدينة تعز ، التي ضمت اربعا وستين مسكنا موزعة على طابقين • وبنى سمسرة اخرى في تعز ، واشترى بيوتاً وبساتين أوقفها عليها• كما أنه بنى جامعاً كبيراً في صنعاء [4]• وحين ولي بهرام باشا ، بعد ذلك ، على دمشق في عام ٩٨٩/١٥٨١ - ١٥٨٢، بنى فيها سوقا عند باب البريد وقيسارية لأعمال التجار [5] •

ومن الولاة المشهورين في اليمن ، في القرن السادس عشر ، الوالي

---

١ - أنظر : الاحسان ، ١٦ أ •
٢ - السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الاول لليمن ، ١٥٣٨ - ١٦٣٥ ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٦ •
٣ - أنظر : الاحسان ، ١٦ ب - ١٧ ب •
٤ - المصدر السابق ، ١٨ ب - ٢٢ ب •
٥ - أنظر : المحبي ، جـ ٤ ، ٣٥٥-٣٥٨ •

حسن باشا الذين عين على اليمن بين ٩٨٨ و ١٠١٣/١٥٨٠ و ١٦٠٥ • وقد استفاد من الاستقرار الذي تحقق في عهد سابقيه ، واتاح له طول ولايته وسياسة الشدة واللين التي اتبعها التمتع بسمعة كبيرة في اليمن وخارجها ، وخاصة بعد احباطه محاولة الامام القاسم الزيدي للثورة على العثمانيين ، مما دعا بعض الاخباريين الى وصفه بفاتح اليمن الثاني ، ونافس بذلك سنان باشا [1]• وأمر حسن باشا ببناء عدة أبنية في اليمن منها قصر له في تعز ، ومساجد وأقنية وغيرها [2]

واذا حدثت من اضطرابات في هذه الفترة في اليمن ، فهي ضمن الطبقة الحاكمة العثمانية ، ومبعثها التنافس وتدخل العساكر فيها[3]• ويبدو ان هذا الوضع قد شجع الاسرة الزيدية ، ممثلة بالامام القاسم ، على الثورة، في الفترة بين ١٥٩٧ و ١٦٠٢ • ولكن العثمانيين ، في عهد الوالي حسن باشا ، قضوا على ثورته • ثم عاد الزيديون الى الثورة ، بشكل اوسع ، بعد ذلك ، حتى سيطروا على اليمن في عام ١٦٣٥ •

وفي شمال افريقية شهدت الجزائر ، في فترة حكم البيلربية ، ومعظمهم من القادة الاكفاء ، الذين اعتمدوا على دعم الانكشارية ، توطيد الحكم العثماني فيها • وحدّ في فترة القوة العثمانية هذه ، من تسلط كل من القراصنة والانكشارية • ووجه البيلربية اهتمامهم الى السيطرة على المناطق الداخلية ، بوضع الحاميات في مدنها الرئيسية ، وبتحصيل الضرائب من مختلف فئات السكان ، بما في ذلك سكان الريف والبدو • ومع ان الحكم العثماني لم يلق مقاومة تذكر من قبل السكان المحليين ، فقد جابه مقاومة عنيفة من قبل طوائف القرصان ، في الربع الاخير من القرن السادس عشر •

---

١ ــ السيد سالم ، ٣١٥ •
٢ ــ أنظر تفاصيل أخرى من حكم حسن باشا في : الاحسان ، ٢٢ ب ــ ٢٩ آ •
٣ ــ أنظر مثلا : الاحسان ، ١٨ آ ــ ٢٠ آ •

وكان الوجود العثماني في تونس تدعمه القوة العسكرية[1] • وعمد العثمانيون الى ارسال الجنود بشكـل مستمر اليها ، واقاموا الحاميـات في مراكز المدن • ودام عهد البيلربية فيها حتى عام ١٥٩٤ ، عندما تسلم الحكم ديوان الانكشارية ممثلا باحد افراده ، الذي اشتهر باسم الداي •

وعـلى غرار الجزائر وتونس ، ظهرت قوة البيلربيـة في طرابلس ايضا • وقد هزم الاسطول العثماني الاسبانيين الذين حاولوا الاستيلاء على جربة ، وذلك في عهد طرغوت • وتمكن البيلربي ، الذي خلفه ، ويدعى جعفر ، من السيطرة عـلى تمرد الانكشاريـة والبدو • وحاول بيلربية طرابلس ، أكثر من مرة ، في أواخـر القرن السادس عشر ، السيطرة على جربـة ، ولكن دايات تونس ساعدوا سكانها ، وحالـوا دون استيلاء حكام طرابلس عليها • وفي عام ١٦٠٩ تسلم الحكم في طرابلس ، مثلما حدث في الجزائر وتونس ، ديوان الانكشارية • وبدأ بذلك حكم العساكر فيها [2]•

---

١ ـ انظـر :
Mantran, "North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", *The Camb. Hist. Of Islam ?* Vol. II, pp. 254--6, 258, 261-2.

٢ ـ انظر ص ١٢٨ •

الفصل الثالث

الثورة على العثمانيين

من النصف الثاني للقرن السادس عشر
وحتى الربع الأول من القرن الثامن عشر

الضعف العثماني

بلغت الدولة العثمانية أقصى توسعها في عهد السلطانين سليم الأول وسليمان القانوني ، وطغت انتصاراتهما على بذور الضعف التي أخذت في الظهور منذ عهد سليم الأول•وفي عهد السلطانسليمالثاني (١٥٦٦-١٥٧٤)، ظهرت علائم الضعف العثماني علانية ، فتجمدت حدود الامبراطورية ، ثم أخذت بالتقلص بعد ذلك • ففي أوروبا واجه العثمانيون أعداء أشداء يتزعمهم امبراطور الامبراطوريةالجرمانية المقدسة شارلكان (شارلالخامس) واضطروا الى عقد معاهدة مع آل هابسبورغ في عام ١٥٦٢ •

وفي الوقت الذي كان فيه العثمانيون منشغلين بالاخطار على الجبهة الصفوية ، في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) ، كانت أوروبا تمزقها حروب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨) ، التي كانت في أساسها حروباً سياسية ودينية ، بين كاثوليكي وبروتستانتي المانيا • وسرعان ما اشتركت فيها السويد وفرانسا واسبانيا • وحين استعادت الجبهة الاوربية نشاطها في الربع الأخير من القرن السابععشر ، صد جيش نمساوي -ألماني- بولوني هجوم العثمانيين للمرة الثانية على فينا في صيف عام ١٦٨٣ • واندفع

النمساويون ، في أعقاب ذلك ، فاحتلوا مناطق عثمانية في هنغاريـا واليونان وعلى سواحل البحر الأسود • وهـزم النمساويون وحلفاؤهم العثمانيين في معركة موهاج الثانية في عام ١٦٨٧ ، وفي معركة زنتا في عام ١٦٩٧ • ووقع العثمانيون في ٢٦ كانون الثاني ١٦٩٩ معاهـدة كارلوفيتز (Carlowitz) مع آل هابسبورغ ، وتخلوا لهـم بموجبه عـن جميع هنغاريا وترانسلفانيا وبودوليا • وكانت هذه أول خسارة كبـرى للعثمانيين منذ حوالي ثلاثمائة عـام ، حين هزمهم تيمور في ١٤٠٢ • كما كانت هذه أول مرة وقـع فيهـا العثمانيون الصلح كمنهزمين ، وتخلوا بموجبها عـن مناطق سيطروا عليهـا منذ فترة طويلة • ولم يتمكن العثمانيون،بعد ذلك ، من استعادة ما خسروه، بل تخلوا عن مناطق أخـرى • وفي عـام ١٧١٨ تخلت الدولة العثمانية عن مناطق بنات تمسفار وفالاشيا الصغرى وبلغراد وأجـزاء من شمالـي صربيا للنمسا ، بموجب معاهدة باساروفيتز (Passarovitz) .

وقد ظهر عداء قياصرة روسيا للدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر، وكان هدفهـم السيطرة عـلى البحر الأسود • ولـم يشعر العثمانيون ، من ناحيتهم ، بخطر دوقية موسكو الكبرى حتى عـام ١٥٣٠ ، حين اصطدمت هذه الدوقية مع خانات القرم الذين وقفوا في وجه توسعهـا في اصطراخان وقازان • وعندما فرض العثمانيون نفوذهم عـلى شبه جزيرة القرم هـرع الروس الى فرض نفوذهـم على اصطراخان وقازان في النصف الثاني مـن القرن السادس عشر • وفي عـام ١٦٩٦ توصل القيصر بطرس الأكبـر الى الاستيلاء على بعض مناطق آزوف • ورغم استعادة العثمانيين هـذه المناطق ، بعد قليل ، فقد بقيت روسيا أكثر دول أوروبا عداء وتهديداً للدول العثمانية في القرنين الثامن عشر التاسع عشر •

وفي الجبهة الشرقية توقفت الجيوش العثمانية عند حدود العراق مـع فارس ، ولـم تستطع التوغـل أبعد مـن ذلك لأسباب سياسية وعسكريـة واستراتيجية • وقد حاول الصفويون ، في عهد الشاه عباس الأول (١٥٨٧ـ

١٦٢٩)، اقامة تحالف مع آل هابسبورغ ضد العثمانيين ، وتمكنوا من احتلال بغداد وأجزاء أخرى من العراق في عام ١٦٢٣ • ولم يستطع العثمانيون طردهم منها حتى عام ١٦٣٨ • وانحسر بعد ذلك الخطر الصفوي عن العراق الى أن قضى الأفغان السنة على نفوذ السلالة الصفوية في عام ١٧٢٢ • وتجدد العداء بين سلطات فارس والعثمانيين في أعقاب ذلك •

وتوقف النفوذ العثماني عند أطراف الجزيرة العربية بسبب صعوبة اختراق المحيط الهندي وخطر مجابهة البرتغاليين المسيطرين عليه•واقتصرت السلطة العثمانية على سواحل اليمن وعدن ، وعلى مناطق سواكن ومصوّع على الساحل الافريقي الشرقي • وسيطر العثمانيون ، في الخليج العربي ، على البصرة والاحساء ، وقاموا بمحاولات لاحتلال هرمز من البرتغاليين • ومكنهم ذلك من التحكم بتجارة الهند مع أوروبا ، عبر البصرة • واستمرت هذه التجارة ناشطة حتى الربع الأول من القرن السابع عشر حين بدأت تنافسها التجارة الهولندية والانكليزية التي اعتمدت على سفن كبيرة سارت حول رأس الرجاء الصالح •

واقتصر الحكم العثماني ، في شمال افريقية ، على المناطق الساحلية ، باستثناء المغرب الأقصى•وحدت الطبيعة الجغرافية والبشرية للمنطقةالداخلية من توسع العثمانيين فيها•وفي المتوسط تخلى العثمانيون عن مالطة في ١٥٦٦، ولكنهم احتلوا قبرص في ١٥٧٠ ـ ١٥٧١ ، قبل أن يحطم اسطول غربي ، ضم قوات بندقية واسبانية وبابوية ، الاسطول العثماني في موقعة ليبانتو في ٧ تشرين الاول ١٥٧١ • وفقد العثمانيون ، في أعقاب ذلك ، السيطرة البحرية في المتوسط •

وظهر تقهقر القوة العثمانية ، في فترة الضعف هذه ، في تبدل الأماكن التي عقدت فيها اتفاقيات الصلح•ففي فترة القوة العثمانية كان الأعداء يأتون صاغرين الى استانبول لتوقيع الاتفاقيات كمنهزمين • وفي فترة الضعف انتقل العثمانيون الى الحدود لتوقيع المعاهدات كخاسرين • وفي فترة الانحطاط ،

في القرن الثامن عشر ، ذهب العثمانيون صاغرين الى مدن الأعداء لتوقيع الاتفاقيات كمنهزمين •

وقد أثر توقف التوسع العثماني على تطور الدولة ككل ، خاصة وان الدولة العثمانية قد ازدهرت على الغزو ضد أعداء الدين في أوروبا ، والى حد ما في فارس • وظهر ضعف الدولة في شخصيات السلاطين أنفسهم ، فانسحبوا بالتدريج من المساهمة الفعلية في قيادة الجيش وفي الادارة ، وانقطعوا الى حياة القصر الخاصة ومؤامراته •

ونتج عن التخلي عن حصر السلطنة بابن السلطان الحاكم ، في الربع الاول من القرن السابع عشر ، والسماح لأكبر أفراد الاسرة العثمانية الحاكمة بتولي السلطنة ، أن ازدادت المكائد ضد السلاطين ، وضعفت نوعية المرشحين ، نظراً لاهتمام السلطان الحاكم بأبنائه أكثر من عنايته باخوته أو أقربائه • وباستثناء السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) ، الذي أظهر مقدرة كبرى ازاء الاخطار المهددة للدولة ، في الداخل والخارج ، وخاصة في الجبهة الصفوية ، اثر احتلال الصفويين بغداد ، لم يظهر في الفترة بين وفاة السلطان سليمان القانوني ، في عام ١٥٦٦ ، وحكم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) ، الذي قام بأول محاولات الاصلاح ، أي سلطان قوي•

ونتج أيضاً عن تقلص نفوذ السلاطين في الحياة العامة أن انتقل زمام المبادرة الى الصدر الأعظم فأصبح له مقر خاص به ، في عام ١٦٥٤ ، عرف باسم الباب العالي [١]• وبلغ من شهرة هذا المكان وصاحبه ، فيما بعد ، أن شاع خطأ ان الباب العالي هو مقر السلطان ، وأن أوامر الباب العالي تعني أوامر السلطان • واشتهر من الصدور العظام ، في هذه الفترة ، افراد من اسرة كوبريلي (Köprülü) ، الذين احتكروا الصدارة العظمى ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، واعادوا الى الدولة العثمانية بعض

---

١ ـ انظر : ٤٤ •

هيبتها • ونظراً لانقطاع السلاطين الى حياة القصر الخاصة ازداد شأن موظفي القصر ، وعلى رأسهم الكزلار آغا ، فأخذ ينافس الصدر الاعظم على السلطة • وتوقف على نتيجة الصراع بين هذين القطبين مصير كثير من حكام الولايات ، الذين اعتمدوا على دعم واحد او آخر من هذين الموظفين (١) •

ومن مظاهر ضعف الدولة العثمانية انحطاط الجيش فيها ، في اعقاب توقف الفتوحات وتناقص السلطة الفعلية للسلاطين ، ففسد نظام الجيش ، وخاصة الانكشارية ، وطمع المسلمون الاحرار بالتجند في صفوفهم للتمتع بامتيازاتهم • وأهملت الدفشرمة ، بالتدريج ، حتى بطلت في حوالي منتصف القرن السابع عشر ، وبذلك انقطع المورد الذي كان يأتي بشبان البلقان الاشداء ، فيدربون ، ويصبحون اما انكشارية او اداريين كباراً • وازداد تمرد الانكشارية بعد انتساب السكان المحليين الى صفوفهم • ففي استانبول كان أول ضحاياهم البارزين السلطان عثمان الثاني الذي عزلوه ، ثم قتلوه في ١٦٢٢ • ومارسوا كثيرا من التعسف في الولايات بشكل ارهق اهلها لما ابتزوه منهم من مال •

وكان قد نتج عن اعتماد الدولة ، بشكل كبير ، على الانكشارية ، منذ عهد السلطان محمد الثاني ، ان اهمل الجند الاقطاعي ، من السباهية الفرسان • ولم يظهر هؤلاء كفاءة عسكرية امام الجنود الاوربيين بسبب عدم اخذهم باساليب القتال الحديثة ، من ناحية التنظيم والعتاد ، ولهذا فقد استخدموا في مهام عسكرية ثانوية ، كشق الطرق ، واقامة التحصينات• وأدى انحطاط الجنود الاقطاعيين الى انحطاط نظام الاقطاع ، وكان تأثير ذلك حاسماً بالنسبة للحياة الاقتصادية في الدولة العثمانية • فالجندي الاقطاعي لم يعد قادراً على مجابهة الجندي الاوروبي الاحسن تدريبا ،

---

١ ــ انظر ص ٤٤ •

ولكن وجوده ، بالنسبة للاستقرار وحسن الانتاج في الريف ، غدا امراً ضرورياً. وهكذا ، فان ضعف الجندي الاقطاعي، الذي كانت سلطته في الريف مستمدة من سلطته العسكرية، أتاح المجال لظهور عناصر مدنية مقربة من السلطات الحاكمة، استطاعت أن تسيطر على الريف وتستثمره لصالحها. وكانت تتصرف بالأرض اما بأخذها كاقطاع ــ وهذا أصبح نادرا ــ أو بالتزام ضرائبها . وقد شاع نظام الالتزام بشكل كبير في اراضي الدولة ، بعد انحطاط الاقطاعات واصحابها . ورافق ذلك كثير من التلاعب باموال الدولة ، وظهرت قوى محلية ثائرة تستمد سلطتها من التزام الضرائب . وأفقر الريف بالتدريج ، واندثر كثير من القرى بسبب هجرة اصحابها منها . وانتقل عدد كبير من الفلاحين الى عداد القوات غير النظامية . واصبح قسم كبير منهم من قطاع الطرق ، وهاجر قسم آخر الى المدن حيث دخل بعضهم المدارس الدينية المجانية ، وعرفوا بالسفطة (Softas)، ثم تجولوا في الريف ، بعد تخرجهم، يجمعون مال الاحسان . ولم يختلف بعضهم عن العصابات [1] ، بسبب الاضطرابات التي أثاروها ، وخاصة في عهد السلطان سليم الثاني .

واشتهر في فترة ضعف الدولة العثمانية الجنود المرتزقة بسبب توفر العناصر البشرية ، وخاصة الريفية ، التي لا عمل لها فاخذت تبيع خدماتها ، وايضا بسبب ظهور زعماء محليين ثائرين عمدوا الى استئجار هذه العناصر لدعم سلطتهم ضد السلطنة العثمانية وضد بعضهم البعض . ففي أواخر القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر استخدم فخر الدين المعني الثاني ، حاكم الشوف ، وحليفه علي باشا جانبلاط ، الذي ثار في ولاية حلب ، قوات مرتزقة من السكبان [2] .

ونتج عن توقف الفتوحات العثمانية ، وبالتالي انقطاع مواردها ، ان

---

١ ــ انظر : Inalcik, "The Heyday and Decline of the Ottoman Empire",

٢ ــ انظر : *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. I, p. 344.

ازداد ارتباك الاقتصاد العثماني • وصادف ذلك مع ازدياد عدد الجنود الانكشاريين والموظفين الذين يتقاضون المرتبات ، بعد ان تضاءل الاعتماد على الجنود والموظفين الاقطاعيين • وقد تناقصت واردات الدولة بسبب فساد نظام الالتزام وجباية الضرائب • وتأثر الاقتصاد العثماني ايضاً بنقص واردات الضرائب التي كانت تفرض على بضائع الشرق الاقصى المارة في الأراضي العثمانية ، واصبح بعض هذه البضائع ، بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، يصدّر مباشرة الى اوروبا عبر هذهالطريق ، واحياناً يعاد تصديره من اوروبا الى الدولة العثمانية • ورغم ان قسماً كبيراً من بضائع الشرق الأقصى بقي يمر ، في القرن السادس عشر ، عبر موانىء البحر الأحمر ، وكذلك ميناء البصرة ، الا أن حجم هذه البضائع تناقص بمرور الزمن ، بسبب ازدياد قوة الامبراطوريات الغربية في الشرق الاقصى • وخسرت الدولة العثمانية من جراء ذلك موارد مالية كبيرة •

وقد نتج عن العوامل السابقة ضغط على النقد العثماني ، ولم تستطع موارد الدولة من المعادن تلبية الحاجة المتزايدة للنقد • وحدث في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، والازمة النقدية العثمانية في اوجها ، ان تدفقت الفضة الرخيصة الى بلاد البحر الابيض المتوسط من العالم الجديد — امريكا — بواسطة المستعمرين الاسبان • فارتبك النقد العثماني ، تبعا لذلك ، وانهارت قيمة وحدته الفضية ، وهي الاقجة (تسمى ايضا الأسبر)، وارتفع سعر الذهب ، وقلّ وجوده بسبب ازدياد قيمته بالنسبة للفضة • وأصدرت الدولة العثمانية وحدة نقد فضية جديدة في عام ١٦٢٠ ، هي البارة ، ولكنها لم تفد في القضاء على التضخم النقدي وغلاء الاسعار•وفشلت كذلك محاولة أخرى لاحقة لاصدار عملة جديدة هي القرش ، في الربع الأخير من القرن السابع عشر • ولم تجد محاولة الدولة العثمانية تخفيض سعر الاقجة عام ١٥٨٤ ، في القضاء على الازمة النقدية اذ ارتفعت الاسعار

في اعقاب ذلك[1] • وللدلالة على انهيار قيمة الاقجة الفضية بالنسبة للذهب نذكر المثال التالي : بلغ متوسط واردات الدولة العثمانية ، في عهد السلطان سليمان القانوني ، ٥٣٧ مليون اقجة ، تعادل عشرة ملايين قطعة ذهبية ، بينما في عام ١٦٥٣ قدرت الواردات بـ ٥٠٧ ملايين اقجة ، تساوي أربعة ملايين ومائتي الف قطعة ذهبية • ولتلافي العجز المالي عمدت الدولة الى اعادة تقييم بعض الضرائب ، مثل ضريبة الجزية على غير المسلمين ، كما انها اوجدت ضرائب جديدة عرفت باسم عوارض ديوانية ، وهذا تعبير استخدم في الاصل للدلالة على الخدمات التي فرضها العثمانيون على السكان لتلبية متطلبات عسكرية طارئة ، أو على المال الذي دفعه هؤلاء السكان لقاء هذه الخدمات • وقد اصبحت العوارض الديوانية ، منذ أواخر القرن السادس عشر ، ضرائب سنوية ثابتة شملت مختلف سكان الامبراطورية ، وازدادت قيمتها عاما بعد آخر • واعتبرت العوارض المصدر الثالث في ايرادات الدولة ، الى جانب العشر والجزية • وخوّل العثمانيون الولاة أن يجمعوا من السكان ضريبة أخرى سميت سلمه (Salma) ، لدفع مرتبات الجنود المرتزقة ، مثل السكبان ، في الولايات • وعمد العثمانيون ايضا ، في محاولتهم زيادة الواردات ، الى الاستيلاء على واردات اقطاعات التيمار ، وعهدوا بجمع ضرائبها الى ملتزمين [2] • ولم تجد جميع هذه المحاولات في انقاذ الاقتصاد العثماني من الانهيار • وعمّ خلط العملة بمواد رخيصة ، واحيانا انقص وزنها ، مما ادى الى انهيار قيمتها • وترتب على ذلك ارتفاع الاسعار ، وتأثر بنتيجة ذلك اصحاب المرتبات بنوع خاص ، فعمت الرشوة بين الموظفين ، وانهار مستوى الأخلاق العامة • ولجأ العساكر المتنفذون الى فرض الضرائب ، بدون حق ، على الاهلين والى الثورة على السلطة

---

١ ـ أنظر :
Gibb and Bowen, I. ii, 51 ff; Braudel, 417-20; B. Lewis, *The Emergence of Modern Turkey*, London, 1961, 27-33.

٢ ـ أنظر :
Inalcik, "The Heyday and Decline of the Ottoman Empire", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. I, pp. 344-5.

حين عارضتهم في ذلك • ومما زاد في تضاؤل قيمة المرتبات ان الدولة كانت تدفعها على اساس الأشهر القمرية ، في حين ان الضرائب كانت تجبى على أساس الأشهر الشمسية (١) •

ثورات العساكر

ظهر التمرد على العثمانيين ، اول الأمر ، في صفوف العساكر ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، ثم انتشر بين الامراء المحليين في القرن السابع عشر ، وبلغ القواعد الشعبية ، في الريف والمدن ، بانحطاط السلطة العثمانية في القرن الثامن عشر • وقد بدأت ثورات العساكر في مناطق الاطراف ، حيث السلطة العثمانية ضعيفة ، كاليمن وشمال افريقية ، ثم عمّت مصر ، بشكل عنيف ، وشملت بغداد ، حيث تسلم قائد عسكري السلطة في عام ١٦٢٢ • أما في بلاد الشام فكان تمرد العساكر أقل عنفاً ، واقتصر على الابتزاز الاقتصادي وتسرب العناصر المحلية الى طائفة الانكشارية •

كانت ولاية اليمن من نوع سالیانلي ، أي أن موظفيها ، بما في ذلك العساكر ، يتقاضون المرتبات ، وليس الاقطاعات • وحدث في اوائل النصف الثاني من القرن السادس عشر ، ان انخفضت القيمة الشرائية للعملة الفضية في اليمن ، المسماة محليا بالعثماني ، بسبب خلطها بالنحاس ، وذلك بالنسبة لقيمة الدينار الذهبي السلطاني ، الذي تدفع الرواتب على أساسه • وقاسى اصحاب المرتبات من جراء ذلك • ولم يكن هذا الاضطراب النقدي مقتصرا على اليمن ، بل كان جزءاً من ظاهرة عامة شملت الامبراطورية العثمانية ، واختلفت انعكاساتها من ولاية الى أخرى • وفي كل مكان بحثت السلطة عن كبوش فداء تحملهم امام الشعب مسؤولية انخفاض العملة • ففي اليمن قتل الوالي العثماني ، محمود باشا ، أمين دار الضرب عبد الملك اليمني ، في أوائل ٩٦٨/أواخر ١٥٦٠ ، وحمّله مسؤولية اختلال قيمة

---

١ ـ انظر

Halil Sahillioglu, "Sivis Year Crises in the Ottoman Empire", in *Studies in the Economic History of the Middle East*, ed. M. A. Cook, London, 1970, pp. 230-252.

النقد ، وقد وصف عبد الملك انه كان مثريا ذا اموال كثيرة ، ومن شأن هذا ان يقنع الشعب بمسؤوليته • وتلا قتله ، كما يتوقع المرء ، مصادرة امواله لصالح الوالي محمود باشا ، وكان ذلك ابتداء تموله ، على حد تعبير قطب الدين المكي ، الاخباري اليمني المعاصر [1] • ولا أدل على التخبط في معرفة الاسباب الحقيقية ، العثمانية والعالمية ، لانخفاض قيمة العملة من نفي قطب الدين المكي لمسؤولية عبد الملك اليمني عن ذلك والقائه التبعة على الولاة العثمانيين السابقين بسبب طمعهم وحبهم جمع المال • ورغم هذه الفوضى في توزيع المسؤولية ، فقد كانت أثار انخفاض قيمة العملة واضحة، وخاصة بالنسبة لمرتبات العساكر ، الذين تأثر سلوكهم تبعا لذلك • ويذكر قطب الدين « ان الدينار الذهب السلطاني الذي وزنه الآن درهم وقيراطان ، هو الآن في الروم بستين عثمانياً ، وفي مصر بثمانين عثمانياً ، وصار في اليمن بثلثمائة عثماني ، ولا زال يتزايد الى أن صار الدينار بألف عثماني ••• وتلفت السكة بعد عبد الملك المذكور ، الى ان صار الدينار الذهب بالفين من العثامنة ، وكان ذلك سبباً لخراب العسكر وفقرهم » • ويضيف قطب الدين « ان علوفة العسكر من عشرة عثامنة ، الى مائة عثماني ، فصار الذي له مائة عثماني علوفة في كل يوم ، يأخذ في الشهر ثلاثة آلاف عثماني ••• فيصرف له من الديوان عن الثلاثة الاف عثماني دينار واحد ونصف ، وذلك لا يفي بثمن القهوة التي يشربها، فضلا عن سائر حوائجه وضرورياته، فشرعوا في ظلم الرعايا لضيق معاشهم ، وصارت الحكام تتغافل عن انصاف الرعايا من العسكر ، لعلمهم بشدة ضرورة العسكر ، الى ان دهكوا الرعية وأضعفوها » [2]• ولكن ابتزاز العساكر العثمانيين للمال من سكان اليمن لم ينقذ وضعهم المادي ، فلجأوا الى بيع متاعهم ، وحتى أسلحتهم • ويقول قطب الدين المكي في ذلك : « ثم لما ضعفت الرعية وانكسرت ، ولم يبق معهم شيء ينهبه العسكر او يأخذونه بالقهر منهم ، صار العساكر يبيعون اثواب

---

١ ـ قطب الدين المكي ، ١٢٨ •

٢ ـ المصدر السابق ، ١٢٨ ـ ١٢٩ •

بدنهم الى ان افنوها ، فباعوا اسلحتهم وما أبقوها ، فشرعوا يهربون الى مطهر ، وافتقروا ، وامتلأت بهم البلاد ، وضعفوا عن قتال العدو ، الى ان استولى العدو على بلادهم شيئا فشيئا »[1] . ويقصد بالعدو هنا الثائرين الزيديين . وهكذا نرى ان العساكر في اليمن قد ردوا على الضائقة المالية التي عانوا منها ليس بثورة واستئثار بالحكم وتمتع بموارده ، كما فعل أسمياؤهم في مصر ، بل بلجوئهم ، بسبب ضعفهم ، الى الامام مطهر الزيدي ، الذي استفاد من ذلك لاعلان الثورة على العثمانيين . اما العساكر الذين بقوا موالين للعثمانيين ، ومعظمهم في زبيد وعدن ، فقد حاصرهم الزيديون . وكلفت الدولة العثمانية سنان باشا باخضاع الزيديين ، وتمّ له ذلك ، في الفترة بين ١٥٦٩ ـ ١٥٧١[2] . وفي محاولة من سنان باشا لتحسين حال العساكر وتشجيعهم بالتالي على البقاء موالين للدولة ، فقد زاد من قيمة مرتباتهم وما يمنحونه من مدفوعات سلطانية اخرى[3] .

لعب الانكشارية ، في شمال افريقية ، دورا أساسياً منذ مطلع العهد العثماني . وكانوا الدعامة التي استند اليها خير الدين بربروسا وخلفاؤه في فرض سيطرتهم على الجزائر . وكان لهم ديوان ينظم أمورهم ، ويحمي مصالحهم ، ويتألف عادة من كبار ضباط الانكشارية . وقد نافسهم القراصنة . ولكن الانكشارية كانت لهم اليد العليا ، وقاسموا القراصنة الأسلاب التي حصلوا عليها . وامتاز انكشارية الجزائر بالتجانس بين بعضهم ، اذ كانوا يجندون من مناطق الأناضول ، واتصفوا بالعنف في سلوكهم وحروبهم . وما دام على رأس الجزائر ولاة أكفاء فقد خضع لهم الانكشارية والقراصنة على حد سواء . وحين لمس الانكشارية الضعف في احد الولاة ثاروا عليه .

وقد ابدى الانكشارية كثيراً من النفوذ في اعقاب الانتصارات العسكرية

---

١ ـ المصدر السابق ، ١٢٩ .
٢ ـ انظر ص ٩٤ .
٣ ـ قطب الدين المكي ، ٢٧٧ .

التي احرزوها • ويذكر انهم عارضوا دخول تكلرلي الى الجزائر في عام ١٥٥٦ ، وقتلوه حين دعمه القراصنة • وأسر الانكشارية ، في عام ١٥٦٢ ، الوالي حسن باشا (١٥٤٤ - ١٥٦٢)، ابن خير الدين بربروسا ، وأرسلوه بالسلاسل الى استانبول بسبب محاولته تجنيد القبائل في الجيش ، واتهموه بمحاولة الاستقلال بالحكم •

ومع أن الحكم العثماني في الجزائر لاقى مقاومة ضعيفة من السكان المحليين ، فقد جابه مقاومة عنيفة من قبل طوائف القراصنة ، الذين سيطروا على شؤون الجزائر في عهد حسن فنزيانو (١٥٨٢ - ١٥٨٨) ، واستمر ذلك حتى نهاية القرن السادس عشر • وكانت الدولة العثمانية ، في اعقاب وفاة علج علي في عام ١٥٨٧ ، قد ألغت نظام البكلربكية في الجزائر ، وأخرجت تونس وطرابلس من سلطة حكام الجزائر ، وجعلت كلاً منها نيابة ، او ولاية ، يديرها باشا • وهكذا بدأ عهد الباشوات ، الذين دام في الجزائر ، في الفترة بين ١٥٨٧ و ١٦٥٩[١] • ومع ان الدولة العثمانية هدفت من هذا الاجراء الحدّ من طموح البكلربكية ، ولكن سلطتها في الجزائر أخذت تعاني الآن من ضعف الباشوات ، الذين اهتموا باغناء انفسهم ، وعجزوا عن مجابهة القراصنة والعساكر •

وحين سيطرت طائفة القراصنة في الجزائر ، في الربع الاخير من القرن السادس عشر ، وقف ضدها الانكشارية والولاة العثمانيون •وعبثاً حاول الوالي حيدر باشا ، في العقد الاخير من القرن السادس عشر ،فرضَ نفوذه في الجزائر بالاعتماد على الكولوغلي (Kul oghlu) ، اي ابناء الاتراك من النساء المحليات ، وعلى رجال القبائل •وفي عام ١٥٩٦ ثار الكولوغلي في الجزائر ، بتشجيع الوالي العثماني ، وتأييد اهل المدينة ورجال القبائل ، واجبروا الانكشارية على منحهم كثيرا من الامتيازات[٢] •

---

١ - أنظر : فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، ٥٩ •
٢ - المصدر السابق ، ٦٠ •

وعادت السيطرة للانكشارية منذ مطلع القرن السابع عشر ، وكان يمثلهم الديوان ، وهرع الولاة للمصادقة على مقررات ديوان الانكشارية التي اصبح لها قوة القانون • واصبح الديوان ، منذ عام ١٦٢٦ ، وبموافقة السلطان العثماني ، يمارس كافة السلطات،بما في ذلك تعيين الموظفين وترقيتهم• وكان من حقه ايضا تعيين القبطان باشا وتحديد قيمة مرتبه • وترأس الديوان آغا الانكشارية ، الذي كان في الوقت نفسه ، حاكم مدينة الجزائر• واجتمع الديوان يوميا ، باستثناء الجمعة ، وخص يوما من كل اسبوع للاجتماع بالوالي ، الذي كان ينقل اليه أوامر السلطان العثماني [١] •

وعلى غرار ما حدث في الجزائر جابه الوالي العثماني في تونس سلطة الانكشارية الممثلين بالديوان•ويختلف عساكر تونس عن عساكر الجزائر، في أن الأولين قد ضموا عناصر غير تركية ، برز بينها مسلمون من اصل مسيحي ، وكذلك الكولوغلي المضطهدين في الجزائر • وفي عام ١٥٩١ ثار الانكشارية في تونس ، وقتلوا عدداً من اعضاء الديوان ، وتسلم بنتيجة ذلك صغار ضباط الانكشارية السلطة ، وشكلوا ديوانا جديدا وضعوا على رأسه شخصا اختاروه من بينهم ، لقب بالداي • واصبح الداي الحاكم الفعلي في تونس • وفي عهد الداي عثمان (١٥٩٨ ـ ١٦١٠) ، انشيء منصب الباي (بك Bey) ، اي رئيس القوات البرية ، المكلف بجمع الضرائب ، وكذلك منصب القبطان ، أي رئيس الاسطول [٢] •

وفي طرابلس ثار العساكر في اعقاب فرض العثمانيين نفوذهم عليها ، في حوالي منتصف القرن السادس عشر • وقد حدث ذلك في عهد الوالي

---

١ ـ Mantran, "North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", *The Camb. Hist. of Islam,* Vol. II, pp. 254-6; Abun-Nasr, 173-5; Julien, 268-270.

٢ ـ ابن أبي الضياف ، جـ ٢ ، ٢٧ـ٢٨ ؛ وانظر ايضا :
Mantran, "North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", *The Camb. Hist. of Islam,* Vol. II, p. 258; Abun-Nasr, 177-8; Julien, 275-6.

يحيى ، الذي خلف طرغوت في عام ١٥٥٤ . وأرسل السلطان علج علـي لاعادة الاستقرار ، وتم له ذلك في الفترة بين ١٥٦٦ و ١٥٦٨ . ولكـن الانكشاريـة عادوا الى الثورة في الثمانينات مـن القـرن السادس عشر ، واضطرت سلطات استانبول الى ارسال تعزيزات عسكرية مكنتها من السيطرة على الوضع . وحتى عام ١٦٠٩ ، مارس الانكشارية ، كما فعل اسمياؤهم في تونس والجزائر ، نفوذهم من خـلال ديوان الانكشارية . وفي هـذا التاريخ ثار الانكشاريـة على رؤسائهم وعلى الوالي العثماني ، ورفعوا الى منصب الداي واحداً من ضباطهم الصغار يسمى سليمان [١] .

ويفسر الدور الهام الذي لعبه العساكر في الولايات العثمانية في شمال افريقية بكونهم الاداة الرئيسية للسيطرة العثمانية في وجه الاخطار الخارجية والداخلية . وتمثلت الاخطار الخارجيـة بالدول المسيطرة في المتوسط ، مثل الاسبانيين والانكليز والفرنسيين . وتجلت الاخطار الداخلية في منافسة رؤساء القراصنة للعساكر ، وفي معارضة القبائل للحكم العثماني .

وعلى نقيض ثورات العساكر في شمال افريقية ، حيث شكل هؤلاء عنصراً هاماً في السلطتين العسكرية والمدنيـة ، كانت ثورات العساكر في مصر حادثا طارئا اقتضته ظروف آنية ، اقتصادية وسياسية ، ومن هنا اهميتها كظاهـرة متميزة في ثورات العساكر بوجـه عـام ، وفي تاريخ مصر بشكل خـاص .

قام العساكر في مصر بسلسلة من الثورات كانت اولاها في ٢ شوال ٩٩٧/١٤ آب ١٥٨٩ ، وآخرها في ١٠ ذي القعدة ١٠١٧/١٥ شباط ١٦٠٩ ، واتصفت جميعها بالعنف والبطش من جانب كل من العساكر والسلطات العثمانية . ففي الثورة الاولى هاجم العساكر الوالي العثماني ، اويس باشا ، وهو في الديوان ، كما اقتحموا بيت قاضي القضاة الحنفي العثماني ، وقتلوا عددا

---

١ ـ Mantran, "North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", *The Camb. Hist. of Islam,* Vol. II, pp. 261-2; Abun-Nasr, 194-5.

من اتباعهما • واعتدوا كذلك على الحوانيت في القاهرة وعلى بيوت الاعيان ، وخاصة اولاد العرب منهم (أي السكان المحليين) ، ونهبوا الكثير منها • ولم تهدأ ثورتهم الا بعد اسبوع ، حين وافق اويس باشا على قبول مطالبهم• وتتلخص هذه المطالب بالسماح لهم بأخذ الطلبة ، وهي مبالغ من المال كانوا يفرضونها على الفلاحين واصحاب الاطيان في الريف ، كما يقول الاخباري المصري المعاصر محمد بن ابي السرور البكري الصديقي ، ويأخذونها لانفسهم دون وجه شرعي • ويذكر ابن ابي السرور ان له بلدة بالمنوفية كان مقررا عليها من الضرائب في السنة مائة ألف نصف (أي نصف فضة ، وهذا تعبير عامي استخدم للدلالة على البارة المتداولة آنئذ في مصر) ، ولكنها غرمت بالطلبة ضعف هذا المبلغ [1] • وطالب العساكر الثائرون أيضا بمنع أولاد العرب من الانتساب الى الطوائف العسكرية ومن استخدام المماليك البيض •

وقد ازداد نفوذ العساكر بسبب تخاذل اويس باشا ، وبلغت بهم الجرأة في اول رجب ١٠٠٦/٧ شباط ١٥٩٨ ان جمعوا جموعهم واعترضوا طريق حاكم مصر الشريف محمد باشا ، قرب قلعة القاهرة ، واطلقوا النار عليه ، فهرب والتجأ الى القلعة • وأصبحت السلطة الفعلية بيد العساكر ، « وبطلت أحكام الوزير المذكور ، وصار الحل والعقد لطائفة الاسباهية »[2]، وقتل العساكر الثائرون بعض كبار الامراء والموظفين والاعيان ممن كانوا يعارضون مصالحهم • وتتبعوا اولاد العرب ، وقتلوا كل من وجدوه منهم

---

١ ـ أنظر حول هذه الأحداث : ابن أبي السرور ، التحفة البهية ، ٥٥ ب ـ ٥٦ آ ، الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة،مخطوط في المتحف البريطاني بلندن،رقم Add. 9973 الأوراق ، ٢٦ ب ـ ٢٨ آ ، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، رقم تاريخ ١٩٢٦ ، الأوراق ، ٨١ ب ـ ٨٢ آ ، النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، مخطوط في دار الكتب المصرية ، برقم ٢٢٦٦ ، الأوراق ، ٢٨ آ ـ ٢٨ ب •

٢ ـ أنظر : مخطوط مجهول المؤلف والعنوان عن تاريخ مصر من ٨٥٧/١٤٥٣ الى ١١٢٠/١٧٠٩، المكتبة الوطنية في باريس ، رقم Arabe 1855 . ورقة ، ٣٧ آ : احمد شلبي ، ٩ آ ؛ وانظر أيضا : الاسحاقي ، ١٤٣ •

« يتزيا بزي الأروام » ، على حد تعبير ابن أبي السرور [1] . وربما يقصد بذلك الذين اصبحوا منهم عساكر وموظفين عثمانيين ، محاولة من العساكر ، كما يبدو ، للحيلولة دون تسرب اولاد العرب الى الطبقة الحاكمة .

وكان أجرأ عمل قام بـه العساكر قتلهم حاكم مصر ابراهيم باشا ، في ١ جمادى الاول ١٠١٣/٢٥ ايلول ١٦٠٤ ، فعرف ، تبعاً لذلك ، بالمقتول ، وكان مكلفـاً بازالة الطلبة والقضاء عـلى تمرد العساكر . ثـم نصب هؤلاء قائم مقام مكانه ، وكأنهم أصحاب السلطة الوحيدون في مصر . وحفز هـذا التحدي السلطة العثمانية على ملاحقة العساكر المتمردين وبطشت بعدد منهم في عـام ١٦٠٥ . ولكن القضاء عليهم نهائياً لـم يتم حتى عهـد محمد باشا (١٦٠٧ ـ ١٦١١) ، الذي أبطل الطلبة ، ممـا أثـار العساكـر ، فجمعوا جموعهم عند مقام أحمد البدوي في طنطا ، وتحالفوا على عدم رفـع الطلبة ، وعينوا من بينهم سلطاناً ووزراء ، وتقاسموا حارات القاهرة لنهبها . ولكـن قوات محمد باشا ، التي استخدمت المدافـع ، هزمت الثائـرين في موقعة في الخانقاه ، بضواحي القاهرة ، في ١٠ ذي القعدة ١٠١٧/ ١٤ شباط ١٦٠٩ ، وقتل عـدد كبير منهم ، ونفي كثيرون الى اليمن . ويعلق ابن أبي السرور على هذا الانتصار بقوله : « وهـو في الحقيقة الفتح الثانـي لمصر في الدول الشريفة العثمانية أيدها الله تعالى » [2] . ويدل هذا القول على مدى النفوذ الذي بلغـه الثائرون وعـلى أهمية القضاء عليهم بالنسبة للهيئـة العثمانية . ووضع ابن أبي السرور ، بهذه المناسبة ، مؤلفاً أسماه : تفريج الكربة بدفع (أو رفع) الطلبة . وأطلق على محمد باشا عدة ألقاب ، مثل (معمر مصر) و (مبطل الطلبة) و (قول قيران) (Kul Kiran) ، بالتركية ، أي محطـم المماليك . وأدخل محمد باشا ، اثـر ذلك ، عدداً من الاصلاحات أهمهـا تنظيم الضرائب ، والعمل بمقتضى دفتر التربيع الذي أحلّه العثمانيون ، في

---

١ ـ ابن أبي السرور ، التحفـة البهيـة ، ٥٠ آ ، الكواكب السائرة ٢٣ آ ، النزهـة الزهية ، ٣٢ ب .

٢ ـ انظر مثلا : التحفة البهية ، ٥٥ آ ، الكواكب السائرة ، ٢٦ ب .

٩٣٣/١٥٢٦-١٥٢٧ ، محل دفتر الشراكسة • وكان المماليك قد عادوا الى العمل بدفتر الشراكسة للاستفادة من امتيازاتهم القديمة • وأمر محمد باشا بدفع الرواتب بكاملها في اليوم الثامن والعشرين من كل شهر لتحاشي تذمر أصحابها [١] •

ويجدر بنا ، قبل معالجة أهمية هذه الثورات ، التعرف على هوية العساكر الثائرين • فقد كانوا خليطاً من طوائف التفنكجية ، والجنليان ، والمماليك الشراكسة ، وجميعهم من السباهية الفرسان المتمركزين في الأقاليم ، حيث عهد اليهم بتوطيد الأمن ، وحماية الفلاحين ، ومساعدة الكشاف في جمع الضرائب [٢] • ولما كانوا من أصحاب المرتبات ، فقد قاسوا من انخفاض قيمة العملة التي أخذ أمرها بالاختلال ، بشكل واضح ، منذ عهد حاكم مصر علي باشا الصوفي (١٥٦٤ – ١٥٦٦) ، حين بدأت دار ضرب النقود في مصر تمزج كمية أكبر من النحاس مع العملة الفضية ، فانهارت قيمتها تبعاً لذلك ، وضجت الرعايا • ويعلق ابن أبي السرور على ذلك بقوله : « ولا زال يختل نظام المعاملة الى يومنا هذا » ، أي فترة النصف الاول من القرن السابع عشر التي عاصرها [٣] • وفي عام ١٥٨٤ ، قبيل ثورة العساكر بحوالي خمسة أعوام ، انخفضت قيمة البارة الفضية ، المعروفة محلياً بنصف فضة ، بمقدار النصف • وقد تم هذا في الوقت الذي انخفضت فيه قيمة الأقجة الفضية العثمانية بالمقدار ذاته ، بالنسبة لقيمة النقد الذهبي الاجنبي المتوفر محلياً والنقد الذهبي العثماني المعروف بالشريفي • وارتفعت بنتيجة

---

١ – انظر حول الأحداث السابقة : ابن أبي السرور ، التحفة البهية ، ٥٠ آ – ٥٨ ب ، الكواكب السائرة ، ٢٢ آ – ٢٨ ب ، المنح الرحمانية ، ٦٧ ب – ٨٥ آ ، النزهة الزهية ، ٣٢ ب – ٤٠ ب ؛ محمد البرلسي الدمياطي ، بلوغ الأرب برفع الطلب ، مخطوط في في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة تاريخ ٨١ ، ويوجد فيلم مصور عنه برقم ٢٦ ، في معهد احياء المخطوطات العربية في القاهرة ، الاوراق ، ٥ ب – ٨ ب ؛ أحمد شلبي ، ٩ آ – ١١ آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣٧ آ – ٧٩ ب ؛ الاسحاقي ١٤٣ – ١٥١ •

٢ – انظر ص

٣ – ابن أبي السرور ، التحفة البهية ، ٤٣ آ ، الكواكب السائرة ، ١٧ ب – ١٨ آ ، المنح الرحمانية ، ٤٧ آ – ٤٧ ب ، النزهة الزهية ، ٢٤ ب •

ذلك تكاليف المعيشة ، وحدثت ثورات بين الجند أصحاب الرواتب حتى في قلب العاصمة استانبول [1] .

وكان أفراد الطوائف السباهية الثلاث ، الذين اشتركوا في الثورات في مصر ، أقل الطوائف العسكرية راتباً وأكثرها استعداداً للثورة [2] . وهذا ما يفسر مبادرتهم الى الثورة ، قبل غيرهم من الطوائف العسكرية . كما أن وجودهم في الريف وطبيعة أعمالهم فيه سهل عليهم ابتزاز المال ، وأيضا الثورة ، بعيداً عن متناول السلطة . فلا عجب اذاً أن يستغل هؤلاء العساكر قوتهم وسلطتهم في الريف ، حيث رقابة الباشا العثماني ، في فترة ضعف الدولة ، شبه منعدمة ، أو نائية في أحسن الظن ، لاستثمار الفلاحين ، وأن يثوروا عندما يجدون أن الفوائد التي بدأوا يجنونها مهددة بالزوال .

ورغم أن ثورات العساكر في مصر مردها الضائقة الاقتصادية ، وساعد عليها ضعف الهيبة العثمانية ، فان أهميتها ، بالنسبة للصراع على النفوذ بين القوى المختلفة ، تكمن في بروز عنصر المماليك فيها . ويبدو أن طائفة المماليك الشراكسة التي اشتركت في الثورات كانت لها اليد العليا فيها بدليل أن ابن أبي السرور وصف الثائرين بأنهم من الغز [3] ، وهذا تعبير أطلق على المماليك في مصر في العهد العثماني . ويذكر أيضا أن المماليك ، بازدياد نفوذهم في مصر في العهد العثماني ، قد تكاثر انتسابهم الى طائفتي التفنكجية والجنليان ، اللتين اشتركتا في الثورات ، حتى اقتصرت تقريبا عضوية هاتين الطائفتين عليهما في القرن الثامن عشر . وقد أطلق على محمد باشا ، الذي قضى على ثورات العساكر في مصر في عام ١٦٠٩ ، لقب قول قيران،أي محطم المماليك ، مما يدل على اشتهار المماليك بين الثائرين ، واعتبار القضاء على الثائرين قضاء بالدرجة الاولى على نفوذ المماليك الذين سيطروا بينهم . ولا شك أن العنف الذي رافق ثورات العساكر ضد ممثلي السلطة العثمانية

---

١ ـ انظر : Gibb and Bowen, I. ii. 51-2

٢ ـ انظر : Shaw, *Ottoman Egypt, 1517-1798*, 196 ff.

٣ ـ انظر مثلا : التحفة البهية ، ٥٥ ب ، المنح الرحمانية ، ٨١ ب .

في مصر ، وتسمية الثائرين سلطانا ووزراء من بينهم ، انما يدل على مطامع مملوكية استغلت الثورة لأهدافها ، وحاولت تقويض السلطة العثمانية من أساسها •

وهكذا يمكننا أن نرى في ثورات العساكر في مصر محاولة مملوكية أخرى ، بعد ثورات اينال وجانم السيفيين ، في مطلع الحكم العثماني ، للسيطرة على شؤون مصر ، أو على الأقل للاحتفاظ بمركز ممتاز فيها تجاه أولاد العرب • والمهم في ثورة المماليك الآن أنها حدثت بعد أكثر من نصف قرن من الهدوء ، اثر صدور القانون نامه في **٩٣١/١٥٣٤-١٥٢٥** • وستتلوها محاولات مملوكية أخرى ، بأساليب وأشكال مختلفة ، للسيطرة على مصر ، مستفيدة من ضعف السلطة العثمانية ، ثم انحطاطها • والجدير بالذكر أن طبيعة الحكم العثماني في مصر ، في ابقائه المماليك في عدد كبير من الوظائف الهامة ، بما في ذلك الجيش ، وسماحه باستيراد المماليك الى مصر ، شجعهم على الطموح ، ثم التمرد ، ثم الاستئثار بالسلطة في عهد علي بك في القرن الثامن عشر ، كما سنرى في بحث لاحق •

ويفسر نفوذ المماليك بين العساكر الثائرين الشعارات المعادية لأولاد العرب التي طرحوها ومطالبتهم بمنع هؤلاء من الانتساب الى الطوائف العسكرية ، خوفاً من مقاسمتهم نفوذهم وامتيازاتهم ، ومعارضتهم في استخدام المماليك البيض لانهم من جنسهم • والجدير بالذكر أن استيراد المماليك البيض الى مصر كان يرفد أحياناً ، في حالة عدم سدهم الحاجة المحلية ، باستيراد مماليك سود من افريقية • وكثيراً ما كان يدب العداء بين المماليك البيض والسود • ومن هنا ، كما يبدو ، اقتصار مطالبة الثائرين بمنع أولاد العرب من استخدام المماليك البيض فقط •

وتعني معارضة الثائرين لأولاد العرب في دخول الجيش أن هؤلاء قد بدأوا يتسربون الى الطوائف العسكرية العثمانية ويتمتعون بامتيازاتها • ولتبيان الدور الذي بدأ يلعبه أولاد العرب الى الحد الذي أثار حقد الثائرين

ولتوضيح أصول العداء بين المماليك وأولاد العرب يحسن استعراض العلاقة بين هذين الفريقين منذ الفتح العثماني •

لم يتبدل وضع أولاد العرب ، من الناحية السياسية ، اثر الفتح العثماني ، اذ حل حاكم غير عربي مكان حاكم آخر غير عربي • واستغل البدو تبدل السلطة فحاولوا التمرد على التنظيمات المملوكية السابقة ، وعلى محاولات العثمانيين فرض سيطرتهم عليهم • ولعبوا دوراً هاماً في دعم ، أو التخلي عن دعم ، الثائرين الأوائل على العثمانيين : اينال السيفي ، وجانم السيفي ، وأحمد باشا الخائن • واعترف العثمانيون بأمراء بدو هوارةالأشداء في الصعيد ، ولكن ، بالنسبة للقبائل الاخرى الأقل قوة والأكثر أهمية بسبب موقعها في أقاليم الشرقية والغربية والبحيرة ، فقد عمد العثمانيون الى فرض سيطرتهم عليهم بضرب قبيلة بأخرى ، أو زعيم بآخر ضمنالقبيلة الواحدة، وباجراءات تنظيمية أخرى •

وأصبح وضع أولاد العرب ، بصورة عامة ، أكثر تعقيداً ، عقب الفتح العثماني ، لأنهم دخلوا في صراع مع طائفة المماليك التي سعت لاسترداد سلطتها من العثمانيين وابقاء أولا العرب أدنى مرتبة منها ، كما كان الأمر زمن السلطنة المملوكية • وهكذا حاول المماليك ، بدافع من سيطرتهم السابقة واستمرار نفوذهم العسكري والاداري في العهد العثماني ، أن تكون لهم اليد العليا محلياً كخطوة أولى في سبيل توطيد سيطرتهم ، ومن هنا شدة عدائهم لازدياد نفوذ أولاد العرب • وقد ظهر ذلك منذ مطلع الحكم العثماني حين قتل المماليك اثنين من مشايخ بدو آل علي ، في اقليم البحيرة ، ثأراً لتسليمهما السلطان المملوكي طومان باي الى العثمانيين ، وكذلك حين عاد المماليك الى اشغال امارة الحج المصري في عام ١٥١٩ ، بعد أن شغل هذا المنصب في العامين السابقين موظفون محليون •

وقد رضخ المحكومون ، من مماليك وأولاد عرب ، في ولاية مصر ، كما في غيرها من الولايات العربية ، في عهد السلطان سليمان القانوني ، لقوة

العثمانيين • وحين بدأ الضعف يستفحل في الدولة العثمانية ، بعد ذلك ، استغله أولاد العرب في مصر ، وحاولوا ، كما حاول أسمياؤهم في الشام ، الانتساب الى الطوائف العسكرية بعد أن اختلت أنظمتها للاستفادة من امتيازاتها • ولكن المماليك وقفوا حجر عثرة في سبيلهم ، وحالوا دون ازدياد نفوذهم عسكرياً • ويذكر في مطلع النصف الثاني من القرن السابع عشر كيف تكتل العساكر السباهية ، الذين ازدادت سيطرة المماليك عليهم ، مع أقوى طائفتين عسكريتين ، الانكشارية والعزب ، في محاولة لاخراج أولاد العرب من الطوائف العسكرية • وحدثت ، بنتيجة ذلك ، فتنة كبرى بين الطوائف العسكرية السبع ، من عزل وتولية ونفي وغير ذلك • [1] ونستدل من هذا على استمرار أولاد العرب في محاولاتهم الانتساب الى الطوائف العسكرية وعلى اشتداد معارضة المماليك واتساعها ضدهم [2] •

وشهدت ولاية بغداد ، في الربع الأول من القرن السابع عشر ، ثورات عسكرية موجهة ضد السلطة العثمانية • وكانت أكثر عنفاً مما جرى في الولايات العربية الاخرى • وربما يفسر ذلك مركز العراق الاستراتيجي أمام أعداء أشداء متربصين ، هم الصفويون ، مما استلزم قوة عسكرية عثمانية كبرى لتقف في مواجهتهم ، كما أنه سهل ظهور زعامات عسكرية لم تشهدها الثورات العسكرية في مصر أو في بلاد الشام • ولاشك أن مركز العراق الجغرافي على أطراف الامبراطورية العثمانية واحتواءه على قبائل بدوية وكردية متعددة الاجناس والولاء قد اقتضى زعامة قوية ، وأدى الى عنف الثورات التي قامت فيه •

---

١ ـ انظر : مخطوط باريس رقم Arabe 1855 ، ٥١ أ ؛ وانظر ايضا : (مجهول المؤلف) ، زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسة ، مخطوط في المتحف البريطاني ، رقم Add. 9972 ، الورقة ، ٩ ب •

٢ ـ انظر حول مغزى ثورات العساكر والقهر الذي لاقاه أولاد العرب حتى ثورة أحمد عرابي المصري في عام ١٨٨١ ، مقالنا : ثورات العساكر في القاهرة ، في الربع الاخير من القرن السادس عشر والعقد الاول من القرن السابع عشر ، ومغزاها ؛ وقد القي في الندوة الدولية في القاهرة (آذار ـ نيسان ١٩٦٩)، بمناسبة مرور الف عام على تاريخها،ونشر مع بقية أبحاث الندوة في : أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس-ابريل ١٩٦٩، وزارة الثقافة ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ ، الجزء الثاني ، ٧٤٥ ـ ٧٧٥ •

وقد فرض عساكر بغداد نفوذهم في مطلع القرن السابع عشر وتحدوا الوالي حسن باشا ، واضطروه للخروج من بغداد حين سمعوا أنه تشكى عليهم الى السلطان • وقد أقام في الموصل ، واستمر يحارب عساكر بغداد الى أن عزل [1] وأمر بالتوجه لقتال الثائر عبد الحليم اليازجي في نواحي سيواس • ويبدو أن فرض العساكر لنفوذهم ، وطردهم الوالي ، واعتراف السلطان ضمنياً بذلك حين عزله قد شجعهم على القيام بأعمال أكثر جرأة فيما بعد • ولم يكن ما حدث الآن الا مرحلة أولى من مراحل ازدياد النفوذ العسكري • وقد أعقب ذلك ، في ١٠١٢/١٦٠٣ ، قيام محمد بن أحمد الطويل ، وكان برتبة بلوك باشي في كتيبة الفرسان في بغداد ، مثل أبيه من قبله ، واستيلاؤه على الحكم في بغداد ، مستغلا فساد الادارة وكره الأهلين للعثمانيين • وبعد ثلاثة أعوام في الحكم ، استمال اليه خلالها عدداً من زعماء البدو والأكراد ، هزم في ٦ شعبان ١٠١٥/٨ كانون الاول ١٦٠٦ ، جيشاً وجهه السلطان العثماني لقتاله ، بقيادة والي ديار بكر نصوح باشا ، الذي خانته قواته المرتزقة من السكبان • ولكن محمداً الطويل قتل في ١٠١٦/ ١٦٠٧-١٦٠٨ ، أو في ١٠١٧/١٦٠٨-١٦٠٩ ، بمؤامرة دبرها كاتب ديوانه ، واشتركت فيها زوجته ، وخلفه أخاه مصطفى بك • وعين السلطان محمود باشا بن جغال والياً على بغداد ، فاستمال اليه عدداً من أفراد البدو والأكراد ، وبمساعدتهم حاصر مصطفى باشا بن الطويل في بغداد • ثم تم الصلح بينهما في أواخر ربيع الثاني ١٠١٧/ أواسط آب ١٦٠٨ • وعين مصطفى باشا على لواء الحلة • ثم هرب الى بلاد فارس • وانتهى بذلك حكم آل الطويل العسكري ، الذي دام قرابة خمسة أعوام [2] •

ثم حدثت أخطر ثورة قام بها العساكر في العراق في القرن السابع عشر ، وهي ثورة بكر الصوباشي في عام ١٦٢٢ ، الذي سيطر على بغداد • وخطورة هذه الثورة أن الصفويين استغلوها للتدخل في شؤون العراق والسيطرة على

---

١ ـ العزاوي ، ج ٤ ، ١٤٥-١٤٦ •

٢ ـ انظر حول ذلك : العزاوي ، ج ٤ ، ١٤٧-١٤٨ ، ١٥٧-١٥٩ ، ١٦٠-١٦٢ :

بغداد ومناطق أخرى • وحدثت هذه الثورة في وقت تزايد فيه تحدي فخر الدين المعني الثاني للعثمانيين في بلاد الشام الجنوبية • واقتضى هذا الخطر العسكري من الطرفين قيام حكم قوي في الدولة العثمانية تمثل في السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) •

وينتسب بكر الصوباشي الى طائفة انكشارية بغداد • ويذكر صاحب « خلاصة الأثر » ، [١] انه من أصل رومي ، تدرج في المراتب العسكرية ، فأصبح صوباشياً (مديراً للشرطة) ، ثم آغا الانكشارية • وقد اشتهر بالصوباشي ربما لأن الناس العاديين ، ومن بينهم الاخباريين ، أعجبوا بهذا الصوباشي ، ذي الرتبة الدنيا ، الذي نصب نفسه والياً ، وتحدى السلطان والولاة الذين عينهم ، وفاقهم شهرة • وقد اعتمد بكر الصوباشي ، في الاساس ، على الانكشارية ، ثم وسَّع قاعدة دعمه فشملت الأعيان والأهلين ، مما جعل والي بغداد العثماني يخشى نفوذه •

بدأ نفوذ بكر الصوباشي يلفت النظر منذ عام ١٠٢٨/١٦١٨-١٦١٩، ربما حين أصبح صوباشياً • ولم يترك فرصة لتعميق نفوذه الا واستغلها • فترأس في عام ١٠٣١/١٦٢١-١٦٢٢ حملة تأديبية ضد بعض القبائل التي هددت الأمن • ورغم أن خروجه من بغداد ومخاطر الحملة أمر يرحب به والي بغداد العثماني ، لأنه يبعده عن مركز قوته من ناحية ، ويعرضه لخطر القتل من ناحية أخرى ، الا أن بكراً احتاط للأمر فأقام ابنه محمداً في مركز الصوباشي في بغداد • واستغل والي بغداد يوسف باشا غياب بكر ، فاستمال اليه اثنين من كبار ضباط الانكشارية في محاولة لتأليف جبهة ضد بكر • وشعر أبناؤه بالخطر فهربوا ، وصادر يوسف باشا أموالهم ، وأخذ يستعد لقتال بكر • وكان هذا قد عاد منتصراً من قتال القبائل ، فبدأ بمحاصرة بغداد • وكان يتزعم المعارضة لبكر الصوباشي ، الى جانب الوالي العثماني ، محمد قنبر ، آغا طائفة العزب ، وعدد من السباهية والأشراف والأعيان • ونشط

---

١ - المحبي ، ج ١ ، ٤٥٥ •

بالمقابل اتباع بكـر في بغداد ، واحتلوا فيهـا مناطق استراتيجية ، وأرهبوا اتباع الوالي •

بدأ بكر هجومه عـلى بغداد ، في منطقة الميدان ، وتصدى له يوسف باشا ، ولكنه هـزم ، وتراجع ، واعتصم في القلعة ، ثـم قتل بطلق ناري • وتسلم بكر حكم بغداد في عـام ١٠٣٢/١٦٢٢ـ١٦٢٣ ، وأرسل يطلب من السلطان العثماني الاعتراف به والياً على بغداد • ولكن الدولة رفضت ذلك، وعينت والياً على بغداد ، سليمان باشا ، واعتبرت بكر ثائراً • وتقدم سليمان باشا ، تؤيده قوات مـن الموصل وكركوك ومن الاكـراد ، فحاصر بغداد، ونهبت قواتـه القرى المحيطة بهـا • وعمَّت بغداد ضائقة اقتصادية ، بسبب الحصار ، وانحباس المطر ، وتدفق سكان الريف الى المدينة • فخرج جيش بكر الصوباشي ، وهزم الجيش العثماني • وصادف ، في هذه الأثناء ، ارتقاء السلطان مراد الرابع الحكم،وسط اضطراب اداري وعسكري في استانبول• وكانت ثورة بكر تحدياً له ، في مطلع عهده ، فعين والي ديار بكـر ، أحمد باشا الحافظ ، على رأس حملة جديدة ضد بكر الصوباشي•وكان هذا الوالي قد شغل ولاية الشام بين عامي ١٦٠٩ و ١٦١٤ ، وأرهب فخر الدين المعني الثاني ، أمير الشوف ، واضطره الى الهـرب من لبنان ، في عام ١٦١٣ ، الى ايطاليا ، حيث أقام خمسة أعوام • [1] وكان الحافظ يميل الى المصالحة مع بكر خوفاً من أن يتحول الى جانب الصفويين فتزداد الامور تعقيداً • ولكن هذا الرأي لم يلق تأييداً ، فحمل الحافظ على جيش بكـر وهزمـه ، فقرر هذا وأعوانه المحاصرين ، وقد رأوا الخطر المحدق بهـم ، الاستعانة بالشاه عباس الصفوي • وعرض بكر على الشاه عباس ، لقاء مساعدته ، أن تكـون الخطبة والسكة في بغداد باسم الشاه • فوافق على ذلك ، وعين قـوة لنجدة بكر ، بقيادة حاكم همذان صفي قولي خان ، واشترك فيها حاكماً لورستان وأردلان • وتوقف الجيش الصفوي في خانقين ، وقـد بلـغ تعداده ثلاثين ألفاً • وخشي أحمد باشا الحافظ نتيجة المجابهة ، لاسيما وان قواتـه قـد

---

١ ــ انظر ص ١٦٣ •

أنهكها التعب ، وان مجيء القوات الصفوية سيدفع بقوات بكر الصوباشي المحاصرة في بغداد الى معاودة الهجوم • وقد أرسل الشاه يحذر الحافظ من التدخل وخرق الصلح بين الدولتين ، بعد أن ضربت النقود في بغداد باسمه، فلجأ الحافظ الى الحيلة ، وأرسل فرماناً باسم السلطان الى بكر بالعفو وبتوليته على بغداد وولاية الرقة أيضاً ، وعين ابن بكر على لواء الحلة • وقد ارتبك بكر ازاء هذا العرض العثماني ، بعد أن تورط مع الشاه عباس • وحاول رد صفي قولي خان شاكراً اياه على مساعدته ، ولكن المصلحة الصفوية تقتضي الوصول الى بغداد ، فجهز الشاه قوات اضافية ، وجاء بنفسه وحاصر بغداد • ويبدو أن هذا التطور فاجأ الجيش العثماني ، الذي لم يكن قد استكمل استعداده بعد • وكان أحمد باشا الحافظ قد ابتعد عن بغداد باتجاه ديار بكر خوفاً من خطر الاصطدام بالصفويين • وكانت استانبول منشغلة ، في هذه الأثناء ، بمراسم تولي السلطان مراد الرابع الحكم •

وأوكل بكر حماية القلعة الى ابنه محمد ، وأبواب القلعة الى أقربائه ومقربيه ، ولكن الابن سلم القلعة الى الشاه مدفوعاً ، حسب قول البعض ، بالرغبة في الحكم في ظل أي سيد ، أو يائساً ، كما يقول آخرون ، من امكانية الدفاع • ودخلت قوات الشاه بغداد في ٢ صفر ١٠٣٣/٢٧ تشرين الثاني ١٦٢٣ ، وقتل بكر الصوباشي وعدد من مؤيديه • [١] وفي رواية للمحبي [٢] ان الشاه عباس كلف قاضي بغداد العثماني بالتوسط لدى السلطان مراد الرابع بأن يعترف بابن الشاه والياً على بغداد ، وتبقى السكة والخطبة باسم السلطان العثماني ، ويدفع ابن الشاه له خمسين ألف غرشاً كل سنة • ولكن الشاه حنق على القاضي فقتله ، ولا يعلم ماذا تم بالعرض • وربما قصد به خديعة السلطان لارباك موقفه ، أو تضليل الرأي العام السني في بغداد [٣] • وتذكر بعض المصادر أن الشاه عباس كرر هذه الرغبة في وقت

---

١ ـ يذكر المحبي ، جـ ١ ، ٤٥٥ ، ان فتح بغداد وقتل بكر حدث في عام ١٠٣٢/١٦٢٢ـ١٦٢٣، وتؤيده في ذلك ، كما يروي العزاوي ، جـ ٤ ، ٤٧٨ ، بعض المصادر الفارسية •

٢ ـ خلاصة الأثر ، جـ ١ ، ٣٨٣ •

٣ ـ العزاوي ، جـ ٤ ، ١٩٠ ـ ١٩٢ •

لاحق ، عام ١٦٢٥ ، حين حاصر جيش عثماني ضخم بغداد [١] .

وهكذا انتهت ثورات العساكر في بغداد بخروج هذه المدينة من أيدي العثمانيين وسيطرة الصفويين عليها حتى عام ١٩٣٦ ، وسيطر الصفويون أيضاً على كركوك والموصل لفترة أطول . وفي الواقع تمثل ثورة بكر الصوباشي أكثر من مجرد تمرد عسكري . فقد ظهر فيها الطموح السياسي ، وتطلع بكر الى انشاء حكم خاص به ، ولكنه فشل في محاولته هذه بسبب أهمية المنطقة التي ثار فيها ، بالنسبة للطرفين المتصارعين على النفوذ ، وهم العثمانيون والصفويون .

وعلى غرار ما حدث في الولايات العربية الاخرى ، فقد تمرد العساكر في بلاد الشام على السلطات العثمانية . ولكن تمردهم لم يبلغ حد العنف ، الذي تميزت به ثورات العساكر في القاهرة ، كما لم تظهر بينهم زعامات عسكرية تطمح الى الحكم ، على غرار ما جرى في بغداد . وقد حاول انكشارية دمشق اغناء أنفسهم بابتزاز الاموال ، خاصة من الفلاحين .

وقد حدث في الربع الاخير من القرن السادس عشر تطور هام في بنية الطائفة الانكشارية في دمشق ، اذ انتسب اليها ، كما حدث في كثير من الولايات الأخرى ، أناس من أصل محلي ، أي غير تركي ، ليستفيدوا من الامتيازات الكثيرة التي تمتع بها أفراد هذا الجيش . ويدل ذلك على انحلال أنظمة الجيش الانكشاري التي حظرت ، في الاصل ، على غير الأروام الانتساب اليه . وأخذ انكشارية دمشق يعيشون خارج القلعة ، ويدخلون الحرف ، وأصبحوا تجاراً ، كما تعاطوا الربا . ولم يعد الجيش الانكشاري جيشاً مغلقاً على السكان المحليين . وكان خطر هذه المساوىء بادياً للسلطان العثماني ، ولهذا أصدر ، في جمادى الاول ٩٨٥/ (تموز ١٥٧٧) ، فرماناً

---

١ ـ انظر حول ثورة بكر الصوباشي : العزاوي ، ج ٤ ، ١٦٥ـ١٨٢ ؛ المحبي ، ج ١ ، ٣٨٢ ـ ٣٨٥ ، ٤٥٥ .

موجهاً الى حاكم دمشق يأمره فيه بأن يعين في الوظائف التي تشغر بين الانكشارية أناساً من أصل رومي ، وليس من السكان المحليين (Yerlü) أو الغرباء (Tat) ، مثل الأكراد [1] • ويبدو أن انتساب غير الأروام الى طائفة الانكشارية في دمشق قد بدأ قبل تاريخ صدور هذا الفرمان بفترة ، ولم يتوقف بصدوره ، بل ازداد شدة • ولهذا عمت الفوضى بين انكشارية دمشق ، وكثر تحديهم للسلطات القائمة ، ووسعوا مجال تسلطهم خارج دمشق •

وفي أواخر القرن السادس عشر وسّع انكشارية دمشق دائرة نفوذهم الى ولاية حلب ، حيث كانت تذهب طائفة منهم كل عام للخدمة ، وأحياناً لفرض خدمتها ، في تحصيل أموال الميري من قرى الولاية • واستفاد انكشارية دمشق من دعوة الدولة لهم لقتال الثائرين (يشار اليهم بالتركية باسم الجلالية) ، شمالي حلب ، في هذه الفترة ، لتوطيد نفوذهم في ولاية حلب ، ومارسوا كثيراً من الظلم وابتزاز الأموال حتى ضجت الناس منهم • واضطر ولاة حلب لقتالهم واخراجهم من الولاية بالقوة ، بمساعدة علي باشا جانبلاط ، الذي حكمت أسرته كلّس وحلب ، ومن هنا العداء بين علي باشا جانبلاط وانكشارية دمشق • وقد اشتهر بين انكشارية دمشق هؤلاء خدا وردي ، آق يناق ، قره يناق ، وحمزة الكردي ، الذين تدل أسماؤهم على أنهم كانوا غرباء ، في الأصل ، عن دمشق [2] •

ويفسر تمرد انكشارية دمشق ، في هذه الفترة ، بعوامل مختلفة • ويأتي في مقدمة هذه العوامل اختلال أنظمة تجنيد الانكشارية وتدريبهم وانضباطهم لأسباب عامة في الدولة • وكان انفتاح انكشارية دمشق على غير الأروام مظهراً لهذا الانحطاط العام ، وعاملا في ازدياد تفشي الفساد بين

---

١ ــ انظر : Heyd, 68, 68

٢ ــ المحبي ، ج ٢ ، ٨٥ ، ١٢٩ ، ج ٤ ، ٤٤٩ــ٤٥٠ ، انظر ايضاً : ج ٤ ، ٢٩٥ــ٢٩٦ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ١٩٥ ب ــ ١٩٦ آ ، ٢٠٨ آ ، ٢١٣ ب ؛ البوريني ، ج ١ ، ٣٢٠، ج ٢ ، ١٥٥ــ١٦١ ، ٢٧٦ــ٢٧٧ ؛ الطباخ ، ج ٣ ، ٢١٩ــ٢٢٠ ؛ كامل الغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ اجزاء ، حلب ، ١٩٢٢ــ١٩٢٦ ، انظر : ج ٣ ، ٢٦٦ــ٢٧١ •

صفوفهم • ومن الطبيعي أن يتجلى فساد الانكشارية في ممارستهم ابتزاز الأموال ، بسبب قدرتهم على ذلك • وهناك سبب أعمق جعل الانكشارية يلجأون ، في هذه الفترة بالذات ، الى محاولة اغناء أنفسهم ، وهو اضطراب الوضع الاقتصادي في الدولة العثمانية ، وانهيار قيمة العملة ، وبالتالي القوة الشرائية للمرتبات • ويبدو أن هذه الأزمة النقدية كانت مسؤولة أيضاً ، الى جانب عوامل طبيعية كالقحط والطاعون ، عن غلاء الحبوب في بلادالشام، في هذه الفترة ، فارتفعت أسعار الخبز الى حد أدى الى استغراب الاخباري المعاصر ، شرف الدين موسى الانصاري [1] • ولم تنفع جهود الدولة في استيراد القمح من مصر وقبرص وطرحه في الأسواق ، اذ سرعانما ارتفعت أسعاره • وكان جشع التجار وأصحاب الافران مسؤولا ، الى حد ما ، عن تفاقم الأزمة ، ولكن جذورها كانت أعمق من ذلك ، بدليل أنه لم يقض عليها بالقضاء على جشع التجار •

وقد برز بين زعماء الانكشارية في دمشق ، في النصف الاول من القرن السابع عشر ، افراد من اسرة حسن التركماني ، الذين شكلوا ، مع اتباعهم ، حوالي ربع عدد الانكشارية في دمشق [2] • وبرز أيضا علي بن الأرناؤوط ، الذي خلفه ، بعد وفاته في ١٠٣٥/١٦٢٥ ، ابناه خدا وردي وعلي [3] • وقد لعب كيوان ، وكان سابقا مملوكا لدى رضوان حاكم غزة، دوراً هاماً في الجيش الانكشاري في دمشق ، في هذه الفترة ، وكان ، نظراً لما بلغه من سلطة ، اذا انتسب اليه شخص ، عرف هذا الشخص بابن كيوان [4] • ونستدل من أسماء زعماء الانكشارية هؤلاء أنهم من أصل غير دمشقي • ورغم ان بقاءهم في دمشق وانتسابهم اليها ، وخاصة في الجيلين الثاني والثالث ، قد قرّب بينهم وبين السكان المحليين ، الا انهم بقوا يشكلون

---

١ ـ نزهة الخاطر وبهجة الناظر ، مخطوط في المكتبة الظاهرية ؛ برقم ٧٨١٤ ، الاوراق ، ٣٣٥ آ ، ٣٣٥ ب ، ٣٣٨ آ ، ٣٣٩ آ ، ٣٤٠ آ . ٣٤٢ آ ، ٣٤٢ ب ، ٣٨٨ ب •
٢ ـ المحبي ، ج ٣ ، ٤٢٧ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢، ٦٣ ؛ البوريني ، ج ٢، ١٥٦ـ١٨٥•
٣ ـ المحبي ، ج ٢ ، ١٥٦ •
٤ ـ المحبي ، ج ١ ، ٣٠ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ٢٠٨ آ ـ ٢٠٨ ب •

مجموعات متميزة في الجيش ، تتوارث السلطة ، وتتمتع بالنفوذ المحلي ، وتعارض دخول غير اتباعها الى طائفة الانكشارية • وتناقص ، بنتيجة ذلك، عدد الأروام بين الانكشارية ، وازداد نفوذ هؤلاء الانكشارية في دمشق حتى انهم اصبحوا يعرفون بأكابر واعيان دمشق •

وكانت سلطة ولاة الشام ، في الربع الاول من القرن السابع عشر ، قبل تولي السلطان مراد الرابع السلطنة في ١٦٢٣ ، تتميز بالضعف او بالقوة ، تبعا للظروف • وقد تمكن الثائران علي باشا جانبلاط وفخر الدين المعني الثاني من تحديهم في ساحة المعركة • وكان من نتيجة ضعف الولاة ان قويت شوكة الانكشارية في دمشق • ولم يهتم الانكشارية ، بعد ذلك ، بسبب ضعف انضباطهم ، بالتفوق في الحملات التي اشركهم فيها ولاة الشام • ففي عام ١٠١٥/١٦٠٦ ، مثلا ، هرب الانكشارية من القتال ضد الثائر علي باشا جانبلاط [١] • وكان سجلهم في الحملات ضد المعنيين مخزياً •

وفي عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) ، ازدادت سلطة الولاة ، بسبب نشاط الادارة في استانبول • وقتل ولاة الشام ، في عهده ، عددا كبيرا من زعماء الانكشارية في الشام ، مثل ابن اغجفران ، وابن الصباغ ، وعلي بن الأرناؤوط ، كما قتل كيوان على يد حليفه السابق فخر الدين المعني الثاني [٢] • واذا نظرنا الى النفوذ الذي حازه المقتولون ، سواء في الجيش الانكشاري او لدى الشعب في دمشق ، ووضعنا هذه الأحداث في اطارها التاريخي ، لوجدنا أنها تشكل حلقة في سلسلة الصراع على النفوذ في دمشق بين الولاة وزعماء الانكشارية • وقد زادت حوادث القتل هذه في العداء بين الفريقين • وظهر ذلك جلياً في فترة الضعف العثماني التي تلت وفاة السلطان مراد الرابع • ففي عام ١٠٥٧/١٦٤٨ - ١٦٤٨ ،

١ - المحبي ، ج ٣ ، ١٣٧ ؛ البوريني ، ج ٢ ، ٢٧٦-٢٧٧ •
٢ - انظر تفاصيل ذلك في : بلاد الشام ومصر ، ١٨٩-١٩٠ •

حدث قتال بين الانكشارية واتباع المتسلم في دمشق • ويظهر اثر هـذا العداء في الحملة التي قام بها مرتضى باشا والي الشام ، في العام التالي ، على بلاد صفد ، اذ حدث نزاع ، اثناء الحملة ، بين انكشارية دمشق وجنود الوالي ، ادى الى القتال بين الفريقين،ورجوع الحملة الى دمشق • وازداد تأزم العلاقات بين الطرفين في الحملة التي شنها والي دمشق في عام ١٠٥٩/١٦٤٩ ـ ١٦٥٠ ، ضد دروز الشوف ، واصطحب فيها الانكشارية • ولم يصب هؤلاء بأي اذى في القتال الذي هزم فيه الوالي وجنوده ، ربما بسبب تجنب الانكشاريـة الاشتراك الفعلي في القتـال • وقد حقد الوالي عـلى الانكشارية نتيجة لذلك[١] • وحـدث في العام ذاته أن قتـل جماعة الوالي رجلاً من الانكشارية في دمشق،فعمت الفوضى فيها ، واغلقت اسواقها[٢]• وتعاظم نفوذ الانكشارية بعد ذلك حتى انهم وصفوا ، في عام ١٠٦٣/١٦٥٢ ـ ١٦٥٣ ، بانهم يحكمون دمشق • وبالفعل ، تمكن الانكشارية ، آنذاك ، من طرد الوالي من دمشق ، بعد ان وجهوا مدافع القلعة الى السرايا التي اقام فيها • وفي عام ١٠٦٥/١٦٥٤ ـ ١٦٥٥ ، نهب الانكشارية بيت صوباشي دمشق ، وبيت احد اتباع الوالي[٣] •

ولا ادل على ازدياد نفوذ الانكشارية من تعيين الدولة بعض افرادهم امراء لقافلة الحج الشامي ، اذ انه بعد قضاء فخر الدين المعني الثاني ، اثناء توسعه ، على نفوذ الامراء المحليين ، الذين كانوا يُعينون امراء لقافلة الحج الشامي ، منذ الربع الاول للقرن السادس عشر ، ضعف هؤلاء الامراء ، واصبح الانكشارية ، بازدياد سلطتهم ، يعينون امراء لقافلة الحج للمحافظة عليهـا •

وشهدت الادارة المركزية في استانبول ، من جديد ، فترة قوة ونشاط في النصف الثـاني من القرن السابع عشر ، حـين عين افراد مـن اسرة

---

١ ـ ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٣٦ـ٣٧ •
٢ ـ ابن جمعة ، مخطوط برلين ، رقم 9785. We (II) 418 ، الورقة ، ٤ آ •
٣ ـ المصدر السابق ، ١٤ آ ـ ١٤ ب •

كوبريلي (Köprülü) صدوراً عظاماً وموظفين كباراً في الدولة وانعكست قوة الادارة المركزية على الادارة في الولايات ، وشددت الدولة العثمانية ، تبعاً لذلك ، قبضتها على انكشارية دمشق. وحدث في عام ١٠٦٧/ ١٦٥٦ - ١٦٥٧ حادثان هامان بنتائجهما ، فقد عين مرتضى باشا على دمشق للمرة الثانية ، وكان قد تخاصم ، في المرة الاولى ، في عام ١٠٥٨ / ١٦٤٨ - ١٦٤٩ ، مع انكشارية دمشق اثناء الحملة على بلاد صفد . فخاف انكشارية دمشق الآن من أن يبطش بهم ، وكان يرافقه نحو ألف وخمسمائة من الجنود البشانقة (نسبة الى بوسنة) ، فمنعوه من دخول المدينة ، وطردوا متسلمه منها . وقد عين محمد باشا (يذكر احيانا احمد باشا) ابن الطيار خلفاً له[1] . وكان هذا ظفراً كبيراً للانكشارية ، وزاد من نفوذهم ، خاصة وان السلطان قبل بالامر الواقع . اما الحادث الأخر فهو ان السلطان محمداً الرابع ارسل يطلب فرقا من الجنود من بعض الولايات ، ومن بينها دمشق وحلب ، للاشتراك في القتال في روميلية . وعين والي حلب أبازة حسن باشا قائداً عاما (صاري عسكر) على جنود الشام وحلب . وانضم اليه والي دمشق ابن الطيار وانكشاريتها . وقد استغل حسن باشا منصبه الجديد والقوات التي تجمعت لديه ، فأعلن العصيان ، وطالب السلطان بقتل محمد باشا كوبريلي الصدر الأعظم ، وكان ذلك بداعي الحسد ، كما ذكر . وايد ابن الطيار وانكشارية دمشق حسن باشا في عصيانه . وخشي السلطان استغلال الصفويين لهذه الثورة ، فعمل بحزم ، وارسل جيشا لقتال حسن باشا ، ولكنه هزم . واخيرا تمكن والي حلب العثماني من الفتك بحسن باشا ، في ٢٤ جمادى الاول ١٠٦٩/١٧ شباط ١٦٥٩ ، بعد ان خدعه باعطائه الامان . وهكذا انتهت هذه الثورة التي عرفت بالحسنلية (نسبة الى حسن باشا) .

وعزل السلطان محمد باشا ابن الطيار عن ولاية الشام بسبب تأييده لحسن باشا ، وأمر بقتله مع متسلمه بعد ذلك . كما قتل الوالي الجديد ،

---

١ - المصدر السابق ، ١٤ ب ؛ أنظر : المحبي ، جـ ٢ ، ٤١٨ .

عبد القادر باشا (يذكر ايضا قدري باشا) ، في ٢٧ رمضان ١٠٦٩/١٨ تموز ١٦٥٩ ، عددا من كبار انكشارية دمشق ، الذين ايدوا حسن باشا . وكان من بينهم عبد السلام المرعشي ، وعبد الباقي اليازجي ، ومحمد التركماني . وارسل السلطان الى دمشق قوة من الجنود الانكشارية القابي قول ، فأزاحت الانكشارية اليرلية عن مهامهم في المحافظة على القلعة وأبواب المدينة والأسواق ، وتولتها بنفسها . وأصبحت مهمة الانكشارية اليرلية المحافظة على القلاع في طريق الحج ، ولكن معظمهم لم ينفذوا ذلك في الواقع ، وظلوا يقيمون في دمشق . وهكذا أصبح في دمشق طائفتان من الانكشارية : طائفة القابي قول ، ومركزها القلعة ، وطائفة الانكشارية المحلية ، المعروفة باليرلية (من يرلي ، أي محلي) ، لأن افرادها كانوا بمعظمهم من الدمشقيين او من المقيمين في دمشق[1] .

ومما يجدر ذكره ان مقتل كثير من افراد الانكشارية البارزين في الاعوام السابقة ، الذين كانوا من اصل غير دمشقي ، قد افسح المجال للدمشقيين للانتساب الى الانكشارية ، والارتقاء الى أعلى الرتب . وان دراسة أسماء زعماء الانكشارية ، منذ أواخر القرن السادس عشر وحتى عام ١٦٥٩ ، تدل على التحول الذي طرأ على هوية الانكشارية ، فمن أسماء كردية ــ تركية ، الى أخرى تركمانية أو مرعشية . وكلما زالت هذه العناصر الغريبة طائفة الانكشارية اليرلية ، وأصبحت ، تبعاً لذلك ، فرقة عسكرية في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، حين اشتهر بين الانكشارية أفراد من اسرتي طالو وترجمان . وفي القرن الثامن عشر سيطر الدمشقيون تماماً على طائفة الانكشارية اليرلية ، وأصبحت ، تبعاً لذلك ، فرقة عسكرية دمشقية تدافع عن مصالح الدمشقيين[2] .

---

١ ــ انظر حول هذه الأحداث : ابن جمعة ، مخطوط برلين ، رقم 9785. We (II) 418 الاوراق ، ١٤ ب ــ ١٥ ب ؛ ابن جمعة ، قطعة من تاريخ ، مخطوط في الظاهرية ، برقم ٧٥٢٣ ، الاوراق ١ آ ــ ١ ب ؛ المحبي ، ج ٢ ، ٧٨ ــ ٧٩ ، ٤١٨ ، ج ٤ ، ٣١١ .

٢ ــ للحصول على تفاصيل أخرى ، انظر كتابنا : *The Province of Damascus*, 30-5.

ولم يحدث مثل هذا التطور بين انكشارية حلب ، وبقيت صفوفهم مغلقة في وجه السكان المحليين ، نظرا لقوة النفوذ العثماني فيها • ولم يمنع ذلك انكشارية حلب من تعاطي التجارة وغيرها لحاجتهم الى ذلك من ناحية ، ولعدم وجود مشاغل عسكرية كبيرة لديهم من ناحية اخرى • وتذكر سجلات المحاكم الشرعية في حلب ، في القرن السابع عشر ، كيف أن الفلاحين ، في ولاية حلب ، استدانوا المال من الانكشارية ، ولما لم يستطيعوا تسديده لهم ، باعوهم الاراضي • وهكذا أصبح عدد من انكشارية حلب في عداد الملاكين الكبار في الريف[١] •

ثورات الأمراء

واستغل ضعف الدولة العثمانية ، الى جانب العساكر ، عدد من الامراء المحليين وبعض الكتل ذات النفوذ ، مثل المماليك ، وذلك للثورة على العثمانيين ، أو لتعميق نفوذهم المحلي • وقد استفادت هذه القوى من طبيعة المناطق التي وجدت فيها ، مثل منطقة جبال طوروس ، حيث الثغور الاولى وبقايا القبائل والامارات التركمانية ، او مثل جبل لبنان ، الذي التجأ اليه عدد من القبائل العربية ، منذ الفتوحات العربية الاولى ، او مثل البصرة ، حيث تلتقي البادية بالريف ، وتنصب تجارة المرور بين اوروبا والشرق الاقصى ، او مثل مصر ، حيث استغل المماليك قوتهم ، وغنى مصر ، وبعدها عن مركز السلطنة ، ليعمقوا نفوذهم • اما اليمن فقد خرجت بكليتها عن سلطة الدولة العثمانية ، كما تحكمت في شمال افريقية اسر او افراد عسكريون اقوياء •

وقد ثار في بلاد الشام ، في الربع الاول من القرن السابع عشر ، زعيمان محليان ، هما فخر الدين المعني الثاني امير الشوف في جبل لبنان ،

---

١ ــ انظر حول ذلك مقالتنا المشار اليه سابقا ، وعنوانه :
"The Local Forces in Syria in the 17th and 18th Centuries"

وعلي باشا جانبلاط الزعيم الكردي في منطقة حلب ـ كلّس ، اللـذان تحالفـا في الثـورة • ولـكن الدولـة قضت عليهما ، فتلاشى نفوذ الاسرة الجانبلاطية في منطقة حلب ، وانتقلت الى جبل لبنان فيما بعد ، بينما بقيت الاسرة المعنية ، بعـد القضاء عـلى فخر الدين ، لأنها تمثل مذهباً وزعامة اقطاعية وحزبا قيسيا •

وقد سبق القول ان السلطان سليماً الاول ، بعد عودته من فتح مصر في عام ١٥١٧ ، عين الامير فخر الدين المعني ، امير الشوف ، اميرا على جبل لبنان ، محـل التنوخيين الموالين للمماليك[1] • وكان هذا منسجما مـع السياسة العثمانيـة بابقاء الزعماء المحليين الموالين ، الذين اثبتوا نفوذهم ، ويصعب بالتالي القضاء عليهم • ولما كان الامراء المحليون ، وخاصة في جبل لبنان ، قد لعبوا دورا هاما في التطورات السياسية في بلاد الشام الجنوبية ، فيجدر التعرف على اساس قوتهم في المناطق التي سيطروا عليها •

ادرك الحكام والمحكومون ، منذ اقدم العصور ، اهمية المنطقة الجبلية المحاذية للساحل السوري ، في الدفاع عن الداخـل ضـد الهجمات من البحر ، فأقام الحكام فيها الحاميات للدفاع ، كما هرع اليها المضطهدون دينيا في الداخل بحثا عن الملجأ • وفي فترة الفتح العربي لبلاد الشام لجأت قبائل مسيحية من أطراف الأمانوس الى جبل لبنان ، وقد عرفت بالمرادئـة (المردة) ، أو الجراجمة • وفي عهد الأمويين اضطهد البيزنطيون الرهبان اتباع مار مارون ، الذين كانوا يسكنون قرب العاصي ، فهرب بعضهم الى جبل لبنان ، واوجدوا فيه الطائفة المارونية • وقد أثاروا ، مع المرادئة ، كثيرا من المشاكـل للأمويـين ، ومن بعدهم للعباسيين ، بسبب قطعهم الطرق • فأقام هؤلاء الحاكمون ، وخاصة العباسيون ، قبائل عربية على الساحل ، بين طرابلس وجنوبي بيروت ، للحد من تمرد سكان الجبل •

ومنـذ أواخـر القرن العاشـر سيطر الشيعة المعتدلون الاثنا عشرية

---

١ ـ انظر ص ٦٥ •

(المتاولة) على مناطق واسعة من جبل لبنان ، وخاصة على البقاع الشمالي ، وعلى جبل عامل ، وتمتعوا بدعم الفاطميين الحاكمين في مصر وبلاد الشام• وحين بدأت الحملة الصليبية الاولى ، في أواخر القرن الحادي عشر ، كانت منطقة طرابلس تحكم من قبل اسرة بني عمّار الشيعية • وبضعف الفاطميين أمام الغزو الصليبي ، ضعفت الجاليات العربية التي كانت تدافع عن الساحل السوري ، وخاصة بعد احتلال الصليبيين بيروت وصيدا ، في أوائل القرن الثاني عشر • ولهذا قامت السلالات السنية الحاكمة في بلاد الشام ، وعلى رأسها أتابكة دمشق ، ثم الأيوبيون ، بنقل جاليات مسلمة جديدة ، غالبيتها من القبائل العربية ، الى مناطق لبنان الساحلية • وهكذا اتى بنو بحتر وسكنوا منطقة الغرب ، وجاء المعنيون الى الشوف ، ثم تبعهم آل تلحوق وآل نكد • وسكن الشهابيون ، في أواخر القرن الثاني عشر،في منطقة وادي التيم ، عند البقاع الجنوبي ، وبقوا على المذهب السني ، بينما اعتنق الآخرون مذهب السكان الذين أقاموا بينهم ، وهو المذهب الدرزي• والتسمية نسبة الى محمد بن اسماعيل الدرزي ، أحد مؤسسي المذهب الدرزي ، الذي نشره في جبل لبنان في القرن الحادي عشر ، وقد دعا الى الخليفة الحاكم الفاطمي (٩٩٦ ـ ١٠٢١) •

وبعد طرد الصليبيين ، في أواخر القرن الثالث عشر ، مدّ المماليك نفوذهم على جبل لبنان ، وأقاموا فيه عددا من الجاليات السنية • ولكي يخفف المماليك من النزاع بين الموارنة والدروز ، في مناطق كسروان والمتن ، أقاموا أسرة تركمانية ، عرفت ببني عساف ، في منطقة التلال الساحلية ، شمالي نهر الكلب ، كما أقاموا اسرة كردية ، عرفت ببني سيفا ، في مناطق الكورة وعكار لمراقبة موارنة الشمال • وبقيت هاتان الأسرتان على المذهب السني •

وعلى نقيض الموارنة ، الذين كانت تنقصهم الوحدة الداخلية ويمزقهم الصراع على السلطة بين الأمراء والكهنة ، فقد نجحت الأسر الاقطاعية

الدرزية ، برئاسة بني بحتر ، في جعل المماليك يعترفون بسلطتها الوراثية في المناطق التي تسكنها ، وذلك في حوالي عام ١٣١٤ • واعترف المماليك بالأمير البحتري ناصر الدين حسين ، أمير منطقة الغرب (١٢٨٨ – ١٣٤٨)، أميراً على جبل لبنان الجنوبي • وحين أقام العثمانيون المعنيين أمراء على جبل لبنان ، محل البحتريين ، أيدهم هؤلاء ، وانتسبوا اليهم بالزواج [1] •

وكانت الأسر في جبل لبنان منقسمة الى حزبين : قيسية ويمنية ، وهذا من بقايا العصبيات التي أتت بها القبائل العربية • وكان المعنيون من القيسية، بينما كان أعداؤهم من الدروز ، برئاسة آل علم الدين ، من اليمنية • وضم الحزب الواحد أتباعاً من مذاهب مختلفة ، كالسنة ، والمتاولة ، والموارنة • واستطاع المعنيون ، رغم هذا الانقسام القيسي – اليمني ، اثبات نفوذهم في لبنان الجنوبي •

وقد وازن قوة المعنيين في الشوف أمراء آل عساف التركمان وآل سيفا الأكراد ، في منطقة طرابلس والبقاع الشمالي ، وكانت هاتان الاسرتان توازن الواحدة منهما الأخرى • وقد أحرز الأمير منصور عساف ، الذي تولى الامارة في عام ١٥٢٣ ، سلطة واسعة في منطقة طرابلس ، ومدّ نفوذه حتى حدود اللاذقية وحماة ، واعترف به العثمانيون أميراً على هذه المنطقة في عام ١٥٧٢ ، وحكم الى جانب الوالي العثماني في طربلس • وقد بنى سرايا وجامعاً في بيروت • ولكن العثمانيين ، الذي شجعوه في البدء ، خشوا اتساع سلطته ، بعد ذلك ، فعينوا منافسه يوسف سيفا والياً على طرابلس في عام ١٥٧٩ • وتوفي الامير منصور في عام ١٥٨٠ ، فخلفه ابنه محمد ، وكان آخر

---

١ – أنظر حول ذلك :

K. S. Salibi, *The Modern History of Lebanon,* London, 1965, pp. XV-XXIV:

ترجم هذا الكتاب مؤخرا الى العربية ، ونشر تحت عنوان : تريخ لبنان الحديث ، بيروت ١٩٦٧ ؛ أنظر ايضا :

K. S. Salibi, «Lebanon in Historical Perspective», *Middle East Forum,* (March, 1959), pp. 16-21, Poliak, 9, 12-13, 16-41.

وانظر أيضاً حول أصل هذه الأسر وتاريخها : تاريخ بيروت واخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب ، لصالح بن يحيى ، نشره الأب لويس شيخو ، بيروت ١٩٢٧ ؛ واخبار الأعيان في جبل لبنان ، لطنوس الشدياق ، بيروت ١٩٥٤ •

أمـراء آل عساف • وقـد قتل في عـام ١٥٩٠ من قبل يوسف باشا سيفا • وأصبحت السلطة في شمالي لبنان ، بعد ذلك ، بيد آل سيفا •[١]

وحدث في عام ١٥٨٤ أن هوجمت خزنة مصر ، التي تضم الفائض من عائدات مصر الموجهـة الى السلطان ، في منطقة عكار بلبنان • وقـد اتهـم قرقماس المعني ، والد فخر الدين المعني الثاني ، بالتخطيط للهجوم ، وكان ذلك بدسيسة منافسه يوسف باشا سيفا • وهرب الأمير قرقماس ، وتوفي في العام ذاته ، وهو مختبىء • ولجأت زوجته بابنيه ، فخر الدين ، الذي خلفه في الامارة ، ويونس ، الى آل الخازن الموارنة ، في منطقة كسروان ، وأقامت لديهم ستة أعوام عاد بعدها فخر الدين الى امارة الشوف • ومن هنا التعاطف بـين فخر الدين والموارنة ، فيما بعد ، وتعيينه أحـــد أفـراد آل الخازن مستشاراً لـه •[٢]

كان هدف فخر الدين ، اثر تسلمه الامارة ، ان يمدّ سلطته على لبنان الشمالي ، منطقة نفوذ آل سيفا ، وعلى البقاع في الشرق ، منطقـة نفوذ آل فريخ ، الذين خلفوا آل الحنش • وقد حرص فخر الدين ، في هذه الفترة من توطيد سلطته ، على كسب عطف العثمانيين بالهدايا وبتقديم مـال الميري بدون تأخير • ولكنه لم يستطع القضاء على يوسف باشا سيفا والي طرابلس وعلى نفوذ اسرته حتى عام ١٦٢٧ ، وكان آل سيفا ، طيلة هـــذه الفترة ، شوكة في جنب فخر الدين ، وقد حدوا من توسعه في الشمال • ولكن بقيت له حرية التوسع في الشرق والجنوب •

كانت سياسة فخر الدين اكثر نجاحاً في البقاع • وكان يحكم هـذه المنطقة الامير منصور بن فريخ الذي ازدادت سلطته الى حد اخاف العثمانيين،

---

١ ــ انظر : الشدياق ، جـ ٢ ، ٥ــ٦ :
H. Lammens, *La Syrie : Précis Historique,* 2 Vols., Beyrouth, 1921, II, pp. 71-2,

٢ ــ انظر حول هذه الأحداث : احمد الخالدي الصفدي ، تاريخ الأمير فخرالدين ، نشره أسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، بيروت ١٩٣٦ ، ص ٤٦ــ٦١ ؛ الشدياق ، جـ ١ ، ٢٩٣ــ٢٩٤ ، جـ ٢ ، ٦ •

وخاصة ولاة دمشق • وقد مدّ الامير منصور سلطته على صناجق صفد وعجلون ونابلس ، واعترف العثمانيون به اميراً عليها وملتزماً لأموالها الأميرية ، بعد أن وطد الأمن فيها • وفي عام ٩٩٨/١٥٨٩ ـ ١٥٩٠ ، عين الامير منصور بن فريخ اميراً على قافلة الحج الشامي ، واستمر في ذلك في العام التالي • وقد خشي ولاة الشام من ازدياد قوة منصور بن فريخ فحاولوا التخلص منه • وتمّ لهم ذلك في ١٣ ربيع الاول ٧/١٠٠٢ كانون الاول ١٥٩٣ • واشترك الامير فخر الدين المعني بقواته مع والي دمشق في تتبع بقية افراد اسرة منصور ، وقضوا عليهم في العام التالي(٢) •

واستغل فخر الدين المعني القضاء على آل فريخ ، فمدّ سلطته على البقاع حتى صفد ، وأفاد من ذلك اقتصادياً،نظراً لغنى البقاع ، كما زاد من نفوذه في جبل لبنان فخضع له آل الحرفوش ، الأمراء المحليون في منطقة بعلبك ، والشهابيون امراء وادي التيم • وتحمل فخر الدين مسؤولية الدفاع عن هاتين الاسرتين تجاه ولاة الشام(٢) • ولكن زوال آل فريخ ، الذين كانوا يشكلون قوة عازلة بين ولاة دمشق وفخر الدين ، وامتداد نفوذ هذا الأخير على البقاع ، الخاضع مباشرة لهؤلاء الولاة،زاد من الاحتكاك والمنافسة بين الطرفين ، لاسيما وان المنطقة التي اصبح يسيطر عليها فخر الدين كانت تمر فيها الطرق التي تربط بين دمشق والساحل ، وبين دمشق وفلسطين ومصر ، وتتحكم في سلامة قافلة الحج الشامي • وبدأت بذلك المشاحنات بين فخر الدين وولاة دمشق •

ولمواجهة خطر ولاة دمشق أقام فخر الدين عيوناً ، أي وكلاء ، له في استانبول لرعاية مصالحه • كما انه جنّد ، بالاضافة الى اتباعه من الدروز والقيسية ، جيشاً خاصاً من السكبان المرتزقة ، وحصّن القلاع في منطقته •

---

١ ـ شرف الدين موسى ، ٣٢٧ ب ـ ٣٢٨ آ ، ٣٩٠ ب ـ ٣٩١ آ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ١٨٧ آ ، ٢١١ آ ، ٢١٢ ؛ المحبي ، ج ٤ ، ٤٢٦ـ٤٢٨ ؛ محمد كرد علي ، خطط الشام، ٦ اجزاء ، دمشق ، ١٣٤٢ـ١٣٤٧/١٩٢٥ـ١٩٢٨ ، ج ٢ ، ٢٤١ ؛
٢ ـ الشدياق ، ج ١ ، ٢٩٤ـ٢٩٥ ؛ عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ فخر الدين المعني الثاني، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٦٦ •

وقام باتصالات مع آل مديتشي ، حكام توسكانيا في ايطاليا ، للحصول على المساعدة العسكرية والفنية ، ولتنشيط تجارة بلاده معهم ، وخاصة تجارة الحرير ، التي كانت مزدهرة في منطقة الشوف[1] • وكان فخر الدين يتمتع بتأييد كيوان ، احد كبار انكشارية دمشق ، والذي كان سابقاً من مماليك رضوان حاكم غزة[2] •

وقد استفاد من انشغال فخر الدين في تقوية نفسه لمواجهة ولاة دمشق وأعدائه آل سيفا ، عدد من الامراء المحليين في فلسطين ، فتنفسوا الصعداء إثر القضاء على آل فريخ ، الذي وسعوا نفوذهم على حسابهم • واشهر هؤلاء الامراء احمد بن رضوان حاكم غزة ، الذي توفي عام ١٠١٥/١٦٠٦ ــ ١٦٠٧[3] ، واحمد بن قانصوه ، امير بلاد عجلون والكرك ، وطراباي حاكم اللجون ، الذي خلفه بعد وفاته في عام ١٠١٠/١٦٠١ ــ ١٦٠٢ ابنه احمد ، وكانت حيفا تابعة له ايضاً[4] ، والامير فروخ بن عبد الله ، حاكم نابلس والقدس ، الذي كان ، في الأصل ، من مماليك الأمير بهرام ، شقيق الأمير رضوان حاكم غزة سابقاً[5] • وكانت امارة الحج الشامي تنتقل من امير الى آخر من هؤلاء الامراء المحليين ، حسب قوتهم ورضى الدولة عنهم • ولم يلبث هؤلاء الامراء ان تعرضوا لضغط فخر الدين وقتاله لهم ، بعد ان ازدادت قوته ونفوذه • وكان ضغطه يخف عنهم حين ينشغل بالقتال مع الولاة العثمانيين ، كما حدث مثلاً حين تحالف في أوائل القرن السابع عشر مع علي باشاجانبلاط ، الذي ثار في ولاية حلب ، ضد العثمانيين •

وقد حدثت ، في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع

---

١ ــ أنظر : Adel Ismail, *Histoire du Liban du XVII^e Siècle à nos jours*, Vol. I, *Le Liban au temps de Fakhr-eddin II (1590-1623)*, Paris, pp. 77-8.

٢ ــ المحبي ، جـ ٣ ، ٢٩٩ــ٣٠٢ •

٣ ــ المحبي ، جـ ١ ، ١٨٧ــ١٨٩ ، جـ ٣ ، ٢٩٩ ؛ البوريني ، جـ ١ ، ١٩١ــ١٩٢ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ١٨٧ آ •

٤ ــ المحبي ، جـ ١ ، ٢٢١ ؛ البوريني ، جـ ٢ ، ٢٧٣ــ٢٨٩ •

٥ ــ المحبي ، جـ ٢ ، ١٢٧ ، وانظر ايضا : جـ ٢ ، ٤١٧ ؛ البوريني جـ ١ ، ٢٠٢ ، جـ ٢ ، ٢٨٩ •

عشر ، عدة اضطرابات أثارها متمردون محليون شمالي حلب • ولم يكن حدوث هذه الاضطرابات في هذه المنطقة والفترة بالذات بالأمر الغريب • فقد كانت تسكن منطقة الحدود ، بين بلاد الشام والأناضول ، اقوام واقليات مختلفة يعود اصل بعضها الى الفترة حين كانت هذه المنطقة تعج بالثغور • وقد ساعدت جغرافية المنطقة الجبلية والهضبية على حماية هذه الأقوام والأقليات وعلى تشجيع غيرها في اللجوء اليها • واستغلت اقوام هذه المنطقة فرصة ضعف السلطة العثمانية لتثور ضدها • وكثيراً ما وجد المغامرون الطامعون بالسلطة في هذه الاقوام مرتعاً خصباً لاعلان عصيانهم • وكما ان جغرافية المنطقة شجعت قيام الثائرين فانها ، من جهة اخرى ، ساعدت في القضاء عليهم ، لأن وقوع منطقة حلب على الطريق الرئيسية التي تسلكها الجيوش العثمانية الى الجبهة الصفوية جعلها في متناول السلطة العثمانية ، ولهذا كان عمر هؤلاء الثائرين قصيراً •

وكان المتمردون الذين ظهروا شمالي حلب ، ومنهم علي باشا جانبلاط ، امتداداً لمجموعات من الثائرين ، عرفوا ، في التاريخ العثماني ، باسم الجلالية ، وانتشروا في الأناضول في هذه الفترة • وكانوا يعتمدون على قوات المرتزقة السكبان ، المتوافرة في الأناضول ، لتوطيد زعامتهم • ولم تكن للثائرين برامج سياسية او اجتماعية واضحة ، كما انهم لم يتبنوا النهب والقتل كغايات في حد ذاتها ، وانما كرهوا ، وخاصة السكبان منهم ، الامتيازات المتعددة التي حصل عليها الانكشارية القابي قول ، وارادوا مشاركتهم فيها • ويمكن القول ان الجلالية والسكبان يمثلون ردود فعل الولايات على سيطرة السلطة المركزية الخاضعة لنفوذ الانكشارية • وقد اوجد الجلالية نوعاً من الرعب في الأناضول ، فهجر الفلاحون اراضيهم الى المدن المحصنة ، ولجأ الأحسن حالاً منهم الى استانبول ، او البلقان ، او القرم ، واقفرت مناطق بكاملها في الأناضول من السكان • ويشار الى هذا التحرك السكاني ، في التاريخ العثماني ، بالهرب الكبير ، ونتج عن اهمال

الزراعة حدوث المجاعات ، كما سيطر الامراء الثائرون على الأراضي الشاغرة ، وحين عاد أصحابها لاسترجاعها اصطدموا بالامراء •

واستغل الجلالية انشغال الدولة العثمانية في حروبها مع النمسا وعلى الجبهة الصفوية ، في الفترة بين ١٥٩٦ و ١٦١٠ ، ومارسوا نشاطهم بشكل كبير • وبرز من بينهم حسين باشا وعبد الحليم اليازجي، المعروف في المصادر التركية بلقب قره يازجي (اي الأسود) ، وكانا مكلفين ، في الأصل ، من قبل الدولة ، لتجنيد الجنود من أواسط الأناضول لدعمها في الحروب الخارجية ، فاستغلا ذلك للثورة • وقد ثار حسين باشا ، الذي كان سابقاً والياً على الحبش ، في بلادكرمان ، ونافسه في الشهرة عبد الحليم اليازجي ، الذي جمع حوالي عشرين ألف ثائر ، معظمهم من السكبان (بعض المصادر تضاعف العدد) ، وتحصن في قلعة الرها ، واجبر سكان الريف والمدن على دفع الضرائب له ، وسيطر على ولايتي سيواس وذي القدر • وعندما توفي في عام ١٦٠٢ ، خلفه في الزعامة اخاه دلي حسين (وتعني حسين المجنون)، الذي حاصر كوتاهية • ولكن الدولة العثمانية اشترت خضوعه بتعيينه والياً على بوسنة ، وبمنح اتباعه مناصب الصناجق ، اي حكام الألوية ، او بتعيينهم في الجيش النظامي • وحرصت الدولة العثمانية على عدم استغلال الصفويين حركات الجلالية ، ولذلك عمدت الى القضاء عليهم كمقدمة لتدعيم جبهتها ضد الصفويين •

وكان علي باشا جانبلاط من هؤلاء الجلالية ، وقد اشتهرت اسرته ، التي كانت من اصل كردي ، في منطقة كلّس ــ حلب ، في مطلع القرن السابع عشر • وكلمة جانبلاط تحوير لكلمتي جان بولاد ، وتعنيان النفس الفولاذية ، وقد اشتهر من هذه الاسرة حسين باشا جانبلاط[1] ، الذي عين

---

١ ــ أنظر حول الجلالية : المحبي ، جـ ١ ، ٢٨٦ ، جـ ٢ ، ٤٣ ، ٣٢٢ــ٣٢٤ ؛ البوريني ، جـ ١ ، ٢٢٥ــ٢٢٨ ، جـ ٢ ، ١٤٥ــ١٦١ ، ٢٥٩ــ٢٦٠ ؛ وانظر ايضاً :
Inalcik, "The Heyday and Decline of the Ottoman Empire", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol, I, pp. 347-9.

في اول امره حاكماً على كلّس • وفي عام ١٥٩٩ كان محمد باشا ، ابن الوزير المشهور سنان باشا ، يقاتل حسين باشا ، والي الحبش سابقاً ، الذي ثار في منطقة حلب ، فاستنجد بحاكم كلّس حسين باشا جانبلاط • وحين ازداد ، في هذه الفترة ، تسلط العساكر الدمشقيين في ولاية حلب استنجد واليها ، نصوح باشا ، في عام ١٦٠٠ بحسين باشا جانبلاط لطردهم ، فأنجده بابن اخيه علي جانبلاط ، الذي فتك بهم بشدة • ومن هنا اصل العداء بين آل جانبلاط وعساكر دمشق • وقد حاول نصوح باشا ، بعد ذلك ، ان يتخلص من جاره وحليفه حسين باشا جانبلاط ، الذي تزايد نفوذه بكثرة ، فعلم هذا بما كان يدبر له ، ونهض لقتال نصوح باشا ، وحاصره في حلب ، واخرجه منها بالقوة • وفي عام ١٦٠١ عين حسين باشا جانبلاط والياً على حلب•وكان يعتمد في توطيد سلطته على جنده من السكبان وعلى دعم بعض أصحاب النفوذ في استانبول ، مثل سنان باشا الذي ارسله السلطان لقتال قوات الشاه عباس الاول الصفوي • ولكن العلاقات ساءت بين سنان باشا وحسين باشا جانبلاط بسبب تقاعس هذا الاخير عن نصرة الاول اثناء قتاله مع الصفويين ، مما ادى الى هزيمته في ٢٦ جمادى الثاني ١٠١٤/٨ تشرين الثاني ١٦٠٥ • وحين عاد سنان باشا من حملته الفاشلة قتل حسين باشا جانبلاط في أواخر عام ١٦٠٥[1] •

ثار علي بن أحمد بن جانبلاط لمقتل عمه ، وأخذ ولاية حلب عنوة ، وجمع جيشاً كبيراً برز فيه السكبان ، وامتنع عن دفع أموال الميري ، وقد تطوّع يوسف باشا سيفا ، حاكم عكّار وبلاد طرابلس ، لدى السلطان العثماني أحمد الأول ، لقتال علي باشا جانبلاط • وكان يوسف باشا سيفا يحاول ، بعد قضائه على آل عساف واتساع نفوذه ، أن يوطد سلطته بموافقة السلطان ، لاسيما وأن فخر الدين المعني الثاني ، منافسه في جبل لبنان ، كان هو الآخر يزداد نفوذاً • وقد عين السلطان العثماني يوسف

١ ـ المحبي ، ج ٢ ٨٦ـ٨٧ ، ج ٣ ، ١٨٦ ؛ البوريني ، ج ٢ ، ٢٧١ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ١٩٥ ب ؛ الطباخ ، ج ٣ ، ٢٢٥ـ٢٢٨ ؛ الشدياق ، ج ١ ، ١٤٦ـ١٤٧ •

باشا سيفا قائداً على عساكر الشام ، فبدأ يجمع قواته في حماة ، حيث تحارب مع علي باشا جانبلاط في ١٦ ربيع الاول ١٠١٥/٢٤ تموز ١٦٠٦ • وقد هزم يوسف باشا ، وفر بحراً الى حيفا التي كان يحكمها الامير أحمد طراباي ، وتحصن مملوكه يوسف في قلعة طرابلس ، وعمه محمود في حصن الاكراد •

وازداد نفوذ علي باشا جانبلاط ، اثر ذلك ، فأرسل الى الأمير فخر الدين المعني يطلب التحالف معه ، وتم ذلك بوساطة كيوان ، أحد كبار انكشارية دمشق وصديق فخرالدين • واجتمع الحليفان عند نبع العاصي ، ثم سارا لاحتلال طرابلس ومحاصرة دمشق ، حيث لجأ يوسف باشا سيفا ، واخذ يجمع القوات العثمانية من جديد • واحتلت قوات علي باشا مدينة طرابلس ، باستثناء القلعة ، ثم توجه الحليفان نحو البقاع ، فمرا ببعلبك، ونصبا عليها يونس الحرفوش ، الذي عارضا به الفرع الحرفوشي الآخر الذي يتزعمه موسى الحرفوش ، المؤيد ليوسف باشا سيفا • وكان أحمد شهاب ، حاكم وادي التيم ، يؤيد الامير فخر الدين وعلي باشا •

وحين وصلت قوات علي باشا وفخر الدين الى منطقة العراد ، قرب دمشق ، خرجت العساكر الشامية لقتالها ، وتخلف ابن سيفا متظاهراً بمرضه • ودبت الخيانة في صفوف العساكر الشامية،فهزموا في القتال الذي جرى في العراد في ٢٧ جمادى الاول ١٠١٥/٣٠ ايلول ١٦٠٦ ، وهرب بعضهم الى قلعة المزيريب ، ولجأ آخرون الى دمشق • وقد اعتصم أهل دمشق ضمن أسوار المدينة ، وتقدم علي باشا وفخر الدين بقواتهما ، فأقاما في المزة • ووقع النهب من قبل عساكرهما في أطراف دمشق ،وأصاب ذلك خاصة مناطق الصالحية وقبر عاتكة والشويكة وباب مصلى والقبيبات •وكان يوسف باشا سيفا قد هرب من دمشق ، ولم يمكنهأهلها من ذلك الا بعد أن دفع لهم مئة الف قرش • فخرج الآن بعض أعيان دمشق للتفاوض مع علي باشا وفخر الدين ، وذكروا لهما هرب يوسف باشا ، وبرفقته موسى

الحرفوش • وانهما قصدا حصن الأكراد ، حيث الأمير محمود بن سيفا • وقد ذكر علي باشا ، أثناء المفاوضات ، انه لولا لجوء عدوه يوسف باشا سيفا الى دمشق لما قصد اليها • وبالفعل ارتد عنها[1] حين علم بهربه وبعد أن دفع له الدمشقيون المئة الف قرش التي أخذوها من ابن سيفا • وبموجب هذه المصالحة تقرر اعطاء عشرين ألف قرش الى فخر الدين ، وقد اقتطع منها مبلغ اثني عشر الف قرش ، لقاء ما تأخر عليه من مال الميري في منطقة بعلبك ، ودفع له ثمانية آلاف قرش أخذت ، كما يقول نجم الدين الغزي[2] ، من مال كان مودعاً في قلعة دمشق لبعض الناس • ثم افترق الحليفان ، اثر هذا الانسحاب ، فتوجه فخر الدين الى بلاده ، وسار علي باشا لحصار حصن الاكراد • وأخيرا تم الصلح بينه وبين يوسف باشا سيفا ، وتصاهرت الإسرتان ، وعاد علي باشا الى حلب[3] •

نتساءل هنا : لماذا تراجع علي باشا عن احتلال دمشق ، بعد أن هزم قواتها ، واقام في اطرافها ، في المزة ، وعاثت عساكره في ضواحيها ؟ لا شك أن تفسير ارتداده عنها بخروج عدوه ابن سيفا منها لا ينفذ الى الاسباب العميقة الكامنة وراء ذلك • فلم تكن دمشق ، آنذاك ، لتثبت أمام قوته وقوة حلفائه ، وبشهادة المؤرخ المعاصر البوريني « لو أرادها (أي دمشق) لأوصل نفسه مرادها ، لأنها ما كانت تحمل الحصار يوماً واحداً لقلة ما فيها من زاد »[4]• ان عدم احتلال دمشق من قبل علي باشا ، وهو صاحب الكلمة العليا بين

---

١ ـ يذكر ابن جمعة ، نشر المنجد ، ص ٢٨ أن محمد باشا ابن جنبلاد (كذا !) تولى دمشق سنة ١٠١٤، واستقام بها في سنة ١٠١٥ • ويعلق المنجد في الهامش بأن اسم هذا الباشا، كما جاء في تاريخ القرماني ، هو علي باشا ابن جانبولاد • ويبدو ان هذا الخبر ، من أساسه ، غير صحيح لأن المعاصر البوريني ، الذي نقل عنه المحبي وغيره ، لا يذكر ذلك • ولا يؤيد قول ابن جمعة هذا أي مصدر متوفر آخر •

٢ ـ أنظر : لطف السمر ، ١٨٢ ب •

٣ ـ أنظر حول هذه الأحداث : البوريني ، ج ٢ ، ٢٧١ـ٢٨١ ؛ مخطوط فيينا للبوريني ١٤٩ ب ـ ١٥٢ آ ؛ المحبي ، ج ١ ، ٢٨٧ ، ج ٣ ، ١٣٥ـ١٣٨ ، ٣٠١ـ٣٠٢ ؛ الغزي، لطف السمر ، ١٧٣ آ ، ١٨٢ آ ـ ١٨٣ آ ، ١٨٧ ب ، ٢١٢ ب ؛ الطباخ ، ج ٣ ، ٢٣٠ـ٢٣٦ ؛ الشدياق ، ج ١ ، ١٤٨ـ١٤٩ ؛ المعلوف ، تاريخ فخرالدين ، ٨٠ـ٨٥ ؛ الصفدي، تاريخ الأمير فخرالدين ، ص ٥ـ٦ •

٤ ـ البوريني ، ج ٢ ، ٢٨١ •

حلفائه ، يعتبر نقطة تحول في موقفه السياسي • لا شك أن فتح دمشـق ستكون له مضاعفات هامة في الدولة العثمانية ، وسيثير السلطان ، نظرا لما تتمتع به دمشق من أهمية دينية ، لكونها مركز تجمع الحجاج ، وأهميـة سياسة • كما أن احتلال علي باشا لدمشق سيبعده عن مركز قوته في منطقة كلس ـ حلب • وفي الحقيقة ، فان علي باشا عرض الصلح مرتين عـلى سلطات دمشق : الاولى حـين كان في أطراف حمص ، بعد هزيمته لابن سيفا في حمـاة ، وقد توسط في أمـــر الصلح الامير موسى الحرفوش ، أمـير بعلبك ، وعرض شروط علي باشا على والي دمشق،وتتلخص باعطاء حوران للشيخ عمر شيخ بدو المفارجة ، واعطـاء البقاع لابن الفريخ منصور بن بكري[1] ، وارجاع كيوان ، كبير الانكشارية ، الى دمشق[2]• وقد رفضت هذه الشروط ، ولا ندري هـل كان تحقيقهـا سيخدم مصلحة علي باشا أو مصلحة حليفة فخر الدين • والثانية حين عرض الصلح على عساكر دمشق قبل اصطدامه بهم في أرض العزاد ، ولكن بعض الغلاة منهم اضـطروه للقتـال[3] •

ومن الأسباب الاخرى التي يبدو أنها استمالت علي باشا للانسحاب كون معظم قواته من السـكبان المرتزقة الذين كان هدفهم الرئيسي النهب والسلب•واذا كانوا يصلحون للغزو ، الذي يتفق مع أهدافهم،فلن يفيدوا كثيرا في تدعيم حكم علي باشا في مدينة كدمشق التي روع سـكانها مـن تعدياتهم في أطرافها • ويبدو أيضا ان علي باشا لم يعد متحمسا لتحالفه مع فخر الدين ، بدليل انهما افترقا في البقاع بعد ارتدادهما عن دمشق •وربما كان فخر الدين ، وهو صاحب امارة متوارثة ، قد خشي من تمادي علي باشا في محاربة قوات السلطان ، وأراد تحاشي تهمة الثورة معـه • وربما كان فخر الدين قـد خشي ايضا ازدياد قوة علي باشا ، في منطقة قريبة منه ،

---

١ ـ يبدو أنه من أسرة الأمير منصور بن فريخ الذي قتل في سنة ١٠٠٢ •
٢ ـ أنظر : البوريني ، مخطوط فيينا ، ١٥٠ ب ـ ١٥١ آ •
٣ ـ البوريني ، جـ ٢ ، ٢٧٥ ؛ المحبي ، جـ ٣ ، ١٣٦ •

واعتبر ذلك تهديدا له ، لا سيما وانه اذا نجح علي باشا في تسلم حكم ولاية الشام فسيكون فخر الدين تابعا له ، بصفته أمير الشوف والبقاع وبلاد صفد التي كانت تتبع ولاة الشام .

ولعل أهم سبب جعل علي باشا يقرر الانسحاب هو عدم رغبته الاشتراك في مغامرات بعيدة عن مركز قوته في منطقة حلب ، الذي كان مهدداً آنذاك ، بقوات السلطان . وربما يفسر هذا الامر تصالحه ، فيما بعد ، مع يوسف باشا سيفا ، ومصاهرته معه ، لحماية حدوده من الجنوب . وقد زاد هذا الاتفاق من نفوذ يوسف باشا ، لانه يعتبر تحولا في سياسة علي باشا تجاه فخر الدين المعني . وتقاسم النفوذ في بلاد الشام كل من علي باشا ، الذي عاد الى حكم حلب وامتدت سلطته حتى حمص ، ويوسف باشا ، الذي امتدت سلطته على حمص والمنطقة في جنوبها وغربها ، ولكنه كان عملياً تحت نفوذ علي باشا . ودام الامر كذلك مدة سنتين الى أن فرغت الدولة العثمانية من حروبها في المجر ، ووقعت مع النمسا معاهدة صلح في سيتفاتورك (Sitvatorok) في ١١ تشرين الثاني ١٦٠٦[١] ، فجهزت جيشا بقيادة الصدر الاعظم مراد باشا للقضاء على علي باشا جانبلاط وعلى ثائرين آخرين أقل شأنا في منطقة حلب – سيواس . وبعد أن تغلبت القوات العثمانية على الثائرين الصغار اصطدمت بقوات علي باشا في ٢٧ جمادى الثاني ١٠١٦/١٩ تشرين الاول ١٦٠٧ في منطقة مرعش ، فهزم علي باشا ، رغم النجدات من السكبان التي تلقاها من ابن سيفا وفخر الدين . وقد تفوق مراد باشا بسبب استخدامه المدافع واحكامه الخطط الحربية . وتمكن علي باشا من الفرار ، ودخل مراد باشا حلب . وقد قضى والي الشام سليمان باشا (ويلقب كجك سليمان) على قوات الثائرين من السكبان الذين هربوا باتجاه الشام وروعوا سكانها .

---

١ – انظر :

E. Creasy, *History of the Ottoman Turks*, reprinted by Khayats, Beirut, 1963, p. 239.

أدت هزيمة علي باشا الى اضطراب ميزان القوى في بلاد الشام • فقد هب عساكر دمشق لنجدة مراد باشا ، بينما تباطأ فخر الدين ويوسف باشا سيفا في مساعدته • وحين تيقنا من هزيمة علي باشا قدما الى مراد باشا المساعدة والهدايا • واكتفى احمد بن قانصوه حاكم عجلون والكرك ، وأحمد بن طراباي حاكم اللجون ، وفريدون بك حاكم نابلس وأمير قافلة الحج آنذاك، وفروخ حاكم القدس، وابراهيم بن طالو حاكم تدمر بتقديم الاعذار والهدايا للتهرب من ارسال نجدات عسكرية الى مراد باشا • وقد حاول علي باشا جانبلاط الانضمام الى بعض الثائرين في الاناضول ، ولكنه لم يوفق ، فذهب الى استانبول حيث قبل السلطان طاعته ، وعينه حاكماً في روميلية ، ثم قتل بأمر السلطان في حوالي ١٠٢٠/١٦١١-١٦١٢[1] • وقد زال نفوذ الاسرة الجانبلاطية في منطقة حلب، اثر ذلك ، ولجأ بعض أفرادها في ١٦٣٠ الى حكام الشوف المعنيين ، نظرا لما كان بين الاسرتين من الصداقة القديمة ، ودخلوا في خدمتهم[2] • وبعد قرن من ذلك لمع اسم الجانبلاطيين في بلاد الشوف ، واعتنقوا ، مثل سكانه ، المذهب الدرزي ، واستفادوا من ضعف الامراء الشهابيين الذين حكموا جبل لبنان بعد المعنيين •

وبعد القضاء على الثائرين وزعيمهم علي باشا جانبلاط في منطقة حلب، انتقل مركز ثقل الاحداث الى بلاد الشام الجنوبية حيث الثائر الآخر الامير فخر الدين المعني الثاني • ويختلف فخر الدين عن علي باشا والثائرين الآخرين في الشمال بأنه ينتسب الى أسرة أمراء في جبل لبنان اعترف العثمانيون بسلطتهم وبوضعهم الخاص ضمن الامبراطورية • كما أن بعد منطقة فخر الدين ، وانعزالها نسبيا ، وطبيعة ارضها ، بالاضافة الى تاريخها، ساعدت على استمرار الامراء المحليين فيها •

---

١ ـ انظر : المحبي ، جـ ١ ، ٢٨٧ ، جـ ٢ ، ٢١٨-٢١٩ ، جـ ٣ ، ١٣٨-١٤٠ ، جـ ٤ ، ٣٥٧ : البوريني ، جـ ٢ ، ٢٣١-٢٣٤ ، ٢٨٢-٢٩٦ : الغزي ، لطف السمر ، ١٧٤ أ ، ٢٠٠ ب ، ٢٠٧ أ ، ٢١١ أ : الطباخ ، جـ ٣ ، ٢٣٦-٢٣٩ •

٢ ـ الشدياق ، جـ ١ ، ١٥٠-١٥١ •

وتحولت الدولة العثمانية ، بعد صلحها مع النمسا في ١٦٠٦ والقضاء على قوات علي باشا جانبلاط في ١٦٠٧ ، الى مقاومة فخر الدين المعني الذي كان قد مدّ سلطته على البقاع وصفد وبيروت وصيدا وتحالف مع علي باشا. فكلفت ولاة الشام بالتصدي له خوفاً من ازدياد سلطته ، وتهديده لطريق الحج وطريق التجارة مع مصر، وطعنه العثمانيين من الخلف وهم مشغولون في حربهم مع الصفويين . وقد حدث ، في هذه الاثناء ، أن عين لولاية الشام في عام ١٦٠٩ أحمد باشا الحافظ ، وبقي يحكمها حتى ١٦١٤، وجعل همه مقاومة فخر الدين الذي أصبح ، بازدياد نفوذه ، خطراً على سلطته . وقد بدأ احمد باشا الحافظ باثارة الامراء المحليين المعادين لفخر الدين ضده ، فشجع بني سيفا حكام طرابلس ، وأثار الاضطرابات على فخر الدين في منطقة البقاع ـ عجلون الخاضعة لسيطرته ونفوذه . وحاول أحمد باشا الحافظ القضاء على الامير يونس الحرفوش حاكم بعلبك ، والامير أحمد شهاب حاكم وادي التيم ، وهما من حلفاء فخر الدين ، الا أن ارسال فخر الدين النجدة لهما أرهب أحمد باشا .

واشتكى أحمد باشا الحافظ الى استانبول من عمل فخر الدين ، فأرسلت اليه الاوامر بالزحف عليه . وانضم الى أحمد باشا كل من الامير فروخ ، وأحمد بك طراباي حاكم منطقة اللجون ، وحسين بن يوسف باشا سيفا ، وأنجده السلطان بقوات من حلب والاناضول . وحين رأى فخر الدين قوة والي الشام ، وشدة حصاره لقلعة شقيف التي حصنها فخر الدين ، وارساله قوات أخرى ضد الشوف ، خشي القضاء على امارته من أساسها ، فهرب في ايلول ١٦١٣ الى ايطاليا ، حيث بقي مدة خمسة أعوام عند أصدقائه آل مديتشي حكام توسكانيا ، الذين كانت تربطهم بفخر الدين معاهدات تجارية . وخلفه ابنه علي في امارة الشوف ، وكان يساعده عمه الامير يونس المعني . وقد عاد أحمد باشا الحافظ مع قواته الى دمشق بعد

أن أخذ بعض الرهائن من المعنيين ، وفرض عليهم مبلغاً كبيراً من المال[١] •

ولم يتوقف العثمانيون عن محاولاتهم لاضعاف قوة المعنيين بعد هرب فخر الدين • وكان هدفهم هدم قلعتي شقيف وبانياس،حيث تحصنت قوات المعنيين والسكبان المستخدمين لديهم • واذا تحقق للعثمانيين ذلك فمن شأنه أن يقضي على مراكز المقاومة والحصار المعنية • وقامت القوات العثمانية بحملة على بلاد الشوف أحرقت خلالها كثيراً من القرى • وكان حسين باشا بن يوسف باشا سيفا يساعد العثمانيين في قتال المعنيين • وقد عزل أحمد باشا الحافظ عن ولاية الشام في ١٦١٤ ، قبل أن يتم له تحقيق هدفه في احتلال قلعتي شقيف وبانياس • وتعايش ولاة الشام من بعده مع علي بن فخر الدين الذي قبل بدفع مال الميري لهم[٢] • وقد صدرت اوامر من استانبول في ١٦١٤ بانشاء ولاية في صيدا ، تتألف من صنجقي صيدا (مع بيروت) ، وصفد لاحكام الطوق على المعنيين ، ولكن ليس هناك من دليل آخر على ان هذه الولاية قد وجدت بالفعل في ١٦١٤ ، وانها استمرت في الأعوام التالية • ولا تظهر ولاية صيدا بشكل ثابت حتى عام ١٦٦٠[٣] •

خف العداء في استانبول ضد فخر الدين ، أثناء غيابه في ايطاليا ، وذلك بعد عزل عدوه نصوح باشا عن الصدارة العظمى ، وبسبب انشغال الدولة العثمانية بالقتال مع الصفويين • وبوساطة كيوان الانكشاري والامير يونس الحرفوش ، أمير البقاع ، لدى السلطات العثمانية ، عاد فخر الدين الى جبل لبنان في عام ١٦١٨ • وبدأ اثر ذلك بتوطيد سلطته من جديد • فاهتم بتطوير اقتصاديات بلاده ، وخاصة الزراعة ، واستخدم عائدات الجمارك في بيروت وصيدا ، الخاضعتين له ، لتمويل جيشه •

---

١ ـ أنظر حول هذه الأحداث : البوريني ، ج ١ ، ٢٠١ـ٢١٠ ؛ المعلوف ، تاريخ فخرالدين ، ٩٠ـ١١٠ ؛ المحبي ، ج ١ ، ٣٨٠ـ٣٨٢ ، ج ٣ ، ٢٦٦ـ٢٦٧ ؛ الشدياق ، ج ١ ، ٢٩٤ـ٣٠٧ : الصفدي ، ٦ـ٢٥ ، ٢٠٨ـ٢٤١ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ٢٠٨ ب •

٢ ـ البوريني ، ج ٢ ، ٢١١ـ٢١٣ ؛ المعلوف ، تاريخ فخرالدين ، ١٦٦ـ١٧٦ ؛ الشدياق ، ج ١ ، ٣٠٧ـ٣١٨ ؛ الصفدي ، ٢٥ـ٣١ ؛ الغزي ، لطف السمر ، ٢٠٨ ب •

٣ ـ انظر مناقشة ذلك في كتابنا : *The Province of Dumascus*, pp. 2-3

وقد سمح فخر الدين للفرنسيين وللبنادقة ، الذين كانوا يتاجرون تحت علم فرانسا ، بافتتاح مراكز تجارية وقنصليات في صيدا وفي بعض الموانى المجاورة • وكانوا يستوردون من هذه المناطق الحرير ، والمنتجات الزراعية ، ومادة القلي المستخدمة في صناعة الزجاج والصابون ، خاصة في البندقية ومرسيليا • ويصدرون اليها ، بالمقابل ، المنسوجات بصورة رئيسية •

وبدأ فخر الدين من جديد يمد نفوذه على المناطق المجاورة للشوف ، فاصطدم بيوسف باشا سيفا ، والي طرابلس ، الذي قبل ، أخيراً ، الخضوع لسلطة فخر الدين وتقديم المال اليه • وقد مد فخر الدين نفوذه شمالا حتى حدود انطاكية • وتوسع فخر الدين أيضاً في جنوب الشوف وشرقه ، وفرض سلطته من جديد على مناطق صفد ونابلس وعجلون • ولكنه اصطدم بأمير البقاع ، يونس الحرفوش ، الذي خشي توسعه بعد أن كان حليفاً له ؛ فهزمه فخر الدين في معركة جرت في البقاع عام ١٦٢٢ ، واستولى ، إثر ذلك ، على مركز قب الياس الاستراتيجي الذي يسيطر على طريق دمشق – بيروت • وقد أثار يونس الحرفوش والي الشام ، مصطفى باشا ، ضد فخر الدين ، فشنا حملة عليه ، ولكنهما هزما في موقعة عنجر في ١٦٢٣ • وأسر فخر الدين مصطفى باشا ، ثم أطلق سراحه ، وبذلك بلغ نفوذ فخر الدين الذروة • واصطدم فخر الدين ، أثناء توسعه في فلسطين ، بآل طراباي ، حكام منطقة اللجون ، فتغلب علنيهم ؛ كما خضع لنفوذه آل فروخ • وأعطى الامير فخر الدين حكم صنجق صفد لابنه علي ، وصنجق عجلون لابنه حسن ، وصنجق نابلس لابنه مصطفى [1] •

وبعد أن وطد فخر الدين سلطته في هذه المنطقة الواسعة وجد

---

١ – الشدياق ، جـ ١ ، ٣١٨–٣٧٢ ؛ المعلوف ، تاريخ فخر الدين ، ١٦٨–١٨٨ ؛ الصفدي ٦٩–٢٠٦ ؛ المحبي ، جـ ٣ ، ٢٦٧ ، جـ ٤ ، ٢٩٥ ؛ الفزي ، لطف السمر ، ١٨٠ ب ٢٠٦ ب •

العثمانيون انه يصعب عليهم اخضاعه بسبب انشغالهم ، آنذاك ،في صد خطر الصفويين • ولذلك اعترف السلطان مراد الرابع بسلطة فخر الدين ، ومنحه في ١٦٢٤ فرماناً ولاه بموجبه على بلاد عربستان ، من حدود حلب الى حدود العريش ، شريطة أن يقدم فخر الدين مال الميري لخزينة الدولة ، وأن يحافظ على الامن في منطقته • ويقصد بمنطقة عربستان هنا ، كما يرجح ، المناطق الواقعة خارج المدن ، التي كان يقطنها العرب ، أي البدو في مفهوم ذلك الزمن • ورغم ما عرف عن السلطان مراد الرابع من القوة والبأس فقد اضطر ، في أول عهده ، لهذه المصالحة مع فخر الدين ليتفرغ لقتال الصفويين •

وبدأ فخر الدين يعزز الدفاع عن بلاده ، فبنى حصناً في المنطقة بين حلب وانطاكية ، وحصناً آخر في قب الياس في البقاع ، وآخر في بانياس في الجنوب ، وله حصن في تدمر لايزال يعرف باسمه • وكان هدفه من ذلك حماية منطقته من تحول العثمانيين ضده • وقد ازدادت ثقة فخر الدين بقوته ، فاتخذ لنفسه لقب سلطان البر • وعارض في ١٠٤١/١٦٣١ ـ ١٦٣٢ اقامة الجنود السباهية العثمانيين في المناطق الخاضعة لنفوذه ، وكانوا ، آنذاك ، يقضون فصل الشتاء في بلاد الشام ، موزعين على مناطقها، بناء على أوامر السلطان مراد الرابع •ويبدو أن السلطان العثماني قد خشي، في الوقت الذي كان منشغلا فيه بقتال الصفويين[1] ،ان يتشجع فخر الدين على الثورة بعد أن بلغ هذا المبلغ من القوة والتحدي•ولهذا عين أحد الوزراء المشهورين ، ويسمى أحمد باشا (المعروف بلقب كجك أحمد) ، على ولاية الشام ، وأمره بقتال فخر الدين ، ووضع تحت تصرفه قوات كثيرة، من جملتها قوات من مصر[2] ؛ كما حاصر الاسطول العثماني فخر الدين من البحر • وكان فخر الدين قد عطل الموانى ، في المدة الأخيرة ، لكي

---

١ ـ انظر : المحبي ، ج ٤ ، ٣٣٦ـ٣٣٩ •
٢ ـ انظر : ابن ابي السرور ، الكواكب السائرة ، ٤٨ ب •

يمنع وصول الاسطول العثماني اليها ، وبقيت معطلة ، فيما بعد ، حتى أواخر القرن السابع عشر[1] .

انتصر كجك أحمد باشا على الامير علي بن فخر الدين في البقاع في عام ١٦٣٤ ، وفتك بمعظم قواته،وكان هذا بداية النهاية بالنسبة لفخر الدين الذي ارتكب خطأ توزيع القسم الاكبر من قواته على القلاع المبعثرة التي أخذت الآن تنهار الواحدة بعد الأخرى . وحوصر فخر الدين في قلعة جزين ، وعندما رأى عقم المقاومة استسلم الى كجك أحمد باشا ، فاقتيد الى دمشق ، وأرسل منها الى استانبول حيث قتل في ١٦٣٥[2] .

لم تكن نهاية فخرالدين نهاية حكم المعنيين في جبل لبنان ، اذ بقي هؤلاء يحكمون حتى ١٦٩٧ . ولكن مما لاشك فيه أن القضاء على فخر الدين قد أضعف أسرته كثيراً ، وأضعف بالتالي امارة جبل لبنان . وأهم ما يذكر عن حكم فخر الدين استغلاله ثروات بلاده ، في سبيل اقامة جيش قوي وامارة موطدة ، وتسامحه تجاه المذاهب المختلفة ، وخاصة الموارنة ، الذين لجأ اليهم اثر وفاة أبيه ، في الفترة بين ١٥٨٤ – ١٥٩١ . ونتيجة لسياسة التسامح هذه حدث تمازج بين السكان ، وانتقل كثير من الموارنة الى جبل لبنان الجنوبي . وأدى هذا ، بصورة غير مباشرة ، بالاضافة الى عوامل اخرى ، في أواسط القرن التاسع عشر ، الى الاضطرابات المذهبية المعروفة في جبل لبنان التي بدأت ، في الاصل ، بثورات الفلاحين ، من مختلف المذاهب ، ضد الاقطاعيين الذين كان معظمهم من الدروز في لبنان

---

١ ــ أنظر :

(Abbé) Giovanni Mariti, *Travels through Cyprus, Syria, and Palestine,* translated from Italian, 3 Vols., London, 1791-2, see Vol, II, pp. 87-88.

انظر ايضاً :

C. F. Chasseboeuf, Comte de Volney, *Voyage en Egypte et en Syrie,* ed. Jean Gaulmier, Paris, The Hague, 1959, p. 298,

٢ ــ أنظر : الشدياق ، جـ ١ ، ٣٦٣ــ٣٧٢ : المعلوف ، تاريخ فخرالدين ، ١٨٨ــ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٣٠٢ : الصفدي ، ٢٤٢ــ٢٨٩ : المحبي ، جـ ١ ، ٣٨٥ــ٣٨٨ ، جـ ٣ ، ٢٦٧ــ٢٦٨؛ ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٣٢ : انظر ايضا : Ismail, pp. 8-9, 57-165

الجنوبي • ولكن وجد ، في الداخل والخارج ، من استغل هذه الثورات ، وحرفها عن غرضها في التحرر من الاقطاع • وكان أيضا من نتائج تسامح فخر الدين وصداقتـه مع آل مديتشي أن تشجعت الارساليات التبشيريـة الأجنبية على توسيع أعمالها في جبـل لبنـان •

وقد أدى القضاء على فخر الدين الى حدوث شبـه فراغ سياسي في جبل لبنان وفلسطين • ولم يستطع أي أمير محلي أن يملأ هذا الفراغ الى أن سيطر ظاهر العمر في القرن الثامن عشر على فلسطين ، وطغى بنفـوذه على أمراء جبل لبنان والولاة العثمانيين • وفي هذه الأثناء تمتع ولاة الشام بكثير من النفوذ في هذه المناطق ، وشاركهم في ذلك ، بعد سنـة ١٦٦٠ ، ولاة صيدا • والجدير بالملاحظة أن فخر الدين قد أضعف ، أثنـاء حكمـه ، الامراء المحليين من آل فريخ ، وآل فروخ ، وآل طراباي ، وأبناء قانصوه الغزاوي وغيرهم • وحين قضي عليه كان بعض هـذه الاسر الحاكمة قد تلاشى على يديه ، وكان بعضها الآخر في طريق الانحلال بتأثيره • واذا دام نفوذ بعضها لفترة اخرى فمرد ذلك الى القضاء على فخر الدين •

وقد اثر الصراع على النفوذ بين الامراء المحليين ، بعضهم مع بعض ، وبينهم وبين ولاة الشام ، على تعيين أمراء قافلة الحج وتنوع هويـاتهم • وكان الامراء المحليون يعينون ، منذ الربع الاخير للقرن السادس عشر ، أمراء على قافلة الحج[1] ، نظراً لتمكنهم من توطيد سلطتهم ، ولقـدرتهم على تأمين سلامة قافلة الحج من البدو • وكانوا ينفقون من أموال الميري التي يجمعونها من مناطقهم ، بصفتهم ملتزمين ، على تمويل قافلة الحـج

---

١ ـ انظر ايضاً : الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ٣ ، ٢٠١ ؛ المحبي ، ج ١ ، ١٨٧ـ١٨٩ ، ج ٢ ، ٤١٧ ، ج ٣ ، ٢٧١ ، ٢٢٩ ، ج ٤ ، ١٠٨ـ١١٠ ، ٤٢٦ـ٤٢٧ ؛ البوريني ، ج ١ ، ١٩٢ـ٢٠٢ ، مخطوط فيينا ، ١٢٣ ب •

والجردة[١] التي كانت تخرج لملاقاة الحجاج ، والتي كانوا يعينون ، في هذه الفترة ، أمراء عليها[٢] .

وبعد ضعف الامراء المحليين على يدي فخر الدين ، دخل الى ساحة المنافسة على امارة الحج انكشارية دمشق ، الذين كانوا ، في ذلك الوقت ، طائفة متنفذة . ويتفق هذا مع الخط العام ، آنذاك ، في ملء الفراغ السياسي في بلاد الشام من قبل السلطات المتنفذة في دمشق ، مثل الولاة ، وزعماء الانكشارية الذين كانوا ، بدورهم ، يتصارعون مع الولاة على النفوذ . ورغم أن بعض انكشارية دمشق عينوا الآن أمراء للحج الا أن بقايا الامراء المحليين ، الذين احتفظوا ببعض السلطة اثر القضاء على فخر الدين ، استمروا يعينون ، بشكل متقطع ومتناقص ، أمراء للحج . ويعكس هذا المصاعب التي لاقاها انكشارية دمشق (الذين عرفوا باليرلية) في توطيد نفوذهم .

وبازدياد ضعف الانكشارية ، بعد البطش بهم في ١٦٥٩ ، عين موظفون عثمانيون ، من الروم ، أمراء على الحج . وكان واحدهم يعطي عادة ، مثل الانكشارية ، حكم صنجق أو أكثر في فلسطين بمناسبة تعيينه لمنصب أمارة الحج . والهدف من ذلك ، كما يبدو ، تأمين مورد ومكان لامراء الحج هؤلاء ، وتمكين الدولة من جمع مال الميري من أنحاء ولاية الشام للانفاق على قافلة الحج . ويدل أيضا تعيينهم حكاما على هذه الصناجق على محاولة الدولة ملء الفراغ الذي تركه ضعف أو تلاشي نفوذ الامراء المحليين . وسنرى أهمية ونتيجة ذلك حين معالجتنا للفترة التالية .

واعترف العثمانيون ، بعد القضاء على فخر الدين ، بالامير علي غلم

---

١ ـ الجردة ، في الأصل ، المؤونة التي كانت تحمل من دمشق الى الحجاج أثناء عودتهم من الحجاز . وحين بدأ البدو يهاجمون الجردة اضطر المسؤولون الى حمايتها ، وبالتدريج أطلق تعبير الجردة على القافلة التي كانت تخرج من دمشق لتموين وحماية الحجاج العائدين؛ أنظر تفاصيل أخرى عن الجردة في كتابنا : *The Province of Damascus*, pp. 65-68 .

٢ ـ أنظر : حيدر احمد شهاب ، تاريخ الأمير حيدر احمد الشهابي ، نشره نعوم مغبغب ، القاهرة ، ١٩٠٠ـ١٩٠١ ، أنظر ص ٦٥١ ، ٦٧٧ـ٦٧٩ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٩٨ ؛ البوريني ، ج ١ ، ٢٠٥ ؛ المحبي ، ج ١ ، ١٨ .

الدين ، من الحزب اليمني ، أميرا على الشوف ، وبالتالي على جبل لبنان • وكان علي هذا قد ساعد العثمانيين ضد عدوه فخر الدين ، الذي تزعم الحزب القيسي • ولكن الامير ملحماً المعني ، الذي خلف عمه فخر الدين ، لجأ الى الشهابيين في وادي التيم ، فساعدوه مع القيسية ، الذين تكتلوا لطرد اليمنية ، واسترجع مركزه أميراً على الشوف وعلى جبل لبنان في عام ١٦٣٥ • واستمر العثمانون يؤيدون آل علم الدين زعماء اليمنية ضد المعنيين لاضعافهم • وبقيت المشاحنات قائمة طوال القرن السابع عشر بين المعنيين الذين أيدهم الشهابيون الاقوياء في وادي التيم وبين آل علم الدين الذين أيدهم ولاة دمشق • ومما تجدر الاشارة اليه أن السلطة التي بلغها فخر الدين قد زادت من أهمية منصب أمير الشوف • ولكن خلفاء فخر الدين المباشرين لم يستطيعوا ، نظراً للظروف المحيطة بهم ، بلوغ المستوى نفسه من النفوذ الى ان رقي امارة جبل لبنان الامير بشير الشهابي الثاني الذي حكم من ١٧٨٨ الى ١٨٤١ •

وكان الصدر الأعظم محمد باشا كوبريلي مهتماً ، في هذه الأثناء ، بالقضاء على الفتن في الدولة العثمانية • وبعد أن قضى على تمرد أبازه حسن باشا في حلب ، وعلى تمرد انكشارية دمشق ، عين ابنه أحمد باشا كوبريلي والياً على دمشق في ١٦٦٠ ، وأمره باخضاع الشهابيين وحلفائهم المعنيين ، ففعل ذلك ، وطرد أمراء الأسرتين ، بمساعدة آل علم الدين وآل طراباي • وعاد آل علم الدين الى حكم جبل لبنان • وأنشئت ولاية صيدا ، في هذه الأثناء ، من صنجقي صيدا (مع بيروت) ، وصفد ، لتشديد الرقابة على الجبل • ولم يبق آل علم الدين في حكم جبل لبنان فترة طويلة • وفي عام ١٦٦٦ تغلب عليهم الامير المعني أحمد بن ملحم بمساعدة القيسية ، ففر آل علم الدين الى دمشق • وعاد الامير أحمد الى امارة الشوف وجبل لبنان ، وبقي في منصبه حتى موته في ١٦٩٧ • وقد أعلن الولاء للدولة العثمانية ، وقدم

لها مال الميري بانتظام[1] • وبموته انقرضت السلالة المعنية ، وحلت الأسرة الشهابية مكانها •

وعلى غرار ثورات الأمراء في بلاد الشام ، ظهر ، في أواخر القرن الخامس عشر ، ثائرون محليون ، في منطقة البصرة ، استغلوا القبائل البدوية ، وقواتهم الخاصة ، وأحياناً القوى الصفوية ، لتوطيد نفوذهم • وكان أبرز هؤلاء الثائرين السيد مبارك وأفراسياب •

ثار السيد مبارك ، حاكم الحويزة وأمير بدو المشعشعين ، في منطقة البصرة ، في عام ١٥٩٧/١٠٠٦ مستغلا ضعف الدولة • وأيده البدو وبعض الفرس المقيمين في منطقته • وامتد نفوذه على أنحاء البصرة وسواحل الأحساء ، بما في ذلك الموانى التجارية • ولكثرة ما لحق بالسكان المحليين من ضرره وجماعته ، فقد توجهوا بنداءات النجدة الى كل من الشاه الصفوي والسلطان العثماني • ويدل هذا على عدم اهتمام السكان بهوية الحاكم الذي يستطيع اقامة العدل والأمن • ويذكر أحد المصادر أن الدولة العثمانية طلبت الى الشاه الصفوي أن يتدبر أمر السيد مبارك • ولهذا الطلب ، ان صح ، دلالته ، لأنه يشير الى نفوذ الصفويين في جنوبي العراق ، ويدل أيضاً على انشغال العثمانيين في مشاكل أخرى كانت تجابههم ، مثل الحرب مع النمساء وثورات الجلالية في الأناضول • ومهما كان الأمر ، فالنفوذ الصفوي في العراق حقيقة واقعة ، وكل ضعف للنفوذ العثماني يفيد منه الصفويون •

عهد السلطان العثماني ، في أوائل رمضان ١٠٠٦/ النصف الأول من نيسان ١٥٩٨ ، الى حسن باشا الطوبال بولاية بغداد وبرئاسة الجيوش الموجهة لقتال السيد مبارك • ولا نعرف شيئاً عن الحملة بعد ذلك ، ولكن يبدو أن السيد مبارك استمر لعدة سنوات في زعامته المحلية ، تحت حماية الصفويين ، بدليل ان العثمانيين اشترطوا على الصفويين ، في الصلح الذي عقدوه معهم

---

١ ـ أنظر : المعلوف ، تاريخ فخرالدين ، ٣٠٣ـ٣٠٥ ؛ الشدياق ، جـ ١ ، ٢٧٢ـ٢٨١ ؛ المحبي ، جـ ١ ، ٣٥٣ ، جـ ٤ ، ٤٠٨ـ٤٠٩ •

في عام ١٦١٣ ، احترام الحدود التي كانت أيام السلطان سليمان القانوني وعدم مساعدة السيد مبارك ، والاعتراف بتبعيته الى بغداد • [1] ويفسر طلب العثمانيين بأن يكون السيد مبارك تابعاً الى بغداد ، وليس البصرة ، التي أقام نفوذه في منطقتها ، بسيطرة زعيم آخر على البصرة ، في هذه الاثناء ، هو علي باشا ابن افراسياب ، الذي يمثل سلالة حاكمة فيها • وكان افراسياب قد قضى على نفوذ السيد مبارك وسيطرته في القسم الشرقي من شط العرب ، ومنعه من جباية الضرائب في تلك المنطقة •

وتذكر المصادر أن والي البصرة العثماني قد عجز ، في عام ١٠٠٥/١٥٩٦ ، عن دفع مرتبات الجند ، فباع البصرة لأفراسياب بالمال ، شريطة الابقاء على اسم السلطان العثماني في الخطبة ، وكان افراسياب كاتباً للجند في البصرة آنذاك • واختلف حول أصله ، فمن قائل إنه ينتسب الى الدير ، وهو موضع شمالي البصرة ، والتسمية نسبة الى نهر الدير ، من أنهار البصرة ، ومن قائل إنه ينحدر من سلاجقة الروم ، وان أهل الدير أخواله [2] • ويبدو أن النسبة الأخيرة قد نشأت بعد اشتهاره ، لربطه بجذور تاريخية مشهورة •

وقد تقرب افراسياب من الأهلين ، فوفر لهم الاستقرار والعدل • ثم قضى على نفوذ الامراء المجاورين ، بما فيهم السيد مبارك ، حاكم الحويزة ، الذين انتعشوا بسبب ضعف حاكم البصرة العثماني ، وسيطر على معظم منطقة الجزائر ، الممتدة بين قرنة والعمارة ، والمحصورة بين دجلة والفرات • ويبدو أن السيد مبارك عاد الى الاشتهار في عهد علي باشا ابن افراسياب الذي خلف أباه في حكم البصرة • وكانت وفاة أفراساب في عام ١٠١٢/١٦٠٣ ، بعد حكم دام سبع سنوات •

وامتد نفوذ علي باشا ابن افراسياب ، حاكم البصرة ، على جميع

---

١ ـ أنظر العزاوي ، جـ ٤ ، ١٤٠ـ١٤٢ ، ١٦٤ •

٢ ـ أنظر : فتحالله بن علوان الكعبي ، زاد المسافر ولهفة المقيم والحاضر فيما جرى لحسين باشا ابن أفراسياب ، مخطوط في المتحف العراقي ببغداد ، (غير مترقم في الاصل ، والترقيم هنا حسب تتالي الصفحات) ، أنظر الاوراق ، ٣ آ ـ ٣ ب •

الجزائر • كما أنه احتل كوت معمر ، التابع لوالي بغداد ، وكوت الزكية من حسن بن النائب ، وربما كان تابعاً لبغداد أيضاً • وأفاد علي باشا من انشغال العثمانيين بثورات محمد الطويل وبكر الصوباشي في بغداد ، ومن انشغال الصفويين في المحافظة على بغداد بعد احتلالهم اياها في عام ١٦٢٣ ، وصدهم الحملات العثمانية المتكررة لاسترجاعها ، فزاد منطقته اتساعاً ونفوذه عمقاً ، مما أثار مخاوف كل من الشاه عباس وصفي قولي خان ، والي بغداد الصفوي (١٦٢٣ — ١٦٣١) ، فوجها حملة ضده ، بقيادة إمام قولي خان ، في عام ١٠٣٦/١٦٢٧ ، استمرت تحاصر البصرة حتى عام ١٠٣٨ ، حين توفي الشاه عباس ، وارتد الصفويون • ويعزو الكعبي[1] ثبات علي باشا في البصرة الى حب الرعية له وعدم وقوع الخيانة في صفوفه • ولم يعد الصفويون ، في فترة حكمهم بغداد (١٦٢٣ — ١٦٣٩) ، الى مهاجمة البصرة مرة أخرى • وكل ما قاموا به ، جنوبي بغداد ، هجومهم على الحلة واحتلالها في عام ١٠٤٠/١٦٣٠[2] •

وقد تسامحت الدولة العثمانية بحكم آل افراسياب في البصرة لانهم اعترفوا بسلطتها اسمياً، كما أنهم كانوا يمدونها بالمساعدة ضد الصفويين[3] • ورغم اخراج العثمانيين الصفويين من بغداد ، في عام ١٦٣٩ ، فقد استمر آل افراسياب في حكم البصرة والمناطق المحيطة بها حتى القرنة ، وذلك لانهم اقاموا الاستقرار في المنطقة ، وحموا مداخل الخليج من هجمات البرتغاليين والامراء المحليين ، وامنوا سلامة التجارة فيه • وكانت مخاطر ازالتهم اكثر من فوائد التخلص منهم • ولكن النزاع ضمن اسرة افراسياب بدأ يستفحل في اعقاب وفاة علي باشا وحلول ابنه حسين باشا مكانه ، في عام ١٦٥١ ، مما اثار حسد افراد آخرين من الاسرة • واستغل العثمانيون الفرصة فأيدوا مطالباً بالحكم ضد آخر ، ضمن أسرة أفراسياب • وصادف

١ — زاد المسافر ، ٣ ب ، ٤ آ ؛ وانظر ايضا : العزاوي ، جـ ٤ ، ١٩٥—١٩٦ •
٢ — العزاوي ، جـ ٤ ، ٢٠٢ •
٣ — انظر مثلاً : العزاوي ، جـ ٤ ، ١٨٩ ، جـ ٥ ، ٤٤ •

في هذه الاثناء ، وصول آل كوبريلي الى الصدارة العظمى في استانبول ، فأعادوا للدولة هيبتها ، في كثير من الولايات العربية ، وقضوا على اسرة أفراسياب في عام ١٦٦٧[1] . وهكذا خضعت البصرة من جديد لنفوذ العثمانيين ، الذين سيطروا بذلك على الطريق التجارية الرئيسية بينها وبين حلب ، بعد استعادتهم حكم بغداد من الصفويين في عام ١٦٣٩ .

وفي حين كان الأمراء الذين قاموا بالثورات في بلاد الشام والعراق يمثلون عناصر محلية ، تقوم سلطتها على أسس بدوية أو اقطاعية أو مذهبية ، فان العناصر التي قامت بالثورات في مصر ، في القرن السابع عشر ، كانت مملوكة بمعظمها ، ولعبت العناصر المحلية فيها من أولاد العرب دوراً ثانوياً بسبب معارضة المماليك لها . وقد رأينا كيف ان العساكر الثائرين ، الذين سيطر عليهم المماليك ، قد عارضوا انخراط اولاد العرب في الجيش واقتناءهم المماليك البيض . واستمر هذا الحظر ، بوحي من المعارضة المملوكة ، قائماً فيما بعد . وحتى حين أصيب المماليك بنكسة أخرى . كما حدث مثلاً في أعقاب القضاء على نفوذ الطائفة الفقارية في مصر في عام ١٦٦٠ ، فاننا نجد السلطة العثمانية ، التي تقوّت آنذاك ، في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي ، قد شدّدت قبضتها ضد ازدياد النفوذ المحلي ، وارسلت امراً الى مصر ، في شوال ١٠٧١ / حزيران ١٦٦١ باخراج أولاد العرب من الطوائف العسكرية[2] . وبانتهاء هذه الطفرة من القوة العثمانية ، في عهد آل كوبريلي ، في الربع الأخير من القرن السابع عشر ، اشتد الانحطاط في السلطة العثمانية ،واستغل ذلك المماليك الذين اشتهروا كثيراً في القرن الثامن عشر ، واصبحوا حكام مصر الفعليين ، وطغوا على نفوذ أولاد العرب . وحتى القبائل البدوية ، التي مارست نفوذاً كبيراً في مصر في أعقاب الفتح العثماني ، في الثورة على العثمانيين ، أو في الولاء لهم ،

---

١ ــ العزاوي ، ج ٤ ، ١٩٥ــ١٩٦ ، ج ٥ ، ٢١ ، ٣١ ، ٤٤ ، ٤٦ــ٥٠ ، ٧٥ــ١٠٠ ؛ وانظر أيضاً : Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, pp. 134, 138, 140-2.

٢ ــ انظر : مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٥١ ب ؛ احمد شلبي ، ٢١ أ .

وفي تقديم الدعم الثائرين على السلطة العثمانية او في معارضتهم ، فانها لم تستفد من الضعف العثماني ، في القرن السابع عشر ، كما استفادت مثيلاتها في العراق ، والى حد ما في بلاد الشام ، في ذلك القرن ، بل نرى السلطة العثمانية تعزل اكثرها نفوذاً ، وهي قبيلة هوارة ، عن امارة الصعيد ، التي اعترفت لها بها في اعقاب الفتح العثماني ، وتقيم موظفاً عثمانياً ، برتبة بك ، حاكماً على الصعيد ، في عام ١٥٧٦ ، وتجعل مركزه مدينة جرجا •

وهكذا ، فعوضاً عن ازدياد النفوذ المحلي لاولاد العرب ، كما حدث بالنسبة لاسميائهم في الشام ، منذ القرن السابع عشر ،ازداد نفوذ المماليك• وكان هؤلاء ، منذ مطلع الحكم العثماني ، يشغلون مراكز هامة في ولاية مصر ، مثل وظائف قائم مقام ، ودفتردار ، وأمير قافلة الحج المصري ، وأمير الخزنة ، وحاكم الصعيد ، وسردار (اي قائد) حملة • وسبق للمماليك ان ثاروا مرتين : الاولى بزعامة اينال السيفي وجانم السيفي ، في عام ١٥٢٢[1] ، والثانية من خلال العساكر،في الفترة بين ١٥٨٩ و ١٦٠٩[2] • وعادوا الى الظهور ، بعد ذلك ، من خلال رتبة الصنجقية[3] • ويتمتع أفراد هذه الرتبة بمرتب ، وبلقب بك ، ويعرف واحدهم باسم أمير • و منذ أن اشتهر الصناجق ، سياسياً وعسكرياً ، في مصر ، حين اتهموا بتدبير مقتل والي مصر محمود باشا في ٢ كانون الاول ١٥٦٧ ، واشتركوا في حملة سنان باشا على اليمن في عام ١٥٦٩ ، فقد برز بينهم المماليك ، بدليل اسم داماي بك ، الذي اسهم في العمليتين •

وقد عمل الصناجق ، في فترة توطيد سلطتهم ، الى جانب الولاة ، ولكن بعضهم كان على استعداد للعمل خارج نطاق التعاون مع الولاة ، كما حدث ، مثلاً ، حين وقف عدد منهم الى جانب العساكر الثائرين • وكان هذا بداية استقلال الصناجق في الرأي عن الولاة واتخاذ موقف خاص بهم

---

١ ــ انظر ص ٨٥ •
٢ ــ انظر ص ١٢٩ •
٣ ــ انظر : ص ١٠٠ •

كقوة قائمة بذاتها • وبعد القضاء على العساكر الثائرين ، في عام ١٦٠٩ ، حدث بعض الفراغ السياسي ، فملأه الصناجق كمنافسين ،ومن ثم كاعداء، للولاة • وقد استفادت رتبة الصنجقية من انتساب المماليك الاقوياء اليها ، وازدادت قيمتها بازدياد قوتهم ، واصبح معظم الصناجق ، في هذه الفترة ، من المماليك • واذا كان المماليك الاقوياء قد رفعوا قيمة الصنجقية بانتسابهم اليها ، فانهم أدخلوا اليها أيضاً انقساماتهم التقليدية ، واستفحل بين الصناجق ــ المماليك، الانقسام الفقاري ــ القاسمي • واستفاد الولاة العثمانيون من ذلك، فضربوا طائفة باخرى ، الى ان تمكنوا من القضاء على الطائفتين ، بين عامي ١٦٦٠ ــ ١٦٦٢ ، وانهارت اثر ذلك قيمة الصنجقية •

وقد حدثت اول مجابهة بين الصناجق وحاكم مصر ، في ذي الحجة ١٠٤٠ / تموز ١٦٣٠ ، في عهد الوالي موسى باشا ، حين قتل واحداً من بينهم ، ويدعى قيطاس بك • وكان هذا مملوكاً ،وعين قائداً لحملة موجهة من مصر الى الجبهة الصفوية • ولكن موسى باشا استولى على الأموال التي جمعها قيطاس بك لتمويل الحملة وصرف النظر عنها • وحين احتج قيطاس بك قتله موسى باشا • فتجمع الصناجق ، وقتلوا اربعة من اتباع الباشا ، وايدهم العساكر ، بينما لعب العلماء دور الوساطة • ثم عزل الصناجق الباشا ، وعينوا قائم مقام مكانه • واعترف السلطان بعملهم ، مما عزّز نفوذهم ، وشجعهم بالتالي على الاستمرار في معارضة الولاة[1] •وقد برز بين الصناجق المعارضين لموسى باشا كل من رضوان بك الفقاري وعلي بك الفقاري وقاسم بك • وشغل الاول منصب امير قافلة الحج المصري باستمرار تقريباً منذ ١٦٣٠ وحتى وفاته في عام ١٦٥٦ ، كما عهد الى علي بك بامارة الصعيد ، واشترك أيضاً مع قاسم بك بمهمات عسكرية في الحجاز وعلى الجبهة الصفوية •

١ ــ انظر حول هذه الاحداث : ابن أبي السرور ، الكواكب السائرة ، ٤١ ب ــ ٤٥ آ ، ٦٥ ب، التحفة البهية ، ٦٩ آ ، ٧٤ ب ؛ احمد شلبي ، ١٤ ب • وانظر : بلاد الشام ومصر ، ٢٦٠ـ٢٦٢ •

ويعتبر رضوان بك بن عبد الله ، وهو مملوك كرجي الأصل ، المؤسس الفعلي لطائفة الفقارية التي تنتسب الى ذي الفقار • وليس هناك من دليل على وجود هذا الأخير ولا على وجود قاسم المؤسس الاسمي لطائفة القاسمية •ورغم ادعاء الجبرتي بانهما كانا اخوين معاصرين للسلطان سليم الأول [1] ، فالثابت أن طائفتي الفقارية والقاسمية اشتهرتا في مصر منذ الربع الأول من القرن السابع عشر ، وان الاولى تميزت باللباس الأبيض ، والثانية باللباس الأحمر ، وكانتا استمراراً لطائفتين ظهرتا في السابق، وهما نصف سعد ونصف حرام • ويوازي هذا الانقسام ما ظهر في بلاد الشام من انقسام بين القيسية التي اتخذت الراية الحمراء ، واليمنية التي اتخذت الراية البيضاء [2] •

وقد كون مماليك رضوان بك الكتلة الرئيسية ضمن طائفة الفقارية ، التي ضمّت ايضاً مماليك آخرين ،ابرزهم علي بك الفقاري حاكم الصعيد• ونتج عن ازدياد اهمية المماليك في مصر ، في هذه الفترة ، ان ازداد جلب المماليك اليها • ورافق هذا الانتعاش في قوة المماليك السياسية في مصر ظهور الكتابات ــ وغالبها لاصحة له ــ لربط هؤلاء المماليك بمماليك السلطنة المملوكية ، واحياناً بقريش او غيرها ، لاسباغ الشرعية والوجاهة عليهم ، وفرض قبولهم الاجتماعي والسياسي على السكان • واشهر هذه الكتابات كتيب مجهول المؤلف عنوانه : قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة من قريش [3] • ويستدل من كلام المؤلف أنه كان يتمتع برعاية الأمير رضوان بك الفقاري ، الذي حمله على كتابة هذا النسب [4] • والهدف من ذلك اثبات العلاقة بين الأمير رضوان بك والسلاطين الشراكسة

---

١ ــ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ٤ اجزاء بولاق ، ١٢٩٧ ، ج ١ ، ٢١ــ٢٣ •

٢ ــ أنظر : بلاد الشام ومصر ، ٢٦٤ــ٢٦٧ •

٣ ــ طبع في القاهرة في عام ١٣١٦ ، (على ذمة محمد افندي حافظ الجركسي الباجي) •

٤ ــ المصدر السابق ، ٢ــ٣ •

المماليك ، وبين هؤلاء وقبيلة قريش•الا أن الأدلة التي استخدمها المؤلف واهية جداً ، مما لا يدع مجالا للشك بأن الكاتب كان يحاول البرهنة على أفكار مسبقة لا تستند الى الواقع • والنقاط التي أثارها المؤلف لها مغزاها، فهو يحاول أن يربط بين رضوان بك ، والشراكسة بشكل عام ، وبين قريش دون غيرها ، وهذا له قيمة هامة • فرواية ابن خلدون عن أصل الشراكسة والتي كانت معروفة آنذاك في مصر تذكر أنهم من سلالة الغساسنة ، ولو كان المؤلف يبحث عن القدم التاريخي فقط لكان اكتفى برواية ابن خلدون • ولكن الغساسنة مسيحيون يمنيون ، وهذا لا يتفق مع منصب رضوان بك كأمير لقافلة الحج المصري ، ولهذا ربط المؤلف أصل رضوان بك بكساء [1] القرشي القيسي • ولعل أهم ما في هذا النسب محاولة الربط بين رضوان بك والسلاطين الشراكسة ، مما يظهر العثمانيين كمغتصبين ، فيما لو قدّر لرضوان بك الاستقلال بأمور مصر • [2]

وفي الحقيقة ، فقد ازداد نفوذ رضوان بك الفقاري الى درجة جعلت ولاة مصر يخشون بأسه ، فأخذوا يتحينون الفرص للايقاع به • وقد نقم عليه والي مصر محمد باشا ، بسبب رفضه قيادة حملة الى الجبهة الفارسية في عام ١٦٣٨ ، ورفض أيضاً قبول تعيينه والياً على الحبش في عام ١٦٣٩ ، واوغر صدر السلطان مراد الرابع ضده • وكانت الدولة العثمانية ، في تلك الأثناء ، قد أثبتت قوتها ، على أكثر من صعيد ، فقتلت فخر الدين المعني الثاني في عام ١٦٣٥ ، واستعادت بغداد من الصفويين ، في عام ١٦٣٩،ولذلك لم تتسامح بظهور مراكز قوة أخرى في مصر ، خاصة وان رضوان بك قد تمتع بنفوذ ضخم بين المماليك وبدعم شعبي كبير • وحين ذهب رضوان بك

---

١ ـ يذكر مؤلف (قهر الوجوه العابسة) ، ص ١٢ و ١٣ . ان كساء القرشي أصابَ بقصبة عين شخص آخر ، فشكاه الى الخليفة ، وخشي كساء العاقبة فسار ليلا ، وهرب الى بلاد الروم • وعندما سئل عنه قيل سرى كساء ، ومن هنا التسمية سراكسا أو جراكسا. كما يزعم المؤلف •

٢ ـ أنظر الدراسة النقدية الهامة لهذا النسب التي قام بها :

P, M. Holt, "The Exalted lineage of Ridwan Bey", *BSOAS*, XXII. 2 (1959) pp. 221-30.

الى استانبول ليشتكي على والي مصر ، سجنه السلطان مراد الرابع ، في عام ١٦٣٩ ، ولم ينقذه الا وفاة السلطان في عام ١٦٤٠ • فعاد الى مصر ، وعين لامارة الحج من جديد • ويصف ابن أبي السرور شعبية رضوان بك التي تبدت عند عودته بقوله : « وما فضل في مصر أحد الا جاء للسلام »[1] ، وفي هذا تجد ضمني لاعدائه ، وخاصة طائفة القاسمية •

وكان زعماء القاسمية قد استغلوا فترة غياب رضوان بك ، وما أشيع عن زوال سلطته ، للتحالف مع بعض العساكر ، ويجمع بين الفريقين الأصل البشناقي • ورغم قبول طائفة القاسمية بالأمر الواقع واستكانتها لزعامة الفقارية ، إثر عودة رضوان بك ، فقد كانت تتحين الفرصة للايقاع بهم • فاتهمت ، في عام ١٦٤٦ ، زعماء الفقارية بأنهم السبب في فتنة أثارها في الواقع فجور الانكشارية • وحين عرض الأمر على السلطان أبرأ ساحة الفقارية الذين كانوا يتمتعون ، آنذاك ، بنفوذ كبير في استانبول • ورد رضوان بك باتهام زعيمي القاسمية ، ماماي بك وقانصوه بك ، بالتلاعب بأموال الدولة ، فقتلا ، مع عدد من أتباعهما ، على يد الصوباشي (قائد الشرطة) قيطاس بك الفقاري •

وحاول حاكم مصر ، محمد باشا ، في عام ١٦٤٧ ، اضعاف الفقارية بأن أمر علي بك الفقاري ، حاكم الصعيد ، الموجود آنذاك مع قواته في القاهرة ، بالعودة الى مركز عمله ، وذلك بغية الانفراد برضوان بك • ثم عزل رضوان بك عن امارة الحج ، وعلي بك عن امارة الصعيد ، وأعد حملة لقتال الفقارية ، الذين أخذوا يتجمعون خارج القاهرة • ولكن قادة الحملة عدلوا عنها بضغط من الفقارية وبحجة عدم جواز ذلك في شهر رمضان • ويدل هذا على مدى ما تمتع به الفقارية من نفوذ • وقد تأكد هذا بوصول أوامر السلطان بتعيين رضوان بك أميراً لقافلة الحج مدى الحياة وابقاء علي بك في امارة الصعيد مدى الحياة أيضاً • ويدل دعم القاسمية

---

١ ـ انظر : ابن أبي السرور . الكواكب السائرة ، ٥٣ آ ، ٥٥ آ ؛ احمد شلبي ، ١١٦ آ ، ١١٧ آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٤٦ آ ، ٤٧ آ •

للحملة ضد الفقارية على ضعف نفوذهم ، بعد مقتل زعمائهم . وقد حاول والي مصر ، أحمد باشا ، في أواخر عام ١٦٥٠ ، الايقاع بين زعيمي الفقارية بأن استحصل على أمر بعزل رضوان بك من امارة الحج وتعيين علي بك ، حاكم الصعيد ، مكانه . ولكن عزل أحمد باشا ، في هذه الأثناء ، زاد من شعبية رضوان بك ، لأن الشعب اعتبر العزل انتقاماً من الله له . وشعر علي بك بضعف مركزه اثر هذا الالتفاف الشعبي حول رضوان بك ، فامتنع عن قبول منصبه ، وعاد الى منصبه في الصعيد .

توفي علي بك الفقاري في عام ١٠٣٦/١٦٥٢-١٦٥٣ ، وخلفه في حكم الصعيد مملوكه محمد بك . وفي نيسان ١٦٥٦ توفي رضوان بك الفقاري . وكان هذا بداية ضعف الفقارية والصناجق بوجه عام . وقد حاول القاسمية ، اثر ذلك ، بزعامة أحمد بك بشناق (المعروف أيضا بلقب أحمد بك بقناطر السباع ، نسبة الى حي قناطر السباع بالقاهرة) ، وبالتحالف مع الوالي العثماني . تأكيد سيطرتهم ضد الفقارية . وقد ظهر بين الفقارية ، إثر موت علي بك ورضوان بك ، زعماء كثيرون تنقصهم الخبرة والتجربة ، وتبهرهم المناصب والنفوذ ، مما جعلهم يصطدمون ببعضهم . ولا أدلّ على ذلك من مجيء محمد بك الفقاري ، حاكم الصعيد ، الى القاهرة وسط تظاهرة قوة ، اذ أحاط به الآلاف من أتباعه ومماليكه ، مما أسخط عليه الصناجق ، بمافيهم الفقارية ، لكثرة تبجحه . وحين استثير بتعيين أحمد بك بشناق ، زعيم القاسمية ، حاكماً على الصعيد مكانه ، واستعد لقتال الوالي محمد باشا المسؤول عن ذلك ، وقف في الصف المعارض له كثير من الفقارية ، مما يدل على أن انقساماً قد حدث في صفوفهم . وهكذا ، فان الفراغ الذي خلفه موت رضوان بك وعلي بك لم يملأ بشخصية قوية . وكان مقتل محمد بك الفقاري ، في القتال الذي حدث ، مشجعاً للولاة والقاسمية على متابعة تحالفهم للقضاء على الفقارية . وتمّ لهم ذلك في موقعة الطرانة في ٢٧ تشرين الاول ١٦٦٠ ، وأبيد معظم الفقارية . وأرّخ ابراهيم الصالحي الحنبلي لهذه الواقعة في مؤلف أسماه : تراجم الصواعق في واقعة الصناجق ، ويقصد بذلك واقعة

الصناجق الفقارية • [١] ويدل هذا التعبير الشامل على أن الفقارية كانوا عماد الصناجق • وهكذا قضي على النفوذ السياسي للفقارية ، ولم يظهروا من جديد حتى أواخر القرن السابع عشر باطار جديد •

كان حلف باشا مصر مع القاسمية مؤقتاً ، وبمجرد ازالة العدو المشترك ، الفقارية ، حاول الباشا القضاء على القاسمية ، وتم ذلك في ٢٦ تموز ١٦٦٢ [٢] • وانحسر نفوذ هذه الطائفة حتى أواخر القرن السابع عشر • وكانت الدولة العثمانية ، آنذاك ، في فترة قوة ، في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي ، وقد تبدت قوتها في أكثر من ولاية عربية • ولكن مما يلفت النظر ، في تاريخ الصراع على النفوذ بين الفقارية والقاسمية ، ان القاسمية كانوا يشتهرون عادة أثناء ضعف الفقارية ، وليس العكس هو الصحيح • ولذلك لم يستغرق القضاء على نفوذ القاسمية أكثر من عامين بعد القضاء على الفقارية • وقد أدى القضاء على نفوذ هاتين الطائفتين الى اضعاف المكانة السياسية للصناجق ، وبالتالي لرتبة الصنجقية • وليس أدل على ذلك من انخفاض خدمة الصنجقية ، وهي القيمة التي يدفعها المرشح للحصول على رتبة الصنجقية ، الى ما يقرب من نصف ، وحتى ثلاثة أرباع ، ما كانت عليه قبل عشرين سنة • وذكر أن عدد الصناجق ومرتباتهم تناقصت أيضاً تبعاً لذلك [٣]• واذا كان المماليك قد رفعوا من قيمة الصنجقية بانتسابهم اليها ، فان القضاء على نفوذ الصناجق يعتبر ، في الوقت ذاته ، قضاء على نفوذ المماليك • وبذلك فشلت محاولة أخرى من المماليك لفرض سيطرتهم في مصر • ومع ذلك ، فسيحاول المماليك ، من جديد ، الوصول الى السلطة ،

---

١ ـ أنظر ورقة ٣ ب من هذا المخطوط ، نسخة المكتبة الوطنية في باريس ، رقم Arabe 1853 وتوجد عدة نسخ عن هذا المخطوط منها واحدة في جامعة Yale ، في الولايات المتحدة ، وتاريخ نسخها هو ١٣ محرم ١٠٧٤/١٧ آب ١٦٦٣ ، بينما تاريخ نسخة باريس هو ٢٧ رمضان ١٠٧١/٢٦ أيار ١٦٦١ • وقد استخدمنا هاتين النسختين ، وأشرنا في الهوامش الى النسخة الاولى فقط بسبب تشابهما • وهناك نسخة أخرى اطلعنا عليها في المكتبة الوطنية في ميونيخ بالمانيا ، برقم Cod. Arab. 415 ، وتاريخ نسخها هو ١٧ شوال ١٠٧٤/١٣ أيار ١٦٦٤ •

٢ ـ انظر حول تفاصيل الاحداث السابقة : بلاد الشام ومصر ، ٢٧١ـ٢٨٠ •

٣ ـ انظر P. M. Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, p. 8, "The Beylicate", p. 219.

وسيتم لهم ذلك في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، مستفيدين من تشتت خصومهم في داخل مصر ومن انحطاط السلطة العثمانية .

ولم يستطع العثمانيون ترويض الأئمة الزيدية في اليمن واخضاعهم لحكمهم ، رغم الحملات المظفرة التي قاموا بها في اليمن ، في عهد ازدمر (بين ٩٥٤/١٥٤٧-١٥٤٨ و ٩٦٣/١٥٥٥-١٥٥٦)، وسنان باشا (١٥٦٩-١٥٧١) ، وحسن باشا ، الذي حكم اليمن خمساً وعشرين سنة (آخر ٩٨٨/١٥٨٠-١٥٨١ و آخر ١٠١٢/١٦٠٤) ، ثم كتخدا هذا الأخير ، سنان باشا ، الذي خلفه في ولاية اليمن ، وبقي فيها ثلاثة أعوام ونصف [١]. وفي عام ١٦١٩ وقع العثمانيون صلحاً مع الامام قاسم الزيدي ، واعترفوا بموجبه بسيادة الزيديين في المناطق التي سيطروا عليها ، ومعظمها في المناطق الداخلية الجبلية . وأظهر الزيديون ، من ناحيتهم ، جبهة شبه موحدة تجلت بمبايعة مؤيد ابن الامام قاسم إماماً عليهم في عام ١٢٦٠ . وبعد فترة من الهدوء دامت ستة أعوام جهد كل فريق خلالها في توطيد سلطته في المناطق التي سيطر عليها ، حاول الزيديون ، في عام ١٦٢٦ ، طرد العثمانيين من المناطق الشمالية . واستفاد الزيديون كثيراً ، في هذه الاثناء ، حين انضم اليهم أمير كوكبان الموالي للعثمانيين . ووجه الأهمية كون هذا الأمير من الأسرة الزيدية ، وقد انشق على الامام الزيدي فوالى العثمانيين . وبارتداده الآن لم يبق للعثمانيين من حلفاء محليين سوى بعض القبائل المتفرقة الصغيرة التي أخذت بالانضمام تباعاً الى الجبهة الزيدية المنتصرة . وفي عام ١٦٢٩ استسلمت صنعاء وتعز للزيديين ، وأرهب ذلك أمير عدن البدوي فأعلن ولاءه لهم . ولم يبق بأيدي العثمانيين سوى زبيد ومناطق تهامة المحيطة بها [٢] . وعبثاً حاول ولاة مصر ارسال النجدات الى اليمن . وامتنع الجنود العثمانيون من السفر اليها ، ونظروا اليها كمنفى ، كما كان الأمر في كثير

---

١ ــ الاحسان ، ٤١ آ .
٢ ــ أنظر : السيد سالم ، ٣٧٨ ، ٣٨٩ .

من الأحيان [1] • وشن العثمانيون حملة جديدة على الزيديين بقيادة والي اليمن قانصوه باشا ، ولكنه هزم ، واضطر لتوقيع الصلح مع الامام الزيدي في عام ١٦٣٠ • وحين تجددت الحرب بين الطرفين ، في عام ١٠٤٣/ ١٦٣٣-١٦٣٤ ، هزم العثمانيون من جديد ، وخرجوا من اليمن في أواخر عام ١٦٣٥ • وكان اليمن بذلك أول ولاية تتخلص من الحكم العثماني • ويعزى ذلك بالدرجة الاولى الى الصعوبات الجغرافية والاستراتيجية التي لاقاها العثمانيون في اليمن ، والى سيطرة الأئمة الزيدية على معظم القبائل • وكانت الدولة العثمانية منشغلة آنذاك باسترجاع بغداد من الصفويين وبالقضاء على الثائرين في مناطق أكثر أهمية وخطورة ، مثل الأناضول ، حيث عاث بقايا الجلالية ، وجبل لبنان ، حيث استفحل خطر الأمير فخر الدين المعني • ولاشك أن انشغال ولاة مصر ، في النصف الأول من القرن السابع عشر ، بثورات العساكر ، ثم بتمرد الصناجق ، ومن وراء ذلك معارضة المماليك الأقوياء لهم ، قد حال دون اهتمامهم بأمور اليمن ، وهم المسؤولون تقليدياً عن تدبر أمورها ، نظراً لأهمية اليمن بالنسبة لأمن مصر ، وكذلك أهمية مصر في منطقة البحر الأحمر والجزيرة العربية • فمن مصر خرجت الحملات العثمانية لاحتلال اليمن والدفاع عنه ضد البرتغاليين وحلفائهم • ومنها أيضاً أرسلت القوات للقضاء على الثائرين في اليمن والحجاز [2] • وبعد أكثر من مائتي عام من انفراد الزيديين بأمر اليمن ، حاول العثمانيون ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، في أعقاب ازدياد المركزية العثمانية ، واصدار قانون الولايات في عام ١٨٦٤ ، استعادة سيطرتهم على اليمن • واستفادوا من تحسن المواصلات ، وخاصة فتح قناة السويس في عام ١٨٦٩ ، ففرضوا سيطرتهم على بعض مدن اليمن الرئيسية في حوالي ١٨٧٠ ، وكان ذلك ضرورة استراتيجية لهم لمجابهة احتلال الانكليز لجزيرة

---

١ – أنظر بشأن محاولات ولاة مصر ، في هذه الفترة ، ارسال النجدات الى اليمن ومعارضة الجنود لذلك ، ابن أبي السرور ، التحفة البهية ، ٥٨ ب ، ٦٩ ب ، الكواكب السائرة ، ٢٩ أ – ٣٠ ب ؛ أحمد شلبي ، ١١ ب – ١٢ ب •

٢ – ومن مصر خرجت ، فيما بعد ، الحملة التي قضت على النفوذ الوهابي ، في عام ١٨١٨ • ومنها أيضا تفاوض الانكليز مع الشريف حسين ، قبيل اعلان الثورة ، في عام ١٩١٦ •

عدن منذ عام ١٨٣٩ • وقد حدثت عدة ثورات ، فيما بعد ، على العثمانيين ، في ١٨٩٢ ، ١٨٩٥ ، ١٨٩٦ ، واستمر العثمانيون يحكمون اليمن حتى عام ١٩١٨ • [1]

أما شمال افريقية فقد اتجهت فيه كل من الجزائر وتونس وطرابلس، أكثر فأكثر ، نحو الاستقلال بشؤونها ، مستفيدين من ضعف السلطة العثمانية في القرن السابع عشر • ولم تعد طائفتا الانكشارية والقراصنة القويتان تكترثان كثيراً بالموظفين العثمانيين ، الذين افتقدوا الدعم المحلي • ولم يحفل الولاة العثمانيون سوى باغناء أنفسهم •

واذا ما استعرضنا تاريخ الجزائر الداخلي ، في القرن السابع عشر ، لوجدناه حافلا بالاضطرابات الدامية • ولم يلعب الباشا العثماني ، فيما عرف بعهد الباشوات (١٥٨٧ — ١٦٥٩) ، أي دور أساسي ، بل اكتفى بالمحافظة على مظاهر السلطة • وكان عليه ، لضمان بقائه ، الموافقة على مقررات ديوان الانكشارية • وكان يصدّر مقرراته الرسمية بالعبارة التالية : « نحن ، الباشا وديوان طائفة انكشارية الجزائر التي لا تقهر » • والباشا الوحيد ، الذي حاول أن يتخلص من وصاية الانكشارية كان خضر باشا ، في عام ١٥٩٦ ، الذي اعتمد ، لتحقيق ذلك ، على الكولوغلي ، المحرومين من الوظائف العامة ، وعلى القبائل المستعدين أبداً للثورة • ورد الانكشارية بأن جردوا الباشوات من كل سلطة • ومارس آغا الانكشارية ، بمساعدة الديوان، جميع السلطات التنفيذية ، في عام ١٥٦٩•ونتج عن تغيير الآغا كل شهرين، كما جرت العادة ، اضطراب كبير في الحالات التي امتنع فيها الآغا عن الاستقالة ، ومن هنا اللجوء الى اغتياله • ويذكر أن الآغوات الأربعة، الذين تعاقبوا في الفترة بين ١٦٥٩ و ١٦٧١ ، وأقاموا ما عرف بعهد الأغوات [2] ، قد اغتيلوا جميعاً من قبل أفراد الطائفة الانكشارية لامتناعهم عن قبول العزل•

---

١ — أنظر : A. Grohmann, *E.I.¹*, s.v. Yaman

٢ — أنظر : فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، ٦٦ •

ولم تشجع هذه الأعمال وجود مرشحين لمنصب الآغا بعد ذلك • واستغل القراصنة هذا العداء بين الأفراد والآغا ، ضمن الطائفة الانكشارية ، وعابوا على الآغا علي ، رابع الأغوات ، ضعفه أمام متطلبات الباشا ، فاغتالوه ، في عام ١٦٧١ ، وأوكلوا سلطته الى داي اختاروه بأنفسهم ، وبدأ بذلك ما عرف بعهد الدايات الذي استمر حتى عام ١٨٣٠ [١] • وقد فقد القراصنة ، في عام ١٦٨٩ ، سلطتهم في اختيار الداي ، وأصبح ذلك في أيدي الانكشارية• ورفض الداي العاشر ، علي جاووش ، استقبال الباشا الذي عينه السلطان ، وأقنع السلطان بمنحه لقب باشا ، وتم ذلك في عام ١٧١١ • وهكذا اغتصب الداي صلاحيات الباشا[٢] • ويعتبر هذا نقطة تحول هامة ، تتفق مع ما جرى في معظم الولايات العربية ، سواء تلك في المشرق العربي أو مغربه ، حيث توطد نفوذ الأسر والقوى المحلية ، مستغلة انحطاط السلطة العثمانية في القرن الثامن عشر •

وعانت تونس أيضاً في القرن السابع عشر ، من شدة تسلط العساكر وسيطرة ديوان الانكشارية ، بزعامة الداي [٣] • وتمكن الداي عثمان (١٥٩٨ — ١٦١٠) ، [٤] من فرض سيطرته بتقليص صلاحيات الديوان وقصرها على تسجيل الأوامر ، وكذلك بالحد من سلطة الباشا وقصرها على المظاهر • وقد اعتمد على اخلاص كل من قائد الاسطول ، أي القبطان ، وقائد القوات المكلفة بجمع الضرائب والسيطرة على القبائل ، ويدعى الباي•

ويدور تاريخ تونس ، في القرن السابع عشر ، حول محاولة البايات الاقوياء الاستيلاء على السلطة من ايدي الدايات • وتمكن الباي مراد (١٦١٢ — ١٦٣١) ، من الحصول على لقب باشا ، وعلى حق نقل

---

١ — المصدر السابق ، ٦٩ ب •
٢ — انظر :
Mantran, "North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. II, 253-6; Julien, 268-70, 274-5; Abun-Nasr, 173-5.
٣ — انظر ص ١٢٨ •
٤ — انظر : ابن أبي الضياف ، جـ ٢ ، ٢٨ — ٣١ •

صلاحياته الى ابنه حمودة ، ومنذئذ توطد نفوذ الأسرة المرادية • وقد حدّ حمودة بك (١٦٣١ ـ ١٦٥٩) ، من تمرد القبائل ، كما انـه ضم جربـة الى ولاية تونس ، مما زاد في نفوذه • وجمع بين يديه عناصر السلطة ، على مرأى من الدايات • وبلغ من نفوذ خلفه ، وهو ابنه مراد بك (١٦٥٩ ـ ١٦٧٥) ، انه القى الداي في السجن ، في عام ١٦٧١ ، ثم قضى على ثـورة الانكشارية ، واقام في قصر باردو ، سيداً مطلقا • وحدث بعد وفاته نزاع بين ابنيه واخيه حول من سيتخـذ منهم لقب البـاي • واستمرت الحرب الاهلية عشرين عاماً استغلها حكـام الجزائر والباب العـالي للتدخـل في شؤون تونس • وانتهى عهد الاسرة المرادية بانقلاب قام به آغا السباهية ، ابراهيم الشريف ، وقتل جميع افراد اسرة حمودة ، واصبح باياً في عام ١٧٠٢ • وبعد عامين منحه الانكشارية لقب داي ايضا ، وانعم عليه السلطان بلقب باشا • وهكذا حصرت ، لاول مرة ، جميع هذه السلطات بشخص واحـد • وفي عـام ١٧٠٥ ، هاجم داي الجزائر تـونس ، وأسر ابراهيم الشريف ، والغي لقب الداي ، وخلف ابراهيم الشريف الباي حسين بن علي ، وهو من اصل يوناني واليه تنتسب السلالة الحسينيـة التي حكمت تونس حتى عام ١٩٥٧[١] •

واذا ما استعرضنـا التطور العام لكل من الجزائر وتونس ، في القرن السابع عشر ، لوجدنا انّ القرصنة فيهما بلغت عصرها الذهبي مستفيدة من ضعف السيطرة العثمانية ، ومن ضعف البحرية الاوروبية ، بصورة عامة ، وكذلك من المنافسة بين الدول الاوروبية • وقد ازدهرت مدينة الجزائر ، نتيجة لذلك ، وقدر عدد سكانها ، في منتصف القرن السابع عشر ، بما يزيد على مائة الف ، بالاضافة الى حوالي خمس وعشرين الى خمس وثلاثين الف اسير • وكانت المتاجرة بهؤلاء الأسرى ـ العبيد ناشطة آنذاك ، بسبب

---

١ ـ أنظر : ابن أبي الضياف ، جـ ٢ ، ٣٣ ـ ٣٧ ، ٤٢ ـ ٤٧ ؛
Mantran, "North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. II, 258-9; Julien, 273-77; Abun-Nasr, 177-80.

استخدامهم في المهن المختلفة ، من ناحية ، وبسبب ما يؤمل من دخل كبير حين يفتدى بعض هؤلاء الأسرى • وبالمقابل ، كان القراصنة الاتراك والافريقيون المشهورون ، الذين يقعون في الأسر الاوربي ، يفتدون باثمان عالية ، كما حدث مثلا في التنازل للفرنسيين عن جزيرة طبارقة ، تجاه الساحل التونسي ، لقاء اطلاقهم سراح القرصان التركي المشهور طرغوت ، ونتيجة لازدهار القرصنة ، ازداد عدد قطع الاسطول التونسي وتحسنت نوعيتها • واستفاد السكان من التجارة بالبضائع والعبيد التي نشطت آنذاك • وانعكس الثراء ببناء عدد من الابنية المشهورة ، في هذه الفترة ، وفي طليعتها الجامع الجديد ، الذي بني في عام ١٦٦٠ •

وامتازت تونس على الجزائر بان الحياة السياسية فيها كانت اقل اضطرابا • وقد سيطر حكام تونس على الجيش ، وحدّوا ، بالتالي ، من الأضطرابات العنيفة ، التي عمّت الجزائر آنذاك • ونتيجة للهدوء الذي عمّ تونس ، وخاصة المناطق الشمالية منها ، فقد تدفقت اليها افواج العرب اللاجئين من اسبانيا ، واستقر بعضهم في وادي مجردة ، والبعض الآخر في مدينة تونس ، ونقلوا الى تونس خبرات متنوعة ومتطورة ، سواء في التجارة ، أو الصناعة ، أو الزراعة ، واسهموا في انشاء صناعات جديدة ، وفي احياء اخرى قديمة ، مثل صناعات الحرير والصوف والطرابيش • ونشط بناء الجوامع ، بأزدياد الغنى ، في هذه الفترة ، وخاصة في مدينتي تونس والقيروان ، ومنها جامع يوسف ، وجامع الباي حمودة ، وجامع سيدي محرز ، بالاضافة الى بناء مدرسة لنشر المذهب الحنفي الرسمي • وبنيت كذلك اسواق ، وسبل ، وحمامات • ورغم اهمية الدور الذي لعبته واردات القرصنة في الاقتصاد التونسي ، فلم تبلغ الاهمية التي كانت عليها في الجزائر • كما ان مقتضيات التجارة والعلاقات الدولية حدّت من نشاطها الى حد كبير [١] •

---

١ ــ انظر :

Mantran, "North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. II, 259-60;

ولم يبلغ النشاط التجاري في الجزائر الدرجة التي كان عليها في موانى بلاد الشام ، وربما كان المسؤول عن ذلك حالة الحرب ، والقرصنة واخطار المواصلات الداخلية ، ومنافسة وهران ، حيث سيطر التجار الاسبان • وكان التجار الاوربيون يستوردون من الجزائر المصنوعات الجلدية والصوفية • وعمد التجار الانكليز والهولنديون الى مقايضة الاسلحة بالمنتجات الغذائية •وقد ادى تدخل الحكومة في الجزائر في قضايا التجارة ، مثل بيعها رخص الاستيراد ، وزيادة الضرائب على الصادرات ، ان نشطت طبقة من الوسطاء ، برز بينها اليهود ، الذين اشتهروا كصيارفة ومراقبين ماليين ، وسيطروا على العمليات التجارية •

وفي تونس نشط التجار الفرنسيون ، الذين رعاهم القنصل الفرنسي ، ومعظمهم ، كما في الجزائر ، من مرسيلية • وكان للتجار الانكليز والهولنديين قناصلهم ايضا ، ووجدت منافسة شديدة بين قنصلي فرانسا وانكلترا • وشملت صادرات تونس الجلود والاصواف والاسفنج والبلح وريش النعام • واستوردت ، بالمقابل ، الاصواف الخاصة بالصناعة المحلية ، والخمور ، والأسلحة • ومع أن التجارة الفرنسية مع تونس بلغت ضعف حجمها مع الجزائر ، وأحيانا ثلاثة أضعاف ، خاصة في الفترة بين ١٦٧٠ — ١٦٩٠ ، الا انها كانت متواضعة بصورة عامة •

وكانت المصالح الاقتصادية هي التي توجه سياسة كل من الجزائر وتونس • فالحروب والغنائم كانت ضرورية لتسيير اقتصاد البلاد ، لأن الموارد المحلية ، في غياب الغنائم ، لا تفي بنفقات الدولة • وان عقد صلح مع دولة اوروبية ما يعني أن سفن هذه الدولة ، وسفن الدول التي تحمل علمها ، ستكون بمأمن من تعديات القراصنة الافريقيين • فحالة الحرب ، رغم مخاطرها ، مربحة اقتصاديا • ولهذا كانت الجزائر تلجأ الى الصلح ، بحكم الضرورة ، مع دولة واحدة ، وتبقى في حالة حرب مع الدول الاخرى • فالصلح مثلا مع لويس الرابع عشر قابله قطع الجزائر علاقاتها مع الانكليز

والهولنديين في عام ١٦٧٠ • وتلا الصلح بين الجزائر والانكليز ، بعد ذلك ، اعلان الجزائر الحرب على فرانسا في عام ١٦٨١ • وبموجب هذه السياسة الواقعية تعايشت التجارة مع القرصنة • وفي عام ١٦٨٩ ، عقد صلح بين فرانسا والجزائر نظم العلاقات التجارية بين الطرفين • وفي مطلع القرن الثامن عشر توحدت الشركات الفرنسية العاملة في الجزائر وتونس بشركة واحدة اطلق عليها اسم شركة افريقية[1] •

وعلى غرار ما جرى في الجزائر وتونس ، من بدء حكم الدايات العسكريين ، فقد شهدت طرابلس ، في عام ١٦٠٩ ، ثورة العساكر ضد البيلربي أحمد باشا ، وانتخاب ضابط صغير من صفوفهم ، يدعى سليمان ، وتنصيبه داياً ، وبذلك بدأ عهد الدايات الذي استمر حتى عام ١٧١١ • وبقي السلطان ، رغم ذلك ، يعين الباشوات من قبله على طرابلس ، ولكن دورهم ظل اسميا فقط • وعمد الداي سليمان الى قتل بعض كبار الضباط ، في سبيل تدعيم سلطته ، ثم اعاد السيطرة العثمانية على جبل نفوسه ومنطقة فزان ، بعد أن أضعفت فيهما•وقد أصبح له أعداء كثيرون بسبب استبداده • واتهم ، في استانبول ، بمحاولة التخلص من الحكم التركي ، فقتل بأمر السلطان ، في عام ١٦١٤ • ولا يعرف الشيء الكثير عن احداث السنوات القليلة التي تلت ذلك ، سوى ان شخصا من الاشراف ، يدعى مصطفى ، فاز بثقة الانكشارية ، في عام ١٦٢٠ ، وعين دايا ، وعمل على اخضاع القبائل العربية • وفي عهده وصل اول قنصل فرنسي الى طرابلس في ١٦٣٠ •

وقد قتل الداي مصطفى شريف في عام ١٦٣١ ، وحل مكانه محمد ساقزلي (١٦٣١ - ١٦٤٩) ، وهو احد زعماء القراصنة ، وكان اصله من

---

١ - انظر :
Mantran, "North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol, II, 256-7; André Raymond, "North Africa in the Pre-Colonial Period", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. II, 281-6.

وانظر ايضا : فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، ٨٩ - ١٠٢ •

جزيرة كيوس • وفاز بتأييد الانكشارية باعطائهم بعض الامتيازات • وقد إنشأ ساقزلي فرقة من الفرسان بغيــة اقامة الأمن بين القبــائــل البدوية في أطراف طرابلس ، وعهد برئاستها الى مواطن من كيوس ، يدعــى عثمان ، ومنحه لقب بك • وقد امتدحت ادارته ، وخاصة في تقدير وجمع الضرائب • كما انه شجع القرصنة ، ليس فقط في عمق البحر ، بـل على الشواطىء الاوربية ، الممتدة بين اسبانيا وايطاليا • ونشبت ثورة في فزان ، في حوالي عام ١٦٣٢ ، اخمدها عثمان بك • ونتج عن الاضطرابات في هذه المنطقة ان حولت القوافل التجارية ، القادمة من السودان باتجاه طرابلس ، طريقها ، عبر برقة وبنغازي ، التي كان يحكمها مهاجرون عرب من اسبانيا ولاجئون من طرابلس • واحتل ساقزلي بنغازي وبرقة في ١٦٣٩ ، وجعل القبائل البدوية تخشى بأس السلطة العثمانيــة • ورغم أن فزان وبرقة لم تخضعا نهائيا الى الحكم التركي ، الا ان شكــل ليبيا الحديثة بدأ يظهر في عهــد الحكام من اسرة ساقزلي •

وحين توفي محمد ساقزلي في عام ١٦٤٩ خلفه عثمان بك • واعترف السلطان العثماني به ، بسبب تقديمه الطاعة له • وفي عهده ، في عام ١٦٥٨ ، وصل اول قنصل انكليزي الى طرابلس واقام فيها • وادت سياســة عثمان بــك الاستبدادية ، وخاصة اجراءاته المالية الشديدة ، الى ثورة الانكشاريــة ، والقراصنة ، والأهلين ضده • وأطيح بــه في تشرين الثاني ١٦٧٢ • وتلا ذلك فترة من الفوضى تصارع خلالها الانكشارية والقراصنة على السلطة ، من خلال مرشحيهما • وانعكس هذا الوضع المضطرب على الحالة الاقتصادية واستغلته القبائل البدوية لنشر الفوضى • واستمر السلطان • مع ذلك ، في ارسال الولاة الى طرابلس ، وبقي دورهم اسمياً •

وشهد تاريخ طرابلس ، في العقــد الاخير من القرن السابــع عشر والعقد الاول من القرن الثامن عشر ، اضطرابات اثارتها اصطدامات القراصنة مع الفرنسيين ، وهجمات التونسيين على منطقة طرابلس ، والمؤامرات ضمن

الطبقة الحاكمة • وفي عام ١٧١١ تمكن ضابط كولوغلي ، يدعى احمد القرامانلي ، وينحدر من قرصان تركي اقام في طرابلس ، في عهد طرغوت، من ان يتسلم منصبي الداي والباشا ، مستغلاً غياب الوالي العثماني في استانبول ومدعوما من السكان المحليين وديوان الانكشارية • وبدأ بذلك حكم الاسرة القرامانلية التي حكمت طرابلس قرابة قرن وربع[1] •

وهكذا نشأت ، في الربع الاول من القرن الثامن عشر ، في كل من الجزائر وتونس وطرابلس ، حكومات محلية ، دعمتها الطوائف العسكرية، وتمتعت بما يشبه الاستقلال الذاتي ، في ظل علاقات واهية ارتبطت بها مع استانبول • وظهر مثل ذلك في مصر ، حيث وصل نفوذ المماليك الذروة ، وفي بلاد الشام ، حيث ظهر آل العظم ، وظاهر العمر ، واحمد باشا الجزار ، وفي العراق ، حيث سيطر الحكام المماليك في بغداد والبصرة ، وآل الجليلي في الموصل ، وفي الجزيرة العربية ، حيث ظهر التحدي الوهابي للعثمانيين • وهكذا انتظمت العالم العربي ، في مشرقه ومغربه ، في القرن الثامن عشر ، ظواهر الحكم المحلي ، ضمن الاطار العثماني ، وسندرس اسباب وصفات ذلك في فصل لاحق •

محاولات الدولة العثمانية فرض هيبتها

رغم الضعف العام الذي اصاب الدولة العثمانية في القرن السابع عشر ، فقد شهدت طفرتين من القوة : الاولى في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ – ١٦٤٠) ، والثانية في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر • وكانت هذه آخر ردود فعل قوية ، من جانب السلطة المركزية العثمانية، للارتفاع الى مستوى المسؤوليات الجسام التي القيت عليها ، حتى مجيء السلطان سليم الثالث (١٧٩٢ –

---

١ – انظر :

Mantran, "North African in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. II, 262-5; Abun-Nasr, 195,

١٨٠٧) ، الذي حاول اصلاح الدولة على اسس جديدة ، وفشل •

وقد قام السلطان مراد الرابع بعدد من التنظيمات الداخلية ، في الوقت الذي اهتم فيه بالقضاء على الثورات الداخلية والاخطار الخارجية • فعلى صعيد الادارة قام باصلاحات في طائفة الانكشارية ، بغية فرض النظام بين افرادها ، كما انه اعاد تنظيم السباهية ، اصحاب التيمارات ، وعمل على حماية الفلاحين • وبعد وفاته مارس الانكشارية نفوذاً كبيراً في استانبول ، وعاد الثائرون الجلالية في الاناضول الى الاشتهار ، واصبح احدهم ، ابشير باشا، حاكم سيواس ، صدراً اعظم • وقد وصل استانبول على رأس قوات من السكبان ، ولكن الانكشارية قتلوه في عام ١٦٥٤ •

ثم فرضت الدولة هيبتها ، من جديد ، في عهد محمد باشا كوبريلي، الذي شغل الصدارة العظمى بين ١٦٥٦ و ١٦٦١ ، في وقت تعرضت فيه استانبول الى خطر الغزو من قبل اسطول البنادقة • ووثق السلطان محمد الرابع بآل كوبريلي فعين ابن محمد باشا كوبريلي ، فاضل احمد باشا ، في منصب الصدارة العظمى بعد ابيه ، وبقي يشغل هذا المنصب من ١٦٦١ الى ١٦٧٦ • وأصبح الباب العالي ، في عهد آل كوبريلي ، المركز الفعلي لادارة الدولة • ورغم الاصلاحات التي تمت ، في هذه الفترة ، مثل انقاص الانكشارية ، وتخفيف اعباء الدولة المالية ، وحماية الفلاحين بتأمين الامن لهم واقرار ضرائب عادلة عليهم ، فلم ينجح ذلك في ايقاف تدهور الادارة • وعاد الجلالية الى الثورة في الاناضول ، في عام ١٦٨٧ ، مستغلين انشغال الدولة بالحرب مع النمسا • واصبح زعيمهم ، يكن عثمان باشا ، صاحب سطوة في الدولة ، وعين قائدا للجيش المتجه ضد النمساويين • واستفادت الدولة من زعامته بان سيطرت ، من خلاله ، على الثائرين في الاناضول • وحين دبّر السلطان امر اغتياله ، في عام ١٦٨٨ ، اخذت عصابات الثائرين تروّع الاناضول[١] •

---

١ ـ انظر : Inalcik, "The Heyday and Decline of the Ottoman Empire", *The Camb. Hist. of Islam,* Vol. I, 439-50.

وقد انعكست سلطة الدولة ، قوة وضعفاً ، على الولايات العربية ، في هذه الفترة • ففي بلاد الشام فتكت الدولة ، في عهد السلطان مراد الرابع ، بزعماء الانكشارية المتمردين ، وقضت على ثورة فخر الدين المعني الثاني • وفي فترة الضعف التي تلت وفاة السلطان مراد الرابع ، استعاد زعماء الانكشارية ، في بلاد الشام ، نفوذهم ، وأيدوا أبازه حسن باشا والي حلب ، الذي ثار على الدولة في ١٦٥٩ • فبطشت الدولة به وبهم ، في العام ذاته ، في عهد الصدر الاعظم محمد باشا كوبريلي • وتعززت سلطة والي دمشق ، وبالتالي هيبة الدولة ، اثر ارسال قوات القابي قول اليها،وسيطرتهم على القلعة والأسوار وأبواب المدينة ، ومعارضتهم الانكشارية اليرلية أصحاب النفوذ المحلي • واطلق السكان المحليون لقب دولة القلعة على القابي قول، بينما سموا اليرلية ، الذين اصبحوا يقيمون في احياء دمشق ، وخاصة منها الميدان وسوق ساروجا ، دولة دمشق •

ويبدو ان البطش الذي تعرض له الانكشارية اليرلية ،فيعام١٦٥٩ ، وضعفهم ، بعد النفوذ الذي بلغوه ، جعلهم أكثر حرصاً للحفاظ على ما بقي لهم من سلطة • ففي عام ١٠٩٩ / ١٦٨٧ — ١٦٨٨ أظهر والي الشام حمزة باشا كثيراً من التسلط والطغيان في دمشق ، واعتدى اتباعه على الدمشقيين ، فثار « أبناء دمشق » ، على حد تعبير ابن جمعة[1] ، وقتلوا أتباعه وأهانوهم • واشار المحبي[2] الى الذين عارضوا حمزة باشا وثاروا عليه بأنهم من الجند الشامي • ومن الممكن أن بعض الدمشقيين قد ساعدوا الجند الشامي في الثورة ، نظراً للمصالح المشتركة التي تجمع بينهم•ويتبين من تعبيري « أبناء دمشق » ، و « الجند الشامي » ، اللذين استخدمهما المؤرخان الدمشقيان للدلالة على الذين ثاروا ، انهما يشيران الى أفراد اليرلية الذين أصبحوا مندمجين مع الدمشقيين •

وفي عام ١١٠٠/١٦٨٨ — ١٦٨٩قتل القابي قول صالح آغا بن صدقة

١ — ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٤٥ — ٤٦ •
٢ — المحبي ، ج ٤ ، ٣٣١ — ٣٣٢ •

أحد أعيان اليرلية • وكان هذا الحادث بداية محاولة جديدة للقضاء على زعماء اليرلية • كما انه يظهر ، في الوقت ذاته ، الصراع الشديد على النفوذ بين اليرلية والقابي قول • وقد قتل في عام ١١٠٣/١٦٩١ – ١٦٩٢ تسعة من زعماء اليرلية من قبل والي دمشق ، بناء على أوامر السلطان • ويبدو أن هذا كان رداً على ثورة اليرلية ، قبل قليل ، ضد حمزة باشا • وكان من بين الذين قتلوا خليل آغا بن طالو ، وسليمان آغا بن الترجمان ، وموسى آغا ابن الترجمان ، ومحمد آغا بن صدقة ، ومصطفى آغا الكيواني • وهرب آخرون الى الامير أحمد المعني في الشوف[1] • ولما كان هؤلاء الأفراد بارزين في طائفة اليرلية وفي دمشق فقد وصفهم المؤرخون المحليون بأنهم آغاوات الوجاق[2] ، وأعيان دمشق ، وأكابر دمشق ، وكبار دولة دمشق• واذا ما قورنت هذه الاسماء مع أسماء كبار الانكشارية ، في مطلع القرن السابع عشر ، أمثال آق يناق ، وقره يناق ، وحمزةالكردي ، وخداوردي، لتبين لنا كيف أن الدمشقيين بدأوا يتسربون الى طائفة الانكشارية ويحتلون المناصب العليا فيها ، وخاصة بعد سنة ١٦٥٩ حين قضي على كثير من زعماء الانكشارية الذين لم يكونوا من أصل دمشقي •

وكان من نتيجة حملة القمع الموجهة ضد اليرلية أن ضعف نفوذهم في دمشق ، واستمر ذلك عدة سنوات • ونظراً لأن اليرلية الدمشقيين كثيراً ما قاوموا محاولات الولاة لفرض المظالم على الأهلين ، فقد قاسى الآن سكان دمشق من ظلم الولاة نتيجة لضعف اليرلية • ومع ذلك ، فلم يعدم الدمشقيون من يدافع عنهم اذ برز العلماء ، وملأوا الفراغ السياسي الذي تركه ضعف اليرلية ، ودافعوا عن الاهلين ضد مظالم الولاة والقابي قول •

---

١ – أنظر : ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٤٦–٤٨ ، قطعة من تاريخ ، ٥ آ ؛ أنظر ايضا : محمد ابن كنان ، الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر والف ومية ، جزءان مخطوطان في مجموعة برلين ، أرقامها : 9480. We. (II) 1115; 9497. We. (II) 1114 ، انظر الجزء الاول : ١٤ ب – ١٧ آ ؛ انظر أيضاً : سليمان الظاهر ، « صفحة من التاريخ الشامي » ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ١٧ (١٩٤٢) ، ص ٤٤٨ ؛ انظر أيضا كرد علي ، ج ٢ ، ٢٨٣–٢٨٤ •

٢ – تكتب بالتركية (Ocak)، وتعني ، في الاصل ، الموقد ، ثم أطلقت على فرق الانكشارية •

ففي عـام ١١٠٧/١٦٩٥ - ١٦٩٦ عارض علمـاء دمشق ظلم الوالي عثمان باشا السلحدار ، فاشتكى ضدهـم الى استانبول • وكانت النتيجة أن نفـي بعض العلماء ، لفترة من الزمن ، الى طرابلس والى قلعة القسطل ، وكان من بينهم نقيب الأشراف عبد الكريم بن حمزة ، وخطيب الجامع الاموي سليمان المحاسني ، والشيخ عثمان القطان • ثم جـاء الأمـر بالعفو عنهم بعد فتـرة قصيرة [١] • وفي ٢٠ ذي الحجة ١١١٨/٢٥ آذار ١٧٠٧ نفي فريق آخـر من علمـاء دمشق الى قلعة صيدا ، وكان مـن بينهم أسعد أفندي البكري ، وعبد الرحمن أفندي القاري ، وسليمان المحاسني ، وذلك لانهـم قاومـوا محاولة الباشا في فرض المال على الدمشقيين [٢]• وحين عفا السلطان عنهم ، بعد قليل ، تأيد موقفهم في مقاومة الظلم •

واعتمد الولاة في سياسة العنف التي اتبعوها على دعم جنودهم الخاصين، وعلى قوة القابي قول الذين أيـدوهم ضـد اليرلية والدمشقيين • وفي عـام ١١١٨/١٧٠٦ - ١٧٠٧ وصلت فرق اضافية مـن القابي قول الى دمشق ، مما زاد في نفوذ أفراد هـذه الطائفة ، وجعلهـم يصطدمون باليرلية في العام التالي ، ويقتلون منهم عشرة أنفار•ورغم أن اليرلية ردوا على ذلك بمحاصرة القلعة ، وأخذوا ثمن دم المقتولين [٣] فقد أرهبهم القابي قول ، وغاب اليرلية عن المسرح السياسي بضع سنوات •

وحظي بالاهتمام ، في هذه الأثناء ، والي الشام نصوح باشا الذي حكم ولاية الشام مدة ستة أعوام تقريباً ، بين ١١٢٠/١٧٠٨ - ١٧٠٩ و ١١٢٦/ ١٧١٤ - ١٧١٥ • وقد أظهر كثيراً من السلطة داخل دمشق وخارجهـا ، وأمن ، بصورة خاصة ، سلامة قافلة الحج الشامي التي أعطي أمارتها ، الى جانب منصبه كوال للشام • وقد ترتب على ذلك ابقاء والي الشام في منصبه

١ - ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٤٩ ؛ سليمان الظاهر ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ١٦٧ •
٢ - ابن كنعان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ٦٧ آ ، ٦٨ آ ؛ سليمان الظاهر ، ٤٤٩ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ١ ، ٢٢٤ •
٣ - ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٥٢ ، قطعة من تاريخ ، ٦ ب ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ٦٧ ب •

مـا دام يؤمن سلامة الحج • وكـان نصوح باشا أول ولاة الشام في القرن الثامن عشر الذين حكموا لفترة طويلة نسبياً • وهذا أمـر لم تشهده هـذه الولاية في القرن السابع عشر حين لم يكن ولاة الشـام أمراء الحج بشكل مستمر • والجدير بالملاحظة أن السلطان أوعز بقتل نصوح باشا ، في عـام ١١٢٦/١٧١٤ ــ ١٧١٥ ، رغم تأمينه سلامة الحاج[1] • ويفسر قتل نصوح باشا بخوف السلطان من ازدياد قوته • وسنرى أمثلة أخرى ، في الفترات التالية ، عن مصير مماثـل لولاة مشهورين في دمشق أمنـوا سـلامة الحج ولكنهم قتلوا لأسباب متعددة ، وأبرز مثال على ذلك هو أسعد باشا العظم •

زاد نصوح باشا من هيبة منصب والـي الشام بسبب أعمـال البطش والارهاب التي قام بهـا أثناء ولايته • وقد حاول خلفاؤه ، بنسب متفاوتة ، السير على سياسة القوة هـذه ، فاصطدموا بأغلب القوى في دمشق • وقد فرض والي الشام يوسف باشا ، بأمر من السلطان ، في النصف الأول من ١١٢٨/النصف الاول من ١٧١٦ ، ضرائب مجحفة على الدمشقيين ، وكان نصوح باشا قـد امتنع عن فرضهـا • فثار الأهلون ، وابتهلوا الى القاضي للتوسط برفعهـا ، وهاجمت جماعة من القابي قول سرايا الوالي للاحتجاج على الضرائب ، فقتل أحد أفرادها ، ولم يتبدل شيء[2] • ومما يلفت النظر في هذه الحادثة ثورة الأهلين ، وهذا أمر لم تعهده فترة القوة العثمانية فيما سبق • وسنرى في الفترات التالية أمثلة أخـرى من ذلك تدل عـلى اتساع قـاعـدة التحـدي للعثمـانيين ، وشمـولهـا سكـان المـدن ثم الريف • ويلفت النظـر ايضاً ثـورة القـابي قـول عـلى فرض الضرائب • لقـد مضى عـلى وجـود القـابي قـول في دمشـق أكثـر مـن نصف قـرن ، فأصبحت لهـم مصـالح فيهـا • ورغم تمركزهم في القلعـة ، فقـد بدأوا يمتزجون بالدمشقيين بالتدريج ، شأن الانكشارية في أول عهدهـم • وعوضاً من أن يقرّب هذا بينهم وبين اليرلية ، كما يمكن أن يظن ، نجد أن

---

١ ــ ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٥٢ــ٥٥ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ١٧٧ا ــ ١١١٤ا •
٢ ــ ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٥٦ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ١٣٨ ا •

العداء قد ازداد بين الفريقين ، لأن اليرلية وجـدوا في توسع نفوذ ومصالح القابي قول في دمشق خطراً على مصالحهم وعلى نفوذهم • وهكـذا أضيفت المنافسة على المصالح الى الصراع على النفوذ بين الفريقين ، وهذا مـا يفسر الصراع الدامي بينهما في بلاد الشام في القرن الثامن عشر • واستفاد مـن ذلك الوالي الذي حاول،بجنوده المرتزقة،ضرب فريق بآخر لاضعافهما.[١]

واشتهر في ولايـة الشام ، بعد الوالي نصوح باشا ، عثمان باشا أبو طوق الذي ولي الشام مرتين : الاولى بـين ١٧١٩ و ١٧٢١ ، والثانية بـين ١٧٢٣ و ١٧٢٥ • وكان أحد أبنائه ، أثناء ولايته الثانية على الشام ، يحكم ولاية صيدا • وقـام أبو طوق بكثير من المظالـم وابتزاز المـال في دمشق ، معتمداً على دعـم السلطان والصدر الأعظم في استانبول • والتف من حوله جماعة مـن العوانية [٢] ، مارسوا الظلم وابتزاز المـال من الأهلين • وقد اعتقل أبو طوق عدداً من الأشخاص الذين حاولوا رده عن الظلم ، وكان من بينهم أفراد من آل تغلب ، أصحاب الطريقـة الشيبانيـة الصوفيـة[٣] ، مما أثار الرأي العام الديني •

ولـم يتمكن القاضي الحنفي الرومي من عمل شيء لايقاف أبي طوق عند حده ، كما لم تجد محاولة ارسال وفد يمثل القطاعات المتنفذة فيدمشق الى استانبول للاحتجـاج • ولذلك هب المفتي الحنفي محمد خليل البكري الصديقي لنجدة المظلومين ، وقادهم في ثورة ضد أبي طوق في النصفالثاني من ربيع الثانـي ١١٣٧/النصف الاول من كانون الثانـي ١٧٢٥ • وقتل الثائرون بعض العوانية من أتباع أبي طوق ، الذي كان آنذاك عند ابنهحاكم

---

١ ـ انظر ، مثلا ، ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ١ ، ١٤٨ ب ، ١٥٩ ب ، ١٦٠ آ ، ١٦٩ آ •

٢ ـ الكلمة جمع عواني ، واصبحت تطلق على الاشخاص الذين يساعدون أصحاب النفوذ في أعمال الاساءة وابتزاز المال • وعرف المال الذي يجمع عن هذا الطريق باسم مال العوان؛ للتوسع في معنى الكلمة واشتقاقها ، انظر كتابنا :

The Province of Damascus, p. 79 n. 1.

٣ ـ تسمى الطريقة الشيبانية أحيانا بالطريقة اليونسية ، انظـر مقـالTarika في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاولى •

صيدا • ولم يستطع السلطان تجاهل نقمة الدمشقيين على واليهم ، فعزله ، وعين اسماعيل باشا العظم مكانه في أوائل آذار ١٧٢٥[١] • وكان اسماعيل باشا أول وال من آل العظم يعين على دمشق ، وتلاه ولاة آخرون من الاسرة نفسها في دمشق وغيرها • وكان ظهور آل العظم كولاة ، في هذه الفترة ، جزءاً من ظاهرة هامة عمت كثيراً من الولايات العربية وغيرها في القرن الثامن عشر ، حين تسلم الحكم ولاة من أصل محلي برضى السلطة المركزية العثمانية أو رغماً عنها • وسندرس في الفصل التالي أسباب هذه الظاهرة ، وأبعادها ، وأهميتها في العلاقة بين الحاكمين والمحكومين •

وقد شهدت بلاد الشام ، في هذه الأثناء ، تطوراً هاما يتعلق بانتقال امارة الحج الى دمشق ، وتعيين ولاة الشام باستمرار لهذا المنصب منذ ١١٢٠/١٧٠٨ ـ ١٧٠٩ • فيما هي الاحداث المختلفة التي أدت الى هذا التطور ، وما هي نتائج انتقال امارة الحج الى ولاة الشام ؟

ذكرنا فيما سبق[٢] التطورات التي أدت الى تناقص تعيين الأمراء المحليين ، في ولاية الشام ، أمراء للحج ، والى تزايد تعيين انكشارية دمشق

---

١ ـ أنظر حول هذه الاحداث : ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ١٦٢ آ ـ ١٦٥ ب ؛ ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٥٩ـ٦٢ ؛ عبدالرحمن الموصلي ، كتاب مجموع فيه ديوان المرحوم الشيخ عبدالرحمن الموصلي وبهجة جده الشيخ ناصرالدين الموصلي وديوان المرحوم منجك باشا وغيره وفوائد، مخطوط في مجموعة برلين برقم 9482. We. (II) 1748 انظر ، ٥٥ آ ـ ٥٥ ب ؛ أنظر أيضاً تقارير القنصل الفرنسي في صيدا ، من تلك الفترة، الموجودة في دار الوثائق الوطنية في باريس مصنفة في قسم الشؤون الخارجية Affaires Etrangères (رمزها .A. E) • والتقارير القنصلية ، بصورة عامة ، مصنفة في تلك الدار تحت رمز B 1 . ويشير الرقم الذي يتلو هذا الرمز الى المجلد • وسنذكر بعد ذلك مباشرة اسم المكان الذي أرسل منه التقرير ، فقد يكون صادراً عن قنصلية صيدا او حلب او القاهرة او استانبول ؛ ويتلو ذلك تاريخ التقرير ، وسنرمز اليه بثلاث مجموعات عددية يشير أولها الى تاريخ اليوم ، وثانيها الى الشهر ، وثالثها الى السنة • وسنتبع نفس الطريقة بالنسبة للتقارير في الارشيف الانكليزي • وتوجد تقارير القنصليات الانكليزية في دائرة الارشيف في لندن ، وتسمى Public Record Office (رمزها PRO) ، وهي مصنفة تحت اسم State Papers اي أوراق الدولة (رمزها .S. P) • أنظر حول الاحداث التي يشير اليها هذا الهامش الوثائق التالية : A. E. Bl 1021 : Seyde, 21. 10. 1721, 25. 1. 1725
للحصول على دراسة مفصلة عن أحداث هذه السنوات يراجع كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 77-85.

٢ ـ أنظر ص ١٤٥ •

في هذا المنصب • ونظراً لضعف نفوذ هؤلاء الانكشارية بعد ١٦٦٠ ، فقد عيّن موظفون عثمانيون الى جانب بقايا الامراء المحليين وزعماء الانكشارية، لامارة الحج • وازداد تعيين هؤلاء الموظفين بالتدريج ، بسبب تزايد ضعف الفريقين الآخرين[١] • ونتج عن هذا التنوع في هويات أمراء الحج عدم استقرار في علاقتهم مع البدو ، مما دفع هؤلاء الى مهاجمة قافلة الحج ، خاصة وأن الموظفين العثمانيين المعينين أمراء للحج لمدة عام أو نحو ذلك غالباً ما امتنعوا عن دفع الصرّ ، أي المال المخصص من الدولة لشراء رضاء البدو • ونلاحظ أيضاً أن بعض المعينين لامارة الحج عينوا في الوقت نفسه حكاماً على صنجق أو أكثر من الصناجق التابعة لولاية الشام • وهذا استمرار لتقليد سبقت الاشارة اليه ، وقد شاع في النصف الأول من القرن السابع عشر ، حين عين أغلب أمراء الحج من حكام هذه الصناجق •

وكانت العادة أن يأتي أمير الحج ـ حاكم الصنجق مع قواته الى قبة الحج ، الواقعة جنوبي حي الميدان بدمشق ، خارج باب الله (سمي بذلك لانه يؤدي الى الأماكن المقدسة في الحجاز والقدس) ، لتسلم قيادة قافلة الحج[٢] • واستفادت دمشق من عدم دخول أمير الحج اليها ، لأنها سلمت من تعديات القوات المرافقة له • وحين عين الموظفون العثمانيون أمراء لقافلة الحج ، لم يعين جميعهم حكام صناجق ، ولذلك أقاموا مع قواتهم في دمشق وقاسى الدمشقيون ، نتيجة لذلك ، من وجودهم • وقد حفز هذا الأمر

---

١ ـ المحبي ، ج ١ ، ٢٢٢ـ٢٤٤ ، ٤٤٢ ، ٤٤٨ ، ج ٢ ، ١٣٣ـ١٣٤ ، ج ٤ ، ١١٠ ، ٤٣٤ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ٣٤٨ ؛ ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٤٣ ، ٤٥ ؛ اسماعيل المحاسني ، له كناش نشر بعض أجزائه الدكتور صلاح الدين المنجد تحت عنوان : « صفحات في تاريخ دمشق في القرن الحادي عشر الهجري » ، في مجلة معهد المخطوطات المصورة ، القاهرة ، مجلد ٦ (١٩٦٠) ، انظر ص ٨٠ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٠٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ •

٢ ـ انظر : محمد خليل المرادي ، مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد ، مخطوط في المتحف البريطاني بلندن ، برقم Or. 4050 ، الورقة ، ٣٧ ب ؛ انظر ايضا :

R. A. Pococke, *A Description of the East and some other countries,* 2 Vols., London, 1743-5, see. II.i. 118;

انظر حول موكب الحج في دمشق ، وتوقفه عند قبة الحج ، حيث يتسلم أمير الحج مهمته بموجب حجة ، مؤلف محمد بن عيسى بن كنان ، المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية ، نسخة فوتوغرافية ، في مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مصورة عن مخطوط في دار الكتب المصرية ، برقم ٢٦ ، انظر الاوراق ١٧٨ـ١٧٩ •

الشيخ مراد المرادي ، جد صاحب « سلك الدرر » ، للطلب من السلطان ، كما يقول خليل المرادي : « رفع امارة الحج عن دمشق وعودها الى حكام القدس وعجلون وتلك البلاد كما كان الأمر في الزمن السابق لاضمحلال حال دمشق بسبب ذلك فان دمشق من حين صارت امارة الحج عليها زال رونقها وكثر الظلم بسبب ذلك فيها وزالت محاسنها وعمت الشدائد بها حتى أن الجد اجتمع بالمرحوم السلطان أحمد بن محمد خان في أحد رحلاته في دار المملكة قسطنطينية وذكر له ذلك فقبل منه رجاه ورفعها عن دمشق وكانت منذ سنين لم ترفع ووجهها للشريف يحي بن بركات المكي بمنصب القدس لأنه كان موجوداً حينئذ في الروم بعد خلعه عن شرافة مكة المكرمة فذهب المذكور في تلك السنة أميراً للحج وارتفع عن أهالي دمشق في تلك السنة الظلم والعساكر والبغي والجرائم مما كان يوجد في وقت الحج ثم ان الشريف يحيى المذكور سها سهوة باذية بعض الحجاج وبغى العرب فلما أخبرت الدولة العلية بصنيع الشريف يحيى عزل من ذلك وأعيدت امارة الحاج الى دمشق كما كانت وهي الى الآن »[1] . وكانت امارة الشريف يحيى للحج في عام ١١٠٢/١٦٩٠ — ١٦٩١ ، وقد عزل عنها اثر مهاجمة البدو قافلة الحج بسبب اهماله[2] . وأصبحت دمشق ، منذ هذا التاريخ ، مركز أمراء الحج،ولكن لم يعين ولاتها باستمرار ، اثر ذلك،أمراء للحج .

ونلاحظ في الفترة بين ١١٠٢ — ١١٢٠/١٦٩٠ — ١٧٠٨ حين عين نصوح باشا والياً على الشام ، ان ثمانية على الأقل من ولاة الشام عينوا أمراء للحج . وقد تزايدت هجمات البدو على القافلة ، في هذه الفترة ، نظراً لكثرة تبدل الولاة، وطمع بعضهم بأخذ الصر المخصص للبدو لأنفسهم[3] .

---

١ — المرادي ، مطمح الواجد ، ٢٦ ب — ٢٧ آ .

٢ — أنظر : ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٤٧ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ١ ، ١٥٩ ب ؛ انظر ما كتبه G. Rentz ، تحت عنوان Barakat ، في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الثانية .

٣ — أنظر حول ذلك : ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ١ ، ٨ آ — ٧٢ ب ؛ ابن جمعة ، نشر المنجد ٤٨—٥٢ ، مخطوط برلين رقم 9785. We. (II) 418 ، الاوراق ، ٣٢ آ ٢٣ آ ؛ النابلسي ، الحقيقة والمجاز ، ٢٥٣ آ ، ٣٧٣ ب ؛ اسماعيل المحاسني ، ٩٠ .

ولتأمين سلامة الحج بدأ السلطان ، منذ ١١٢٠/١٧٠٨ - ١٧٠٩ ، يعين باستمرار ولاة الشام أمراء للحج•وكان والي الشام يبقى في الولايةوالامارة ما دام يؤمن سلامة الحج • وأصبح المؤرخون المحليون يذكرون بمناسبة تعيين كل وال جديد للشام بأنه تولى الحكم والامارة •

وقد نتج عن نقل مركز امارة الحج الى دمشق ، وعن تكليف ولاة الشام بهذه الامارة باستمرار ، تطورات هامة تركت آثارها على تاريخ بلاد الشام بكاملها• وكان تعيين ولاة الشام لمنصب أمير الحج ذروة تطور سياسي وصراع على النفوذ حدثا في بلاد الشام في القرن السابع عشر • فقد رأينا كيف أن فخر الدين المعني الثاني قد أضعف الامراء المحليين الذين كانوا يعينون أمراء للحج • وبعد القضاء على فخر الدين قوي نفوذ ولاة الشام ، وتمكنوا من القضاء على نفوذ الانكشارية المحليين • وازدهرت سلطة هؤلاء الولاة ، بعد ذلك ، بسبب الفراغ السياسي الذي حدث في دمشقوخارجها• وأخيراً ألقيت عليهم مسؤولية امارة الحج بسبب كثرة اعتداء البدو على الحجاج • وكان السلطان العثماني يعاني ، آنذاك ، من انكسارات عسكرية متوالية ، ولم يستطع التغاضي عن اعتداء البدو على قافلة الحج ، لان سمعته الدينية كحام للحرمين الشريفين ستتأثر تبعاً لذلك • ولهذا عين أصحاب النفوذ الوحيدين في بلاد الشام ، وهم ولاة الشام ، أمراء للحج •

وقد نتج عن تعيين ولاة الشام لمنصب أمير الحج الشامي تغيبهم عن دمشق لفترة طويلة • وكان الوالي أمير الحج يغادر دمشق مع القافلة عادة في النصف الأول من شهر شوال ، ويعود اليها من الحجاز في حوالي النصف الاول من شهر صفر • وقد تتأخر عودته أكثر من ذلك اذا ما هدد البدو قافلة الحج وأعاقوا سيره• وكثيراً ما عاد الحجيج، في مثل هذه الحالات، بواسطة الطريق الفرعي عبر غزة • وهكذا وجب على والي الشام ـ أمير الحج أن يتغيب عن دمشق مع قافلة الحج قرابة أربعة أشهر •

وبالاضافة الى ذلك ، استلزمتعيين الوالي لهذا المنصب غيابه عندمشق

فترة أخرى • فقد القيت عليه الآن المسؤولية المباشرة للاعداد لقافلة الحج وتمويلها بالمال اللازم •وكنا قد رأينا ، في الفترة قبل تعيين ولاة الشام امراء للحج الشامي ، كيف أن أمراء الحج ، المعينين من بين حكام صناجق ولاية الشام ، كانوا ينفقون على الاعداد للقافلة من واردات صناجقهم ، بالاضافة الى ما خصصه السلطان لذلك من عائدات ثابتة • ولكن ولاة الشام اضطروا الآن للذهاب بأنفسهم لجمع الاموال الميرية من الملتزمين في ولايتهم•ويمكن القول أن والي الشام كان مسؤولا ، على أية حال ، عن جمع مال الميري من ولايته بصفته محصلا ، ولكنه لم يكن مضطرا ، قبل الآن ، أن يذهب في كل سنة لجمع هذا المال ، لأن حاكم الصنجق ـ أمير الحج هو الذي تكفل أمر ذلك•ونظراً لعدم انشغال والي الشام ، في الفترة السابقة ،مباشرة بذلك، فقد كان يكلف احيانا بنجدة جيوش السلطان في ميادين القتال المختلفة • وقد بدأ والي الشام ـ أمير الحج يخرج الآن كل سنة ، قبيل خروج قافلة الحج بفترة من الزمن ، ليجمع المال اللازم لتمويلها ، لانه أصبح المسؤول المباشر عن ذلك • وسمي خروجه هذا لجمع المال من الملتزمين في الولاية بالدورة[1] • وفي حين كان تاريخ خروجه للدورة يتوقف على مشاغله ورغبته الخاصة ، فان تاريخ عودته من الدورة كان يقرره موعد خروجه مع قافلة الحج الى الحجاز • وكان الوالي يضطر أحياناً الى قتال الملتزمين الاقوياء الذين يرفضون دفع مال الميري،وتزداد عادة في هذه الحالة مدة الدورة • ونظرا لانشغال الوالي في هذه المهمات التي لا يمكن التهاون فيها بسبب طبيعتها الدينية ، فقد أعفي من الخروج مع عساكر دمشق لنجدة الدولة في حروبها الداخلية أو الخارجية كما كان الامر قبل ذلك • ولا نسمع في القرن الثامن عشر أن ولاة الشام قد قاموا بمثل أعمال النجدة هذه•

ونتج عن غياب الوالي عن دمشق أن ضعفت السلطة الحاكمة فيها ،

---

١ ـ للحصول على تفصيلات اكثر عن الدورة ، انظر كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 21-23.

ولم يتمكن معظم المتسلمين ، الذين نابوا عن الولاة ، من ممارسة سلطة حازمة • واننا نجد ، في الحقيقة ، بعض المتسلمين يستغلون السلطة أو يتآمرون مع القوى الاخرى ، كاليرلية والقابي قول والقوات المرتزقة ، للاستفادة من غياب الوالي • وقد شجع هذا الوضع المنازعات المحلية والصراع على النفوذ ، وقاست دمشق من ذلك الشيء الكثير • واضطر الوالي ، بسبب حاجته الى المزيد من القوات لتأمين سلامة الحج ، الى استئجار قوات مرتزقة اضافية كالمغاربة والدالاتية واللاوند[1] • وكثيراً ما تحالفت هذه القوات المرتزقة مع اليرلية ضد القابي قول ، أو بالعكس ؛ واضطر الوالي الى الاعتماد على قوات أخرى ، وكان هذا مشجعا لفوضى الجند ومثار نقمة الاهلين •

وعلى غرار التطور الذي أصاب امارة الحج ، فان أمراء الجردة ، الذين كانوا يخرجون لتموين وحماية قافلة الحج في طريق العودة ، عينوا من الموظفين العثمانيين ، بعد ضعف الامراء المحليين والانكشارية • وفي الوقت الذي أصبح فيه ولاة الشام أمراء للحج ، انحصرت امارة الجردة بوالي صيدا أو بوالي طرابلس ، وفي حالات نادرة بوالي حلب • ويعود سبب كثرة اختيار ولاة صيدا وطرابلس لهذه المهمة الى قرب هاتين الولايتين من دمشق ، وبصورة أهم الى كون هؤلاء الولاة يمتون غالبا بصلة القربى الى ولاة الشام • وقد عمد السلطان ، بالحاح أحياناً من والي الشام ، الى تعيين أبناء أو أقرباء هذا الوالي حكاماً على ولايتي صيدا وطرابلس •وازداد نفوذ والي الشام تبعاً لذلك ، وضمن السلطان ، من ناحيته ، دعم والي الشام لولاة صيدا وطرابلس اذا ما هددت سلطتهم •

ومن الطبيعي ان تزداد مخاوف السلطان بسبب ازدياد سلطة ولاة الشام ، ولكن الدولة العثمانية لم تعوزها الوسائل لفرض هيبتها ، كأن تعمد الى عزل الولاة ومصادرة أموالهم ، أو الى اثارة وال ضد آخر ، كما سنرى

---

١ ــ انظر ص ٥١ ــ ٥٢ •

في مناسبات مختلفة في القرن الثامن عشر • والذي يهمنا هنا أن أميرالجردة، بعد تعيين ولاة صيدا وطرابلس لهذا المنصب ، أصبح يأتي الى دمشق بعد شهر ، على الأكثر ، من مغادرة أمير الحج لها • وبعد أن يتم استعداداته في دمشق يغادرها في أواخر ذي القعدة أو أوائل ذي الحجة ، لملاقاة قافلة الحج • وكثيراً ما قاست دمشق من القوات المرافقة له ، واضطرت أحياناً الى المساهمة في تمويل الجردة التي كانت تعين لها عادة موارد ثابتة •وكان يفرض على دمشق ، في الحالات الاستثنائية ، مثل مهاجمة البدو للجردة، اعداد وتمويل جردة ثانية •

ورغم هذه المصاعب التي تجشمها ولاة الشام ، فانهم أفادوا من امارة الحج ببقائهم مدة أطول في مناصبهم ما داموا يؤمنون سلامة قافلة الج ، وأفادوا أيضاً من الناحية الدينية ، نظراً لما تمتع به أمير الحج من مكانة مرموقة • كما انهم كسبوا مادياً لان قافلة التجار كانت ترافق قافلة الحج، وكثيراً ما اضطر التجار الى شراء حماية أمير الحج لهم من خطر البدو[1]• وبالاضافة الى ذلك جرت العادة أن ينال أمير الحج حصة كبيرة من أموال الحجاج المتوفين •

وقد اصبح لولاة دمشق ، في عهد السلطان مراد الرابع والوزراء العظام من آل كوبريلي ، سلطة اكبر على جبل لبنان ، وخاصة في اعقاب القضاء على فخر الدين المعني الثاني • فشجعوا آل علم الدين الدروز اليمنية على منافسة المعنيين الدروز ــ القيسية ، على امارة جبل لبنان • ورغم انشاء ولاية صيدا ، في عام ١٦٦٠ ، لاحكام الرقابة على الجبل ، فان المسؤولية المباشرة عن امراء الشوف بقيت عملياً بايدي ولاة دمشق ،الذين تمتعوا بنفوذ كبير في المنطقة •

وفي حين كان ولاة الشام يعينون عادة من بين أصحاب رتبة

---

١ ــ أنظر حول الاهمية التجارية لقافلة الحاج كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 73-76.

وزير (علامته ثلاثة اطواخ) ، كان ولاة صيدا يعينون عادة من بين اصحاب رتبة بيلربي (علامته طوخان) • وعدا عن هذا التفاوت في النفوذ ، فقد زاد من اعتماد ولاة صيدا على ولاة الشام صلة القربى بينهم • وقد تدخل الولاة العثمانيون في شؤون جبل لبنان الداخلية ، واثاروا النزاع بين القيسية واليمنية •

وانقطعت السلالة المعنية ، في عام ١٦٩٧ ، بوفاة الامير احمد المعني ، دون أن يخلف ولداً ذكراً • وقد اجتمع مشايخ جبل لبنان من مقاطعات الشوف والعرقوب والشحار والجرد والغرب والمتن وكسروان في السمقانية ، وانتخبوا الأمير بشيراً بن حسين الشهابي ، أمير راشيا وابن أخت الامير أحمد المعني ، خلفاً له • ووافق والي صيدا والسلطان العثماني على هذا الاختيار ، بعد فشل محاولة قام بها اليمنية من آل علم الدين لدى السلطان لاختيار شخص آخر •

ومما يسترعي الانتباه في اختيار الامير بشير الشهابي أن مشايخ جبل لبنان هم الذين اجتمعوا وقرروا ذلك ، في حين كان أول أمير معني على جبل لبنان قد عين من قبل السلطان سليم الاول [١] • ويظهر من هذا أن مشايخ جبل لبنان كانوا أصحاب سلطة • وقد تأكدت سلطتهم وتبلورت بعد انتخابهم الأمير بشيراً ، وازداد تأثيرهم عليه نتيجة لذلك • وحين توفي الأمير بشير في ١٧٠٦ اجتمع مشايخ جبل لبنان من جديد ، واختاروا الامير حيدر بن موسى الشهابي خلفاً له • وكان ازدياد نفوذ المشايخ ، في الأصل ، أحد نتائج ضعف أمير الشوف ، اثر القضاء على فخر الدين المعني الثاني • ثم ما لبث ضعف الأمير أن استفحل ، بسبب ازدياد نفوذ المشايخ ، وأدى ذلك الى ظهور منافسين لسلطته ، كما سنرى خلال دراستنا لتاريخ جبل لبنان في الفصل التالي •

ونلاحظ في طريقة اختيار الامير بشير أن القاسم المشترك الذي جمع

---

١ ـ أنظر ص ٦٥ •

بين المشايخ الذين اختاروه هو كونهم قيسية ، رغم أنهم ضموا ممثلين عن مختلف المذاهب • ومما يؤكد قوة التعاطف القيسي انه طغى على الاختلافات المذهبية ، فاختير الشهابيون السنة خلفاء للمعنيين الدروز • وطبيعي أن صلة القربى بين الاسرتين قد ساعدت على ذلك ، ولكن التكتل القيسي كان ضرورياً لهم لتوطيد سلطتهم ضد اليمنيين المتربصين من آل علم الدين • وقد أصبح الصراع بين القيسية واليمنية أكثر حدة بعد هذا التكتل ، وبلغ أوجه ، وبالفعل نهايته ، في ١٧١١ حين اشتبك القيسية واليمنية في قتال دام في موقعة عين دارة • وكان يؤيد اليمنية كل من والي الشام ووالي صيدا ، في محاولة منهما لاضعاف الامير الشهابي • ولكن القيسية داهموا اليمنية ، قبل تلقيهم مساعدة هذين الواليين ، وقتلوا معظمهم ، وأبادوا أكثر زعماء آل علم الدين • ومن سلم من اليمنية لجأ الى جبل حوران الذي أصبح يعرف ، تبعاً لذلك ، بجبل الدروز • وكان تعبير جبل الدروز يطلق ، في الاساس ، على جبل لبنان ، ويستعمل أحيانا كبديل له • وهكذا ساد القيسية في جبل لبنان • ولما كان أغلب اليمنية يتألفون من الدروز ، وخاصة من آل علم الدين ، فان قتل بعضهم وهرب البعض الآخر كان يعني اضعاف العنصر الدرزي في بلاد الشوف •

وكان من نتائج موقعة عين دارة اعادة النظر في التقسيمات الاقطاعية في جبل لبنان ، لاملاء الشواغر في الاقطاعات التي حدثت اثر مقتل الامراء اليمنيين ، ولمكافأة المؤيدين للامير الشهابي • وقد رفع الامير حيدر من شأن الاسر التي دعمته ، فمنح رؤساءها لقب شيخ (أي ملتزم ، أو مقاطعجي ، يجمع الاموال الميرية في منطقته) في المقاطعات التي كانوا يسكنونها،وخاطبهم بلقب الأخ العزيز • كما انه أبقي مشايخ الاسر الأخرى التي ايدته كملتزمين • واشتهر بنتيجة ذلك آل الخازن وآل حبيش وآل الدحداح من الموارنةالقيسيين ، وآل العماد وآل جانبلاط وآل نكد وآل عيد وآل تلحوق وآل عبد الملك من الدروز القيسيين • وكانت كل أسرة من هذه الاسر

مسؤولة عن ادارة المقاطعة التي أعطيت لها ، وعن جمع عائدات الميري منها واعطائها للامير الشهابي الذي يقدمها بدوره الى والي صيدا المسؤول عن المنطقة • وخص الامير الشهابي آل أبي اللمع بلقب أمراء في منطقة المتن ، وتزوج منهم[1] • ونتج عن رفع شأن هذه الأسر ومخاطبة الامير الشهابي لرؤسائها بلقب الأخ العزيز أن توطدت سلطة هؤلاء الرؤساء ، فعارضوا الأمير الشهابي في المستقبل • ونلاحظ أيضاً أن زوال اليمنية كقوة سياسية في جبل لبنان أزال الخطر الذي كان يوحد بين القيسية • وكان من نتائج ذلك أن انقسم القيسية ، فيما بعد ، على أنفسهم ، وتجمعوا حول حزبي الجانبلاطية واليزبكية ، في أواسط القرن الثامن عشر •

وقد تجلت السلطة العثمانية اكثر شيء ، في عهد السلطان مراد الرابع ، في استرجاع بغداد من الصفويين ، اللذين كانوا قد احتلوها في عام ١٦٢٣ ، إثر ثورة بكر الصوباشي واستنجاده بهم[2] • ولا شك أن السيطرة الصفوية على بغداد قد امنت لهم اكثر من مجرد الاستيلاء على مدينة هامة استراتيجيا • فبالاضافة الى سمعة بغداد التاريخية ، فانها تضم ، وكذلك المناطق المجاورة لها ، أماكن مقدسة هامة ، وخاصة بالنسبة للصفويين الشيعة • كما أن احتلال الصفويين لبغداد سيحمي الحجاج الفرس المارين بها من تعنت وابتزاز سلطاتها • وبالاضافة الى ذلك ، فالذي

---

١ ــ أنظر حول هذه التطورات : الشدياق ، ج ١ ، ٦٧ــ٦٨ ، ج ٢ ، ١٥ــ٢٢ ؛ أحمد حيدر شهاب.لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، ثلاثة اجزاء ، نشر فؤاد البستاني وأسد رستم، بيروت ١٩٢٣ ، أنظر ج ١ ، ٢ــ١٦ ؛ انظر ايضاً احمد حيدر شهاب ، نزهة الزمان في حوادث عربستان ، مخطوط في مكتبة جامعة كيمبردج (بانكلترا) • برقم Or. 63 (9) انظر الاوراق ، ١ آ ــ ٦ ب ؛ أنظر ايضاً : نزهة الزمان في حوادث جبل لبنان ، مخطوط في المكتبة الوطنية بباريس ، برقم Arabe 1684 ، مجهول المؤلف . أنظر الاوراق ، ٣١ آ ــ ٣٥ آ ؛ مخطوط باريس ؛ حنانيا المنير ، الدر المرصوف في تاريخ الشوف ، نشره أغناطيوس سركيس ، مجلة المشرق ، الاجزاء ٤٨ــ٥١ (١٩٥٤ــ١٩٥٧) ، أنظر الجزء ٤٨ (١٩٥٤) ، ٦٧٢ــ٦٧٧ ؛ انظر ايضاً كتاب : هذا تاريخ جبل الدروز ابتداء سنة ١١٠٩ هـ وغايته ١٢٢٣ هـ ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 9790. We (II) 377 انظر الاوراق ، ٣ آ ــ ٥ ب ؛ انظر الدراسة المقارنة لهذه المصادر في كتابنا : *The Province of Damascus*, pp. 325-328.

٢ ــ أنظر ص ١٣٧ •

يحكم بغداد يسيطر على الطرق النهرية التي تربطها بالخليج العربي وبالمناطق الشمالية والغربيـة •

وقد ركز الصفويون اهتمامهم بعد سيطرتهم على بغداد ، على العراق الشمالي لان ذلك يفيد ، من ناحية ، في حمايـة حكمهم في بغـداد ، وفي شمالي فارس، من الخطر العثماني، ويمكنهم، من ناحية أخرى، من السيطرة على طرق التجـارة مع الأناضول وحلب ، خاصـة وأن حرير المنـاطـق الشمالية من بلاد فارس كان يصدر عن طريق حلب • كما ان ذلك يفيد في تمكينهم من الوصول الى سهوب روسيا لتمويل جيشهم بالعناصر البشرية منها • وقد دخل الصفويون كركوك ، بعد ان هرب واليها العثماني ، ثم احتلوا الموصل ، بعد مقاومة يسيرة • ولكن القوات العثمانية تمكنت مـن استعادة هاتين المدينتين من الصفويين[1] • ويبدو أن أقرب هذه المناطق من الأناضول ، وكونها بمتناول القوات العثمانيـة المرابطة في ديار بكر وحلب جعل تكاليف الاحتفاظ بها باهظة • ولجأ الصفويون ، عوضا عن ذلك ، الى فرض نفوذهم عن طريق الامراء المحليين ، فأقاموا لهم الاتبـاع بـين الامراء الاكراد في شهرزور ، ليوازنوا النفوذ العثماني بين امراء آخرين من الأكراد • ويبدو أن الصفويين كانوا يتطلعون الى عمل أكبر يفيـد في توطيد سلطتهم ، فقـد حاولوا ، في مناسبتين ، الاستيلاء على بلاد الكرج ، في جنوبي روسيا ، لان ذلـك سيمكنهم من تطويق العثمانيـين في شرقي الاناضول وتهديد خطوط مواصلاتهم مع الموصل • ويفيد ايضاً في تمكين الصفويين مـن الحصول على مصدر بشـري لتجنيد الجنود • وقـد قام الصفويون بمحاولتين لاحتلال بلاد الكرج : الاولى ، في عام ١٦٢٤ ، وقد فشلت ، والثانية ، في عام ١٦٣٢ ، وقد نجحت • واحتل الصفويون ، في الثانية ، المنطقة الممتدة قرب بحيرة وان • ولكن العثمانيين استعادوها منهم في العـام التـالي ، وأدى هـذا الى اقتتال شديد مع العثمانيـين ، في تلك

---

١ ـ العزاوي ، جـ ٤ ، ١٨٣ـ١٨٤ •

الاماكن • وكانت الحرب سجالا ، ولم يتم الصلح بينهما ، في تلك المناطق، حتى معاهدة عام ١٦٣٩ ، إثر استرجاع العثمانيين بغداد،التي حددت بموجبها الحدود بين الطرفين [١] •

اما موقف الصفويين ، بالنسبة للعراق الجنوبي ، فكانوا اقل طموحاً في الاستيلاء عليه • وربما يفسر ذلك بان منطقة الخليج والبصرة لم تكن مصدر تهديد عثماني رئيسي للحكم الصفوي في بغداد ، على الرغم من امداد حكام البصرة المتوارثين ، من آل أفراسياب ، السلطات العثمانية ببعض المساعدة والسماح لبعض قطعهم بالتقدم نحو بغداد [٢] • كما ان احتلال الصفويين لجنوبي العراق دونه عقبتان : سيطرة آل افراسياب على البصرة ، وقد صدوا بنجاح عام ١٦٢٦ حملة صفوية للاستيلاء على المدينة [٣] ، ثم خطر المنافسة الاوربية في الخليج •

وقد قام العثمانيون في الفترة بين احتلال الصفويين بغداد ، في عام ١٦٢٣ ، واستعادتهم لها ، في عام ١٦٣٩،بثلاث محاولات رئيسية لاسترجاعها واشتبكوا مع الصفويين في معارك ضارية • وكان حاكم بغداد الصفوي ، طيلة هذه الفترة ، صفي قولي خان • وقد جرى اول هجوم عثماني على بغداد في صفر ١٠٣٥/ تشرين الثاني ١٦٢٥ ، وكان على رأس القوات العثمانية احمد باشا الحافظ ، الذي سبق ان فشل في الحيلولة دون وقوع بغداد في أيدي الصفويين ، إبان ثورة بكر الصوباشي • وتمتعت القوات العثمانية ، على ضخامتها ، بدعم مادي من قبل حاكم البصرة علي باشا ابن افراسياب ، وكذلك من بعض قوات البدو • وخلال ثمانية اشهر من بدء الحصار العثماني لبغداد ، من صفر ١٠٣٥ وحتى شوال من العام ذاته ، حين تراجع الجيش العثماني مهزوما ، حدثت ثلاثة اشتباكات رئيسية بين

---

١ ــ انظر بشأن الصراع حول بلاد الكرج وبحيرة وان : العزاوي ، ج ٤ في ١٨٤ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ــ٢٠٧ •

٢ ــ المصدر السابق ، ج ٤ ، ١٨٩ •

٣ ــ المصدر السابق ، ج ٤ ، ١٩٥ •

العثمانيين والصفويين • ولكن الهزيمة حلت اخيرا بالجيش العثماني لان قيادته لم تكن تسيطر على افراده ، ولان استانبول لم تمده بالمؤن بشكل مناسب ، بسبب ما ذكر من الفتن فيها والاخطار الخارجية على اكثر من جبهة • وفي المقابل ، نرى الشاه يترأس الجيش الصفوي ، ويرمي في المعارك بمعظم قواته [1] •

وجرت محاولة عثمانية اخرى لاستعادة بغداد ، خلال عام من وفاة الشاه عباس الصفوي (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) ، الذي عرف بالكبير نظراً لأهميته • وقد قام بها الصدر الاعظم خسرو باشا ، الذي غادر استانبول في ١٨ شوال ١٠٣٨/١٠ حزيران ١٦٢٩ ، فتوجه الى منطقة شهرزور ، حيث دعمه عدد من الامراء الاكراد • وفي رمضان ١٠٣٨ / نيسان ـ أيار ١٦٣٠ تغلبت قواته على جيش صفوي في مهربان (قرب همذان) • وكان في نيته المتابعة وحصار اصفهان ، عاصمة الصفويين ، ولكن السلطان مراد الرابع امره بالتوجه الى بغداد • وشرعت قواته بمحاصرتها في ٢٠ صفر ١٠٤٠ / ٢٨ ايلول ١٦٣٠ • وظهرت ، من جديد ، مساوىء التنظيم العسكري العثماني ، اذ ان الجيش المحاصر لبغداد سرعان ما بدأ يشكو قلة المؤن • وعوضاً عن التريث والاستمرار في الحصار ، قام العثمانيون بهجوم على بغداد ، فهزموا ، وتراجعوا بعد اصابات كثيرة [2] • وهكذا فشلت المحاولة الثانية لاستعادة بغداد •

وجرت المحاولة الثالثة والناجحة لاستعادة بغداد في عام ١٦٣٩ • وترأس الحملة السلطان مراد الرابع ، وذلك بعد ان وطد حكمه في الداخل ، وأمن الوضع مع جيرانه في الخارج • وكان قد وضع حداً لتمرد فخر الدين المعني الثاني ، وانتصرت قواته عليه ، وقتله في عام ١٦٣٥ ، وأزال بذلك عنصر عدم استقرار وتهديد في بلاد الشام • واستطاع السلطان

---

١ ـ المصدر السابق ، ج ٤ ، ١٨٤ـ١٩٥ •
٢ ـ المصدر السابق ، ج ٤ ١٩٥ـ٢٠١ •

الآن ان يركـز جهوده وقواته في جبهـة بغداد • وقد بدأ مراد الرابـع استعداداته لمعركة بغداد في اوائل رجب ١٠٤٧ / النصف الثاني من تشرين الثاني ١٦٣٧ ، وغادر استانبول في ٢٣ ذيالحجة ١٠٤٧/٨ أيار ١٦٣٨ • ومرّ بحلب وبديار بكر ، ثم توقف بالموصل ، حيث استقبـل موفـد ملك الهند ، خرم شاه ، الذي استغل استعداد السلطان للهجوم على بغدادوانشغال الصفويين في صده ليعلن الحرب على الصفويين في الجبهة الشرقية ويسترد منهـم قندهار • وازاء هـذا الخطر من الجانبين بدأ الشاه الصفوي السعي للتحالف مع الدول الأوربيـة •

وما ان وصل الجيش العثماني الى اطراف بغداد حتى ركزّ اهتمامه على الباب الاوسط للمدينة ، الذي كان اقل تحصيناً من الباب الشرقيوباب الامام الاعظم ، اللذين تعرضا للهجومين العثمانيين السابقين على التـوالي ، فاعاد الصفويون تحصينهما اثر ذلك • وقد أربك هـذا الهجوم العثمـاني الصفويين ، الذين ، كعادتهم ، لجأوا الى الحصار ومشاغلة العـدو ، دون الهجوم ، بهدف ارهاق العثمانيين • وتمكنت القوات العثمـانيـة من نسف جانب من سور بغداد بواسطة لغم من البارود ، ومكنها ذلك من التدفق الى بغداد • وقد حاول الشاه الصفوي المفـاوضـة ، لكسب الـوقت ، ولكن العثمانيين ، وامكانات النصر متوافـرة لديهم ، رفضوا ذلك ، وتابعوا القتال الى ان سقطت بغداد في ايديهم في ١٨ شعبان ١٠٤٧ / ٢٥ كـانـون الاول ١٦٣٨ ، بعد حصار دام اربعين يوماً • وقد غادرها السلطان مراد الرابع في ١٢ رمضان ١٠٤٨ / ١٧ كانون الثاني ١٦٣٩ • وفي ٤ محرم ١٠٤٩/١٧ أيار ١٦٣٩ ، عقدت معاهدة صلح مع الصفويين ، وتمّ بموجبها تحديـد الحدود بين الطرفين[1] • وهكـذا عـادت بغـداد الى الحكم العثمـاني ، واستمرت كذلك حتى الحرب العالمية الاولى •

ولا شك ان الخاسرين الوحيدين في هذا الصراع على النفـوذ ، في

---

١ ــ أنظر حول فتح بغداد : الغزاوي ، جـ ٤ ، ٢٠٨ــ٢٢٨ ؛ المحبي ، جـ ٤ ، ٣٢٨ــ٣٢٩ •

العراق ، هم السكان المحليون • ورغم ان الولاء المذهبي كان يجعل بعض الفئات تميل الى غلبة الأتـراك ، وبعضهـا الآخـر الى انتصار الصفويـين ، فتكافأ كل فئة على موقفها [1] ، فقد نظر معظم الشعب الى المتصارعين عـلى السلطة بانهم اغراب • وبقي الشعب منفعلاً اكثر منه فاعلاً ، ودفع ثمن القتال دون ان يستفيد من نتائجه • وغالباً ما كان يبرز الاعيان المحليـون لا ليفرضوا موقفاً مستقلاً بل لتأييد حاكم او معارضة آخر ، وزمام الأمر بيد غيرهم • وكانت جماهير الشعب تجند لهـذا المطالب أو ذاك • ووجـد الشعب في ثورة بكر الصوباشي حكماً ان لم يكن يمثله فهو على الأقـل يبعده عـن خطر كـل من الطرفين المتنازعين ، أي العثمانيين والصفويين • ولأن بكر الصوباشي لا يمثل أياً من هذين الطرفين ، فقـد وقع ، ومعـه الشعب ، تحت نار الطرفين •

وتلاحظ في اوقات الحصار والقتال هجرة سكانية الى خارج الحدود وهجرة داخلية من الريف الى المدينة ، وخاصة في المناطق المحيطة ببغداد، التي تعرضت الى حصار العثمانيين وردود فعل الصفويين،في فترات متلاحقة• ومن شأن هـذا أن يزيـد في الأزمـة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مراكز المدن ، وخاصة بغداد • ونتج عن تكاثر الجيوش وآثار القتـال ، بالاضافة الى فيضانات الانهار ، ان انتشر الطاعون عدة مرات خلال قرن من احتلال العثمانيين العراق • ورغم ما يسببه هذا عادة من تعطيل للفعاليات البشرية والاقتصادية ، فان نتائجه الاخلاقية ، كـدرس وعبرة ، بالنسبـة لأصحاب التفسير الديني للأحداث ، لم تفد سوى بالقبول بالأمـر الواقـع ، ولم تتفوق ، في المدى البعيد ، على المساوىء التي سببتها الحروب • وتولّد لدى السكان ، بنتيجة ذلك ، نوع من اللامبالاة بقواعد الأخلاق [2] •

وقد تميّز الحكم العثماني لبغداد ، في الفترة التي تلت اعادة احتلالها، بالحزم والشدة ، وخاصة في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي•وشهدت

---

١ ــ العزاوي ، ج ٤ ، ١٨٤ـ١٩٥ •
٢ ــ أنظر : المصدر السابق ، ج ٤ ، ٢٠٦ـ٢٠٧ •

هذه الفترة ايضاً ازدياد نفوذ الانكشارية ، على غرار ما جرى في ولاية الشام • ولا ادلّ على شدة نفوذهم من توصل آغا الانكشارية الى حكم ولاية بغداد اكثر من مرة • وتخلل ذلك محاولات من قبل الدولة للبطش بهم •

وقد قام العثمانيون اثر استعادتهم بغداد باعادة تنظيم الادارة • وعاد الفارون من الحكم الصفوي اليها ، واستقر الأمن والهدوء ، ودعمت ابراج بغداد ، كما بنيت تحصينات أخرى لتقوية الدفاع عن المدينة [1] • ولكن فترة الهدوء هذه لم تطل في بغداد اذ سرعان ما هددها تمرد الانكشارية • ويذكر ان ابراهيم باشا ، والي بغداد في عام ١٠٥٧ / ١٦٤٧ ، قد فقد حاميه ، الصدر الاعظم صالح باشا ، الذي قتل ، وخشي ان يلحق الأذي به ، فتقرب الى عساكر بغداد المحليين المعروفين بجيش بغداد ، او الجيش الاهلي ، او قول بغداد ، ليتقوى بهم ويقاوم المؤامرات ضده • وكان افراد هذا الجيش ، كما تذكر المصادر المعاصرة ، يتقاضون مرتباتهم من مالية بغداد ، ويقيمون في المدينة • ولا يوجد مثلهم في البصرة في هذه الفترة على الأقل [2] • والى جانب هذا الجيش المحلي وجدت طائفة الانكشارية ، وتسمى أيضاً بالقابي قول ، وكان أفرادها يقيمون في القلعة ، ويسيطرون على منطقة الميدان ، ويتنافسون مع الجيش الاهلي • وقد وقف الانكشارية هؤلاء الى جانب المتسلم ، وتمكنوا بالحيلة من اعتقال ابراهيم باشا وحجزه في القلعة ، وصد هجمات الجيش الاهلي الذي حاول انقاذه • وقتل ابراهيم باشا بأمر سلطاني ، كما قتل مساعده (الكاخيا) ، وبعض مؤيديه من قادة الجيش الاهلي ، وسجن آخرون وصودرت اموالهم ، وهرب آخرون الى فارس • ويبدو ان الجيش الاهلي قد فقد كثيراً من نفوذه ، اثر هذه الضربة الساحقة التي لحقت به • وقد لوحق من بقي من أفراده في المدينة • وتذكر المصادر المعاصرة ان الاهلين تضايقوا ، في اعقاب ذلك ، مما يدل

---

١ ـ العزاوي ، ج ٤ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢٤ •
٢ ـ المصدر السابق ، ج ٥ ، ٦٠ـ١٠٢ •

على ان الجيش الاهلي كان يدافع عن مصالح الاهلين ، ويشده اليهم ، كما يبدو ، اختيار بعض أفـراده منهم ، واقامتهم في المدينة ، وتسلط أعدائهـم الانكشارية ، على السكان المحليين • وسيطر الانكشارية ، اثر ذلك ، على بغداد ، وفرضوا نفوذهم على الولاة • وكانت كلمتهم نافذة في استانبول [1] •

ونتـج عن ازدياد نفوذ الانكشاريـة في بغـداد ازدياد الفـواحش والرذائل ، وحاول الولاة فرض سلطتهم ومعاقبـة المسيئين [2] • ولـكن انشغالهم في محاولات اخضاع والي البصرة من آل افراسياب صرف اهتمامهم عن بغداد • وكانت كـل هزيمة لهم في البصرة تضعف نفوذهم في بغداد ، كما حـدث ، مثـلا ، في عام ١٦٥٣ ، حـين هزم والي بغـداد في حروب البصرة ، فكثرت الأقاويـل في بغداد ، وانتشـر اللصوص فيهـا ، ولجـأ الاهلون الى السلاح للدفاع عن انفسهم • واستغل بعض الانكشارية الوضع ، فقام احدهم ، عبدي ، بالعصيان ، وحين قتله الوالي اجتمع اعوانه واصطدموا به • وعين ، في هذه الاثناء ، آغـا للانكشارية من استانبول ، وخوّل قتل الوالي ، فهدأت الفتن ، اثر ذلك ، ولكن نفوذ الانكشارية تعاظم كثيراً [3] •

ادى زوال نفوذ الجيش الاهلي وتوطد سلطة الانكشارية الى ظهور الانقسام في صفوفهم ، وحـدث ذلك بشكل واضح ابان حملة تأديبية ضد البدو ، في أواخر عام ١٦٥٦ ، وانقسم الانكشاريـة على انفسهم ، سـواء منهم الذين في الحملة ، او في المدينة • واستغل ذلك افراد الجيش الاهلي المغلوبين فعادوا الى الظهور • وتدخل الوالي لفرض النظام ، يؤيده كبار ضباط الانكشارية • ولكن الانكشارية سرعان ما تناسوا خلافاتهم ، ووجهوا جهودهم ضد السلطة ، فطالبوا بقتل رئيس نقابة التجار (الشاه بندر) ، والروزنامجي ، وامين المخزن ، وتم لهم بالفعل قتل الأخيرين ، واضطر الوالي الى التهرب من وجههم • ويبدو ان كبار قادة الانكشارية قد خشوا

---

١ ـ المصدر السابق ، جـ ٤ ، ٣٢ـ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، وانظر ايضاً ، ص ٣٠٢ •
٢ ـ المصدر السابق ، جـ ٤ ، ٤٦ ، ٥٧ •
٣ ـ المصدر السابق ، جـ ٤ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٦ ـ ٥٧ •

رد فعل استانبول ، واهم من ذلك عودة الجيش الاهلي الى النفوذ من جديد ، فاستدعوا الوالي ، وطردوا افراد الجيش الاهلي مجدداً ، ونكلوا بزعمائهم وأفرادهم الذين أثاروا الفتنة [١] . ولم يعد الجيش الأهلي الى الاشتهار حتى أواخر القرن السابع عشر [٢] .

واستغل الولاة العثمانيون اعادة فرض هيبتهم مدعومين بالجيش الانكشاري ، فعمدوا الى فرض الضرائب الاضافية على الاهلين ، لصالح الدولة ، التي كانت تفرض احترامها في كل مكان في العالم العربي ، في اعقاب وصول آل كوبريلي الى الصدارة العظمى . ومما يدل على وحدة المصلحة بين الانكشارية والسلطة تعيين آغا الانكشارية في بغداد والياً عليها في عام ١٦٦١ ، وكذلك في عام ١٦٧٤ [٣] . وكان هذا الارتباط مدعاة لازدياد هيبة الدولة .

ويبدو ان ازدياد تسلط الانكشارية جعلهم يصطدمون في عام ١٦٧٦ بالسكبان ، وهم جند الوالي المرتزقة . وتمكن الوالي من اعادة الأمن [٤] . ونظراً لعمق نفوذ الانكشارية وتمتعهم بعدد من الامتيازات في بغداد ، مما زاد في الارتباط بينهم وبين الاهلين ، عمدت الدولة الى اخراج بعض الوظائف من أيديهم وتغيير بعض أفرادهم ، وبلغ عدد المستبدلين الألف ، وذلك بغية فرض هيبتها على طائفة الانكشارية . ونتج عن ذلك ظهور عداء شديد بين الأفراد القدامى والافراد الجدد ، داخل الانكشارية ، أدى الى اشتباك بينهم ، في عام ١٦٧٨ . وكانت اليد العليا للقدامى ، الذين قتلوا آغا الانكشارية [٥] . وأرسلت الدولة في عام ١٦٨٣ نحو ألف من الانكشارية لاضعاف نفوذ القدامى ، وقاموا بكثير من الفوضى [٦] . وفي

١ ــ الجزاوي ، ج ٥ ، ٥٧ــ٦١ .
٢ ــ المصدر السابق ، ج ٥ ، ١٤٧ ، قارن مع ص ١٠٠ .
٣ ــ المصدر السابق ، ج ٥ ، ٦٩ ، انظر ايضا ص ١٠٩ــ١١٠ ، ١١١ .
٤ ــ المصدر السابق ، ج ٥ ، ١١١ــ١١٢ .
٥ ــ المصدر السابق ، ج ٥ ، ١١٤ــ١١٥ .
٦ ــ المصدر السابق ، ج ٥ ، ١١٩ .

عام ١٦٨٨ عاد الانكشارية الى التمـرد ، وقتلوا بعض أعيان بغداد ، ولـم يهدأوا حتى قتل ثلاثة من زعمائهم [١] •

وتعرضت بغـداد ، والعراق ، بصورة عامـة ، في الفترة بـين عامي ١٦٨٩و١٦٩٠ ، الى قحط جعل الناس يهربون من القرى،بما في ذلك أطراف الموصل ، الى بغداد ، مما زاد في الأزمة الاجتماعية والاقتصادية والصحية • وانتشر الطاعون ، في اعقاب ذلك ، واخذ يفتك بالأهلين فتكاً ذريعاً • وادى ذلك الى كثير من الفوضى • فكثرة المتوفين والرسومات المفروضة عليهم ، ولجوء الدولة الى الضرائب الاضافية لمعالجة الحالةالاقتصادية جعلها تصطدم بالأهلين • كما ان القبائل استغلت انشغال وضعف السلطات لتعلن تمردها في منطقة الجزائر ، وتسلطت على انحاء كثيرة ، مما انقص عائدات الضرائب الحكومية • ويبدو ان خطر البدو قد طغى ، في هذه الفترة ، على اخبار الانكشارية • فما هو موقف السلطات العثمانية في العراق من القبائلالبدوية والامراء المحليين في هذه الفترة الثانية من الحكم العثماني ؟

لقد استعاد العثمانيون سلطتهم على بغداد ، ولكن امر اخضاع البدو كان اكثر صعوبة من ذلك ، خاصة وان بعض القبائل كانت تستمد الدعم من الصفويين ، او تلجأ الى مناطقهم حين يشدد العثمانيون قبضتهم عليها • وقد وجه العثمانيون ، اثر احتلالهم بغداد ، حملة عـلى مجموعة قبائـل خزعل ، في أطراف السماوة ، بسبب تهديدهـم الأمن في المنطقة ، وميلهـم الى الصفويين•فهرب شيخهم الى بلاد فارس ، بعد قتال مع العثمانيين،واكتفى هؤلاء بتعيين شيخ آخر من القبيلة ذاتها[٢] • ومن قبائل البدو المشـهورة آنذاك قبيلة أبـي ريشة ، وتنتسب الى طـيء ، وكانت متمركـزة في منطقة عانة ، وتتحكم بالطريق التجارية مع بلاد الشام ، وخاصة تلك المتجهة الى حلب • وكان يرأس قبيلة ابي ريشة ، في هذه الفترة ، خالـد العجاج ، وقد اعترف العثمانيون بسلطته ، ولقبوه « حاكم البر » و «أمير الصحراء»• وكان في السابق يميل الى حاكم بغداد الصفوي ، وهاجـم بأمر منه أطراف

---

١ ــ العزاوي ، ج ٥ ، ١٣٧ •
٢ ــ المصدر السابق ، ج ٥ ، ٢٠ـ٢١ •

حلب • وقد قتل من قبل مملوك لاحد التجار ، حين هاجم القافلة المتجهة من بغداد الى حلب •وخلفه في زعامة قبيلة ابي ريشة الأمير عساف،واعترف به العثمانيون اميرا في منطقة حلب ، وتقاضى مرتباً منهم • ويبدو ان الامير عساف قد اساء التصرف ، وفرض ضرائب كثيرة (تعرف بالأتاوة أو الخوة) على القرى ، وعبث بأمن المنطقة • وحاولت الدولة الايقاع به في عام ١٦٤٤، ولكنها فشلت ، واستمر هذا الأمير يمارس نفوذه حتى في أطراف بغداد [١]•

ولم تكن جميع القبائل البدوية مناوئة للعثمانيين • وقد استغل هؤلاء عداء القبائل بعضها لبعض ، فاعتمدوا على فريق لضرب الآخر ، كما حدث ، مثلا ، في عام ١٦٦٥ ، حين تحالف العثمانيون مع علي الشديد ، امير الموالي في منطقة بغداد ، أثناء قتالهم لشيخ قبائل المنتفق في منطقة البصرة ، الذي كان موالياً لحسين باشا افراسياب حاكم البصرة • وفشل العثمانيون في الوصول الى النصر [٢] •

ورغم نجاح الدولة في بعض حملاتها ضد بعض القبائل [٣] ، فقد ظل البدو عنصر عدم استقرار • وترتب على تمردهم نتائج اقتصادية سيئة ، مما اعاق الزراعة في الريف • ونتج عن سيطرة البدو على مناطق متعددة حرمان الحكومة من عائدات ضرائبها•وعمد البدو أحياناً الى فرض الضرائب على المسافرين لتأمين سلامتهم [٤]•وكثيراً ما تعرض البدو للحجاج المتوجهين من بغداد الى الحجاز ، وفرضوا المال عليهم ، واضطروهم للعودة [٥] •

والى جانب مشكلة البدو بقيت قضية البصرة واستيلاء آل افراسياب عليها شوكة في جانب السلطات العثمانية [٦]• وقد حاولت الدولة العثمانية ، اثر استعادتها السيطرة على بغداد ، القضاء على آل افراسياب ، فعمدت اولا

١ ــ العزاوي ، ج ٥ ، ٢٠ ــ ٢٤ ، ٢٨ ــ ٣٠ ، ٥٨ •
٢ ــ المصدر السابق ، ج ٥ ، ٨٥ ، ١٣٩ •
٣ ــ المصدر السابق ، ج ٥ ، ٩١ ; ١١٥ ، ١٣٩ ، ١٤٠ •
٤ ــ المصدر السابق ، ج ٥ ، ١٥٣ •
٥ ــ المصدر السابق ، ج ٥ ، ١٣٠ •
٦ ــ انظر ص ١٧٢ •

الى الحد من توسعهم وفرض نفوذهم على المناطق المجاورة ، ثم لجأت الى استثارتهم مباشرة [1] .

وقد توفي والي البصرة علي باشا افراسياب في عام ١٦٥١ ، وخلفه في الولاية حسين باشا افراسياب [2] .ويبدو أن عمي حسين باشا قد أثارهما تعيينه فاخذا يسعيان للوشاية به لدى العثمانيين ، وحاول هو بدوره الايقاع بهما ، فهربا الى السلطات العثمانية ، التي اغتنمت الفرصة للتدخل،ووجهت والي بغداد في حملة ضد حسين باشا . ووقف السكان المحليون الى جانب العثمانيين ، بسبب كرههم حسين باشا . ودخلت القوات العثمانية البصرة في عام ١٦٥٣ ، وهرب حسين باشا الى بلاد فارس . ولكن الولاية بقيت في اسرة افراسباب ، وعين العثمانيون عليها واحداً من الجناح الموالي لهم ، ضمن هذه الاسرة ، ويدعى احمد بك ، وهو عم حسين باشا . وانصرف احمد باشا الى ابتزاز المال واضطهاد الاهلين مما اثارهم . واستغل والي بغداد العثماني ذلك فبطش باحمد باشا ، وحاول اعادة البصرة الى الحكم العثماني المباشر ، فتمرد علية الناس ، واضطر للهرب . وعاد حسين باشا افراسياب الى حكم البصرة ، في عام ١٦٥٤ ، واستمر في ذلك حتى عام ١٦٦٦ [3] .

وقد حاول حسين باشا ، اثر استتباب الامر له في البصرة ، مد نفوذه على الاحساء . وكانت هذه الولاية تابعة للعثمانيين منذ فترة حكمهم الاولى لبغداد [4] . وقد تعاقب على حكمها ولاة عثمانيون في البدء [5] ، ثم برز في حكمها امراء قبيلة بني خالد باسم العثمانيين . وبسيطر عليها آل افراسياب منذ مطلع القرن السابع عشر . واثناء القتال داخل اسرة افراسياب ، انحاز حاكم الاحساء الى معارضي حسين باشا افراسياب ، فرد هذا بتحالفه مع

---

١ ـ العزاوي ، جـ ٥ ، ٢١ ، ٣١ .
٢ ـ انظر ص ١٧٣ .
٣ ـ العزاوي ، جـ ٥ ، ٤٦ ـ ٥١ .
٤ ـ انظر ص ٦٩ .
٥ ـ العزاوي ، جـ ٥ ، ٧٤ ـ ٩٦ .

بني خالد • واستطاعت قواتهما احتلال الاحساء • وحاول بنو خالد الانفراد بحكمها ، ولكن حسين باشا استعادها منهم في عام ١٦٦٧ •

لم يكن هذا الاتفاق سوى محاولة عثمانية لكسب الوقت لجعل حلفاء حسين باشا ينفضون من حوله • وفي عام ١٦٦٧ جدد العثمانيون هجومهم على حسين باشا ، واحتلوا القرنة والبصرة ، وهرب حسين باشا الى بلاد فارس ، ولم يقبل الشاه الصفوي دعمه بقواته خوفا من العثمانيين • وأخيراً توجه الى الهند ، وانقطع حكم الاسرة من العراق • والجدير بالملاحظة أثناء القتال بين العثمانيين وحسين باشا افراسياب ان الصفويين لم يستغلوا ذلك للتدخل في شؤون العراق ، فماذا كان عليه موقفهم منذ استرجاع بغداد من يدهم في عام ١٦٩٣ •

لقد عقد العثمانيون مع الصفويين معاهدة صلح في عام ١٦٣٩ ، واستمر احترام هذه المعاهدة قائماً لأن العثمانيين لم يكن بقدورهم ، أو في خططهم ، مهاجمة بلاد فارس • وبالمقابل ، لم يكن بمقدور الصفويين العودة الى احتلال اجزاء من العراق بسبب الضعف الذي اصاب سلطتهم • ولا ادل على انشغال الصفويين بمشاكلهم الداخلية من عدم انتهازهم فرصة وفاة السلطان مراد الرابع ، في عام ١٦٤٠ ، للتدخل في شؤون العراق ، بعد سنة فقط من اخراجهم بالقوة من بغداد • وكان الشاه الصفوي يخطب ودّ السلطان العثماني بارسال الهدايا اليه • ورد العثمانيون بمثل ذلك[١] • ويبدو ان الصفويين حاولوا التدخل في النزاع بين العثمانيين وحسين باشا افراسياب • وحين طلب هذا الأخير النجدة من الصفويين تدخل العثمانيون وذكروهم بضرورة احترام معاهدة الصلح[٢] • ويمكن القول ان مصلحة البلدين وانشغال كل منهما بمشاكله الخاصة ، دعمت استمرار الصلح بينهما[٣] • ولم تسوء العلاقات حتى الربع الاول من القرن الثامن عشر

---

١ ـ العزاوي ، ج ٥ ، ٣٧ ، ٦٢ •
٢ ـ المصدر السابق ، ج ٥ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٩٥ •
٣ ـ المصدر السابق ، ج ٥ ، ١٢٧ •

حين حلت محل الصفويين ، في حكم بلاد فارس ، زعامات قوية ، تركمانية بمعظمها • وقد تبنى الأفغانيون منهم المذهب السني ، بينما تبنى نادر شاه وأتباعه المذهب الجعفري ، وهو شيعي معتدل •

وأدى هذا التبدل في الزعامة الى تجدد النزاع مع العثمانيين ، كما سنرى في الفصل التالي ، وأدت المجابهة مع الصفويين ، في القرن الثامن عشر ، الى ظهور زعماء اقوياء في بغداد والموصل ، اسسوا ما يشبه السلالات ، واغتصبوا ، في الواقع ، السلطة لانفسهم •

وعلى غرار ماحدث في بلاد الشام والعراق ، فقد انعكست قوة الدولة ، في عهد السلطان مراد الرابع والوزراء العظام من آل كوبريلي ، على مجرى الأحداث في مصر • ففي عهد الاول جرت محاولات من قبل ممثلي الدولة في مصر للحد من نفوذ الصناجق والمماليك ، ومن ذلك اصطدام حاكم مصر ، موسى باشا في عام ١٦٣٠ ، مع الصناجق المماليك ، وقتله أحد زعمائهم قيطاس بك[1] ، ثم محاولة الدولة التخلص من زعيم الفقارية ، رضوان بك ، في عام ١٠٤٩/١٦٣٩ ــ ١٦٤٠ • ونجحت الدولة ، في الفترة بين ١٦٦٠ ــ ١٦٦٢ ، في القضاء على الفقارية والقاسمية [2] •

واستغل ولاة مصر القضاء على نفوذ الفقارية والقاسمية لتوطيد سلطتهم ، واستمدوا القوة والتصميم من محاولة السلطة المركزية في استانبول اعادة هيبتها في الولايات • ولكن سرعان ما ظهرت في مصر قوى جديدة تسلمت زمام المبادرة السياسية من الولاة ، وملأت الفراغ السياسي الذي خلفه زوال نفوذ الصناجق الفقارية والقاسمية • وتألفت هذه القوى اما من زعماء انكشاريين ، مثل كجك محمد وافرنج أحمد ، أو من بيوتات عسكرية تشكلت من أفراد عسكريين أحاطت بكل منهم طائفة من الاتباع عرفت باسمهم ، مثل طائفة البلفية المؤلفة من أتباع القائد العسكري حسن

---

١ ــ أنظر ص ١٧٦ •
٢ ــ أنظر ص ١٨٠ •

آغا البلفي ، وطائفة القازدغلية المؤلفة من أتباع القائد العسكري مصطفى كاخيا القازدغلي • وانتسبت هذه البيوتات العسكرية المتنافسة الى طائفة أو أخرى من طائفتي الفقارية والقاسمية•ونتج عن هذا الاندماج عودة الصراع بين الطائفتين في أواخر القرن السابع عشر،وبذلك لم تعدالطائفتان تقتصران تقريبا على الصناجق ـ المماليك ، كما في الفترة قبل سنة ١٦٦٢ • واشترك الآن في صراع الطائفتين،وبالتالي انضوى تحت لوائهما ، المماليك والطوائف العسكرية ، وخاصة الانكشارية والعزب • وعلى هذا ، فلم يعد الصراع بين الفقارية والقاسمية صراعاً ضيقاً يقتصر تقريبا على الصناجق ، ولكنه شمل الفرق المختلفة •

وقبل ذكر التطورات السياسية التي حدثت في هذه الفترة يجدر التعرف على الطريقة التي تكونت بها البيوتات العسكرية،والاسس التي قامت عليها • فالى جانب ورود المماليك الى مصر ، وتأسيسهم فيها بيوتات مملوكية تقوم على العلاقة بين الاستاذ وعتقائه وعلى الخشداشية بين المماليك ، تماما كما في عهد السلطنة المملوكية ، كان يرد أيضاً اليها شبان من الروم أغلبهم من المسلمين • وعند وصولهم الى مصر يلتحق أحدهم أو جماعة منهم بخدمة أحد الأغاوات العسكريين كحرس خاص ، ويسمى واحدهم في هذه الحالة سراجاً•وبعد خدمة بضع سنوات لدى الآغا يزداد الولاء بينه وبين سراجيه ، فيتقوى الآغا بهم ، ويدافعون عنه ، وينفق عليهم من ماله الخاص • ثم يعمد الآغا الى الحاق سراجيه باحدى الطوائف العسكرية ، ويتقاضون عندئذ مرتباتهم من الطوائف التي انتسبوا اليها ، أي من مال الدولة ؛ وينتسبون أيضاً الى نقابة تجار جدة الأغنياء للفائدة المادية • وينقلب اسم السراج ، في هذه الحالة ، الى تشراك Çirak [1] • ولا يعني هذا ان ولاء التشراك قد انقطع عن سيده ، بل يبقى ولاؤه له•والمقصود من هذه العملية ان السراج ، الذي تحول الى تشراك ، يأخذ نفقته الآن من موارد الدولة ، عوضاً عن موارد سيده الآغا • ويتمكن الآغا ،في هذه الحالة،

١ ـ أشار الجبرتي مثلا ، ج ١ ، ص ١٠٠ ، الى هذه التسمية بكلمة اشراق •

أن ينفق ماله في استخدام سراجين آخرين • وهكذا تنشأ حول الآغا طائفة يعيش أكثرها على موارد الدولة ، ويتمتع هو بولائها قبل غيره • ولم يكن مجال الترقي مغلقاً أمام أفراد التشراك في الطوائف العسكرية ، فبعضهم كان يرتقي الى أعلى المناصب • ويبدو ان السراجين أصبحوا يؤخذون ، بالتدريج ، من غير الشبان الاروام ، وظهر بينهم خليط من الأجناس [1] • وقد أتيح لهذه البيوتات العسكرية الشهرة بسبب ضعف الصناجق الفقارية والقاسمية •

وكانت السنوات القليلة التي تلت سنة ١٦٦٢ بمثابة امتحان لمختلف القوى في مصر ، اذ حاولت كل منها ملء الفراغ السياسي الذي حصل • وليس بغريب ، في مثل هذا الوضع ، أن يكون زمام المبادرة السياسية بأيدي حكام مصر الذين كانوا ، بحكم مناصبهم ، والقوة التي أظهروها حديثاً ، والدعم الذي نالوه من استانبول ، أقرب الى ملء هذا الفراغ • وقد بطش عمر باشا السلحدار (١٧٠٤ - ١٠٧٧/١٦٦٤-١٦٦٧) بزعماء فتنة ضارية في مصر أثارها في ١٠٧٥/١٦٦٤ - ١٦٦٥ محمد بك حاكم جرجا الذي كان يؤازره الزرب (جمع زربة Zorba ، التركية) ، أي العصاة من العساكر ، وقاسى الاهلون من أذاهم الشيء الكثير • ويشير ظهور الزرب في هذه الفتنة الى استغلال العناصر الانتهازية للوضع في غياب الزعماء التقليديين من الطائفتين الفقارية والقاسمية • كما أن شدة رد فعل عمر باشا ضدهم كانت بمثابة تحذير للعناصر الاخرى ، كالانكشاوية والعزب ، الذين قتلوا الدفتردار ، قبل قليل ، بتهمة قتل أحد أفرادهم •

---

١ - للتوسع حول ذلك انظر :

P. M. Holt, « The Career of Küçük Muhammad (1674-94) », *BSOAS*, XXVI. 2 (1962). pp. 274-276;

وانظر أيضاً :

Shaw, *Ottoman Egypt, pp. 8-10, Ottoman Egypt in the 18th century*, pp. 23 - 26.

ونلاحظ في الفترة بين ١٠٧٧ – ١٠٨٦/١٦٦٧ – ١٦٧٦ ان سلطة الولاة كانت موطدة في مصر • واستغل بعضهم هذه السلطة للاثراء وابتزاز الاموال ، وبطشوا بالذين عارضوا أوامرهم ، دون أن يخشوا أحداً •ولكن مظالم هؤلاء الولاة أتاحت الفرصة للعساكر ليظهروا كمدافعين عن السكان• ولذلك ما ان علم العساكر بنية الوالي الجديد أحمد باشا الدفتردار (١٠٨٦ – ١٠٨٧/١٦٧٥ – ١٦٧٦) فرض الضرائب على البيوت والمرافق العامة ، كالخانات والطواحين ، حتى ثاروا عليه ، وعزلوه ، وعينوا قائم مقام عوضاً عنه ، وقتلوا أحد الموظفين القائمين على الشونة [1] • وعندما حاول موظفو الديوان والصناجق التوسط ، صدهم العساكر ، وأظهروا معارضتهم لبقاء الباشا ، وأرسلوا العروض الى السلطان ، فعين حاكماً آخر على مصر [2] • ولم يكن عمل العساكر فريداً في نوعه ، ولكن المهم هنا أنه بعد زوال نفوذ الصناجق ظهر العساكر كقوة توازن قوة الولاة•وعادالصناجق ، في فترة ضعفهم ، الى الوقوف بجانب الولاة يدعمون سلطتهم وينفذون أوامرهم • ويذكرنا هذا بالوضع الذي ساد في مصر في الفترة بين ١٥٨٩ و ١٦٠٩ ، حين تمرد العساكر ، ووقف الصناجق الى جانب الولاة • ولكن العساكر الآن ، بسبب انقسامهم الى طوائف ، أشهرها الانكشارية والعزب، وبسبب عدم وجود عدو قوي مشترك يوحد بينهم ، لأن الولاة لم يكونوا جميعهم أقوياء أو مهتمين بكبح العساكر ، تعرضوا الى أزمات داخلية عنيفة • وقد حدثت هذه الازمات اما داخل الطائفة الواحدة – ومصدرها عادة في هذه الحالة مغامر يريد استلام زمام المبادرة – أو بين الطوائف المختلفة • وانضم الباشا والصناجق والفقارية والقاسمية والعلماء الى فريق أو آخر •

وقد شغل المسرح السياسي في مصر ، في الفترة بين ١٦٧٥ و ١٧١١

---

١ – تعبير مملوكي قديم استمر استعماله للدلالة على عنبر المؤن السلطانية •

٢ – أنظر حول الاحداث السابقة : أحمد شلبي ، ٢١ آ – ٢٦ ب ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٥٢ آ – ٥٨ آ ؛ علي بن حسن الشهالي ، ١١٧ ب – ١١٨ آ ؛ الجبرتي، ج ١ ، ٩٤ •

انكشاريان برتبة باش اوضة باشي [1] ، وهما كجك محمد وافرنج أحمد على التوالي • وقد شغل كجك محمد منصب باش اوضة باشي في طائفة الانكشارية منذ عام ١٠٨٥/١٦٧٤ ـ ١٦٧٥ [2] • ولا يعرف شيء عن أصله او نشأته ، ولكنه من منصبه المتواضع هذا تحدى كبار ضباط الانكشارية ، وتخلص من عدد منهم بالقتل • وكان الوالي العثماني يدعمه أحيانا ضدهم ، ويؤيد ، في الوقت ذاته ، اعداء كجك محمد ضده ، لاضعاف الفريقين • وضاقت الانكشارية ذرعاً باعمال كجك محمد ، فقاموا عليه ، في ٢٠ آب ١٦٧٨ ، يريدون قتله ، فالتجأ الى طائفة العزب ، ثم اتفق على نفيه الى الروم [3] •

ويبدو أن هذه الاضطرابات بين الانكشارية قد أضعفتهم ، وساعدت ، في الوقت ذاته ، على اظهار نفوذ طائفتي القاسمية والفقارية ، اللتين انتسب اليهما فريق أو آخر ، واشتهرت معهما الصنجقية من جديد • والجدير بالذكر ان كجك محمد منح رتبة الصنجقية وامارة الحج الى المملوك ذي الفقار الفقاري في محاولة منه ، كما يبدو ، لكسب دعم الفقارية • ويدل هذا على ان الفقارية ما زالوا على ارتباط وثيق بالمماليك ، وعلى درجة من القوة تستحق كسب دعمهم • أما القاسمية فكانوا ، شأنهم في فترة الصراع مع

---

١ ـ لفهم طبيعة هذا المنصب وأهميته يجب التعرف على مكانته ، بالنسبة للمناصب الاخرى في طائفة الانكشارية • ومن المعروف ، في مصر وغيرها ، أن قائد الانكشارية يسمى آغا • وكان العمل الاداري في هذه الطائفة في مصر ، في هذه الفترة ، ملقى على عاتق مساعد الآغا ، ويسمى كاخيا الوقت (Vakit Kahyasi) ، وكان هذا متقدما على حاملي رتبة الكاخيا بين الانكشارية ، وياتي بعد الكاخيا في الرتبة موظف يدعى جاووش أو جاويش (ويجب التفريق بين صاحب هذه الرتبة وبين افراد طائفة الجاووشية) ، ويرأس هؤلاء الموظفين شخص برتبة باش جاووش • والى جانب هؤلاء الموظفين الكبار بين الانكشارية ، الذين شكلوا جماعة ذات نفوذ عرفت بالاختيارية (من اختيار) ، وجد موظفون أدنى رتبة مثل الاوضة باشي (Oda Bashi) الذي كان يرأس احدى فرق الانكشارية التي تقيم عادة في اوضة (غرفة) • وكان يرأس الاوضة باشية موظف يسمى باش اوضة باشي • ويذكر البروفسور P. M. Holt انه لا يوجد دليل على امكانية الارتقاء من الوظائف الدنيا الى العليا ضمن هذه الطائفة ؛ انظر حول ذلك :
P. M. Holt, « The Career of Küçük Muhammed », p. 277.

٢ ـ انظر : الجبرتي ، ج ١ ، ٩٣ •

٣ ـ احمد شلبي ، ٢٦ ب ـ ٢٧ أ ؛ مخطوط باريس ، Arabe 1855 أ ٦٥ ب – أ ٧٥ •

الفقارية، في النصف الأول من القرن السابع عشر ، يقفون الى جانب السلطة، بدليل تعيين احدهم ، قيطاس بك بقناطر السباع ، قائم مقام ، من قبل حاكم مصر في عام ١٦٨٠[١] • وبعد ثلاث سنوات عين ذو الفقار أمير الحج في هذا المنصب • وقد قتل كجك محمد في عام ١٦٩٤ بتحريض من كاخيا الانكشارية مصطفى القازدغلي •

واشتهر افرنج احمد ، في اعقاب مقتل كجك محمد ، واثار في عام ١٧١١ فتنة كبرى ، بين مؤيديه ومعارضيه ، اشتركت فيها الطوائف العسكرية السبع ، والصناجق ، والمماليك ، وطائفتا الفقارية والقاسمية ، والموظفون الدينيون والمدنيون • ولشدة احداث تلك السنة اعتبرت على انها سنة الفتنة أو الواقعة الكبيرة ، وأصبحت تستخدم للتاريخ[٢] •

ولم يلعب الباشا العثماني أي دور قيادي في النزاع الذي دار ، خاصة بعد انتهاء عهد آل كوبريلي في الوزارة العظمى في عام ١٦٧٦ ، وكان ابطاله الانكشارية والعزب والفقارية والقاسمية • وتوطدت سيطرة القاسمية في اعقاب فتنة ١٧١١ ، واحتكروا نصف عدد الصناجق الذين قدروا آنذاك باربع وعشرين • ولكن القاسمية ، بنتيجة انتصارها ، بدأت تتفكك من الداخل، وبرز فيها جناحان متنافسان يمثلهما اتباع ايواز بك وأتباع ابراهيم بك أبي شنب • واستغل الفقارية ذلك ، وقضوا نهائياً على تفوق القاسمية في عام ١٧٣٠• وتسلموا الرئاسة (السلطة الفعلية) في القاهرة، واستمروا كذلك حتى حملة نابليون على مصر في عام ١٧٩٨ • ولكن الفقارية، بعد زوال القاسمية، الذين وحدوا صفوفهم ، بدأوا ينشقون على انفسهم • وظهرت بينهم كتلتان

---

١ ـ أحمد شلبي ، ٢٧ آ •

٢ ـ أنظر حول الاحداث السابقة : أحمد شلبي ، ٥٠ ب ـ ٦١ ب ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ٣٨ ـ ٤٧ ، ٩٦ ؛ الدرة المنصانة ، ٤٦ آ ـ ٥٩ آ ؛ مصطفى القينلي ، ٦١ آ ـ ٨١ آ•
كتب عن هذه الاحداث أيضا :
A. Raymond, « Une Révolution au Caire sous les Mamelouks : La crise de 1123/1711», *Annales islamologiques*, t. VI (Le Caire, 1965), pp 95-120; **Holt**, *Egypt and the Fertile Crescent. 88-90.*

متنازعتان ومختلفتان في التركيب ، وهمـا القازدغليـة ، من أتباع مصطفى كـاخيا القازدغلي ، وهم أبرز البيوتات العسكرية ، والمماليك • وبزوال القازدغليـة ، بعد قليل ، انقسم المماليك ، بدورهم ، على أنفسهم ، ونشأت المنازعات بينهم [1] • ثم ظهر علي بك بلوط قبان في الستينات ، وتوصل الى زعامة مصر •

---

١ ـ أنظر: حول تفاصيل الاحداث السابقة : احمد شلبي ، ٦٢ ب ـ ٢٣١ آ ؛ الدرة المنصانة ٥٧ آ ـ ١٢٠ ب ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ١٢٦ ـ ١٣٠ ، ١٤٤ ؛ مصطفى القينلي ، ٨١ آ ـ ١٧٩ ب ؛ بلاد الشام ومصر ، ٢٨٤ ـ ٢٨٥ •

الفصل الرابع

تعاظم النفوذ المحلي

في القرن الثامن عشر

الانحطاط العثماني

فقد العثمانيون ، منذ معاهدة كارلوفيتز في عام ١٦٩٩ ،[١] زمام المبادرة العسكرية في اوروبا ، وجابهتهم دول اوروبية مختلفة . ففي الربع الاول من القرن الثامن عشر اظهرت جمهورية البندقية عجزها عن الاحتفاظ بسيادتها في البحر الابيض المتوسط ، فتخلت للعثمانيين ، بموجب معاهدة بساروفيتز في عام ١٧١٨ ، عن شبه جزيرة المورة ، بعد ان احتلتها مده عشرين عاماً . وبالمقابل ، كسبت الامبراطورية النمساوية ، بنتيجة هذه المعاهدة ، بنات تمسفار ، والأفلاق الصغرى ، وبلغراد ، وأجزاء من صربيا . ولكن العثمانيين ، بدعم من فرنسا ، استعادوا هذه المناطق، بموجب معاهدة بلغراد في عام ١٧٣٩ . ولم تعد النمسا تشكل ، بعد ذلك ، خطراً كبيرا على العثمانيين . وانهى صلح سيستوفا (Sistova) بينهما ، في عام ١٧٩١ ، اكثر من قرنين ونصف من العداء[٢] . وكانت الدول الرئيسية في اوروبا الوسطى والغربية منشغلة ، آنذاك ، بمشاكلها الداخلية وبخلافاتها مع بعضها ، مثل حروب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ - ١٧٤٨) ، وحرب السبع سنوات (١٧٥٦ - ١٧٦٣) .

ثم حلت روسيا محل النمسا في تهديد العثمانيين ، وكان الخطر

---

١ - انظر : ص ١١٧ .

٢ - انظر U. Heyd. "The later Ottoman Empire in Rumelia and Anatolia". *The Camb. Hist. of Islam,* Vol. I, 354-5.

الروسي قد اخذ بالازدياد في عهد القيصر بطرس الاكبر (١٦٨٢-١٧٢٥)، الذي سعى جاهدا للوصول الى مياه البحر الاسود الدافئة واحتلال منطقة آزوف • ورغم انتصار روسيا على الدولة العثمانية في القتال الذي دار بينهما ، في الفترة بين ١٧٣٥ و ١٧٣٩ ، فان المكاسب التي حصلت عليها روسيا كانت ضئيلة • وبعد فترة من السلم استمرت حتى عام ١٧٦٨ ، استؤنف القتال بين الدولتين ، واستمر حتى عام ١٧٧٤ • وكانت روسيا قد ازدادت قوة في عهد القيصرة كاترين الثانية التي تبنت مبادىء فلسفة التنور ، وادخلت الاصلاحات الى الدولة ، فهزمت الدولة العثمانية في هذه الحرب • وهدد اسطول روسي مواصلاتها وشواطئها في البحر المتوسط ، وقدم المعونة الى علي بك المملوكي وظاهر العمر ، اللذين استغلا الحرب الروسية - العثمانية ، فتمردا على الدولة ، واحتلت قواتهما دمشق في حزيران ١٧٧١•[1] وبموجب معاهدة كجك قاينارجه ، التي أنهت الحرب الروسية - العثمانية ، استقل تتار القرم عن الدولة العثمانية ، ثم ضمتهم روسيا اليها في عام ١٧٨٣ ، وبذلك خسر العثمانيون ، لأول مرة ، مناطق يسكنها اتراك مسلمون • وكان هذا ضربة كبيرة لنفوذهم ، لان خسائرهم، قبل ذلك ، اقتصرت على مناطق مسيحية في اوروبا • وهكذا وصلت روسيا الى شواطىء البحر الاسود ، وحصلت على حرية الملاحة التجارية في المياه التركية وعبر البوسفور والدردنيل • واستخدم السلطان لاول مرة ، في وثيقة رسمية ، لقب خليفة في معاهدة كجك قاينارجه ، بغية اظهار نفوذه على كافة المسلمين ، وللتعويض عما فقده من سمعة سياسية وعسكرية • ثم تجدد القتال بين العثمانيين والروس ، في الفترة بين ١٧٨٧ و ١٧٩٢ وانتهى بصلح ياسي (Jassy) ، في عام ١٧٩٢ • وبموجبه مدت روسيا حدودها حتى نهر الدنيستر ، وأصبح هذا النهر منطقة الحدود بين الدولتين[2]

---

١ - انظر : ص ٣٠٢ •

٢ - أنظر : حول الاحداث السابقة - تحفة الأحباب ، ١٩٥ آ - ١٩٩ آ ؛
Heyd, "The later Ottoman Empire...", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. 1, 354ff; Creasy, 328-338, 419-445.

وشهدت الجبهة الفارسية ، منذ الربع الاول من القرن الثامن عشر ، تجدد القتال بين العثمانيين والحكام المتعاقبين في بلاد فارس ، مثل الافغانيين الستة ، الذين أطاحوا بالحكم الصفوي في عام ١٧٢٢ ، ونادر شاه ، الذي ، بعد أن تستر وراء الحاكم الصفوي الشرعي وطرد الافغانيين من الحكم في عام ١٧٢٩ ، استقل بحكم بلاد فارس في عام ١٧٣٦[١] •

وقد حدثت ، اثر هزائم العثمانيين المتكررة في القرن الثامن عشر ، محاولات عثمانية للاصلاح ، وخاصة في المجال العسكري ، لتتمكن الدولة من مقاومة الجيوش الاوروبية المتفوقة • وكان العثمانيون قد اطلعوا على تفوق الغرب ، بواسطة احتكاكهم به عن طريق الحرب ، والتجارة ، والبعثات الدبلوماسية الاوروبية المقيمة في استانبول ، والوفود العثمانية التي كانت ترسل ، بين فترة وأخرى ، الى اوروبا ، واللاجئين من الغرب الى الامبراطورية العثمانية الذين نزحوا اليها في اعقاب فشل الثورات القومية في شرقي أوروبا • وقد أدخل العثمانيون ، منذ الربع الاول للقرن الثامن عشر ، اصلاحات في مجالات الطباعة والبحرية والهندسة والمدفعية • ولكن الخطوة الأساسية التي كان على المسؤولين العثمانيين اتخاذها هي اصلاح الجيش العثماني • وكان الاكشارية ، الذين شكلوا عماد هذا الجيش ، قد وصلوا الى درجة كبيرة من الفوضى والتسلط ، ولم يعودوا يرهبون سوى السلاطين العثمانيين الذين قاسوا منهم،وقتل بعضهم بسبب ثوراتهم•

واغتنم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) توقيع معاهدة ياسي مع روسيا في ١٧٩٢ وانشغال الدول الاوروبية بمشاكل الثورة الفرنسية آنذاك ، فأصدر في سنتي ١٧٩٢ ـ ١٧٩٣ عدة قرارات ، سميت بالنظام الجديد ، لاصلاح الادارة المالية ، وادارة الولايات ، والتجارة ، ولايجاد جيش جديد على الطراز الاوربي • وبالتدريج ، اقتصر تعبير « النظام الجديد » على الجيش الجديد لانه كان أبرز هذه الاصلاحات • ولم يتمكن السلطان سليم الثالث من الصمود في وجه المقاومة لاصلاحاته ،

---

١ ـ أنظر : ص ٣٢٧ •

وخاصة من قبل الانكشارية والعلماء ، وعبثاً حاول استبعاد النقمة ضده بالتخلي عن الاصلاح • وفي سنة **١٨٠٧** عزله الانكشارية عن السلطنة ، بموافقة شيخ الاسلام في استانبول ، وحُل الجيش الجديد ، وأصيب بنكسة قويسة[١] •

ورغم فشل السلطان سليم الثالث في اصلاحاته ، فان محاولاته وضعت عناصر الاصلاح وجهاً لوجه أمام العناصر المحافظة ذات المصلحة في الابقاء على الامبراطورية كما هي • ولم ينفذ الاصلاح ويقض على الانكشارية حتى عهد السلطان محمود الثاني (**١٨٠٨ – ١٨٣٩**) واذا استعرضنا قائمة السلاطين العثمانيين منذ عهد مراد الرابع (**١٦٢٣ – ١٦٤٠**) وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، لوجدنا أن سليماً الثالث هو أول من أعاد زمام المبادرة السياسية ، في هذه الفترة ، الى السلاطين • وكان يتنازع على السلطة العليا في استانبول كـل من الصدر الأعظـم والكزلار آغــا ، وانتسب حكــام الولايــات الى هــذين الموظفين ، وتوقف مصيرهــم عـلى نتيجة الصراع بينهمــا • وتأثرت ، تبعاً لذلك ، الادارة في الولايات ، كما حدث مثلا حين عزل أسعد باشا العظم عن ولاية الشام في **١٧٥٧** ، بسبب عداء الكزلار آغا له • وسعى الكزلار آغا في تعيين صنيعته حسين باشا بن مكي على الشام ، وكان والياً ضعيفاً ، فهاجم البدو قافلة الحج في عهده ، وأبادوها تقريبا[٢]

ونتج عن ضعف الدولة العثمانية تجاه الدول الاجنبية وعن الصراع على النفوذ في استانبول ، أن تناقصت هيبة السلطة المركزية في الولايات ، وعجزت عن تحقيق الأمن • وأتاح ذلك الفرصة لظهور حكام محليين في كثير من الولايات العربية وغيرهـا في القرن الثامن عشر • ففـي روميلية والاناضول ظهر أعيان محليون ، سموا في الاناضول باسم (Derebeys)

---

١ – أنظر حول محاولات الاصلاح في الامبراطورية العثمانية :
Lewis, *Emergence*, pp. 40-72;
أنظر أيضاً مـا كتبه J. H. Kramers ، تحت عنوان : Selim III ، في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاولى •

٢ – أنظر ص ٢٦٦ •

أي سادة الوديان ، وكانوا اما من كبار الملاكين ، أو أصحاب الاقطاعات ، أو الملتزمين • وقد أمنوا النظـام في مناطقهم ، فاعترفت الدولة بسلطتهم لأنه ليس بامكانها القضاء عليهم أو القيام بتأمين النظام مثلهم •

واختلف الوضع في الولايات العربية عنه في الاناضول وروميلية ، فيما يتعلق بنوعية الحكام • ففي بلاد الشام وولاية الموصل ظهرت ، على الصعيد السياسي ، اسر محلية حاكمة : آل العظم في الاولى ، وآل الجليلي في الثانية • وتمكن أفراد هاتين الاسرتين أن يصبحوا ولاة محليين خـلال القسم الاكبر من القرن الثامن عشر • وقـد عـاصر آل العظم ، في منطقة فلسطين الزعيم المحلي ظاهر العمر ، الذي بلغ درجة كبيرة من السلطة ، وتحدى العثمانيين في ساحات القتال ، ثم خلفه في حكم بلاد الشام الجنوبية أحمد باشا الجزار (١٧٧٤ ـ ١٨٠٣) ، الذي اعتمد على قوات مملوكية، استمرت تحكم ولاية صيدا من بعده • وظهر في ولاية بغداد ، في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، حكم وراثي تمثل في حسن باشا وابنه أحمد باشا ، ثـم تلاهما مماليكهما في حكـم بغداد والبصرة ، واستمر هؤلاء في الحكم حتى عام ١٨٣١ •

كما ظهرت على الشاطيء الشرقي من الجزيرة العربية اسر بدوية حاكمة وضعت أسس الامارات اللاحقة في الكويت ، والبحرين ، وقطر ، وأبي ظبي ، وعمان •

وبلـغ المماليك في مصر ، في القرن الثامـن عشر ، ذروة نفوذهـم وسلطتهم في عهد علي بك ، ولـم يعد الباشا العثماني يتمتع بسلطة فعلية كبيرة • وكان ذلك بداية النهاية بالنسبة للنفوذ العثماني في مصر ، اذ بعد اضعاف سلطة المماليك ، نتيجة لحملة نابليون بونابرت ، ظهر محمـد علي الالباني ، وسيطر على مقدرات البلاد •

وظهرت في طرابلس الغرب ، في القرن ذاته ، الاسرة القرمانلية ، التي استمرت في الحكم من عام ١٧١١ حتى عام ١٨٣٦ • وكانت تركية

الاصل ، من قرمان ، هاجر احد افرادها الى طرابلس الغرب حيث عمل بحاراً ، وأصبح ابنه باش آغا فرسان الساحل • ثم خلفه في هذا المنصب ابنه أحمد القرمانلي ، الذي توصل الى حكم ولاية طرابلس الغرب في عام ١٧١١•وفي تونس والجزائر ظهرت حكومات محلية عسكرية تصرفت وكأنها مستقلة بسبب التلاشي التدريجي للوجود العثماني فيهما •

وتجدر الاشارة الى أن أياً من الحكام المحليين السابقين لم يعلن استقلاله عن الدولة العثمانية ، رغم ما تمتعوا به من سلطة مطلقة تقريباً في مناطقهم • ويفسر ذلك بأن السلطان العثماني ، مهما بلغ ضعفه السياسي والعسكري ، كان لا يزال زعيم المسلمين ، وان أي خروج عليه من شأنه أن يؤلب الرأي العام الاسلامي ضد الثائر • كما أن الانفصال عن الدولة العثمانية سيجعل المنفصل عرضة ليس فقط الى مقاومة الدولة العثمانية بل الى أطماع القوى المعادية الخارجية التي يسهل عليها عندئذ الانفراد به • واضطر السلطان العثماني على القبول بوجود هؤلاء الحكام المحليين ، رغم ازدياد نفوذهم ، لأنهم كانوا يقدمون الطاعة له ، ويحافظون على الأمن في مناطقهم ، وأهم من ذلك لانه كان يصعب عليه القضاء عليهم • واذا كانت أوضاع الدولة العثمانية والانحطاط الذي أصابها ، في القرن الثامن عشر ، قد ساعدت على ظهور هؤلاء الحكام المحليين ، الذين ملأوا الفراغ الذي تركه ضعف السلطة العثمانية في الولايات ، فان هناك أسباباً محلية أيضاً مكنت هؤلاء الحكام من الظهور في هذا القرن وفي هذه الأماكن بالذات ، وأتاحت لهم الاستمرار في الحكم،رغم اختلافهم في الأسس التي استمدوا منها قوتهم • ففي دمشق أدى تكليف ولاتها باستمرار بامارة الحج ، منذ الربع الأول من القرن الثامن عشر ، الى اطالة حكم هؤلاء الولاة ، من آل العظم وغيرهم ، طالما أنهم يؤمنون سلامة القافلة • وفي العراق أبقي الولاة المحليون الذين استطاعوا صد هجمات حكام بلاد فارس • ويعتبر اشتهار المماليك في مصر استمراراً لمحاولات مملوكية لم تنقطع ، منذ بدء العهد العثماني ، للسيطرة في مصر • وأسهمت الاسرة القرمانلية في طرابلس

الغرب في صد الاعتداءات الخارجية على السواحل • ويعتبر الحكم العسكري في تونس والجزائر ظاهرة محلية ازدهرت على نشاط العساكر وصدهم الأخطار الداخلية والخارجية •

وليست الأمثلة السابقة عن ازدياد نفوذ القوى المحلية وظهور سلالات حاكمة ، ضمن الاطار العثماني ، سوى مظهر واحد من ردود الفعل المحلية ، من الوجهة السياسية ، على انحطاط السلطة العثمانية • وقد حدث ، في القرن الثامن عشر ، تحد من نوع آخر لسلطة العثمانيين ، على الصعيد الديني ، فظهرت الحركة الوهابية في الجزيرة العربية ، احتجاجاً على البدع ، وخاصة الطرق الصوفية المتطرفة ، التي انتشرت في الدولة العثمانية ، برعاية السلاطين العثمانيين • وانتقدت الحركة الوهابية أيضاً ضعف السلطان العثماني وعدم أهليته للدفاع عن العالم الاسلامي في وجه الأعداء • ويمكن اعتبار هذه الحركة - بشخص مؤسسها ، والمنطقة التي ظهرت فيها ، والدعوة الى تعاليم الاسلام في عهده الاول ، رد فعل عربي ، باطار ديني ، على انحطاط الدولة العثمانية ، ومحاولة لارجاع زمام المبادرة ، في البلاد الاسلامية ، الى العرب •

والى جانب هذه القوى السياسية والدينية ، التي دافعت عن العالم العربي ، كل في منطقتها وباسلوبها ، في وجه الاخطار المحيطة به ، فقد ازداد أيضاً دور المنظمات المحلية المرتبطة بالشعب في الدفاع عن مصالحه ، مثل النقابات الحرفية ، والاشراف ، ومشايخ الحارات ، والانكشارية البرلية • وأصبح أيضاً للقبائل البدوية ، في مختلف الولايات العربية ، دور أكبر مما سبق ، رغم ما في ذلك من سلبيات وايجابيات ، وسنرى تفاصيل هذه التطورات في الأبحاث التالية • ويكفي أن نؤكد هنا أن تعاظم النفوذ المحلي ، على هذه المستويات المختلفة ، هو في أساس القطيعة ، ثم الثورة ، التي قامت ، في البلاد العربية ، على العثمانيين • وان أية دراسة لا تأخذ بعين الاعتبار التطورات المحلية التي حدثت في القرن الثامن عشر تقصر عن فهم واقع العالم العربي في القرن التالي •

ازدياد النفوذ المحلي في بلاد الشام

رأينا في الفصل السابق كيف أن ردود الفعل ، في الولايات العربية، على ضعف السلطة العثمانية ، قد تجلت ، منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر ، بثورات عسكرية ، سرعان ما تلتها ثورات الأمراء ، من الزعماء المحليين ، أو العسكريين ، أو المماليك • ثم بدأت قاعدة التحدي والثورة على العثمانيين بالاتساع ، في القرن الثامن عشر ، كرد فعل على انحطاط السلطة العثمانية ، من ناحية ، وبسبب التطورات المحلية ، من ناحية أخرى •

ونلاحظ ازدياد النفوذ المحلي في بلاد الشام ، في القرن الثامن عشر، على مختلف المستويات • وقد أصبح كبار الموظفين الدينيين ، مثل المفتين ونقباء الأشراف ، يعينون من بين الاسر المحلية ، والاستثناء الوحيد استمرار تعيين القضاة الحنفيين في مراكز الولايات من الاروام لحرص الدولة العثمانية أن يكون أمر تطبيق الشريعة في يدها ، وأيضاً بسبب وجود كثرة من المرشحين في استانبول لمنصب قاضي دمشق بصورة خاصة• وكان القضاة يتبارون في دفع المال « لشراء » هذا المنصب الهام في دمشق ، مركز الخلافة السابق • ولكن نواب القاضي الحنفي العثماني ، وكذلك قضاة المذاهب الاخرى ، الذين نابوا عنه في النظر في قضايا اتباع مذاهبهم، كانوا بمجموعهم من السكان المحليين • ولو درسنا قوائم أسماء المفتين الحنفيين في دمشق مثلا منذ الفتح العثماني لوجدنا أن حوالي نصف المفتين في القرن السادس عشر كانوا من أصل رومي ، والبقية من أصل محلي • واختلف الأمر في القرن السابع عشر حين تناقص عدد المفتين الذين من أصل رومي الى اثنين من أصل ثلاثة عشر مفتياً • وكان جميع المفتين في

القرن الثامن عشر من الاسر المحلية • وتبـرز منذ منتصف القرن السابع عشر وحتى الربـع الاول من القرن التالي اسرتان في الافتاء وهمـا : آل العمادي وآل المرادي • وحتى حوالي عام ١٧٥٠ كان حوالي ثلث المفتين الحنفيين في دمشق مـن آل العمـادي ، ثـم اشتهرت اسـرة المرادي بعد ذلـك [١] •

وتبدى النفوذ المحلي ، في بلاد الشام ، أكثر شيء في ظهـور الولاة من آل العظم ، منذ الربـع الاول من القرن الثامن عشر ، وقـد اعتبروا « أولاد عرب » ، من قبل معاصريهم • وكذلك في ظهـور البرلية ، وهـم دمشقيون تسربوا الى طائفة الانكشارية وسيطروا عليها ، فعرفت تبعاً لذلك بالانكشارية البرلية ، أي المحلية • واحتكـر دائـرة الدفتردار في دمشق موظفون من أسرة الفلاقنسي ، نسبة الى قرية فلاقنس في ضواحي حمص ، واشتهر من بينهم فتحي الدفتري ، الذي نافس الولاة مـن آل العظـم • واشتهر في حلب ، في القرن الثامن عشر ، الاشراف ، الذين عبر السكان المحليون ، من خلالهم ، عن ازدياد نفوذهم ، ودخلوا في صراع مرير مع السلطة العثمانية المتمثلة بالانكشارية • وسيطر في المناطق الريفية من بلاد الشام ، في هذا القرن ، ظاهر العمر في فلسطين ، وبدو العنزة في البادية الشامية •

بداية حكم آل العظم • ـ تتفق معظـم المصـادر عـلى أن آل العظـم أسرة محلية اشتهرت في منطقة معرة النعمان ـ حماة ، وتوصلت الى حكم هـذه المنطقة في الربـع الاول من القرن الثامـن عشر • ويذكـر رسلان

---

١ ـ انظر حول قوائم المفتيين المخطوط التالي المجهول المؤلف وعنوانه : رسالة فيمن تولى وقضا وأفتى في مدينة الشام من حين انقضاء دولة الجراكسة الى سنة ألف ومائتين وأربعين (هجرية) ، يوجد هذا المخطوط في :
Universitatsbibliothek, Tübingen, MS. M. a. VI, 8.

القاري[1] ان اسماعيل باشا العظم ، أول ولاة آل العظم في بلاد الشام ، كان فلاحاً من المعرة (اختصار معرة النعمان). ويشير ابن كنان [2] المعاصر الى اسماعيل باشا بأنه ابن العظم النعماني ، أي من معرة النعمان . وعندما عزل سليمان باشا العظم عن ولايته الثانية على دمشق ، ذكر ابن كنان أنه خرج من دمشق وذهب الى بلاده ، أي الى حماة حيث أقامت أسرة سليمان باشا وحيث بنى سرايا ، وتعني هنا بيتاً كبيراً [3]. وقد أعطي آل العظم، اثر ازدياد سلطتهم ، معرة النعمان وحماة وحمص على شكل « مالكانه »[4] ، وذلك في الربع الأول من القرن الثامن عشر . ويذكر الخوري ميخائيل بريك المعاصر أن « أولاد العضم أصلهم من معرة حلب أولاد عرب » [5]، ويقصد بتعبير « أولاد عرب » أنهم من السكان المحليين . واعتبر بريك وصول آل العظم المحليين الى الحكم في ١٧٢٠ حادثاً هاماً جعله ، بالاضافة الى أسباب أخرى ، يبدأ تاريخه لحوادث الشام من هذه السنة [6]. وكان بريك حريصاً على ابراز اختلاف هوية السكان المحليين عن الاروام(وتعني هذه اللفظة العثمانيين عادة ، ولكن بالنسبة لبريك فانها تعني الروم الارثوذكس) ، فذكر أن أحد بطاركة دمشق في أوائل العشرينات من القرن الثامن عشر كان « من أولاد العربيين [7] . وذكر القناصل الفرنسيون [8] المعاصرون المقيمون في بلاد الشام بأن آل العظم كانوا عرباً [9] .

---

١ ــ انظر مخطوطه الذي نشره المنجد في كتابه « ولاة دمشق في العهد العثماني » ، ص ٧٧.

٢ ــ الحوادث اليومية ، جـ ٢ ، ١٦٣ ب .

٣ ــ المصدر السابق ، ٨٤ ب ، ٨٥ آ ، ١٠٥ آ .

٤ ــ انظر ص ٤٧ ؛ الطباخ ، جـ ٣ ، ٢٣٥ .

٥ ــ بريك ، ٣٦ .

٦ ــ المصدر السابق ، ٢ .

٧ ــ بريك ، ٣ .

٨ ــ انظر : A. E. B1 1118 : Tripoli, 10. 10. 1746; A. E. B1 1033 : Seyde, 16. 7. 1763 (Bulletin).

٩ ــ اختلف المؤرخون حول أصل آل العظم ، وأشهر من كتب في ذلك عيسى اسكندر المعلوف،

ويذكر المؤرخ الحلبي عبد الله بن ميرو [1] ، الذي عاصر ولاة آل العظم ، أن ابراهيم العظم ، والد اسماعيل باشا ، كان جندياً في المعرة في حوالي منتصف القرن السابع عشر ، وقد قتل في المعارك التي نشبت بين أهل المعرة والتركمان المجاورين • وولد ابنه اسماعيل في المعرة قبل سنة ١٠٧٠/١٦٥٩ ـ ١٦٦٠ ، ثم أصبح في الربع الاول من القرن الثامن عشر حاكماً على المعرة وحماة • وبوساطة والي حلب ، عارفي أحمد باشا ، أعطي اسماعيل طوخين ، وعين والياً على طرابلس في أوائل العشرينات من القرن الثامن عشر ، وأعطي بهذه المناسبة أمارة جردة الحج • وفي عام ١٧٢٥ عين والياً على الشام [2] •

لقد تمتع آل العظم بغنى وافر من « مالكاناتهم » في المعرة وحماة وحمص ، وأفادوا من الازدهار الاقتصادي في ولاية طرابلس • فقد نشطت في هذه الولاية تجارة التبغ والحرير ، بعد انقطاع حرير فارس الذي كان يستورده التجار الانكليز عبر حلب والاسكندرونة ، اثر غزو قيصر روسيا بطرس الأكبر لبلاد فارس الشمالية ؛ كما صدرت منها مادة

ولكنه لم يصل الى نتيجة حاسمة في الامر،فذكر مرة في مجلة المشرق،مجلد ٢٤(١٩٢٦)، في مقال عنوانه : « قصر أسعد باشا العظم » ، ص ٥ ـ ٦ ، ان أصل آل العظم من قبيلة بني عزيم العربية في البلقاء • ولكنه يميل الى الاعتقاد في مقال لاحق بعنوان : « المرحوم جميل بك العظم » ، الذي نشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ١٤ (١٩٣٦) ، ص ٥٦ ، ان أصل آل العظم من قونية بالاناضول ، ويقلل هنا من أهمية انتسابهم الى قبيلة بني عزيم حيث يذكر هذه المعلومات في الهامش • ويدل قوله : « والله أعلم » ، بعد ذلك ، على حيرته وفي الحقيقة حيرة غيره من المؤلفين ، حول أصل آل العظم •

١ ـ توفي سنة ١١٨٤/١٧٧٠ ـ ١٧٧١ ، وترك تاريخاً لا يعرف مكانه الآن ، وقد اطلع عليه ونقل منه خليل المرادي صاحب « سلك الدرر » ، انظر : الطباخ ، ج ١ ، ٣٦ـ٣٧ ، كما اقتبس منه الطباخ في أعلام النبلاء ، وكردعلي في خطط الشام •

٢ ـ انظر : الطباخ ، ج ٣ ، ٣١٦ ، ج ٦ ، ٤٨١ ؛ كردعلي ، ج ٢ ، ٢٨٩ ؛ كامل الغزي ج ٣ ، ٢٩٥ ـ ٢٩٦ •

القلى الى أوروبا لصناعة الصابون والزجاج فيها [١] . واشترى آل العظم بمالهم المتزايد الدعم لهم في استانبول ، وكان لهم وكيل فيها يرعى مصالحهم يسمى خليل أفندي الذي استمد نفوذه من كاخيا الصدر الأعظم [٢] .

وتميز حكم اسماعيل باشا العظم في دمشق باحتكاره بيع المواد الغذائية، وخاصة اللحوم ، وأفاد من ذلك ببيعه المواشي التي يملكها بالأسعار التي يريدها [٣]. واعتمد اسماعيل باشا على قواته من المغاربة في تدعيم سلطته [٤] ومنع حدوث ثورة ضده على غرار الثورة التي قام بها الدمشقيون ، قبل قليل ، ضد عثمان باشا أبي طوق [٥] . كما أرضى الرأي العام الدمشقي بحمايته ، في أول ولايته ، الدمشقيين الذين نفاهم أبو طوق من دمشق وأرسلهم الى استانبول ، فتحطم مركبهم قرب طرابلس، وأنقذهم حاكمها، سليمان باشا العظم ، بناء على أوامر أخيه اسماعيل باشا . ورحب أيضاً في دمشق بشريف مكه المعزول ، الشريف يحيى ، الذي اضطهده سابقاً أبو طوق [٦]. وأرضى الرأي العام الديني أيضاً ببنائه مدرسة وحماماً في سوق الخياطين ، وبنى حماماً أخرى في حي الخراب [٧] . وأمن اسماعيل باشا سلامة الحج من البدو ، باستثناء سنة حكمه الاخيرة في الشام ، في ١٧٣٠، حين هاجم بدو بني حرب في الحجاز قافلة الحج الشامي [٨] .

وقد شدد اسماعيل باشا قبضته على المناطق الريفية خارج دمشق ،

---

١ ـ انظر : A. E. B[III] 45 : Marseille, 6. 8. 1728 .

٢ ـ انظر : PRO, S. P. 110/25, pt. I : Aleppo, 14. 8. 1725, Aleppo 29. 10. 1725; A. E. B[I] 1022 : Seyde, 22. 11. 1729.

٣ ـ انظر : الموصلي ، ٥٥ ب ـ ٥٨ ب ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ٧٤ آ ؛ القاري ، نشر المنجد ، ٧٧ .

٤ ـ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ١ ، ١٦٥ آ ؛ بريك ، ٦ .

٥ ـ انظر : ص ١٩٧ .

٦ ـ انظر : الموصلي ، ٥٥ ب ، ٥٦ ب؛ ابن كنان، الحوادث اليومية، ج ٢، ١٦٧ ب ـ ١٦٨ ب.

٧ ـ انظر : المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ٥٣ ، ٢٨١ ، ج ٣ ، ٩٣ . ج ٤ ، ١٥٤ ، ٢١٨ ، مطمح الواجد ، ١٩٤ آ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ١١٨ آ .

٨ ـ الطباخ ، ج ٦ ، ٤٨١ ؛ انظر أيضا ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٦١ ، ٦٢ .

فمنع الرعاة من ممارسة رعي المواشي دون اذن منه ، وذلك لانجاح سياسة احتكار اللحوم في دمشق [1]. واتبع سياسة التوازن بين القوى المحلية في الولاية لايجاد الاستقرار ، فاعترف بنفوذ أسـرة طوقان في منطقة نابلس ليوازن بها القوى البدوية المجاورة ، كما أنه وازن قبائل البدو بعضها مع بعض ، فاعترف بسلطة الشيخ راشد النعيم في منطقة صفد ، وبسلطةالشيخ جبر في حوران • وحين ازداد نفوذ الشيخ جبر طرده اسماعيل باشا الى منطقة الخليل ، وأقام مكانه الشيخ طاهر بن كليب•واستفاد اسماعيل باشا من هذا التوازن ، فقام بابتزاز الاموال من الفلاحين ، وبلغ بهم الأمر أن تمردوا عليه في ١٧٢٩ في منطقة القدس ، وخف لنجدته أخـوه سليمان باشا حاكم صيدا [2] •

وبلغ آل العظم درجة كبيرة من السلطة بين ١٧٢٥ و ١٧٣٠ • وقد عين سليمان باشا العظم على ولاية طرابلس بعد نقل اسماعيل باشا الى ولاية الشام في ١٧٢٥ • وفي سنة ١٧٢٧ عين ابراهيم باشا العظم ، ابن اسماعيل باشا ، على ولاية طرابلس ، ونقل سليمان باشا الى ولاية أورفـه ، ولكنه عزل عنها في سنة ١٧٢٨ وعين على ولاية صيدا • وهكذا حكـم آل العظم ولايات الشام وطرابلس وصيدا في آن واحـد • وعـين ابراهيم باشا ابنه ياسين بك حاكماً على اللاذقية التي كانت تتبع ولاية طرابلس ، كما عـين اسماعيل باشا ابنه أسعد بك متسلماً (نائباً) له عـلى « مالكانات » حمـاة والمعرة • وامتد بذلك حـكم آل العظم عـلى المنطقـة الواقعـة بين حلب

---

١ ـ الموصلي ، ٥٨ آ ـ ٥٩ ب •

٢ ـ انظر حول الاجراءات السابقة : المصدر السابق ؛ ابن كنان.الحوادث اليومية ، جـ١ ، ٩٩ آ ؛ مرتضى الكردي ، كتاب تهذيب الاطوار في عجائب الامصار ، مخطوط فيمجموعة برلين ، برقم 6142. Spr. 23 ورقة ٣١ آ ؛ النبر ، جـ ١، ٧٩ـ١٠٤ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B[1] 978 : Acre, 15. 4. 1730, Acre, 18. 10. 1730.

والعريش[١] • ولكن أحداثاً هامة كانت تجري ، آنذاك ، في استانبول ، وقد قاسى آل العظم من نتائجها •

ثار الانكشارية في استانبول في ١٥ ربيع الاول ٢٨/١١٤٣ ايلول ١٧٣٠ احتجاجاً على الحرب الخاسرة في الجبهة الفارسية وعلى ابتزاز الحكام المال من الاهلين لتمويل تلك الحرب في الظاهر ، بينما كانوا ينفقونها في الواقع على بذخهم • وطالب الثائرون بقتل الصدر الاعظم وكاخياه والقبطان باشا (قائد الاسطول) ، فنفذ السلطان أحمد الثالث ذلك • وكان هذا بداية الضعف من جانبه • وكانت خطوة الثائرين التالية عزل السلطان أحمد الثالث وتنصيب محمود الاول مكانه[٢] •

وقاسى آل العظم من هذه الثورة لان وكيلهم في استانبول ، خليل أفندي ، فقد نفوذه بمقتل كاخيا الصدر الاعظم • ونتج عن الثورة أيضا تبدل واسع بين كبار الموظفين في الولايات • وصدرت الاوامر بعزل جميع الحكام من آل العظم في بلاد الشام وسجنهم ومصادرة أموالهم • ورغم أن ولاة آخرين قد عزلوا بهذه المناسبة أيضاً الا أن ما حل بآل العظم يفوق المألوف في مثل هذه الحالات ويثير الاهتمام • ويبدو أن سياسة الولاة من آل العظم في ابتزاز الاموال أثناء حكمهم قد أثارت عليهم السكان المحليين والمسؤولين الذين تلقوا عدة شكاوى حول ذلك • ومما يؤيد هذا أن ثورة شعبية حدثت ضد ابراهيم باشا العظم والي طرابلس وابنه ياسين بك حاكم اللاذقية بمجرد وصول أنباء ثورة استانبول • ولم تحدث ثورة في دمشق ضد اسماعيل باشا لان سياسته في السابق كانت تقوم على ابتزاز الاموال واسترضاء السكان في آن واحد ، وأيضاً لأن القابي قول واليرلية استغلوا أنباء الثورة للقتال فيما بينهم ، وربما ألهى ذلك السكان عن اسماعيل باشا• أما سليمان باشا العظم فقد تجنب ثورة السكان ضده لأنه تودد، أثناء ولايته،

---

١ ـ انظر : بريك ، ١٢٤ •

٢ ـ انظر : بلاد الشام ومصر ، ٣٠٠ •

الى سكان المدينة ، بينما شدد قبضته على الفلاحين في الريف الذين أصبحوا أغنياء نتيجة للازدهار الاقتصادي الذي عم المنطقة وبسبب ازدياد شراء الفرنسيين للقطن والحرير والقلي المنتجة محلياً • وقد تعرض ، قبل عزله ، الى مقاومة مسلحة من قبل سكان منطقة طبرية بسبب ظلمه لهم • ولما كان التزام طبرية في عهدة ظاهر العمر ، فقد تأزمت العلاقة بينه وبين سليمان باشا بعد ذلك •

وكانت الادارة العثمانية في استانبول مستاءة من اسماعيل باشا بسبب هجوم بدو بني حرب في الحجاز على قافلة الحج ، التي كان أميرها ، في ١٧٣٠ • ومن الاسباب الاخرى التي دعت الى عزل آل العظم رغبة الدولة في مصادرة أموالهم الكثيرة بسبب حاجتها اليها لتمويل حربها مع حكام فارس • وتشهد كثرة الاموال التي صودرت منهم على غنى آل العظم واستخدامهم مناصبهم ، كعادة حكام ذلك الزمن ، للاثراء • كما أن مجيء موظفين جدد الى الحكم في استانبول أتى بمرشحين آخرين لحكم الولايات[1] •

ولم تكد تنقضي سنة واحدة على سجن الولاة من آل العظم ومصادرة أموالهم حتى أطلق سراح اسماعيل باشا وأبنائه في جمادى الاول ١١٤٤/تشرين الثاني ١٧٣١ • وعين اسماعيل باشا والياً في جزيرة كريت ، حيث توفي في ١١٤٥/١٧٣٢–١٧٣٣ ، ورافقه الى كريت ابنه ابراهيم باشا • أما أسعد باشا فتخلف عن الذهاب مع أبيه بسبب مرضه[2] • وكان سليمان باشا الوحيد من آل العظم الذي عين على ولاية محلية ، اذ ما كاد يطلق سراحه من قلعة صيدا في ١٥

---

١ ــ أنظر حول الأحداث السابقة :
A. E. B[1] 1116 : Tripoli, 26. 10. 1730; A. E. B[1] 978 : Acre 15. 4. 1730, Acre, 3. 5. 1730, Acre, 18. 10. 1730; Charles - Roux. 59.
أنظر ايضا ، بريك ، ١٢٣ ــ ١٢٧ ؛ الطباخ ، ج ٦ ، ٤٨١ •

٢ ــ أنظر : الطباخ ، ج ٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ج ٦ ، ٤٨١ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ٦٥ آ ؛ أنظر ايضا : A. E. B[1] 1116 : Tripoli, 25. 11. 1731

ربيع الثاني ١١٤٤/١٧تشرين الاول ١٧٣١حتى عين والياً على طرابلس[١].

ونستدل من عفو الدولة عن آل العظم وتعيينهم مجدداً انهم قد استعادوا نفوذهم • وبالفعل فقد حدثت تطورات لصالحهم في استانبول اذ قضي فيها، في آذار ١٧٣١ ، على زعماء الثورة،واستعاد خليل أفندي ، وكيل آل العظم، بعض نفوذه ، وعاد الى حماية مصالح آل العظم[٢] • والجدير بالملاحظة أن سليمان باشا برز الآن أكثر من أخيه وأبنائه لانه عين على ولاية طرابلس ، بينما عين اسماعيل باشا والياً في كريت التي كانت عادة تستخدم كمنفى • ولم يعط أحد من أبناء اسماعيل باشا أية ولاية • ويفسر تعيين سليمان باشا على طرابلس بعدم تمكن واليها ، الذي خلف ابراهيم باشا العظم،من القضاء على ثورة قامت ضده فيها • واتفق ذلك مع ازديد نفوذ آل العظم فعين سليمان باشا على طرابلس دون أخيه وأبنائه لأن سجل هؤلاء في طرابلس واللاذقية،وحتى دمشق ، لم يكن نظيفاً•أما سليمان باشا فقد عرف عنه،حين ولي طرابلس (١٧٢٥ - ١٧٢٧) وصيدا (١٧٢٨ - ١٧٣٠) ، تودده الى سكان المدينة ، وهم الذين يصنعون الثورات عادة ، وتشديد قبضته على سكان الريف الضعفاء • ويستدل من ذلك أيضاً أن سليمان باشا كان أوسع نفوذاً من أخيه اسماعيل باشا،وقد بقي ، بعد ذلك ، الشخصية المسيطرة بين آل العظم حتى وفاته في ١٧٤٣ وانتقال الزعامة في الاسرة الى ابن أخيه ، أسعد باشا العظم •

---

١ - انظر : مصطفى اللقيمي ، موانح الانس برحلتي لوادي القدس ، مخطوط في جامعة كيمبردج برقم Qq. 238، الاوراق،١٤١ آ - ١٤٢ ب:سيذكر هذا المخطوط باختصار كما يلي : اللقيمي ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ١٠٩ آ ؛ انظر أيضا : A. E. B[1] 1116 : Tripoli, 25. 11. 1731.

٢ - انظر : A. E. B[1] 402 : Constantinople, 30. 11. 1730; B[1] 1116 : Tripoli, 15. 1. 1731; Joseph Von Hammer - Purgstall, *Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours,* traduite de la langue allemande par J. J. Hellert, 18 vols., Paris, 1835 - 43. voir, Vol XIV, 242 :

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Hammer .

واهتم سليمان باشا الآن بالحصول على ولاية الشام ، وقد تم له ذلك في شعبان ١١٤٦/كانون الثاني ١٧٣٤ ، بعد أن عين عبد الله باشا الايضنلي ، الذي حكم هذه الولاية منذ عزل اسماعيل باشا العظم ، في منصب عسكري في الجبهة الفارسية • ويدل تعيين سليمان باشا على ولاية الشام على ازدياد نفوذه ونفوذ آل العظم ككل • والجدير بالذكر أن أخاه اسماعيل باشا كان مقررا أن يخلفه في ولاية طرابلس ، ولكنه توفي قبل مغادرة كريت • وقد حاز سليمان باشا ، أثناء ولايته على طرابلس ، شهرة كبيرة حين أخمد ثورة فيها ، في بدء ولايته ، وحين أسهم في حماية الحج بصفته أميراً للجردة[1] •

اهتم سليمان باشا في ولايته الاولى على الشام (١٧٣٤ – ١٧٣٨) بتوطيد الأمن في دمشق ، فقضى على بعض اللصوص وقطاع الطرق ، وأزال بعض المظالم ، في أول ولايته ، وزرع الهيبة في نفوس الدمشقيين • كما أنه وضع حداً لمنازعات اليرلية والقابي قول ، وبطش بعدة أفراد منهم • وأمن سليمان باشا سلامة قافلة الحج ، طيلة عهده ، مما حببه الى الرأي العام المسلم • وزاد من ذلك اشراكه الدمشقيين في الحفلات التي أقامها والاجتماعات الرسمية التي دعا الى عقدها • وبنى مدرسة ، قرب بيته ، في زقاق البريد ، كما بنى حمامين : في الهرمية وفي حي الخراب•وشيد أيضاً قيسارية (خاناً ، أو وكالة) في سوق العبي[2] • ويدل تشييد القيسارية على الازدهارالاقتصاديالذي عمالشام في هذهالفترة بسبب نشاطالتجارةالاوربية في بلاد الشام الجنوبية •واستفادت دمشق من ذلك لأنها كانت مركزالتبادل التجاري بين الساحل والداخل ، ونقطة مرور القوافل التجاريةبينالبصرة

---

١ ـ انظر : A. E. B[1] 1117 : Tripoli, 30. 7. 1732

٢ ـ انظر : القاري ، نشر المنجد ، ٧٨ ؛ بريك ، ٨ ـ ٩ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ؛ ج ٢ ، ٦٩ ب ، ٧٦ أ ، ٨٣ آ ، ٨٤ ب ، ٨٦ ب ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ١ ، ٨ ؛ جـ ٢ ، ٢١٥ •

والساحل ، ولانها كانت أيضاً مكان تجمع الحجاج ، وبالتالي سوقاً لبضائع الحجاج والتجار المرافقين لهم • واستفاد سليمان باشا من هذا الازدهار الاقتصادي ومن بيع واردات « مالكانته » في حماة التي منحتها الدولة له ، بالاشتراك مع ابن أخيه أسعد باشا ، وذلك بعد وفاة اسماعيل باشا • واشترى سليمان باشا عدة بيوت وبساتين في دمشق[1] ، مما يدل على رغبته في جعل دمشق مركزاً آخر لأسرته ، وحوّل بعض هذه الممتلكات الى وقف أهلي (ذري) ، ليتحاشى بذلك مصادرة أمواله وممتلكاته من قبل الدولة •

وطبق سليمان باشا في دمشق سياسته التقليدية في الحكم التي تقضي بالتودد الى سكان المدينة لكسب رضاهم وتوطيد نفوذه بينهم ، وبالتشدد مع سكان الريف لابتزاز المال منهم بحجة اخضاعهم الى سلطة الدولة • وقد جرد سليمان باشا ، في أواخر سنة ١٧٣٦ ، حملة ضد الامير ملحم الشهابي أمير جبل لبنان ، بسبب هجمات أتباعه على منطقة البقاع الخاضعة لولاة الشام • وفشلت الحملة من الناحية العسكرية بسبب الخلاف بين سليمان باشا ووالي صيدا ، الذي اشترك في الحملة بناء على أمر السلطان • وقد تمت المصالحة بين سليمان باشا والامير ملحم ، بوساطة القنصل الفرنسي في صيدا ، وقبل الامير ملحم بدفع مائة وخمسين الف قرش الى سليمان باشا مقابل التخلي عن الحملة ضده ، ووضع بعض الرهائن لدى القنصل الفرنسي حتى يتم دفع المال[2] •

وجه سليمان باشا ، بعد ذلك ، اهتمامه نحو ظاهر العمر الزيداني ، الذي تقوى كثيراً • وينتسب الزيادنة الى عمر الزيداني • وقد اختلفت

---

١ ـ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، ج ٢ ، ٨٤ ب •

٢ ـ أنظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٣٠ ؛ نزهة الزمان ، مخطوط باريس ، ٣٦ آ ؛ الشدياق،ج ٢،٢٥ (يجب دراسة المصادر اللبنانية بكثير من الدقة والنقد ومقارنتها مع غيرها نظراً لارتباكها،وخاصة في تاريخ الاحداث في المناطق المجاورة لجبل لبنان)؛ انظر أيضا : A. E. Bt 1024 : Seyde, 4. 2. 1737, Seyde, 17 7. 1737; Charles Roux, 65.

المصادر حول أصلهم ، فمن قائل انهم أسرة بدوية ، ومن قائل ان أصلهم من الاشراف • وقد رأينا كيف ان الامير بشيراً الشهابي عين في سنة ١٧٠٠ عمر الزيداني ملتزماً في منطقــة صفد ، وجعله تحت امرة الامــير منصور الشهابي • وحين توفي الامير منصور في ١٧٠٢ ، خلفه عمر الزيداني في حكم صفد • واستمر في ذلك حتى بعــد أن استعاد والي صيدا في ١٧٠٦ المسؤولية المباشرة في حكم صفد وبلاد المتاولة من أمير الشوف الشهابي • وبعد وفــاة عمر الزيداني ، اشتهر ظاهر العمر ، من بين جميع اخوته ، كملتزم في منطقة صفد ، وبدأ في أواخر العشرينات من القرن الثامن يوطد نفوذه في تلك المنطقة (١) •

وقد تحالف ظاهر مع الامــراء المحليين ليدعم بواسطتهم نفوذه ، ثم ما لبث أن تخلص منهــم • وكان آل ماضي وآل جرار ، زعمــاء منطقة نابلس ، ينافسون سلطة ظاهر العمر الذي كان تابعا لوالي صيدا بسبب التزامه مناطق صفد وطبرية التابعة لولاية صيدا • وحين اعتدى ظاهر العمر على مناطق آل ماضي وآل جرار ، التابعين لوالي الشام ، استغل سليمان باشا الفرصة للقضاء على نفوذ ظاهــر الذي قوى تحصينات طبرية لمقاومة مثل هــذا الهجوم • وقاد سليمان باشا حملة ضده ، واشترك معه فيها بدو بني

---

١ ـ أنظر : الشدياق ، ج ٢ ، ١٦ ـ ١٧ ؛ حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٨٦ ؛ نزهة الزمان ، مخطوط باريس ، ٣٢ آ ، ٣٣ آ ؛ عبود الصباغ ، الروض الزاهر في أخبار ظاهر ، مخطوط في المكتبة الوطنية في باريس ، برقم Arabe 4610 ، انظر الاوراق ، ٢ آ ـ ٣ آ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : عبود الصباغ؛ ميخائيل الصباغ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني ، نشره قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٥ ، ١٥ ـ ٣٦ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : ميخائيل الصباغ ؛ انظر أيضا الكناش المخطوط في المكتبة الوطنية في ميونيخ بالمانيا الذي يضم عدداً مــن الاوراق والكراريس التي تعالج تاريخ آل الصباغ ، وخاصة ابراهيم الصباغ مستشار ظاهر العمر ، وتاريخ الزيادنة وظاهر ، برقم Cod. Arab. 901 .

صقر ، أعداء ظاهر ، وأسر بنتيجة الحملة أخ لظاهر وأعدم في دمشق[1] .
وتنفس ظاهر الصعداء حين عزل سليمان باشا عن ولاية الشام في تموز ١٧٣٨ .

ازدياد نفوذ اليرلية . ـ رأينا فيما سبق [2] درجة الضعف التي وصل اليها اليرلية في دمشق في الربع الاول من القرن الثامن عشر . وقد سيطر القابي قول الذين دعموا الولاة ضدهم . وبرز العلماء يدافعون عن الدمشقيين ضد مظالم الولاة وعوانيتهم .

واستعاد اليرلية بعض نشاطهم في ولاية اسماعيل باشا العظم على الشام ، وكان ذلك رد فعل على سياسته في احتكار بيع اللحم خاصة . وحين تعرض كاخيا اسماعيل باشا ، في ١٧٢٦ ، أثناء غياب الوالي للحام من الاشراف خرق أنظمة الاحتكار ، انتصر له اليرلية ، وأغلقت البلد بنتيجة ذلك ، وهوجمت المحكمة . ولم تهدأ الحالة حتى أطلق سراح المعتقلين واوقفت العقوبات[3] . وحدث في صيف السنة نفسها أن تعرض الصوباشي (مدير الشرطة) ومساعدوه التفنكجية الى حرمة منزل عبد الله بن صدقة ، من أعيان اليرلية في حي الميدان . فاستثار هذا العمل اليرلية والعلماء والاشراف الذين كانوا في حفل في بيت عمر آغا الناشف ، مقابل بيت ابن صدقة ، وقتلوا الصوباشي . وتدخل المفتي والقاضي للنظر في أسباب النزاع [4] .
واصطدم اليرلية في ايلول ١٧٢٦ بالقابي قول ، وأغلقت دمشق ثلاثة أيام ، وحدثت عدة اصابات بين الفريقين [5] . ومما يلفت النظر في هذه الاحداث أن اليرلية ، الذين أصبحوا يجندون من الدمشقيين ، قد تعاونوا مع الاشراف

---

١ ـ انظر : ميخائيل الصباغ ، ٤٦ ـ ٥٢ ؛ عبود الصباغ ، ٧ آ ؛ بريك ، ٩ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، جـ ٣ ، ١٨٤ ؛ انظر ايضا : Pococke, II i. 68 - 69 .

٢ ـ انظر : ص ١٩٥ .

٣ ـ انظر : الموصلي ، ٥٨ آ ـ ٥٨ ب .

٤ ـ المصدر السابق ، ٥٩ آ ـ ٥٩ ب .

٥ ـ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ٢ ، ١٦٩ ب ـ ١٧٠ آ ؛ ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٦٢ ـ ٦٣ .

وبعض العلماء في معارضة السلالة العثمانية والقابي قول ، وفي هذا تأكيد للمصلحة المشتركة التي جمعت بينهم • ونظراً لقوة اليرلية الآن ، عاد كبار العلماء الى دورهم التقليدي في التوسط في النزاع واقامة حدود الشريعة بين المتخاصمين • وكان المفتي محمد خليل البكري الصديقي الذي قاد الدمشقيين ، أثناء ضعف اليرلية ، في الثورة ضد الوالي عثمان باشا ابي طوق[١] ، قد عزل عن منصب الافتاء ، بعد تعيين اسماعيل باشا على الشام ، وخلفه حامد أفندي العمادي[٢] •

وحين وصلت الى دمشق أنباء الثورة في استانبول في ١٧٣٠ وعزل آل العظم ، استغل اليرلية والقابي قول المناسبة للقتال فيما بينهم • وقد أغلقت دمشق أربعة أيام ، وحدثت عدة اصابات نتيجة لذلك[٣] • وتدل هذه الاصطدامات المتلاحقة بين الفريقين على شدة العداء بينهما وعلى ضعف السلطة العثمانية في دمشق • وكانت الاصطدامات تحدث عادة أثناء غياب الوالي عن دمشق ، بسبب تكليفه بامارة الحج وقيامه بالدورة ، أو حين ورود الأوامر بعزله ، كما سنرى أيضاً في مناسبات أخرى •

وتمكن متسلم والي الشام عبد الله باشا الايضنلي (١٧٣٠ ـ ١٧٣٤)، في أول حكمه ، من اعادة الهدوء بين اليرلية والقابي قول في دمشق • وخنع اليرلية طيلة عهد هذا الوالي لعدة أسباب أهمها قوة عبد الله باشا ، وكثرة وشجاعة قواته الخاصة المرافقة له[٤] • وحدث في عهده طاعون في دمشق والمناطق المجاورة دام حوالي سنة،من ١١٤٤ الى ١١٤٥/١٧٣١ الى ١٧٣٢، ونتجت عنه وفيات كثيرة ، مما ألهى الطوائف المختلفة عن متابعة منازعاتها[٥]•

---

١ ـ انظر : ص ١٩٧ •

٢ ـ انظر : ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ٢ ، ١٦٥ ب ؛ الموصلي ، ٥٥ ب ؛ المرادي، سلك الدرر ، جـ ٢ ، ٨٤ •

٣ ـ ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٦٤ •

٤ ـ انظر : بريك ، ٨ ؛ A. E. B[1] 1023 : Seyde, 28. 3. 1731 .

٥ ـ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ٢ ، ٢٨ ب ، ٣٠ ب ؛ ابن جمعة ، نشر المنجد، ٦٥•

وازدهرت بعد ذلك الحالة الاقتصادية في دمشق ، في عهد عبد الله باشا[1]، ولم يلجأ الى ابتزاز الاموال مما ساعد على عدم اثارة اليرلية والدمشقيين ضده • وبالاضافة الى ذلك ، فانه أولى العلماء رعاية خاصة[2] •

ولم يقم اليرلية في ولاية سليمان باشا العظم الاولى (١٧٣٤ - ١٧٣٨) بأي تمرد يذكر بسبب قوة الوالي وموازنته بين مختلف الطوائف في دمشق • وحين ثار القابي قول على آغا طائفتهم وقتلوه في ١١٤٨/١٧٣٥ - ١٧٣٦ ، تدخل سليمان باشا وقتل اثني عشر شخصاً منهم • كما انه اعتقل في السنة نفسها ثمانية أفراد من اليرلية دون أن يُعلم سبب ذلك[3] •

وبلغ نفوذ اليرلية درجة كبيرة من القوة حين قادوا الدمشقيين في الثورة ضد والي الشام حسين باشا البستنجي • وكان هذا الوالي قد نقل من ولاية طرابلس الى ولاية الشام في جمادى الاول ١١٥١/آب ١٧٣٨ • وبدأ حكمه في دمشق بتظاهرة قوة حين شنق شخصين وتركهما معلقين فترة من الزمن • ثم بدأ بابتزاز المال من الاهلين، وبلغ ما جمعه خلال شهر من تعيينه مقدار تسعمائة كيس[4] • وقد أبطل بعض الاحتفالات الصوفية كالتهليلة ، ورغم أن المؤرخ المعاصر ابن جمعة حبّذ ضمنيا ذلك ، الا أن بعض المشايخ وأصحاب الطرق الصوفية احتجوا ، والتف من حولهم الشعب الذي قاسى من ظلم حسين باشا •

وتزعم الثورة ضد حسين باشا اليرلية ومؤيدوهم من الدمشقيين ووقعت عدة اصابات في الاصطدامات التي حدثت بين الفريقين في ١٢ جمادى الثاني ١١٥١/٢٧ ايلول ١٧٣٨ • وكان حسين باشا يعتمد على قواته المرتزقة من المغاربة والدالاتية • ودعم القابي قول الثائرين ، ووجهوا مدافع القلعة على سرايا الباشا • ويبدو أن القابي قول قد تضرروا من مظالم

---

١ - بريك ، ٨ •

٢ - القاري ، نشر المنجد ، ٧٨ •

٣ - بريك ، ٩ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ٢ ، ٧٦ آ ، ٨٦ ب •

٤ - الكيس وحدة عثمانية في التعامل النقدي ، واختلفت قيمته باختلاف الزمان والمكان ، وتالف الكيس الرومي من خمسمائة قرش •

حسين باشا بعد أن أصبحوا ، مثل الانكشارية في أول عهدهم ، أصحاب مصالح في دمشق • وربما وجدوا قضية حسين باشا خاسرة نظراً لاجماع المعارضة المحلية ضده فاشتركوا في الثورة عليه • ورد حسين باشا بمهاجمة حي الميدان ، مقر اليرلية الرئيسي ، ووقعت عدة اصابات نتيجة لذلك ، وحدث كثير من النهب •

ثم تلت فترة هدوء بسبب خروج حسين باشا لاجل الدورة ، ثم قيادته قافلة الحج الى الحجاز • واغتنم الدمشقيون فرصة غياب حسين باشا فعززوا الدفاع عن أسوار وأبواب المدينة ، واشتكوا الى السلطان ، ولكن لم يجدهم ذلك شيئاً بسبب حماية الصدر الاعظم لحسين باشا •

وما أن عاد حسين باشا من الحجاز حتى وجد المعارضة ضده قد اشتدت • وهاجم اليرلية والقابي قول مقره في دمشق ، وتمكنوا من طرده من المدينة • وعاثت قواته فساداً في القرى المجاورة فلجأ أهلها الى دمشق • ونقم الدمشقيون على أعمال قوات الباشا ، وخاصة المغاربة ، فطردوهم من دمشق ، وطردوا كذلك المغاربة المقيمين فيها • ولم يستطع السلطان التغاضي عن استفحال الثورة في دمشق مقر تجمع الحجاج ، وفي وقت كان منشغلا فيه بخطر نادر شاه من جهة بلاد فارس ، فعزل حسين باشا في ١ جمادى الثاني ١١٥٢/ايلول ١٧٣٩ ، وأقيمت الاحتفالات في دمشق بهذه المناسبة[1] •

قوى موقف الدمشقيين ، وخاصة اليرلية ، اثر ذلك ، وتشجعوا على الثورة في وجه الولاة ، لاسيما وان السلطان قد أيد موقفهم • وليس

---

١ ـ أنظر بشأن تفاصيل هذه الثورة : الوصف الذي كتبه حسين بن طعمة البيتماني المعاصر والحقه بديوانه المخطوط الذي توجد نسخة عنه في المتحف البريطاني برقم Or. 3175 ، أنظر الاوراق ، ١٧ آ ـ ١٧ ب ؛ أنظر وصفا مفصلا آخر لشاهد عيان في دمشق من اليسوعيين (Jesuites) في منشورات المرسلين اليسوعيين ، وعنوانها :

Letters édifiantes et curieuses, écrites des Missions étrangères par quelques missionnaires de la Compagnie de Jésus, ed. C. Le Gobien, J. B.

بغريب أن توجه نقمتهم ضد الجند المغاربة نظراً لما قاموا به من مظـالم • أما أن تشمل نقمة الدمشقيين حتى المغاربة المقيمين في دمشق فهذا له أسباب أخرى • صحيح أن بعض المغاربة كانوا يقيمون في دمشق كمجاورين ، ولكنهم لا يلبثون أن ينضموا الى الجند المرتزقة • وبالفعل ازداد عددهم كثيراً في دمشق وهددوا مصالح الدمشقيين • وليس طرد جميع المغاربة من قبيل أخذ الطائفة بكاملها بجريرة بعض أفرادها ، بل كان في جذوره ردة فعل دمشقية ازاء الطوائف الغريبة، كالمغاربة والقوات المرتزقة الأخرى، مثل القابي قول، التي كان يستخدمها الولاة لاذلال السكان المحليين • وقد تشجع اليرليـة اثر طرد المغاربة فطالبوا ، بعد قليـل ، بطرد اعدائهم القابي قول الاغراب عن دمشق بحجة أنهم فاسقون •

ورغم أن أهالي دمشق ، بعد تقوية الدفاع عن المدينة لمقاومة حسين باشا ، قد ازدادوا ثقة بأنفسهم ، الا انهم خسروا مادياً نتيجة للاضطراب الاقتصادي الذي عم المدينـة والريف بفعل الثـورة • وزاد في الامر أن الاضطرابات السياسية هذه جعلت التجار الفرنسيين ، الذين كانت تجارتهم ناشطة آنذاك مع بلاد الشام الجنوبية ، يخشون اقامـة مراكز تجارية أو قنصلية لهم في دمشق • ولذلك جعلوا مركز بيعهم وشرائهم في صيدا، وبقي الأمر كذلك حتى أواخر القرن الثامن عشر تقريباً • وخسرت دمشـق من جراء ذلك لانها كانت تبيع كثيرا من مصنوعاتها للفرنسيين وتشتري ، بالمقابل ، كثيرا من منتجاتهم[1] •

Halde, L. Patouillet, 34 vols., Paris 1707 - 1773, voir vol. XXVI (1743), pp. 443 - 447.

انظر أيضا : ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٦٦ـ٦٧ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ٢، ١١ ب ، ١٣ آ ، ١٣ ب ، ١٤١ آ ؛ القاري ، نشر المنجد ، ٧٨ ؛ بريك ، ٩ـ١٠ ، انظر أيضاً :

A. E. B[1] 1024 : Seyde, 11. 10. 1738, Seyde, 27. 2. 1739, Seyde, 29. 7. 1739, Seyde, 2. 9. 1739.

١ ـ انظر التقارير السابقة من قنصلية صيدا ، وانظر أيضاً :
A. E. B[1] 1024 : Seyde, 10. 2. 1740, B[1] 979 : Acre, 6. 7. 1783.

لقد جمع بين اليرلية والقابي قول،في الثورة السابقة ،عداؤهماالمشترك لحسين باشا • وما أن عزل حسين باشا حتى عاد النزاع بين الطائفتين أشد مما سبق ، بعد أن تقوى اليرلية اثر نجاحهم في طرد المغاربة • ونشب القتال بينهما في محرم ١١٥٣/ آذار ـ نيسان ١٧٤٠ ، في ولاية عثمان باشا المحصل على الشام (جمادى الثاني ١١٥٢ ـ شعبان ١١٥٣/ايلول ١٧٣٩ ـ تشرين الاول ١٧٤٠) • وازداد تأزم الموقف بوصول فرقتين جديدتين من القابي قول الى دمشق ، في هذه الاثناء • وسرعان ما انتسب أفرادهما الى الحرف مما يدل على أن هذا كان شيئاً مألوفاً بالنسبة للقابي قول قبل ذلك • واعتبر اليرلية تقوية أعدائهم انتقاصاً لنفوذهم وتهديداً لمصالحهم ، فطالبوا السلطان باخراج القابي قول من دمشق نظراً لفسادهم ، وأيدهم العلماء وعثمان باشا في ذلك • ورضخ السلطان لهذا الاجماع في الرأي ، واصدر فرماناً بطرد القابي قول من دمشق في ربيع الثاني ١١٥٣/تموز ١٧٤٠ • وقد قتل بعضهم ، وطرد البعض الآخر ، وسمح لذوي السلوك الحسن من بينهم ، من أصحاب الاسر ، بالبقاء في دمشق شريطة أن يصبحوا مواطنين عاديين • وكان عدد كبير من القابي قول من أصل موصلي وبغدادي[1] •

أدى طرد القابي قول الى ازدياد نفوذ اليرلية في دمشق ، فعادوا الى التمركز في القلعة وحماية أسوار وأبواب المدينة • وقد ازداد ، نتيجة

---

١ ـ أنظر حول الاحداث السابقة : ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٦٨ ؛ القاري،نشر المنجد،٧٨؛ بريك ١٠ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ٢ ، ١٥٩ آ ، ١٨٨ ب ؛ احمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ ـ ١١٧٦ ، تنقيح محمد سعيد القاسمي • توجد في المكتبة الظاهرية بدمشق نسختان مخطوطتان عن هذا المؤلف ، أرقامهما هي : ٣٧٣٧ ، ٤٢٨٣ ؛ وخلافاً لما يذكر المنقح في النسختين من أن المخطوط يجب ان ينتهي في سنة ١١٧٥ وليس في سنة ١١٧٦ ، كما ذكر البديري في العنوان،فالحق انالبديري هو المصيب ، وذلك اذا ما تفحصنا تواريخ الاحداث وتراجم الاشخاص المذكورين في الصفحات الاخيرة من المخطوط وقارناها مع مصادر أخرى • وقد نشر هذا المخطوط الدكتور أحمد عزت عبد الكريم في القاهرة سنة ١٩٥٩ • وسنعتمد في الرجوع الى مؤلف البديري مخطوط الظاهرية رقم ٣٧٣٧ توخيا للدقة ، انظر في هذه المناسبة الورقة ١ ب : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : البديري •

لذلك ، تمرد بعض أفراد اليرلية وتحديهم لكبار المسؤولين ، بما في ذلك آغا طائفتهم والوالي • وعرف هؤلاء اليرلية الخارجون على القانون باسم الزرب أو الزرباوات (مفردها زربة ، وهي يونانية الاصل) ، وأطلق عليهم أحياناً تعبير أشقياء الجند أو الرعاع •وقد أخاف الزرب الولاة والدمشقيين، في هذه الفترة ، الى أن قضى عليهم أسعد باشا العظم في عام ١٧٤٦ •

ذروة نفوذ آل العظم • ـ حكم آل العظم ولاية الشام في هذه الفترة مدة ست عشرة سنة تعاقب خلالها على الولاية سليمان باشا العظم (١٧٤١ ـ ١٧٤٣) ، وابن أخيه أسعد باشا (١٧٤٣ ـ ١٧٥٧) • ولم يحدث في التاريخ العثماني أن واليين من آل العظم تعاقبا على حكم ولاية الشام • وبدا كما لو أن حكم الولاية أصبح وراثياً في هذه الاسرة • ورغم أن الولاة من آل العظم تعاقبوا ، لفترات قصيرة نسبياً ، على حكم ولايتي صيدا وطرابلس ، الا أن أهمية حكمهم الآن ، في ولاية الشام ، تنبع من أهمية الولاية ومن سعيهم دوماً للحصول عليها • ولم يكن حكم آل العظم ليستقر أو يدوم في ولايتي صيدا وطرابلس ما لم تكن ولاية الشام في يدهم • كما أن طول المدة التي قضاها أسعد باشا في حكم ولاية الشام والتي بلغت أربع عشرة سنة ليس لها مثيل في العهد العثماني • ووصل آل العظم في عهد أسعد باشا الى ذروة نفوذهم في بلاد الشام •

حاول سليمان باشا العظم اثر عزله عن ولايه الشام في ١٧٣٨[١] أن يعود اليها بسرعة ، وأنفق أموالا كثيرة في استانبول لهذه الغاية[٢] ، ولكنه فشل مؤقتاً • ولم يكن عزله اذ ذاك نتيجة نقمة عليه بدلالة انه عين في ١١٥٢/١٧٣٩ على ولاية مصر[٣] ، ولم تصادر أمواله اثر عزله ، على

---

١ ـ انظر : ص ٢٤٦ •

٢ ـ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ٢ ، ٨٤ ب •

٣ ـ انظر : مصطفى القينلي ، ١٩٩ آ ، ١٩٩ ب ؛ الجبرتي ، جـ ١ ، ١٥٠ ـ ١٥١ •

عكس ما حدث مثلا في ١٧٣٠ [١] • ويبدو أن عزل كاخيا الصدر الاعظم في استانبول ، الذي كان يعتمد عليه وكيل سليمان باشا ، وحماية الصدر الاعظم نفسه لحسين باشا البستنجي الذي خلف سليمان باشا في ولاية الشام ، هما السببان الرئيسيان اللذان أديا الى عزل سليمان باشا العظم [٢] •

عين سليمان باشا للمرة الثانية على ولاية الشام في ربيع الثاني ١١٥٤/ تموز ١٧٤١ • ولم يكن تعيينه مجدداً حادثاً فريداً في ولاية الشام في العهد العثماني على الرغم من أن تكرار تعيين الوالي أصبح في القرن الثامن عشر أقل حدوثاً منه في القرنين السابقين • ويعتبر تعيين سليمان باشا الآن ظفراً له ولآل العظم ، بصورة عامة ، بسبب محاولتهم الدائبة للوصول الى حكم ولاية الشام •

وتعرض سليمان باشا في دمشق الى تحدي اليرلية لسلطته بعد أن ازداد نفوذهم اثر طرد القابي قول • ولم ترهبهم تظاهرة القوة التي قام بها سليمان باشا في أول ولايته حين شنق ثلاثة عصاة من البدو • وحين تأخر وصول الفرمان السلطاني بشأن استمراره في حكم الشام سنة أخرى ، ازدادت شرور الزرب وعبثهم بالنظام الى أن وصل الفرمان في ٤ جمادى الثاني ٦/١١٥٥ آب ١٧٤٢ • وعقد سليمان باشا ديواناً ، بعد ذلك ، أقر معاقبة بعض الزرب ، ولكن هذا القرار لم ينفذ رغم وصول أمر سلطاني بقتل الزرب • ويدل هذا على مدى نفوذ اليرلية وعلى تراجع سليمان باشا أمامهم • وازداد نفوذهم اثر طرد سليمان باشا لبقايا القابي قول من دمشق بسبب اتهامهم باثارة الفوضى والفتن [٣] •

ويبدو أن سليمان باشا لم يكن مهتماً جدياً بالقضاء على المتمردين بين

١ ـ أنظر ص ٢٤٠ •

٢ ـ أنظر : PRO, S. P. 97/29 : Constantinople, 14. 1. 1738; *Lettres édifiantes* (Compagnie de Jésus), XXVI (1743), p. 442.

٣ ـ البديري ، ٣ ب ـ ٤ آ ، ٦ ب •

البرلية ، ربما بسبب عدم قدرته على ذلك • وقد طبق ، من جديد ، سياسته التقليدية في المصالحة مع مختلف فئات القوة في المدينة ، فتغاضى عن استغلال تجار الحبوب وأصحاب المطاحن والمخابز حاجة الشعب لهذه الخدمات ورفعهم الاسعار حسب رغبتهم • والسبب في تسامحه هذا استفادته هو من هذه الاوضاع ، وانتساب كثير من أصحاب المصالح هؤلاء الى طائفة البرلية • وحين ثار الفقراء على الغلاء وهاجموا المخابز والمحكمة بسبب مسؤولية القاضي في تطبيق قواعد الشرع وقيامه بدور المحتسب ، تدخل سليمان باشا فأمر بتخفيض الاسعار ، ولم يدم ذلك الا فترة قصيرة • وقد خفف سليمان باشا من النقمة ضده بأن الغى كثيراً من المظالم التي فرضت على أصحاب الحرف والصنائع والحارات • كما وانه أحسن الى الفقراء ،وتودد الى العلماء لينال تأييدهم ، وبنى الأقنية على نهر قنوات ونظم حقوق المستفيدين من مياهه[1] •

واستغل دفتر دار دمشق فتحي الدفتري (نسبة الى دفتر دار) تساهل سليمان باشا مع البرلية فانتمى اليهم ، وحاول ، بواسطة دعمهم ، منافسة آل العظم على السلطة • وكان جد فتحي من قرية فلاقنس ، قرب حمص ، وقد هاجر الى دمشق ، واشتهر أحفاده فيها كموظفين ماليين[2] • وعين فتحي دفتر داراً في عام ١١٤٨/١٧٣٥ - ١٧٣٦ ، وبقي يشغل هذا المنصب حتى مقتله في ١٥ جمادى الثاني ١١٥٩/٥ تموز ١٧٤٦ ، وقد عينه والي الشام حسين باشا البستنجي متسلماً له في ١١٥١/١٧٣٨-١٧٣٩• وتذكر أغلب المصادر أن فتحي كان من الاشراف ، وهذا يعني أنه تمتع ، بالاضافة الى دعم البرلية ، بدعم الاشراف أيضاً • ويبدو أن أصل آل العظم

---

١ ـ انظر : البديري ، ٤ ب ـ ١٠ آ ؛ ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ٢ ، ١١٧ آ •

٢ ـ انظر : ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ١ ، ١٨١ آ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، جـ ١ ، ١٦٧ ، جـ ٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ •

المحلي وتوصلهم الى الحكم قد أثار منافسة فتحي الدفتري الذي كان هو الآخر من أصل محلي ويطمح بالوصول الى الحكم •

وحاول فتحي الدفتري توطيد نفوذه في دمشق فجدد منارتي التكية السليمانية ، وعمر طريق الصالحية في ١١٥٥/١٧٤٢ – ١٧٤٣ ، ورمم في العام التالي الجامع الاموي • وبنى مدرسة في حي القيمرية ، حيث مقر أسرته ، كما أنه عمر حماماً ومقهى في الميدان حيث يسكن اليرلية ، مما زاد من نفوذه بينهم • وامتدح فتحي كثير من العلماء والشعراء في دمشق ، وفي طليعتهم سعيد السمان الذي عينه فتحي اماماً وخطيبا في مدرسته • وللتعبير عن امتنانه وولائه جمع سعيد السمان تراجم الشعراء الذين امتدحوا فتحي في كتاب عنوانه : الروض النافح فيما ورد على الفتح من المدائح[١] • وقد وصفَ البديري المعاصر النفوذ الذي بلغه فتحي بقوله انه كان السلطان في الشام[٢] • وانتهز فتحي فرصة زواج ابنته من ابن أخيه فأكد نفوذه علناً بالاحتفالات التي أقامها في ربيع الاول ١١٥٦/نيسان – أيار ١٧٤٣ ، والبذخ الذي أظهره ، مما فاق الاحتفالات التي أقامها سليمان باشا العظم ، قبل أيام ، بمناسبة ختان ابنه[٣] • واذا كانت العلاقة بين فتحي وآل العظم ودية

---

١ – يوجد مختصر مخطوط لهذا الكتاب في مجموعة برلين عنوانه : مختصر الروض النافح فيما ورد على الفتح الفلاقنسي من المدائح ، برقم 8047. we. (II) 1771 ، انظر خاصة الاوراق ٥٠ – ٧٦ • انظر حول اعمال فتحي هذه : المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ١٤٣ ، ٢٤٠ ، ج ٣ ، ٢٨٠ : البديري ، ٨١ أ ؛ سعيد السمان ، (ديوان شعره) ، مخطوط في مجموعة برلين ، برقم 8040. Spr. 1124 ، ورقة ٣٤ ب ؛ احمد المنيني ، (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، برقم 8039. we. (II) 158 ، الاوراق ، ٧٦ أ ، ١٠٣ ب ؛ أحمد الكيواني (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، برقم 8041, 8163. we. (II) 202 ورقة ٦٦ أ ، انظر ايضا ديوان أحمد الكيواني المطبوع في دمشق في ١٣٠١ هـ ، ص ١٨٢ – ١٨٣ •

٢ – البديري ، ١٠ ب •

٣ – انظر تفاصيل ومدلول هذه الاحتفالات في كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 148, 152-154.

في الظاهر ، حتى الآن ، فذلك لأن فتحي كان لا يزال يوطد سلطته وينتظر الوقت المناسب لمقاومتهم •

توفي سليمان باشا قرب طبرية في حوالي ٤ رجب ١١٥٦/٢٥ آب ١٧٤٣، وهو يحاصر ظاهر العمر • وقد أثارت وفاته كثيراً من الاضطرابات في دمشق•فقام اليرلية وقتلوا جماعة من الجند الدالاتية المرتزقة•واستغل فتحي الدفتري الفرصة فسجن كبار مساعدي سليمان باشا ، وتسلم السلطة الفعلية في المدينة ، وأعلم السلطان بما حدث • واذا كان فتحي ينتظر أن يعين والياً على الشام ، فقد خاب أمله خاصة لان والياً آخر من آل العظم ، هو أسعد باشا ، قد عين خلفا لعمه سليمان باشا •

دخل أسعد باشا دمشق في ٢٤ شعبان ١١٥٦/١٣ تشرين ١٧٤٣ ، وكان له من العمر تسع وثلاثون عاماً • وقد سبق أن عين من قبل أبيه ، اسماعيل باشا ، متسلماً على حماة والمعرة ، ثم أعطي ، بالاشتراك مع عمه سليمان باشا ، « مالكانة » حماة فأقام فيها يدير أمورها • وفي عام ١٧٤١ خلف أخاه ابراهيم باشا في حكم صيدا ، ثم عين في آذار ١٧٤٢ حاكماً على حماة•وبوساطة بكر باشا ، والي جدة سابقاً وصهر السلطان حاليا ، أعطي « مالكانة » حماة لوحده[1] ، ثم عين على ولاية الشام بعد ذلك[2] •

يمكننا أن نلاحظ ثلاث فترات في حكم أسعد باشا العظم في الشام : فترة سلطة اليرلية وفتحي الدفتري ، ١١٥٦ – ١١٥٨/١٧٤٣ – ١٧٤٥ ؛ فترة انتصار أسعد باشا على اليرلية وفتحي ، ١١٥٩/١٧٤٦ ؛ وفترة توطيد نفوذه ، ١١٥٩ – ١١٧٠/١٧٤٦ – ١٧٥٧ •

جابه أسعد باشا في الفترة بين ١١٥٦ – ١١٥٨/١٧٤٣ – ١٧٤٥ ازدياد سلطة اليرلية وفتحي الدفتري في دمشق • وكان تساهل سليمان

١ ـ انظر حول بكر باشا : Hammer, XV. 10

٢ ـ انظر حول سيرة اسعد باشا : الطباخ ، جـ ٣ ، ٣٣٤ •

باشا العظم مع اليرلية ومع فتحي مسؤولا الى حد بعيد عن هذا الوضع • وجاء اسعد باشا الآن ليقاسي من نتائج تلك السياسة •

خرج أسعد باشا ، بعد دخوله الى دمشق بعشرة أيام ، الى الدورة استعداداً لقيادة قافلة الحج• فاستغل ذلك أحد أتباع فتحي، ويسمى لعفصه ، وهدد السيد علي أفندي العجلاني نقيب الاشراف والسيد علي أفندي المرادي من كبار العلماء ، واطلق النار على هذا الاخير • وقد اجتمع الاعيان والعلماء وأصدروا فتوى بقتل لعفصه ، ولكنه لجأ الى أحد زعماء اليرلية في الميدان • وبعد أن كتب المجتمعون عريضة الى السلطان ضد فتحي ، حامي لعفصه وأصل الفساد ، عدلوا عن ارسالها في اليوم التالي[1]• ونستدل من ذلك على قوة نفوذ فتحي وخوف أعيان دمشق منه • ولكن مجرد تكتلهم ضده واعلانهم انه رئيس المفسدين كان لصالح أسعد باشا لأنه كسب الى جانبه الاعيان والعلماء ضد فتحي واليرلية • وفي غياب أسعد باشا في الحجاز ، وصل رسول من قبل السلطان الى دمشق في ٢٣ شوال ١١٥٦/١٠ كانون الاول ١٧٤٣ ، وبدأ بمصادرة أموال سليمان باشا • وقد دهش الدمشقيون من كثرة الاموال المصادرة ، واعتقدوا أن سليمان باشا قد جوع الناس حتى جمع هذا المال[2] •ومما شجع على هذا الاستنتاج غلاء أسعار المواد الغذائية في ذلك الوقت • وكانت مصادرة أموال الولاة أمراً شائعاً في الدولة العثمانية ، خاصة وان السلطان كان بحاجة ماسة للمال ، آنذاك ، لتمويل الحرب مع حكام فارس • وبلغ من حاجة الدولة للمال أنها رحبت بغنى المرشحين لمناصب الولاة، وتقدم السن بهم، لتتمكن من مصادرة أموالهم بسرعة[3] •

ودهش الدمشقيون من موقف اللامبالاة الذي اتخذه أسعد باشا تجاه

---

١ ــ انظر : البديري ، ١١ آ ــ ب ١١ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، جـ ٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦ •
٢ ــ انظر : البديري ، ١٢ آ ــ ١٣ ب •
٣ ــ انظر : Hammer, XV, 75-76

مصادرة أموال عمه وتجاه فتحي الذي ساعد في ذلك • وفي جمادى الثاني ١١٥٧/آب ١٧٤٤ استدعي فتحي الى استانبول ، فاستغل بعض علماء دمشق غيابه وكتبوا شكوى ضده ، ولكنهم سرعان ما عدلوا عن ارسال الشكوى الى استانبول • ويبدو أن مؤيدي فتحي من العلماء مثل الشيخ سعيد السمان قد ثنوهم عن عزمهم • الا أن معارضي فتحي الاشداء أرسلوا شكوى ضده الى استانبول • ولكن فتحي لم يمس بأذى بسبب دعم الكزلار آغا له • وعاد الى دمشق أشد قوة ، وانتقم من معارضيه • وتفاقم تعدي الزرب ، ولم يحرك أسعد باشا ساكناً فلقبه الناس سعدية كاضن (Kadin كلمة تركية تعني امرأة) ، وفي هذا اهانة مزدوجة لأسعد باشا [1] •

وكلما ازداد تعدي فتحي والزرب كلما ازدادت الكراهية لهم بين الدمشقيين • واستفاد أسعد باشا من ذلك ، ولم يبق عليه الا أن يستنفر قواته للبطش بالمفسدين • وقد استغل نقمة الجماهير على ازدياد أسعار المواد الغذائية لخلق جو من الازمة وتركيز الاهتمام عليه كمنقذ لهم من أزمتهم • وحين أرسل أسعد باشا الجماهير الى القاضي للاحتجاج على غلاء الاسعار ، خاف القاضي ، وأطلق أتباعه النار على المتظاهرين • وتوجهت الجماهير ، بعد ذلك ، بأنظارها الى أسعد باشا ، فاستغل نقمتها للقضاء على نفوذ اليرلية وفتحي الدفتري •

بطش أسعد باشا باليرلية وبفتحي في عام ١١٥٩/١٧٤٦ ، واعتمد في ذلك على قواته المرتزقة من الدالاتية • وقد بدأ باحتلال قلعة دمشق من اليرلية في ٢٢ صفر ١١٥٩/١٧ آذار ١٧٤٦ • وكانت قوة اليرلية الرئيسية في حي الميدان ، وبعضها في حي سوق ساروجا • وقد تجمع اليرلية في باب الجابية لحماية حي الميدان ، ولكن أسعد باشا خدعهم بمهاجمة سوق ساروجا الأقل شأناً والأقل حماية ، وهرب زعيم هذا الحي أحمد

---

١ ـ أنظر : البديري ، ١٣ ب ـ ١٤ آ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ٢٨٧ •

القلطقجي • والتفت أسعد باشا ، بعد ذلك ، الى اخضاع حي الميدان حيث كان مصطفى آغا بن خضري زعيم الزرب والذي لقب نفسه سلطان الشام• وأصاب الذعر يرلية هذا الحي بعد نجاح أسعد باشا في هجومه على سوق ساروجا ، فهرب المدافعون عنه قبل احتدام القتال، ونهب عساكر أسعد باشا حوالي خمسمائة دار فيه وهدموا بعضها • وقضى أسعد باشا ، بعد ذلك ، على الاشقياء ، الباقين في المدينة ، وساعده في ذلك مشايخ وأئمة الحارات تحت طائلة العقوبة [1] •

ورغم الفوضى التي أحدثها عساكر أسعد باشا فقد سر الدمشقيون من عمله • وأمر أسعد باشا باقامة الزينة ، وخلع عليه السلطان هدايا عظيمة• ورقي أخوه سعد الدين باشا ، في هذه الاثناء ، الى رتبة وزير ، وعين بعد قليل والياً على طرابلس • وطلب أسعد باشا من السلطان اعادة القابي قول الى دمشق لموازنة قوة اليرلية وابقائهم خاضعين لسلطته ، وتم له ذلك [2]، وهكذا أعيد القابي قول الى دمشق بعد أن طردوا منها في عام ١٧٤٠ •

وكانت خطوة أسعد باشا التالية التخلص من فتحي الدفتري ، فقتله في ١٥ جمادى الثاني ١١٥٩/٥ تموز ١٧٤٦ • وكان فتحي قد ضعف كثيراً اثر القضاء على أتباعه من اليرلية • كما أن حاميه في استانبول ، الكزلار آغا ، توفي في ١ جمادى الاول ١١٥٩ • وزاد في الأمر أن الصدر الأعظم حسن باشا كان يكره فتحي بسبب عداوة شخصية • وأيد كثير من علماء دمشق ، من بينهم محمد خليل البكري الصديقي ، طلب أسعد باشا الى السلطان بوجوب التخلص من فتحي • وضمن أسعد باشا للسلطان بأن

---

١ ـ انظر حول ذلك : البديري ، ١٥ آ ـ ١٦ آ ؛ القاري ، نشر المنجد ٧٩ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، جـ ٢ ٦٣ ، جـ ٣ ، ٢٨٧ ، جـ ٤ ، ١٧٨ •

٢ ـ انظر : البديري ، ١٦ ب ؛ الطباخ ، جـ ٣ ، ٣٢٩ •

يدفع له ألف كيس من ثروة فتحي اذا أمر بقتله • وقد تعرض أتباع فتحي وعدد من أقربائه الى كثير من الأذى نتيجة لمقتله [١] •

وانصرف أسعد باشا ، في الفترة بين ١١٥٩/١٧٤٦ ونهاية ولايته في ١١٧٠/١٧٥٧، الى توطيد نفوذه واغناء نفسه وبناء آثاره المشهورة • وبعد أن وازن قوة اليرلية باعادة القابي قول ، تعرض أسعد باشا الآن الى تمرد الدالاتية الذين ازداد غرورهم اثر انتصارهم على اليرلية واللجوء اليهم ، بعد ذلك ، لحماية دمشق ضد خطر مهاجمة اليرلية الفارين لهـا • وعاث الدالاتية فساداً في القرى المحيطة بدمشق التي أوكل اليهم أمر الدفاع عنها• ولما كان يصعب على أسعد باشا التخلص من الدالاتية فانه أعاد عساكر المغاربة الى دمشق ، وكانوا قد طردوا منها في عام ١٧٣٩، واستخدمهم لموازنة قوة الدالاتية [٢] • ولـم يكن اليرلية في وضع قوي ليعارضوا عودة أعدائهم ، وأصبحوا خاضعين لسلطة أسعد باشا الذي صحبهم معه في حملاته ضد أمراء جبل لبنان • وازدادت أيضاً سلطة آغا اليرلية على أفراد طائفته بعد القضاء عـلى الزرب • وقوي نفوذ القابي قول بسبب دعـم الباشا لهـم وضعف منافسيهم ، وكثرت تعدياتهم عـلى السكان ، وخاصة على الاشراف الذين ظهروا الآن ليملأوا الفراغ الذي تركه ضعف اليرلية • وهـزم الاشراف في عدة اصطدامات جرت بينهم وبين القابي قول في ١١٦١/١٧٤٨ • وحين هاجم الزرب الفارون مدينة دمشق في شوال ١١٦١/تشرين الاول ١٧٤٨ أثناء غياب أسعد باشا في الحج ، قـاتلهم المتسلم مـوسى كـاخيـا وردهم على أعقابهم بمساعدة قواته المرتزقة والقابي قول • ونفذ حكم الاعـدام بكثير من الدمشقيين بتهمـة مسـاعدتهم الزرب ، وكان ذلـك بنـاء على تـوصيـة

---

١ ـ انظر : البديري ، ١٦ ب ١٨ آ ؛ المرادي ، سلـك الدرر ، جـ ١ ، ١٦٣ ، جـ ٢ ، ٣٢٠ ـ ٣٢١ ، جـ ٣ ، ٢٨٧ ؛ انظر ايضا •

PRO, S. P. 97/32 : Cosstantinople, 42. 6. 1746, Constantinople, 18. 7. 1746; Hammer, XV, 105-107.

٢ ـ البديري ، ١٩ ب ـ ٢١ ب ، ٢٤ آ •

القابي قول • وازدادت شرور القابي قول وجرائمهم ولاسيما بعد أن أضيفت اليهم فرقة جديدة في جمادى الثاني ١١٦٤/أيار ١٧٥١[١] •

وظهر الآن في دمشق انقسام واضح بين الدمشقيين واليرلية الضعفاء، من ناحية ، وبين القابي قول والدالاتية والمغاربة ، من ناحية أخرى • وتضايق الدمشقيون من تسلط هذه القوى الغريبة ، لاسيما وأن أبناءالشام تمتعوا ، لفترة قبل ذلك ، بالسلطة لوحدهم • ومنع القابيقول الآن ، تحت طائلة العقوبة ، من قبول انتساب أي من الدمشقيين الىصفوفهم [٢]•ورغم أن هذا قصد منه قطع علاقة القابي قول مع السكان المحليين وابقاؤهم أقوياء ، الا أنه بالمقابل حال دون قيام أي تعاطف بين القابي قول وبين الدمشقيين ، وزاد بالتالي من حدة العداء بين الفريقين •

وقاست دمشق اجتماعياً من تعدي وفوضى هذه القوات الغريبة التي ازدادت الآن اعتداداً بقوتها • فقد تبجح الدالاتية بقضائهم على اليرلية ، وعاد القابي قول الى القلعة والى ممارسة نفوذهم ، وأعيد المغاربة الى دمشق بعد أن طردوا منها ، وكثرت تعدياتهم [٣]• وازداد الفسق والفجور في دمشق تبعاً لازدياد فوضى هذه القوات [٤] • وقد دهش الشيخ عبد الله السويدي الذي أقام في دمشق بين ٢٢ شعبان و ٢٠ شوال ١١٥٧/ ٣٠ ايلول ـ ٢٦ تشرين الثاني ١٧٤٢ ، من كثرة الخلاعة وجرأة الزناة والزواني في المدينة [٥] •

---

١ ـ انظر البديري ، ٢٤ ب ـ ٢٥ ب ، ٢٦ ب ـ ٢٨ آ ، ٢٩ آ ـ ٣١ ب ، ٣٥ ب
انظر الدراسة التفصيلية لهذه الاحداث في كتابنا •
The Province of Damascus, pp. 169-175.

٢ ـ انظر : البديري ، ١٦ ب •

٣ ـ المصدر السابق ، ٢٦ آ ، ب •

٤ ـ المصدر السابق ، ١٢ ب ، ١٣ آ ، ٢١ آ ، ٢٥ ب ، ٢٩ ب ، ٣١ آ •

٥ ـ عبد الله السويدي ، النفحة المسكية في الرحلة المكية ، مخطوط في المتحف البريطاني برقم Add. 23. 385 ، انظر الورقة ٩٤ ب • (هناك نسخة أخرى من هذا المخطوط في المتحف البريطاني برقم Add. 7337) .

واستفاد أسعد باشا من التهاء مختلف القوى بخلافاتها وشرورها ومن دعم القابي قول له مقابل دعمه لهم[1] ، فانصرف الى جمع الثروة • وقد حاول ، بالتعاون مع شيخ الطحانة ، ابقاء أسعار المواد الغذائية مرتفعة ليستفيد من بيع حاصلات « مالكانته » في حماة • واستفاد من هذا الوضع بعض كبار التجار وغيرهم من الذين تعاونوا مع أسعد باشا ، وتغاضى الآخرون عن تلك المساوىء خوفاً من الشخصيات الكبيرة ذات العلاقة • ولم تجد ثورات الفقراء أو تخفيض سعر العملة النقدية ، في التخفيف من الغلاء[2] •

وقد خفف من شدة هذا الاستغلال ازدهار الحالة الاقتصادية في دمشق ، آنذاك ، بسبب نمو المبادلات التجارية بين التجار الفرنسيين المتمركزين على ساحل بلاد الشام الجنوبية ، والتجار الدمشقيين ؛ ونشطت تجارة المنسوجات الدمشقية التي ازداد الطلب عليها • كما أن تأمين أسعد باشا لسلامة الحج طيلة عهده شجع الحجاج على الذهاب الى الحجاز بأعداد كبيرة ، وازداد بالتالي عدد التجار المرافقين لقافلة الحج ، وقد ستفادت دمشق من ازدهار التجارة بهذه المناسبة [3] •

وازدادت ثروة أسعد باشا على مرور الزمن، ويدل بناؤه خانه المشهور في البزورية في ١١٦٦/١٧٥٢ ـ ١٧٥٣[4] ، على الحالة الاقتصادية الناشطة في دمشق ، وعلى استفادة أسعد باشا من ذلك • واشترى أسعد باشا كثيراً من الممتلكات في دمشق التي أصبحت الآن مركزاً آخر لاسرة آل العظم ، الى جانب حماة والمعرة • وحوّل أغلب ممتلكاته الى وقف أهلي لمنفعة

---

١ ـ أنظر : البديري ، ٢٥ آ ـ ٢٥ ب •

٢ ـ المصدر السابق ، ٢٢ آ ، ٢٩ ب ، ٣٠ آ ، ٣٦ آ ، ٣٨ ب ، ٤٠ آ ـ ٤١ آ •

٣ ـ انظر حول ذلك كتابنا : *The Province of Damascus*, pp. 187-190 .

٤ ـ البديري ، ٤١ ب ، ٤٢ ب ؛ بريك ، ١٨ ؛ نعمان القساطلي ، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، بيروت ، ١٨٧٩ ، ص ١١٠ •

ذريته [١] ، بعد أن رأى بنفسه مصادرة أموال عمه سليمان باشا • وفي عام ١١٦٣/١٧٤٩ – ١٧٥٠ بدأ أسعد باشا ببناء قصره المشهور في البزورية ، وانتهى من بنائه في العام التالي • وقد أتى آية في الروعة وفـن العمارة ، وأنفق أسعد باشا على بنائه كثيراً من المال والجهـد ، وجند امكانات فنيـة وموارد اقتصادية كبيرة لذلك [٢] •

ولم يكن قصر أسعد باشا مجرد بناء عادي قام به أحـد ولاة الشام العاديين • فلم تشهد بلاد الشام ، في العهـد العثماني ، قصراً لوال محلي بمثل هذه الضخامة ، باستثناء قصر بيت الدين للامير بشير الثاني الشهابي (١٧٨٨ – ١٨٤٠) ، ولكن الامير بشيراً هـذا يختلف عن أسعد باشا في كونه يمثل أسرة حاكمة اعترف العثمانيون بوراثتها الحكم في جبل لبنان• ويبقى قصر أسعد باشا بدون مثيل بين أبنية الولاة العثمانيين • ويدل بناؤه على مقدار النفوذ الذي بلغه أسعد باشا مع أسرته في الشام بعد أن أمضى في حكمها حوالي أربع عشرة سنة • والجدير بالملاحظة أن الأبيات الشعرية الموجودة الآن على جـدران وسقوف القصر لا تذكر ، كما يبدو ، اسـم السـلطان العثمانـي ، وتكتفي بتمجيد أسعد باشا وذكـر نعمة الله عليه • ويدل ذلك على مدى نفوذ أسعد باشا والاهمال التدريجي لذكر السلطان العثماني الذي لم تعد تسمع أخبار فتوحاته العسكرية ، كما كان الأمر في عهد السلطان سليمان القانوني • ولم تعد دمشق تزين لمثل هذه المناسبات، واقتصرت زينتها الآن عـلى الاحتفال بولادة أبناء السلاطـين وشتان بـين المناسبتين •

لقد رمم أسعد باشا واصلح كثيراً من الجوامع والمدارس والمزارات ، وبنى عـدة خانات في حماة والمعرة وخـان شيخون ، ونسب اليه بناء دار

---

١ – البديري ، ١٨ ب – ١٩ آ •

٢ – انظر تفاصيل بنائه في كتابنا : *The Province of Damascus*, pp. 181-182 .

كبيرة في حماة . ولكننا نلاحظ أن أسعد باشا وغيره من الولاة ، في القرن الثامن عشر ، الذين شيدوا عدة أبنية في دمشق ، لم يبنوا أية جوامع على غرار جامع الدرويشية الذي بناه درويش باشا وجامع السنانية الذي بناه سنان باشا في النصف الثاني من القرن السادس عشر . وربما يفسر ذلك أن أحداً من هؤلاء لم يبلغ من المجد والشهرة الواسعة الدرجة التي نالها درويش باشا وسنان باشا [1]. وفي الحقيقة ، لم يعد هناك من مجال ، في فترة ضعف الدولة التي تلت عهد هذين الواليين ، لاشتهار الولاة في الميدان العسكري . وأصبح هم أغلب الولاة ، الذين عينوا عادة لمناصبهم بدون كفاءة مناسبة ، جمع المال لأنفسهم . واستفاد ولاة آل العظم من شهرتهم المحلية ومن غناهم في توطيد نفوذ ومجد أسرتهم في دمشق عن طريق بناء الأبنية الخاصة بهم . واذا كان درويش باشا وسنان باشا قد أرادا تخليد ذكرى حكمهما في دمشق ببناء الجوامع فيها فهذا يعود الى كونهما غرباء عن دمشق .

واشتهر من آل العظم ، في فترة ولاية أسعد باشا على الشام ، اخوته ابراهيم باشا وسعد الدين باشا ومصطفى باشا . وقد توفي ابراهيم باشا في ١١٥٩/١٧٤٦ - ١٧٤٧ ، بعد عزله عن ولاية صيدا بسنتين [2] . أما سعد الدين باشا فقد عين في ١٧٤٦ والياً على طرابلس ، واستمر فيها حتى ١١٦٤/١٧٥٠ - ١٧٥١ حين عين والياً على حلب.ويبدو أنه عين في العام التالي على صيدا ، ونقل في سنة ١٧٥٣ الى ولاية طرابلس حيث استمر فيها الى عام ١٧٥٦ ، وشغل امارة الجردة طوال هذه الفترة . وقد منح مصطفى طوخين (رتبة بيلربيي) في ١١٦٦/١٧٥٢ - ١٧٥٣ ، وأمر بمساعدة أخيه سعد الدين باشا في حماية الجردة . وفي عام ١١٦٨/١٧٥٥ عين والياً على صيدا.وهكذا حكم آل العظم ولايات الشام وصيدا وطرابلس ، كما في عام ١٧٣٠ . ولكن تطورات هامة كانت تجري في استانبول ، في

---

١ - انظر : ص ١٠٨ .

٢ - الطباخ ، ج ٦ ، ٤٨١ .

هذه الفترة ، وقد أثرت على مصير الولاة من آل العظم. فبعد وفاة السلطان محمود الاول في ١٧٥٤ واعتلاء السلطان عثمان الثالث ، ازدادت سلطة الكزلار آغا أحمد أبو قوف الذي كان عدواً شخصياً لأسعد باشا . وذكر أن الكزلار آغا استاء من أسعد باشا لانه لم يوله عناية مناسبة حين مروره بدمشق ، في طريقه الى الحجاز ، في عام ١٧٥٤ ، على عكس موقف حسين بك بن مكي ، حاكم غزة ، الذي رحب كثيراً بالكزلار آغا فعمل على ترقيته وتعيينه حاكماً على القدس أولا في عام ١٧٥٦ ، بعد أن فصلها ، كما يبدو ، عن دمشق ، ثم عينه في العام التالي على ولاية الشام ، بعد أن أعيدت اليها القدس [١] .

وقد عزل أسعد باشا عن ولاية الشام في آخر ربيع الثاني ١١٧٠/ ٢١ كانون الثاني ١٧٥٧ ، وعين على ولاية حلب . واصطدم في حلب بواليها المعزول راغب باشا [٢] ، الذي كان مقرراً أن يخلفه في الشام ولكنه عين صدراً أعظم . وعين حسين باشا بن مكي والياً على الشام . وهكذا أصبح كل من الصدر الأعظم الجديد والكزلار آغا في استانبول من أعداء أسعد باشا ، وعزل أخواه عن ولايتي طرابلس وصيدا ، في الوقت نفسه .

وشعر أسعد باشا بازدياد النقمة ضده في استانبول، فعمد الى تخفيض أسعار الحبوب في حلب ، وزود المدينة بالمؤن من عنابره الخاصة. وكسب بذلك دعم السكان له ، فثاروا لدى سماعهم ، في شباط ١٧٥٧ ، بنبأ عزله عن حلب وتعيينه على مصر ، وأبقوه بالقوة [٣] . وبدا لفترة كما لو أن آل العظم سينجحون في الابقاء على بعض نفوذهم ، وقد عين سعد الدين باشا على مرعش وأخوه مصطفى باشا على الموصل [٤] . ولكن في ٢٥ ايلول

---

١ ـ انظر حول هذه التطورات كتابنا : *The Province of Damascus*, pp. 200-204

٢ ـ انظر : A. Russel, *The Natural History of Aleppo*, 2 vols., London, 1734, see vol. I, pp. 404 n. 30.

٣ ـ انظر : A. E. B[1] 87 : Alep, 22. 3. 1757, Alep, 26. 3. 1757, A. E. B[1] 435 Constantinople, 30. 4. 1757.

٤ ـ البديري ، ٤٧ آ ؛ الطباخ ج ٣ ، ٣٢٩ .

١٧٥٧ عزل أسعد باشا من جديد،وعين على سيواس•ولم تجد احتجاجات الحلبيين ولا محاولات آل العظم في استانبول وحلب لالغاء قرار العزل • ولم يلجأ أسعد باشا الى السلاح للمقاومة ، كما نصحه مستشاروه ، بل بقي الوالي المطيع حتى النهاية • وفي **٥** شعبان **١١٧١/١٤** نيسان **١٧٥٨** ، قتل أسعد باشا في الأناضول بأمر الدولة،وتلا ذلك مصادرة أموالهالكثيرة•

لقد شاع في دمشق ، وفي غيرها ، أن سبب مقتل أسعد باشا تحريضه البدو على مهاجمة قافلة الحج والجردة ، في عهد خلفه حسين باشا بن مكي، وذلك احتجاجاً على عزله • وذكر التهمة كثير من المؤرخين الدمشقيين وغيرهم ، بينما لزم الصمت آخرون مثل البديري • وقد حدث هجوم البدو من بني صخر على الجردة في **٢٠** ذي الحجة **١١٧٠/٥** ايلول **١٧٥٧** ، في المنطقة بين القطرانة ومعان ، وعلى قافلة الحج في حوالي **١٠** صفر **١١٧١/ ٢٤** تشرين الاولى **١٧٥٧** ، في المنطقة بين تبوك وذات حج •وكان الهجوم من الشدة بحيث أبيدت تقريباً الجردة والقافلة • ولم تحدث مثل هذه الكارثة ، قبل ذلك ، في العهد العثماني • فارتاع السلطان لهول المصيبة لاسيما وأن سمعته الدينية كانت كل شيء له الآن بعد انهيار سمعته العسكرية• فبحث عن ضحية مناسبة يحملها اللوم ، ووقع على أسعد باشا الذي ازداد نفوذه في بلاد الشام الى درجة كبيرة وثار الحلبيون لابقائه بينهم • وكان أعداء أسعد باشا في استانبول ، وأشهرهم راغب باشا الصدر الأعظم وأحمد أبوقوف الكزلار آغا ، يكيدون لأسعد باشا ، فشجعوا السلطان على استغلال كارثة قافلة الحج لاتهام أسعد باشا ، وذلك لمصادرة ثروته الكبيرة•وكانت الدولة ، آنذاك ، بحاجة ماسة الى المال • وقد بلغ من كثرة أموال أسعد باشا المصادرة [١] أن الدولة أجرت تبديلا في سعر النقود ، وزادت ، بصورة عامة ، من قيمتها [٢] •

---

١ ـ انظر مثلا : البريدي ، ٥١ ب : بريك ، ٥٩ ـ ١٦٠ ؛ انظر ايضا :
A. E. B[1] 88 : Alep, 31. 5. 1758.

٢ ـ أنظر :
PRO, S. P. 97/40 : Constantinople, 16. 8. 1758; Hammer, XVI. 25, 26.

ومما ينفي التهمة عن أسعد باشا الأحداث التي جرت ، آنذاك ، في استانبول • ففي ١٦ صفر ١١٧١/٣٠ تشرين الاول ١٧٥٧ توفي السلطان عثمان الثالث ، وخلفه أخوه مصطفى الثالث • ونتج عن ذلك ، كالعادة ، تبدلات بين كبار الموظفين • وفي ٢٤ صفر من السنة نفسها نفي الكزلار آغا أحمد أبو قوف الى رودس ، وأشيع أن أمواله قد صودرت• وقد بقي راغب باشا صدراً أعظم • ووصلت أنباء الهجوم على قافلة الحج الى استانبول بعد اعتلاء السلطان مصطفى الثالث بفترة وجيزة • وكانت تعم استانبول ، آنئذ ، نقمة شعبية بسبب غلاء أسعار المواد الغذائية وتدفق القرويين الى المدينة•وعمد السلطان ، ارضاء للشعب ، الى تبديل كثير من الموظفين،والى قتل الكزلار آغا محمد أبي قوف في ١٥ ربيع الاول ١١٧١/ ٢٧ تشرين الثاني ١٧٥٧ • وذكر على اللوحة التي علقت على رأسه الذي عرض أمام الجماهير أن الكزلار آغا كان سبب عزل حاكم الشام القوي أسعد باشا العظم وتعيين صنيعته حسين باشا بن مكي الذي هوجم الحج أثناء امارته • وفي هذا مديح لأسعد باشا المعزول ونفي ضمني لتهمة اشتراكه بتحريض البدو • ولم يفد أسعد باشا من ذلك لأن عدوه الآخر الصدر الأعظم راغب باشا كان لا يزال قوياً • وقد ازدادت سلطة راغب باشا بعد التخلص من منافسه الكزلار آغا ، ودبر التهمة ضد أسعد باشا للاستيلاء على ماله بالدرجة الاولى •

أما الأسباب الحقيقية [١] التي أدت الى هجوم البدو على قافلة الحج فتعزى الى امتناع حسين باشا عن دفع مال الصر الى البدو ، في وقت كان البدو يعانون فيه من شدة القحط وجفاف المياه وقلة المرعى ، والى استبعاد قبيلة بني صخر ، منذ ولاية أسعد باشا ، من عملية نقل الحجاج وتأجير الجمال لهم ، مما أدى الى خسارة كبرى لبني صخر ، فتحينوا الفرصة الآن للتعبير عن احتجاجهم•وكان أسعد باشا ، أثناء ولايته

---

١ ـ أنظر تحليل الأحداث التي أدت الى مقتل اسعد باشا والى الهجوم على قافلة الحج في كتابنا : *The Province of Damascus*, pp. 204-207, 213-222.

على الشام ، قد شدد قبضته على القبائــل الصغيرة مثل بني صخر في منطقة البلقاء ، وبني فضل في حوران ، في حين أنه تودد الى القبائل الكبيرة ، مثل العنزة في البادية السورية ، وبني حرب في الحجاز [1]. ولذلك استغلت القبائل الصغيرة مناسبة عزل أسعد باشا لتثور على سلطة والي الشام.وأتيح لهم ذلك بسبب ضعف حسين باشا بن مكي الذي وصفه المرادي: « انه كان بطيء الحركة عن شهامة الوزارة »[2].وكان حسين باشا من أهالي غزة ، وقد تعامل معه البدو المحليون قبل ذلك ، وعرفوا مقدار ضعفه . وأصبح الآن والياً على الشام وأميراً لقافلة الحج بدون جدارة ، فانتهز بنو صخر الفرصة لتصفية حسابهم مع السلطات العثمانية .

وكان القضاء على أسعد باشا ضربة كبيرة لنفوذ آل العظم . وقد عزل أخوه مصطفى باشا وجرد من أطواخه في الوقت نفسه.أما سعد الدين باشا فلم يصب بأذى ، ولكنه فقد كثيراً مــن نفوذه ، وتوفي في ١١ ذي القعدة ١١٧٥/٣ حزيران ١٧٦٢ . وهكذا انتهى جيل آخر من حكام آل العظم، وكان جميع أفراده من أولاد اسماعيل باشا . ولـم يتوصل محمد باشـا العظم ، الذي يمثل الجيل الثالث من حكام هذه الاسرة ، الى ولاية الشام حتى سنة ١٧٧١ . ولكن أحداً من آل العظم لم يبلغ بعد أسعد باشا درجة النفوذ التي وصل اليهـا بسبب ضعف الأسرة العظمية من نـاحيـة ، وبسبب انهيار سلطة ولاة الشام عامـة تجـاه ازدياد قوة ظاهـر العمر وعلي بك المملوكي ، ثم أحمد باشا الجزار ، من ناحية أخرى .

سيطرة ظاهر العمر . — لابد لنا أثناء دراستنا لازدياد نفوذ ظاهـر العمر ، في هذه الفترة ، من معالجة الصراع عـلى السلطة ، في بلاد الشام الجنوبية ، بين الأمراء الشهابيين والمتاولة وظاهر العمر وولاة الشام وصيدا، وأيضاً الصراع داخل صفوف هـذه الفئات ، وذلك لنتفهم كيف تمكـن ظاهر العمر من الوصول الى ما يقرب السلطة المطلقة في فلسطين خاصة .

---

١ ــ انظر حول علاقة أسعد باشا بالبدو : *The Province of Damascus*, 198-200

٢ ــ انظر : المرادي ، سلك الدرر ، جـ ٢ ، ٦١ .

وقد ذكرنا[1] كيف أن سليمان باشا العظم اشتبك،في أواخر ولايته الاولى على الشام ، في قتال مع ظاهر العمر بسبب اعتدائه علـى مناطق آل ماضي وآل جرار الخاضعين لاشراف سليمان باشا • واستفاد ظاهر العمر من سرعة تبدل ولاة الشام في الفترة بين ١٧٣٨ – ١٧٤١ ، حين تعاقب على الولاية حسين باشا البستنجي وعثمان باشا المحصل وعلي باشاوومن،انشغال الوالي الاول بثورة الدمشقيين ضده ، والوالي الثاني بطرد القابيقول من الشام•أما الوالي الثالث فقد اتصفتعلاقاته بالمصالحة معاليرلية ومع ظاهر•

وما أن عين سليمان باشا العظم للمرة الثانية علىالشام في ١٧٤١ حتى عاد الى استئناف القتال ضد دروز جبل لبنان وظاهر العمر • ويتفق هـذا الموقف مع سياسة سليمان باشا التقليدية في تشديد قبضته على القوىالمحلية في الريف والتسامح مع سكان المدن [2] •

وبـدأ سليمان باشا ولايته بقيادة حملة ضد دروز جبل لبنان بسبب اعتدائهم على البقاع • وكما حدث في ولايته الاولى ، فقد تصالح معهـم ، قبل أن يبدأ القتال ، لقاء مبلغ كبير من المال [3] •

ثم وجه سليمان باشا كامل جهـده لاخضاع ظاهر العمر الذي كان يثير مخاوف سليمان باشا بسبب ازدياد سلطته في منطقة صفد وتحصنـه في قلعتي طبرية ودير حنا ، وأيضاً بسبب اعتدائه على منطقة نابلس التي تتبع ولاة الشام • ورغم أن منطقة صفد ـ طبرية تقع تحت اشراف ولاة صيدا، الا أن أشغال هـذه الولاية ، أثناء حكـم سليمان باشا في الشام ، من قبل أبناء أخيه ، ابراهيم باشا أو أسعد باشا ، ولجوء هذين الواليين الى عمهمـا لمساعدتهما ضد ظاهر ، ألقى المسؤولية على سليمان باشا • وكان سليمان باشا يهتم بأن يدفع ظاهر أموال الميري بانتظام الى والي صيدا لانفاقهـا على

---

١ ـ انظر ص ٢٤٥ •

٢ ـ انظر ص ٢٤٤ •

٣ ـ انظر البديري ، ٢ أ ؛ انظر أيضا :
A. E. B[1] 1025 : Seyde, 19. 8. 1704, Seyde, 10. 11. 1741.

تمـويـل جردة الحج • وخرج سليمان باشا بحملة كبيرة من دمشق في ٣ رجب ١١٥٥/٣ ايلول ١٧٤٢ لمحـاصرة ظـاهر العمر في طبريـة ، وذلك بمناسبة الدورة • وساعده الامير ملحم الشهابي ، أمير جبل لبنان ، ببعض قواته نظراً لعدائه لظاهر • ودعم سليمان باشا أيضاً بدو بني صخر وبدو بني صقر الذين كانوا على خلاف مع ظاهر [١]• ولكن سليمان باشا فشل في احتلال قلعة طبرية ، رغم حصاره لها ما يقرب من ثلاثة أشهر ، واضطر الى التراجع الى دمشق بسبب دنو موعد خروج قافلةالحج• وليس صحيحاً ما شاع ، آنذاك ، في دمشق بأن سليمان باشا احتل قلعة طبرية [٢] •

واغتنم ظاهـر العمر فرصة انسحاب سليمان باشا فبدأ بتقوية نفسه عسكرياً• كما أنه اتصل بالقنصل الفرنسي في صيدا لكسب دعمه،وللتوسط له لدى السلطات العثمانية لمنع والي الشام من شن الحملات عليه•واتصل القنصل بالسفير الفرنسي في استانبول ليتوسط فيها لصالح ظاهر • وتردد السفير في ذلك لأن ظاهر العمـر يعتبر ثائراً في استانبول ، كما أن ذلك سيغضب سليمان باشا وسيسيء للمصالح الفرنسية في بلاد الشام الجنوبية ، لا سيما وأن الفرنسيين لـم يتأكدوا بعد من مقدرة ظاهر العمر على البقاء ومقاومة سليمان باشا [٣] •

وخرج سليمان باشا ، بعد عودته من الحجاز ، بحملة ثانية ، بناءعلى أوامر السلطان ، ضد ظاهر وضد متاولة جبل عامل الذين رفضوا دفع مال الميري لوالي صيدا ، ابراهيم باشا العظم • واستنهض ابراهيم باشا الامـير ملحماً الشهابي لمساعدته ضد المتاولة ، وتمكن من هزيمتهم • ولم يشترك سليمان باشا بقتال المتاولة ، بـل عمل ، بعد هزيمة الامير الشهابي لهـم ، على كسبهم الى جانبه واشراكهم معه في قتال ظاهر ، بعد أن رفض مساعدة الأمير الشهابي لـه • ويبدو أن سليمان باشا كان يخشى ازدياد قوة الامير

١ ـ انظر : البديري ، ٤ آ ـ ٦ آ ؛ عبود الصباغ ، ٧ ب ـ ٨ آ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B[1] 1026 : Seyde, 19. 9. 1742.

٢ ـ انظر معالجة ذلك بالتفصيل في كتابنا *The Province of Damascus*, pp. 157-158

٣ ـ انظر : A. E. B[1] 402 : Constantinople, 1. 5. 1743 .

الشهابي ولجوء المتاولة الى ظاهر ، فقرب اليه المتاولة • ثم بدأ بمهاجمة قلعة دير حنا حيث تحصن أخو ظاهر • ولو نجح سليمان باشا باحتلال هذه القلعة لقطع المؤن عن قلعة طبرية وأرهب المحاصرين فيها • ولكنه توفي في قرية لوبية قرب طبرية في حوالي ٤ رجب ١١٥٦/٢٥ آب ١٧٤٣ [١]• وتنفس ظاهر الصعداء •

واستفاد ظاهر العمر من انشغال أسعد باشا العظم بتوطيد سلطته ضد اليرلية وفتحي الدفتري في دمشق ، في الفترة بين ١٧٤٣ – ١٧٤٦ ، فقوى نفسه • وحين تفرغ أسعد باشا من ذلك وأصبح سيد الموقف في دمشق،لم يستأنف سياسة العنف ، التي اتبعها عمه سليمان باشا ، نحو ظاهر العمر ، بل اتخذ منه موقف التعايش السلمي ، في حين شدد قبضته على دروز جبل لبنان ، فما أسباب هذه السياسة ؟

لقد تكررت حملات أسعد باشا ضد أمير جبل لبنان اما بسبب مماطلته في دفع مال الميري أو بسبب تعدي سكان الجبل على منطقة البقاع الغنية التابعة لولاة الشام • ورغم أن مسؤولية جمع مال الميري من أمير جبل لبنان تقع على عاتق والي صيدا ، فقد أمر أسعد باشا من قبل السلطان، في ١٧٤٥، بالانضمام الى والبي صيدا وطرابلس في حملة ضد الامير ملحم ، وتوصلوا الى تسوية معه بدفع مال الميري المتأخر [٢] • وقد أظهرت هذه الحملة لأسعد باشا ضعف دروز جبل لبنان،واستاء هؤلاء من الحملة فردوا بمهاجمة البقاع• كما أن بعض الزرب الذين هربوا من دمشق ، أثناء قمع أسعد باشا لليرلية ، وجدوا ملجأ بين الدروز ، وخاصة آل تلحوق ، وعادوا بصحبتهم يهددون الشام • ولهذا شن أسعد باشا حملة أخرى ضد الدروز في جمادى

١ – انظر حول الاحداث السابقة : البديري ، ٩ آ – ١٠ آ ؛ عبود الصباغ ، ٩ آ ؛ ميخائيل الصباغ ، ٦٢ – ٦٣ ؛ ابن جمعة ، نشر المنجد ، ٦٩ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ١٨٤ ؛ بريك ، ١١ ؛ المنير المشرق ، ٤٨ (١٩٥٤) ، ٦٧٨ ؛ نزهة الزمان ، مخطوط باريس ، ٣٦ آ – ٣٦ ب ؛ حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٢٩ – ٣٢ ؛ تاريخ جبل الدروز ، ٦ ب ؛ انظر ايضا : A. E. B[1] 1026 : Seyde, 20. 8. 1743 .

٢ – انظر : A. E. B[1] 1026 : Seyde, 22. 10. 1745 .

الاول١١٦٠/أيار ١٧٤٧ • وقد استغل أسعد باشا موسم الحصاد في جبل لبنان فنهبت قواته القرى ، وصادر الحبوب ثم باعها في دمشق بأسعار مرتفعة • صحيح ان اتلاف مؤن العدو ضرورة عسكرية ، ولكن يتساءل المرء هنا فيما اذا لم يكن توقيت الحملة مدبراً بقصد المصادرة والاثراء • ولم تصل الحملة الى اتفاق مع الدروز بسبب مماطلة والي صيدا في تأييد أسعد باشا • ورد الدروز بأن هاجموا في رجب/تموز ـ آب ، من السنة نفسها ، بعض قرى البقاع • وخرج أسعد باشا لقتالهم في ٧ شعبان / ١٤ آب ، وحدثت عدة اصابات بين الفريقين[1] • وهاجم الدروز في منتصف عام ١١٦١ / منتصف ١٧٤٨ منطقة الزبداني ، واشتركوا ، بعد ذلك ، مع الزرب في الهجوم على الشام[2] • ويجب الاشارة هنا الى أن الامير ملحماً الشهابي لم يكن مسؤولا عن جميع هذه الهجمات ، بل كانت بعض قوات الجبل تقوم ، على مسؤوليتها الخاصة ، بمهاجمة البقاع وتأييد الزرب • ومما يؤكد ذلك الخلاف الذي حدث بين الامير ملحم وآل تلحوق وآل عبد الملك بسبب حمايتهم للزرب ، والذي أدى الى قتاله لهم • ويدل هذا على رغبة الامير ملحم العيش بسلام مع أسعد باشا • وبالفعل لم تحدث ، بعد ذلك ، اصطدامات هامة بين أسعد باشا وسكان الجبل بسبب انشغاله بتشييد أبنيته المختلفة في دمشق • كما أن طلب أسعد باشا الى السلطان تعيين أخيه مصطفى باشا على ولاية صيدا لاحكام الطوق على أمراء جبل لبنان لم يتحقق حتى ١٧٥٥ ، أي قبل عامين من عزل أسعد باشا •

وانشغل الامير ملحم بدوره بمحاولة الحصول على التزام بيروت لدعم نفوذه تجاه ظاهر العمر القوي والمتاولة الذين لم يعودوا يقبلون الخضوع لامراء جبل لبنان • كما أن سلطة الامير ملحم بين المشايخ المحليين في جبل لبنان قد ضعفت كثيراً ، ولم يدفعوا له أموال الميري بانتظام ، ومن هنا تأخره في دفعها الى الدولة • وعلى هذا ، فان حصوله على التزام بيروت سيتيح له ،

---

١ ـ انظر : البديري ، ٢١ آ ـ ٢٣ آ •

٢ ـ المصدر السابق ، ٢٣ ب ـ ٢٤ آ ، ٢٦ آ ـ ٢٦ ب •

الى جانب النفوذ الذي سيجنيه منه ، الحصول على موارد اقتصادية اضافية • واذا كان ظاهر قد حصل على التزام عكا في ١٧٤٦ فلماذا لايحصل الامير ملحم على التزام بيروت ؟• وبالفعل ، تم للأمير ملحم ذلك في حوالي سنة ١٧٤٩[1] •

لقد تمكن الامير ملحم من الابقاء على نفوذه تجاه المشايخ المحليين باتباع سياسة التفرقة بينهم • ولكن النقمة المحلية ضده أخذت تتعاظم ، ولم يدفع له السكان أموال الميري الا بضغط شديد • وعندما مرض الامير ملحم في ١٧٥٤ ، استغل المشايخ المحليون ذلك ، وشجعوا أخويه : الامير منصور والامير أحمد للحكم سوية مكانه • واضطر الامير ملحم ، ازاء ذلك ، الى الاستقالة ، واختير أخواه للحكم مكانه • ويعكس اختيارهما للامارة انقساماً بين مشايخ جبل لبنان ، وقد زاد حكمهما في تدعيم هذا الانقسام • وظهر في هذه الاثناء حزبان رئيسيان : الحزب الجانبلاطي ويرأسه علي جانبلاط ، والحزب اليزبكي ويرأسه عبد السلام العماد (وسمي الحزب كذلك نسبة الى يزبك وهو جد عبد السلام[2] • وسنرى أثر هذا الانقسام في دراستنا للفترة التالية • وقد استفاد من ذلك ظاهر العمر •

لقد جرد أسعد باشا ، كما رأينا ، أكثر من حملة على دروز جبل لبنان ، بينما لم يجرد حملة واحدة على ظاهر العمر • ويفسر ذلك ، من ناحية ، بسهولة الهجوم على الدروز • فهؤلاء كانوا يسكنون منطقة واسعة ، ويكفي لأسعد باشا أن يهاجم قرية من قراهم حتى يعتبر عمله حملة ضد الدروز • ولم يكن الامر بمثل هذه السهولة بالنسبة لظاهر • فلم يكن

---

١ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٤٠ ، ٤١ ؛ الشدياق ، ج ٢ ، ٢٩ ؛ يوسف الدبس ، تاريخ سورية ، ٨ أجزاء ، بيروت ١٨٩٣ ـ ١٩٠٥ ، انظر : ج ٧ ، ٣٧٩ •

٢ ـ انظر حول الاحداث السابقة : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ؛ نزهة الزمان ، مخطوط باريس ، ١٥ آ ، ٣٨ ب ـ ٣٩ آ ؛ الشدياق ، ج ١ ، ١٧٧ ، ج ٢ ، ٣٠ ، ٣٣ ؛ انظر أيضاً : نقولا الترك ، حوادث الزمان في جبل لبنان ، مخطوط في المكتبة الظاهرية ، برقم ٤٧٢٤ ، انظر الاوراق ، ١٧ آ ـ ٢٠ آ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : حوادث الزمان •

ظاهر رئيس طائفة مثل الدروز، بل كان رئيس أسرة ، هي أسرة الزيادنة، التي بنت قوتها بالاعتماد على القوى المحلية وعلى استغلال الموارد الاقتصادية في المنطقة • وان هجوم أسعد باشا على ظاهر يعني بالضرورة مهاجمة قلعتيه الحصينتين في طبرية ودير حنا • وقد فشل سليمان باشا العظم ، قبل ذلك ، في احتلال هاتين القلعتين ، وتوفي وهو يحاصر قلعة دير حنا • وقد ازدادت استعدادات ظاهر العمر وقوته اثر هذه الهجمات • وعلى هذا ، فان قيام أسعد باشا بحملة ضد ظاهر العمر فيه كثير من المخاطرة ، وقد يؤدي الى هزيمته أو الى الاضرار بنفوذه • كما أن ظاهر العمر قد وطد سلطته ، ولم يعد مجرد ثائر بالنسبة للفرنسيين فاعترفوا به وتعاملوا معه ، وكذلك تغاضت عنه الادارة المركزية في استانبول • وقد جرت العادة أن يحدد سعر القطن في المناطق التي يسيطر ظاهر العمر على التزامها ، من قبله ومن قبل التجار الفرنسيين• ولكن ظاهر العمر، بازدياد نفوذه بعد صد هجمات سليمان باشا العظم ، أصبح وحده يحدد الأسعار • وتضايق الفرنسيون من ذلك ، كما تضايقوا أيضا حين حصل ظاهر في ١٧٤٦ على التزام عكا من والي صيدا[١] ، لأنه أصبح يتحكم بأحد الموانى الرئيسية وبأهم مركز للتجارة الفرنسية • وحين بدأ ظاهر بابتزاز الأموال من التجار الفرنسيين ، ابتهلوا الى السفير الفرنسي في استانبول ليتدخل لدى السلطات العثمانية• وبالفعل، كتب الصدر الأعظم حول هذا الموضوع الى أسعد باشا ليتدخل في الأمر ، ولكن لم يكن الصدر الأعظم وأسعد باشا جادين في معاقبة ظاهر[٢] •

وكان ظاهر العمر حريصاً ، في هذه الأثناء ، على تحسين علاقاته مع السلطات العثمانية ، فدفع أموال الميري بانتظام ، كما أنه قبض على عدد من الزرب الهاربين من دمشق،وقتل بعضهم،وأرسل رؤوسهم الى استانبول

---

١ ـ انظر : A. E. B[1] 978 : Acre, 18. 11. 1746 (Mémoire); A. E. B[1] 1027 Seyde, 12. 11. 1476, Seyde, 26. 1. 1748 (Mémoire), B[1] 1028 · Seyde, 28. 1. 1751, Seyde, 7. 12. 1751;

انظر ايضاً : عبود الصباغ ، ٩ ب ؛ ميخائيل الصباغ ، ٤١ ـ ٤٣ •

٢ ـ انظر : A. E. B[1] 428 : Constantinople, 16. 10. 1749 (تحتوي هذه الرسالة على ترجمة فرنسية للرسالة التي بعث بها الصدر الاعظم الى ظاهر العمر) •

للتدليل على طاعته ومحافظته على القانون . وكان يهدف أيضاً من ذلك الى الحصول على فرمان من السلطان تستثنى بموجبه منطقة طبرية ، التي كان يسيطر عليها ظاهر، من دورة ولاة الشام[1] . وقد رأى السفير الفرنسي في استانبول عدم جدية الدولة في القضاء على ظاهر لاسباب كثيرة ، منها انشغال الدولة ، آنذاك ، بقضايا أكثر الحاحاً ، وأيضاً لأن ظاهر العمر تمكن من توطيد سلطته ، وان القضاء عليه سيكلف الدولة جهداً كبيراً لاسيما بعد أن رأت فشل حملات سليمان باشا ضده . وما دام ظاهر العمر يدفع مال الميري، ويقيم الامن والنظام في المنطقة التي يسيطر عليها ، فلا بأس من بقائه حتى يحين وقت مناسب للدولة العثمانية للقضاء عليه . واضطر الفرنسيون ، ازاء ذلك، الى توقيع اتفاق تجاري مع ظاهر في **١٧٥٣** لتنظيم التجارة بينهما[2] .

وازدادت سلطة ظاهر بعد ذلك ، وحصل على التزام حيفا ، التي كانت تابعة لاشراف ولاة الشام ، كما حصل على التزام مناطق أخرى ، تابعة لولاة الشام، مثل بعض القرى في مناطق نابلس وبلاد حارثة وجبل عجلون[3] . وانعكس هذا التوسع على الالقاب التي اتخذها ظاهر فلقب نفسه : ضابط عكا وبلادها ، وضابط عكا وبلاد الجليل .

وبازدياد سلطة ظاهر بدأت مظاهر الانشقاق تظهر داخل أسرته . ويذكر حدوث خلافات بين ظاهر وبعض أبنائه وخاصة عثمان ، منذ عامي **١٧٥٢** و **١٧٥٣**[4] . ولكن هذه الخلافات التي كانت على نطاق ضيق في هذه الفترة والتي طغت عليها شهرة ظاهر ، ستستفحل في الستينات، وستكون عاملا رئيسياً في تقويض قوة ظاهر من الداخل . وسندرس عندئذ الأسباب التي أدت اليها .

---

١ ـ انظر : عبود الصباغ ، ٩ ب ؛ البديري ، ٣٠ آ .

٢ ـ انظر : A. E. B[1] 1028 : Seyde (Constantinople), 15. 7. 1750, Seyde, 23. 9. 1750, B[1] 1030 : Seyde, 12. 7. 1753 (Articles d'accommodement entre M. de Verrayon, Consul de France à Seyde et le Chek Daher el Omar commandant d'Acre).

٣ ـ انظر : عبود الصباغ ، ٩ ب ـ ١٠ آ .

٤ ـ انظر : البديري ، ٣٩ ب ؛ المنير ، المشرق ٤٨ (١٩٥٤) ، ٦٨٠ ـ ٦٨١ .

الاضطرابات في بلاد الشام (١٧٥٧ ـ ١٧٧١) • ـ حدثت عدة اضطرابات في بلاد الشام في هذه الفترة نشأت عن الهجوم على قافلة الحج ، وعن النزاع بين اليرلية والقابي قول ، في عهد حسين باشا بن مكي ، وعن الصراع على النفوذ ، خارج دمشق ، بين أمراء ومشايخ جبل لبنان ، وفي صفوف المتاولة والزيادنة • وبلغت الاضطرابات ذروتها باحتلال دمشق ، من قبل قوات علي بك المملوكي وظاهر العمر والمتاولة ،في حزيران ١٧٧١ •

وقد عين حسين باشا ، بمساعي الكزلار آغا ، على ولاية الشام في جمادى الثاني ١١٧٠/٢٥ شباط ١٧٥٧ ، عقب عزل أسعد باشا العظم • وكان تغيير الوالي مناسبة استغلتها الفئات الناقمة في دمشق للتعبير عن سخطها ضد خصومها • وقام الفقراء والعامة ، أثناء دخول الوالي الجديد الى دمشق، وأيضاً حين ذهب الاعيان الى السرايا في اليوم التالي للسلام عليه ، بتظاهرة احتجاج على ما عانوه من غلاء الاسعار والفقر في السابق ، بسبب جشع التجار والاعيان ، وابتهلوا الى الباشا للأخذ بيدهم ،ورجموا الاعيان،وصاحوا عليهم أن « ارجعوا لا بارك الله فيكم أنتم منافقون وتعينون الحكام على ظلم الفقراء والمساكين • وأكثروا من سبهم وشتمهم »[1] • وعمد حسين باشا الى التفتيش عن سبب الغلاء ، وانخفض سعر الخبز بمقدار النصف تقريباً • ولكن ذلك دام لفترة قصيرة •

واستغل اليرلية عزل أسعد باشا فبدأوا ينظمون صفوفهم للثأر من القابي قول الذين سلبوهم نفوذهم المطلق ، واستعد القابي قول بدورهم للدفاع • وعمت حالة من الفوضى والذعر في دمشق ، وأقفلت الدكاكين • وتمرد أيضاً الجنود المغاربة ، الذين فقدوا رعاية أسعد باشا لهم ، واصطدموا بالمرتزقة من جنود اللاوند •

وما أن غادر حسين باشا دمشق للقيام بالدورة حتى بدأت

---

١ ـ البديري ، ٤٦ ب ـ ٤٧ آ ؛ انظر أيضا : المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ٦١ •

الاشتباكات بين اليرلية والقابي قول في ١٨ رمضان ٦/١١٧٠ حزيران ١٧٥٧ . ووقف الفقراء الى جانب اليرلية بسبب الغلاء الذي تفاقم من جديد . واستنفر القابي قول القوات المرتزقة الغريبة عن دمشق ، مثل الدالاتية واللاوند والموصلية والبغادة (نسبة الى بغداد) ، وحدث بذلك انقسام بين القوات المحلية الدمشقية التي يتزعمها اليرلية ، وبين القوات الغريبة عن دمشق التي يتزعمها القابي قول . ووقعت عدة اصابات في القتال الذي جرى بين الفريقين . ولم يهتم حسين باشا ، بعد عودته من الدورة بالتحقيق حول أسباب ذلك ، أو بمعاقبة المعتدين[1] .

ومما يؤيد الانقسام في الولاء بين مختلف القوات في دمشق قيام أهل الشام « بصوت واحد »[2] ومطالبتهم حسين باشا ، قبيل خروجه مع قافلة الحج الى الحجاز ، باخراج الغرباء من المدينة . وزاد في كره الدمشقيين لهذه القوات الغريبة ، ليس فقط استخدامها في قمعهم بل منافستها لهم في المجال الاقتصادي . ولم يلتزم القابي قول حدود القلعة ، بل أقاموا في الأحياء ، وخاصة حي العمارة[3] . ولم تجد محاولة حسين باشا مصالحة اليرلية مع القابي قول ، وسرعان ما استأنف الطرفان اشتباكاتهما في غياب حسين باشا في الحجاز . ووقف الاشراف الى جانب اليرلية ، وقد قتل القابي قول عدة أفراد منهم . ولم يخفف من حدة القتال ورود أنباء الاعتداء على قافلة الحج .

وقد سبق القول[4] أن بدو بني صخر هاجموا ، في هذه الاثناء ، الجردة وقافلة الحج وأبادوهما تقريباً . وعم الحزن دمشق والعالم الاسلامي . وتمكن حسين باشا من الهرب، ولم يعد الى دمشق بعد ذلك .

---

١ ـ البديري ، ٤٧ آ ـ ٤٨ آ ؛ بريك ، ٤٤ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ٦١ ، ج ٣ ، ٢٠٧ ، مطمع الواجد ، ٣٩ ب .

٢ ـ البديري ، ٤٨ آ .

٣ ـ المصدر السابق ، ٤٦ ب ٤٨ آ ؛ بريك ، ٤٥ .

٤ ـ انظر ص ٢٦٦ .

وتفاقم القتال ، وسط هذه الفوضى ، بين اليرلية والقابي قول [1] •

وعين السلطان مصطفى الثالث أحد القادة العسكريين المشهورين ، ويدعى عبد الله باشا الشتجي (أو الجتهجي ، وتعني المغوار) [2] ، على ولاية الشام للقضاء على الفوضى فيها ، ودخل دمشق في ٢٧ ربيع الثاني ١١٧١/٨ كانون الثاني ١٧٥٨ • وكان دخوله بمثابة تظاهرة قوة بسبب كثرة الجنود الذين رافقوه وتنوعهم • وسرعان ما بدأ بالتفتيش عن المشاغبين بين اليرلية ، فرد هؤلاء باستنفار أفرادهم واطلاق النار باتجاه السرايا • ودعا عبدالله باشا الى ديوان حضرة الاعيان وكبار العلماء لاعطاء عمله ضد اليرلية صفة الشرعية ، ثم هاجم ، على رأس عساكره ، حي الميدان حيث تجمع اليرلية • وحدث كثير من القتل والعنف ، ولا أدل على فظاعة ما حصل من قول المؤرخ المعاصر ، البديري : « وانتكبت أهل الشام نكبة في ذلك العام ما عهدت من أيام تيمور » [3]• وكان القضاء على نفوذ اليرليه حاسماً ، ولم يستطيعوا بعد ذلك منافسة القابي قول والولاة العثمانيين • وقويت السلطة العثمانية ، وعبر المؤرخ المعاصر ، ميخائيل بريك ، عن ذلك بقوله أن عبد الله باشا « فتح الشام » [4] • وهذا تعبير استعمله مؤرخون آخرون في مناسبات مشابهة [5] للدلالة على القضاء على أصحاب النفوذ المحلي واعادة هيبة الدولة •

وتعرض الدمشقيون ، بعد ذلك ، الى شدة عبد الله باشا ومظالم أتباعه وجنوده • وقد فرض على الدمشقيين قبول عملة نقدية بطل استعمالها ،

---

١ ـ انظر : البديري ، ٤٨ آ ـ ٥٠ آ ؛ بريك ٤٥ ، ٤٩ ؛ القاري ، نشر المنجد ، ٨٠ •

٢ ـ انظر حول اصله وماضيه : عمر بن محمد الوكيل ، ترويح القلب الشجي في مآثر عبدالله باشا الجتهجي ، مخطوط في المكتبة الوطنية في فيينا ، برقم Mixt. 195 ، انظر الاوراق ، ٥ ب ـ ١٣ آ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : الوكيل ؛ انظر ايضا : جعفر البرزنجي ، النفح الفرجي في الفتح الجتهجي ، مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق ، برقم ٨٧٢٤ ، انظر الاوراق ، ١٠ آ ـ ١٤ ب (انظر وصفه لهجوم البدو على قافلة الحج في عهد حسين باشا بن مكي ، ٤ ب ـ ٨ آ) : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : البرزنجي ؛ انظر ايضاً : المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ٨١ ؛ Volney, 317-319

٣ ـ البديري ، ٥٠ ب •

٤ ـ بريك ، ٥٢ •

٥ ـ انظر ص ٩٤ ، ١٣١ •

وأغلقت الدكاكين احتجاجاً على ذلك [1] • وكثر تجسس عبد الله باشا على الشعب • وقويت سلطة القاضي ، تبعاً لذلك ، فدار على الأسواق ، وتأكد من صحة الموازين والأوزان • ورغم أنه قضي بذلك على كثير من الفساد، الا أن الشعب تضايق من مظالم عبد الله باشا وعوانيته • وكان عبد الله باشا قد قرب اليه العلماء ، لاهتمامه هو بالعلم ، فنصحوه بانصاف الشعب ، وقرعه المفتي علي المرادي على مظالمه وأتباعه [2] •

وأظهر عبد الله باشا من السلطة خارج دمشق بقدر ما أظهر داخلها• وقد خرج الى الدورة تصحبه المدافع والعساكر الكثيرة • واستولى على قلعة الكرك ، وكانت في حالة مهدمة ، من يد البدو ، وحصنها ، ووضع فيها البرلية للمحافظة على سلامة الحج [3] • وكان عمله هذا جزءاً من حماية طريق الحج من البدو ، لاسيما وأن الكرك تقع على مسافة قريبة من القطرانة ، في المنطقة حيث هاجم بنو صخر قافلة الحج • وتدل اقامة البرلية في الكرك على خضوعهم للأوامر والتزامهم بمهمتهم الرئيسية في حماية القلاع على طريق الحج ، بعد أن عاد القابي قول الى حماية قلعة دمشق وأبواب المدينة وأسوارها •

ولم يصطدم عبد الله باشا بظاهر العمر أو بأمير جبل لبنان ، أثناء الدورة ، ربما بسبب انهماكه بالعودة الى دمشق لتأمين سلامة الحج،وأيضا بسبب انشغال ظاهر العمر وأمير جبل لبنان بالخصومات الداخلية في صفوفهما ، كما سنرى في البحث التالي • وقد أرسل عبد الله باشا حملة هزمت بني صخر [4] •

وحين خرج عبد الله باشا في ١٧ شوال ١١٧١/٢٤ حزيران ١٧٥٨

---

١ ــ بريك ، ٥٢ ــ ٥٣ ، ٦٦ •

٢ ــ المرادي ، مطمح الواجد ، ٣٨ ب ــ ٤٠ آ ؛ انظر أيضاً : المرادي ، سلك الدرر ، ج ١، ٩٨ ؛ الوكيل ، ٥٩ آ ، ٦٢ ب ، ٦٤ آ : بريك ، ٦١ ، ٦٦ ؛ البديري ، ٥١ آ ــ ٥٢آ •

٣ ــ انظر : البديري ، ٥١ آ ــ ٥١ ب ؛ القاري ، نشر المنجد ، ٨٢ ؛ الوكيل ، ٤٤ آ ؛ البرزنجي ، ١٥ آ •

٤ ــ انظر : الوكيل ، ٤٣ ب آ ؛ البرزنجي ، ١٥ ب •

على رأس قافلة الحج الى الحجاز ، رفض أن يدفع لبني صخر صرهم المعتاد. وتلقى عبدالله باشا في المدينة المنورة رسول بني حرب ، المسيطرين على الطريق السلطاني بين المدينة ومكة المكرمة ، الذي طالبه بدفع الصر. فاستغل عبد الله باشا هذه المناسبة ليثأر من اهمال بني حرب حماية الحجاج وتمردهم على شريف مكة ، وهاجمهم بقواته ، وقتل شيخهم عيد ، ونصب آخر مكانه ، بمشورة شريف مكة . وقد حاز انتصار عبد الله باشا رضى واسعاً (١) ، وخلده جعفر البرزنجي ، أحد علماء المدينة المشهورين ، في كتاب خاص عنوانه : النفح الفرجي في الفتح الجتهجي (٢) .

وقد تعرض بنو صخر لقافلة الجردة التي كان يقودها والي طرابلس ، بسبب رفضه ، هو الآخر ، دفع الصر لهم ، واصطدم بهم قرب منزل الحسا ، بين القطرانة ومعان . وخف لنجدته عبد الله باشا الشتجي ، في طريق عودته من الحجاز ، وهزما سوية بني صخر (٣) .

وسر الدمشقيون من تأمين عبد الله باشا سلامة الحج ، وامتدحه كثير من العلماء بهذه المناسبة . وأمن عبد الله باشا سلامة الحج في العام التالي. وعزل ، وهو في الحجاز ، شريف مكة مساعد بن سعيد ، وعين أخاه جعفر ، مكانه . وقد استعاد الشريف مساعد منصبه بعد قليل ، ووافق الباب العالي على ذلك . وذكر أن عبد الله باشا عزل عن ولاية الشام بسبب شكوى الشريف مساعد ضده في استانبول (٤) .

ولم يثر اليرلية في دمشق اثر عزل عبدالله باشا في حوالي جمادى الثاني ١١٧٣/كانون الثاني ـ شباط ١٧٦٠ ، بسبب شدة بطشه بهم سابقاً، وأيضاً

---

١ ـ انظر البرزنجي ، ١٦ ب ـ ٤١ آ (نهاية المخطوط) ؛ الوكيل ، ٤٥ ب ـ ٥٠ ب ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ٥٢ آ ؛ Hammer, XVI, 32-33

٢ ـ انظر ص ٢٧٨ ، هامش ٢ .

٣ ـ انظر : A. E. B[1] : Alep, 28. 8. 1757; PRO, S. P. 97/40 : Constantinople, 17. 10. 1758; Hammer, XVI, 33.

٤ ـ انظر : المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ٨١ ؛ البديري ، ٥٢ آ ؛ انظر أيضاً : Hammer, XVI, 47-48.

بسبب ما كانت تعانيه دمشق،وبلاد الشام عامة ، آنذاك ، من أخطار الزلازل التي تكرر حدوثها فيها • وكانت أقواهـا زلزلتان حدثت الأولى منهما في ٨ ربيع الأول ١١٧٣/٣٠ تشـرين الاول ١٧٥٩ ، والثانية في ليل ٥ – ٦ ربيع الثاني ٢٦–٢٧ تشرين الثاني من السنة نفسها • ورغم أن الدمار كان شاملا ، فقد قاست دمشق أكثر من غيرهـا • وأعقب ذلك طاعـون شديد نتج عن الدمار الذي أحدثته الزلازل ، وشمل المنطقة بين انطاكية وحلب، في الشمال ، وغزة ، في الجنوب • وكانت الوفيات في دمشق وحدها ، في أوج الطاعون الذي دام مـدة أسبوع في فتـرة عيد الفطر ١١٧٣ ، تقدر بحوالي ألف وفاة في اليوم • وطغت أخبار هذه الكوارث وآثارها في عهد الوالي محمد باشا الشالك الذي خلف عبد الله باشا الشتجي • وحين عزل محمد باشا السالك عـن ولايـة الشام ، في ٢٧ ربيـع الاول ١١٧٤/ ٦ تشرين الثاني ١٧٦٠ ، سر الناس ، لأن ولايته اقترنت بالمصائب[1] •

انتقل ثقل الأحداث في القسم الأكبر من ولاية عثمان باشا الكرجي (الصادق) على الشام (١١٧٤ – ١١٨٥/١٧٦٠ – ١٧٧١) ، الى خارج دمشق ، حيث حدث صراع على السلطة بين أمـراء ومشايخ جبل لبنان ، وفي صفوف المتاولة والزيادنة • وازداد الموقف تعقيداً بتدخـل علي بك المملوكي في شؤون بلاد الشام في ١٧٧٠ – ١٧٧١ •

كان عثمان باشا الكرجي مملوكاً كرجي الاصل (من بلاد جيورجيا)، وعمل في خدمة أسعد باشا العظم الذي عينه حاكماً من قبله ، على حماة •

---

١ – انظر حول الزلازل والطاعون وأضرارهما : مقال الشيخ محمد أحمد دهمان ، « زلزال سنة ١١٧٣ هـ » ، مجلـة المشرق ٤٢ (١٩٤٨) ، ص ٣٣٣ – ٣٤٧ ؛ انظـر أيضـاً البديري ، ٥٢ ب ٥٤ آ ؛ بريك ، ٦٨ – ٧١ ؛ القاري ، نشر المنجد ، ٨٢ – ٨٣ ؛ وانظر أيضـاً التقارير القنصلية التالية : (يلاحظ أن القنصل الفرنسي في صيدا قـد لجأ الى البساتين لتحاشي الزلازل) •

A. E. B[1] 1032 : (Des Jardins de Seyde), 22. 12. 1759, (Des Jardins de Seyde), 27. 3. 1760; A. E. B[1] 1120 : Tripoli, 4. 2. 1760, Tripoli, 12. 8. 1760; A. E. B[1] 88 : Alep, 14. 1. 1760; PRO, S. P. 110/36 : Aleppo, 22. 12. 1759, Aleppo, 26. 4. 1760, Aleppo, 13. 6. 1760.

وحين قتل أسعد باشا وصودرت أمواله، بادر عثمان باشا الى اعلام السلطات العثمانية عن مخابىء أموال سيده ، فلقب بالصادق تبعاً لذلك . وعين في كانون الثاني ١٧٦٠ والياً على طرابلس [١]، ثم نقل في ٦ تشرين الثاني ، من السنة نفسها ، الى ولاية الشام ، نظراً لخدماته للدولة ، ولتفانيه في تأمين سلامة الحج حين عين أميراً للجردة ، أثناء ولايته على طرابلس[٢] . وخلفه ابنه محمد باشا في ولاية طرابلس .

ولقد أثار تعيين عثمان باشا على ولاية الشام آل العظم الذين كانوا يطمعون بتعيين مرشحهم الجديد محمد باشا بن مصطفى باشا العظم ، والياً على الشام حيث توطدت الأسرة، لاسيما وأن عثمان باشا الكرجي كان مملوكاً لديهم وبنى أمجاده على حسابهم . وليس صحيحاً ما ذكره الجبرتي[٣] ، ونقله عنه آخرون ، بأن عثمان باشا هذا هو « ابن العظم » . وهذه النسبة هي من قبيل اشتهار شخص ما بانتسابه الى أسرة مشهورة ، كما حدث مثلا ، في مطلع القرن السابع عشر ، حين عرف الشخص الذي كان ينتسب الى كيوان ، أحد كبار انكشارية الشام آنئذ ، بابن كيوان[٤]. ورغم أن محمد باشا العظم عين على ولاية صيدا في آذار ١٧٦٣، الا أنه بقي يسعى للحصول على ولاية الشام الى أن عين عليها في ١١٨٥/١٧٧١ . ومن هنا النزاع بين عثمان باشا ، الذي كان يحاول أن يعين أحد أبنائه على ولاية صيدا، ومحمد باشا العظم . وقد أثار عثمان باشا الاضطرابات على محمد باشا العظم في ولاية صيدا بقصد الاساءة اليه[٥] .

ويبدو أن عثمان باشا كان شاعراً بأصله الوضيع وبأهمية ولاية الشام التي عين عليها . وقد وصفه المؤرخ المعاصر ، ابن الصديق ، بأنه قليل

---

١ ـ انظر : A. E. B[1] 88 : Alep, 28. 1. 1760; A. E. B[1] 1120 : Tripoli, 4. 2. 1760

٢ ـ انظر : البديري ، ٥٤ آ .

٣ ـ انظر : عجائب الآثار ، جـ ١ ، ٣٠٩ .

٤ ـ انظر ص ١٤٣ .

٥ ـ انظر حول ملابسات النزاع ، كتابنا : *The Province of Damascus*, pp. 234-239

الاصل ، بالمقارنة مع آل العظم [1]. وحاول عثمان باشا التقرب من الدمشقيين والتخفيف من المظالم التي كانت مفروضة عليهم . فخفض أسعار المواد الغذائية ، وخاصة الخبز ، وأغدق الهدايا على الحرفيين والصناع في الاحتفالات ، وتعاون مع المفتي علي المرادي في ازالة المظالم التي فرضها الحكام في السابق على التجار والفقراء . وانقص بدل الخدمة العسكرية الذي كان يدفعه الجند الاقطاعيون ، أصحاب الزعامت والتيمار . كما أنه عمر القلاع وبرك الماء على طريق الحج ، وأمن سلامة الحجاج [2] . وكسب عثمان باشا بهذه الاعمال المختلفة عطف الفئات المتنفذة في دمشق التي بامكانها دعم الباشا أو الثورة عليه . ولم يقم اليرلية بأية اضطرابات تستحق الذكر في عهده بسبب ما عانوه في السنوات القليلة الماضية من قمع وبطش بهم . ومكن هدوء الحالة في دمشق عثمان باشا من توجيه اهتمامه الى ظاهر العمر الذي تعاظم أمره منذ سنوات ، خاصة بسبب موقف المسالمة الذي وقفه منه أسعد باشا العظم ، وبسبب الاضطرابات داخل دمشق وعلى طريق الحج التي تلت عزل أسعد باشا . وساعدت النكبات الطبيعية ، التي حلت بعد ذلك ، في الابقاء على الوضع الراهن . ويبدو أن الاضرار المادية التي نتجت عن هذه النكبات قد جعلت ظاهر العمر يشدد قبضته على التجار الفرنسيين في عكا ويمد نفوذه على مناطق أخرى خاضعة لوالي الشام ، وذلك للتعويض عما أصابه من خسارة . ويدل ذلك في الوقت نفسه على قوة نفوذه .

وقد جرد عثمان باشا ، بعد حوالي شهرين من تعيينه على الشام، حملة ضد ظاهر العمر ، بمناسبة الدورة ، واستولى على قلعة طرطورة (في الجنوب الشرقي من حيفا) ، العائدة لولاة الشام ، والتي كانت خاضعة

---

١ ـ انظر : حسن الشهير بابن الصديق ، غرائب البدائع وعجائب الوقائع ، مخطوط في مجموعة برلين ، برقم 9832. we. (II) 417 ، الورقة ٨٣ ب : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : ابن الصديق .

٢ ـ انظر : القاري ، نشر المنجد ، ٨٣ ؛ البديري . ٥٤ ب ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ٣ ، ١٦١ ، مطمح الواجد ، ٤٢ آ .

لظاهر العمر • ورغم أن ظاهراً احتل القلعة من جديد ، بعد قليل (١) ، فان الحادثة بكاملها تدل على محاولة عثمان باشا اخضاع ظاهر ، وعلى استعداد هذا الأخير للقيام برد فعل مناسب •

وقام عثمان باشا ، بعد ذلك ، بعمل أكثر جرأة ضد ظاهر العمر ، اذ حاول السيطرة على حيفا التي تخضع له نظرياً ، والتي كان التزامها بيد ظاهر • وكانت حيفا قد استفادت من ازدهار عكا الاقتصادي ومن صلاحيتها لرسو السفن • وبعد محاولة فاشلة قام بها عثمان باشا لاحتلال حيفا ، من طرف البحر ، في أيار ١٧٦١ ، تمكن من احتلالها في أواخر ١٧٦١ • ولكن ظاهر العمر عاد الى احتلالها بعد قليل (٢) • وهكذا فشلت محاولات عثمان باشا للحد من سلطة ظاهر العمر • ومن أسباب فشله عدم الانسجام، وبالتالي فقدان العمل المشترك ، بينه وبين والي صيدا • ولهذا حاول عثمان باشا الحصول على ولاية صيدا لابنه درويش باشا لتشديد قبضته على ظاهر • وكان ابن آخر لعثمان باشا ، هو محمد باشا، والياً آنئذ على طرابلس • ولم يتم له ذلك حتى عام ١٧٧٠ ، وازدادت عندئذ العلاقات تأزماً بين الفريقين •

وكانت علاقة عثمان باشا مع أمير جبل لبنان الشهابي سلمية ، في البدء ، بسبب انشغال الامير الشهابي بالنزاع الداخلي بين أسر جبل لبنان، وبسبب نزاع عثمان باشا مع ظاهر العمر • ولم يمنع ذلك عثمان باشا من مهاجمة الأمير اسماعيل الشهابي ، قريب الشهابيين أمراء جبل لبنان وحاكم حاصبيا التي تتبع ولاة الشام • وهدم عثمان باشا الحصن الذي بناه الامير اسماعيل في بانياس ، وذلك لتأمين سلامة خطوط مواصلاته (٣) •

---

١ ـ انظر : البديري ، ٥٤ ب •

٢ ـ انظر : A. E. B[1] 1032 : Seyde, 24. 5. 1761. Seyde, 25. 5. 1761, Seyde, 3. 5. 1761, Seyde, 6. 6. 1761; Charles - Roux, 6;

انظر أيضاً : عبود الصباغ ، ١٠ ب ـ ١١ آ •

٣ ـ تعرف منطقتا حاصبيا وراشيا باسم وادي التيم • انظر حول الحادثة ؛ بريك ، ٧٢ ؛ حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٥٣ ـ ٥٤ • يكرر حيدر شهاب خطأ ذكر الحادثة في ص ٦٦ ـ ٦٧ ، بين أحداث سنة ١١٧٨/١٧٦٤ ـ ١٧٦٥ ، ويخلط الوقائع ؛ انظر أيضاً : نزهة الزمان ، مخطوط باريس ، ٤٠ آ ـ ٤٠ ب ؛ وانظر أيضاً :
A. E. B[1] 1033 : Seyde, 23. 4. 1767.

وشهدت الفترة بين ١٧٦٢ و ١٧٧٠ انقسامات داخلية وصراع على النفوذ بين أسر جبل لبنان ، وفي صفوف المتاولة والزيادنة • وكان عثمان باشا ، في هذه الاثناء ، منشغلا ، هو الآخر ، باضطرابات في المناطق الريفية من ولايته •

ذكرنا فيما سبق [1] استقالة الامير ملحم من امارة جبل لبنان لصالح أخويه الامير منصور والامير أحمد • وما لبث الامير ملحم أن شجع ابن أخيه الامير قاسم بن عمر على منافسة الاميرين الحاكمين • وحين توفي الامير ملحم في ١٧٦١ ، فقد الامير قاسم دعمه ، وفشل بالتالي في الحصول على امارة جبل لبنان ، وتصالح أخيراً مع عميه [2] • وأدى زوال خطر الأمير ملحم والأمير قاسم الى ظهور النزاع بين الاميرين الحاكمين • ولم يكن ذلك مجرد نزاع شخصي صرف ، بل كانت جذوره عميقة تتصل بالنزاع بين حزبي الجانبلاطية واليزبكية اللذين أيد كل منهما أميراً دون آخر • وان وجود الحكم الثنائي في الامارة يعكس ، في الحقيقة ، هذا الانقسام الحزبي • وعلى هذا ، فان أي صراع بين الحزبين ستنعكس آثاره على علاقة الاميرين الحاكمين مع بعضهما •

وحدث في ١١٧٧/١٧٦٣ نزاع بين الشيخ عبد السلام العماد ، زعيم اليزبكية ، والشيخ علي جانبلاط ، زعيم الجانبلاطية ، وامتد ذلك الى الاميرين ، فحاول كل منهما الانفراد بالامارة • ولم يكن سعي الاميرين الى ذلك أمراً طارئاً ، اذ أن الأمير منصوراً حاول سابقاً ، في استانبول ، الحصول على الامارة لنفسه ، وذلك بدعم والي صيدا نعمان باشا • وبالفعل ، وردت أوامر من استانبول الى والي صيدا محمد باشا العظم ، الذي خلف نعمان باشا في ١٧٦٣ ، بتأييد الامير منصور ضد الامير أحمد • ولما رأى الشيخ عبد السلام العماد والشيخ شاهين تلحوق ، وهما من كبار مؤيدي الامير أحمد ، ازدياد

---

١ ـ انظر ص ٢٧٣ •

٢ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، جـ ١ ، ٤٣ ـ ٤٤ ؛ المنير ، المشرق ؛ ٤٨ (١٩٥٤) ؛ ٦٨٣ ؛ الشدياق ، جـ ٢ ، ٣١ ـ ٢٣ ؛ الترك ، حوادث الزمان ، ٢١ ب ـ ٢٤ آ •

سلطة الامير منصور ، انضما اليه وتخليا عن تأييد الامير أحمد [١] الذي اضطر ، تبعاً لذلك ، الى التخلي عن حصته في الامارة • وأصبح الامير منصور في ١٧٦٣ الحاكم الوحيد في جبل لبنان،بعد حكم ثنائي دام حوالي تسع سنوات [٢] •

ولم يؤد انفراد الامير منصور بالامارة الى ازالة الانقسام الحزبي بين الاسر في جبل لبنان ، لأن جذور هذا الانقسام كانت عميقة ، وهي استمرار للانقسام القيسي ـ اليمني ، بأشكال وأسماء أخرى ، ولم يكن وجود الاميرين سوى انعكاس لهذا الانقسام • وأدت شدة الامير منصور واستعلاؤه على رؤساء الاسر المحليين ، بدعم من والي صيدا محمد باشا العظم ، الى قيام معارضة ضده دعمت مرشحاً جديداً للامارة هو الامير يوسف بن الامير ملحم المتوفى وابن أخ الامير منصور الحاكم •

وذكر عن الامير يوسف أنه كان يؤيد عمه المعزول ، الامير أحمد ، ولهذا السبب عادى الامير منصوراً • وقد رد هذا الاخير بأن استولى على أموال وممتلكات الامير يوسف ، ورفض طلب الشيخ علي جانبلاط اليه بالغاء الاستيلاء • فسحب الشيخ علي جانبلاط تأييده للامير منصور ، ودعم الامير يوسف ، وانضم اليه في ذلك الشيخ كليب نكد من الحزب الجانبلاطي ، وعمل الاثنان على كسب تأييد الشيخ اسماعيل أبي حمزة ، شيخ عقال الدروز ، للامير يوسف • وقد لعب سعد الخوري ، مستشار الامير يوسف ، دوراً كبيرا في الحصول على هذا الدعم للامير يوسف • ومهما يكن ، فان سببين رئيسيين جعلا الشيخ علي جانبلاط ومؤيديه يلجأون الى هذا التبديل في الولاء : أولا ، تحول زعماء اليزبكية ، وهما الشيخ عبد السلام العماد والشيخ شاهين تلحوق ، عن دعم الامير أحمد الى دعم الامير منصور ، مما جعل من الصعب على زعماء الجانبلاطية

---

١ ـ الامير احمد هو والد المؤرخ اللبناني المشهور حيدر احمد شهاب •
٢ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٥٩ ـ ٦٠ ؛ المنير ، المشرق ، ٤٨ (١٩٥٤) ، ٦٨٧ ٦٨٨ ؛ الشدياق ، ج ٢ ، ٣٣ ـ ٣٥ ؛ انظر أيضا :
A. E. B[1] 1033 : Seyde, 1. 10. 1763.

الانضمام اليهم ؛ ثانياً ، تعالي الامير منصور وعدم احترامه أحداً من أكابر البلاد لأنه تقوى بتأييد محمد باشا العظم ، والي صيدا . [1] وهكذا عاد الحزبان ، الجانبلاطي واليزبكي ، الى التنافس من جديد .

وتمكن الامير يوسف في ١٧٦٣ من الحصول على حكم منطقة جبيل من والي طرابلس محمد باشا ، وذلك بوساطة والد محمد باشا ، عثمان باشا الكرجي والي الشام . واصطدم الامير يوسف بآل حمادة المتاولة ، وهم زعماء منطقة جبيل ، وتغلب عليهم بمساعدة مؤيديه من الحزب الجانبلاطي . واشتبك الامير يوسف ، في منطقة بعلبك ، مع طائفة أخرى من المتاولة من بني حرفوش ، وذلك بناء على أوامر تلقاها من استانبول . فسار الى بعلبك في ١٧٦٧ ، وعزل حاكمها الامير حيدر الحرفوش ، الذي حكمها منذ خمس عشرة سنة تقريباً اثر قتله أخيه الامير حسين . ولجأ الامير حيدر الحرفوش الى متاولة جبل عامل ، ونصب الامير يوسف أحد أخوة الامير حيدر مكانه [2] .

وتكشف أعمال الامير يوسف هذه في الاعتماد على عثمان باشا الكرجي،والي الشام ، وفي مقارعة المتاولة ، عن اتجاه سياسته في المستقبل. كما أن هذه المعارك التي خاضها الامير يوسف كانت مفيدة له من عدة نواحي . فقد ازدادت سمعته العسكرية ، ورضيت عنه السلطات العثمانية لتنفيذه أوامرها وتوطيده الأمن . كما أن نفوذ الامير يوسف قد تعاظم بين الدروز وغيرهم ، اثر ذلك ، وازداد شأنه في معارضة الامير منصور .

وانعكست التطورات السياسية السابقة على توازن القوى في المنطقة. وبينما اعتمد الامير يوسف،في سعيه لتوطيد سلطته،على عثمان باشا الكرجي، استمد الامير منصور العون من محمد باشا العظم والي صيدا.وقد استمرت

---

١ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٦٠ ـ ٦٢ ؛ الشدياق ، ج ٢ ـ ٣٥ ـ ٣٧ ؛ المنير ، المشرق ٤٨ (١٩٥٤) ٦٨٨ ـ ٦٨٩ ؛ الترك ، حوادث الزمان ، ٢٦ ب ـ ٢ آ .

٢ ـ انظر : A. E. B[1] 1033 : Seyde. 28. 9. 1767 (Bulletin) ؛ يذكر البديري ، ٣٧ آ ، قتل الأمير حسين الحرفوش في سنة ١١٦٤/١٧٥١ ، ويتهم ضمنياً الأمير حيدر بقية اخوته بذلك ؛ انظر حول المتاولة في لبنان الشمالي ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

هذه الاحلاف في المستقبل ، وساعد على ذلك طول ولاية عثمان باشا في الشام وتكرار تعيين محمد باشا العظم ، في الفترة بين ١٧٦٣ - ١٧٧٠ ، على ولاية صيدا • وزار الامير منصور صيدا أكثر من مرة ، وقدم مساعدة عسكرية لواليها محمد باشا العظم ضد الشيخ عباس المتوالي • وباستثناء بعض سوء التفاهم بينهما حول مال الميري ، الذي زال بعد قليل ، فان العلاقات الودية استمرت بينهما[1] • وفي الحقيقة ، كان موقف الامير منصور تجاه مناوئيه ، بين الدروز وغيرهم ، يقرره ، الى حد كبير ، دعم محمد باشا العظم له[2] • ووقف الامير يوسف ، من ناحيته ، الى جانب عثمان باشا الكرجي ، ودعمه بجيشه في محاولته فتح قلعة سانور التي تحصن فيها محمد جرار • وقد قام الأمير يوسف بذلك على مضض ، واتهم بعدم الاشتراك جدياً في القتال بسبب كون محمد جرار قيسياً مثله[3] • ومع ذلك ، فقد عرف عن عثمان باشا انه حامي الامير يوسف[4] •

ونظراً للاحلاف السابقة ، فقد زاد استفحال النزاع بين عثمان باشا الكرجي ومحمد باشا العظم من شقة الخلاف بين حليفيهما الامير يوسف والامير منصور • وان أي تبدل في سلطة الواليين من شأنه أن يترك آثاره على سلطة الاميرين • وحين عين درويش باشا بن عثمان باشا الكرجي والياً على صيدا في ١٧٧٠ ، كان ذلك ضربة قوية لنفوذ الأمير منصور ، كما سنرى بعد قليل •

واستفاد متاولة جبل عامل من انشغال أعدائهم ، أمراء جبل لبنان ، بخلافاتهم وانقساماتهم الداخلية ، اذ انحسر خطرهم عنهم • ولكن تراخي قبضة أمراء جبل لبنان بالنسبة للمتاولة ساعد ، بالمقابل ، على تفشي الانقسام في صفوف المتاولة • وشجع على ذلك أيضاً ازدهار منطقة المتاولة اقتصادياً

---

١ ـ انظر : A. E. B[1] 1033 : Seyde, 15. 5. 1766, Seyde, 31. 6. 1766, Seyde, 27. 10. 1767, Seyde, 22. 11. 1767.

٢ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، جـ١ ، ٦٤ : المنير ، المشرق ، ٤٨ (١٩٥٤) ، ٦٨٩ •

٣ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، جـ ١ ، ٦٣ : الشدياق ، جـ ٢ ، ٣٧ •

٤ ـ انظر : A. E. B[1] 1033 : Seyde, 27. 10. 1767

في هذه الفترة ، وخاصة بعد أن حصلوا على التزام مرفأ صور في ١٧٥٩ • وكانت معظم المراكب الاوربية المتوجهة الى صيدا تفرغ بضائعهـا في ميناء صور الصالح لرسو السفن ، ثم تنقل البضائع في زوارق صغيرة الى صيدا • وقد ساعد على ازدهار صور زراعة التبغ في جوارها ، ثم تصدير قسم كبير منه ، عن طريقها ، الى سوقه الرئيسة في دمياط[١] •

وعلى عكس السلطة الضعيفة لامراء جبـل لبنان ، فان ازديـاد سلطة ظاهر العمر ، في هذه الاثناء ، في المنطقة جنوبي جبل عـامل ، شجعـه على التدخل في شؤون المتاولة الذين ، بعد أن كانوا أعداءه ، أصبحوا بالتدريج حلفاءه • وعلى غرار انقسام الامراء الشهابيين ، فان فريقاً من المتاولـة أيـد ظاهراً ، بينما أيد الفريق المعارض عثمان باشا الكرجي •

وكان الشيخ ناصيف النصار ، الذي ينحدر من علي الصغير ، زعيم المتاولة الاكبر في جبل عامل ، وبقي على ذلـك حتى وفـاة ظاهر العمر في ١٧٧٥ • وقد نافسه على السلطة عمه الشيخ قبلان الذي حصل على التزام صور من والي صيدا•وفي أواخر عام ١٧٥٩ ساءت العلاقات بين الشيخين ، ووقف معظم مشايخ المتاولة ضد الشيخ قبلان • وحين حدث الخـلاف بين ظاهر العمر وابنه علي ، في أوائل الستينات، أيد الشيخ قبلان ظاهر العمر، بينما أيد الشيخ ناصيف علياً[٢] ، ولم يتمكن ظاهر العمر من تأييد الشيخ قبلان ضد الشيخ ناصيف بسبب انشغاله ، في هذه الفترة ، بخلافاته مع أولاده • وبالتدريج ، أصبحت السلطة العليا بين المتـاولـة للشيخ ناصيف ، وبقي الشيخ قبلان شوكة في جنبه[٣]•

وتفاقم تمرد أبناء ظاهر العمر عليه أثناء ولاية عثمان باشا الكرجي على

---

١ ــ انظر : Mariti, II, 207-208; 211; A. E. B¹ 1032 : Seyde, 9. 3. 1759, B¹ 1033, Seyde, 1. 10. 1763.

٢ ــ انظر : A. E. B¹ 1032 : Seyde, 25. 3. 1762

٣ ــ أنظر : A. E. B¹ 1033 : Seyde, (Extrait des Registres ... 17 Novembre 1766, joint à la lettre du Seyde le 23 Avril 1767).

الشام • وكنا رأينا بداية هذا التمرد في عامي ١٧٥٢ و ١٧٥٣[١] • وقد عمد عثمان باشا،بعد أن فشل في اخضاع ظاهر العمر بالقوة[٢] ، الى تشجيع الخلاف بين ظاهر وأبنائه • ونتساءل الآن عن الاسباب العميقة لهذا الخلاف في أسرة ظاهر والذي استفحل الآن •

حاول ظاهر العمر ، قبل ولاية أسعد باشا على الشام ، توطيد سلطته ضد القوى المحلية والولاة العثمانيين ، وخاصة ضد سليمان باشا العظم[٣] • ولم تكن منطقته قد توسعت كثيراً ولا ثروته ازدادت الى درجة تثير جشع أبنائه • وكان هؤلاء آنئذ صغاراً نسبياً وموالين لابيهم الذي يحاول مجابهة المخاطر • وتمتع ظاهر العمر،في عهد أسعد باشا العظم، بفترة سلام نسبي لانشغال الولاة العثمانيين عنه ولتقيده بدفع مال الميري • وأدى انعدام الضغط الخارجي الى تراخي تكتل الزيادنة،والى انصراف ظاهر لتوسيع مناطق نفوذه • وقد رأينا كيف حصل ظاهر في عهد أسعد باشا على التزام عكا ومناطق أخرى[٤] • وكلما ازداد توسع ظاهر وغناه كلما ازداد طمع أفراد أسرته به • وقد تخلص ظاهر أولا من ابن عمه محمد العلي ، وبعد ذلك من أخيه سعد[٥] ، بعد أن أديا مهمتهما في المراحل الأولى من توطيد سلطته ، وأصبحا بعد ذلك خطراً كامناً يهدده • وكان التخلص منهما سابقة خافها ، وقلدها ، أبناء ظاهر فيما بعد ، ولا سيما ابنه عثمان الذي اشترك في اغتيال عمه سعد ، وكان أول من ثار على أبيه[٦] •

وطمع أبناء ظاهر بالاستيلاء على السلطة بعد أن بهرهم الازدهار الاقتصادي الذي عم المنطقة • وساعد على ذلك وجود طوائف محلية ناقمة ، مثل بدو بني صخر وبني صقر ، الذين دعموا شخصاً ضد آخر ، وأيضاً

١ ـ انظر ص ٢٩٠ •
٢ ـ انظر ص ٢٩٢ •
٣ ـ انظر ص ٢٦٩ ـ ٢٧١ •
٤ ـ انظر ص ٢٧٤ •
٥ ـ انظر : عبود الصباغ ، ٨ ب ، ١١ آ ؛ ٧١ ـ ٧٢ •
٦ ـ انظر ص ٢٧٥ •

وجود أعداء مجاورين ، مثل الولاة العثمانيين ، الذين استغلوا الخلاف •
وبالاضافة الى ذلك فان سياسة ظاهر في تزويج أبنائه من أسر الزعماء المحليين
بقصد كسب تأييدهم[1] ، على مافي ذلك من سياسة حكيمة شريطة توفر
شروط أخرى ، كانت لها نتائج معاكسة اذ التفت هذه الاسر حول الأبناء
الطموحين ، وبذلك تمزق الولاء لظاهر •

ولم يكن سبب الثورات هذه كثرة عدد أبناء ظاهر اليافعين • فلم
يتجاوز عدد هؤلاء الخمسة ، أو ربما الستة ، في أوائل السبعينات[2] •
ورغم ذلك فلم يثوروا كلهم دفعة واحدة • ونادراً ما ثار اثنان في وقت
واحد • والجدير بالذكر أن أبناء ظاهر لم يثوروا على أبيهم لكي يعينهم
حكاماً من قبله ، فقد كانوا حكاماً وثاروا طمعاً بتوسيع مناطق نفوذهم •
وطبيعي أن أساس قوة الزيادنة كأسرة ، وليس كطائفة دينية أو مذهب ،
كما في جبل لبنان ، قد شجع الخلاف بينهم • وتوقف كل شيء على مهارة
رب الاسرة ، أي ظاهر • وقد أدى طول عهده وطبيعة حكمه الشبيه بالقبلي
الى ظهور هذه المنازعات • وربما لانحيد عن الحقيقة كثيراً اذا قلنا ان ظاهر
العمر قد انتصر وتوسع بأكثر مما كانت طبيعة سلطته تهيء له •

وكان ظاهر العمر قد بدأ ، بعد أخذه التزام عكا في ١٧٤٦ ونقل
مركزه اليها من طبرية ، بتعيين أبنائه حكاماً من قبله • فأعطى طبرية الى
ابنه الاكبر صليبي،وأعطى صفد الى علي ، وشفا عمر الى عثمان ، وصفورية
الى سعيد ، وجبل عجلون ، التابع لوالي دمشق ، الى أحمد بعد أن أقام فترة
مع أخيه صليبي • ويبدو أن هذا التوزيع قد استمر ، باستثناء ما يتعلق
بسعيد ، حتى حوالي ١٧٧٣[3] •

ولم تحدث ثورات من قبل أبناء ظاهر في الفترة بين ثوراتهم الاولى

---

١ ــ انظر : ميخائيل الصباغ ، ٥٣ •

٢ ــ كان لظاهر أبناء آخرون صغار السن ، انظر :
A. E. B¹ 1036 : Seyde, 30. 11. 1773 (Pièce, Numéro I).

٣ ــ انظر : عبود الصباغ ، ١٠ آ (عبود الصباغ هو عادة اكثر ثقة من ميخائيل الصباغ) ؛
ميخائيل الصباغ ، ٥١ •

في ١٧٥٢ و ١٧٥٣[١] وبين سنة ١٧٦١ حين بدأت ثوراتهم بالاستعار ، لانهم كانوا ، آنئذ،حديثي العهد في الحكم ،وأيضاً بسبب القوة التي أظهرها عبد الله باشا الشتجي وتهديده للزيادنة[٢] . كما أن والي صيدا، سعد الدين باشا العظم ، الذي عاصر الشتجي ، أعلن عداءه السافر لظاهر ، فبدأ هذا يقوي دفاعه ، والتف أبناؤه من حوله ازاء هذا الخطر المشترك[٣] . ثم أتت كوارث الزلازل والطاعون التي أصابت شدتها مناطق ظاهر[٤] ، فعم الشعور بالمصيبة . وعندما فشل عثمان باشا الكرجي عسكرياً ضد ظاهر ، ساد الهدوء بينهما ، وتراخى نكتل الزيادنة . وعمد عثمان باشا الى تشجيع الخلاف بينهم .

واستؤنفت ثورات أبناء ظاهر في عام ١٧٦١ ، وحدثت عدة اصابات بين قوات ظاهر وقوات أبنائه الثائرين[٥] . وفي عام ١٧٦٢ ثار علي على أبيه ظاهر ، ودعمه اخوته من أمه . وتجب الاشارة هنا الى أن انحدار أبناء ظاهر من أمهات مختلفات شجع التحاسد بينهم ، كما أن تفضيل ظاهر لزوجة ، وبالتالي لاولادها ، دون غيرها ، زاد في تعقيد الصراع . وقد أيد علياً كل من عثمان باشا الكرجي والشيخ ناصيف ، ووقف الى جانب ظاهر الشيخ قبلان[٦] . وقد انتهت هذه الثورة ، كسابقتها ، بالمصالحة . ثم ثار عثمان على أبيه في ١٧٦٥ بسبب حقده على الامتيازات التي نالها أخوه علي ، وزاد في ذلك كونهما من أمين مختلفتين . وتمكن ظاهر من القبض على ابنه عثمان ، وسجنه ستة أشهر ، ثم وضعه تحت الاقامة الجبرية . ولكن عثمان هرب الى المتاولة ، ودعمه الشيخ ناصيف،وشن عدة هجمات، لمدة سنة تقريباً ، على مناطق ظاهر . وتعطلت المواصلات بين عكا وصيدا ، وتضرر الريف من جراء ذلك . وتدخل الامير منصور الشهابي والامير

---

١ ــ انظر ص ٢٩٠ .
٢ ــ انظر ص ٢٧٩ .
٣ ــ انظر : A. E. B[1] 1032 : Seyde, 8. 4. 1758
٤ ــ انظر : A. E. B[1] 1032 : Seyde, 8. 4. 1758 (Extrait des Registres)
٥ ــ انظر : A. E. B[1] 1032 : Seyde, 22. 9. 1761
٦ ــ انظر : A. E. B[1] 1032 : Seyde, 25. 3. 1762

اسماعيل من حاصبيا وكبار مشايخ جبل لبنان مثل علي جانبلاط وعبد السلام العماد وكليب نكد ، وأصلحوا بين الاطراف المتنازعة[١] • ومما يلفت النظر تجمع الفئات المتنوعة السابقة وقيامها بعمل مشترك • ويفسر غياب الامير يوسف من بينها بعدائه للأمير منصور وبميله الى عثمان باشا الكرجي ، عدو ظاهر العمر •

وتمرد في عام ١٧٦٧ علي وسعيد على أبيهما ظاهر مطالبين باضافة مناطق أخرى لحكمهما • وذُكر أن عثمان باشا الكرجي حرضهما على الثورة • وقد أيدهما الشيخ ناصيف المتوالي • ولجأ ظاهر ، لأول مرة ، الى والي صيدا محمد باشا العظم ، عدو عثمان باشا الكرجي ، طالباً مساعدته ضد أبنائه ومؤيديهم من المتاولة • وأرسل محمد باشا الى ظاهر بضعة جنود لعدم تمكنه من الاستغناء عن أكثر من ذلك بسبب اشتباكه في نزاع مع الامير منصور حول مال الميري • ويفسر طلب ظاهر المعونة من والي صيدا اما بحاجته الفعلية الى ذلك بسبب ارهاقه ، أو بمحاولة اسباغ الشرعية على عمله والحصول على دعم رسمي • وبعد شهر من بدء الثورة تصالح ظاهر مع أبنائه[٢] •

وحدث في أواخر عام ١٧٦٧ انفراج في العلاقات بين معظم الفئات المتنازعة ، واستمر ذلك حتى عام ١٧٧٠ • وقد توصل محمد باشا العظم والي صيدا الى اتفاق مع الامير منصور حول مال الميري ، كما أن عثمان ، ابن ظاهر ، أصلح بين أبيه والشيخ ناصيف ، وتطورت هذه المصالحة الى تحالف بينهما بعد قليل • واشترك عثمان والشيخ ناصيف في التوفيق بين الامير يوسف والامير حيدر الحرفوش حاكم بعلبك[٣] •

---

١ ـ انظر : A. E. B[1] 1033 : Seyde, 15. 5. 1766 (Bulletin, le 10 Mai, 1766). Seyde, 29. 9. 1767 (Bulletin, le 20 Septembre, 1767);

انظر ايضا : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٦٨ •

٢ ـ انظر : ميخائيل الصباغ ، ٨٧ ـ ٨٩ : انظر ايضا :

A. E. B- 1033 : Seyde, 28. 9. 1767, Seyde, 2. 10. 1767, Seyde, 26. 10. 1767 (Bulletin).

٣ ـ انظر : A. E. B[1] 1033 : Seyde, 22. 12. 1767

وعلى خلاف الانفراج السابق ، ازدادت العلاقات تأزماً بين ظاهر العمر وعثمان باشا الكرجي بسبب محاولة عثمان باشا اللجوء الى القوة لاسترجاع مقاطعات ولايته التي استولى عليها ظاهر[1] . وقد حال دون هجوم عثمان باشا على ظاهر ، قبل الآن، سببان رئيسيان : أولا ، عدم دعم الادارة المركزية العثمانية لعثمان باشا ، وكانت استانبول تعلم أن قوة ظاهر قد ازدادت الى درجة كبيرة ، وان أي هجوم عليه ستكون له مضاعفات خطيرة في وقت كانت فيه الدولة العثمانية منشغلة في حربها التي بدأتها مع روسيا في عام ١٧٦٨[2] . ثانياً ، ان محاولة عثمان باشا تعيين ابنه درويش على ولاية صيدا[3] ، لتمكينه من احكام الطوق على ظاهر في وقت كان فيه ابنه الآخر محمد باشا يحكم طرابلس ، لم تنجح حتى ايلول ١٧٧٠ . وعندما تم هذا انفجر الموقف بمساعدة عوامل خارجية ، وذلك بتدخل علي بك المملوكي في شؤون الشام .

وكان عثمان باشا ، أثناء ولايته على الشام ، قد شدد قبضته على المناطق الريفية ، على عكس سياسته في دمشق[4] . فتمرد عليه سكان الرملة ويافا في عام ١٧٦٧ . وحدثت ثورات أخرى ضده ، في السنوات التالية ، في مناطق متفرقة من فلسطين . وقد أشار علي بك في البيان الذي وزعه في بلاد الشام ، حين هجومه عليها ، الى مظالم عثمان باشا هذه ، واستغلها ضده . وبطش عثمان باشا بالثائرين ، ولجأ بعضهم الى ظاهر العمر الذي كان يدعمهم[5] . وكانت سياسة عثمان باشا هذه حاسمة في تحول سكان الريف ضده أثناء هجوم قوات علي بك .

---

١ ــ انظر : A. E. B[I] 1033 : Seyde, 12. 10. 1767

٢ ــ انظر : عبود الصباغ ، ١١ آ ــ ١٤ آ .

٣ ــ انظر ص ٢٨٢ .

٤ ــ انظر ص ٢٨٣ .

٥ ــ انظر :
A. E. B[I] 1033 : Seyde, 30. 6. 1767 (Jaffe, 6. 6. 1767), Seyde, 26. 10. 1767 (Jaffe, 18. 10. 1767, Jaffe, 19. 10. 1767); A. F. B[I] 1034 : Seyde, 15. 11. 1770 (Ramle, 9. 11. 1770); A. E. B[I] 1121 : Tripoli, 29. 10. 1770.
انظر ايضاً : المرادي ، سلك الدرر ، جـ ٣ ، ١٣٤ ؛ بريك : ٩٠ .

وما أن عين درويش باشا على ولاية صيدا في ايلول ١٧٧٠ حتى اشتد تهديد عثمان باشا لظاهر العمر[١] • وبدأ ظاهر يعزز تحصيناته في عكا ، واستنفر قواته • وانتشرت ، في هذه الأثناء ، شائعات في صيدا حول غزو مرتقب من قبل علي بك لغزة • وتأكد في صيدا في ٤ كانون الثاني ١٧٧٠ نبأ احتلال قوات علي باك غزة والرملة[٢] •

حملة علي بك على بلاد الشام واحتلال دمشق • ـ بلغت الاضطرابات ذروتها في بلاد الشام باحتلال دمشق في حزيران ١٧٧١ من قبل قوات علي بك وظاهر العمر وناصيف النصار • وكان هذا الحادث نتيجة تطورات حدثت في مصر ، بقدر ما كان انعكاساً لانحطاط الادارة المركزية العثمانية ولضعف سلطة عثمان باشا والي الشام • وسندرس في قسم لاحق الأسباب والاوضاع المحلية التي أدت الى تسلط علي بك في مصر والى حملته على بلاد الشام • وقد نتج عن احتلال دمشق اضطراب عميق في ميزان القوى في بلاد الشام ، وفقد ولاة الشام في أعقاب ذلك سيطرتهم المحليــة •

وبعد أن وطد علي بك سلطته في مصر واختبر مقدرة قواته في القضاء على منافسيه في الداخل وفي الحملة الناجحة الى الحجاز في ١٧٧٠[٣]،وجه أنظاره نحو بلاد الشام • واستغل انشغال الدولة العثمانية في حرب ضروس مع روسيا ، دامت من ١٧٦٨ الى ١٧٧٤ ، للقيام بحملتـه[٤] • وذكر أن علي بك عقد اتفاقاً مع الكونت أورلوف ، قائد الاسطول الروسي في البحر الأبيض المتوسط ، في الربع الأخير من عام ١٧٧٠ ، للحصول على مساعدته العسكرية ، وذلك بعد أن هزم الاسطول الروسي الاسطول التركي في

---

١ ـ انظر : عبود الصباغ ، ١٤ ب •

٢ ـ انظر : A. E. B¹ 1034 : Seyde, 15. 11. 1770, Seyde, 28. 11. 1770, Seyde, 4. 12. 1770.

٣ ـ انظر ص ٣٥٢ •

٤ ـ انظر : James Bruce, *Travels to discover the sources of the Nile in the years, 1768-1773*, 8 vols., 3rd. ed., Edinburgh, 1813, vol. I, pp. 110-111 : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Bruce

البحر الابيض المتوسط في موقعة تشسما Tchesma في ٥ تموز ١٧٧٠[١] •
وكان علي بك على خلاف شخصي مع عثمان باشا الكرجي والي الشام بسبب نزاع بينهما في الحجاز عام ١٧٦٤ ، حين كان الاول أميراً على الحج المصري والثاني أميراً على الحج الشامي • وحرض عثمان باشا ، بعد ذلك ، أعداء علي بك في مصر ضده • وهرب علي بك الى غزة في رمضان ١١٧٩/آذار ١٧٦٦ ، ولكن عثمان باشا أمر متسلمه في غزة بطرد علي بك ، فعاد الى مصر[٢]• وفي شوال ١١٨٢/شباط ١٧٦٩ اشتكى علي بك الى السلطان ضد عثمان باشا متهماً اياه بايواء المصريين الفارين ، وطالب بعزله[٣] •

وكان علي بك عالماً بنقمة سكان الريف في ولاية الشام على عثمان باشا ، وذلك نتيجة لجوئه الى غزة ، وأيضاً بواسطة شكاوى سكان غزة اليه من ظلم عثمان باشا[٤] • ولهذا ادعى علي بك في بيانه الى سكان بلاد الشام ، الذي وزعه أثناء الحملة ، انه قادم لانقاذهم من عثمان بشا • ويبدو أن علي بك قد تعرف ، أثناء لجوئه الى غزة ، على مدى قوة ظاهر العمر • ولكن لا يعقل أن اتفاقاً أو تحالفاً قد عقد بينهما ، في تلك الاثناء ، لأن علي بك كان مجرد لاجيء ، ولم يكن ظاهر متأكداً من سيطرته في المستقبل في مصر • وعلى هذا ، فلم يكن علي بك في وضع يسمح له بالتأثير على ظاهر• كما أن ظاهر العمر لم يكن آنذاك مضطراً ، من الناحية العسكرية، للتحالف مع(بك) لاجيء وعدو لعثمان باشا لأن ذلك سيغضب والي الشام• وقد اعتاد ظاهر وسكان غزة على رؤية البكوات الهاربين اليهم من مصر ، لأن غزة والصعيد هما المكانان المفضلان للجوء الزعماء المنهزمين من القاهرة •ومضت أربع سنوات تقريباً قبل أن تحدث اتصالات جدية بين ظاهر العمر وعلي بك،

١ـ انظر: Hammer, XVI, 351-352; PRO, S. P. 97/47 : Constantinople, 4. 2. 1771
يراجع بشأن نشاط الاسطول الروسي في البحر الابيض المتوسط في هذه الفترة :
R. C. Anderson, *Naval Wars in the Levant, 1559 - 1853*, Liverpool, 1952, pp. 286 - 289 :
سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : Anderson

٢ ـ انظر : ابن الصديق ، ٢ ب •

٣ ـ انظر : الجبرتي ، جـ ١ ، ٢٥٨ •

٤ ـ انظر : المرادي ، سلك الدرر ، جـ ١ ، ٥٤ •

وذلك قبيل بدء الحملة على بلاد الشام • وفي أوائل ١٧٧٠ زود علي بك ظاهر العمر بمبلغ من المال لتجنيد الجنود له[١] • وكان هذا بداية التحالف بينهما •

ليس بغريب أن ينصب الفاتح نفسه مدافعاً عن حقوق السكان المحليين ليكسب تأييدهم • ولكن هل يعقل أن يكون علي بك قد أرسل آلاف الجنود الى الشام وتكبد كل هذه الجهود ليطرد عثمان باشا ، كما ادعى في بيانه ؟ أن ذلك مجرد دعاية ليكسب الى جانبه عطف سكان بلاد الشام المتألمين حقاً من عثمان باشا ، ولاضفاء بعض الشرعية على عمله لتلافي ظهوره بمظهر الثائر على السلطان • وحين انسحب محمد بك أبو الذهب ، قائد حملة علي بك ، من دمشق بعد فتحه لها ، وادعى بخبث أمام علي بك في مصر انه فعل ذلك بعد تنفيذ مهمته بطرد عثمان باشا ، انزعج علي بك لأن خطته الكبرى قد فشلت • وكان أبو الذهب يستخدم هدف علي بك الظاهري حجة لتبرير تآمره على علي بك • أما خطة علي بك الكبرى وهدفه الحقيقي من الحملة فكانا اعادة تأسيس السلطنة المملوكة التي ضمّت سابقاً بلاد الشام ومصر[٢] • وسنرى في قسم لاحق كيف أن علي بك المملوكي قد مثل ذروة قوة المماليك في مصر في العهد العثماني • ويذكر أن علي بك قد قرأ كتب التاريخ وانه قال مرة لبعض خاصته : « ان ملوك مصر كانوا مثلنا مماليك ••• وهؤلاء العثمانية أخذوها بالتغلب ونفاق أهلها »[٣] •

تحركت قوات علي بك من مصر براً وبحراً باتجاه بلاد الشام في رجب ١١٨٤/تشرين الثاني ١٧٧٠ • واحتل اسماعيل بك ، قائد هذه القوات ، غزة والرملة في النصف الثاني من تشرين الثاني برضى أهلهما الذين كانوا ناقمين على مظالم عثمان باشا • وأعلن الحكام المماليك الجدد في المدينتين الغاء ضريبة مال الميري لمدة أربع سنوات • وكان الهدف من

١ ـ انظر : A. E. B[I] 1034 : Seyde, 2. 3. 1770 (Extrait des Registres), Seyde, 6. 3. 1770, Seyde, 20. 3. 1770.

٢ ـ انظر : عبود الصباغ ، ١٥ ب •

٣ ـ انظر : الجبرتي ، جـ ١ ، ٣٨١ •

ذلك الدعاية وحمل قرى فلسطين على عدم مقاومة الفاتحين • وقد أعلنت عدة قرى من التي أرهقتها مطالب عثمان باشا ولاءها لعلي بك[1] •

وهرع عثمان باشا الكرجي من دمشق لصد عدوان قوات علي بك ، ودخل يافا ، في وجه معارضة أهلها له ، للدفاع عنها • ويدل هذا على مدى النقمة المحلية ضده•وحين رأى عثمان باشا انضمام ظاهر العمر الىاسماعيل بك وتصميمهما على قتاله ، انسحب من يافا في ٩ كانون الأول ، وارتـد الى دمشق ، بعد أن يئس من وصول المعونة التي وعده بها ابن جرار حاكم قلعة سانور • واحتلت قوات اسماعيل بك وظاهر العمر ، بعد ذلك ، يافا ، وكسب الحليفان ميناء آخر الى جانب عكا التي كانت بيد ظاهر ، واستخدماه لانزال المعدات المنقولة بحراً من مصر[2] •

ولم تحدث أية اشتباكات في الفترة بين عودة عثمان باشا الى دمشق في ١٨ كانون الاول وتهديد اسماعيل بك وحلفائه لقافلة الحج الشامي في المزيريب في أواخر كانون الثاني ١٧٧١ ، والسبب في ذلك مرض ظـاهر العمر في هذه الفترة واستعداد الاطراف المعنية للخطوة التاليـة • وكـان اسماعيل بك حريصاً ، في هذه الاثناء ، على عدم تبديد قوته في فتح القدس وقلعـة سانور ، الخاضعتين لعثمان باشا ، لأن ذلـك سيعرضه الى مخاطر بامكانه تفاديها ، كما أن هذهالاماكن هي مراكز دفاعية أكثر منها هجومية ، وسيضطر في حال فتحها الى التخلي عن قسم كبير من قواته لتعسكر فيها ، ولذلك تجنبهـا • وكان اسماعيل بك ينتظر أيضاً النتائج التي سيحدثها في دمشق ارسال بيان عليبك الى أهلها الذين استلموه فيكانونالاول ١٧٧٠ • وقـد أكـد علي بك في بيـانه على ناحيتـين أساسيتـين : الأولى ، أنـه ليس خارجاً على السلطان ، ووصف نفســه بأنه قائم مقام في مصر وأمير

---

١ ـ انظر : ابن الصديق ، ٨ ب ـ ٩ آ ، ١١ آ ـ ١١ ب ، ١٧ آ ؛ انظر ايضاً :
A. E. B[1] 1034 : Seyde, 4. 12. 1770, B[1] 1035 : Seyde, 4. 2. 1771 (Extrait des Registres, Seyde, 30. 1. 1771).

٢ ـ انظر حول الأحداث السابقة : ابن الصديق ، ١٠ آ ـ ١٨ آ ؛ عبود الصباغ، ١٦ ب ـ ١٨ آ ؛ انظر ايضاً :
A. E. B[1] 1034 : Seyde, 20. 11. 1770

الحج سابقاً ؛ والثانية، أنه آت لانقاذ السكان من مظالم عثمان باشا • وأشار الى اعتداء عثمان باشا على علماء غزة وعلى الحجاج والتجار ، واستشهد علي بك بأحاديث شريفة لتبرير عمله،وذكر أن المذاهب الاربعةقد أباحت له قتال عثمان باشا • وطلب أخيراً من الدمشقيين تأييده،وأعلمهم أنهسيعين أميراً للحج الشامي من قبله • وقد عقد ديوان في دمشق ، حضره عثمان باشا ، للتداول في أمر البيان ، وقرر المجتمعون اعلام السلطان بذلك [1]•

وخرج عثمان باشا من دمشق في ٨ شوال ١١٨٤/٢٥ كانون الثاني ١٧٧١ ، على رأس قافلة الحج الشامي ، متوجهاً نحو الحجاز • وخف اسماعيل بك وحلفاؤه الزيادنة والمتاولة الى المزيريب للاستيلاء على امارة قافلة الحج • ورغم اصرار ظاهر على تنفيذ ذلك مهما كانت النتائج ، فان اسماعيل بك تراجع خوفاً من ايذاء الحجاج • ويدل هذا على تدينه الذي بلغ ذروته ، فيما بعد ، حين أقنع أبا الذهب بالانسحاب من دمشق لانعمله مخالف لرضى الله والسلطان • وقد احتج ظاهر العمر لدى علي بك على موقف اسماعيل بك المتخاذل • وكان علي بك يستعد لارسال قوات اضافية الى بلاد الشام ، وبالفعل غادرت بضعة آلاف منها مصر الى بلاد الشام في آذار ١٧٧١ [2] •

وبدأت تصل الى دمشق ، في هذه الأثناء ، القوات العثمانية التي عينها

---

١ ـ انظر نص البيان في : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٨٣ ـ ٨٥ ؛ حيدر شهاب ، تاريخ أحمد باشا الجزار،نشره الاب أنطونيوس شبلي والاب اغناطيوس عبده خليفة، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٤١ ـ ٤٤ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي ; تاريخ الجزار ؛ نزهة الزمان ، مخطوط باريس ، ٤٣ ب ـ ٤٥ آ ؛ ومصادر أخرى من بينها :
A. E. B^1 91 : Alep, 6. 7. 1771; A. E. B^1 1121 : Tripoli, 12. 6. 1771.
(تعطي رسالة حلب النص العربي للبيان مع ترجمته الفرنسية ، وتعطي رسالة طرابلس الترجمة الفرنسية فقط) • وفي حين أن المصادر اللبنانية السابقة تذكر تاريخ البيان (الفرمان) في ١٧٧٠،وهذا صحيح ، فانها تخطيء حين تذكر أن أباالذهب هو الذي أرسله الى دمشق قبيل هجومه عليها • انظر مناقشتنا بالتفصيل لهذه المصادر ، حول بيان علي بك ، في كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 255 - 257

٢ ـ انظر حول الأحداث السابقة : ابن الصديق ، ١٩ آ ـ ٣٥ ب ؛ بريك ، ٩٤ ؛ المرادي ، مطمح الواجد ، ٣٩ آ ـ ٣٩ ب ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ٣٥١ ؛ انظر أيضا :
A. E. B^1 334 : Le Caire, 4. 3. 1771.

السلطان لقتال المعتدين • وعين نعمان باشا ، والي أورفه ، والياً على مصر وصاري عسكر (قائداً عاماً) على القوات العثمانية في بلاد الشام [1] • ويبدو أن وصول هذه القوات الى دمشق قد أرهب اسماعيل بك وظاهر العمر ، وتجدد الخلاف بينهما حول مهاجمة قافلة الحج في طريق العودة • وانفض « الحلفاء » ، فذهب اسماعيل بك لحصار ابن جرار في سانور ؛ وتوجه المتاولة الى بلادهم ، وحاول زعيمهم الشيخ ناصيف احتلال صيدا ؛ وعاد ظاهر الى منطقة صفد • وقدم عثمان باشا بقافلة الحج الى دمشق بسلام • وكان ذلك ضربة لنفوذ ظاهر العمر الذي فشل في أخذ زمام المبادرة من حلفائه [2] • وحين قدم محمد بك أبو الذهب ، بعد قليل ، من مصر على رأس قوات اضافية وتسلم قيادة العمليات ، فقد ظاهر العمر كل أمل له بالسيطرة على الحملة ، ولم يعد يقود قوات الزيادة بنفسه بل كلف بذلك أبناءه •

وصل محمد بك أبو الذهب وقواته الى الرملة في ٢ صفر ١١٨٥/ ١٧ أيار ١٧٧١ • وقدم اليه الزيادنة والشيخ ناصيف ولاءهم ودعمهم • وسارت قواتهم المشتركة فوصلت سعسع ، قرب دمشق ، في ١٨ صفر ١١٨٥/٢ حزيران ١٧٧١ ، دون أن تلقى أية مقاومة • وكان تفوق قوات أبي الذهب بادياً بسبب تنظيمها وتسليحها ، وقد سبق أن ظفرت في حملتها الى الحجاز • أما القوات المدافعة عن دمشق فكانت تتألف من أنواع متنافرة من الجنود الذين لا تجمع بينهم رابطة قوية ، مثل التي جمعت بين المماليك ، وتنقصهم القيادة الفعالة [3] •

تلقى عثمان باشا في ١٧ صفر/١ حزيران انذاراً من أبي الذهب يطلب

---

١ ـ انظر : ابن الصديق ، ٢٧ آ ـ ٢٧ ب ، ٣٣ آ ، ٣٦ آ ـ ٣٧ آ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B[1] 91 : Alep, 29. 4. 1771.

٢ ـ انظر : ابن الصديق ، ٣٧ ب ـ ٣٨ آ ، ٤٠ آ ؛
A. E. B[1] 1035 : Seyde, 2. 5. 1771.

٣ ـ انظر تحليلا ضافياً لقوة الطرفين العسكرية في كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 261 - 264.

اليه فيه مغادرة دمشق حالا ، ويعده بتعيينه حاكماً عليها . وبدأ عثمان باشا يستعد للقتال ، وخرجت طلائع قواته ، بدون أي تنظيم ، للتمركز في داريا ، ولكن أبا الذهب هزمها في ١٩ صفر/٣ حزيران . وانتقل القتال بعد ذلك الى أطراف دمشق .

ولم تستغل القوات المختلفة المجتمعة في دمشق هذه المناسبة للاصطدام ببعضها أخذاً لثأر أو تصفية لخلاف سابق بينها ، فالخطر كان شديداً يهدد وجودها . وقد رأينا كيف أن اليرلية ضعفوا في السنوات السابقة اثر البطش بهم ، ولكنهم لم يتخلوا عن نفوذهم بكامله . وحين خرج عثمان باشا للدفاع عن يافا رافقه اليرلية ، الى جانب القوات المرتزقة وبقايا الجند الاقطاعيين ، مما يدل على انصياع اليرلية لأوامر الباشا . وحدث أثناء تراجعه الى دمشق خلاف بين اليرلية واللاوند المرتزقة فعاد كل منهما عن طريق مختلف الى دمشق [1] . وبعد الهزيمة في سعسع في ٣ حزيران ، بدأ الجند العثمانيون ، الذين أرسلهم السلطان لحماية دمشق ، يهربون باتجاه بلادهم ، وهاجم بعضهم أحياء دمشق الخارجية مثل الميدان والصالحية لنهبها ، وبدأ أهلها يطلقون النار عليهم . وبرز الآن للدفاع عن دمشق أبناء دمشق ، أي اليرلية والسكان المحليون ، وكذلك القابيقول الذين أوكلت اليهم حماية القلعة وأسوار وأبواب المدينة . وكان آغا اليرلية هو يوسف بن جبري [2] .

وبعد مناوشات بين المهاجمين والمدافعين في حي الميدان وباب الجابية ، بين ٢٠ - ٢٢ صفر/٤-٦ حزيران ، هرب عثمان باشا من دمشق ، وهو الذي لم يتجشم قيادة جنوده لقتال أبي الذهب . وبدأت المفاوضات بعد ذلك بين علماء وأعيان المدينة وبين أبي الذهب لحقن الدماء . وصمم أبو الذهب

---

١ - انظر : ابن الصديق ، ١٧ ب .

٢ - انظر القائمة التي تذكر أسماء بعض زعماء اليرلية آنذاك من اسر العظم والقطيفاني والحواصلي وآقبيق وشحادة والبيطار وبكداش وشبيب والصواف وميرو وسكر ... وغيرهم ، في مطلع مخطوط ابن الصديق .

على احتلال دمشق ، وتم له ذلك في ٢٤ صفر/٨ حزيران • وامتنعت القلعة عن الاستسلام • وساد الوجوم بلاد الشام واستانبول ، بينما عمت الفرحة في مصر حيث نظم علي بك الاحتفالات[١] •

وانسحب أبو الذهب فجأة من دمشق في ٥ ربيع الاول ١١٨٥/١٨ حزيران ١٧٧١ ، وعاد الى مصر • وكان ذلك مفاجأة للسكان المحليين ولحلفائه ولاعدائه ولرؤسائه • وذكرت عدة أسباب في تفسير تراجعه ، وفيها جميعاً بعض الصحة • فقد ذكر أنه انسحب بسبب عدم استسلام قلعة دمشق ، وان اسماعيل بك أخافه بأن عمله مخالف لرضى الله والسلطان ، وان أبا الذهب خشي القوات التي أمر السلطان بتوجيهها ضده، وان الصرة أميني (المسؤول عن الصرة التي يرسلها السلطان الى الحجاز مع قافلة الحج) قد وعد أبا الذهب ، في اجتماع بينهما في دمشق ، بالتوسط لدى السلطان لصالحه ، وان عثمان باشا الكرجي أبلغ أبا الذهب بأن السلطان قد وعد بتعيين أبي الذهب مكان علي بك في مصر • ومهما يكن ، فان انسحاب أبي الذهب يدل على تبدل موقفه تجاه علي بك • وبالفعل ، فقد اصطدم بعلي بك حين عاد الى مصر ، وطرده واحتل مكانه[٢] •

الصراع على النفوذ في بلاد الشام (١٧٧١ – ١٧٧٥) • –

نتج عن تدخل علي بك في شؤون الشام واحتلال أبي الذهب لدمشق ثم انسحابه منها ، اضطراب في ميزان القوى في بلاد الشام • واشترك في

---

١ – انظر : ابن الصديق ، ٤١ أ – ٥٩ ب ؛ بريك ٩٥ ؛ المرادي ، سلك الدرر ، ج ١ ، ٥٥ – ٥٦ ؛ ج ٢ ، ١٦٤ ، مطمح الواجد ، ٣٧ ب ؛ سليمان المحاسني ، حلول التعب والآلام بوصول أبي الذهب الى دمشق الشام ، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ، بيروت ١٩٦٢ ، انظر ص ١٩ – ٢٨ ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ٣٦٥ •

انظر أيضاً : A. E. B[I] 1035 : Seyde, 28. 6. 1771; A. E. B[I] 1121 : Tripoli, 12. 6. 1771; A. E. B[I] 91 : Alep, 11. 6. 1771; A. E. B[I] 334 : Le Caire, 24. 6. 1771 (Bulletin); PRO, S. P. 97/47 : Constantinople, 3. 7. 1771, Constantinople, 17. 8. 1771.

انظر الدراسة المفصلة للاحداث التي ادت الى احتلال دمشق في كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 264-271.

٢ – انظر مناقشة هذه الاسباب والاحداث في كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 271 - 277.

الصراع على النفوذ لملء الفراغ السياسي الذي حدث بعد انسحاب أبي الذهب كل من عثمان باشا الكرجي وظاهر العمر والامير يوسف الشهابي والمتاولة • وقد عاد أبو الذهب للتدخل من جديد في بلاد الشام ، اثر مقتل علي بك • وتلا ذلك التدخل العثماني المسلح والقضاء على ظاهر العمر • وقد أظهر ولاة الشام في هذا الصراع ضعفهم وانعدام مبادرتهم السياسية مما أتاح المجال لظهور أحمد باشا الجزار الذي ملأ الفراغ السياسي في المنطقة بين ١٧٧٦ و ١٨٠٤ •

عاد عثمان باشا الكرجي الى دمشق في ١٣ ربيع الاول ١١٨٥ / ٢٦ حزيران ١٧٧١ ، وبدأ بالقضاء على معارضيه ، فقتل يوسف بن جبري آغا اليرلية الذي اتهم بالتواطؤ مع أبي الذهب ، وصادر أمواله الكثيرة • وكان ذلك محاولة من عثمان باشا لفرض هيبته من جديد وللحصول على المال • كما أنه استرضى بذلك كثيراً من الدمشقيين المعارضين لابن جبري مثل سليمان المحاسني الذي ألف فيه رسالة البغي والتجري في ظهور ابن جبري [1] • وازداد عثمان باشا غرورا عندما وصله فرمان الاستمرار في الحكم من استانبول في ١٩ ربيع الثاني/١ آب ، وشكره السلطان على همته وأثنى على شجاعته • ولم يغب عن أذهان الدمشقيين أن عثمان باشا قد زيف الحقائق لدى السلطان وامتدح جهده في طرد أبي الذهب [2] •

وحاول عثمان باشا الكرجي ملء الفراغ الذي خلفه انسحاب أبي الذهب ، فهب لنجدة ابن جرار ، صاحب قلعة سانور ، ضد تهديد ظاهر العمر له • ولكنه هزم في القتال الذي جرى بينه وبين ظاهر قرب بحيرة الحولة في ٢٢ جمادى الارل ١١٨٥/٢ ايلول ١٧٧١ ، وعاد الى دمشق في

---

١ ـ وصف ابن الصديق ، ٦ ب ، محتويات هذه الرسالة ومبالغة المحاسني فيها • وذكر الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطة ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٣٢ ، انه توجد نسخة مخطوطة عن هذه الرسالة عند الاستاذ شفيق جبري •

٢ ـ انظر : ابن الصديق ، ٦٢ آ ـ ٦٦ آ •

٦ ايلول • وكان عثمان باشا قد استنجد بالامير يوسف الشهابي ، ولكن هذا تباطأ عن نجدته[١] •

وكانت تجري ، في هذه الاثناء ، تطورات هامة في ولاية صيدا أدت الى ازدياد قوة ظاهر العمر واصطدامه السابق بعثمان باشا ، والى تباطؤ الأمير يوسف الشهابي عن نجدة عثمان باشا • ويجب الرجوع قليلا الى الوراء لتقصي أسس هذه التطورات • فقد حدث اثر احتلال أبي الذهب لدمشق ، أن هرب درويش باشا بن عثمان باشا الكرجي ، من ولاية صيدا في ١١ حزيران ، رغم دعم الامير يوسف الشهابي له والحاحه عليه بالبقاء • وتسلم ظاهر والمتاولة حكم مدينة صيدا • ولكن الامير يوسف الشهابي ، الذي طغى نفوذه ، في جبل لبنان ، على الأمير منصور الحاكم الاسمي ، استولى ، بمساعدة مؤيده الشيخ علي جانبلاط ، على صيدا في ٢٠ حزيران • ولم يدافع عنها ظاهر والمتاولة لأنهم كانوا منشغلين بانسحاب أبي الذهب من دمشق[٢] •

وقد أحرج موقف ظاهر والمتاولة اثر رجوع أبي الذهب الى مصر • ولكن علي بك بقي على اتصال مع ظاهر ، ووعده بارسال قوات أخرى ، ولذلك احتلت قوات ظاهر يافا لاستقبال المعونة من علي بك ، بينما احتلت قوات عثمان باشا الكرجي غزة والرملة • وكان هدف ظاهر العمر من مهاجمته لابن جرار تجريد عثمان باشا من حليفه القوي هذا • ومن شأن هذا الهجوم أيضاً أن يبقي أبناء ظاهر ملتفين حول أبيهم ، ويعطي دليلا آخر لعلي بك على مقدرة ظاهر العسكرية • وبالفعل ، نقل ظاهر الى علي بك أنباء انتصاره على عثمان باشا قرب بحيرة الحولة[٣] •

---

١ ـ انظر : ابن الصديق ، ٦٩ ب ـ ٧٥ آ ، ٨٢ ب ؛ عبود الصباغ ، ١٩ ب ـ ٢٠ ب ؛ بريك ، ٩٧ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B[I] 1035 : Seyde, 21. 9. 1771; PRO, S. P. 97/47 : Constantinople, 4. 11. 1771.

٢ ـ انظر : A. E. B[I] 1035 : Seyde, 11. 6. 1771, Seyde, 12. 6. 1771, Seyde, 13. 6. 1771, Seyde, 28. 6. 1771.

٣ ـ انظر : A. E. B[I] 1035 : Seyde, 21. 9. 1771 .

واهتم ظاهر ، بعد انتصاره الاخير ، بانتزاع صيدا من درويش باشا • وكان يدعم درويش باشا ، الذي عاد الى صيدا بعد عودة والده عثمان باشا الى دمشق ، الامير يوسف الشهابي الذي اختاره ، قبل قليل ، أعيان جبل لبنان المجتمعون في الباروك خلفاً للأمير منصور الذي اعتزل الحكم • وكان الأمير منصور قد أيد أبا الذهب ، بناء على نصيحة ظاهر ، وذلك بعد أن احتل أبو الذهب دمشق • وكانت غاية الامير منصور اضعاف خصمه الأمير يوسف الذي أيد عثمان باشا • ولكن انسحاب أبي الذهب وعودة عثمان باشا الى دمشق ، وازدياد نفوذ الامير يوسف ، تبعاً لذلك ، جعلت الامير منصوراً يعتزل الحكم في عام ١٧٧١[1] • ومع ذلك ، بقي الامير منصور يشكل خطراً على الامير يوسف بسبب دعم ظاهر العمر له • كما أن المتاولة، حلفاء ظاهر ، أثاروا الاضطرابات على الامير يوسف ، فتوجه لقتالهم • وتمكن المتاولة ، بمساعدة ظاهر ، من الانتصار على الامير يوسف في النبطية في ٢٠ تشرين الاول ١٧٧١ • وانسحبت في اليوم التالي من صيدا قوات الامير يوسف ، برئاسة الشيخ علي جانبلاط ، وكانت تدعم درويش باشا فيها ، فاضطر هذا الى الانسحاب بدوره • وفي ٢٣ تشرين الاول سقطت صيدا في يد قوات ظاهر والمتاولة ، التي دخلتها من البر ، وقوات علي بك ، التي دخلتها من جهة البحر • وكانت قوات علي بك قد وصلت منذ أيام قليلة من مصر ، واحتلت غزة والرملة ويافا • ولم يكن أبو الذهب قد أعلن بعد عن عدائه لعلي بك[2] •

عزل عثمان باشا وأبناؤه عن ولايات الشام وصيدا وطرابلس في ١٣

---

١ ــ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٨٨ ؛ نزهة الزمان ، مخطوط باريس ، ٤٦ آ ــ ٤٦ ب ؛ المنير ، المشرق ، ٤٩ (١٩٥٥) ، ٢٦٣ ؛ انظر أيضا :
A. E. B^1 1035 : Seyde, 28. 6. 1771, Seyde, 20. 8. 1771.

٢ ــ انظر حول الاحداث السابقة : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٩٠ ــ ٩٢ ؛ الشدياق ، ج ٢ ، ٤٢ ــ ٤٣ ؛ ابن الصديق ، ٨٧ ب ــ ٨٨ ب ؛ بريك ، ٩٧ ؛ عبود الصباغ ، ٢٠ ب ــ ٢١ آ ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ٣٦٥ ؛ انظر أيضا :
A. E. B^1 1035 : Seyde, 9. 11. 1771, Seyde, 23, 11. 1771, Seyde, 10. 2. 1772, Seyde, 30. 4. 1772, (Bulletin); A. E. B^1 91 : Alep, 17. 11. 1771.

رجب ٢٢/١١٨٥ تشرين الاول ١٧٧١ • وعين على ولاية الشام محمد باشا العظم الذي يمثل الجيل الثالث من حكام آل العظم في الشام [١]•ولم تحدث اية اضطرابات في دمشق اثر تغيير الوالي بسبب شعور المهانة الذي سيطر على طوائفها العسكرية • وقرب محمد باشا العظم اليه اليرليةوالقابي قول ليتمكن بمساعدتهم من جمع المال اللازم في دمشق لتمويل قافلة الحج ، لاسيما وانه لم يتمكن من الخروج للدورة بسبب معارضة ظاهر العمر • وكان ظاهر يسيطر ، مع قوات حليفه علي بك ، على معظم مناطق فلسطين الغنية • وهاجم علي بن ظاهر العمر ، في هذه الاثناء ، المناطق التابعة لدمشق ، واستولى على مال الميري فيها • وقد أرهق الدمشقيون أيضاً بطلب المال منهم من قبل نعمان باشا قائد القوات العثمانية المعينة لاخضاع علي بك في مصر [٢] •

وخرج محمد باشا العظم بقافلة الحج الى الحجاز ، وعاد بها الى دمشق بسلام•ولكن صيحات الاستغاثة من سكان الريف،فيولاية الشام ، كانت تترى على سلطات دمشق لانقاذهم من تعديات علي بن ظاهر • ولم تكن القوات المتجمعة في دمشق ، بما في ذلك قوات القائد العثماني الجديد عثمان باشا الوكيل ، أو المصري [٣] ، الذي خلف نعمان باشا وعين والياً على مصر ، في وضع يمكنها من فرض سيطرتها على بلاد الشام الجنوبية حيث طغى نفوذ ظاهر • وقد حاول محمد باشا العظم وعثمان باشا الوكيل التفاوض مع ظاهر للتوصل الى اتفاق معه،ولكن محاولاتهما باءت بالفشل• وكان ظاهر مهدداً بثورات جديدة من قبل أبنائه • وحاول كسب الوقت

---

١ ــ انظر حول ذلك كتابنا : *The Province of Damascus*, pp. 282 - 287.

٢ ــ انظر تفاصيل الاحداث في المصدر السابق : *Ibid*, pp. 287 - 290.

٣ ــ يبدو ان لقب « الوكيل » مشتق من عمل عثمان باشا (آغا سابقاً) كوكيل للكزلار آغا في مصر في ادارة أوقاف الحرمين الشريفين فيها • أما لقب « المصري » فقد اشتق من توليته على مصر • وتذكر بعض المصادر خطأ أن عثمان باشا الوكيل أو المصري شغل الآن منصب والي الشام ، وهذا غير صحيح ، لانه أقام بصورة مؤقتة في الشام ريثما تتجمع قواته ويسير الى مصر لاداء مهمته فيها •

بالمفاوضة ريثما يتأكد من سيطرة حليفه علي بك في مصر [1]. وجرت، في هذه الاثناء، أحداث هامة في مصر، وانتقل أثرها، بعد قليل، الى بلاد الشام، واختل بنتيجة ذلك توازن القوى في بلاد الشام ومصر.

هرب علي بك من مصر في ٢٥ محرم ١١٨٦/٢٨ نيسان ١٧٧٢، اثر نزاعه مع أبي الذهب، ولجأ الى ظاهر العمر [2]. ومع أن قيمة التحالف بين علي بك وظاهر العمر قد انعدمت وأصبح علي بك عبئاً على حليفه، فلم يغتنم والي الشام محمد باشا العظم، أو قائد القوات العثمانية عثمان باشا الوكيل، الفرصة لاستعادة زمام المبادرة العسكرية. والقيت مسؤولية مقاومة ظاهر وعلي بك على الزعماء المحليين مثل مصطفى بك طوقان متسلم نابلس وأبي مرق حاكم غزة سابقاً.

وبدأت الاحداث تسير بسرعة، وأخذ كل من الفرقاء المعنيين يعمل لاهدافه الخاصة. فالامير يوسف الشهابي كان يطمع بالسيطرة على صيدا من ظاهر والمماليك، ولذلك رمى بثقله وراء السلطات العثمانية لتحقيق ذلك. وكان ظاهر حريصاً على عدم التخلي عن المناطق التي يحتلها. أما علي بك فكان هدفه الرئيسي اعادة سلطته في مصر ورؤية ظاهر موطد السلطة ليحميه من القوات العثمانية البرية. وكان المتاولة، بحكم كراهيتهم لامراء جبل لبنان، الى جانب ظاهر وعلي بك [3].

وظهر الآن الاسطول الروسي على المسرح العسكري، واقتربت مراكبه من حيفا في ١ حزيران ١٧٧٢ لدعم علي بك وظاهر العمر تنفيذاً لاتفاق سابق مع علي بك [4]. وكان للطرفين مصلحة في ذلك، فالروس يودون خلق المشاكل للدولة العثمانية التي كانوا مشتبكين معها في حرب

---

١ ــ انظر : ابن الصديق، ٩٧ ب، ٩٩ ب، ١١٣ آ ــ ١١٣ ب، ١٢٣ ب ــ ١٢٤ آ ؛ عبود الصباغ، ٢١ ب ؛ انظر ايضا : A. E. B[1] 1035 : Seyde, 10. 2. 1772.

٢ ــ انظر ص ٣٥٦.

٣ ــ انظر : A. E. B[1] 1035 : Seyde, 21. 5. 1772 (Bulletin), Seyde, 2. 6. 1772

٤ ــ انظر ص ٣٥٦.

كبرى ، وعلي بك وظاهر يريدان انقاذ نفوذهما . وبناء على طلبهما ، توجه الاسطول الروسي الى بيروت لتحطيم المراكب العثمانية فيها ولاشغال الامير يوسف بالدفاع عنها ، فقصفها بالمدافع في ١٨ حزيران ، وأنزل فيها قواته التي ما لبثت أن انسحبت منها في ٢٣ حزيران بضغط الامير يوسف الذي كان يحكم بيروت . وكان الامير يوسف قد لجأ ، اثر انتصار ظاهر العمر عليه في ١١ حزيران ، الى عثمان باشا الوكيل وطلب منه حماية بيروت ، فأرسل اليها طائفة من الجند كان على رأسهم أحمد بك الجزار الذي اشتهر فيما بعد [1] .

وعاد علي بك الى مصر في أوائل آذار ١٧٧٣ ، تدعمه بعض قوات ظاهر ، لقتال أبي الذهب . واصطدمت قواتهما في الصالحية ، حيث تلتقي الصحراء بالدلتا ، في ٥ صفر ١١٨٧/٢٨ نيسان ١٧٧٣ ، وجرح علي بك، ثم توفي بعد أيام [2] .

وأخرج ظاهر العمر سياسياً وعسكرياً ، اثر وفاة علي بك ، لا لأنه خسر دعماً عسكرياً ، اذ أن علي بك كان يحتاج قبل موته الى الدعم،ولكن لأنه فقد حليفه الذي بدأ الثورة على العثمانيين ، وتركزت الانظار عليه وحده الآن . كما أن أبا الذهب ، بعد أن تخلص من تهديد علي بك ، وجه جهده لاحكام الطوق ، مع العثمانيين ، على ظاهر الذي بدأ يقوي دفاعه في عكا .

وحدث الآن انقلاب في ميزان القوى . فبعد أن أتى الامير يوسف الشهابي بالجزار للدفاع عن بيروت ، بدأ الجزار يزيد من قوته ، وتحدى الامير يوسف . ولم تجد محاولة استنجاد الامير يوسف بسلطات دمشق

---

١ ـ انظر حول هذه الاحداث : A. E. B[1] Seyde, 28. 6. 1772, Seyde, 31. 7. 1772 Anderson, 298;

انظر ايضا : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ٩٣ ـ ٩٤ ، تاريخ الجزار ، ٤٨ـ٤٩ ؛ الشدياق ، ج ٢ ، ٤٥ ـ ٤٦ ؛

انظر بشأن التطورات التي حدثت في دمشق في هذه الفترة ، كتابنا : *The Province of Damascus*, pp. 294 - 305.

٢ ـ انظر ص ٣٥٧ .

للضغط على الجزار • فاتجه الامير يوسف نحو ظاهر والمتاولة ، وكانوا أعداءه سابقاً،وتحالف معهم في ٩ حزيران ١٧٧٣ ، بعدأن شعروا بعزلتهم وضعفهم • وطلب هؤلاء الحلفاء من الاسطول الروسي مهاجمة بيروت لاخراج الجزار منها ، فهاجمها ، وهرب الجزار ولجأ الى ظاهر ، ثم ما لبث أن هرب منه أيضاً وذهب الى دمشق [١] •

وبدأت المفاوضات بين ظاهر العمر والسلطات العثمانية في دمشق للمصالحة • ورغم أنها لم تؤد الى نتيجة ، فقد أظهرت تزايد ضعف موقف ظاهر • وكان الزمن يسير لصالح السلطات العثمانية فعزلت في تموز ١٧٧٤ عثمان باشا الوكيل ، قائد القوات العثمانية ووالي مصر ، بعد أن ضمن أبو الذهب الموالي لها خضوع مصر • وذهب أبو الذهب أبعد من ذلك فجهز جيشاً وخرج به من مصر في أوائل محرم ١١٨٩/أوائل آذار ١٧٧٥ لقتال ظاهر • وخضعت له غزة والرملة ويافا وعكا وصيدا ، وهرب ظاهر•وقد تآمر علي بن ظاهر مع أبي الذهب ضد أبيه • ولكن أباالذهب توفي في عكا في ١٠ ربيع الثاني ١١٨٩/١٠ حزيران ١٧٧٥ ، وعاد جيشه الى مصر [٢] •

وما كاد ظاهر العمر يتخلص من خطر أبي الذهب ، حتى أرسلت الدولة العثمانية قوة بحرية بقيادة القبطان حسن باشا للقضاء عليه•وكانت الدولة قد انتهت في سنة ١٧٧٤ من حربها مع روسيا بتوقيع معاهدة كجك قاينارجة ، وهي على وشك الاصطدام مع حاكم فارس كريم خان زند ، فأرادت ، في هذه الاثناء ، التخلص من خطر ظاهر الذي أقلقها عدةأعوام• واستسلمت حيفا الى حسن باشا في ٧ آب ١٧٧٥ ، فانتقل منها الى حصار

---

١ ــ انظر : A. E. B[1] 1036 : Seyde, 7. 7. 1773 : Anderson, 302;
انظر أيضاً : عبود الصباغ ، ٢٦ ب ــ ٢٧ آ ؛ حيدر شهاب ، تاريخ الجزار ، ٥٣ •

٢ ــ انظر : الجبرتي ، جـ ١ ، ٤١٣ ــ ٤١٤ ؛ حيدر شهاب ، لبنان ، جـ ١ ، ١١٠ ، تاريخ الجزار ، ٦٣ ــ ٦٤ ، انظر أيضاً :
A. E. B[1] 1037 : Seyde, 7. 4. 1775 (Bulletin, Acre, 10. 4. 1775), Seyde, 25. 6. 1775.

عكا ، مركز ظاهر • وذكر أن مستشار ظاهر ، عبود الصباغ ، قد رفض شراء انسحاب حسن باشا بالمال بسبب بخله • وخان أحمد الدنكزلي ، قائد المغاربة الذين كانوا في خدمة ظاهر ، سيده • وحين حاول ظاهر الهرب قتله مغاربته في أواخر آب ١٧٧٥ • ووصل والي الشام محمد باشا العظم الى ضواحي عكا بعد مقتل ظاهر ، ويعكس ذلك ضعف سلطته وفقدانه المبادرة السياسية [١] •

وهكذا انهار حكم ظاهر العمر ، وقتل معظم أبنائه بعد سنوات من مقتل أبيهم • ونشأ عن ذلك فراغ سياسي في بلاد الشام الجنوبية ، ولكن سرعان ما ظهر أحمد باشا الجزار وملأ هذا الفراغ •

سيطرة أحمد باشا الجزار (١٧٧٥ ــ ١٨٠٤) •ــ كان أحمد الجزار مملوكاً بشناقي الأصل بدأ عمله في استانبول ، ثم اشتهر في مصر حيث خدم عدة أشخاص من بينهم علي بك • ونال في مصر رتبة البكوية،ولقب بالجزار لشدة بطشه ببدو اقليم البحيرة • وانتقل بعد ذلك ، مع بعض مماليكه ، الى بلاد الشام ، وكلف من قبل سلطات دمشق بحماية بيروت ، ولكنه تمرد على حاكمها الامير يوسف الشهابي • وقد عينه السلطان ، اثر القضاء على ظاهر ، محافظاً لعكا • وحين عزل والي صيدا العثماني ، ملك محمد باشا ، في ١٨ كانون الاول ١٧٧٥ ، أرسل الجزار متسلماً الى صيدا ليحكمها باسمه • وفي ١١ آذار ١٧٧٦ دخل أحمد الجزار صيدا والياً عليها من قبل السلطان ، وأعطي رتبة وزير بهذه المناسبة [٢] •

وعلى نقيض ظاهر العمر الذي « ورث » الالتزام في منطقة صفد ــ

---

١ ــ انظر : عبود الصباغ ، ٣٣ ب ــ ٣٩ ب ؛ ميخائيل الصباغ ، ١٣٤ ــ ١٤٩ ؛ حيدر شهاب ، لبنان ، جـ ١ ، ١١٢ ــ ١١٣ ، تاريخ الجزار ، ٦٧ ــ ٧٠ ؛
انظر ايضاً : A. E. B[1] 1037 : Seyde, 2. 9. 1775 (Bulletin), A. E. B[1] 93 Alep, 6. 10. 1775 (Nouvelles); Volney, 262.

٢ ــ انظر : عبود الصباغ ، ٣٩ ب ؛ حيدر شهاب ، لبنان ، جـ ١ ، ١١٦ ، تاريخ الجزار، ٧١ ؛ الترك ، حوادث الزمان ، ٣٢ آ ــ ٣٣ آ ؛ الجبرتي ، جـ ١ ، ٣٠٦ ــ ٣٠٧ ، ٣٣٤ ــ ٣٣٥ ، جـ ٣ ، ٣٢١ ؛ انظر ايضاً :
A. E. B[1] 1037 : Seyde, 2. 9. 1775, Seyde, 18. 2. 1776, Seyde, 12. 3. 1776.

طبرية عن أبيه ، وبقي طيلة حياته في عداد الملتزمين ، فان أحمد باشا الجزار ، أشبه بآل العظم ، اشتهر في بلاد الشام كوال ، وحكم ، مثلهم ، مدة طويلة • ولكن الجزار ، على نقيض آل العظم ، حافظ على سلطته واستمر والياً بالقوة ، وهو بهذا أقرب الى ظاهر العمر الذي اعتمد على القوة في ابقاء نفوذه • ويختلف الجزار عن ظاهر العمر ، ومن قبله فخر الدين المعني الثاني ، بأنه مغامر غريب عن المنطقة التي توصل الى حكمها ، في حين أن ظاهراً وفخر الدين ورثا السلطة المحلية ، بمقادير مختلفة، عن أبويهما • ويتشابه الجزار مع المماليك الذين حكموا في بغداد والبصرة في هذه الفترة بأنه مملوك مثلهم ، واعتمد ، كما اعتمدوا هم ، على المماليك في تدعيم قوته • ويتشابه معهم أيضاً في أن السلطان رضي بوجوده ، رغم ازدياد سلطته وبطشه ، بسبب قوته واخضاعه القوى المحلية والخارجية • وبتعيين أحمد باشا الجزار على ولاية صيدا ، انتقل زمام المبادرة السياسية في بلاد الشام الجنوبية من ولاة دمشق اليه ، وأصبحت دمشق تدور في فلك قوته •

لقد كان احتلال أبي الذهب لدمشق في ١٧٧١ ضربة قاصمة لنفوذ ولاتها•ولم تلعب السلطات العثمانية في دمشق،سواء الوالي أو قائد القوات العثمانية فيها (الصاري عسكر) ، أي دور سياسي هام في توجيه الاحداث في الفترة بين ١٧٧١ و ١٧٧٥ ، أو في القضاء على الثائرين • فقد قتل علي بك من قبل محمد أبي الذهب ، وتوفي هذا الأخير بمرض مفاجىء في عكا• أما ظاهر العمر فقد أمكن القضاء عليه بعد فقده حليفه القوي علي بك • وقد ازداد ضعف ظاهر اثر هجوم أبي الذهب عليه وبفعل ثورات أبنائه • وجاءته الضربة الحاسمة على يد الاسطول العثماني بقيادة القبطان حسن باشا ، ثم قتل بتآمر جنوده المرتزقة عليه • ولم يشترك والي الشام محمد باشا العظم في تصفية الثائرين هؤلاء • وحين ظهر الجزار ، بعد ذلك ، وبدأ يهتم باخضاع المتاولة وأمراء جبل لبنان،لم يعد لولاة الشام من مشاغل كبرى خارج دمشق سوى تأمينهم سلامة الحج • ولكنهم تعرضوا الآن

الى مؤامرات الجزار الذي أخذ يسعى بجد للحصول على ولاية الشام •

وقد سبق القول الى أن محمد باشا العظم عين على ولاية الشام في ١٣ رجب ٢٢/١١٨٥ تشرين الاول ١٧٧١، اثر عزل عثمان باشا الكرجي[١]. وبقي محمد باشا والياً على الشام (باستثناء فترة قصيرة بين ربيع الأول ١١٨٦ وجمادى الثاني ١١٨٧/حزيران ١٧٧٢ و آب ١٧٧٣)[٢] حتى وفاته في ١٣ جمادي الاول ١٦/١١٩٧ نيسان ١٧٨٣ • وكان هدف محمد باشا في ولايته تأمين سلامة الحج وزيادة نفوذه ونفوذ أسرته في دمشق ، لاسيما وان امكانية تسلطه على القوى المحلية خارج دمشق كانت محدودة بسبب سيطرة الجزار واهتمامه باخضاع أمراء جبل لبنان والمتاولة• وحين حاول محمد باشا التدخل في منازعات أمراء جبل لبنان ، لم يستطع الثبات أمام منافسة الجزار •

ولم تحدث اضطرابات في دمشق في عهد محمد باشا العظم بسبب الاخطار التي أحدقت بدمشق في أول ولايته ، وأيضاً بسبب تجمع القوات العثمانية في دمشق مما فرض الهيبة في نفوس أهلها • وحين قضي على الثائرين الذين هددوا سلطة ولاة دمشق، ساد الهدوء • وازدهرت الحركة الاقتصادية في دمشق بسبب ازدهار قافلة الحج من جديد • ولم يعوز محمد باشا الحزم عندما استدعت الظروف ذلك • وقد قتل آغا اليرلية عثمان بن شبيب دون أن يثير ذلك اليرلية • صحيح أن عثمان هذا كان ، في الأصل، صنيعة محمد باشا العظم الذي أتى به الى هذا المنصب[٣]، وصحيح أيضاً أن آغا اليرلية لم يعد يمثل، في الواقع ، مصالح اليرلية المتباينة، بدليل أن آغا اليرلية السابق يوسف بن جبري قد قتل ولم يثأر اليرلية له[٤]، ولكن مما ساعد محمد باشا على السيطرة على اليرلية ومنحه دعماً كبيراً في دمشق اشغال أفراد كثيرين من آل العظم المناصب العليا في طائفة اليرلية[٥] •

---

١ ـ انظر ص ٣٠٦ •

٢ ـ انظر حول ذلك كتابنا : *The Province of Damascus*, pp. 295 - 301.

٣ ـ بريك ، ١٠٠ ؛ ابن الصديق ، ١١٠ آ ـ ١١٠ ب •

٤ ـ انظر ص ٣٠٣ •

٥ ـ انظر قائمة أصحاب الرتب بين اليرلية في مطلع مخطوط ابن الصديق •

ويصف خليل المرادي حالة الهدوء في دمشق في عهد محمد باشا العظم بقوله : « وراقت دمشق وما والاها في أيامه وصفا لأهلها العيش ونامت الفتن وسلم الناس من الاحن » [1] • ولعل اعجاب المرادي بسيرة محمد باشا حين يقول: « وبالجملة فهو أحسن من أدركناه من ولاة دمشق » [2]، يفسر لماذا لم يذكر المرادي في كتابه « سلك الدرر » ترجمة أحد من آل العظم ، باستثناء محمد باشا [3] • ومما يجدر ذكره أن خليل المرادي أصبح مفتياً في عهد محمد باشا •

وقد أتاح هذا الهدوء لمحمد باشا أن يقوم ببناء عدة أبنية في دمشق كالسوق الذي بناه بين سوق الاروام والقلعة ، كما رمم أبنية أخرى مثل السرايا ومحكمة الباب • وعمر القاعة والبركة في منزل بئر الزمرد على طريق الحج [4] •

وكان الجزار منشغلا ، في هذه الاثناء ، بتوطيد سلطته • وقد قضى، بالاشتراك مع القوات العثمانية الموجودة في المنطقة ، على أولاد ظاهر العمر الثائرين في عام ١٧٧٦ • كما أنه استولى على بيروت من الامير يوسف في السنة نفسها ، كما يبدو [5] • وفي عام ١٧٨١ أخضع الجزار المتاولة ، وقتل الشيخ ناصيف ، وأخذ مدينة صور منهم [6] •

وشرع الجزار في تقوية دفاعه ، واتخذ عكا مركزاً له • وكان يقيم فيها حوالي عشرة أشهر، ويقيم المدة الباقية في صيدا التي كانت مركز الولاية الرسمي • وقد استفاد من تطوير ظاهر العمر لعكا ومن التحسينات التي أدخلها على الزراعة والتجارة وعلى الموانى • واستخدم الجزار جيشاً من

---

١ ـ سلك الدرر ، ج ٤ ، ١٠١ •

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٢ •

٣ ـ انظر مناقشتنا لاغفال المرادي ذكر بقية ولاة آل العظم ، في كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 329 - 330.

٤ ـ انظر حول هذه الاعمال : المرادي ، سلك الدرر ، ج ٤ ، ١٠١ ـ ١٠٢ ؛ القاري ، نشر المنجد ، ٨٤ ـ ٨٥ ؛ بريك ، ١٤٣ •

٥ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ١٢٠ ، تاريخ الجزار ، ٧٢ ـ ٧٤ •

٦ ـ انظر : بريك ، ١١٢ ، انظر ايضاً : A. E. B[1] 1039 : Seyde, 2. 10. 1881

المماليك والمرتزقة ضم البشانقة والارناؤوط والاكراد والمغاربة [١] . وعمد ، لتمويل هذا الجيش ، الى الحصول على المال بأية طريقة . وقد صادر أموال التجار الاجانب ، مما أضر بالنشاط التجاري . وابتز الاموال من الفلاحين فهجر كثير منهم قراهم . وكان الريف قد افتقر بفعل الاضطرابات التي حدثت فيه ، فنقصت بنتيجة بلك الموارد الاقتصادية[٢] . ولجأ الجزار الى أعمال السخرة في تحصين عكا ، وطلب الى الفلاحين تقديم خدماتهم مجاناً ، مما أضر بالزراعة [٣]. وقد نتج عن أعمال الجزار هذه وعن الاضطرابات السابقة في المنطقة ، بما في ذلك الدمار الذي أحدثته جيوش أبي الذهب أثناء هجومه للقضاء على ظاهر ، والتخريب الذي حدث في بيروت بنتيجة هجوم الاسطول الروسي عليها ودفاع الامير يوسف والجزار عنها ، ثم الدمار الذي أحدثته قوات القبطان حسن باشا ، نتج عن ذلك كله انحطاط النشاط الاقتصادي في بلاد الشام الجنوبية . وبقيت دمشق أحسن حالا من غيرها بسبب استفادتها من تجازة قافلة الحج.ولم يقابل هذا الانحطاط التجاري في الجنوب انتعاش في تجارة منطقة حلب لأن هذه المنطقة قاست بدورها من الاضطرابات التي سادت على الجبهة الفارسية ومن انعدام الامن على الطرق الرئيسية . وكان هذا الانحطاط الاقتصادي العام في بلاد الشام نهاية فترة بالنسبة للنشاط التجاري الانكليزي والفرنسي فيها . وانتقلت المبادرة التجارية الانكليزية في الشرق الأدنى من شركة بلاد المشرق (Levant Company) الى شركة الهند الشرقية التي اعتمدت على طريق البحر الاحمر [٤] .

ولجأ الجزار ، بسبب حاجته الى المال ، الى الضغط على الملتزمين في منطقته ، وشدد قبضته خاصة على الامير يوسف لاضعافه . واضطر الامير

---

١ ـ انظر : A. E. B[1] 1037 : Seyde, 31. 5. 1777, Seyde, 17. 12. 1777; A. E. B[1] 1039 : Acre, 11. 4. 1781; Volney, 298, Charles - Roux, 136.

٢ ـ انظر : A. E. B[1] 1037 : Seyde, 17. 11. 1777.

٣ ـ انظر : حيدر شهاب ، تاريخ الجزار ، ٧٩ .

٤ ـ انظر حول هذه التطورات كتابنا : *The Province of Damascus*, pp. 314 - 316

يوسف ، بعد أن خسر بيروت ، الى فرض الضرائب على سكان الجبل لارضاء طلبات الجزار المالية [١] • وازدادت المقاومة المحلية ، تبعاً لذلك، للأمير يوسف ، وتشجع اثنان من اخوته ، وهما الامير أفندي والامير سيد أحمد،على المطالبة بامارة جبل لبنان لهما ، ودعمهما الجزار والفئات المعارضة للأمير يوسف • واضطر الامير يوسف ، ازاء الضغط عليه ، الى التنازل عن الامارة لأخويه ، ولجأ الى محمد باشا العظم يطلب دعمه له • وعندما رأى الجزار تفوق الامير يوسف ، بعد ذلك ، في النزاع مع أخويه بدأ يدعمه • وقد تمكن الامير يوسف من استعادة امارته على جبل لبنان ، وقتل الامير أفندي • ولجأ الامير سيد أحمد الى محمد باشا العظم ، ولكن الأمير يوسف ، الذي دعمه الجزار ، هزمهما في موقعة في البقاع عام **١٧٨١** • وبقي الجزار يتحكم بشؤون الامير يوسف ، وتسبب بعزله في **١٧٨٨**•واعتلى الامارة في جبل لبنان الامير بشير الشهابي الثاني المشهور • وحاول الجزار اثارة الأمير يوسف على الامير بشير لابتزاز المال منهما ، ودبر في عام **١٧٩٠** قتل الامير يوسف بسبب تواطئه مع مماليك الجزار الذين ثاروا عليه في السنة السابقة [٢] • ثم سعى الجزار ، فيما بعد ، الى اثارة أبناء الامير يوسف على الامير بشير •

وحاول السلطان عزل الجزار بسبب ازدياد نفوذه ، ولكن الجزار تحدى أوامر السلطان بعزله ، وطرد الباشا الذي عين مكانه • واضطر السلطان الى التغاضي عنه ، لاسيما وأن الجزار كان يوطد الامن في منطقته، وقد أصبح قوياً الى درجة يصعب معها عزله بسهولة [٣] • وينطبق هذا الأمر على علاقة السلطان بولاة بغداد والبصرة في القرن الثامن عشر •

توفي محمد باشا العظم في ١٣ جمادى الاول ١١٩٧/١٦ نيسان

---

١ ــ انظر كامثلة على ذلك : حيدر شهاب ، لبنان ، جـ ١ ، ١١٩ ـ ١٢٤ ، تاريخ الجزار ، ٧٤ ، ٧٧ •

٢ ــ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، جـ ١ ، ١٦٠ ــ ١٦١ ؛ الشدياق ، جـ ٢ ، ٩٦ــ٧٠ ، ٧٦ ــ ٧٩ ؛ الترك ، حوادث الزمان ، ٧٢ أ ، انظر ص ٣٩٤ •

٣ ــ انظر حول الاحداث السابقة كتابنا : *The Province of Damascus*, pp. 318 - 319

١٧٨٣ • وانتهى بموته الجيل الثالث من الولاة من آل العظم في القرن الثامن عشر • وكان ابنه عبد الله باشا والياً ، آنذاك ، على طرابلس ، وقد عين والياً على الشام ، أكثر من مرة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر • واشتهر ابن آخر لمحمد باشا هو يوسف باشا الذي عين ، في عهد أبيه ، والياً على طرابلس أحيانا •

وكان الجزار يطمع بالوصول الى ولاية الشام • وذكر شاهد عيان في عكا أن الجزار اعتبر تعيينه على الشام أمراً مفروغاً منه ، بعد وفاة محمد باشا العظم ، وبدأ يتقبل التهاني بهذه المناسبة • وقد خاب ظنه اذ عين محمد باشا بن عثمان باشا الكرجي والياً على الشام • وحين توفي محمد باشا في ٩ شعبان ١١٩٧/١٠ تموز ١٧٨٣ ، ازدادت آمال الجزار بالحصول على ولاية الشام ، ولكن السلطان عين عليها ابناً آخر لعثمان باشا الكرجي ، هو درويش باشا • وأخيراً عين الجزار على الشام اثر عزل درويش باشا في ١٨ ربيع الثاني ١١٩٩/٢٨ شباط ١٧٨٥ • وقد عين الجزار بعد ذلك ثلاث مرات على الشام •

ويعتبر تعيين الجزار على ولاية الشام حدثاً هاماً في تاريخ الصراع على النفوذ في بلاد الشام الجنوبية • وعوضاً من أن يمد ولاة الشام نفوذهم على ولاية صيدا ، كما جرت العادة قبل ذلك حين عين أبناء أو أشقاء والي الشام ولاة على صيدا وطرابلس لتشجيع والي الشام على دعمهم ، حدث العكس الآن • وبقيت ولاية صيدا ، ومدينة عكا خاصة ، مركز قوة الجزار ، ولم يتخل عنها حين عين على ولاية الشام • وقد خلفه في ولاية صيدا مملوكه سليم ، كما عين مملوك آخر ، يدعى سليمان ، على ولاية طرابلس في الوقت نفسه [1] •

وتعرضت دمشق أثناء ولاية الجزار الى كثير من ظلمه ، وكان مهتماً بصورة خاصة بجمع المال • وقد جهر الدمشقيون بالشكوى ضده الى

١ ـ انظر حيدر شهاب ، لبنان ، ج ١ ، ١٤١ ، تاريخ الجزار ، ٨٧ ؛ انظر ايضا :
A. E. B[1] 1401 : Seyde, 23. 3. 1885.

السلطان فعزله عن الشام في ١٣ صفر ١٢٠١/٥ كانون الاولى ١٧٨٦[1]. ومما يدل على ضعف مختلف القوى في دمشق عدم مقاومتها لمظالم الجزار، على عكس مواقفها الجريئة ، في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، في مقاومة الولاة الظالمين . وكأن هذه القوى أرادت أن تثأر للذل الذي لحق بها في عهد الجزار ، ومن سبقه من الولاة الذين بطشوا بها ، فثارت على ابراهيم باشا الذي عين على ولاية الشام في ١٧ جمادى الثاني ١٢٠٢/٢٥ آذار ١٧٨٨ ، واشتبك في نزاع مع آغا القابي قول . ولكنه بطش بها . ويدل اشتراك مختلف القوى في عمل موحد ضد ابراهيم باشا على المصالح المشتركة التي جمعت بينها وعلى الضعف الذي لحق بها مما جعلها تتآزر مع بعضها .

وما لبث الجزار أن عين من جديد على ولاية الشام في ٣ شوال ١٢٠٥/٥ حزيران ١٧٩١ ، وعاد الى ممارسة الظلم وابتزاز المال ، أكثر مما سبق ، دون أن يجرأ أحد على مقاومته بسبب شدة بطشه . وتكررت هذه المظالم في ولايتيه التاليتين على الشام [2] .

وازداد الجزار عنفاً وشدة اثر قضائه على ثورة قام بها مماليكه ضده، وأوشكوا أن يطيحوا به . وقد قامت الثورة في ٧ شعبان ١٢٠٣/٣ أيار ١٧٨٩، بقيادة اثنين من كبار مماليك الجزار المقربين اليه ، وهما سليم باشا وسليمان باشا ، وذلك احتجاجاً في الظاهر على محاولة الجزار معاقبة بعض مماليكه . ويبدو أن السبب الرئيسي وراء ذلك هو الصراع على النفوذ بين الجزار وكبار مماليكه الذين توصلوا ، مثله ، الى أن يكونوا ولاة .

---

١ ـ انظر : القاري ، نشر المنجد ، ٨٥ ؛ ميخائيل الدمشقي ، تاريخ حوادث الشام ولبنان (١١٩٧ـ١٧٨٢/١٢٥٧ـ١٨٤١) نشره الاب لويس معلوف اليسوعي ، بيروت ، ١٩١٢، انظر ص ٤ ـ ٥ : سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : ميخائيل الدمشقي .

٢ ـ انظر حول هذا وحول الاحداث السابقة : القاري ، نشر المنجد ، ٨٦ ـ ٩٠ ؛ ميخائيل الدمشقي ، ٥ ـ ١٤ ؛ انظر أيضا : عبد الرزاق البيطار ، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، ٣ أجزاء ، تحقيق محمد بهجة البيطار ، دمشق ، ١٩٦١ ـ ١٩٦٣، انظر ترجمة الجزار ، جـ ١ ، ١٢٧ ـ ١٣٢ .

وتمكن الجزار ، بمساعدة قواتـه من الارناؤوط والمغاربـة ، من القضاء على الثورة [1] •

وبقي الجزار ، بعد ذلك ، سيد الموقف في بلاد الشام • ولم يهدد سلطته خطر كبير الى أن نزل نابليون بونابرت بجيوشه في مصر ، في صيف عام ١٧٩٨ ، وتوجه في أوائـل العام التالي الى فتح بلاد الشام • وقاومت عكا الهجوم ، وارتد نابليون عـلى أعقابه • وتعتبر الحملة الفرنسية عـلى مصر وبلاد الشام بداية مرحلة جديدة في تاريخ البلدين ، تميزت بالتدخل الغربي ، على مختلف المستويات ، في شؤونهمـا ، وبردود الفعل المحلية على ذلك •

الاشراف في حلب • ـ مارس الاشراف في ولايـة حلب ، في القرن الثامن عشر ، سلطة سياسية لـم يعرفهـا أمثالهم في أي مكان في الدولـة العثمانية آنذاك[2] • ويبدو أن السبب في ذلك هو أن الاشراف ، في ولايـة حلب ، كانـوا الطائفة الوحيدة التي أمكـن للسكان المحليين أن يعبـروا بواسطتها عن ازدياد قوتهم وان يقاوموا ظلم الانكشارية • ويمكننا تفسير هذا الأمر بأن قرب حلب من مركز العثمانيين ، ووقوعها بمتناول قواتهم التي كانت تغدو وتجيء باستمرار من الجبهة الفارسية ، قد أبقى الجنود الانكشاريين فيها أكثر مناعة تجاه محاولات السكان المحليين في الانضمام اليهم ، على نقيض ما حدث في ولاية الشام،حيث تحولت الفرق الانكشارية الى يرلية ، بنتيجة التحاق السكان المحليين بها • وكان ذلك بمثابة متنفس لهؤلاء السكان عبروا بواسطته عن قوتهم ، في عهد ضعف الدولة • ومثلما وقف يرلية دمشق يدافعون عن مصالح أهلها ضد ظلم القابيقول ، وقف أشراف حلب يدافعون عن مصالح أهلها ضد ظلم الانكشارية • ونتج عن

---

١ ـ انظر : حيدر شهاب ، لبنان ، جـ ١ ، ١٣٤ ـ ١٤٤ ، تاريخ الجزار ، ٩٢ ـ ٩٥ ؛ الشدياق ، جـ ٢ ، ٦٩ ـ ٧٠ ؛ الترك ، حوادث الزمان ، ٧٢ آ ـ ٧٢ ب ؛ الجبرتي ، جـ ٢ ، ٣٢٢ •

٢ ـ أنظر : H. Bodman, *Political Factions in Aleppo*, 1760-1826, North Carolina Press, 1963, pp. 79-102; J. Sauvaget, *Alep*, Paris, 1941, pp. 196-200.

ازدياد نفوذ الاشراف في حلب وحاجة رؤسائهم للدعم المحلي ان حدث كثير من اساءة الاستعمال بالنسبة لامتيازات الاشراف ، مما جعل نقيب الاشراف يوجه عدة مذكرات الى القضاة المحليين لوضع حد لذلك • وقد أمر بالتدقيق في صحة النسب ومنع استعمال العلامة الخضراء بدون حق ، وهي العمامة الخضراء التي يستعملها الاشراف عادة للدلالة على نسبهم[1] •

وقد انتسب كثير من أعيان حلب الى الاشراف للاستفادة من امتيازاتهم وللعمل ، بواسطتهم ، على فرض نفوذهم السياسي في المدينة • وكان كثير من أصحاب المالكانات والملتزمين ، في ولاية حلب ، من الاشراف • وقد لعب نقيب أشراف حلب محمد بن أحمد طه زاده ، منذ أوائل الستينات من القرن الثامن عشر ، دوراً سياسياً هاماً في المدينة[2] وأصبح مساعده ابراهيم قطر أغاسي محصلا في حلب ، ثم والياً عليها في أوائل القرن التاسع عشر • وقد ازداد نفوذ الاشراف في عهد محمد قدسي أفندي ، الذي أصبح نقيب الإشراف ومفتي حلب في عام ١٧٩٣ ، وتعاون مع ابراهيم قطر أغاسي • ورغم معارضة جناح من الاشراف ، من آل الجابري ، لزعامة محمد قدسي أفندي ، مثلما عارض الأشراف من آل الكواكبي زعامة شلبي أفندي ، فقد اعترف بزعامة هذين النقيبين في حلب ، وبمعارضتهما الانكشارية[3] • وبلغ من تنظيم الاشراف وقوتهم أن الدولة

---

١ ـ تذكر الوثيقة رقم ٢٦ من السجل رقم (١) (سجل قيد الأوامر العلية السلطانية من ربيع الآخر ١١٤٦ الى ذي القعدة ١١٥١) وهو من سجلات المحكمة الشرعية بحلب ، المحفوظة في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ، كتاب النقيب السيد محمود « الى السيد يوسف أفندي القائم حاليا بمقام قضاة اقضية مدينة حلب وادلب واريحا وسرمين ومعرة المصرين ودركوش واعزاز ومعرة النعمان وشغور بشأن العلامةالخضراء التي تستعمل من قبل أصحاب النسب وحسب قيود حججهم والانساب ومنع من يضع هذه الاشارة ويستعملها بدون حق » ، تاريخ الكتاب في ٢١ جمادى الآخر ١١٤٦/ (٢٩ تشرين الثاني ١٧٣٣) • أنظر ايضاً الوثيقة رقم ١٩٦ بتاريخ ٧ شوال ١١٤٧/ (٢ آذار ١٧٣٥) ، والوثيقة رقم ٢٢٩ بتاريخ ٢٣ ذي الحجة ١١٤٧/ (١٦ أيار ١٧٣٥) ، حول كتابين آخرين مرسلين بهذا الموضوع •

٢ ـ أنظر : A. E. B[1] 88 : Alep, 25. 9. 61; Bodman, 105 ff.

٣ ـ أنظر : Bodman, 102

أرسلتهم الى مصر لمقاومة حملة نابليون بونابرت[1] .

وقد اشتبك أشراف حلب مع الانكشارية ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، في منازعات دامية . وكثيراً ما ثار الاشراف مباشرة ضد الحاكم العثماني ، كما حدث مثلا في ١١ آب ١٧٧٠[2] . وقد حدث أعنف اصطدام بين الاشراف والانكشارية في رمضان ١٢١٢/شباط١٧٩٨، والتجأ فريق من الاشراف الى جامع الاطروش ، قرب القلعة ، وذبح الانكشارية معظمهم[3] . وقام الصراع بين هاتين الطائفتين في نواحي حلب ، وخاصة عنتاب[4] .

ولم يلعب الاشراف في دمشق دوراً هاماً كالدور الذي لعبه أسمياؤهم في حلب نظراً لأن السكان المحليين وجدوا متنفساً لقوتهم ونفوذهم من خلال الانكشارية اليرلية . ويمكننا اعتبار ظهور الاشراف بهذه القوة في ولاية حلب ، وقيام اليرلية بدور سياسي هام في ولاية الشام ، جزءاً من ظاهرة عامة لفرض النفوذ المحلي ، بأشكال مختلفة ، في الولايات العربية .

ازدياد نفوذ البدو . ــ تعرض العثمانيون، منذ احتلالهم بلاد الشام في عام ١٥١٦ ، الى خطر تمرد البدو وتعدياتهم ، سواء في البقاع ، أول الأمر ، في عهد اسرة آل الحنش ، أو على الطريق الرئيسية ، بين حلب ودمشق ، أو على طريق الحج السلطاني ، الذي ربط دمشق بالحجاز . وتمكن العثمانيون ، بالقوة أحياناً ، أو بشراء خضوع القبائل بالمال ، أحياناً أخرى ، من تسوية الأمور مع هذه القبائل . وكان يتم ذلك بصورة مؤقتة نظراً لتبدل هوية هذه القبائل ، بين الفترة والاخرى ، وما ترتب على ذلك من ضغطها المتجدد على سلطات المدن . وطبيعي أن موقف

---

١ ــ الطباخ ، ج ٣ ، ٣٧٣ ــ ٣٧٤ .
٢ ــ انظر تفاصيل ذلك في : A. E. B[1] 91 : Alep, 17. 8. 70
٣ ــ الطباخ ، ج ٣ ، ٣٧٠ ــ ٣٧٢ .
٤ ــ المصدر السابق ، ج ٣ ، ٣٧٢ .

السلطات هذه كان يمليه ، الى حد كبير ، ما كانت عليه الادارة العثمانية في استانبول من قوة وضعف .

ومما يجدر ذكره أن فخر الدين المعني الثاني قد فرض سيطرته ، في النصف الاول من القرن السابع عشر ، على القبائل البدوية في البقاع ، وحوران ، وفلسطين ، ومد نفوذه على مناطق الريف حتى أنطاكيةوحلب شمالا ، وعلى مناطق البادية حتى تدمر شرقاً ، وقد لقبه السلطان مراد الرابع بأمير عربستان ، ولقب هو نفسه بسلطان البر [1] . وتعرض العثمانيون ، بعد مقتله في عام ١٦٣٥ ، الى صعوبات في السيطرة على القبائل، التي استغلت ذلك للعودة الى تعدياتها ، مما عرض كثيراً من القرى الى خطرها ، فهجرها أهلها ، كما لاحظ ذلك الرحالة الفرنسي تيفنو (Thévenot)[2]، الذي زار بلاد الشام في أواخر الخمسينات من القرن السابع عشر . وفي عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي ، حاول العثمانيون فرض سيطرتهم على القبائل التركمانية [3] والبدوية ، ولاقوا صعوبات كبيرة في التعامل مع هذه الأخيرة .

وقد سيطرت على البادية السورية في القرن السادس عشر والقسم الاكبر من القرن السابع عشر قبائل الموالي ، التي تدعي النسبة الى قبيلة طيء القحطانية ، وكان امراؤها من اسرة ابي ريشة ، واحيانا اطلق هذا الاسم على القبيلة بكاملها . وكان الامراء قبل ذلك ، من اسرة الحيار ، وعرف الموالي بهذا الاسم تبعاً لذلك ، اذ كانت العادة ان تكنى القبيلة بكنية زعيمها .

وقد سيطر الموالي من آل ابي ريشة على المنطقة الممتدة بين الفرات ، بين عانه على مجراه الاوسط في الشرق(وسيطرت بعد ذلك ، حتى البصرة ، قبائل المنتفق) ، وحلب في الشمال ، وحماه وحمص في الغرب ، وحوران

---

١ ـ انظر ص ١٦٦ .

٢ ـ انظر : Thévenot, Jean de, *Voyages de Monsieur de Thévenot en Europe, Asie et Afrique*, 3rd ed. 5 Vols., Amsterdam, 1727, see Vol. II, pp. 701-710.

٣ ـ انظر ص ١٩١

في الجنوب ، ولقب اميرهم ، بسبب سلطته الكبـيرة ، بامير الصحـراء او حاكم البر • واصطدم الموالي ببدو السردية في حوران ، واوقفوا توسـع قبائل بني خالد ، الذين اتجهوا ، في حوالي منتصف القرن السابع عشر ، من منطقـة الاحساء ، في شمال شرقي الجزيرة العربيـة ، نحـو حمص والسلمية •

واختلفت علاقات الموالي بالسلطات العثمانية بين وقت وآخر • فحين لمس العثمانيون في انفسهم القدرة على مهاجمة الموالي فعلوا ذلك ، والامر نفسه ينطبق على الموالي • وقد تعاون امير الموالي ، خالد العجـاج ، ابـان الاحتلال الصفوي لبغداد بين ١٦٢٣ و ١٦٣٨ ، مع الصفويين ، وهاجم ، بناء على أوامرهم ، اطراف حلب • ولكن خلفه خرج على الصفويين ، بعد ان استماله العثمانيون بهبات من المال والاراضي • وقد فشل العثمـانيـون ، بعد استعادتهم بغداد من الصفويين في عام ١٦٣٨ ، في السيطرة على هـــذا الامير (الموالي لهم) ، حين ارسلوا حملة ضده في عام ١٦٤٤ ، ولجأوا بعد ذلك الى شراء ود الموالي • وفي عـام ١٦٥٥ استنجـد العثمانيون بهم ضـد قبائل المنتفق ، التي تحالفت مع حاكم البصرة من آل افراسياب •

وقد قام بدو السردية ، وخاصة بدو بني خالد ، بعد هزائمهم الاولى على يـد الموالي ، بسلسلة من الهجمات ضدهم ، في النصف الثـاني من القرن السابع عشر ، ضعف الموالي على اثرها • وفي أوائل القرن الثـامن عشر رمى بدو شمر ، الخارجين من الجزيرة العربية ، بثقلهم ضد الموالي • ولكن الضربة الحاسمة للموالي كانت على يد قبـائل العنزة ، التي خرجت من نجد في تلك الفترة • وقد تمزق الموالي ، اثر ذلك ، وانسحبوا الى مناطق حلب وحماة ، وتركوا البادية لقبائل العنزة •

وقد تسربت قبائل العنزة على دفعات ، فأتى منها اولا الحسنة وولد علي ، ثم تلاهما الفدعان والسبعة والعمارات ، وأخيراً الرولة • ودام هذا التسرب اكثر من عام ، وتسارعت حركته في أواخر القرن الثامن عشر بتأثير ضغط الوهابيين •

وعندما وطدت العنزة قدمها في البادية اندفعت القبائل الصغيرة ، خوفاً منها ، الى مناطق الأطراف • وانحصر الموالي في المنطقة الواقعة بين حلب وحماة ، واقتصرت شمّر على منطقة الجزيرة ، في شمال شرقي بلاد الشام • واندفع زعماء السّردية ، الذين تزعموا مجموعة من القبائل الصغيرة ، ضمت بني صخر وبني صقر ، الى مناطق نهر الاردن وفلسطين ، وتحولت الزعامة بالتدريج لبني صخر •

ولا شك ان انحطاط السلطة العثمانية لم يكن السبب المباشر ، او الوحيد ، لهجرة قبائل العنزة الى بادية الشام ، فهناك الجفاف ، وكثرة السكان ، وضغط القبائل بعضها على بعض ، في الجزيرة العربية ، التي أسهمت في هذه الهجرة • ولكن انحطاط السلطة ساعد العنزة على توطيد نفوذهم ، فسيطروا على طرق الصحراء ، وخاصة تلك التي تربط بغداد بدمشق ، وفرضوا الضرائب على التجار والمسافرين • وتضايقت القبائل الصغيرة من قدوم العنزة ، الذين نافسوها في اسباب معاشها ، وخاصة المساهمة بنقل الحجاج الى الحجاز ، وطغوا على نفوذها محليا • وتشجع الولاة ، كما رأينا في مثال اسعد باشا العظم[1]،فاستغلوا ضعف هذه القبائل، وفرضوا عليها الضرائب،وكانت ردود فعلها عنيفةعندما واتتها الظروف[2] • ونتج ايضاً عن تحركات قبائل العنزة ، حسب الفصول ، وتوسعها في الربيع طلبا للمرعى ، وارتدادها الى الداخل في الشتاء ، ان اثر ذلك على القبائل في الاطراف ، فاندفعت الى داخل الريف ، أو تراجعت عنه ، تبعاً لذلك ، وترتب على هذا اصطدامها بالفلاحين والسلطات المدنية[3] •

---

١ ـ انظر ص ٢٦٧ •

٢ ـ انظر مثلا حول رد فعل القبائل الصغيرة وهجومها على قافلة الحج في عام ١٧٥٧،ص •

٣ ـ انظر حول البدو ، انواعهم ، وتحركاتهم ، وتاثيراتهم الاقتصادية :

'Anaza Bedouins, in the *Encyclopaedia of Islam,* new ed.; see also Seetzen, M.V.J. 'Mémoire pour arriver à la connaissance des tribus Arabes en Syrie', *Annales des Voyages de la Géographie et de l'Histoire,* Vol. 8. Paris, 1804, pp. 281-324.

وانظر أيضا : عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣ أجزاء ، دمشق ١٣٦٨/١٩٤٩ •

الأسر الحاكمة والمماليك في العراق

مثلما شجع انحطاط السلطة العثمانية ، وقيام ظروف محلية خاصة ببلاد الشام ، في القرن الثامن عشر ، على ظهور الحكام من آل العظم ،واقامة ظاهر العمر « امارته » ، وازدياد نفوذ البيرلية ، وكذلك القبائل البدوية ، فان انحطاط السلطة العثمانية ، وقيام ظروف محلية خاصة بالعراق ، شجع على قيام حكم متوارث في كل من بغداد والموصل ، وحكم مملوكي في كل من بغداد والبصرة .

وأهم الظروف المحلية في العراق كونه منطقة حدود ، وازدياد تسلط الأنكشارية في بغداد ، والقبائل البدوية في الريف . وتعرض العراق اكثر من مرة ، في القرن الثامن عشر ، الى هجمات حكام بلاد فارس ، الذين اختلفت هوياتهم ومذاهبهم بشكل متكرر ، وانعكس ذلك على اطماعهم في العراق . ولهذا ، فان الحاجة العسكرية في الدفاع عن الحدود هي التي جعلت السلطان العثماني يعترف بوجود الحكام الاقوياء في العراق ، مثل آل الجليلي في الموصل ، وحسن باشا وابنه احمد باشا ،ومن بعدهما مماليكهما ، في بغداد والبصرة . ولم تجد محاولات السلطان الاطاحة بهم ، رغم اتهامهم احياناً بالخيانة للعثمانيين[١] ، واستمروا في الحكم بسبب عجز السلطة عن استبدالهم .

وكانت ولايات العراق قد شهدت ، منذ استرداد العثمانيين بغداد في عام ١٦٣٨ ، تطورات هامة . ففي عام ١٦٦٧ قضى العثمانيون ، في عهد آل كوبريلي ، على أسرة أفراسياب الحاكمة في البصرة[٢] . ولكن خطراً آخر واجههم في تلك المنطقة تمثل في قبائل المنتفق ، بزعامة مانع بن مغامس ،الذي احتل البصرة في عام ١٦٩٤ . ولم يتمكن والي بغداد من استعادتها ، فشجع والي الحويزة الصفوي على القيام بذلك ،اعتقاداً منه بولاء هذا الوالي للعثمانيين ، ولكن والي الحويزة احتل البصرة والقرنة باسم الصفويين . ولم يتمكن والي

---

١ ـ انظر : PRO, S.P. 97/25 : Istanbul, 8/19. 4. 24; Pera of Istanbul, 12. 3. 34; Pera of Istanbul, 11. 7. 35; S. P. 97/32 : Istanbul, 5. 10. 43.

٢ ـ انظر ص ١٧٤ ، ٢١٩ .

بغداد من استعادة البصرة حتى عام ١٧٠١ ، بعد ان تقوى بنجدات عثمانية هرعت الى العراق من اوروبا ، اثر توقيع صلح كارلوفيتز في عام ١٦٩٩ .

وكان قد تعاقب على بغداد ، في الفترة بين ١٦٣٨ و ١٧٠٤ ، اربع وثلاثون واليـاً ، لم يبلغ أحد منهم الشهرة التي بلغها حسن باشا الذي عين عليها في عام ١٧٠٤ . وقد ولد حسن باشا في عام ١٦٥٧ ، ودرب في سراي السلطان في استانبول ، وشغل عدة مناصب قبل تعيينه على بغداد . وطبق في هذه الولاية النظام الذي ربّي عليه في استانبول ، فاستقدم شباناً (Kölemen) من بلاد الكرج والقفقـاس ، ودربهم كمماليك في مدرسة أقامها لهـذا الغرض ، وعلمهم مبادىء القتال والدين الاسلامي . وبلغ عددهم في البدء مائتين ، وعهد اليهم ، بعد تخرجهم ، بالمناصب الادارية والعسكرية العليا في الولاية . وبالتدريج ، اصبح هؤلاء المماليك قوة هامة وازنت بـل فـاقت قـوة الانكشارية والبـدو ، وعين منهـم الكاخيا (الكتخدا) أي مساعـد الوالي . وجدد حسن باشا الديوان ، الذي حضره ، الى جـانب الـوالي ، كل من الكاخيا ، والقاضي ، والخزينةدار ، والدفتردار ، والديوان أفندسي . واستمر هذا النظام في عهد احمد باشا ، الذي خلف اباه حسن باشا في عام ١٧٢٤ ، وفي عهد مماليكهما من بعدهمـا ، بـدءاً من عام ١٧٤٧ وحتى عـام ١٨٣١ . واتاحت المدة الطويلة ، التي حكم خلالها كل من حسن باشا وابنه احمد باشا ، لهما تهيئة هذا الجهاز الاداري والعسكري المملوكي ، الـذي مكنهم من معارضة قرارات استانبول[١] .

وقد تقرب حسن باشا مـن السكان المحليين بالغائه الضرائب عـلى المواد الغذائية وعلى الاخشاب المستوردة الى بغداد . وجدد جامع السرايا . وتمكن بالقوة والدبلوماسية من اخضاع القبائل الكردية واليزيدية المتمردة في الشمال ، كما انه ، في عام ١٧٠٨ ، وجه حملة الى منطقة البصرة هزم فيها قبائل المنتفق ، الذين هددوا الولاة العثمانيين في البصرة . واضطر الى

---

١ ــ انظر حول ذلك :
R. Mantran, 'Bagdad à l'époque Ottomane', *Arabica*, 1962, pp. 316-317.

ارسال حملات اخرى حتى امكنه اخضاع الشيخ مغامس • ولما كـان والي البصرة عاجزا عن الصمود بمفرده في وجه المنتفق فقد عهد العثمانيون الى حسن باشا بمهمة الدفاع عنها وتعيين واليها فسلمها الى كاخياه ، وهو زوج ابنته مصطفى آغـا • وبذلك اصبحت البصرة تابعـة للاسرة الحـاكمـة في بغـداد •

وبعد ركود على الحدود العراقية ـ الفارسية استمر منذ معاهـدة ١٦٣٩ اخذت هذه الحدود بالنشاط ، في أواخر ولاية حسن بـاشـا ، وفي اعقاب سيطرة محمود الافغاني السني في بلاد فارس وانهائه مؤقتاً السلالة الصفوية في عام ١٧٢٢ • ووجد العثمانيون الفرصة سانحة للتـوسع في بلاد فارس ، لمقاومة الافغانيين الذين نافسوهم على زعامة العالم السني ، وللحيلولة دون انفراد القيصر الروسي بطرس الاكبر في احتلال مناطقها الشمالية • وكان هذا القيصر قد احتل قسماً من هذه المناطق المنتجة للحرير في عامي ١٧٢١ ـ ١٧٢٢ ، مما اثّر على نشاط حلب التجاري ، لأن الانكليز كانوا يصـدرون حرير بـلاد فارس ، عبر حلب ومينائهـا الاسكندرونـة الى اوروبا[١] • فتدخل العثمانيون في بلاد الكرج ، وتوصلوا الى اتفاق مـع روسيا ، في عام ١٧٢٤ ، باقتسام شمالي فارس بينهما • ومن ناحية أخرى ، توغلت القوات العثمانية ، بقيادة حسن باشا والي بغداد ، في بلاد فارس ، واحتلت كرمنشاه • وتوفي في هذه الاثناء حسن باشا فخلفه ابنه احمـد باشا ، في عام ١٧٢٤ ، في ولاية بغداد وفي قيادة الجيش العثماني في بـلاد فارس • وباستثناء انقطاع دام سنتين (١٧٣٤ـ١٧٣٦) ، فقـد حكم أحمد باشا ولاية بغداد حتى وفاته في عام ١٦٤٦ • وبدأ عهده باحتلال همذان في عام ١٧٢٤ ، ولكنه فشل في احتلال اصفهان ، عاصمة محمود الافغاني ، وتراجع في اعقاب ذلك •

وفي عام ١٧٢٦ اعلن العثمانيون الحرب على أشرف الافغاني ، الذي كان قد أطاح ، قبل عام ، بابن عمه محمود ، ونصّب نفسه شاهاً • ولكن

١ ـ انظر حول ذلك كتابنا : *The Province of Damascus*, 75

اعلانه السنة اوقع البلبلة في صفوف الجيش العثماني ، وتمّ الصلح بين الطرفين في عام ١٧٢٧ ، واعترف أشرف للعثمانيين بسيطرتهم على المناطق الغربيـة والشمـاليـة الغربيـة من بلاد فـارس • وكـان الشاة الصفـوي المعزول ، طهمـا سب الثـاني ، يجمـع المعـارضـة من حـولـه ضـد الافغـانيين ، فـدعمـه نـادر خـان ، من قبيلـة أفشر ، وهي واحـدة من القبائل التركمانية الرئيسية التي دعمت الصفويين ، وهزم الافغانيين في عام ١٧٢٩ ، واحتل شيراز ، وأعاد طهماسب الى الحكم • ونظراً لعمل نادر خان في ظل الشاه طهماسب فقد عرف بلقب طهماسب قولي خان ، اي عبد طهماسب • ولم يكن نادر خان مخلصاً للصفويين بل استغل قضيتهم لكسب دعم مؤيديهم • وفي عام ١٧٣٢ اطاح بطهماسب ، ونصب ابنه الطفل مكانه ومارس السلطة الكاملة من وراء ابن طهماسب • وفي عام ١٧٣٦ أعلن نادر خان نفسه حاكما على بلاد فارس ، وازال الصفويين من الحـكم ، ولقب بالشاه • ثم تبنى المذهب الجعفري المعتدل (نسبة الى الامام جعفر الصادق)، في محاولة للتوفيق بين المذهب الشيعي الصفوي والمـذهب السني ، وذلـك لكسب تأييد الشعب المحلي ، من ناحية ، ولتحدي زعامة العثمانيين السنية ، من ناحيـة أخرى • وقـد فشلت هذه المحاولة لان معظم الشعب رفض الجعفرية ، كما ان هذه الخطوة أثارت العثمانيين ضده •

وكان نادر شاه ، منذ ان ظهر على مسرح السياسة في عام ١٧٢٩ وحتى وفاته في عام ١٧٤٧ ، العدو الأكبر للعثمانيين • وقد أدت انتصاراته على العثمانيين في ١٧٣٠ ، الى حـدوث ثورات شعبيـة في استانبول ، تزعمها الانكشارية ، احتجاجا على هزائم العثمانيين في الجبهة الفارسية ، وعـلى ابتزاز اموال الشعب باسم الدفاع ضد حكام فارس ، بينما كانت تبذر في الحقيقة عـلى بذخ الحكام في استانبول • وقد قتل الصدر الاعظم بنتيجة الثورة ، واجبر السلطان احمد الثالث على الاستقالة[١] •

---

١ ـ انظر تفاصيل أخرى عن هذه الثورة في كتابنا :
The Province of Damascus, 105 - 106.

وفي عام ١٧٣٣/١١٤٥ حاصر نادر شاه بغداد مدة تسعة اشهر ، حتى انتصر عليه القائد العثماني طوبال عثمان باشا في ٧ صفر ١٤٦ / ٢٠ تموز ١٧٣٣ • وفي عام ١٧٤٣/١١٥٦ حاصر نادر شاه الموصل ، بعد حملات مظفرة قام بها في الهند ، ولكن والي الموصل حسين باشا الجليلي صده عنها • وأخيراً توصل نادر شاه الى اتفاقية سلام مع العثمانيين في عام ١٧٤٦/١١٥٩ • ومما يجدر ذكره أن العثمانيين رفضوا في اتفاقاتهم مع نادر شاه ، ومن قبله الحكام الافغانيين ، الاعتراف بقافلة حج خاصة بالحجاج الاعجام ، تنطلق بهم من بلاد فارس الى الحجاز ، لان العثمانيين وجدوا في ذلك انتقاصا لسيطرتهم واشرافهم على الاماكن المقدسة[١] •

واغتيل نادر شاه في حزيران ١٧٤٧ ، وانتهى بذلك حكم قبيلته • وعادت امور بلاد فارس الى الاضطراب ، ولم تعد تشكل خطرا كبيرا على العثمانيين حتى قيام كريم خان زند وقتال العثمانيين في الفترة بين ١٧٧٤ و ١٧٧٩ • وبعد شهرين من وفاة نادر شاه توفي أحمد باشا والي بغداد ، وبدأ في اعقاب ذلك حكم المماليك[٢] •

عينت السلطات العثمانية ، اثر وفاة احمد باشا ، واليا من قبلها على بغداد ، فعارضه المماليك وحلفاؤهم • وكان المرشح المملوكي لولاية بغداد سليمان باشا المملوكي ، الذي عرف بابي ليلى ، ، وهو صهر أحمد باشا

---

١ ـ انظر : المصدر السابق ، ٥٩ ، ١٥٦ •

٢ ـ انظر حول حكم كل من حسن باشا وابنه احمد باشا : عبد الرحمن بن عبد الله السويدي ، حديقة الزوراء في سيرة الوزراء ، مخطوط في المتحف البريطاني بلندن، برقم Add. 18, 507 وقد بدا الدكتور صفاء خلوصي بنشر هذا المخطوط وظهر الجزء الأول منه ، الذي يبحث في سيرة حسن باشا،ويشتمل على ٦٧ ورقة من المخطوط البالغ ٢١٩ ورقة ، في بغداد ، في عام ١٩٦٢ • الشيخ رسول الكركوكلي ، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، نقله عن التركية موسى كاظم نورس ، بغداد (بدون تاريخ) ، ص ١٥ـ٩٥ ؛ العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، جـ ٥ ١٦١ـ٢٨١؛
S. Lomgrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*, New impression, Beirut, 1968, pp. 123-162; P.M. Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, 143-146.

وانظر أيضا : A. Duri, *E.I.²*, s.v., Baghdad

وكاخياه ، وقد عين على البصرة ، ولكنه كان يطمع بولاية بغداد • وفي عام ١١٦٣/١٧٤٩ سار سليمان باشا نحو بغداد ، فطرد واليها العثماني ، وتولاها ، بالاضافة الى البصرة ، واعترف السلطان بذلك • وقد فرض سليمان باشا نفوذه على القبائل ، واقام النظام والامن ، وشجع التجارة •

وقد ازدادت قواعد النظام المملوكي ثباتاً في عهد الولاة المماليك ، ولكن سيئاته كانت تظهر عند انتقال الحكم من وال الى آخر •وحدث صراع على السلطة اثر وفاة سليمان باشا ، في عام ١٧٦٢ ، فخلفه علي باشا المملوكي • ولكن معارضة عمر باشا المملوكي له ، الذي تمتع بدعم أكبر ، اطاحت به من الولاية في عام ١٧٦٤ ، وحل عمر باشا مكانه •

وقد شهدت فترة ولاية عمر باشا بين ١٧٦٤ و ١٧٧٦ ، احداثا جساما • ففي عام ١١٨٦/١٧٧٢ عمّ الطاعون بغداد ، واستمر فيها ستة اشهر ، كما حدث تنافس على السلطة بين عدد من مساعدي الباشا مما اوقع البلاد في الفوضى • وكذلك قامت الثورات في منطقة كردستان على والي بغداد • ولكن أهم خطر تعرض له هذا الوالي ، على الصعيد الخارجي ، قيام كريم خان زند ، الذي حكم بلاد فارس من وراء الصفويين المضعفين ، وتهديده سلطة والي بغداد في شهر زور ، واهم من ذلك احتلاله البصرة في عام ١٧٧٥ ، واسره واليها المملوكي سليمان باشا • ولم يقم عمر باشا بجهد فعال لصد الخطر الفارسي عن البصرة ، التي ازدادت اهميتها بالنسبة للتجارة مع الخليج العربي ومع الهند • ويدل ذلك على ضعف حكمه ، مما اغرى العثمانيين بالتخلص منه ، وتعيين حاكم من قبلهم على بغداد في عام ١٧٧٦ • وافتقد المماليك الزعامة القوية الى أن توفي كريم خان زند في عام ١٧٧٩ وعمت الفوضى بلاد فارس من جديد ، فاخلا الفرس البصرة واطلق سراح سليمان باشا المسجون في شيراز ، وعاد الى حكم البصرة • وبدعم من الممثل البريطاني هناك ، عين على بغداد وشهرزور ، بالاضافة الى البصرة ، في عام ١٧٧٩ ، ودخل بغداد في١٧٨٠ •وعرف سليمان باشا هذا في

التاريخ باسم سليمان باشا الكبير (بيوك سليمان باشا) ، واستمر حكمه حتى وفاته في عام ١٨٠٢ •

ويعتبر سليمان باشا الكبير من اشهر ولاة الامبراطورية في زمنه ، فقد امتدت سلطته من ماردين حتى الخليج العربي • وأخضع قبائل الأكراد والبدو لسلطته ، وحين احتل الشيخ تويني ، زعيم قبائل المنتفق ، البصرة في عام ١٧٨٦ ، طرده سليمان باشا منها ، وعزله عن امارة المنتفق • كما أنه صد هجمات الوهابيين ، الذين انطلقوا آنذاك من الجزيرة العربية وهددوا العراق تهديداً خطيراً • وفي عهده انحسر الخطر عن العراق من بلاد فارس التي عادت فعمتها الفوضى في الداخل ، ومكن هذا سليمان باشا من الانصراف الى الاصلاحات الداخلية ، فشجع الزراعة والبناء ، ورمم اسوار بغداد ، وحمى الكرخ بسور وخندق،وبنى مدرسة السليمانية، وجعل لها مكتبة ، ورمم عدة جوامع ، منها جوامع القبلانية ، والفضل ، والخلفاء[1] •

وتوالى على ولاية بغداد في الفترة بين وفاة سليمان باشا الكبير في١٨٠٢ ومجيء داود باشا ، الذي تمتع بشهرة كبيرة ، في ١٨١٦ ، اربع باشوات : علي باشا ، الذي اغتيل في ١٨٠٧ ، وكجك سليمان باشا (سليمان باشا الصغير) ، الذي قتله البدو في ١٨١٠ ، وعبد الله باشا ، الذي قتل في١٨١٣ ، ثم سعيد باشا ، ابن سليمان باشا الكبير ، الذي قتل هو الآخر في عام ١٨١٦• وبدل قصر عهد هؤلاء الباشوات ، والمؤامرات التي تعرضوا لها ، من قبل الانكشارية ، والاكراد ، والبدو ، والوهابيين ، الذين هاجموا كربلاء في ١٨٠٢ ، وسلطان استانبول ، على عدم استقرار الحكم المملوكي • وقد انشق المماليك على انفسهم ، والتمست بعض فئاتهم مساعدة بدو المنتفق ،كما حدث مثلاً مع سعيد باشا الذي دعمه المنتفق في الوصول الى الولاية • وقد استغل

---

١ ـ انظر حول الاحداث السابقة : العزاوي ، جـ ٥ ، ٢٨٣ ـ ٢٩٧ ، جـ ٦ ، ١٢ـ١٤٩ ؛ الكركوكلي ، ٩٧ـ٢١٨ ؛

Longrigg, 163-220; Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, 146-148; Mantran, 'Bagdad à l'époque Ottomane', 318-319; A.E. B[1] 85 : Alep, 26. 1. 48, 15. 2. 48, B[1] 97 : Alep, 15. 6. 87, *Bulletin de Bassora et de la Perse* (Alep, 13. 8. 87), *Bulletin* (Alep, 15. 12, 87).

السلطان العثماني محمود الثاني خلافات المماليك فتدخل ، في عام ١٨١٠ ، ضد كجك سليمان باشا ، بحجة تأخره في سداد الاموال الميرية ، وحاصرته حملة عثمانية ، فهرب ، وقتله البدو • ورغم ان عبد الله باشا الذي خلفه كان من المماليك فقد اعترف بسلطة استانبول ، خاصة بعد ان هدده فتح علي خان ، حاكم بلاد فارس[1] •

وكان آخر الولاة المماليك في العراق ، واطولهم مدة في الحكم ، داود باشا (١٨١٦ – ١٨٣١) ، الذي يعود اصله الى بلاد الكرج[2] • وقد ولد في تفليس في عام ١٧٦٧ ، وبيع مملوكاً في بغداد في عام ١٧٨٠ ، والتحق بمماليك سليمان باشا الكبير ، وشغل منصبي دفتردار وكاخيا قبل أن يعين ، في سن الخمسين ، والياً على بغداد • ويتميز حكم داود باشا بحادثين بارزين ، استئناف القتال مع فارس ، والغاء الانكشارية • وقد حدث في عهد فتح علي شاه حاكم فارس ان ابنيه ، عباس ميرزا حاكم ازربيجان ، الذي شجعته روسيا على مهاجمة الاراضي العثمانية في عام ١٨٢١ ، ومحمد علي ميرزا حاكم كرمنشاه ، الذي طمع بدعم اكراد شهرزور ، قد قاما بهجومين على العراق ، في اوائل العشرينات ، تحركهما المطامع الفارسية القديمة ، والنقمة على عدم صد سلطات بغداد الوهابيين اثناء هجومهم على كربلاء • وقد هزم داود باشا في قتاله مع الفرس ، ولم يتراجع محمد علي ميرزا عن احتلال بغداد الا بعد ان تفشى الطاعون بين قواته • وفي ١٨ تموز ١٨٢٣ وقعت معاهدة أرضروم ، بين والي بغداد وسلطات فارس ، واعترف بموجبها بالحدود التي كانت سائدة زمن السلطان مراد الرابع • أما الحادث الثاني فهو الغاء الانكشارية في بغداد ، اثر الغاء محمود الثاني لها في استانبول في عام ١٨٢٦ ، واقامة جيش مدرب على النظام الحديث • وقد استفاد داود باشا من ذلك ، لأنه حول ولاء الجيش الجديد له ، بعد أن كان ولاء

---

١ – انظر حول حكم هؤلاء الولاة : العزاوي ، جـ ٦ ، ١٤٩–٢٣٦؛ الكركوكلي، ٢٢١–٢٧٥ •
وانظر ايضاً : Longrigg, 221-238

٢ – انظر حول أصل داود باشا ، وسيرته ، والرسائل التي ارسلها باللغة الكرجية الى أمه المقيمة في تفليس ، إلى عام ١٨٢١ ، يوسف عز الدين ، داود باشا ونهاية المماليك في العراق ، بغداد ، ١٩٦٧ ، ص ٢٣ – ٦٣ •

الانكشارية ، الذين جندوا محلياً ، منصباً على المصالح المحلية • وعزز هذا الامر نفوذ داود باشا ، كما انه زاد من مخاوف السلطان ، الذي خشي قيام « محمد علي » آخر في الجزء الشرقي من امبراطوريته ، وهذا ما جعله أكثر تصميما للقضاء عليه • وازداد في عهد داود باشا الاتصال مع اوروبا ، وبالتالي رسوخ النفوذ الاوربي في العراق • وكان هذا بالضرورة تجاريا ، ونشط فيه الانكليز ممثلين بشركة الهند الشرقية وكذلك الفرنسيون ، واعتمد هؤلاء على خطين من المواصلات مع الساحل السوري : خط البصرة ـ بغداد ـ الموصل ـ حلب ـ الاسكندرونة ، وهو أكثر أمناً من الخط الآخر الذي انطلق من البصرة ـ بغداد ـ دمشق ـ صيدا • ونشطت أيضاً الرهبنات الفرنسية والايطالية ، وازداد عدد الرحالة ، ومعظمهم من التجار • ومن ابرز المقيمين الاجانب في بغداد الذين كتبوا عنها : روسو (Rousseau) ، الذي شغل منصب القنصل الفرنسي في البصرة في ١٧٨٠ وفي بغداد في ١٧٩٦ ـ ١٧٩٨ ، والانكليزي ريتش (Rich) ، الذي عين مقيما بريطانيا في بغداد في ١٨٠٨ •

واستدعى داود باشا خبراء فرنسيين من اشهرهم ديفو (Devaux) مساعد نابليون بونابرت سابقاً ، لتدريب الجيش الذي بلغ تعداده عشرين الفا ، وفنيين اوربيين لتحسين مستوى الصناعات المحلية ، والزراعة • وبنى داود باشا عددا من الجوامع اهمها جامع حيدر خانه ، وجامع ومدرسة آصافيا ، وكذلك بنى سوقاً وقصراً • وشجع العلم والعلماء ، وأمر الشيخ رسول الكركوكلي بتأليف كتابه : دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء[١] •

وقد صاحب احياء قوة المماليك في بغداد ، في عهد داود باشا ، نشاط محاولات الاصلاح في الامبراطورية العثمانية بمبادرة السلطان محمود الثاني • وكان لا بد ان يوجه هذا الاخير جهوده للقضاء على مراكز القوة سواء في العراق أو مصر • وزاد في العداء بين الطرفين رفض داود باشا

١ ـ انظر : دوحة الوزراء ، ص ١٢ •

الاسهام ماليا في حرب الدولة العثمانية مع روسيا في ١٨٢٨ – ١٨٢٩ ، كما ان السلطان محمود الثاني رفض طلب داود باشا اعطاءه الموصل • وارسل السلطان محمود الثاني الدفتردار صادق افندي لفرض النفوذ العثماني في بغداد ، فقتله اتباع داود باشا في ١٨٣٠ • وأمر السلطان والي حلب علي رضا باشا بقيادة حملة على بغداد ، وحاصرها مدة تسعين يوما انتشرت خلالها المجاعة والطاعون فيها ، ثم فتح سكانها الجائعون الباب الشرقي من المدينة ، فدخلها في ١٧ ايلول ١٨٣١ ، وقتل المماليك ، ولكنه ابقى على داود باشا ، الذي اقتيد الى استانبول ، وتقلد بعض المناصب حتى وفاته في المدينة المنورة في عام ١٨٥١ • وهكذا انتهى حكم المماليك في بغداد الذي اعطاها دورها السياسي والاداري ، وفرض هيبة والي بغداد على القبائل البدوية والكردية ، واخضع لبغداد البصرة وشهرزور وكردستان ، وشجع الاقتصاد والعمران • ويذكر ان عدد السكان في بغداد ارتفع من مائة الف في عام ١٨١٦ الى مائة وعشرين ألفاً في عام ١٨٣٠ • وسلمت العراق ، في عهد المماليك ، من الوقوع بأيدي الدول المتعاقبة على بلاد فارس ، وحمى ذلك منطقة بلاد الشام بكاملها[1] •

وتلا الاطاحة بحكم المماليك في بغداد القضاء على حكم آل الجليلي في الموصل ، وذلك في عام ١٨٣٤ • وكان الجد الاكبر لهذه الاسرة ، عبد الجليل ، من اصل مسيحي ، وقد خدم عند احد ولاة الموصل ، واصبح أبناؤه من بعده مسلمين • ومن الرواة من أرجع أصل هذه الأسرة الى ديار بكر وأنها أتت الى الموصل في عام ١٦٠٠ • ولكن الثابت أن اسماعيل بن

---

١ – أنظر حول حكم داود باشا : عثمان بن سند البصري ، مطالع السعود في أخبار أعلم الوزراء وأعظمهم داود ، ٣٩٥ ص . مخطوط في المتحف العراقي ببغداد برقم ٢٣٣ • انتهت كتابة المخطوط في ١٢٤٨ هـ ، وتاريخ النسخة المستعملة هنا ١٣٦٢ هـ • وقد اختصر هذا الكتاب الذي أشير اليه بعنوان : مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود ، الشيخ أمين بن حسن الحلواني المدني ، تحت عنوان : خمسة وخمسون عاما من تاريخ العراق ، ١١٨٨ – ١٢٤٢ هـ ، القاهرة ، ١٣٧١ ؛ وانظر أيضا حول تاريخ داود باشا : الكركوكلي ، ٢٧٥–٣٠١؛العزاوي ، ج ٦ ، ٢٣٦–٣٣١ ؛ وانظر أيضا :
Longrigg, 239-276; Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, 247-249; Mantran, 'Bagdad à l'époque Ottomane', 320-321.

عبد الجليل ، مستفيدا من ثروته وشعبيته وقوة شخصيته ، توصل الى ان يصبح واليا على الموصل في عام ١٧٢٦ • وتمكن ، مع احفاده من بعده ، من المحافظة على كيان ولاية الموصل في وجه الاخطار من بلاد فارس ومن الاكراد ، وبقيت اسرته بدون منافس محلي لاكثر من قرن • ولكنها لم تحكم الولاية بشكل مستمر اذ تخلل حكمها فترات شغلها حكام عثمانيون في محاولة لفرض نفوذ استانبول • واعقب اسماعيل في الولاية ابنه حسين ، الذي عين على الموصل ثمان مرات ، في الفترة بين ١٧٣٠ و ١٧٥٩ • وقد صد ، ابان ولايته ، في أواخر عام ١٧٤٣ ، هجوم نادر شاه على الموصل ، وتدعم ، بنتيجة ذلك ، نفوذ اسرة الجليلي • وعين امين ، ابن حسين باشا ، واليا على الموصل في عهد ابيه ، واحيانا بالتناوب معه ، وشغل منصب الوالي ست أو سبع مرات • وتلاه في الولاية ابنه محمد ، الذي حكم الموصل ثمانية عشر عاما ، بين ١٧٨٩ و ١٨٠٧ • وقضي على آخر الولاة من آل الجليلي ، ويدعى يحي ، في عام ١٨٣٤ • وتعزز الوجود العثماني في الموصل ، كما في بغداد ، بعد ذلك •

ورغم ان مركز الثقل والاهتمام في العراق كان بغداد ، في عهد المماليك ، مما غطى على صورة آل الجليلي في الموصل ، فان هؤلاء لعبوا دوراً هاماً في الدفاع عن الموصل ، خاصة ضد حكام بلاد فارس • كما أنهم مارسوا نفوذا اكبر من نفوذ ولاة بغداد في شؤون الامبراطورية العثمانية فاشتركوا في حروب الدولة العثمانية ، وشغلوا وظائف هامة خارج الموصل ، وكثيرا ما قاموا بزيارة استانبول • وتبقى اهمية آل الجليلي في كونهم جزءا من ظاهرة عامة شملت الولايات العربية ، وغيرها ، في القرن الثامن عشر ، وتعبيرا عن ازدياد النفوذ المحلي ضمن الاطار العثماني [١] •

---

١ ـ انظر حول حكم آل الجليلي : ياسين بن خير الله الخطيب العمري ، منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء ، حققه ونشره سعيد الديوهجي ، الموصل ١٩٥٥ ، ص ٨١ـ٨٨، ١٧٨ـ١٩٣ ؛ وانظر ايضا : ما كتبه العزاوي في الجزاين الخامس والسادس من كتابه: العراق بين احتلالين ؛ وانظر كذلك : القس سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ، في جزاين ، القاهرة ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ ، الجزء الاولى ، ص ٢٧٣ ـ ٣٠٩ ؛ وانظر :
Longrigg, 149-152, 158, 210, 285

الامارات العربية في الجزيرة العربية والخليج

دولة واحدة غير عربية مارست نفوذا في الجزيرة العربية في مطلع القرن الثامن عشر ، وهي الامبراطورية العثمانية التي اعتبر سلطانها حامي الحرمين الشريفين في الحجاز ، منذ فتح السلطان سليم الأول الشام في عام ١٥١٦ • وتنازع على الشرافة ، منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين ، ثلاث أسر : ذوو زيد ، وذوو عبد الله ، وذوو بركات ، وجميعهم ينحدرون من ابي نمي الثاني بن بركات ، الذي ينحدر من قتادة بن ادريس ، مؤسس آخر سلالة من الاشراف[١] •

وقد ازداد عدد الامارات المستقلة في الجزيرة العربية ، في القرن الثامن عشر ، وخاصة في المناطق الشرقية • فالى جانب الائمة الزيديين الذين حكموا مستقلين في اليمن ، بعد ان طردوا العثمانيين منها في النصف الاول من القرن السابع عشر[٢] ، كانت السلالة المكرمية الاسماعيلية المتطرفة مسيطرة على وادي نجران ، قرب الحدود الشمالية لليمن • ولو استعرضنا المناطق الشمالية الشرقية من الجزيرة ، بدءا من الاحساء ، لوجدنا ان هذه الاخيرة كانت ولاية عثمانية ، كما سبقت الاشارة الى ذلك[٣] • وكان ولاتها في صراع مستمر مع قبيلة بني خالد التي كثيرا ما حرضها على ذلك ولاة البصرة • وقد سيطر بنو خالد على الاحساء ، ثم انتزعها منهم السعوديون الوهابيون في العقد الاخير من القرن الثامن عشر كما سنرى بعد قليل •

ويذكر انه في أواخر القرن السابع عشر اتحد عدد من القبائل العربية ، تحت اسم العتُب (وهي من كلمة عتب العربية ، أي تنقّل) ،

١ ـ أنظر : G. Rentz, *E.I.²*, s.v. Barakàt

٢ ـ أنظر ص ١٨٣ •

٣ ـ أنظر ص ١٠١ •

وانتقلوا من القسم الجنوبي من وسط الجزيرة ، بسبب الجفاف ، الى شواطىء الخليج العربي ، حيث تفرقوا ، ثم التقوا عند الكويت (وهي تصغير كوت ، وتعني الحصن الصغير) ، حيث شكلوا،في حوالي منتصف القرن الثامن عشر، كتلة مستقلة عن بني خالد• واشتهر بين المتحالفين العتب آل الصباح، وآل خليفة• وأصبح آل الصباح حكام الكويت في حوالي عام ١٧٥٠• وفي أواخر القرن الثامن عشر توطدت مشيخة الكويت،واسهم اسطولها في نقل البضائع في الخليج• وكان على الكويت في القرن الثامن عشر ان تتخذ موقفا بالنسبة للانكليز ، الذين حلوا محل البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين ، وسيطروا في الخليج[1] ، وبالنسبة للوهابيين ، والعثمانيين ، وحكام فارس • وقد ساعد الانكليز آل الصباح في صد الوهابيين عنهم في عام ١٧٩٥ •

وقد خضعت البحرين في القرن السادس عشر الى البرتغاليين ، ثم الى الذين حلوا مكانهم ، أي الهولنديين ، والفرنسيين ، والانكليز • وكان آل خليفة يعيشون في الكويت ، مع العتب الآخرين ، واستمروا فيها حتى عام ١٧٦٦ ، حين هاجروا الى قطر ، واقاموا في زبارة ، في قطر • وكانت البحرين آنذاك تحت حكم قبيلة عمانية أقام شيخها نصر آل مذكور في بوشير ، على الساحل الفارسي من الخليج • ونشأت منافسة بين العتب (في كل من الكويت وزباره) ، وبين شيخ بوشير ، الذي هاجم زباره مرتين ، في ١٧٧٨ و ١٧٨٢ • ورد عتب الكويت بمهاجمة البحرين واحتلالها في تشرين الثاني ١٧٨٢ ، وانتقل اليها آل خليفة ، وجعلوها مركز حكمهم• ومنذ هذا التاريخ لم يخضع أي جزء من الجزيرة العربية الى الاحتلال الفارسي • وشاركت البحرين في القرصنة في الخليج ، فتدخل الانكليز في شؤونها بحجة منع القرصنة ، واضطر شيخ البحرين الى توقيع معاهدة سلام مع الانكليز في عام ١٨٢٠ ، ووقعت الامارات الاخرى في الخليج ،

---

١ ـ انظر حول النفوذ البريطاني في منطقة الخليج العربي في القرن الثامن عشر :
A. Wilson, *The Persian Gulf*, London, 1954, pp. 171-191.

التي عرفت بالامارات المتصالحة ، مثل هذه المعاهدات التي كانت تعدل باستمرار . وقد رفضت بريطانيا ادعاءات العثمانيين بحق السيادة على البحرين .

هجر آل خليفة زباره ، في أواخر القرن الثامن عشر ، بعد انتقالهم الى البحرين ، بسبب هجمات الوهابيين المتكررة عليها ، وحاول آل خليفة بعد ذلك العودة الى زباره ، بسبب أهميتها الاستراتيجية لهم ، ولكن قبائل أخرى أخذت تنافسهم في قطر . واشتهر بين هذه القبائل آل ثاني ، الذين حكموا احياناً في زباره ، واحيانا في الدوحة ، وخضعوا لنفوذ آل خليفة لبعض الوقت ، ولم يستقلوا عنهم حتى أوائل السبعينات من القرن التاسع عشر ، حين اعاد العثمانيون سيطرتهم على ساحل الخليج العربي ، وبعثوا ولاية الاحساء من جديد . ولكن سلطة الوالي العثماني بقيت اسمية[1] . وقد سبق القول أن العثمانيين ، بعد فتح قناة السويس ، قد فرضوا نفوذهم من جديد على سواحل اليمن[2] .

وقد سيطر ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، على الشاطىء المتصالح ، الذي قامت فيه مشيخات ابي ظبي ، ودبي ، والشارجة ، ورأس الخيمة ، وفجيرة ، وأم القيوين ، وعجمان ، قبائل القواسم . ولكن بريطانيا ، ممثلة بشركة الهند الشرقية ، بدأت منذ الربع الاول من القرن التاسع عشر ، بمهاجمة هذه المشيخات ، الواحدة تلو الاخرى ، وتوقيع المعاهدات معها . وهكذا فالشاطىء المتصالح الذي كان متحداً في ظل القواسم ، بدأ ينقسم الى وحدات سياسية في ظل بريطانيا[3] .

وكانت عمان مركز الاباضيين الذين يؤمنون بعودة الحكم الى الشورى ، وكانوا استمراراً للخوارج ، وقد اقاموا فيها في القرن الثاني

---

١ ـ أنظر حول التطورات السابقة :
Ahmad Abu-Hakima, 'The Development of the Gulf States', in *The Arabian Peninsula : Society and Politics,* ed. D. Hopwood, London, 1972, pp. 32-3,40-6; G. Rentz and W. E. Mulligan, *E.I.²*, s.v. al-Bahrayn.

٢ ـ أنظر ص ١٨٣ .

٣ ـ انظر : Abu-Hakima, 'The Development of the Gulf States', 47-8.

للهجرة دولة عرفت باسم امامة عمان • وتعرضت عمان منذ عام ١٥٠٧ الى غزوات البرتغاليين الذين استقروا على الساحل ، وقاومهم العثمانيون والقبائل المحلية ، واستمر نفوذهم في المنطقة حتى منتصف القرن السابع عشر • وقد انتخب احد افراد قبيلة اليعاربة اماما لعمان في عام ١٦٢٤ ، وبدأ بذلك حكم اليعاربة ، الذين وحدوا البلاد من ورائهم وطردوا البرتغاليين ، وسيطروا على التجارة في بحر العرب • وتعزى هزيمة البرتغاليين الى ضعف مواردهم ، ومنافسة القوى الاوروبية لهم ، وعداء العمانيين الشديد لهم ، ومقدرة هؤلاء البحرية ، اذ كانوا يأسرون السفن أو يشترونها ، ويستخدمون البحارة الاوروبيين ، واحيانا الاسرى البرتغاليين ، في ادارة سفن الامام • واذا اضفنا الى ذلك المساعدة العسكرية التي قدمها الهولنديون والانكليز الى العمانيين ادركنا اسباب قوة الاسطول العماني وسيطرته على بحر العرب •

وتعرضت امامة اليعاربة ، في أواخر عهدها ، الى ما يشبه الحرب الأهلية بين القبائل في عمان ، دامت من ١٧١٩ الى ١٧٢٨ • وفي عام ١٧٤٣ انتقلت الامانة الى قبيلة أخرى من آل بو سعيد • وانصرف أئمة هذه الاسرة ، كسابقيهم من اليعاربة ، الى التجارة البحرية والمغامرات الخارجية الى حد انهم تخلوا ، بعد فترة ، عن الامامة • وبدأ الانقسام في اسرة بو سعيد عام ١٧٨٦ حين استغل حمد ، ابن الامام الحاكم سعيد بن احمد ، نقمة القبائل على ابيه ، فاستولى على جزء كبير من البلاد لنفسه ، وجعل عاصمته في مسقط على الساحل ، بعيدا عن نزوة ، المقر التقليدي للامامة في الداخل ، وعن رستق ، مركز الامامة زمن اليعاربة • ويدل نقل العاصمة الى مسقط على ازدياد الاهتمام بالبحر دون البر ، كما انه يؤكد الاهتمامات التجارية والاسس العلمانية لامارة حمد ، خاصة وانه ترك اباه يمارس الامامة ويقيم في رستق • ولم يقم حمد بمحاولة لتنصيب نفسه اماما ، وحين توفي في ١٧٩٢ استولى عمه ، سلطان بن احمد ، على مسقط ،

وتوصل في العام التالي الى اتفاق مع اخويه ، بحيث احتفظ لنفسه بمسقط ، واحتفظ أخاه سعيد بالامامة في رستق • وهكذا أصبح هناك مركزان للسلطة في عمان ، وعرف حاكم مسقط بلقب سيد ، (ولم يقصد بهذا شرف النسب) ، ثم سلطان ، وحاكم رستق بلقب امام [1] •

وكانت الوهابية من ابرز حركات التحدي للعثمانيين التي ظهرت في الجزيرة العربية ، بل في العالم الاسلامي ، في القرن الثامن عشر • وتأتي أهميتها من انها ظهرت في الوقت الذي ظهرت فيه مظاهر التحدي السياسي للعثمانيين في بقية الولايات العربية ، ومن انها تحدت زعامة العثمانيين للعالم السني ، وكذلك من انها قامت في منطقة عربية ، تعتبر مهد الاسلام الاول ، ودعت الى العودة بالاسلام الى صفائه الاول ، عندما كان بأيدي العرب • ولم تكن الوهابية حركة محلية ، فقد حاولت نشر دعوتها بالقوة في العراق وبلاد الشام ، كما انها لعبت دوراً هاماً في تطور الفكر الاسلامي الحديث •

وكانت الجزيرة العربية ، عشية ظهور الوهابية ، تمزقها النزاعات القبلية ، والعداء بين البدو وسكان المدن • وحاول عدد من القبائل ومن المدن الابقاء على استقلاله • وبالنسبة لنجد فقد كانت ناشطة تجاريا بسبب مرور الحجاج من شواطىء الخليج العربي عبرها الى الحجاز ، وكذلك مرور الطريق المتجه من بلاد الشام ، عبر وادي سرحان ، الى جبل شمر في المنطقة الشمالية منها • وبرزت في نجد اسر مستقلة عمليا ، مثل اسرة سعود التي تمركزت في وادي حنيفة ، وجعلت مقرها مدينة الدرعية، واسرة ابن معمر التي كان مقرها مدينة العيينة •

---

١ ــ انظر حول تطور عمان :

J. C. Wilkinson 'The Origins of the Omani State,' pp. 67-88, R.D. Bathurst, 'Maritime Trade and imamate government : Two principal themes in the history of Oman to 1728', pp. 89-106, J. B. Kelly, A Prevalence of Furies : Tribes, Politics, and Religion in Oman and Trucial Oman', pp. 107-141, in *The Arabian Peninsula : Society and Politics;* see also G. Rentz, *E.I.²*, s.v. Djazirat al-'ARAB'

وقد نشأت الوهابية بين سكان المدن ، وينحدر مؤسسها محمد بن عبد الوهاب من اسرة قضاة حنابلة متوارثين في العيينة ، حيث ولد في عام ١٧٠٣ • وقد درس في الحجاز وفي البصرة ، ولاحظ في تجواله مظاهر الوثنية تعود من جديد • ولم يتح له زيارة دمشق ولكنه تأثر كثيرا بتعاليم فقيهها ابن تيمية ، الذي عاش فيها ، ابان السلطنة المملوكية ، في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ، ودعا الى العودة الى ممارسة الاسلام ، كما في عهده الاول • ولم يجد ابن تيمية اتباعا له الا بين الحنابلة ، ولا تلميذاً يتبنى تعاليمه غير محمد بن عبد الوهاب • وقد لقيت دعوة ابن عبد الوهاب ، وحكمه في رجم زانية ، وامره بمسح قبر زيد بن الخطاب ، الذي سقط في القتال ضد مسيلمة الكذاب ، معارضة من قبل ابيه ، وابناء بلدته ، وقبيلة بن خالد في الاحساء ، التي كانت تمد امراء الداخل بالمال • ثم طرد محمد من العيينة في ١٧٤٤ ، بعد وفاة ابيه بثلاث سنوات ، واتجه نحو الدرعية ، حيث حظي بحماية اميرها محمد بن سعود • ومن التعاون بين الاثنين انبثقت الدولة الوهابية السعودية ، التي وحدت بين آل سعود وآل الشيخ (وهي التسمية التي عرف بها احفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب) •

لقد دعا محمد بن عبد الوهاب الى نبذ البدع ، واهمها تقديس الاولياء ، وزيارة قبورهم ، وكذلك زيارة الاشجار المقدسة وهي عادة وثنية ، ومن هنا دعوته الى قطع هذه الاشجار • وقد منع كل وساطة بين الله والمؤمن ، وحرم التدخين ، الذي ساواه بشرب الخمر[1] • وبايجاز ، كانت الوهابية طريقة في الحياة تلتزم بمبادىء الاسلام الاول ، وتضع وحدانية الله فوق كل شيء •

وقبل ان تنطلق الوهابية الى نشر دعوتها في اطراف الجزيرة

---

١ ـ وكان مفتي دمشق الشيخ عبد الغني النابلسي ، (١٦٤١ـ١٧٣١)، وهو أحد كبار الصوفية فيها ، قد اصدر قبل سنوات بحثاً بعنوان: الصلح بين الاخوان في حكم اباحة الدخان ، مخطوط في المتحف البريطاني ، بلندن ، برقم Add. 19, 547

وخارجها ، حاولت أن تسيطر على نجد والمناطق المجاورة . فسيطرت أول الأمر ، في ١٧٥٠ ، على العينة ، التي كان أميرها عثمان بن معمر ، ثم اصطدمت بامير الرياض ، ودام الصراع بين الطرفين من ١٧٤٦ الى ١٧٧٣، حين هزم امير الرياض . وفي عام ١٧٦٥ هزمت قبائل نجران ، بقيادة امير اسماعيلي الوهابية ، التي وقعت معها صلحاً . ثم التفت الوهابيون الى زعيم بني خالد ، الذي سار نحو الدرعية ، ولكنه لم يحرز أي نجاح ، وعاد ادراجه الى الاحساء . وتوفي في هذا العام محمد بن سعود ، وخلفه ابنه عبد العزيز ، وفي عهده سقطت الرياض ، واستسلمت حائل في ١٧٨٧ ، وتوطدت نهائيا سيطرة الوهابيين في نجد ، وبدأت المرحلة الثانية من توسعهم خارجها .

وقد شن الوهابيون عدة هجمات على منطقة الاحساء ، وهزموا بني خالد في١٧٩٢–١٧٩٣،ونصبوا اميراً سعودياًفيها،بعد اندمروا الاماكنالشيعية في القطيف ، وسيطروا على البحرين والبريمي . ومما ساعد على قبول الوهابية في سواحل الخليج العربي وجود عدد من السكان الحنابلة فيها . ثم تحولوا نحو الحجاز ، حيث سيطر امير مكة ، غالب بن مساعد ، وبدأ بشن هجماته على الوهابيين ، دينيا وعسكريا . ودام الصراع بين الطرفين حتى عام ١٨٠٣ حين دخل الوهابيون مكة ، وبعد عامين دخلوا المدينة ، واحتلوا كذلك عسير ، وانطلقوا منها الى تهامة على ساحل البحر الاحمر ، حتى وصلوا الى مواني اليمن . ولكنهم لم يتوغلوا في اليمن ، حيث سيطر الائمة الزيديون . ورغم الحملات التي قام بها الوهابيون في حضرموت ، لم ينجحوا في اخضاعها الى نفوذهم . وكذلك فشل الائمة الزيديون في اخضاع حضرموت لهم .

وكان محمد بن عبد الوهاب قد توفي في عام ١٧٩٢ ، وخلف وراءه أربعة أبناء برزوا في الفقه ، وعدداً كبيرا من التلاميذ تبنوا نشر الوهابية . وقد شهد قبل وفاته تحقيق حلمه في اقامة دولة دينية ، كما انه اسهم في اعطاء هذه الدولة صفتها السلالية السعودية حين انتزع من الولايات

الخاضعة للوهابيين في ١٧٨٨ يمين الولاء لابن عبد العزيز ووريثه ، الامير سعود .

وكان اول رد فعل عسكري عثماني على الوهابيين دعم والي بغداد ، سليمان باشا الكبير ، في عام ١٧٩٧ ، قبائل المنتفق ، بقيادة تويني ، لمقاومة الوهابيين . ولكن اغتيال تويني اخاف بني خالد الذين ايدوه ، وفشلت الحملة . ونظمت حملة اخرى في العام التالي ، ولكنها فشلت بدورها . وفي عام ١٨٠٢ غزا الوهابيون كربلاء ، وهاجموا في العام التالي النجف ، وكذلك في عام ١٨٠٦ ، ولكنهم لم يستقروا فيها . وقامت كذلك جيوشهم بالتوغل في بلاد الشام الجنوبية ، وهددت دمشق ، ومنعت قافلة الحج الشامي ، في عام ١٨٠٧ ، وفي الاعوام الثلاثة التالية ، من دخول الحجاز . وهكذا فشل ولاة دمشق ، ومن قبلهم ولاة بغداد ، في فرض الهيبة العثمانية في وجه الوهابيين ، فوقع اختيار السلطان العثماني على محمد علي باشا ، حاكم مصر ، الذي هزم الوهابيين ، واحتل عاصمتهم الدرعية ، في عام ١٨١٨ . وانتقل ، اثر ذلك ، مركز الدولة الوهابية الى الرياض، التي اصبحت منذئذ عاصمة هذه الدولة ، التي عادت الى الازدهار في ظل الأسرة السعودية[١] . ومما يجدر ملاحظته أن التدخل الخارجي ، الاسلامي والاوربي ، في الجزيرة العربية ، في القرن التاسع عشر ، كان اقوى من ذي قبل . فالى جانب التدخل المصري ـ العثماني العنيف شدد الانكليز قبضتهم على السواحل الجنوبية والشرقية في الجزيرة ، واحتلوا في عام ١٨٣٩ عدن .

---

١ ـ انظر حول التطورات السابقة :

Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, 149-155, 179-180; G. Rentz, 'Wahhabism and Saudi Arabia', in *Studies on Modern Asia and Africa*, 54-66;

وانظر : لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب (مجهول المؤلف) ، تحقيق أحمد أبو حاكمة ، بيروت ، ١٩٦٧ ؛ عثمان بن بشر ، عنوان المجد في تاريخ نجد ، في جزئين، الرياض ١٣٨٥ هـ . محمد بن عبد الله الانصاري الاحسائي ، تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد ، في قسمين ، الرياض ١٩٦٠ ، ١٩٦٣ .

وربما تبادر الى الاذهان ، في مجال توسع الوهابية ، التساؤل عن موقف حنابلة دمشق ، مثلا ، من الوهابيين الحنابلة الذين هددوا مدينتهم • من المعروف أن حنابلة دمشق ، في القرن الثامن عشر ، كانوا قلة اذا ما قورنوا باصحاب المذاهب الاخرى • وتعود اصول معظمهم الى نابلس او بعلبك ، اي الى مناطق ريفية ، وقد انسجموا مع اصولهم هذه فسكنوا الصالحية خارج المدينة • ولم يكن اختلاف المذاهب في دمشق هاما من الناحية السياسية او الاجتماعية • وقد عرف عن حنابلة دمشق تساهلهم وتبنيهم الطرق الصوفية ، مثل الخلوتية والقادرية ، كما انهم خضعوا للسلطة العثمانية التي كثيرا ما تدخلت في تعيين المفتين الحنابلة • وقد اندمج الحنابلة في مجتمع دمشق ، ورضوا بالوجود العثماني ، وتأقلموا معه وتعايشوا مع الصوفية ، واستخدموا التعاويز والتمائم ، ولم يهتموا بوهابية الجزيرة ، رغم انهم تمسكوا احيانا ببعض المبادىء المتطرفة كتحريم التدخين[1] • ولم يشكلوا على اية حال دعماً للوهابية •

واذا كانت الوهابية قد فقدت الكثير من نفوذها السياسي في القرن التاسع عشر ، فان تأثيراتها كانت بادية في الطرق الصوفية التي نشأت في ذلك القرن ، والتي تخلصت من كثير من العادات الصوفية البالية ، وتبنت ممارسات أنقى • وتجلى هذا في الطريقة السنوسية التي انتشرت في برقة ، وفي الطريقة الختمية ، وكذلك بين انصار المهدي ، في السودان • وتأثر أيضاً • المفكرون المسلمون ، في القرن التاسع عشر،الذين عرفوا بالسلفية ، بتعاليم الوهابية[2] •

---

١ ـ انظر الدراسة التالية الهامة في هذا المجال :

John Voll, 'The Non-Wahhabi Hanbalis of Eighteenth-Century Damascus', in *Der Islam,* Vol. 49 (2), Nov., 1972, pp. 277-291.

٢ ـ انظر : Holt, *Egypt and the Fertile Crescent,* 155

ذروة النفوذ المملوكي في مصر

اختلفت صورة الاحداث في مصر ، في القرن الثامن عشر ، عنهـا في بلاد المشرق العربي بسبب اختلاف نوعية الفئات المتصارعة على النفوذ في كل منهما • ومع ذلك ، فاننا نرى في مصر تأكيـداً للنفوذ المحلي تجـلى بازدياد سلطة المماليك • ويجب التأكيـد ان لا علاقـة بين مماليك مصر ومماليك العراق ، او مماليك الجزار ، الا من حيث تشابه نوعية التجنيد ، والولاء للسيد ، والطموح للسلطة السياسية • وكان المماليك في العراق والشام ظاهرة طارئة دامت لفترة ثم زالت ، بينما لعب المماليك دورا هاما في مصر ، منذ الفتح العثماني ، وقاموا بعدة محاولات لاحتكـار السلطـة في مصر الى ان نجحوا في القرن الثامن عشر •

وكنا رأينا في نهاية الفترة السابقـة من تـاريخ ولايـة مصر[1] كيف قضي نهـائيـاً على نفوذ القاسميـة في سنة ١٧٣٠ وسيطر الفقـاريـة • ولكن صراعاً دب الآن بين الفئات المتنافرة ضمن الفقارية ، وهي البيوتات العسكرية والمماليك ، وذلك بعد أن زال العدو المشترك الذي وحد صفوفهم • وتمت السيطرة للمماليك الذين سرعان ما انقسموا بدورهم الى طوائف متنافرة • وظهر بنتيجة هذا الصراع علي بك الذي وصل نفوذ المماليك في عهـده الى الذروة • واستغل علي بك ضعف السلطة العثمانية وازدياد قوته فـاحتلت قواته الحجاز وبلاد الشام الجنوبية ، بما فيها دمشق ، وبقي مسيطراً الى أن قضى عليه مملوكه محمد بك أبو الذهب • ولم يطل حكم محمـد بـك اذ توفي وهو في أوج سلطته ، ونشب نزاع على السلطة بين مماليكـه وممـاليك علي بك • وانتهى الامر بزعامة مملوكية ثنائية تحدّت محاولات العثمانيين للاطاحة بها • وتركت مهمة القضاء على نفوذ المماليك الى الحملة الفرنسيـة

١ ــ انظر ص ٢٢٥ •

التي أتت الى مصر في ١٧٩٨ ، ومن بعدها الى محمد علي باشا الالباني .

ويمكننا ، والحالة هذه ، تقسيم تاريخ مصر في هذه الفترة الى ثلاثة أقسام : الصراع على النفوذ (١٧٣٠ ـ ١٧٦٠) ؛ فترة علي بك (١٧٦٠ ـ ١٧٧٣) ؛ سيطرة أبي الذهب والحكم الثنائي (١٧٧٣ ـ ١٧٩٨) .

الصراع على النفوذ في مصر (١٧٣٠ ـ ١٧٦٠) . ـ اشتهر في مصر ، اثر القضاء على القاسمية ، كل من محمد بك قطامش وتابعه علي بك قطامش ، وعلي بك ذو الفقار وعثمان بك ذو الفقار ، بالاضافة الى عدد من القازدغلية من بينهم عثمان وعبد الله وسليمان وحسن . ويتبين لنا من هذه الاسماء وجود ثلاث كتل متنفذة . وكان أبرز هذه الكتل الآن كتلة محمد بك قطامش وعلي بك قطامش اللذين عينا في ١١٤٥/١٧٣٢ ، الاول دفترداراً والثاني أمير حج . وفي صفر ١١٤٦/ تموز ١٧٣٣ عين محمد بك قطامش قائم مقام ، وكان صاحب الامر والنهي في مصر[1] ، وأطلق عليه لقب شيخ البلد[2] ، أي كبير البكوات وصاحب السلطة الفعلية في القاهرة . وفي جمادي الثاني ١١٤٩/تشرين الاول ١٧٣٧ عين محمد بك قطامش أميراً على الحج[3] . وقد حدثت في رجب ١١٤٩/ تشرين الثاني ١٧٣٧ فتنة في القاهرة بسبب طلب شخص يسمى صالح كاشف الحصول على الصنجقية ، وكان يؤيده عثمان بك ذو الفقار . ولكن محمد بك قطامش شيخ البلد وكبير القوم (وهذا تعبير أقل استعمالا من تعبير شيخ البلد) ، رفض ذلك بحجة ارتباط صالح كاشف ببقايا القاسمية عن طريق زوجته ، وخوفاً من اعادة نفوذ القاسمية . واتفق صالح كاشف مع عثمان كاخيا القازدغلي وغيره على التخلص من محمد بك قطامش وتابعه علي بك قطامش ، وأيدهم الباشا في ذلك . وبالفعل تم قتل الاثنين ومعهما عدد من الاتباع[4] . وضعف بذلك نفوذ

---

١ ـ انظر : مصطفى القينلي ، ١٧٥ ب ، ١٧٩ آ ؛ الدرة المنصانة ، ١٢٠ ب ـ ١٢١ آ ؛ أحمد شلبي ، ٢٣٨ آ ، ٢٤١ آ ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ١٤٦ .

٢ ـ الدرة المنصانة ، ١٢٣ ب .

٣ ـ المصدر السابق ، ١٢٦ ب ؛ أحمد شلبي ، ٢٥٧ ب .

٤ ـ انظر حول هذه الفتنة : أحمد شلبي ، ٢٥٨ آ ـ ٢٦١ آ ؛ مصطفى القينلي ، ١٨٤ ب ـ ١٩٠ ب ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ١٤٨ ـ ١٥٠ ، ١٦٨ ـ ١٦٩ ، ١٧٨ .

الكتلة القطامشية • ودب الصراع الآن بين كتلة عثمان بك ذي الفقار الذي انفرد بزعامة الكتلة ، بعد وفاة علي بك ذو الفقار بالطاعون[1] ، وكتلة القازدغلية الذين تزعمهم ابراهيم جاويش القازدغلي •

وعين عثمان بك ذو الفقار أميراً على الحج في سنة ١١٥٠ / ١٧٣٧ ـ ١٨٣٨ ، وفشلت محاولة لاغتياله دبرها ، في هذه الاثناء ، حاكم مصر سليمان باشا العظم (١١٥٢ ـ ١١٥٣ / ١٧٣٩ ـ ١٧٤٠) ، بالاتفاق مع ابراهيم جاويش القازدغلي • وانتهت اليه بعد ذلك الرئاسة في مصر • واشتدت المنافسة بين عثمان بك ذي الفقار وابراهيم جاويش القازدغلي حول الرئاسة • وحدث نزاع بينهما حول ايجار احدى النواحي ، ثم تأزمت العلاقة بينهما بسبب دعم عثمان بك لهمام شيخ بدو هوارة الذي رهن احدى النواحي لدى ابراهيم جاويش القازدغلي ، ثم حاول التملص من الالتزامات المترتبة على ذلك • واستنجد ابراهيم جاويش بمؤيديه ، وهاجموا عثمان بك بعد أن تخلى عنه رضوان كاخيا الجلفي ، مؤسس احدى البيوتات العسكرية الصغيرة المعروفة بالجلفية ، وانضم الى صفوف معارضيه • وقد وقع القتل في أتباع عثمان بك ، ونهبت بيوتهم • وهرب عثمان بك الى الصعيد حيث التف حوله بقايا القاسمية اللاجئين هناك • وأرسل ابراهيم جاويش القازدغلي ورضوان كاخيا الجلفي حملة كبيرة الى الصعيد أرهبت عثمان بك فهرب ، وكان ذلك ، كما يبدو ، في أواخر ١١٥٦/أوائل ١٧٤٤، وتوجه نحو استانبول حيث بقي حتى وفاته في حوالي ١١٩٠/١٧٧٦-١٧٧٧ • وبلغ من أهمية عثمان بك ومن شدة المصيبة التي نزلت به حين اضطر للهرب أن الناس استخدموا سنة هربه لتأريخ حوادثهم[2] •

وازداد نفوذ الحليفين ابراهيم جاويش القازدغلي ورضوان كاخيا الجلفي اثر هرب عثمان بك • وحين شعرا بتآمر حاكم مصر محمد باشا

---

١ ـ الجبرتي ، جـ ١ ، ١٦٧ •

١ ـ انظر : مصطفى القينلي ، ١٩٢ ب ؛ الجبرتي ، جـ ١ ، ١٥٠ ـ ١٥٣ ، ١٧٨ ـ ١٨٤ ، ١٩١ ـ ١٩٢ •

راغب ضدهما ، جمعا أعوانهما وهاجما المتآمرين ، واضطرا الباشا الى اعتزال منصبه ومغادرة مصر في أواخر ١١٦١/أواخر ١٧٤٨[1] • وأصبحت الرئاسة بعد ذلك الى هذين الحليفين • وقلد ابراهيم جاويش القازدغلي ثلاثة من مماليكه رتبة الصنجقية ، وكان من بينهم علي آغا الذي عرف بالغزاوي (سمي بذلك بسبب هربه فيما بعد الى غزة) ، وحسين آغا الذي عرف بكشكش ، وأصبح لهذين شأن كبير فيما بعد • وقلد رضوان كاخيا الجلفي أيضاً ثلاثة من مماليكه رتبة الصنجقية •

وشغل ابراهيم جاويش القازدغلي ، في هذه الاثناء ، وظيفة كاخيا الوقت[2] في طائفة المستحفظان (الانكشارية) ، لمدة ثلاثة أشهر ، فأصبح يعرف بابراهيم كاخيا القازدغلي • واستكثر ابراهيم كاخيا من شراء المماليك ، وقلدهم المناصب العليا مثل امارة الحج • وطغى المماليك بالتدريج بين أفراد طائفة القازدغلية ، وأصبحت السيادة لهم في هذه الطائفة فيما بعد • وتوفي ابراهيم كاخيا القازدغلي في صفر ١١٦٨/تشرين الثاني ـ كانون الاول ١٧٥٤[3] •

بقي رضوان كاخيا الجلفي يتمتع بالرئاسة في مصر اثر وفاة ابراهيم كاخيا القازدغلي • ولكن سرعان ما ظهر ضعفه وعدم قدرته على الاحتفاظ بمركزه بسبب انصرافه الى الترف والبناء ، وأيضاً بسبب تحرك أعدائه ضده ومنافسة القازدغلية الأقوياء له ولاتباعه الجلفية • وتزعم المعارضة ضده مماليك ابراهيم كاخيا القازدغلي المتوفى • وفشل أحد زعماء القازدغلية ، ويسمى عبد الرحمن كاخيا ، في تسخير مماليك ابراهيم كاخيا لخدمته ودعم نفوذه لأن كلا منهم كان يطمح الى الرئاسة • وبقي القازدغلية متكتلين الآن لمقاومة رضوان كاخيا الجلفي وأتباعه • واشتبكوا معه أخيراً في القتال ،

---

١ ـ الجبرتي ، جـ ١ ، ١٥٣ ـ ١٩١ •
٢ ـ انظر ص ٢٢٤ ، هامش ١ •
٣ ـ الجبرتي ، جـ ١ ، ١٨٦ ، ١٩١ ـ ١٩٢ •

وتمكنوا من طرده من القاهرة ، وهرب باتجاه الصعيد • ثم توفي ولما تمض بعد ستة أشهر على وفاة شريكه ابراهيم كاخيا القازدغلي[1] •

واشتهر بعد وفاة رضوان كاخيا ثلاثة صناجق من أتباع ومماليك ابراهيم كاخيا القازدغلي ، وهم : عثمان بك الجرجاوي ، وعلي بك الغزاوي ، وحسين بك كشكش ، وقد تقلدوا الصنجقية حين كان ابراهيم كاخيا حياً • ومن مماليكه الذين نالوا الصنجقية بعد وفاته واشتهروا نذكر حسين بك الصابونجي وعلي بك الذي احتلت قواته فيما بعد بلاد الشام والذي عرف بالتركية بلقب بلوط قبان (Bulut Kapan ، أي قابض الغمام بسبب طموحه)[2]،وبلقب جنعلي (Cin ، Ali ، أي علي الشيطان)[3] • وقد تسلم الرئاسة في مصر ، في هذه الفترة ، عثمان بك الجرجاوي ، ثم حسين بك الصابونجي الذي حاول القضاء على زملائه لابعاد خطرهم عنه • ولكنهم تمكنوا من قتله في صفر ١١٧١ / تشرين الاول ــ تشرين الثاني ١٧٥٧ ، وتسلم الرئاسة بعد ذلك علي بك الغزاوي (ويسمى أيضاً علي بك الكبير نسبة للقب « كبير البلد » الذي حصل عليه[4] ، ويجب تمييزه عن علي بك بلوط قبان الذي احتلت قواته الشام وأشار اليه المؤرخون المتأخرون بلقب الكبير بسبب الشهرة التي وصل اليها وتحديه للسلطة العثمانية) •

وحاول علي بك الغزاوي القضاء على منافسه القوي عبد الرحمن كاخيا القازدغلي فعين أشخاصاً لقتله ، وسافر الى الحجاز أميراً على الحج • ولكن عبد الرحمن كاخيا استغل غياب علي بك الغزاوي فنفى المتآمرين عليه،بمساعدةعلي بك بلوط قبان،وعين‌هذا الأخير شيخاً للبلد، وكان هدفه ان يحكم من ورائه ريثما يوطد سلطته • وحين علم علي بك الغزاوي بما جرى ، وهو في طريق عودته من الحجاز،ترك امارة الحج‌وهرب الى‌غزة ،

---

١ ــ الجبرتي ، جـ ١ ، ١٩٢ ــ ٢٠٣ •

٢ ــ انظر مثلا : المصدر السابق،٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٣٨٠ • يكتب اللقب احيانا «بلوط قبن»•

٣ ــ انظر مثلا : المصدر السابق ، ٣١٧ ، ٣١٨ •

٤ ــ المصدر السابق ، ٢٠٦ ــ ٢٠٨ ، ٢٤٩ ــ ٢٥٠ ، ٣١٧ ــ ٣١٨ •

وكان ذلك في أوائل ١١٧٤/آب ١٧٦٠ ، وعين على امارة الحج من بعده حسين بك كشكش . وبدأ أمر علي بك بلوط قبان يشتهر منذ هذه الفترة ، وأصبح أمير الحج في سنة ١١٧٧/١٧٦٤ . وقلد الصنجقية لعدد من أتباعه، وطغى نفوذه على نفوذ عبد الرحمن كاخيا القازدغلي الذي نفي ، بعد ذلك ، الى الحجاز[١] .

فترة علي بك (١٧٦٠ – ١٧٧٣) . – كان علي بك مملوكاً شركسي الاصل ، من منطقة القفقاس[٢] . وقد برز في مصر في خدمة استاذه ابراهيم كاخيا القازدغلي الذي عينه خزنداره ، أي المسؤول عن أمواله الخاصة ، ثم تدرج في مراتب الشهرة فأصبح صنجقاً وشيخ بلد وأمير حج .

وحدث حين كان علي بك في الحجاز أميرا على الحج المصري ، في عام ١٧٦٤ ، أن اشتبك في نزاع مع عثمان باشا الكرجي والي الشام وأمير الحج الشامي[٣] . وبعد أن عاد علي بك الى مصر بدأ بالقضاء على منافسيه فيها ، وكان أشهرهم حسين بك كشكش وهو شيخ البلد آنذاك . وقد أغرى عثمان باشا الكرجي حسين بك كشكش على طرد علي بك من مصر . وبالفعل ، اضطر علي بك ، ازاء مقاومة حسين بك له ، الى الهرب الى غزة في رمضان ١١٧٩/ آذار ١٧٦٦ . ثم ما لبث علي بك أن طرد من غزة بناء

---

١ – الجبرتي ، جـ ١ ، ٢٥٠ – ٢٥٣ ، ٣١٧ – ٣١٨ ، ٣٨٠ .

٢ – انظر : المرادي ، مطمح الواجد ، ٣٩ آ . من أحسن الدراسات المنشورة عن علي بك تلك التي كتبها البروفسور P. M. Holt ، انظر مؤلفاته التالية :

« The (Cloud-Catcher) : 'Ali Bey the Great of Egypt», *History Today*, London, IX. 1 (January, 1959) pp. 48-58;

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : « The (Cloud - Catcher) »

انظر أيضاً للمؤلف نفسه : *Egypt and the Fertile Crescent*, pp. 93 - 98

أما ما كتب عن علي بك في دائرة المعارف الاسلامية ، في الطبعتين الاولى والثانية فتنقصه الدقة . وانظر أيضا :

J. W. Livingstone, 'The rise of shaykh al-balad 'Ali Bey al-kabir', *BSOAS*, Vol. 33, Pt. 2 (1970), pp. 283-294.

٣ – الجبرتي ، جـ ١ ، ٢٥٣ ؛ ابن الصديق ، ٢ آ ؛ عبود الصباغ ، ١٥ ب ؛ الترك ، حوادث الزمان ، ٢٧ ب .

على أوامر عثمان باشا الكرجي ، وعاد الى مصر حيث بدأ صراعه من جديد ضد منافسيه[1] .

وتمكن علي بك في الفترة بين ١٧٦٧ و ١٧٦٨ من التغلب على جميع أعدائه في مصر ، بما في ذلك الشيخ همام ، شيخ قبيلة هوارة القوية في الصعيد[2] . وكان قائد قوات علي بك في هذا الصراع مملوكه محمد بك أبو الذهب .ويذكر أن علي بك اشترى مملوكه أبا الذهب في سنة ١١٧٥/ ١٧٦١ ـ ١٧٦٢ ، ثم أعتقه في سنة ١٧٦٤ . وحين قلد أبو الذهب الصنجقية في احتفال في القلعة ، وزع الذهب على الحاضرين ، وعلى الفقراء وغيرهم أثناء عودته الى منزله ، ولهذا عرف بأبي الذهب[3] .

وقد اعترف محمد راقم باشا ، حاكم مصر العثماني ، في جمادى الثاني ١١٨٢/تشرين الاول ١٧٦٧ ، بنفوذ علي بك ، وأقره في مشيخة البلد ، وأبقى صناجقه في مناصبهم ،وكان ذلك بمثابة تكريس لسلطة علي بك[4] . وتشجع علي بك بهذا الدعم العثماني ، اثر تغلبه على منافسيه ، فعزل حاكم مصر محمد راقم باشا متهما إياه بالتآمر ضده ، وتقلد علي بك القائم مقامية في ١ شعبان ١١/١١٨٢ كانون الاول ١٧٦٨[5] . وبعد حوالي شهرين من ذلك أرسل علي بك هدايا الى السلطان ، واشتكى اليه ضد عثمان باشا الكرجي والي الشام متهما اياه بايواء المصريين الفارين ، وطالب بعزله[6] .

وفي عام ١١٨٣/١٧٦٩ ـ ١٧٧٠ أصبح علي بك الحاكم الفعلي والقانوني في مصر بعد أن عزل الباشا الذي خلف محمد راقم باشا وأصبح قائم مقام ، ومنع ورود الولاة العثمانيين الى مصر . وحضر علي بك صلاة

---

١ ـ ابن الصديق ، ٢ آ ؛ الجبرتى ، ج ١ ، ٢٥٥ ؛ Hammer, XVI. 158 انظر ص ٣٤٩.

٢ ـ الجبرتي ، ج ١ ، ٣٠٨ـ٣٠٩ ، ٣٣٤ـ٣٣٦ ، ٣٨٠ ؛ ابن الصديق ، ٣ آ ـ ٤ آ ؛ انظر ايضاً :
PRO, S. P. 97/44 : Constantinople, 2. 1. 1768; Hammer, XVI. 158-160.

٣ ـ انظر : الجبرتي ، ج ١ ، ٤١٧ .

٤ ـ المصدر السابق ، ٢٥٨ .

٥ ـ المصدر السابق ، ٣٠٨ ؛ ابن الصديق ، ٥ ب .

٦ ـ الجبرتي ، ج ١ ، ٣٠٩ .

الجمعة في جامع الداودية ، ويرجح أن ذلك كان في ١ رمضان ١١٨٣ / ٢٩ كانون الاول ١٧٦٩،فدعا الخطيب للسلطان، ثم دعا لعلي بك[١]•وبذلك شارك علي بك السلطان في امتيازات السلطة وشعاراتها • وكانت الخطوة التالية أن أصدر علي بك عملة نقدية جديدة ذكر عليها اسمه الى جانب اسم السلطان[٢] •

ورغم أن نفوذ السلطان العثماني أصبح الآن سطحياً في مصر ، فلم يعلن علي بك انفصاله عن السلطان أو يقطع علاقاته بـه • واستمر علي بك يتمتع بلقبي شيخ البلد وقائم مقام[٣] • ويشير نقش على قبر الامام الشافعي في القاهرة الى علي بك الذي عمر قبة القبر ، في ١١٨٠/١٧٧٢ ، بأنه عزيز مصر • وقد أطلق هذا اللقب في السابق على بعض وزراء وحكام مصر ، ومن بينهم سلاطين المماليك[٤] •

ووطد علي بك الامن في مصر ، وأقام العدل بين الناس ، ولم يراع في ذلك أحداً • وسر الشعب ، بصورة عامة ، من حكمه • وملأ علي بك بذلك الفراغ الذي خلفه ضعف السلطة العثمانية • وبنى علي بك عدةأبنية دينية هامة منها الجامع والقبة عند مقام أحمد البدوي في طنطا • وقد أكسبته هذه الأعمال عطف العلماء •

ونتساءل هنا عن الاسباب التي جعلت علي بك يبقي على علاقاته الرسمية مع السلطان • لا شك أن علي بك قد بلغ درجة كبيرة من السلطة الفعلية في مصر ، ولكن اعلان انفصاله عن السلطان سيسبب له مشاكل

---

١ ـ الجبرتي ، ج ١ ، ٣٣٤ ، ٣٨٠ ـ ٣٨١ •

٢ ـ ابن الصديق ، ٥ ب ؛ PRO, S. P. 97/49 : Constantinople, 3. 7. 1770

٣ ـ انظر : A. E. B[1] 1034 : Seyde (Extrait des Registres, : Le Caire 16. 2. 1770, Seyde, 2. 3. 1770);

انظر ايضا ص ٢٩٨ حول بيانه الى الدمشقيين وذكر القابه •

٤ ـ انظر ما كتبه G. Wiet تحت عنوان Ali Bey ، في دائرة المعارف الاسلامية،الطبعة الثانية؛انظر حول معنى «عزيز مصر» ما كتبه B. Lewis ، تحت عنوان Aziz Misr ، في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الثانية ؛ انظر أيضاً : Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, p. 96.

كثيرة • فالسلطان العثماني ، مهما بلغ ضعفه ، كان يعتبر زعيم المسلمين ، وأي انفصال عنه ، أو ثورة علنية عليه ، لا يمكن أن يتقبلها المسلمون بسهولة • وبالاضافة الى ذلك ، فان علي بك ، رغم سيطرته في مصر ، لم يبدأ بعد في التوسع خارج حدوده،ولم يكن هناك،بالتالي ، ما يقلق السلطان ويهدد نفوذه بدرجة كبيرة ، لا سيما وأن الدولة العثمانية كانت منشغلة آنئذ في حرب كبرى مع روسيا • وقد الفت الدولة العثمانية ، قبل ذلك ، ظهور حكام محليين أقوياء ، مثل ولاة بغداد وطرابلس الغرب • ولم يكن ظهور علي بك أمرا طارئاً في تاريخ مصر بل كان ذروة تطورات سياسية وصراع على النفوذ بين مختلف القوى في مصر ، كانت الغلبة بنتيجتها للمماليك • ولم تكن أيضا الدولة العثمانية مجرد شاهد على هذا الصراع بل كانت طرفاً فيه ، وان ضعفها هو الذي ساعد على اشتداده • وقد استفاد علي بك من بعد مصر عن استانبول ، ومن مركزها الجغرافي ، ومن قوة أتباعه ومماليكه ازاء ضعف الدولة ، ومن الوضع الدولي المناسب — وهي الاسباب التي أعاقت في الوقت ذاته الدولة العثمانية عن البطش به — فوطد نفوذه • وما دام علي بك يحتفظ ببعض مظاهر السلطة الرسمية للسلطان ، فقد تغاضت الدولة عنه • ولو أعلن انفصاله ، فان الدولة ، مهما بلغ ضعفها ، لن تتسامح بذلك ، كما رأينا من ارسالها الجيوش ضده حين احتلت قواته بلاد الشام • ومن الطبيعي أن تقرر القوة نتيجة الصراع بين الطرفين •

وبعد أن وطد علي بك سلطته في مصر تطلع الى التوسع خارجها • وقد أتيحت له فرصة التدخل في الحجاز في عام ١١٨٤/١٧٧٠ حين طلب منه السلطان ، كما ادعى علي بك ، اعادة الشريف عبد الله الى منصبه حاكما في مكة ، عوضا عن الشريف مساعد الذي اغتصب الحكم منه • وعين علي بك مملوكه محمد بك أبا الذهب قائدا للقوات التي أرسلها الى الحجاز والتي أعادت الشريف عبد الله الى منصبه • ويبدو أن علي بك قد اتخذ قضية الشريف عبد الله ذريعة للتدخل في شؤون الحجاز بدلالة تعيينه أحد المماليك ، وهو حسن بك ، قائم مقام على جدة (ومن هنا تسميته

حسن الجداوي) مكان الحاكم العثماني الذي هرب من جدة • وبعد عودة أبي الذهب الى مصر ، عزل الشريف عبد الله من جديد من قبل الشريف أحمد الذي كان قد خلف الشريف مساعد اثر وفاته ، وذلك قبيل وصول الحملة المصرية الى مكة • وطرد الشريف أحمد حسن بك الجداوي وقواته ، فعادوا الى مصر[1] •

ورغم أن الانتصارات التي حققتها حملة علي بك في الحجاز لم تدم طويلا ، الا أن الحملة تعتبر هامة من نواحي متعددة • ان الاكتفاء بتعيين حسن بك قائم مقام ، وليس واليا ، في جدة ، مكان واليها العثماني ، يظهر أن علي بك لم يكن راغبا في معاداة السلطان العثماني علنا في هذه المرحلة على الأقل • ويعتبر هذا الموقف استمرارا للموقف الذي اتخذه علي بك في مصر حين اكتفى باعلان نفسه قائم مقام • وان ارسال علي بك جيوشه الى الحجاز وجعل نفسه سيدا فيها ، أو بالاحرى حكما في شؤونها ، أكسبه نفوذا سياسيا ودينيا • وقد هدف علي بك أيضا من حملته خدمة مصالحه الاقتصادية ، ولعل ذلك كان أهم هدف له ، اذ أن الاستيلاء على جدة سيمكنه من التصرف بوارداتها الضخمة من عائدات الجمارك • ولم يسمح العثمانيون ، آنذاك ، أو في الفترات السابقة ، للمراكب الاوروبية بتجاوز ميناء جدة الى السويس ، وذلك لسببين رئيسيين : أولا ، لتحاشي تهديد هذه المراكب للأماكن المقدسة في الحجاز ، وثانيا ، لكي تدفع في جدة المكوس عن البضائع التي تحملها هذه المراكب ، وذلك لسد نفقات الحاكم العثماني هناك ، في حين ان هذه المكوس ستكون تحت رحمة السلطات التي تتصرف في شؤون مصر فيما لو دفعت في السويس • وكان من مصلحة التجار الاجانب الفرنسيين والانكليز ، الذين يتاجرون بين الشرق الاقصى وأوروبا ، ايصال بضائعهم مباشرة الى ميناء السويس ، ثم نقلها براً الى البحر الابيض المتوسط • ومن هنا اهتمام شركة الهند الشرقية الانكليزية ، والمشاريع

---

١ ـ انظر : الجبرتي ، ج ١ ، ٣٥٠ ـ ٣٥١ ، ج ٣ ، ١٧١ ؛ ابن الصديق ، ٦ (ـ ٧ ب، ١٩ آ ـ ١٩ ب ؛ Volney, 81 .

الفرنسية ، في هذه الفترة ، لربط البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط عن طريق السويس • ولكن شركة بلاد المشرق (Levant Company) الانكليزية ، المرتكزة على الامبراطورية العثمانية ، وخاصة بلاد الشام ، بقيت تعارض مشروع فتح طريق السويس لانه يهدد وجودها[١] •

ان عدم استخدام طريق السويس ، على نطاق واسع ، من قبل التجار الاجانب حرم مصر من واردات مالية كبيرة • ولا أدل على ضآلة النشاط التجاري الفرنسي في مصر ، في هذه الفترة ، من قلة عدد التجار الفرنسيين المقيمين[٢] • ولم ينشط التجار الانكليز في مصر الا في عام **١٧٧٣** حين سمح لهم أبو الذهب بنقل بضائعهم عبر السويس • وبقيت ، مع ذلك ، بعض العقبات تحد من نشاطهم[٣] • وحرم علي بك ، من جراء ذلك ، من واردات مالية هامة • ورغم أنه قد استفاد من مصادرة أموال أعدائه الذين قضى عليهم في مصر ، الا انه كان عليه أن يبحث عن موارد اقتصادية خارج مصر لتمويل مشاريعه الكبرى في بناء دولة عظيمة واحياء السلطنة المملوكية•

وبعد أن عادت جيوش علي بك من الحجاز ، وجه أنظاره للتوسع في بلاد الشام • وبالاضافة الى الاهداف السياسية ، فقد كان علي بك يطمع بالحصول على موارد اقتصادية باحتلاله بلاد الشام • وكان نجاح قواته في الحجاز مشجعاً له لارسالهم في حملة أخرى • كما أن من مصلحة علي بك الآن تحويل أنظار قادته العسكريين للتوسع خارج مصر ليتجنب منافستهم له اذا بقوا بقربه • وقد ذكرنا فيما سبق[٤] الأسباب الأخرى التي جعلت علي بك يوجه حملته على بلاد الشام ، وعالجنا مراحل الفتح واحتلال دمشق ، ثم انسحاب أبي الذهب ورجوعه الى مصر •

---

١ ـ انظر : Bruce, VI, 540-541; Wood, 167 - 168; Hammer, XVI, 351 Volney, 81; PRO, S. P. 97/52 : Constantinople, 3. 1. 1776, F. Charles - Roux, «La Politique Française en Egypte à la fin du XVIII^{e} Siecle», *Revue Historique*, 91 (1906), pp. 2-3.

٢ ـ انظر : Charles - Roux, 2

٣ ـ انظر : Bruce, VI, 540-541, Wood, 168-169

٤ ـ أنظر ص ٢٩٦ـ٣٠٢ .

ويعتبر انسحاب أبي الذهب من بلاد الشام بداية تحوله ضد علي بك. صحيح أن أسبابا عديدة[1] جعلت أبا الذهب يتخلى عن فتوحاته في بلاد الشام ، ولكن هذه كانت كلها أسبابا خارجية. والشيء الهام انها لاقت قبولا في نفس أبي الذهب . لقد أمره علي بك ، كما ذكر الجبرتي[2] ، « أن يستمر في سيره ويتعدى الحدود ويستولي على الممالك الى حيث شاء » ، ولكن أبا الذهب ، عوضاً عن ذلك ، فضل التراجع طمعا بالحكم في مصر بعد أن ضمن ، كما يبدو ، تأييد السلطان له في ذلك .

وليس بغريب أن يدب النزاع بين محمد بك أبي الذهب وعلي بك لان الصراع على السلطة بين مماليك مصر كان في أوجه في هذه الفترة . وزاد في الامر أن أبا الذهب قد اصبح ذا سمعة عسكرية واسعة ، فاقت سمعة علي بك نفسه . لقد قضى أبو الذهب على خصوم علي بك في مصر ، وقاد بنجاح الحملة المصرية الى الحجاز ، ونجح أيضا في احتلال دمشق ، وازدادت سلطته الى حد كبير ، ومع ذلك كان لا يزال خاضعا لاوامر علي بك . وقد شعر أبو الذهب والمماليك في بلاد الشام انهم في أرض غريبة ، ولذلك عادوا الى مصر . وفضل أبو الذهب أن يكون واليا خاضعا للسلطان في مصر من أن يكون قائدا في بلاد الشام مهدداً بالخطر ، وأهم من ذلك ، خاضعا لمملوك آخر هو علي بك[3] .

ولم ينشب النزاع العلني بين علي بك ومحمد بك أبي الذهب مباشرة بعد وصول هذا الأخير الى القاهرة في أواخر رجب ١٣٨٥ / أوائل تشرين الثاني ١٧٧١ . وكان علي بك ، الذي لم ينقطع عن ارسال النجدات الى حليفه ظاهر حتى بعد انسحاب أبي الذهب[4] ، يعمل ، في الظاهر ، على حمل

---

١ ـ انظر ص ٣٠٢ .

٢ ـ الجبرتي ، ج ١ ، ٣٦٥ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B[1] 334, Le Caire, 24. 6. 1771, Le Caire, 5. 12. 1771.

٣ ـ انظر تحليل موقف ابي الذهب حين انسحابه في كتابنا :
The Province of Damascus, pp. 274-277

٤ ـ انظر ص ٣٠٤ .

أبي الذهب على العودة الى فتح بلاد الشام•ولكن الاثنين كانا في الواقع يعدان العدة للقتال • وفي ٤ شوال ١١٨٥/١١كانون الثاني ١٧٧٢ حاول علي بك وأتباعه اغتيال أبي الذهب،ولكنه تمكن من الهرب الى الصعيد حيث انضم اليه مؤيدوه وبقايا القاسمية اللاجئين في الصعيد ، وأيضاً بدو هوارة الذين بطش بهم علي بك في السابق • وأرسل علي بك حملة بقيادة اسماعيل بك، في أواخر ذي القعدة/أوائل آذار ، لقتال أبي الذهب في الصعيد ، ولكن اسماعيل بك انضم الى أبي الذهب • والجدير بالذكر أن اسماعيل بك وأبا الذهب اشتركا في الحملة على بلاد الشام،وان اسماعيل بك نصح أبا الذهب بالانسحاب من دمشق • وبدأ علي بك باعداد حملة أخرى ضد أبي الذهب واسماعيل بك • وكانت قواته قد أرهقت فقلد رتبة الصنجقية الى سبعة اشخاص ، ليسوا أهلا لذلك ، وزودهم بالعتاد والجنود ، وأرسلهم للقتال• ولا أدل على عدم تمرسهم بالقتال من اطلاق أهل مصر عليهم لقب السبع بنات • وتقدمت قوات أبي الذهب باتجاه القاهرة ، وخرجت قوات علي بك، بقيادة علي بك الطنطاوي ، لقتالها•وحدث الاصطدام بين الفريقين في ضواحي القاهرة في محرم ١١٨٦/نيسان ١٧٧٢ ، وهزمت قوات علي بك•وقد شعر علي بك بضعف موقفه فهرب مع أتباعه في ليلة ٢٥ محرم/٢٨ نيسان باتجاه بلاد الشام ، ولجأ الى حليفه ظاهر العمر • ودخل أبو الذهب الى القاهرة في اليوم التالي ، وأصبح سيد الموقف فيها ، وأبطل النقود التي كان علي بك قد صكها وذكر عليها اسمه[1] • وأحدث ابطال هذه النقود اضطرابا اقتصاديا في منطقة ظاهر العمر حيث شاع استعمالها ، وهبطت قيمتها ، تبعا لذلك ، الى ما يقرب النصف•وبدأت هذه النقود تهرب من مصر الى عكا[2]•

واشترك علي بك مع ظاهر العمر وحليفهما الاسطول الروسي في البحر الابيض المتوسط ببعض العمليات العسكرية في فلسطين ،

١ ـ انظر : الجبرتي ، ج ١ ، ٣٦٥ ـ ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٤١٧ ؛ انظر أيضا :
A. E. B[1] 1035 : Seyde, 18. 2. 1772, Seyde, 30. 3. 1772, Seyde, 21. 4. 1772 (Bulletin).

٢ ـ انظر : A. E. B[1] : Seyde, 20. 7. 1775 (Bulletin), Seyde, 16. 8. 1772

وعلى ساحل بلاد الشام الجنوبية[1] • ولكن هدف علي بك الاساسي كان العودة الى مصر للقضاء على أبي الذهب • وفي ١٦ شباط ١٧٧٣ استسلمت يافا ، بعد حصار دام حوالي ثمانية أشهر ، لقوات ظاهر وعلي بك ، وكانت خاضعة لوالي الشام • وشعر علي بك أن طريق عودتـه الى مصر أصبـح ممهداً • وكانت قد وصلته رسائل مزورة من بعض زعماء المماليك في مصر تعده بالمساعدة اذا عاد الى القاهرة ، وكان ذلك لـلايقـاع به بتدبير من أبي الذهب • وحاول ظاهر العمر منع علي بـك من الذهـاب الى مصر لشكـه بصحة الرسائل ولعدم تمكنه ، في هذه الاثناء ، من مساعـدتـه كثيراً بسبب انتظاره مجيء القوات الروسية لدعمه محلياً ، وأيضاً بسبب انشغـال قـوات ظاهر المحلية بشؤون الموسم الزراعية • وزوده ظاهر ، مـع ذلك ، ببعض قواته ، وخرج علي بك من بلاد الشام باتجاه مصر في أوائـل آذار ١٧٧٣ • وفي القتال الذي دار بينه وبين أبي الـذهب في ٥ صفر ٢٨/١١٨٧ نيسـان ١٧٧٣ ، في الصالحية ، على الطريق المؤدية الى القاهرة ، جرح علي بك ، وهزمت قواته ، وتوفي في ١٥ صفر/٨ أيـار ، وأصبحت السيطـرة في مصر لابي الذهب[2] •

سيطرة محمد بك أبي الذهب والحكم الثنائي (١٧٧٣ ــ ١٧٩٨) • ــ

تصرف محمـد بـك أبو الذهب بـالسلطـة الفعليـة في مصر ، على غرار علي بك • ولم يكن للوالي العثماني خليل باشا ، الذي وصل الى القاهرة في ١٧ ربيع الاول ٨/١١٨٧ تموز ١٧٧٣ ، سوى سلطة اسمية • وقد أرسل السلطان الهدايا الى أبي الذهب مما زاد في دعم موقفه[3] • وكـان هـدف السلطان من ذلك التعبير عن رضاه نحو أبي الذهب بسبب قتلـه علي بك ،

١ــ انظر ص ٣٠٧ •

٢ ــ انظـر : الجبرتي ، جـ ١ ، ٣٧٦ ــ ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٤١٧ ــ ٤١٨ ؛ عبود الصباغ ، ٢٣ ب ــ ٢٤ ب ؛ حيدر شهاب ، لبنان ، جـ ١ ، ١٠٨ ــ ١١٠ ؛ انظر أيضاً :
A. E. B[1] 1036 : Seyde, 22. 4. 1773 (Bulletin), Seyde, 14. 6. 1773; PRO, S. P. Constantinople, 17. 6. 1773; Hammer, XVI, 353-354; Volney, 259-260.

٣ ــ الجبرتي ، جـ ١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٥ ، ٤١٨ •

وأيضاً لاظهار نفوذه على أبي الذهب ليتزعم في مصر بموافقته وليس رغما عنه • ولم يطرد أبو الذهب ، كما فعل علي بك ، الباشا العثماني من مصر ، ولكنه سعى لدى السلطان لتعين أحد مقربيه من الموظفين العثمانيين ، وهو مصطفى باشا النابلسي ، والياً على مصر مكان خليل باشا ، وتم له ذلك في ربيع الثاني ١١٨٨/حزيران ـ تموز ١٧٧٤[١] • وهكذا أصبح باشا مصر العثماني صنيعة لابي الذهب • وانصرف أبو الذهب ، اثر استتباب السلطة له ، الى تخليد حكمه ببناء الابنية المختلفة ، ومنها مدرسته التي بناها تجاه الجامع الازهر •

وجه أبو الذهب أنظاره ، بعد ذلك ، للتوسع في بلاد الشام ، وكان يحاول التدخل في شؤونها منذ أن قتل علي بك • وقد أرسل أبو الذهب في ٢٧ آب ١٩٧٣ رسولا الى عكا أبلغ ظاهر العمر بوجوب اعادة الممتلكات التي تركها علي بك عنده ، وباخلاء نابلس والرملة وغزة ويافا ، التي ادعى أبو الذهب أن السلطان قد أعطاه اياها[٢] • وقد لا يكون صحيحاً ان السلطان منح أبا الذهب حكم هذه المناطق ، ولكن المهم هنا عداء أبي الذهب لظاهر العمر واستغلال أبي الذهب تأييد السلطان له ليتوسع في بلاد الشام على غرار علي بك •

خرج أبو الذهب من مصر على رأس جيش كبير في أوائل محرم ١١٨٩/أوائل آذار ١٧٧٥ قاصدا بلاد الشام للقضاء ، كما ادعى ، على ظاهر العمر ، وأقام مكانه في مصر مملوكه ابراهيم بك الذي اشتهر فيما بعد[٣] • وبدا كأن أبا الذهب يخدم،بالدرجة الاولى،مصلحة السلطان بمحاولته القضاء على أحد كبار الثائرين في بلاد الشام•ولكن محاولةالقضاء على ظاهر لم تكن

١ ـ الجبرتي ، ج ١ ، ٤١٣ ، ٤١٨ • ليس هناك من دليل علىان مصطفىباشا النابلسي الذي عين والياً على مصر والذي وصفه الجبرتي انه منأولاد العظم ، ينتسب بالنعل الى الاسرة العظمية في الشام •

٢ ـ انظر : A. E. B¹ 1036 : Seyde, 28. 8. 1773, Seyde, 31. 8. 1773, Seyde, 2. 9. 1773.

٣ ـ الجبرتي ، ج ٣ ، ١٦٧ ؛ انظر ص ٣٦٠ •

سوى ذريعة اتخذها أبو الذهب لاسباغ الشرعية على عمله ، وكسب تأييد السلطان والسكان المحليين،وللتمويه على أهدافه الحقيقية في التوسع واعادة السلطنة المملوكية • وقد أفهم أبو الذهب قادة جيشه وجنوده ، اثر احتلاله ليافا وعكا وهرب ظاهر العمر من وجهه ، وقبيل وفاته بيوم واحد،انه« يريد تقليدهم المناصب والاحكام بالديار الشامية وبلاد السواحل[1] » ، وفي هذا دلالة واضحة على نيته بالتوسع لحسابه وتأكيد بأن محاولته القضاء على ظاهر انما هي وسيلة اتخذها للتدخل في شؤون بلاد الشام • ويشبه أبو الذهب في ذلك أستاذه علي بك الذي سبق وأعلن ، حين أرسل قواته لاحتلال بلاد الشام ، ان هدفه انقاذ السكان المحليين من ظلم عثمان باشا الكرجي والي الشام • ولم يشكل ظاهر العمر الآن ، بعد وفاة حليفه علي بك وانشغاله بثورات أبنائه ، خطرا كبيرا يستدعي تدخل أبي الذهب ضده • ولا أدل على ضعف ظاهر من سرعة استسلام المناطق ، التي كان يسيطر عليها ، لابي الذهب •

وقد استسلمت غزة في ٢٩ محرم ١١٨٩/١ نيسان ١٧٧٥ لقوات أبي الذهب ، وتبعتها الرملة ثم يافا • وقد قاوم سكان يافا هجوم أبي الذهب عليهم ، وحين تم لـه فتح المدينة فتك بكثير من سكانها • ويبدو أن ذلك أرهب المناطق المجاورة ، فهرب ظاهر من عكا ، واستسلمت هذه المدينةلأبي الذهب بدون مقاومة ، كما خضعت صيدا لقوات أبي الذهب البحريـة • وبعث أبو الذهب بانباء انتصاره الى مصر فأقيمت فيها معالم الزينة مدة ثلاثـة أيام ، وذلك في أوائل ربيع الثاني/أوائل حزيران • وذكر أن أبا الذهب أرسل يطلب من السلطان العثماني اعطاءه حكم مصر وبلادالشام وانالسلطان وافق على ذلك•وما كاد أبو الذهب يعلم بموافقة السلطان ، كما ذُكر ،حتى

---

١ ـ الجبرتي ، ج ١ ، ٤١٤ •

توفي في ١٠ ربيع الثاني ١١٨٩/١٠ حزيران ١٧٧٥[١] • وتخلى جيش أبي الذهب عن فتوحاته وانسحب عائداً الى مصر •

وكانت حرب السلطان مع روسيا قد انتهت في عام ١٧٧٤ ، ووقع معها معاهدة كجك قاينارجة في تموز ١٧٧٤ • وتمكن السلطان من ارسال قوات بحرية بقيادة القبطان حسن باشا للقضاء على ظاهر العمر • وقد وصلت هذه القوات الى سواحل بلاد الشام الجنوبية بعد حوالي شهرين من وفاة أبي الذهب[٢] •

وتسلم الرئاسة في مصر ، بعد وفاة محمد بك ابي الذهب ، مملوكاه ابراهيم بك ومراد بك ، وعرف حزبهما بالمحمدية نسبة لاستاذهما محمد بك أبي الذهب • وعارضهما حزب العلوية المؤلف من بعض أتباع ومماليك علي بك الذين طمحوا الى السلطة • وكان ابراهيم بك شيخ البلد وكبير القوم ، ولا ينفذ أمراً بدون اطلاع زميله مراد بك • ونافسهما على الرئاسة اسماعيل بك الذي كان ، في الأصل ، مملوكاً عند ابراهيم كاخيا القازدغلي ، ثم جعله علي بك « تشراكاً »[٣] عنده ، واستخدمه في فتح بلاد الشام وفي قتال أبي الذهب الذي ثار عليه ، ولكنه انضم الى أبي الذهب ، وخان سيده علي بك • وقد شغل اسماعيل بك منصبي أمير الحج والدفتردار • وخشي ابراهيم بك ومراد بك منافسة اسماعيل بك لهما على الرئاسة ، لا سيما وأنه

---

١ ـ يذكر الجبرتي ، جـ ١ ، ٤١٤ ، ان أبا الذهب توفي في ٨ ربيع الثاني ، بينما يذكر القنصل الفرنسي في صيدا الذي عاصر الحادث أنه توفي في ١٠ حزيران ؛ انظر :
A. E. B[1] 1037 : Seyde, 25. 6. 1775,

انظر أيضا حول الاحداث السابقة :
A. E. B[1] 1037 : Seyde, 7. 4. 1775 (Bulletin), Seyde, 17. 5. 1775, Seyde, 5. 6. 1775; A. E. B[1] 422 : Constantinople, 3. 7. 1775; PRO, S. P. 110/43 : Aleppo, 24. 6. 1775; PRO, S. P. 97/51 : Constantinople, 3. 7. 1775; Volney, 261 - 262;

انظر أيضاً : حيدر شهاب ، لبنان ، جـ ١ ، ١١٠ـ١١١ ، تاريخ الجزار، ١٣٠ـ١٣٧؛ عبود الصباغ ، ٣٠ آ ـ ٣٣ آ ؛ بريك ، ١٠٣ ـ ١٠٤ ؛ انظر ص ٣٠٩ •

٢ ـ انظر : عبود الصباغ ، ٣٣ آ ؛ A. E. B[1] 442 : Constantinople, 3. 7. 1775

٣ ـ انظر ص ٢٢١ •

كان يتمتع بنفوذ عظيم وشهرة كبيرة ، واصطدما معه ، فتغلب عليهما ، وطردهما من القاهرة • وأصبح اسماعيل بك شيخ البلد ، واعترف به الباشا العثماني ، وكان ذلك في ٢٢ جمادى الثاني ١١٩١/٢٨ تموز ١٧٧٧[1] •

وهرب ابراهيم ومراد بك الى الصعيد ، وأخذا يتحينان الفرصة للقضاء على اسماعيل بك ومؤيديه ومعظمهم من أتباع علي بك • وقد استوليا على أموال الميري في الصعيد ، وازدادت قوتهما ، ولم يستطع حاكم الصعيد الموالي لسلطات القاهرة ، مقاومتهما • وخرج اسماعيل بك من القاهرة في ٢١ ذي القعدة ١١٩١/٢١ كانون الاول ١٧٧٧ باتجاه الصعيد ، لقتال قوات ابراهيم بك ومراد بك • ولكنه شعر بتآمر بعض قواته ضده ، فعاد الى القاهرة في ٩ محرم ١١٩٢/٧ شباط ١٧٧٨ • وتناقص نفوذه في القاهرة اثر ذلك • ثم فوجيء بانباء تقدم خصومه من الصعيد نحو القاهرة ، فهرب منها باتجاه غزة ، ثم ذهب الى استانبول • ودخل ابراهيم بك ومراد بك وقواتهما الى القاهرة • وفي ٢١ محرم ١١٩٢ استقر ابراهيم بك في مشيخة البلد ، واعترف به الباشا العثماني الذي كان مغلوباً على أمره ويمنح اعترافه لكل من يفوز بالسلطة • وعاد اسماعيل بك من استانبول ، بعد فترة قصيرة، وتوجه نحو الصعيد • وكانت قوته قد ضعفت كثيرا ، وخرج لقتاله مراد بك ، ولكنه لم يعثر عليه • وبقي اسماعيل بك غائبا عن مسرح السياسة حتى مجيء الحملة العثمانية الى مصر في سنة ١٧٨٦ ، فتعاون مع قائدها القبطان حسن باشا[2] •

وحدثت في عام ١١٩٨/١٧٨٣ ـ ١٧٨٤ فتنة كبيرة بين ابراهيم بك

١ ـ انظر : الجبرتي ، ج ١ ، ٤١٤ ، ج ٢ ، ٢ ـ ٣ ، ٨ ـ ١١ ، ٢٠ ، ٢١٩ ، ج ٣ ١٦٧ ـ ١٦٨ ، ج ٤ ، ٢٦٣ ؛ انظر أيضاً : مخطوطاً مجهول المؤلف بعنوان : تاريخ ما وقع في مصر من ابتداء عام ١١٩٠ (حتى ذي القعدة ١١٨٩) ، توجد نسخة عنه في المكتبة الوطنية بباريس ، برقم Arabe 1856 انظر الاوراق ، ١ ب ـ ٥ ب : سيذكر هذا المخطوط باختصار كما يلي : مخطوط باريس ، رقم Arabe 1856 انظر أيضا : Volney, 94.

٢ ـ انظر حول الاحداث السابقة : الجبرتي ، ج ٢ ، ١٢ ـ ٢٥ ، ٢٢٠ ؛ مخطوط باريس، رقم Arabe 1856 ، ٦ آ ـ ١٦ ب •

ومراد بك سببها طموح مراد بك للسلطة ومحاولة ابراهيم بك الاستئثار بها • وزاد من شدة الفتنة محاولة اتباع كل من الزعيمين الايقاع بأتباع الزعيم الآخر • وبعد أن توصل مراد بك الى طرد ابراهيم بك من القاهرة والحصول على مشيخة البلد ومنصب قائم مقام ، تصالح الزعيمان في ١٠ ربيع الثاني ١١٩٩/٢٠ شباط ١٧٨٥ ، وعادا الى ممارسة السلطة الفعلية في مصر[١] • واستمرا على ذلك حتى وصول الحملة العثمانية ضدهما في ١٧٨٦ •

وصلت في أوائل رجب ١٢٠٠/أوائل أيار ١٧٨٦ أنباء الى القاهرة حول وصول طلائع حملة عثمانية بحرية ، بقيادة القبطان حسن باشا ، الى الاسكندرية • وفي ١٠ رجب/٩ أيار وصل رسول عثماني الى القاهرة يطالب ابراهيم بك ومراد بك بما انكسر عليهما من أموال للدولة،وأنذرهما بتسليم ذلك خلال ثلاثين يوماً • وجاء رسول آخر بالمعنى نفسه في ٥ رمضان/٢ تموز • واستعطف ابراهيم بك ومراد بك السلطات العثمانية لامهالهما بدفع الاموال ، واتخذا ، في الوقت نفسه ، الاستعدادات للدفاع، واتصلا بعرب الهنادى في البحيرة • ونزلت القوات العثمانية في الاسكندرية ودمياط ورشيد • وحاول القبطان حسن باشا اجتذاب السكان المحليين اليه فأرسل عدة فرمانات باللغة العربية الى مشايخ البلاد وزعماء البدو يعلمهم فيها بتخفيض الضرائب ، وبرفع الظلم ، وبالعودة الى الأنظمة التي صدرت في عهد سليمان القانوني • فسر الناس بذلك ، وتغيرت نياتهم نحو زعماء المماليك •

ولما رأى ابراهيم بك ومراد بك وأتباعهما أن الزمن يسير لصالح حسن باشا القبطان قررا مقاومته ، ولكن حدث خلاف في الرأي بينهما حول أسلوب القتال • وكان رأي ابراهيم بك ملازمة مراد بك له وقيامهما بعمل مشترك ضد حسن باشا ، واذا رأيا أن لا قدرة لهما على ذلك أمكنهما الهرب

---

١ ــ الجبرتي ، ج ٢ ، ٧٩ ــ ٨٣ ، ٩٢ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1856، ٢٦ آ ــ ٣١ آ (حيث ينتهي المخطوط فجاة) •

وانتظار الفرصة السانحة ، كانسحاب حسن باشا من مصر ، للعودة • وحاول مراد بك الانفراد بالمقاومة ، وتخلف ابراهيم بك في القاهرة حيث حاول التودد الى العلماء لكسبهم الى جانبه • ولعب الباشا العثماني ، الذي تقوى بمجيء حسن باشا ، دوراً سياسياً بارزاً في القاهرة في هذه الاثناء • وقد هزمت قوات مراد بك في الرحمانية ، قرب رشيد ، حين اصطدامها بقوات حسن باشا • وفشل مراد بك وابراهيم بك بالقيام بعمل مشترك للدفاع عن القاهرة ، وهربا من بولاق حيث حاول التمركز لمقاومة تقدم القوات العثمانية ، واتجها نحو الصعيد (الوجه القبلي) ، وعرفا مع أتباعهما ، تبعاً لذلك ، بالجماعة أو الامراء القبليين ، وأحياناً بالقبالى أو القبليين • ودخل حسن باشا الى القاهرة في ١٢ شوال ١٢٠٠/٨ آب ١٧٨٦[١] •

وعمد حسن باشا الى التودد الى الزعماء المحليين في القاهرة فخلع على كثير من الصناجق والامراء لكسب تأييدهم ، وعطف على الاشراف • وقد صادر أموال الامراء الهاربين • وطرد من القاهرة البطالين الذين قدموا اليها من الريف ، وذلك في محاولة منه للتخفيف من الازمة الاجتماعية والاقتصادية فيها • ووطد حسن باشا الأمن ، ومنع العساكر من الانتساب الى الحرف ، فسر الحرفيون بذلك • وقد عمد ، بالمقابل ، الى مصادرة الأموال ، بصورة غير شرعية ، بحجة تمويل قافلة الحج • وقاسى كثيرون من ذلك ، وخاصة التجار •

واهتم حسن باشا بتوطد سلطته خاصة في اقليم البحيرة لتأمين خطوط مواصلاته مع الموانى الساحلية • وقد عين كاشفا على اقليم البحيرة ، وشدد قبضته على البدو الثائرين فيه • وخلع على شيخ بدو بني حبيب في البحيرة لطاعته ، وأوكل اليه جمع الضرائب في المنطقة الممتدة بين بولاق وحدود دمياط ورشيد•وكان علي بك قد جرد مشايخ بني حبيب من هذه الصلاحيات التي كانت سابقاً في عهدتهم • وحين وطد حسن باشا سلطته ولم يعد بحاجة لدعم بني حبيب جردهم من مهمة جمع الضرائب،وعهد بهاالى أحدالصناجق•

---

١ ــ انظر : الجبرتي : جـ ٢ ، ١٠٥ ــ ١١٤ •

واستدعى حسن باشا اسماعيل بك الهارب ، وهدفه من ذلك أن يملأ به الفراغ الذي خلفه في السلطة المحلية غياب شيخ البلد ابراهيم بك وزميله وان يستخدمه لمعارضة هذين الزعيمين الهاربين • ودخل اسماعيل بك الى القاهرة في ٧ محرم ١٢٠١/٣٠ تشرين الاول ١٧٨٦ ، وجعله حسن باشا شيخا للبلد • ولم يكتف حسن باشا بهذا الاجراء لايجاد توازن في القوى بل عمد الى ارسال عدة حملات الى الصعيد للقضاء على الهاربين • وبعد عودة اسماعيل بك الى القاهرة أرسله حسن باشا على رأس حملة ضد العصاة في الصعيد مستفيداً من نفوذه السابق • وكان هدف حسن باشا من ذلك ايجاد معارضة محلية قوية للعصاة المحليين الهاربين ليتاح له الاهتمام بشؤون القاهرة وتوطيد السلطة العثمانية فيها • ولكن ابراهيم بك ومراد بك صدا الحملات التي أرسلت ضدهما ، وبقيت لهما السيطرة في الصعيد •

غادر حسن باشا القاهرة في ٢٣ ذي الحجة ١٢٠١/٦ تشرين الاول ١٧٨٧ متوجهاً الى استانبول بسبب حاجة الدولة اليه للاشتراك في حرب جديدة مع روسيا التي استأنفت توسعها على حساب العثمانيين في بلاد القرم• وقد أبقى حسن باشا اسماعيل بك في مشيخة البلد وزوده بالعتاد ، وترك في مصر ألفا وخمسمائة جندي • وصدر أمر بالعفو عن ابراهيم بك ومراد بك شريطة أن يقيما متفرقين خارج القاهرة • واصطحب حسن باشا معه بعض الرهائن لضمان طاعة المتمردين في مصر[١] •

واستغل اسماعيل بك انفراده بالرئاسة في مصر فعمد الى ابتزاز الاموال • وقد أكثر من شراء المماليك وبناء الابنية الخاصة في القاهرة • واشتدت النقمة ضده • واغتنم ابراهيم بك ومراد بك فرصة انسحاب حسن باشا ثم وصول أنباء وفاته في منتصف رجب ١٢٠٤/ آخر آذار ١٧٩٠ وانشغال الدولة بالحرب مع روسيا ، لاستعادة سلطتهما • وحدث طاعون ، في هذه الأثناء ، في مصر قضى على كثيرين ومن بينهم اسماعيل بك • وكانت

---

١ ــ انظر حول الاحداث السابقة : الجبرتي ، جـ٢ ، ١١٥ ــ ١٢٥ ، ١٣٠ ــ ١٤٧ •

وفاته في ١٦ شعبان ١٢٠٥/٢٠ نيسان ١٧٩١ • وقد أصبح شيخ البلد وكبير القوم من بعده تابعه عثمان بك طبل الذي اختير كحل وسط بسبب طموح من هم أقوى منه سلطة الى خلافة اسماعيل بك[١] •

ولم يتمكن عثمان بك طبل من ملء الفراغ الذي تركه موت اسماعيل بك بسبب ازدياد تهديد الامراء العصاة له ومنافسة خصومه الطامعين بالسلطة • وحين وصلت قوات ابراهيم بك ومراد بك الى ضواحي القاهرة، انهارت المقاومة في المدينة ، وانضم الى المهاجمين كثير من أتباعهم ومماليكهم المقيمين في القاهرة • وكان في طليعة المنضمين الى ابراهيم بك ومراد بك شيخ البلد وكبير القوم عثمان بك طبل • واسقط اذ ذاك في أيدي القلة الذين أرادوا مقاومة الهجوم ، وهربوا باتجاه الصعيد • ودخلت قوات ابراهيم بك ومراد بك الى القاهرة في ٢١ ذي القعدة ١٢٠٥/٢٢ تموز ١٧٩١ دون أن تلاقي أية مقاومة[٢] •

وخلع الباشا العثماني في مصر على ابراهيم بك ومراد بك ، وتوسط لهما لدى السلطات في استانبول فصدر عفو عنهما • ثم قاما بطرد القوات المرتزقة من القاهرة ، واستعدا لارسال حملة ضد أعدائهم الذين هربوا الى الصعيد • ولكن هؤلاء الهاربين ضعفوا كثيرا بسبب الاختلاف في الرأي بينهم وتفرقهم في جهات مختلفة • ولم تعد هناك حاجة لارسال حملة من القاهرة ضدهم • وتمت السيطرة لابراهيم بكومراد بك ، واشتد ظلمهما • واستغلا طلب السلطات في استانبول جمع ما تأخر من أموال الميري ومن التزامات أخرى في مصر ، لابتزاز المال ، رغم احتجاج السكان المحليين ضدهما[٣] •

---

١ ـ انظر : الجبرتي ، ج ٢ ، ١٥١ ـ ١٦٤ ، ١٧٢ ـ ١٨٣ ، ١٨٨ ـ ١٩١ ، ٢١٩ـ٢٢٠•

٢ ـ المصدر السابق ، ١٩٤ ـ ١٩٥ ، ج ٣ ، ١٧٢ •

٣ ـ المصدر السابق ، ج ٢ ، ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ، ٢٣٩ ، ٢٥٠ ـ ٢٥١ ، ٢٥٧ ـ ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ج ٤ ، ٢٦٣ ـ ٢٦٤ •

وبقيت سلطة ابراهيم بك[1] ومراد بك[2] بدون منازع حتى وردت الى القاهرة أنباء نزول قوات نابليون بونابرت في الاسكندرية في أول تموز ١٧٩٨[3] • وكان هذا بداية النهاية بالنسبة لنفوذ المماليك في مصر ونشأ عن ذلك ما عرف بالمسألة المصرية ، وبدأ التدخل الاوروبي في شؤون البلاد العربية الداخلية •

---

١ ـ توفي ابراهيم بك في دنقله في السودان في ربيع لاول ١٢٣١/كانون الثاني ـ شباط ١٨١٦،وكان قد هرب الى هناك اثر بطش محمد علي باشا بالمماليك في مصر ، انظر : الجبرتي ، جـ ٤ ، ٢٦٧ ـ ٢٦٨ •

٢ ـ توفي مراد بك في ٤ ذيالحجة ١٢١٥/١٨ نيسان ١٨٠١ ، انظر : الجبرتي، جـ ١٦٧،٣•

٣ ـ يراجع من المصادر المحلية المعاصرة للحملة الفرنسية : مؤلف عبد الرحمن الجبرتي ، مظهر التقديس بذهابدولة الفرنسيس،نشره محمد عطا فيجزئين (أرقامهما ٥٩و٦٠)، في سلسلة « اخترنا لك » التي تصدرها دار المعارف بالقاهرة ، وذلك بالاضافة الى مؤلف الجبرتي المشهور : عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، ٤ أجزاء ، بولاق ، ١٢٩٧ هـ • ويراجع أيضاً مؤلف نقولا الترك : ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية ، وقد نشره بالعربية مع ترجمة له بالفرنسية :
M. Desgranges Aîné, *Histoire de l'Expédition des Français en Egypte*, Paris, 1839.

وقد ترجم G. Wiet الى الفرنسية نسخة أخرى من مذكرات نقولا الترك هذه تنتهي في سنة ١٨٠٤ (النسخة السابقة تنتهي في ١٨٠١) ، ونشر النص العربي وترجمته الفرنسية في كتاب عنوانه : *Chronique d'Egypte*, 2798-1804, Le Caire 1950
انظر الدراسة المقارنة التي قام بها الدكتور جورج حداد لكتابات نقولا الترك عن الحملة الفرنسية في مقال بعنوان :
« The Historical work of Niqula El-Turk, 1763-1828, *Journal of the American Oriental Society*, Vol. 81. No. 3 (1961), pp. 247-251.

اما بالنسبة للمصادر الاجنبية الحديثة فتراجع الدراسة الموجزة والدقيقة التي قامبها البروفسور P. M. Holt في كتابه : *Egypt and the Fertile Crescent*, pp. 155-163
وتراجع أيضا قائمة المصادر الاجنبية المذكورة في المصدر السابق ص ٣١٥ •

وتراجع حول بعض مظاهر ومصادر تاريخ مصر في العهد العثماني مجموعة الابحاث التي نشرها مؤخراً البروفسور P. M. Holt تحت عنوان :
Political and Social Change in Modern Egypt, London. 1968.

الأسر الحاكمة في المغرب العربي

شهدت كل من الجزائر وتونس وطرابلس ، في القرن الثامن عشر ، أسراً حاكمة ، اشبه بالملكيات ، استمدت قوتها من جمع السلطات في يدها ، ومن قيامها بدور أمني ، في الداخل والخارج ، عجزت الدولة العثمانية عن تأمينه ، في فترة انحطاطها • وكنا قد رأينا[1] كيف أن علي جاووش ، الداي العاشر في الجزائر ، في عهد الدايات الذي بدأ في عام ١٦٧١ واستمر حتى عام ١٨٣٠ ، قد اغتصب صلاحيات الباشا العثماني ولقبه ، في عام ١٧١١ ، واستمر ذلك في عهد خلفائه • وعبثاً حاولت الدولة العثمانية تعيين باشا من قبلها ، في عهد الداي عبدي باشا (١٧٢٤ – ١٧٣٤) ، الذي اعاده الى سادته في استانبول • ومع ذلك بقي الدايات يعترفون اسمياً بسيادة استانبول ، ودعموا الاسطول العثماني ، في اكثر من مناسبة ، بقوات جزائرية ، كما فعلوا مثلاً ابان الحرب الروسية ـ التركية ، بين ١٧٦٨ – ١٧٧٤ •

وكانت سلطة الداي مطلقة ، رغم تقييدها نظرياً بالديوان • واعتمد على جيش من الانكشارية الاغراب ، الذين جندوا عادة من الاناضول ، وخاصة المناطق الساحلية • والى جانب مسؤوليته عن ادارة الجزائر بكاملها ، فقد كان الداي مسؤولاً مباشرة عن بيلكية الجزائر • وقسمت بقية الجزائر الى ثلاث بيلكيات : بيلكية الشرق وعاصمتها قسنطينة ، وبيلكية الوسط ، أو تيطري ، وعاصمتها ميدية ، وبيلكية الغرب ، التي لم تستقر عاصمتها حتى عام ١٧٩٢ ، حين اصبحت في وهران التي اخلاها الاسبان آنذاك • وكان يحكم كل بيلكية باي ، وتدعم سلطته قوات انكشارية ، بالاضافة الى قوات خاصة يجندها من بين القبائل (قبائل المخزن)، المعفاة عادة من الضرائب • ولم يسيطر الدايات على جميع القبائل ، التي تمتع عدد كبير منها بالاستقلال الفعلي ، واتبعوا تجاهها سياسة فرّق تسد ،

---

١ ـ انظر ص ١٨٥ •

كما احاطوها بمراكز عسكرية • ونظراً لحاجة القبائل الى تبادل منتجات مناطقهم بمنتجات المدن ، لاستكمال اسباب عيشهم ، فقد استغلت ذلك سلطات المدن لفرض سيطرتها عليهم • وزاد في الأمر تناقص واردات القرصنة ، بسبب ضعف البحرية الجزائرية في القرن الثامن عشر ، مما حدا بالدولة الى التعويض عن ذلك بتشديد قبضتها في الداخل[1]•ويلاحظ أيضاً انه انتشرت في مناطق الريف سلطة المرابطين ، وحاولت الدولة التعاون معهم نظراً لما لهم من نفوذ لدى الشعب • ولكنهم بدأوا يتحولون عنها في القرن الثامن عشر ، حين اشتدت قبضتها ضد الشعب • ومع ان الدولة العثمانية اعتمدت المذهب الحنفي ، في حين تمسك سكان المدن في الجزائر بالمذهب المالكي ، فان الريف سيطرت عليه الطرق الصوفية ، وخاصة منها الدرقاوية ، والتيجانية ، والرحمانية التي اشعلت الثورات ، عدة مرات ، ضد الاتراك[2] • وتجلت في هذه الطرق نقمة الشعب الذي احتج على ابتزاز الدولة المال منه ، ومن هنا قوة الطرق ، وخاصة الدرقاوية ، في هذه الفترة •

وكما كان الحال في الولايات العثمانية في المشرق العربي ، حيث شغل الولاة مناصبهم لفترات طويلة ، في القرن الثامن عشر ، فقد تعاقب ستة دايات على الجزائر ، في الفترة بين ١٧٢٤ و ١٧٩١ ، باستثناء فترة اضطراب قصيرة في ١٧٥٤ • وكان الداي يعين خلفه ، وكثيراً ما اختاره من أسرته ، وينطبق ذلك على بيلكية الشرق ، التي تعاقب عليها خمسة بايات بين ١٧١٣ و ١٧٩٢ •

وقد تمتعت الجزائر ، في القرن الثامن عشر ، بسلطة قوية في الخارج، وخاصة بالنسبة للمناطق المجاورة • وهزمت قواتها في عام ١٧٧٥ قوة

---

١ ـ انظر : فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، ٧٥ ـ ٧٦ •
٢ ـ المصدر السابق ، ٧٦ ـ ٨٠ •

اسبانيـة هاجمتها ، كما طردت الاسبان مـن وهران في ١٧٩٢ • وهـزم الجزائريون ثلاث مرات قوات مولاي اسماعيل حاكـم مراكش ، وشنوا عـدة حمـلات ضـد تونس ، التي فرضوا وصايتهـم عليهـا بعد انتصار عام ١٧٥٦ •

وتعرضت الجزائر ، منذ السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر ، الى فترة اضطراب ، سرعان ما تلاها الاحتلال الفرنسي • ويعزى ذلك الى انحطاط مؤسستيها الشهيرتـين : القرصنـة والجيش • فبعـد أن كـانت القرصنة ناشطة في القرن السابع عشر ومصدر ثروةكبيرة نجد أناسطولها قد تضاءل في القرن التالـي ، وانحط مستوى البحـارة ، كما أن الغزوات غدت أقل ربحاً ، وتناقص عدد أسرى القرصنة من خمس وعشرين ألفـاً في منتصف القرن السابع عشر الى ثلاثة آلاف بعد قـرن من ذلك ، والى ألف في عام ١٧٨٨ • ويلاحظ أنه بازدياد قوة البحرية الاوروبية أصبحت عمليات انتقامها من السفن الجزائرية أكثر اتساعاً ، كما أن المعاهداتبين الدول الاوروبية والجزائر حدّت من مجال عمل البحرية الجزائرية • ويمكـن القول أن نشاط القرصنة الجزائريـة تأثـر بوضع الحكومـة الجزائرية [1] •

وبالنسبة للجيش فقد تضاءل عـدد المجندين من المشرق ، وكذلك عدد القوات بصورة عامـة • وفقد الجنود صفاتهم القتالية ، وانخرطوا في السياسة • وزاد في الأمر الضائقة المالية التي عانتها الدولة ، وانعكاس ذلك على عدم انتظام مرتبات الجيش • وأثرت فوضى الجنود على عدم استقرار الحكم في الجزائر ، ويذكر أنه في الفترة بين ١٧٩٨ و ١٨١٦ ، وصل الى الحكم سبع دايات بواسطة الثورة ، وأطيح بهم من الحكم أيضاً عن هذا الطريق•واضطر الداي علي خوجا في ١٨١٧ ، وخلفه حسين في ١٨١٨، الذي استمر حتى ١٨٣٠ ، أن يعيشا في القصبة ، عوضاً عن قصر الجنينة،

---

١ ـ انظر : فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، ٩٢ ـ ٩٣ •

وأن يتخذا حرساً كبيراً من أفراد القبائل ليوازنا بهم قوات الجيش • وقد ازداد ضعف هذه القوات بتوقف تجنيد أفرادها من آسية الصغرى ، في أعقاب قضاء السلطان محمود العثماني على الانكشارية في عام ١٨٢٦ • وبازدياد ضعف الانكشارية سمح لأبنائهم من النساء المحليات ، المعروفين بالقولوغلي ، بالانخراط في صفوفهم ، مما زاد في فوضى الجيش • وقد انضم القولوغلي بسرعة في عام ١٨٣٠ الى الادارة الفرنسية ، اثر الاحتلال الفرنسي للجزائر في ٥ تموز ١٨٣٠ • [١]

تسلم الحكم في تونس في عام ١٧٠٥ ، إثر هجوم داي الجزائر عليها وأسره حاكمها ابراهيم الشريف ، آغا السباهية الأتراك ، حسين بن علي ، مؤسس السلالة الحسينية التي حكمت تونس حتى عام ١٩٥٧ [٢]• وقد تمكن الباي حسين ، وهو ابن ضابط عثماني يوناني الأصل ، من طرد قوات داي الجزائر ، ومن القضاء على محاولة الانكشارية تنصيب الداي محمد خوجا الأصغر مكانه • وأفادت معارضته لمرشح الانكشارية ، واعتماده على دعم السكان المحليين ورجال القبائل ، في تعميق التقارب بينه وبين الشعب ، حتى انه اعترف بأولوية القاضي المالكي ، رغم أن المذهب الحنفي كان المذهب الرسمي في الدولة • ومنع الدايات العسكريين من اصدار حكم الاعدام ، وحصر ذلك بالمحاكم الشرعية • وقد نشط الزراعة ، وبنى الجوامع والمدارس ، مما حسّن صورته كحاكم مسلم ، وكان لهذا الدعم المحلي أثره حين عيّن السلطان العثماني والياً من قبله على تونس ، في عام ١٧١٥ ، وعهد الى القبطان باشا (قائد الاسطول العثماني) بتنفيذ ذلك • ولكن وقوف القوى المحلية الى جانب الباي حسين ردّ مرشح السلطان خائباً • واكتفى السلطان بعد ذلك بالخضوع الاسمي

---

١ ـ انظر : المصدر السابق ، ٨١ ـ ٨٩ ؛ وانظر ايضاً :

A. Raymond, 'North Africa in the pre-colonial period', *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. II, 277-285; Julien, 289-298; Abun-nasr, 175-176.

٢ ـ انظر ص ١٨٦ •

لباي تونس • وتمكن هذا ، في فترة الهدوء التي تلت ، من القيام بالعمران في تونس والقيروان •

وحدث في أواخر العقد الثالث من القرن الثامن عشر صراع داخل الاسرة الحسينية : بين الباي حسين وابن أخيه علي باشا ، وعرف اتباعهما بالحسينية والباشية•واتيح المجال لداي الجزائر للتدخل في هذا الصراع ، فدعم علي باشا في البدء وأوصله الى حكم تونس في ١٧٣٥ ، ثم تحول الى دعم أولاد الباي حسين ، الذي توفي في ١٧٤٠ • وتمكن داي الجزائر من احتلال تونس في ١٧٥٦ ، وقتل علي باشا ، وأعيد الجناح الحسيني الى الحكم • وكان أشهر حكامه الباي علي (١٧٥٩ - ١٧٧٧) ، والباي حموده (١٧٧٧ - ١٨١٣) ، وقد عملا على نشر الازدهار بتطوير الزراعة والتجارة ، وتمتعا بدعم السكان ، وخاصة الزعماء الدينيين ، وكذلك قوات الجيش • وانسحبت القوات الجزائرية من تونس ، وعادت العلاقات الطبيعية بين البلدين • وفي مطلع القرن التاسع عشر عادت الاشتباكات المسلحة بين قوات حاكمي الجزائر وتونس • وبوساطةالدولة العثمانية وقع الصلح بينهما في عام ١٨٢١ ، وصمدت جيوش تونس أمام فرانسا في ١٧٧٠ وأمام البنادقة في ١٧٨٤ - ١٧٨٦ ، وأصبحت تونس قوة هامة في المتوسط • ونشطت القرصنة التونسية ، ولم تتوقف حتى عام ١٨١٩ حين أقرت الدول الاوربية المجتمعة في مؤتمر اكس لاشابل ذلك•

وتصرف البايات الحسينيون كمستقلين في شؤونهم عن الدولة العثمانية ، فعقدوا المعاهدات ، وأعلنوا الحرب ، دون الحصول على موافقة السلطان • ومع ذلك اعترفوا بالسلطة الاسمية للسلطان ، فطلبوا منه لقب باشا ، بعد ارتقاء كل منهم الحكم ، وجعلوا الخطبة والسكة باسمه ، واشتركوا الى جانبه في الحروب البحرية ، ولكنهم امتنعوا عن تقديم المال له • ولم يهتم التونسيون بالعلاقة مع السلطان ، ونظروا الى الحسينيين

كحكامهم المطلقين الذين لا تحد من سلطتهم سوى الشريعة • وفي الواقع تمثل العلماء في المجلس الشرعي الذي استشاره الباي في القضايا الهامة •

وقد نشط البايان علي وحمودة الزراعة ، وألغيا النظام الذي أجبر الفلاحين على بيع حاصلاتهم مقدماً للدولة • وكانت تدفع للفلاح أسعار متدنية ، ويضطر ، اذا كان الموسم سيئاً ، الى بيع ممتلكاته للوفاء بما التزم به ، كما أنهما أنقصا من كمية المحاصيل التي تدفع من ضمن ضريبة العشر • وشجعا المتاجرة بالمنتجات التونسية باعطائهم التجار قروضاً بدون فائدة •

واهتم الباي حمودة بالقوات العسكرية ، لصد الاخطار الخارجية ، ولكنه أبقى القوات التركية بعيدة عن الاندماج بالسكان المحليين ، ووازنها بقوات من القبائل ، وخاصة من قبيلة زواوه ، التي جعلها جزءاً أساسياً في الجيش • كما اعتمد البايات على حرس من المماليك ، اشتهر من بينهم الشراكسة والجيورجيون (الكرجيون) ، وفاقوا المماليك الآخرين الذين من أصل يوناني أو ايطالي • وبدا البايات أشبه بأمراء عرب ، وكانت لغتهم وثقافتهم عربية ، وتصاهروا مع الاسر الكبيرة في تونس • وتخلى البايات عن اللغة التركية لصالح العربية في المعاهدات منذ عام ١٨٣٠ ، وفي المراسلات مع استانبول منذ عام ١٨٣٨ •

وازدادت المصاعب الاقتصادية والسياسية أمام تونس منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر • وقد تأثرت مالية البلاد بالغاء القرصنة في ١٨١٩ ، وبانتشار الطواعين والمجاعات بين ١٨١٨ ـ ١٨٢٠ • وعمد البايات ، لايجاد مصادر للثروة ، الى احتكار السلع ، مما أساء الى التجارة • وفي عام ١٨٣٠ كان المزارعون في الساحل على وشك الثورة بسبب سوء المحاصيل وسياسة الاحتكار • ولا شك أن المنافسة الاوروبية ، والتدخل الاقتصادي الاوروبي في تونس ، نقلا الثروة المحلية الى أيدي الأوروبيين • وأدى تمزق الامبراطورية العثمانية في المتوسط ، اثر احتلال الفرنسيين الجزائر ، الى

تدهور الحال في تونس ، اقتصادياً وسياسياً . وقد رحب باي تونس بالاحتلال الفرنسي للجزائر اعتقاداً منه أن ذلك سينقذه من خطر دايات الجزائر على بلاده ، ولكن الأمر أدى بتونس لأن تكون مركز تنافس فرنسي – بريطاني – عثماني ، وانتهى بها الأمر لأن تصبح محمية فرنسية في ١٨٨١ [١] .

وشهدت طرابلس الغرب في عام ١٧١١ ، كما سبق القول [٢] ، بداية حكم الاسرة القرامانلية التي استمرت حتى عام ١٧٣٥ . وكان مؤسس الأسرة ، أحمد قرامانلي ، ضابطاً فولوغليا من الفرسان ، ينحدر من قرصان تركي . وقد استغل غياب الوالي العثماني في استانبول ، فاغتصب السلطة ، وتسلم منصبي الداي والباشا ، مدعوماً من قبل الانكشارية والسكان المحليين ، وقضى على مقاومة كبار الضباط والموظفين الاتراك بدعوتهم الى اجتماع وذبح ثلاثمائة شخص منهم . وفشلت حملة عسكرية وجهها السلطان العثماني ضده في ١٧١٢ ، مما يدل على توطيد سلطته . واضطر السلطان العثماني للاعتراف به وتعيينه باشا على طرابلس . واستمر أفراد هذه الاسرة يتوارثون الحكم حتى عام ١٨٣٥ ، باستثناء فترة ١٧٩٣ – ١٧٩٤ ، حين سيطر على طرابلس مغامر من الجزائر يدعى علي برغل . وازدهرت الاسرة القرامانلية على القرصنة ، وكسبت شهرة عالمية وازدهاراً اقتصادياً من وراء ذلك .

وبلغت الاسرة القرامانلية عصرها الذهبي في عهد علي القرامانلي (١٧٥٤ – ١٧٩٣) ، واعتبر القراصنة آنذاك أشبه بالابطال القوميين ، وتقاسمت الدولة معهم أرباحهم . وشجع علي التجار المسيحيين واليهود على السكن في طرابلس . وتعامل التجار المسيحيون مع مالطة ، واليهود مع ليفورنه . وأدت الحاجة الاقتصادية الى القرصنة الى ازدياد تسلط

---

١ – انظر حول تاريخ تونس في هذه الفترة ، منذ مطلع القرن الثامن عشر : ابن ابي الضياف ، ج ٢ ، ٨٥ – ١٧٨ ، ج ٣ ، ١١ – ١٩٣ ؛ وانظر ايضاً :
Abun-Nasr, 179-189, Julien, 298-301.

٢ – انظر ص ١٩١ .

القراصنة مما أساء الى علاقتهم بالأهالي ، الذين فضلوا الحكم التركي على مساوىء حكم القرامانليين • وصادف ، في هذه الاثناء ، اهتمام السلطان عبد الحميد الأول باخضاع المناطق المتمردة على سواحل المتوسط ، ولهذا أرسل ، في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، حسن باشا القبطان على رأس اسطول للقضاء على ظاهر العمر في عكا ، والمماليك في مصر ، والسلالة الحسينية في تونس ، والقرامانليين في طرابلس ؛ وباستثناء قضائه على سلطة ظاهر العمر ، فقد فشل حسن باشا في تحقيق أهدافه في المناطق الاخرى•ولكن تهديده طرابلس أثار الاضطراب فيها حين خشي يوسف، ابن علي القرامانلي ، من فقدان أبيه السيطرة على الحكم ، فثار عليه ، وحاصر طرابلس • وانسحب حسن باشا القبطان ، في هذه الاثناء ، اثر وفاة السلطان عبد الحميد في ١٧٨٩ ، واستغل ذلك المغامر علي برغل ، الذي كان ضابطاً بحرياً سبق أن طرد من الجزائر وهرب الى استانبول ، وتعهد للسلطات العثمانية باعادة طرابلس الى الخضوع اليها ان هو نجح في السيطرة عليها • وتم له ذلك ، وهرب علي قرامانلي الى تونس•وخشي الحسينيون تهديد علي برغل لهم ، بعد أن احتل جربا في ايلول ١٧٩٤ ، فأرسلوا قوات بحرية وبرية لدعم القرامانليين ، واحتلت هذه القوات طرابلس في كانون الثاني ١٧٩٥ ، وأقامت أحمد بن علي والياً على طرابلس • وعين أخاه يوسف باياً لجمع الضرائب وادارة شؤون القبائل في الداخل ، ولكنه ، بدعم من هذه القبائل ، أطاح بأخيه أحمد ، في عام ١٧٩٥ •

واستغل يوسف القرامانلي انشغال أوروبا بحروب نابليون بونابرت فزاد من قوة اسطوله واستغله في القرصنة • واعتدى قراصنته في ١٨٠٣ على عدد من السفن الامريكية مما أدخله في نزاع مع أمريكا التي أجبرته في عامي ١٨٠٥ و ١٨١٣ على التعهد بعدم معارضة السفن الامريكية • واتخذت الدول الاوروبية في مؤتمري فينا (١٨١٥) واكس لا شابل

(١٨١٨) مقــررات بمنــع القرصنة ، ممــا أدى الى زوال شأن الاسطول القرامانلــي •

وعوّض القرامانليون عن اضمحلال موارد القرصنة بانتعاش التجارة عبر الصحراء ، بــين طرابلس وبورنو ، وفي داخــل افريقية ، في أعقــاب احتلال يوسف القرامانلي فزان في ١٨١١ ، واقامته الأمن فيها • وتوافد على طرابلس ، في أعقاب ذلك ، التجار والقناصل والمكتشفون الاجانب ، الذين اتخذوها مركزاً للتوغل في داخل افريقية • وسرعان ما نشأ التنافس بين الدول الغربية ، وبرز في هــذا المجال كل من الانكليز والفرنسيين ، وأقحم الحاكم القرامانلي في ذلك • ومما أثار الانكليز المعاهدة التي وقعهــا الفرنسيون مع يوسف القرامانلي ، اثــر احتلالهم الجزائــر في ١٨٣٠ ، والتي تعهد بموجبها بعدم الاشتراك في حرب ضدهم ، وبايقاف القرصنة، والحدّ من اسطوله • وقــد أثار هـــذا الخضوع للنفوذ الفرنسي حسد الانكليز على يوسف القرامانلي ، الذي كان يعاني آنذاك من صعوبات مالية، نتيجة لاضمحلال القرصنة وتخفيض قيمة العملة ، مما اضطره لابتــزاز المال • وثارت القبائل عليه ، بزعامة قبيلة أولاد سليمان ، وامتدت الثورة بتشجيع من الانكليز • وأحرجه هؤلاء بارسال قواتهم البحرية الى طرابلس لطلب وفــاء القروض التي بذمته • واستقال يوسف القرامانلــي في آب ١٨٣٢ ، لصالح ابنه علي ، الذي كان يدعمه الفرنسيون • وكان الانكليز يدعمون محمد القرامانلي ، ابــن أخ يوسف • واغتنم العثمانيون فرصة الخلاف الفرنسي ـ الانكليزي ، للتدخــل في طرابلس ، بعد أن خشوا تدخل حسينيي تونس في طرابلس ، وهم الذين هادنوا الاحتلال الفرنسي للجزائر • وتمكنت الحملة البحرية العثمانية في أواخر أيار ١٨٣٥ من احتلال طرابلس، وأنهت حكم الاسرة القرامانلية • واختلفت الآراء حول تفسير الاحتلال العثماني لطرابلس فمن قائل أنه تم بسبب رغبة الدولة

العثمانية في انشاء قاعدة حربية قرب الجزائر لمقاومة الفرنسيين فيها ، ومن قائل أن ذلك كان بتشجيع الانكليز ليحولوا دون توسع الفرنسيين في شمال افريقية ، ومن قائل أن الدولة العثمانية ، بعد أن أضاعت الجزائر ، حرصت الآن على عدم وقوع طرابلس بأيدي الانكليز أو الفرنسيين [١].

---

١ ـ انظر حول تطور طرابلس ، وليبيا بصورة عامة ، في هذه الفترة : رودلفو ميكاكي ، طرابلس الغرب تحت اسرة القرمانلي ، نقله الى العربية طه فوزي ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦١ ؛ عمر علي بن اسماعيل ، انهيار حكم الاسرة القرمانلية في ليبيا ، ١٧٩٥ ـ ١٨٣٥ ، طرابلس (ليبيا) ١٩٦٦ ؛ محمد ناجي ومحمد فوزي ، طرابلس الغرب ، ترجمة اكمل الدين محمد احسان ، طرابلس (ليبيا) ، ١٩٧٣ .
وانظر ايضاً : Abun-Nasr, 195-201.

الفصل الخامس

الانفصال عن العثمانيين

الاصلاح في الدولة العثمانية

قام السلاطين العثمانيون بالاصلاح تحت ضغط الهزائم العسكرية التي منوا بها ، ولهذا تناول اصلاحهم ، بالدرجة الاولى ، الجيش . وهدفوا من وراء ذلك تثبيت حكمهم وليس القيام بالاصلاح حباً به . وكانوا بذلك يتبعون السياسة ذاتها التي سبقهم اليها ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، الحكام المصلحون في بروسيا ، والنمسا ، وروسيا ، الذين طبقوا فلسفة الاستبداد المستنير ، وهي آخر محاولة من الملوك « للتوبة » عن سياستهم المطلقة ، بغية تحاشي قيام الثورات ضدهم . ولم يكونوا جميعاً مخلصين للاصلاح بل قاموا به بالمقدار الذي يخدم مصالحهم فقط .

وجاءت جميع الاصلاحات في الدولة العثمانية ، في القرن التاسع عشر من الأعلى ، لخدمة الطبقة الحاكمة . وكان أول السلاطين المصلحين سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) ، الذي قام بعدد من الاصلاحات ، أهمها في المجال العسكري ، حين أسس وحدات عسكرية حديثة عرفت بالنظام الجديد ، وأقام كذلك بعض الصناعات العسكرية . وبدأت المدارس العسكرية والبحرية ، التي سبق أن أنشئت ، بتخريج ضباط مدربين على الطراز الغربي . وأقيمت البعثات الدبلوماسية التركية في عدد من عواصم أوروبا الغربية والوسطى . وقد أدت هذه الاصلاحات ، وخاصة أوامر

السلطان في عـام ١٨٠٥ بتجنيد السكان وبعض الانكشاريـة في الجيش الجديد ، الى اثارة نقمة الانكشارية والعلماء ، الذين تمكنوا في عام ١٨٠٧ من الاطاحـة بحكـم السلطان سليم الثالث واصلاحاتـه ، بموافقة مفتـي استانبول ، وهو شيخ الاسلام • وفي العام التالي قام أحـد كبـار مؤيـدي الاصلاح ، مصطفى باشا بيرقدار ، وكان قائد فرقة انكشارية في روميلية ، بانقلاب ضد السلطان مصطفى الرابع ، الذي خلف سليماً ، ودبر مقتله ، ونصب محمود الثاني مكانه ، وأصبح هو نفسه صدراً أعظـم • ولكـن الانكشارية قتلوه بعد أشهر • وهكذا فشلت محاولات الاصلاح الاولى ، وتبين استحالتها من خلال المؤسسات العثمانية التقليدية •

بدأت المرحلة التالية من الاصلاحات،التي عرفت بالتنظيمات الخيرية، في عهـد السلطان محمود الثانـي (١٨٠٨ – ١٨٣٩) ، في أعقاب ثورة اليونان على العثمانيين في ١٨٢١ ، واثر الانتصارات التي حققها محمد علي باشا ، والي مصر ، ضـد اليونانيين ، بفضل جيشه الحديث ، مما شجـع السلطان محموداً على اعادة تشكيل النظام الجديد • وحين ثار الانكشارية احتجاجاً على ذلك ، قضى عليهم وأبادهم بقوة السلاح في عام ١٨٢٦ • ثم حل السلطان الطريقة البكطاشية المرتبطة بالانكشارية ، واضطهد أفرادها، وهدم عدداً من زواياهـا ، وكان يدعمـه في ذلك مفتي استانبول وكبار العلماء • ومما يجدر ذكره أن العلماء ، بعد أن فقدوا دعم الانكشارية ، انقسموا قسمين : الكبار منهم تحولوا الى دعم الدولة لأن معاشهم مرتبط بهـا ، خاصة وان السلطان محموداً وضع الاوقاف تحت اشراف الحكومة، التي قامت بتوزيـع المخصصات للعلمـاء ، ممـا أنهى استغلالهم المالـي ، وبالتالي حريتهم في العمل ضد الحكومة ؛ أما العلماء الادنى مرتبة ، الذين ضموا طلبة المدارس الشرعية المعروفين بالسفطه ، وكذلك اصحاب الطرق، فقـد وقفوا ضد الحكومـة ، ومارسوا نفوذاً كبيراً بـين جماهير الشعب • وجاءت الاصلاحات والانقسام في الولاء لتعمق الخلاف بين طرفي العلماء • ومما انقص من نفوذ العلماء فتح الدولـة المدارس عـلى الطراز الغربي ،

وهدفها في المرحلة الاولى تزويد الدولـة بالكوادر العسكرية والاداريـة الضرورية ، ولهذا اعطي الطلاب المرتبات ، واعتبروا موظفين حكوميين • ولتهيئة المدرسين استقـدم الخبراء الاوربيون ، وكثـير منهم اشتركوا في حروب نابليون بونابرت في اوروبا ، وحين انتهت وجدوا المجال مفتوحاً امامهم في الدولة العثمانية ، بعد ان اعتنق معظمهم الاسلام • كما ارسلت البعوث الى اوروبا بشكل متزايد • وكان عمل محمد علي باشا في مصر ، في هذا المجال ، مثالاً احتذاه السلطان العثماني •

ومن الاجراءات الهامة التي عززت سلطة الدولة المركزية القيام ، في عام ١٨٣١ ، باول مسح واحصاء للسكـان ، والهدف من ذلـك تجنيد الافراد في الجيش الجديـد ، وفرض الضرائب لتمويل هـذا الجيش • وصدر ، في ذلك العام ، اجراء هام آخر الغى نظام التيمار ، اي الاقطاع العسكري[1] ، الذي كان دعامة الدولة في مطلع عهدها ، وزودها بالفرسان (السباهية) ، الذين اعطوا الارض لقاء خدماتهم • وقد انهار نظام التيمار على مر الزمن ، والغيت السباهية بالغاء الانكشارية ، في عام ١٨٢٦، وتحولت الاقطاعات الى اراضي دولة ، وجمعت ضرائبها لتمويل الجيش الجديد • وزاد هذا الاجراء من مركزية الدولة ومن هيبة السلطان في الولايات[2] • ومن الاجراءات الهامة التي اتخذها السلطان محمود الثاني انشاء مديرية خاصة (تحولت الى وزارة فيما بعد) ، لتنظيم امور الاوقاف ، بعد ان فسد امرها ، وكثر تحويل الملك الى وقف اهلي او ذري ، لتحاشي مصادرته من قبل الدولة • ولما كان الوقف مقتصراً عادة على المدن وجوارها المباشر ، حيث شـاع الملـك وعم تحويلـه الى وقف ، بينما كـانت معظم الاراضي الزراعية في الريف اراضي دولة تعطى كاقطاع او تجبى وارداتها عن طريق الالتزام ، فقد تحولت واردات الوقف لتقوية طبقة العلماء ، الذين كانوا نظارا ومتولين للاوقاف •وجاء هذا الاجراء الجديد ليحرم العلماء من مصدر

---

١ ـ انظر ص ٤٦ •

٢ ـ انظر Lewis, *Emergence*, 88-90

هام من مصادر قوتهم ، وليزيد بالمقابل من سلطة الدولة[1] • ولعل أهم اجراء تشريعي سلب العلماء كثيرا من صلاحياتهم ، اصدار المجلة بفضل جهود الفقيه والمؤرخ احمد جودت باشا • وقد صدر قسمها الاول في عام ١٨٦٩ ، وتمت في ١٨٧٦ • ومع ان قانون الاسرة والارث بقي في ايدي السلطات الدينية ، فقد اشتملت المجلة على قوانين مدنية ، مبنية على مزيج من القوانين الاوروبية والشرعية ، فيما يتعلق بالامور الجزائية، والتجارية، والعقارية ، وقضايا الجنسية • واقيمت محاكم غير دينية لتنفيذ قوانين المجلة •

وقد صدرت ، على فترات ، سلسلة اخرى من الاصلاحات ، ابرزها خط شريف كولخانة (غرفة الورد) ، من قبل السلطان عبد المجيد ، في عام ١٨٣٩ ، وخط شريف همايون ، من قبل السلطان نفسه في عام ١٨٥٦ • وبلغ الاصلاح الذروة باعلان الدستور ، في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، في عام ١٨٧٦ • واقترنت هذه الاصلاحات بأسماء الوزراء رشيد باشا ، وعالي باشا ، وفؤاد باشا ، ومدحت باشا • وقد اتت من الاعلى لدعم سلطة الطبقة الحاكمة وامتصاص النقمة المحلية ، من ناحية ، ولارضاء الدول الكبرى ، وخاصة باعطاء الامتيازات للسكان غير المسلمين ، من ناحية أخرى • وقد اكد خط شريف همايون ما ورد في خط شريف كولخانة ، بل ذهب الى ابعد منه ، بأن اكد لغير المسلمين الحرية الدينية ، والمساواة امام القانون ، وفي الضرائب ، والوظائف العامة ، والانتساب الى المدارس ، والخدمة العسكرية • وما دامت هذه الاصلاحات قد تمت ، على الورق ، لارضاء الدول الاوربية ، في اوقات الحاجة اليها ، فلم تكن لتدل على سياسة تحررية مرسومة لدى الحكام العثمانيين ، اذ سرعان ما تخلى هؤلاء عن هذه الاصلاحات المعلنة ، بزوال الظروف التي ادت اليها • ومما يذكر ان خط شريف كولخانة قد صدر في ١٨٣٩ لاستجداء دعم الدول الاوروبية ضد محمد علي باشا لاخراجه من بلاد الشام ، وكذلك صدر خط شريف

---

١ ـ انظر : *Ibid.*, 91-92

همايون في ١٨٥٦ ، للحصول على دعم الدول الاوربية ، في مؤتمر باريس ، الذي أنهى حرب القرم بين العثمانيين ، تدعمهم فرانسا وانكلترا ، وبين روسيا • أما دستور ١٨٧٦ فقد صدر قبيل انعقاد مؤتمر برلين (١٨٧٨) لتسوية امور البلقان والذي قرر مصير الدولة العثمانية في اوربا • ورغم الصفة التحررية الظاهرية لهذه الاصلاحات ، فانها اكدت مركزية الدولة ، وحقوق السلطان اكثر من واجباته • وعندما رقي عبد الحميد الثاني السلطنة ، في عام ١٨٧٦ ، كان المنصب مهيئاً لمستبد ، لان القوى التي عارضت السلاطين ، من انكشارية وعلماء ، قد زالت ، في الوقت الذي استخدمت فيه الاساليب الاوروبية الحديثة ، على الصعيدين العسكري والمدني ، لتوطيد دكتاتورية السلطان وتشديد قبضته في مختلف انحاء الامبراطورية •

ولكن معارضة الاستبداد في الحكم بدأت تنمو فيصفوفالطبقة المثقفة• فالمؤسسات العلمية العلمانية التي اخذت بالانتشار ، في القرن التاسع عشر ، من مدارس ابتدائية وثانوية ، وكليات لتخريج الاطباء والمهندسين والمحامين والمعلمين والضباط ، وكذلك جامعة دار الفنون التي تأسست في ١٨٧٠ ودامت لفترة قصيرة ، اخذت بتخريج اجيال درست على الطريقة الاوروبية وبلغات اوروبية • وبانتشار الطباعة اشتهر الصحافي الذي لعب دورا هاما في التطور الوطني•وفي اعقاب الجريدة الرسمية التي صدر اول اعدادها في ١٤ أيار ١٨٧٢ ، ظهرت الصحف المستقلة ، وكانت اولاها جريدة الحوادث التي اصدرها انكليزي في ١٨٤٠ ، باللغة التركية • ثم بدأت المنافسة الصحفية بتأسيس جريدة اسبوعية ، في ١٨٦٠ ، باسم (ترجمان أحوال)• وتلتها بعد عامين صحيفة (تصوير أفكار) ، لابراهيم شيناسي ، وفي عام ١٨٦٣ صحيفه (مرآة) ، التي اصدرها نامق كمال • وقد لعب هذان الصحفيان ، بالاضافة الى ضيا باشا ، دوراً هاماً في نمو الحركة الادبية التي اتخذت بالتدريج صفة وطنية • وقد درس هؤلاء الادباء اللغة الفرنسية أما في استانبول او في اوروبا ، واتخذوا موقفا متطرفا من السلطة • وبرزت

في هذا المجال جريدة (مخبر) ، التي اصدرها في ١٨٦٧ علي سؤافي ، الذي كان ، على خلاف سابقيه ، ابناء الطبقة الحاكمة والملاكين ، ابن فلاح ، قدم الى استانبول ، ودرس على الطريقة التقليدية ، ثم اصبح معلما فصحفيا. وحين هاجم الصدر الاعظم نفي الى الاناضول ، ثم هرب الى اوروبا • وتكاثرت الصحف ، وازداد اهتمام السلطة بالسيطرة عليها ، مما اضطر عددا من الصحفيين الى الهرب الى اوروبا ، واصدار صحفهم فيها ، ثم تهريبها الى الدولة العثمانية • ومن سخرية القدر ان الذين ذهبوا الى اوروبا، في المرة الاولى ، ليتعلموا فنونها ، عادوا اليها بعد ذلك منفيين يدفعون ثمن ما تعلموه فيها •

واذا كان من السهل على السلطان عبد الحميد ان يضطهد دعاة الاصلاح من المدنيين ، فلم يكن الامر يمثل تلك السهولة فيما يتعلق بدعاة الاصلاح من العسكريين • فالعسكريون هم اول من احتك بالفكر الاوروبي، سواء عن طريق ايفادهم الى اوروبا أو بواسطة المدربين الاوروبيين في استانبول • والعسكري الذي درس اللغات الاوروبية اتعلم فنون القتال ، افاد من هذه اللغات في الاطلاع على الاتجاهات الفكرية وفنون الثورات التي زخرت بها اوروبا في القرن التاسع عشر • وهو الذي لاحظ قبل، بل اكثر ، من غيره، ان ازدياد استبداد السلطان رافقه سلخ اجزاء هامة من الامبراطورية العثمانية ، في الجزائر ، وتونس ، ومصر ، والبلقان • وكرد فعل لهذه الخسائر ولمقاومة دعاة الاصلاح والقومية في الداخل عمد السلطان عبد الحميد ، في محاولة لتوطيد سلطته ، الى تبني سياسة اسلامية للدولة العثمانية والى اتخاذ لقب خليفة ، واعلن ذلك في دستور عام ١٧٧٦ • ورغم تعليق الدستور بعد قليل ، فقد احتفظ السلطان باللقب ، لانه يخدم أغراضه • وكان السلطان العثماني قد استخدم لقب خليفة في السابق ، في معاهدة كجك قاينارجه ، مع روسيا ، في عام ١٧٧٤ ، لتغطية هزيمته العسكرية وتخليه عن اراض يسكنها اتراك مسلمون[١] • وهدف السلطان

---

١ ـ انظر ص ٢٢٨ •

عبد الحميد من لقب خليفة الى ارهاب بريطانيا خاصة التي كانت تحكم ملايين المسلمين في الهند ، وذلك باعلان الجهاد ضدها . وأفاده ذلك فيما بعد ، حين احتلت بريطانيا وفرانسا وروسيا وهولاندا مناطق اسلامية [١].

وقد ضم دعاة الاصلاح ، الذين جابهوا سياسة الاصلاح من الاعلى التي تبنتها الحكومة ، مزيجا من ضباط الجيش والموظفين المدنيين والمفكرين المعتدلين ، وشكلوا في عام ١٨٦٥ الجمعية العثمانية الفتاة . ولكن الخلافات الشخصية والعقائدية بين افراد هذه الجمعية ، والانتماءات الطبقية ، وبالتالي المصلحية ، المتضاربة التي توزعتهم ، سرعان ما اظهرت ضعف هذا التنظيم ، الذي دعا الى نوع من قومية عثمانية ـ اسلامية ، ولم يطالب بالاطاحة بالسلطان بل اكتفى ، على غرار ما طالب به دعاة فلسفة التنور في اوروبا آنذاك ، بتقييد سلطة الحاكم بدستور ، بمعنى آخر جعله مستبدا مستنيرا . وكان شعارهم : عدالة ، حرية ، وطن ، وليس مساواة لانهم لم يقبلوا بمساواة غير المسلمين بهم . وكانت تحكمهم مصالحهم الشخصية بدليل قبولهم خدمة الحاكم حين اتيحت لهم الفرصة . وكان اعلان دستور عام ١٧٧٦ تتويجا لمطامحهم ، ولكن تعليقه اظهر ضعف تركيبهم وعقائديتهم . ولهذا حل مكانهم ، في عام ١٨٨٩ ، تنظيم اكثر ثورية ، عرف بجمعية تركيا الفتاة . وكان نواتها طلاب المدارس الحربية ، الذين دعوا الى الاطاحة بالسلطان ، وضموا مزيجا من عناصر متنوعة ، من اتراك وعرب والبانيين وغيرهم ، من الطبقة المتوسطة الدنيا . واضطهد افراد هذا التنظيم، في عام ١٨٩٦ ، في اعقاب اتهامهم القيام بانقلاب ، فهرب بعضهم الى اوروبا . وتضاءل عنصر المدنيين في هذا التنظيم فكاد يقتصر على العسكريين ، واصبح مركزه سالونيك ، وشكل اتباعه جمعية الاتحاد والترقي . وكانت سالونيك ، عاصمة مكدونيا الثائرة ، مرتعاً خصباً لنشاط الماسونيين ، فاتخذ

---

٢ ـ انظر حول تفاصيل الاصلاحات العثمانية وتحليل بواعثها واوجهها المختلفة :
Lewis, *Emergence*, 73-170.

أفراد جمعية الاتحاد والترقي الماسونية ستاراً لنشاطهم • كما أن وجـود اليهود السفارديم (الاسبانيين) ، بأعداد كبيرة في هذه المنطقة ، اثر اخراج الساميين مـن اسبانيا في أواخـر القرن الخامس عشر ، وقيامهـم بنشاط ماسوني وثوري ، جعل بعض أفرادهم يبرزون في جمعية الاتحاد والترقي • وأخيراً أمكن لأفراد هذه الجمعية ، في ١٩٠٨-١٩٠٩ ، الاطاحةبالسلطان عبد الحميد الثاني ، والحكم من وراء سلاطين مضعفين • وكان لتبني أفراد هذه الجمعية في الحكم القومية الطورانية المتزمتة ، التي تنكرت للاخـوة الاسلامية وعادت الى الجذور الوثنية للأتراك ، وذلك بعد فترة قصيرة من اعلانهم احترام القوميات ، ضمن الاطار العثماني ، ان ألّب ضدهم مختلف القوميات ، وخاصة العرب ، الذين أعلنوا الثورة عليهم في ١٩١٦ ، كمـا سنرى في بحث لاحق •

حكم الطغاة في العالم العربي

شهـدت بلاد الشام والعراق ومصر ، منذ حوالـي منتصف القرن الثامن عشر ، تمركز السلطة في أيدي أمراء محليين ، أو مماليك ، احتكروا السلطـة العثمانية ، وان لم يعلنوا خروجهم صراحـة عـلى العثمانيـين • وقد سهل قيامهم ، واستمرارهم في الحكـم ، انحطاط السلطة العثمانية ، وتأمينهم النظام في الداخل والدفاع ضد الأعداء في الخارج ، وهي أمـور عجزت السلطة العثمانية عن تأمينها بصورة مرضية •

وقد سبق أن رأينا [1] كيف أن ظاهر العمر استغل وظيفته كملتزم للضرائب في منطقة صفد ـ طبرية ، وتحالف أسرته ، الزيادنة ، مع القبائل البدوية المحلية ، وكذلك ازدياد النشاط التجـاري الفرنسي في منطقته ، فأقام امارة عربية مزقها ، بعد أكـثر من نصف قرن ، ما يمزق الامارات

---

١ ـ انظر حول جمعيتي تركيا الفتاة والاتحاد والترقي الكتابين الهامين التاليين :

Feroz Ahmad, *The Young Turks - The Committee of Union and Progress in Turkish Politics, 1908-1914*, O.U.P. 1969;

E. Ramsaur, *The Young Turks*, rep. Khayats, Beirut, 1965.

البدوية من تنازع أبناء الاسرة على السلطة حين تزداد منطقة الأمير اتساعا ويبلغ الكهولـة • كما أن تحالفه مع قوى أكثر قوة وطموحا منه ، مثـل مماليك مصر ، أثار عليه حقد السلطات العثمانية فتخلصت منه في ١٧٧٥ ، ومن أبنائه خلال أعوام قليلة بعد ذلك •

واستغل أحمد الجزار الفراغ السياسي الذي حدث في بلاد الشام الجنوبية ، في أعقاب تلاشي نفوذ الزيادنـة وضعف سلطة ولاة دمشق ، فاشتهر أولا كقائد عسكري اشترك في توطيد السلطة العثمانية ، ثم عمل لمصلحته من خلال ولايته على عكا (صيدا) وعـلى دمشق [١] • وأقـام جيشاً من المماليك ، عـلى شاكلته ، تحدى بهـم السلطة العثمانية في سبيل الاستمرار في الولاية ، وأخضع بهم السكان المحليين ، وخاصة أمراء جبل لبنان • وبلغ ذروة شهرته بمقاومته ، في عكـا ، الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت ، وذلك بالتحالف مع الاسطول الانكليزي • وكـان من الطريف أن يراقب المرء تطور علاقة الجزار مع كل من أمير جبل لبنان، بشير الثاني الشهابي ، ومحمد علي باشا ، الذي توسع في بلاد الشام ، لو قدر له أن يبقى حتى تلك الفترة•وربما كانت وفاة الجزار ، في عام ١٨٠٤، قد جاءت في الوقت المناسب لتبقي له سمعة صموده أمـام نابليون دون أن يشوه ذلك أي فشل لاحق ، خاصة اذا علمنا عنف الهجمات التي شنهـا الوهابيون على أطراف دمشق[٢]،بعد وفاةالجزار بسنوات قليلة،وهزيمتهم للولاة العثمانيين في المنطقة ، وكذلك السهولة التي افتتحت بها قوات محمد علي باشا بـلاد الشام • ولم يكن اسماعيل باشا العادل[٣] ، أحـد كبـار مماليك الجزار ، الذي حكـم صيدا بـين ١٨٠٤ و ١٨١٨ ، يتمتع بمثل طموح الجزار او قوته • وقد اختص (بالعدل) ، بينما تسلم زمام المبادرة السياسية في المنطقة الامير بشير الثاني الشهابي •

---

١ ـ انظر ص ٣١٠ ـ ٣١٨ •

٢ ـ انظر ص ٣٤٢ •

٣ ـ انظر حول سيرته : ابراهيم العورة ، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل ،لبنان،١٩٣٦ •

ولـم تشمل سلطة الامير بشير الثاني مناطق واسعة كالتي شملتهـا سلطة فخر الدين المعني الثاني ، ومع ذلك فقد تمتع بسمعة كبيرة تجاوزت حدود منطقته ، بل وبلاد الشام ، حين وقف ضد نابليون بونابرتوتحالف مع محمد علي باشا حاكم مصر • وعلى غرار فخر الدين ، فقد شدد قبضته على الأعيان في منطقته ، وأخضعهم لسلطته •

وقـد سبق القول[1] إن الأمير بشيراً اعتلى الامارة في جبـل لبنـان في عام ١٧٨٨ ، ولكن الجزار حاول اضعافه باثارة الأمير يوسف الشهابي المعزول عليه • وبمقتل هذا الأخير في عام ١٧٩٠ ، سعى الجزار الى اثارة أبناء الأمير يوسف عـلى الامـير بشير • وفي ثلاث مناسبات ، في ١٧٩٣ ، ١٧٩٤، و ١٧٩٨ تدخل الجزار ضد الامير بشير ، وعزله وعين أبناء الامير يوسف الثلاثة مجتمعين مكانه • وطبيعي أن يؤدي ذلكالى اضطرابات بين سكان الجبـل بسبب انقسام الولاء بين الفريقين • وحين حـاصر نابليون بونابرت عكـا في ١٧٩٩ ، توجـه ، مثلما فعـل الجـزار ، الى طلب مساعدة الأمير بشيراً ، ولكن هـذا ماطل في الجواب لكي يرى نتيجـة الصراع ، خاصة وان السكان أنفسهم كانـوا منقسمين بالنسبة للطرفـين المتحاربين • وبانسحاب نابليون واشتداد معارضة الجـزار لبشير انسحب هذا الى العريش ، حيث لجـأ الى القوات العثمانية ـ البريطانية المتعاطفة معه ، بسبب تقديمه المؤن لهم ، وبواسطتهم عاد الى لبنان • ولم ينقذه من الجزار سوى وفاة هذا الأخير في ١٨٠٤ •[2]

أتيحت للأمير بشير ، بعد عام ١٨٠٤ ، فرصة توطيد مركزه فيلبنان، بالتعاون مع العثمانيين•وفي عام ١٨١٠ أرسل قواته لدعمهم في صد هجمات الوهابيين على منطقة دمشق ، ولكن تعيين عبد الله باشا الطموح على ولاية عكا في ١٨١٩ ، ومحاولته فرض ضرائب كثيرة على الامير بشير أحـرج مواقف هذا الاخير في جبل لبنان ، وأدى الى ثورة السكان عليه في عـام

---

١ ـ انظر ص ٣١٥ •

٢ ـ انظر : Salibi, *The Modern History of Lebanon,* 21-22

١٨٢٠ ، فيما عرف بالعامية الاولى ، نسبة الى العوام الذين اشتركوا في الثورة • والتجأ الأمير بشير الى حوران ، ليعود بعد عام الى امارة الجبل بموافقة عبد الله باشا الذي وجد أن الامير بشيراً أقدر على حكم الجبل من أبناء عمه الذين نصبهم مكانه • وبلغ من دعم بشير لعبد الله باشا أن علاقته ساءت مع العثمانيين حين نشب القتال بين والي دمشق وعبد الله باشا • وبهزيمة هذا الأخير ، هرب الامير بشير الى محمد علي باشا والي مصر ، ومن هنا العلاقة الطيبة بين الفريقين • واستغل محمد علي باشا ذلك للتدخل في شؤون الشام ، وبواسطته عاد كل من عبد الله باشا والامير بشير الى منصبيهما •

واستغل الامير بشير علاقته الحسنة مع عبد الله باشا ودعم محمد علي باشا له فحاول القضاء على أشد معارضيه في جبل لبنان، وهو بشير جانبلاط، فطالبه بمبلغ كبير من المال ، مما اضطره للثورة • وهزمت قوات بشير جانبلاط في عام ١٨٢٥ ، وقتله عبد الله باشا حين لجأ اليه • وترتب على ذلك نتائج هامة في الجبل لان مقتل بشير جانبلاط أزال ليس فقط خصماً عنيداً للأمير بشير الشهابي ، وانما زعيماً درزياً قوياً مما أضعف الطائفة الدرزية بعد ذلك ، وزاد من عدائها للأمير بشير الشهابي ، الذي شاع عنه اعتناقه المسيحية آنذاك[1] • ودفع الامير بشير ثمن تحالفه مع محمد علي باشا بوقوفه الى جانبه حين غزت قواته بلاد الشام في ١٨٣١ ، وبعزله من الأمارة حين أخرجت قوات محمد علي باشا من الشام في ١٨٣٩ •

ولم يدم حكم المماليك في العراق ، كما سبق القول [2] ، الى أبعد من عام ١٨٣١ • ولم يكن طاغيتهم الاخير ، داوود باشا ، سوى مظهراً ذاوياً للسلطة المملوكية ، فالعوامل التي أتت بالمماليك الى حكم العراق تلاشت الآن ، ومعها الزعامة المملوكية • فقد نشطت الادارة العثمانية ، في عهد السلطان محمود الثاني ، الذي قضى على مراكز القوة ، من انكشارية

---

١ ـ انظر تفاصيل الاحداث السابقة في : *Ibid.* 22-27; Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, 232-234.

٢ ـ انظر ص ٣٢٨ ـ ٣٣٣ •

وعلمـاء وأصحاب اقطاعات ، وبدأت السلطة المركـزية تقوى بنتيجـة الاصلاح . كما أن الخطر الذي هدد العراق من بـلاد فارس ، في القرن الثامن عشر ، واستدعى ظهور المماليك وتشبثهم بالحكم ، قد انعدم تقريباً في القرن التاسع عشر ، لأن حكام بلاد فارس آنذاك من القاجار (١٧٩٤ـ ١٩٢٥) ، كان همهم توطيـد سلطتهم في الداخـل ومحاربـة روسيا التي احتلت أجزاء من أراضيهم [١] . ويذكر أنه بموجب المعاهدة الروسية ـ الفارسية ، في عام ١٨٢٨ ، التي اعترفت باحتلال روسيا للقفقاس ، وضع حد لتجنيد المماليك مـن مناطق القفقاس ، وتوقف بالتالـي ارسالهم الى العراق ، والى مصر . والعامل الآخـــر الذي استدعى تسلط المماليك في العراق ، في القرن الثامن عشر ، وتضاءل شأنه الآن ، هو اعتداءات قبائل البدو ، وخاصة المنتفق وبني خالد ، التي شغلت ، في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، اما بتبني أو بمعارضة الوهابية . كما أن الحركة الوهابية ، بعد غزواتها في مطلع القرن التاسع عشر ، على مناطق بغداد ، قد تحولت بعد ذلك من دور الغزو الى دوُر الاستقرار واقامة دولة منظمة في الحجاز ومناطق الجزيرة الاخرى ، ولهذه الأسباب مجتمعة كان حكم المماليك في العراق محكوماً عليه بالتلاشي . وخـلال ثلاث سنوات من انتهائـه انتهى حكم آل الجليلي في الموصل [٢] .

واذا ما نظرنا الى حكم الزعمـاء السابقين : ظاهـر العمر ، أحمد باشا الجزار، بشير الثاني الشهابي، وداود باشا ، لوجدنا أنهم ، رغم ما تمتعوا به من زعامة قوية وما مارسوه من طغيان وتسلط بالنسبة للرعية ، وخاصة في مثال الجزار وبشير، لم يبلغوا الشهرة التي بلغها محمد علي باشا في مصر . ولاشك أن المناطق التي ظهر فيها ظاهـر ، والجـزار ، وبشير ، كانت ، بمواردها البشرية والاقتصادية والعسكرية ، مؤهلة لزعماء من هذا القدر،

---

١ ـ انظر حول تطور بلاد فارس في هذه الفترة :

A. K. S. Lambton, "Persia : The breakdown of society", *The Camb. Hist. of Islam*, 432ff.

٢ ـ انظر ص ٣٣٢ ـ ٣٣٤

بينما أتاحت امكانات مصر الكبيرة ، على مختلف المستويات ، لمحمد علي باشا أن يكون على رأس الطغاة ، في اتساع السلطة ، والطموح ، واستمرار الحكم في أسرته . فسخر مصر ومواردها لخدمة أسرته ، وجند شعبها لتحقيق أطماعه في التوسع ، بينما قوضت معارضة الشعب وزعاماته الاقطاعية الطغاة في بلاد الشام ، بما في ذلك حكم محمد علي باشا ، حين احتل الشام .

أتى محمد علي ، كبير الطغاة ، مع الفرقة الالبانية ، ضمن الجيش العثماني ، المكلف باخراج الفرنسيين من مصر اثر احتلالهم لها في عام ١٧٩٨ . وقد دام الاحتلال الفرنسي لمصر حتى عام ١٨٠١ ، وتمت اعادة السلطة العثمانية الى البلاد بواسطة القوات العثمانية والانكليزية . وحدثت تغيرات هامة في ميزان القوى بنتيجة الحملة . فالى جانب اضعاف المماليك، أثارت الحملة الفرنسية اهتمام الانكليز بوضع مصر ، كما أنها أظهرت عدم الكفاءة التركية ، وأتاحت ، أخيراً ، لمغامر ألباني ، هو محمد علي ، أن يبرز في مصر . وعلى الصعيد الثقافي فقد فتحت الحملة مصر الى المؤثرات الاوروبية التي غيرت كثيراً من المفاهيم المحلية . وقد اعتمد الفرنسيون في ادارتهم مصر على طائفتين من سكانها : العلماء والاقباط . أما العلماء فاستخدموا عن طريق الدواوين كحلقة وصل بين الفرنسيين والسكان المحليين ، وشكلوا ، بالاضافة الى التجار ، ما عرف بطبقة الاعيان، التي اعتبرت نفسها ممثلة للشعب المصري . واستخدم الاقباط خاصة في الشؤون المالية ، وكان هذا استمراراً لوضعهم في العهود السابقة . وقد حاول العثمانيون القضاء على المماليك ، ولكن الانكليز منعوهم عن ذلك بقصد الحيلولة دون العثمانيين وسيطرتهم التامة، وأيضاً بسبب وجود فريق من المماليك موالٍ للإنكليز . وحين أقرت معاهدة أميان في ١٨٠١ ، بين بريطانيا وفرانسا ، اعادة مصر الى السلطان العثماني ، وذلك بالحاح

الفرنسيين خوفاً من بقاء الانكليز فيها ، صدر عفو عن المماليك • وفي عام ١٨٠٣ انسحب الانكليز أيضاً من مصر •

وحدث في الفترة بين ١٨٠٣ و ١٨٠٥ اضطراب في وضع القوى في مصر ، ولم يعرف في يد من كانت السلطة الفعلية • وكانت توجد في مصر آنذاك ثلاث فئات : الباشا العثماني ، الذي كانت تدعمه القوات العثمانية ، باستثناء القوة الالبانية (الفئة الثانية) ، التي اتبعت سياسة مستقلة ، وكان أبرز زعمائها طاهر باشا ومحمد علي ، ثم المماليك ، الذين كانوا منقسمين على أنفسهم ، بين فريقي البرديسي والألفي • ونتج عن صراع هذه الفئات الثلاث على السلطة أن زال من بينها أولا الحاكم العثماني خسرو باشا ، الذي أصبح فيما بعد صدراً أعظم • وقصة ذلك أن الألبانيين ، بزعامة طاهر باشا ، ثاروا على خسرو باشا ، في عام ١٨٠٣ ، لعدم دفعه المال الكافي لهم ، وطردوه من القلعة ، واحتلوها ، بمساعدة المماليك ، وتسلمها من بعده طاهر باشا • ولكن بعض الألبانيين اغتالوا طاهر باشا ، ربما بدسيسة من محمد علي ، الذي أصبح زعيم الالبانيين الأوحد • وقد أرسل السلطان حاكماً آخر الى مصر في ١٨٠٤ ، الا أنه قتل من قبل أتباع البرديسي • وهكذا أصبحت السيطرة في مصر للألبانيين والمماليك ، يجمع بينهم عداؤهم للسلطة العثمانية • وبضعف هذه السلطة ، ممثلة بشخص الحاكم العثماني ، أخذ التحالف المملوكي الألباني بالضعف • وزاد في ذلك طلب الالبانيين المال ، ولجوء المماليك الى العنف لتحصيله لهم من قبل الاهلين ، مما أفقدهم الكثير من شعبيتهم • وكانت عودة الالفي من انكلترا في ١٨٠٤ حافزاً لازدياد العداء بين حزبه وحزب البرديسي ، الذي دعمه محمد علي لتعميق الخلاف بين المماليك والافادة منه • وباشتداد نقمة الألبانيين على المماليك ، بسبب المال ، تحالف محمد علي مع الحاكم العثماني الجديد خورشيد باشا ، ليستفيد من دعمه • ونتج عن محاولة المماليك جمع المال بالقوة ان أثارت الشعب الذي لجأ الى محمد علي كزعيم

منقذ . وأقنعه العلماء في ١٨٠٥ أن يستلم الحكم بنفسه . وكان من مقاومة خورشيد باشا لهذا الاختيار أن زادت من التفاف الشعب حول محمد علي . واعترف السلطان في حزيران ١٨٠٥ بمحمد علي حاكماً على مصر [١] .

عمل محمد علي باشا ، في الفترة بين ١٨٠٥ و ١٨١١ ، على توطيد سلطته ضد الانكليز من ناحية والمماليك من ناحية أخرى . وكان الانكليز يخشون وقوع الدولة العثمانية تحت نفوذ نابليون المتزايد آنذاك ، وبلغت مخاوفهم أوجها إثر انتصارات نابليون الساحقة في أوروبا بين عامي ١٨٠٥ و ١٨٠٦ واعتراف السلطان العثماني بنابليون امبراطوراً ، ولهـذا احتلوا الاسكندرية في ٢٠-٢١ آذار ١٨٠٧ ، وهبّ الى مساعدتهم حزب الألفي المملوكي . ومما سهل هذا الاحتلال أن محمداً علياً لم يكن يسيطر تماماً عـلى الاسكندرية . ولكن محاولـة الانكليز التوسع في ناحية الرشيد ، وفشلهم في احتلالها شجع الألبانيين على مقاومتهم ، وجعل المماليك يترددون في الانضمام اليهم ، وأقنع الشعب في عدم الثورة على الالبانيين . وتمكن محمد علي باشا من اخـراج الانكليز من مصر بموجب ميثاق ١٤ ايلول ١٨٠٧ . وزاد هذا النصر في تدعيم سلطته .

ونجح محمد علي باشا ، اثر ذلك ، في القضاء على زعمـاء المماليك بين ١٨١١و١٨١٢ . وكان هدفه ، أشبه بالسلطان سليم الاول ، أن يقضي على زعمائهم ، وليس على وجود المماليك ككل . وكان المماليك قد ازدادوا ضعفاً في أعقاب احتلال روسيا للقفقاس ، وتوقف مجيء المماليك الى مصر . ونتج عن قضاء محمد علي باشا على غالبية زعماء المماليك في مذبحة القلعة المشهورة (هربت جماعة صغيرة منهـم الى جنوبي الشلال الاول ، عـلى

---

١ ـ انظر حول هذه التطورات :

H. H. Dodwell, *The Founder of modern Egypt*, Cambridge, 1931, pp. 12-23; Shafik Ghorbal, *The Beginnings of the Egyptian Question and the rise of Mehemet Ali*, London, 1928.

النيل،خارج الاراضي المصرية،وقضى عليهم محمد علي باشا فيما بعد [١])،
أن شغر كثير من الالتزام الذي كان يتصرف به المماليك • وأدى هذا
الى استرجاع الدولة الاراضي التي أصبحت بدون ملتزمين • وطبيعي أن
نظام الالتزام ، كما كان عليه في مصر قبل عهد محمد علي باشا ، لا يتفق
ورغبته في تقوية مركزه في مصر ، ومركز مصر بالنسبة لغيرها • فقد حرم
نظام الالتزام الدولة من كثير من واردات الزراعة ، وجعلها في أيدي
الملتزمين الذين كانوا أشبه بالاقطاعيين ، مما زاد في تسلط هؤلاء على
الفلاحين ، وأنقص ، بالمقابل ، من هيبة الدولة بينهم•وقد انتبه محمد علي
باشا الى ضرر الالتزام الذي لم يدفع أصحابه الضرائب فصادره • وبلغ
ذلك ذروته بعد القضاء على زعماء المماليك ، وعرفت أراضي الالتزام
المصادرة التي ألحقت بالدولة باسم المربوط • واتبع محمد علي باشا ذلك
بالاستيلاء على أراضي الأوقاف ، رغم معارضة العلماء ، الذين تضرر
بعضهم أيضاً بصفتهم ملتزمين • وكان العلماء برئاسة السيد عمر مكرم
نقيب الاشراف ، الذي طرده محمد علي باشا من منصبه ، اثر انتصاره على
معارضة الملتزمين والعلماء • ولم ينفذ محمد علي باشا ، عقب انتصاره على
المماليك ، وعوده بالتعويض على أصحاب الالتزام •

وقام محمد علي باشا بعملية الروك (مسح الاراضي) في مصر العليا
في ١٨١٢ ، بعد تعيين ابنه ابراهيم حاكماً عليها • واتبع ذلك بعملية مشابهة
في مصر السفلى في ١٨١٤ • وبموجب ذلك سجلت الاراضي باسم سكان
القرية ، بشكل مشترك ، وأصبحوا مسؤولين عن دفع الضرائب مباشرة
للدولة ، دون وساطة الملتزمين • ولم يتمتع الفلاحون ، تبعاً لذلك ،
بملكية الارض أو حقوق وراثتها ، طيلة عهد محمد علي باشا ، بل كان
الهدف اشراكهم في مسؤولية جمع الضرائب • وان قضاء محمد علي باشا
على طبقة الملتزمين المستغلة ، وحدّه من سلطة العلماء ، سواء بأخذ الالتزام
ونظارة الاوقاف منهم ، أو بمنعهم من التكتل كقوة سياسية ، قد أفاده في

---

١ ـ انظر ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠ .

التخلص من تدخل هاتين الطائفتين المتميزتين ونفوذهما • ولكن محمداً علياً حاول ، من ناحية أخرى ، ايجاد طوائف أخرى مخلصة له ، فعمد ، في النصف الثاني من حكمه ، الى اعطاء مساحات كبيرة من الاراضي الزراعية (المعروفة باسم جفتلك) الى أفراد أسرته والى بعض الاعيان وكبار الموظفين كما أنه منح كثيراً من الاراضي غير المستثمرة الى كبار الموظفين ، وأعفاهم من دفع الضرائب تشجيعاً لهم على استثمارها • وكان منح هـذه الاراضي يقوم ، في البدء ، على حق التصرف ، وانقلب هذا الحق ، في عام ١٨٣٦، الى حق وراثي ، ثم الى ملكية فردية [١] • وأنشأ محمد علي ، في أواخر عهده ، نظام العهدة ، أي أن يعهد الى كبار الموظفين بجمع الضرائب من القرى • وهكذا ، أوجـد محمد علي باشا من حوله طبقة مستثمرة حلت محل الطبقة القديمة ، وكان ولاؤها له كمؤسس لها • ووطدت طبقة كبار الملاكين ، التي أوجدها محمد علي باشا ، سلطتها على مر الزمن، وعارضت الفلاحين الذين استغلتهم ، وكذلك السلطة الحاكمة ، حين حاولت الحد من امتيازاتها • وباحتلال الانكليز مصر في عام ١٨٨٢ ، وجد أفراد هذه الطبقة في الانكليز حليفاً طبيعياً لهم للدفاع عن مصالحهم •

يتبين لنا مما سبق أن التغييرات التي أدخلهـا محمد علي باشا عـلى نظام الاراضي لـم تكن الغاية منها اصلاحية صرفة وانمـا كانت محاولـة لتقويض دعائم طبقة مستثمرة ذات امتيازات قديمة وغير مأمونة بالنسبة اليه، واستبدال طبقة مستثمرة أخرى بها ، ولكنها تخدم مصلحته • وحين ضعفت سلطته وسلطة خلفائه لم تعد هذه الطبقة تخدم مصالح الأسرة الحاكمة ، بل تحولت الى طبقة ملاك جديدة تخدم مصالحها بالدرجة الاولى • ولكن ماهي مصلحة محمد علي باشا التي حاول توطيدها ؟

لم يقم محمد علي بهـذه الاصلاحات كغاية في حد ذاتهـا ، وانما استخدمهـا كوسيلة لتوطيد نفوذه ومكانـة اسرته في مصـر • واذا كانت

١ ـ انظر حول ذلك :
G. Baer, *A History of landownership in modern Egypt, 1800-1950*, pp. 2-7

التنظيمات التي أوجدها في استغلال الاراضي قد حولت واردات الدولة من أيدي أعدائه اليه والى مؤيديه فقد استخدم هذه الواردات لبناء جيش قوي حديث يستطيع به أن يدعم سلطته ومركز اسرته في مصر • وليزيد من واردات الاراضي فقد طوّر الري ، وقام بحفر أقنية جديدة وبتنظيف القديمة منها •

وفي محاولة محمد علي باشا التصرف بثروات البلد فقد احتكر التجارة • ولم يكتف فقط باجبار الفلاح على الزراعة ، بل نراه في بعض المناطق ، يعين المحاصيل التي تجب زراعتها • وأمر بأن تقدم المحاصيل الى عنابر الدولة بأسعار محددة • واستغل حاجة الانكليز للحبوب فاحتكر تصديرها ، وبلغ ربحه من ذلك خمسمائة بالمائة • واهتم بزراعة القطن ، الذي كانت له أسواق خارجية هامة، فشجع زراعة مساحات كبيرة من الأراضي بهذا المحصول • ومن أخطار هذه السياسة ان أي مانع خارجي لتصريف القطن أو أية اصابة طبيعية له من شأنها أن تسبب خسارة كبرى • واستلزمت هذه السياسة الاقتصادية ، التي ضحت بزراعة كثير من المواد غير المربحة تجارياً ، استيراد هذه المواد من الخارج ، مثل التبغ الذي اشتد استيراد مصر له من بلاد الشام • واقتضت سياسة محمد علي الزراعية هذه انشاء شبكة جديدة من المواصلات وايجاد نظام جديد في التسويق •

حاول محمد علي ، على غرار الدول الأوروبية ، اقامة صناعات محلية في مصر مستخدماً لأجل ذلك ، في البدء ، الرأسمال الزراعي • وكان هدفه تقوية الاقتصاد المصري واقامته على أسس أكثر استقراراً • فاستحضر المعامل ، واهتم خاصة بصناعات النسيج ، ولكنه فشل في هذه الناحية فشلا ذريعاً لافتقار هذا النوع من الصناعة الى الخبرة العمالية والوعي الصناعي والسوق الداخلية والخارجية • وسرعان ما أهملت المعامل لسوء الادارة وكره الفلاحين العمل فيها لما اقتضى ذلك من جهد لم يعتادوا عليه • ووجب الحاق الفلاحين بالمعامل بالقوة أشبه بالخدمة العسكرية آنذاك •

وانعكس اثر ذلك ، بالمقابل ، على الزراعة اذ حرمها من فلاحين يمكنهم تأدية خدمة أكبر فيها •

يبدو أن محمد علي باشا قد تأثـر في مشاريعه الاقتصادية السابقة بأفكـار السان سيمونيين ، (نسبة الى Saint Simon) ، الـذين أمضوا بضع سنوات في مصر في الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، يعملون كأطباء ومهندسين ومعلمين ، ويشاركون في تنظيم مشاريع الري • وكانت المبادىء السان سيمونية تدعو الى اقامـة مجتمع نموذجي يسيطر عليه جماعة من العلمـاء وتنظمـه المقاييس العلمية بدل المقاييس الاخلاقية التي انهارت • وحـاول السان سيمونيون أن يجدوا في مصر ، مثلمـا حـاول جماعـة روبرت أون (Owen) البريطاني أن يجدوا في أمريكا ، مخبراً لتطبيق أفكارهم في الاشتراكية •

ولم تكن سياسة محمد علي باشا الاقتصادية غاية في حد ذاتهـا بل وسيلة للحصول على المال لاقامة جيش قوي حديث يوطـد بـه حكمه في الداخـل ، ويستخدمه لفرض نفوذه في الخارج تجاه السلطان العثمانـي والدول الأوروبية •

واعتمد محمد علي باشا ، في البدء ، على مزيج من الجنود الألبانيين والأتراك والمرتزقة والبدو ، ولكن عدم التجانس بين أفراد هـذا الجيش الذي تجلى في ضعفهم في حروب الجزيرة العربية بين ١٨١١ و ١٨١٨، وفي السودان بـين ١٨٢٠ ـ ١٨٢٤ ، جعلـه يتحول الى تجنيد العبيد من السودان • ولكن هؤلاء لم يتحملوا مناخ مصر فبدأوا يموتون بأعداد كبيرة مما جعل محمد علي باشا يتحول الى ايجاد جيش من الفلاحين المصريين منظم على الطريقة الأوروبية ، عرف بالجهادية • وبدأ أيضاً بانشاء اسطول على الطراز الأوروبي • وقد أدى ايجاد هذا الجيش ومتطلباته الى ادخـال تنظيمات بعيدة المدى في مصر • وكان تجنيد الفلاحين في مصر حدثاً عامـاً

لم تشهد مثله البلاد منذ قرون • وقد عارضه الفلاحون ما استطاعوا ، وكان ذلك سبباً في قيامهم بثورات متعددة •

ولخدمة سياسته العسكرية افتتح محمد علي باشا عدداً من المدارس المهنية في مصر ، ودرّس من اللغات الاجنبية الايطالية ، الشائعة في الشرق منذ عهد نفوذ الجمهوريات التجارية الايطالية ، واللغة الفرنسية التي ازدادت أهميتها على مر الزمن • وافتتح مدرسة طبية في ١٨٢٧ لتقديم الخدمات الطبية للجيش•وقام المترجمون بدور هام في مجال التعليم لانهم ترجموا محاضرات الخبراء الأجانب ، وغالبيتهم من الفرنسيين ، الى اللغة العربية • وكان الطلاب يدرسون على نفقة الحكومة • وبالاضافة الى استقدام الخبراء الاجانب فقد أرسلت بعثات طلابية الى اوروبا ، وخاصة فرنسا ، منذ ١٨٠٩ ، ثم نظمت بعد ١٨٢٦•وكان الطلاب يطلعون في ديار الغرب على الأفكار السياسية الى جانب دراستهم المهنية،ويرون بأنفسهم كيف تصنع الثورات • وأسس محمد علي باشا في ١٨٣٦ مدرسة للغات هدفها ترجمة المؤلفات الغربية الى اللغة العربية•وقد ترأسها رفاعة رافع الطهطاوي الذي كان امام احدى البعثات الطلابية ، في فرانسا ، وعاد الى مصر وقد تأثر بحضارة الغرب اكثر من طلابه • واقيمت اول مطبعة حكومية في بولاق في ١٨٢٢ • وكانت اول مطبعة عربية اتي بها الى مصر في زمن نابليون بونابرت •

واجهت محمد علي باشا مهمات ادارية معقدة نتيجة لتشعب الاصلاحات والالتزامات التي قام بها • وفي محاولة منه لتنظيم الادارة فقد قسمها الى عدة دوائر،أسماها بالدواوين ، وتعنى بالشؤون الداخلية والمالية والتجارية والصناعية والتعليمية والعسكرية وغيرها • وقد شغل المصريون وظائف ثانوية في التنظيم الاداري ، وقام بالدور البارز ، في الادارة والجيش ، افراد من اسرة محمد علي باشا ، ومن الأتراك ، ثم الشراكسة • واعتمد على الأرمن والأقباط في الادارة • وقد حل مشكلة البدو بالقوة حينا ، كأخذ الرهائن

منهم ، وادخال افرادهم في الجيش ، ومصادرة خيولهم ، وباللين حينا آخر، بتعيين شيوخهم حكاماً اداريين محليين،وباستمالتهم الى الاستقرار،واعطائهم الاراضي مجانا لزراعتها • ولم يكن محمد علي ديمقراطيا في اساليبه ، بل كان مستبداً يتخذ من القرارات مايراه مناسبا • وكان احيانا يستشير مقربيه وخلصائه • وأسس ، على غرار نابليون بونابرت ، مجلس المشورة الذي انعقد في ١٨٢٩ ، وضم كبار الموظفين والعلماء والاعيان ، وقد اصبح هذا تقليدا في مصر استمر فيما بعد •

ثم تحول محمد علي باشا الى التوسع والمغامرات في الخارج • وكان نفوذ الوهابين قد ازداد ، في مطلع القرن التاسع عشر ، بعد احتلالهم الحجاز • وشعر السلطان العثماني بالخطر الذي يتهدده فطلب من محمد علي باشا في ١٨١١ ، توجيه حملة ضدهم ، ولبّى الطلب،لانه عدا عن حاجته لاظهار الطاعة الى السلطان ، في فترة توطيد سلطته ، فان في ذلك مجالاً لاشغال جنوده في حروب ومغانم في الخارج ، بعد أن بدر تمردهم ضده • كما ان انتصاره على الوهابية سيزيد من سمعته ، ويمكنه من موارد الحجاز • ونتساءل هنا عن سبب طلب السلطان من حاكم مصر محمد علي باشا ان يتوجه للقضاء على الوهابين ، وليس من والي دمشق • لا شك ان قوة محمد علي باشا أكبر من الثاني ، كما أن السلطان كان تقليدياً يطلب من ولاة مصر التدخل في امور الحجاز واليمن • وهناك من يقول ان السلطان كان يطمع ايضا الى اضعاف قوة محمد علي في القتال ضد الوهابيين الاقوياء، وبذلك يتمكن من اخضاع محمد علي لسلطته • ولكن ما حدث كان خلاف ذلك ، لان هزيمة محمد علي للوهابيين زادت كثيرا من سلطته • وقد ساعدت هذه الحملة محمد علي باشا على التخلص من زعماء الالبانيين المنافسين له ، وذلك اثر تراجع القائد الالباني من ينبع الى المدينة في ١٨١١• وحين لم تصل قوات القائد طوسون ابن محمد علي باشا الى نصر حاسم على الوهابيين ذهب محمد علي باشا بنفسه الى الحجاز ، وهزم الوهابيين في ١٨١٤ ، ولكنه لم يتابع هجومه على عاصمتهم الدرعية • ويفسر ذلك بان

المؤامرات بدأت تحاك ضده في القاهرة بتشجيع العثمانيين لاسترداد سلطتهم ، كما ان نبأ عودة نابليون بونابرت من منفاه في جزيرة البا(Elbe) اخاف محمداً علياً • ولم تدم هذه الهدنة المؤقتة اذ استؤنف القتال من جديد في عام ١٨١٦ ، حين أرسل محمدعلي باشا ابنه ابراهيم باشا، الذي تمكن، بمساعدة بعض القبائل ، من احتلال الدرعية في ١٨١٨ ، والقضاء على نفوذ الوهابين الى حين • وكافأ السلطان ابراهيم باشا بتعيينه والياً على الحجاز والحبشة • ودام نفوذ محمد علي باشا في الحجاز واليمن حتى ١٨٤٠[1]•

ثم تلت ذلك في ١٨٢٠ حملة محمد علي باشا على السودان • ويوجد بعض الشبه بين فتح محمد علي باشا للسودان وفتح القائد ازدمر النوبا السفلى وساحل البحر الأحمر، في حوالي منتصف القرن السادس عشر[2]• فالقائدان حاربا باسم السلطان نظرياً ، في سبيل طموحهما الشخصي ، ولكنهما يختلفان في ان محمداً علياً كان حاكماً شبه مستقل في مصر ، يتمتع بموارد كبيرة لتثبيت حكمه في السودان ، كما انه مؤسس سلالة احتفظت بفتحها في السودان حتى ثورة المهدي والاحتلال الانكليزي • ويختلف محمد علي عن ازدمر بتأثره بالأفكار الأوروبية التي لم تجعل هدفه من الفتح مجرد الحصول على مقاطعات ، على الطريقة التقليدية العثمانية ، بل استغلال موارد هذه المقاطعات في الرجال والثروة •

كان لمحمد علي من حملته الى السودان اهداف متعددة منها القضاء على بقايا المماليك ، الذين هربوا ، بعد القضاء على معظم زعمائهم في ١٨١١ ، باتجاه الجنوب ، واسسوا امارة خاصة لهم في دنقله ، على الضفة الغربية من النيل ليس بعيداً عن خط الحدود القديمة بين بربرستان وممتلكات الفنج • وقد بنى المماليك في هذه المنطقة مدينة محصنة ، واستخدموا العبيد لتقوية أنفسهم، واصطدموا مع قبائل الشيقية السودانية للسيادة على المنطقة• وقد أظهرت حوادث الماضي لجوء الكثيرين من المنهزمين من مصر السفلى

١ ـ انظر : Dodwell, 41-43 ؛ وانظر ص ٣٤٢ •

٢ ـ انظر ص ٧٣ •

الى العليا وباتجاه الجنوب ، وتحينهم الفرصة من هناك للهجوم على الشمال . وقد ارسل محمد علي باشا في ١٨١٢ بعثة ترجو سلطان الفنج طرد المماليك من منطقته . ولم يكن سلطان الفنج ذلك القوي ، وانما كان هدف البعثة الحقيقي استطلاع امكانات المنطقة العسكرية والسياسية لفتحها . وهدف محمد علي ايضاً اعادة تنشيط التجارة بين مصر والجنوب ، بعد ان اعاقتها الاضطرابات في تلك المناطق ، وكذلك السيطرة على الطريق الرئيسية لتجارة العبيد . وقد فكر باستخدام العبيد في جيشه الجديد ، فيدربهم على الطريقة الأوروبية ، ويدينون له بالولاء ، أشبه بالمماليك . وبالاضافة الى ذلك ، طمح محمد علي باشا الى الاستيلاء على مناجم الذهب في افريقية الوسطى التي لو استثمرها لوطد مركزه في مصر ودعم استقلاله ضد السلطان . ولكن بماذا نصف الفتح الذي تم للسودان في ١٨٢٠-١٨٢١ على يد محمد علي . اذا قلنا الفتح المصري فسنكون بعيدين عن الصواب لانه لم يكن يوجد آنذاك جيش مصري مستقل ، بل على العكس كانت مصر ولاية عثمانية تحكمها طبقة البانية . واذا قلنا بانه الفتح العثماني لجانبنا الصواب لان مشروع الفتح كان مبادرة خاصة من قبل محمد علي . واذا كان محمد علي قد اعترف بالسيادة العثمانية على السودان فان هذه كانت أقل فعالية عما هي عليه في مصر . ولعل تعبير الفتح التركي-المصري يكون حلاً موفقاً . ولكن من وجهة نظر السودانيين فقد أطلقوا على الفاتحين الجدد اسم الترك ، وعلى حكمهم اسم التركية . وبالتدريج اصبح هذا اللقب يطلق على الحاكمين من غير السودانيين بقطع النظر عن اصلهم ، حتى ان السودانيين اعتبروا الحكم الثنائي المصري - الانكليزي ، في عام ١٨٩٩ ، التركية الثانية[١] .

وكان على رأس حملة محمد علي لفتح السودان في ١٨٢٠ ابنه اسماعيل ، وبصحبته علماء مسلمون لجعل مسلمي السودان يطيعون وكيل السلطان العثماني محمد علي . وقد اجتازت الحملة الشلال الثاني دون

١ - انظر : Holt, *A Modern history of the Sudan*, 35-37

مقاومة تذكر ، وهرب معظم مماليك دنقله باتجاه الجنوب • وكان هـدف الحملة الرئيسي القضاء على قوة قبائل الشيقية ، وقد هزمت في ٤ تشرين الثاني ١٨٢٠ ، بفضل مدفعية الحملة ، وتمسك الشيقية بالاسلحة التقليدية كالسيف والرمح•وكان ذلك نهاية المقاومة العسكرية الشديدة لاسماعيل• وكلما اندفع جنوبا في السودان اتى اليه الأمراء المحليون طائعين ، وكـان يبقيهم في مراكزهم • وكان محمد علي قد ارسل ، بعد احتلال اسماعيل دنقله وهزيمته الشيقية ، حملة أخرى لاحتلال سلطنة دارفور ، في نيسان ١٨٢١ ، بقيادة محمد بك خسرو الدفتردار • وقد تم له ذلك ، ودخـل العبيد ، عاصمة سلطنة دارفور •

وبعد أن نجح محمد علي باشا في طرد المماليك ، وهزيمة الشيقية، واحتلال مناطق كثيرة ، انصرف لاستغلال موردي السودان مـن الذهب والعبيد • وبدأ بفرض الضرائب على السكان،وبلغ ذلك حد الاستيلاء على الموارد • وأعلنت الادارة المصرية أنها تقبل استلام العبيد كضرائب عوضاً عن المال • وقد استنفذ مصدر العبيد هـذا ، ولـم يبق سوى غزو مناطق القبائل الوثنية في الجنوب للحصول على العبيد • وكان الحاح قادة محمد علي على أخذ العبيد بأيـة وسيلة ان أثـار الحكام المحليين ، الذين قبلوا بحكم محمد علي ، لأن العبيد الذين طلب اليهم التخلي عنهم كانوا يؤلفون عنصراً هامـاً في خدمتهـم البيتية والزراعية • ولهـذا ثـار السودانيون • ورغم أن اسماعيل تولج أمر الثائرين بالقوة وباللين ، الا أن عناصر الثورة كانت أعمق من أن ترضى • وكان تفشي الامراض بين جيشه وموت كثير من أفراده مضعفاً له ومشجعاً للثوار ، وهوجم في شندي في تشرين الاول أو الثاني ١٨٢٢ ، وأحرق مع مخيمه • ورغـم ذلك فان عاملين عملا في صالح حملة محمد علي : تفوقها بالسلاح الناري ، ثم افتقار الثائرين الى عمل موحد وزعامة واحدة • وقد تولى الدفتردار القضاء عـلى الثائرين •

واستدعي الدفتردار الى مصـر في ١٨٢٤ ، وخلفه كقائـد عـام في

السودان عثمان بك الشركسي • وكانت تصحبه قوات جديـدة ، عرفت بالجهادية ، وهم ، في تلك المرحلة ، جنود نظاميون مـن عبيد السودان ، دربوا عـلى الطريقة الأوربية في مصر • ولكن العبيد مـن السودان كانوا يموتون بالآلاف في مناخ مصر • ومـن مجموع عشريـن ألف سودانـي جندوا عـام ١٨٢٤ بقي ثلاثـة آلاف من الأحيـاء ، مما اضطـر محمـداً علياً الى تجنيد الفلاحين المصريين ، ولكنه بقـي يفيد من الجهادية العبيد بوضعهم كحاميات في السودان•والى جانب هؤلاء تألفت قوات محمد علي في السودان مـن فرسان الشيقية ، الذين عملـوا في خدمته تحت امـرة زعمائهـم [١]•

ثم اشترك محمد علي باشا ، الى جانب قوات السلطان العثماني ، في اخضاع كريت في ١٨٢٢ ، وشبه جزيرة الموره في ١٨٢٤ ، بعد أن وعده السلطان بتسليم حكمهما اليه • وقد عمد الانكليز والفرنسيون الى الضغط على الدولة العثمانية لانهاء قتالها لليونانيين خوفاً من استغلال روسيا الوضع والافادة منه • ولما لم يقبل السلطان بتدخل القوات الاوربية لاعتباره ثورة اليونان قضية داخلية اتصل الانكليز بمحمد علي وعرضوا عليه قسماً من المال الذي كان اليونانيون مستعدين لدفعه الى السلطان لقاء وقف قتاله لهم ووعداً باعطاء ابنه ابراهم باشا ولاية سورية • وقد رد محمد علي بأنـه يطمـح الى مساعـدة الانكليـز في توسيع اسطوله والاعتراف بتوسعه في الجزيرة العربية • وشعر المفاوض الانكليزي أن محمداً علياً كان يتوق الى الحصول على دعم الانكليز في حـال استقلاله عن السلطان • والجدير بالذكر أن مترنيخ أرسل مبعوثاً الى محمد علي يحثه على اخضاع اليونانيين قبل أن تستغل روسيا والدول الغربية الوضع للتدخـل ، ويبين له خطـر الاستقلال اليوناني على التجارة المصرية • وفي آب ١٨٢٨ أجلى محمد علي جيوشه عن الموره،واعترف السلطان،بضغط من روسيا ، باستقلال اليونان•

---

١ ـ انظر : *Ibid.*, 37-48

وقد نتج عن حملة الموره أن موارد محمد علي استنزفت حتى نهايتها فسر بذلك السلطان•ولكن محمداً علياً لم يصطدم مباشرة بانكلترا وفرانسا نتيجة للحملة ، وحلت العداوة بالصلح • أما السلطان فان تأثير روسيا قد تزايد عليه • وكان من نتيجة حملة الموره أن زاد كره محمد علي للسلطان واحتقاره لدسائس حكومته ، وأصبح أكثر تصميماً على الاستقلال عنه • كما أن محمداً علياً أصبح أكثر احساساً بجدوى القوة البحرية وتخوفاً من قوة بريطانيا البحرية التي لعبت دوراً كبيراً في اجلائه • ولهذا تحول الى التقارب مع فرانسا منافسة بريطانيا [١] •

وكان آخر توسع لمحمد علي في بلاد الشام في ١٨٣١ • ولم يكن أمر ذلك سراً اذ ان بعض المقيمين الأجانب في بلاد الشام تحدثوا ، منذ ١٨٢٥ ، عن مشاريع محمد علي لاحتلال بلاد الشام • وبالفعل أظهر محمد علي اهتماماً بمشاكل بلاد الشام حين الجأ اليه بشيراً الثاني الشهابي، أمير جبل لبنان في ١٨٢٢ بعد أن هزب اثر خلاف مع السُلطان ، وتوسط له ، وأعاده الى الحكم • وتدخل أيضاً ، بعد ذلك ، في دعم الامير بشير الثاني ضد ثورة بشير جانبلاط [٢] • ولم تكن أعمال محمد علي باشا هذه مبعثها حسن الجوار ، بل كانت تنبع عن تخطيط للتوسع سبقه اليه ، قبل نصف قرن ونيف ، علي بك المملوكي ، وذلك لأسباب استراتيجية واقتصادية وسياسية •

كان محمد علي يرغب من احتلاله بلاد الشام الحصول على الخشب لاسطوله وعلى منتجاتها التي تدر المال ، مثل الحرير والقطن ، وذلك بسبب حاجته للمال بسبب جيشه ، وتوسع بعوثه ، وجلبه الخبراء • كما أن بلاد الشام بتصديرها التبغ الى مصر كانت تمتص كثيراً من النقد المصري • وكانت السيطرة على بلاد الشام ضرورية ، من ناحية أخرى ، لحماية حدوده فيمكنه بذلك أن يتحكم في بدو سيناء الذين هددوا طرق

---

١ ــ انظر : Dodwell, 67-93

٢ ــ انظر ص ٣٨٧ •

التجارة المصرية ـ السورية ، وان يمنع الهاربين من الجندية من مصر من ايجاد ملجأ لهم في بلاد الشام حيث رحب بهم والي عكا عبد الله باشا • وفي هرب الفلاحين من مصر اضعاف عسكري واقتصادي لها •

ومما لاشك فيه أن نمو قوة محمد علي العسكرية كانت ، في الواقع ، مشجعة للتنافس بينه وبين السلطان ، وان استخدام السلطان قوات محمد علي في الحجاز والموره اعتراف منه بقوة محمد علي وان يكن السلطان قد هدف ، ضمناً ، من وراء ذلك الى اضعافه • وقد طالب محمد علي ، لقاء اشتراكه بحرب اليونان ، باعطائه حكم بلاد الشام ، ولكن السلطان محمود الثاني عرض عليه حكم كريت التي تكلف حاكمها أكثر مما تفيده • وأدرك محمد علي أنه لا يستطيع تقوية نفسه الا على حساب السلطان ، وتقوية نفسه تكمن في بلاد الشام ، وسيؤدي ذلك الى اصطدامه مع السلطان • ويضاف الى الأسباب السابقة النزاع الذي دب بين محمد علي وعبد الله باشا بسبب مطالبة الاول للثاني بديون لم يوفها ، وأيضاً بسبب نقل عبد الله باشا للسلطان مراسلات سرية بين محمد علي والثوار اليونانيين • ولعل الأهم من ذلك شعور عبد الله باشا بأنه اذا احتل محمد علي بلاد الشام فلن يكون له مكان فيها ، أو أنه على الأقل سيصبح خاضعاً لمحمد علي •

وكانت الظروف الدولية ملائمة لحملة محمد علي ، أشبه بما كان عليه الوضع حين حملة علي بك المملوكي في ١٧٧٠ • فبريطانيا كانت منشغلة بالاصلاح الداخلي لاستبعاد خطر الثورات التي ظهرت في فرانسا• وكانت هذه الاخيرة منشغلة بثورات ١٨٣٠ في باريس وبالوضع المضطرب في الجزائر الذي أدى الى ثورة الأمير عبد القادر الجزائري عليها في١٨٣٢• وكانت الامبراطورية النمساوية مهددة بثورة بولونيا •

وكانت الظروف مواتية في الامبراطورية العثمانية لتوسع محمد علي، فقد أدى قضاء السلطان محمود الثاني في ١٨٢٦ على الانكشارية الى ازدياد

معارضة المصالح التي ارتبطت بهم للدولة • ولم يكن الجيش العثماني الجديد قد قوي أمره بعد • وقد حطّم الاسطول العثماني من قبل الأساطيل الاوربية ، ابان حرب اليونان ، في معركة نفارينو في ١٨٢٧ • ونشبت في ١٨٢٨ حرب بين العثمانيين وروسيا انتهت بمعاهدة أدرنة في العام التالي •

وقد حاول الفرنسيون استخدام محمد علي لاحتلال شمال افريقية • ويبدو أن هدفهم من ذلك اقامة دولة قوية في شمال افريقية تخضع لنفوذهم ويعارضون بها بريطانيا • وقبل محمد علي الفكرة مقابل دعم فرانسا له في مشاريعه للتوسع في المشرق العربي • ولكن السلطان وبريطانيا عارضا المشروع بشدة ، الاول لان ذلك سيزيد من قوة محمد علي ومنافسته له، وبريطانيا لأن ذلك سيهدد مواصلاتها مع الهند ويضعف الدولة العثمانية• وازاء فشل هذا المشروع تحولت فرانسا الى الاحتلال المباشر للجزائر ، وانصرف محمد علي لانشاء امبراطورية في بلاد الشام •

وكان الوضع في بلاد الشام مشجعاً لمحمد علي ، فالأمير بشير الثاني الشهابي من حلفائه • ورغم قوة أسوار عكا ، حيث تحصن واليها عبد الله باشا ، فلم يكن العثمانيون من القوة بحيث يقدمون مساعدات كبيرة له • وقد حدثت اضطرابات في ١٨٣١ في دمشق بسبب ثورة سكانها على مظالم واليهم العثماني سليم باشا [1] • كما ثار الفلاحون في منطقة نابلس ، في هذه الاثناء ، على مظالم عبد الله باشا والي عكا واحتلوا قلعة صانور ، فأخضعوا بالقوة •

وعلى خلاف وضع بلاد الشام المتفكك ، كانت أحوال مصر ناشطة ، وجيشها منظماً ، وسمعة قائده ابراهيم باشا عالية • وكانت المصانع الحربية التي أنشأها محمد علي في مصر في أقصى انتاجها • وتمكن محمد علي ،

---

١ ـ انظر القصيدة الزجلية التي نظمها احمد الرباط حول ثورة سكان دمشق في ١٨٣٠ : مجموعة أزجال ومواويل عن دمشق ، مخطوط في الظاهرية ، رقم ٨٧٤٩ ؛ وانظركذلك: مذكرات تاريخية ، لاحد كتاب الحكومة الدمشقيين ، نشرها قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٢٥ •

بعد الحرب اليونانية ، من اعادة بناء أسطوله • ولم يساهم في حرب السلطان مع روسيا • وقد أضعف السلطان كثيراً من جراء ذلك • وصادف أن محصول القطن في ١٨٣٠ كان أعظم ما أنتجته مصر ، وكانت الحبوب متوافرة بكثرة • وأمّن فيضان النيل المنتظم محصولا كبيراً للعام التالي •

بدأ غزو بلاد الشام ، براً وبحراً ، في ٢٩ تشرين الاول ١٨٣١ • واقتحمت قوة من أحد عشر ألف رجل سيناء في طريقها الى غزة ، وكانت قلعتها مهدمة منذ حملة نابليون ، ولذلك سهل احتلالها • وتركز الصراع حول عكا التي تحدت نابليون،وكان احتلالها ذا أهمية عسكرية ونفسية• وامتاز ابراهيم باشا ، قائد الجيش المصري ، على نابليون بأنه امتلكاسطولا فعالا ، ولم يعارضه اسطول انكليزي • ولم يصحب ابراهيم باشا جيشه في سيناء ، ولم يشترك في الهجوم على غزة ، بل سافر مباشرة مع الاسطول من الاسكندرية الى حيفا حيث اجتمع بالجيش البري • وقد استسلمت حيفا دون قتال ، وبدأ حصار عكا في ٢٦ تشرين الثاني ١٨٣١ • ولميعطل ابراهيم باشا نشاطه في حصار عكا بل احتل ، وهو يحاصرها ، المناطق المجاورة حتى صيدا ، وأرسل قوة الى القدس لاعلان سلطته فيها • وبهذه المناسبة أعلن ابراهيم باشا رفع العوائد التي كانت تفرض تعسفاً على غير المسلمين في القدس وغيرها ، مما أكسبه تأييد المسيحيين ودعمهم العسكري في جبل لبنان خاصة ، وازداد بذلك تأييد الامير بشير الثاني الشهابي له لأن غالبية قواته كانت من المسيحيين • وسرت الدول الاوربية من هذا التسامح الديني ، ونشطت ارسالياتها التبشيرية في أعقاب ذلك •

أرسل ابراهيم باشا ، في هذه الاثناء ، طلباً من أبيه الى الامير بشير يدعوه للانضمام اليه في حصار عكا • ولم تكن هذه أول ولا آخر رسالة من نوعها • ففي ٥ كانون الاول أرسل محمد علي باشا رسالة الى الامير بشير يتهدده فيها بأنه اذا بقي ينتظر نتيجة حصار عكا ليعلن موقفه من الجانبين ، فانمحبته له ستتغير وسيرسل جيوشه ضده•وقد سبق أنتعرض

الامير بشير الى موقف مشابه زمن هجوم نابليون ، ولم ينحز آنذاك الى أي من الجانبين• وكانت النتيجة أنه بانتصار الجزار دفع له مبلغاً من المال، وبقي في حكم الجبل • وحين وصلت قوات محمد علي الى صيدا اضطر الأمير بشير أن يرسل قوة رمزية الى عكا ، مما جعل محمداً علياً يثني عليه، ومنحه التزام جبل لبنان ، أي اعترف به أميراً على جبل لبنان • وقد جعل موقف الامير بشير هذا أعداءه من آل جانبلاط يقفون الى جانب العثمانيين• وكانت طلائع القوات العثمانية قد وصلت آنذاك الى طرابلس ، وأخذت تبث الدعاية ضد محمد علي • وازاء محاولة الجانبلاطية الدروز اعلان الثورة في الشوف على المصريين ، بتأييد العثمانيين، الذين كانوا يلحون على فكرة أن الامبراطورية باقية وسيعاقب الثائرون ، فقد أرسل ابراهيم باشا،وهو يحاصر عكا ، فرقة الى دير القمر ، أخذت رهينتين من كل اسرة درزية • وهرب معظم الدروز من آل جانبلاط وأبي نكد وآل العماد الى حماة حيث التحقوا بالجيش العثماني • وكان أن وجه الامير بشير رسالة الى زعماء الجبل يتهدد الثائرين ، ويطلب منهم الخضوع الى ابراهيم باشا•

سقطت عكا في شهر أيار ١٨٣٢ ، وتوجه ابراهيم باشا لقتال الجيش العثماني الذي تجمع عند حمص • واستسلمت دمشق له دون قتال ، وبقي فيها سبعة عشر يوماً ، ثم سار شمالا بصحبة الامير بشير • وانتصر على العثمانيين قرب حمص في تموز ، وتابع مسيره شمالا ، فاحتل حلب•وتلت ذلك سلسلة من الانتصارات على العثمانيين في بيلان وقونية ، وأصبح الطريق مفتوحاً الى استانبول • وبدأ ، عند ذلك ، التدخل الروسي لدعم العثمانيين ، مما أخاف بريطانيا وفرنسا ، فضغطتا على السلطان ومحمد علي • ووقعت بينهما في ١٨٣٣ معاهدة كوتاهية ، وبموجبها انسحبت قوات ابراهيم باشا الى طوروس ، وأعطي بلاد الشام مقابل ضريبة سنوية •

واجهت ابراهيم باشا في بلاد الشام عدة مشاكل تختلف عن مشاكله في مصر•فهناك مشكلة اضطراب الأمن ، وفرض الأتاوات على المسافرين،

وتمـرد البدو ، وخاصة العنزة ، ووجـود نظـام الالتزام • وكان عليه ، ليستغل واردات بلاد الشام ، ويجند سكانها في الجيش ، ويجمع الضرائب منها ، أن يتبع أساليب غير التي اتبعها في مصر • وقد حقق الامن ، وصد غزوات البدو مما شجع الاستقرار في الريف ، وبالتالي الزراعة • واستخدم بعض البدو كفرسان في جيشه • ولكنه لـم يلغ أو يبدل نظـام الملتزمين والحكام المحليين بل طبق عليهم بالتدريج أنظمته في عدم تجاوز الضرائب المقررة • وازداد نتيجـة لذلك المـردود الاقتصادي • واستخدم الجيش في تحسين الزراعة ، فعندما هـدد الجراد محاصيل حوران ، في احـدى السنوات ، استخدم الجنود في مكافحته •

ولم يفرض ابراهيم باشا ضرائب مجحفة • وأوجد ضريبة جديدة هي الفردة ، أي فرض مبلغ من المال على كل شخص • وقد عدّل ذلك فيما بعد ، وأصبح المبلغ يتناسب مع الثروة • وكانت الدولة ، وفق هـذا التعديل ، تعمد الى فرض مبلغ عـام عـلى جماعة مـن الناس أو الأسر ، بشكل لا ينقص عما يمكن أن تجمعه من كـل شخص منهم • وتتصرف هذه الجماعة في توزيع المبلغ بالعدل ، أي حسب الغنى ، بـين أفرادها • ولا يبدو أن نظام الضرائب قد أثار نقمة السكان عـلى المصريين ، ولكـن الذي أثارهم متطلبات الجيش مـن مصادرة للمؤن ، أو شراء لهـا بسعر متدني ، أو مصادرة حيوانات النقل ، أو استخدام اليد العاملة ، في اقامـة التحصينات مثلا ، بأسعار متدنية أو بالمصادرة •

وكان الجيش ، في الواقـع ، عمـاد الادارة المصرية في بلاد الشام ولهذا فان توطيد الحكم المصري فيها كان يعني بالضرورة تدعيم الجيش والقضاء على العناصر المقاومة له • وفي سبيل ذلك طبق ابراهيم باشا التجنيد الاجباري في ١٨٣٤ ، وأمر بنزع السلاح من الاهلين ، وهذه أشياء جديدة بالنسبة لهم • وكانت الخدمة العسكرية في السابق تتم على أساس التطوع بدافع الكسب ، وليس هناك من دليل على ادخال الافراد كرهاً في الجيش

قبل الاحتلال المصري • وقد أثارت الخدمة العسكرية الاهلين ، وتضرر اقتصاد الريف تبعاً لذلك • وكانت الخدمة العسكرية لمدى الحياة ، وهذا يعني أن على الفلاح المجند مثلا اما أن يستأجر غيره لزراعة الارض أو أن يبيعها • ومن هنا انتشرت عادة الاحتماء بالقنصليات الأجنبية ، أو الهجرة الى خارج البلاد ، أو تشويه الاعضاء لتحاشي الخدمة العسكرية • وانتهى الامر بالثورة • وقد استخدم ابراهيم باشا أفراد الاسر المحلية الكبيرة كقادة في الجيش لتدبر أمر الفلاحين •

ولتحقيق التجنيد والقضاء على النقمة التي أثارها وجب أولا نزع السلاح من الاهلين • وأدى هذان الامران الى ثورات فلاحية في فلسطين• ففي السلط مثلا هاجم الفلاحون والبدو القوات المصرية ، وفي الخليل هزم الجنود المصريون ، واحتل الفلاحون القدس ، باستثناء القلعة ، كما قطعت المواصلات بين يافا والقدس • ولم يتمكن ابراهيم باشا من القضاء عليها الا بعد جهد كبير•وكان وجود الملتزمين الاقوياء في فلسطين ، نظراً لازدهار زراعتها ووجود الاسر المحلية الكبيرة فيها ، مشجعاً للثورة • وفي جبل لبنان ساعد الامير بشير حليفه ابراهيم باشا في اخضاع الفلاحين • وقد أتاح نزع السلاح للحكومة المصرية أن تنظم البلاد ، وتنشط الزراعة، وتتحكم بالبدو ، كما أصبح التجنيد عقوبة للتمرد • وفي ١٨٣٦ ، أي بعد سنتين من بدء التجنيد ، قدر عدد المجندين في بلاد الشام بـ ٣٦ ألف مجند•

ولكن الثورة ضد المصريين تأججت من جديد ، على يد الفلاحين الدروز ، وذلك في ١٨٣٥ في منطقة اللجاه • وفي محاولة من ابراهيم باشا لتوفير الجنود النظاميين لمهام اخرى فانه لجأ الى الامير بشير الشهابي ليستعين بقوات من جبل لبنان • وكانت غالبية هذه القوات مسيحية ، بحكم التوزيع السكاني في الجبل والعناصر التي تدعم الامير بشيراً • وأثار ذلك خلافات مع الدروز ، الذين اعتبروا تجريدهم هم من السلاح واعطاءه من جديد للمسيحيين لاستخدامه ضد اخوانهم مبعث عداء بينهم • وقد ادى هذا الى

اضطراب التوازن المذهبي • ويبدو ان ذلك كان سياسة مقصودة من الدولة لالهاء السكان بخلافات محلية واشغالهم عن الثورة عليها ، لا سيما وان نزع السلاح في السابق قد وحّد مابين الدروز والمسيحيين في معارضتهم الحكم المصري • وعلى هذا ، اصبحت سلامة المسيحيين مرتبطة بوجود المصريين ، وان انسحاب هؤلاء من بلاد الشام كان احد العوامل الهامة التي ادت الى النزاع الطائفي ، بالاضافة الى استغلال الدول الاستعمارية والدولةالعثمانية ذلك للتدخل ، وكذلك قيام الصراع بين الفلاحين والاقطاعيين •

وتعقدت الثورة الداخلية بتدخل الدول الأجنبية • وكنا رأينا كيف ان ضغط الدول الاوربية على محمد علي باشا اضطره الى توقيع معاهدة كوتاهية • ولكن ازدياد النفوذ الروسي في استانبول ، اثر ذلك ، وتوقيع العثمانيين معاهدة اونكيار اسكله سي في ٨ تموز ١٨٣٣ مع روسيا ، التي تعهد العثمانيون بموجبها باغلاق المضائق في وجه الدول المعادية لروسيا في حالة الحرب ، جعل بريطانيا تخشى الخطر الروسي • واعتقد الانكليز انه اذا كان ضغط محمد علي على السلطان قد رمى به في أحضان روسيا فان تخفيف ذلك الضغط كفيل بانتشال السلطان من أحضان روسيا • وبالنسبة للانكليز فان بقاء الامبراطورية العثمانية ضعيفة خير من سيطرة محمد علي القوي•وبالاضافة الى ذلك ، فقد استاءت الدول الغربية ، وخاصة بريطانيا، من القيود التي فرضها ابراهيم باشا في بلاد الشام على التجارة الخارجية ، وكذلك في اعادته نظام احتكار الموارد الذي اتبعه كما في مصر ، وفرضه الاسعار التي يريدها ، وبيعه السلع لمن يحب ، خاصة وان نشاط الزراعة في بلاد الشام ، اثر الاستقرار الذي حققه المصريون في اول عهدهم ، قد زاد من الانتاج ، وبالتالي من رغبة التجار الاجانب في المتاجرة مع بلاد الشام • واضطرت شدة احتجاج الدول الغربية ، وخاصة الانكليز ، محمداً علياً الى الغاء الاحتكار في ١٨٣٦ • وفي عام ١٨٣٨ وقعت بريطانيا معاهدة تجارية مع السلطان ، ولكن محمداً علياً رفض تطبيقها في المناطق التي يسيطر عليها ، مما زاد فيعداء الانكليز له••ورغم أهمية بلاد الشامبالنسبة

لطريق الهند ، فان خطـر التدخـل الروسي كان حافـزاً للدول الغربية لمحافظتها على الدولة العثمانية من هـذا الخطر ، ومن خطر محمد علي • وما دام محمد علي يحتل بلاد الشام فانه سيبقى قوياً وسيزيد من الخطر الروسي على السلطان الضعيف ، الذي سيبقى مهتماً ببلاد الشام اكثر من اهتمامه بالحدود الشمالية ، ومن شأن ذلك تهديـد طريق الهند • ولهذا أخـذ الانكليز بتشجيع الثورة الداخلية ضد ابراهيم باشا • وكانت غالبية الثائريـن في البدء مـن الدروز • وكانت فرانسا المعارضة لانكلترا تشجع محمداً علياً ، ولكن دعمهـا بقي محدوداً نظراً لضعف موقف الحكومـة الفرنسية الداخلي ، ولعدم كفاية امكاناتها البحرية •

وجـد السلطان العثماني محمود الثانـي في الثورة الداخلية فرصة للتدخـل ضد ابراهيم باشا ، ولـكن جيشه هزم في نزيب ، شمال شرقي حلب ، في حزيران ١٨٣٩ • وتبع ذلك خيانـة قائـد الاسطول العثماني وانضمامه الى محمد علي ، ووفاة السلطان العثماني • وأعقب ذلك بطش ابراهيم باشا بالثائرين • عند ذلك قرر الانكليز التدخل ، ووصل اسطولهم بقيادة نابيير (Napier) ، ساحل لبنان وقصف بيروت ، مما شجع الثائرين • وكان هؤلاء يضمون عناصر من الدروز والموارنة ، الذين بعـد تسليحهم حاول ابراهيم باشا نزع السلاح منهم • وكان يساند بريطانيا ضد محمد علي كـل من روسيا والنمسا وبروسيا ، الذين فرضوا عـلى محمد علي الانسحاب • وظهر الاسطول البريطاني قرب الاسكندريـة لدعم موقف الدول المناوئة لمحمد علي • وازاء هـذا الوضع الجديـد بـدأ المصريون بالانسحاب • وتم الاتفاق النهائي على أن يعطي السلطان العثماني حكومة مصر وراثية لمحمد علي بموجب فرمان صدر في ١٨٤١ •

طرأت على بلاد الشام خلال تسع سنوات من الحكم المصري تبدلات هامة • فقد تراجعت حدود البدو الى قلب البادية عقب تأدية الدولة لهم • وتمكن ساكن المدينة من توسيع أعماله في الريف ، والفلاح من استغلال ارضه بفضل الإمن والاستقرار • وادى التسامح الديني الذي طبقه ابراهيم

باشا الى اقامة فكرة المساواة بين الطوائف ، وصعب بعد ذلك العودة الى التمييز الطائفي • وكان من تشجيع ابراهيم باشا للارساليات التبشيرية أن افتتحت المدارس بكثرة ، وبدأ التعليم بالانتشار في بلاد الشام •

ونرى ، بالمقابل ، ان النزاع الطائفي قد استفحل بسبب استخدام ابراهيم باشا الجنود المسيحيين ضد الدروز • وعندما عاد المقاطعجية (الملتزمون) الدروز الذين ثاروا على ابراهيم باشا الى جبل لبنان وجدوا الموارنة قد سيطروا في كثير من مناطقهم وازدادوا تنظيما تحت ادارة رجال الكنيسة • وكان عزل الامير بشير الثاني الشهابي ، الذي أيد ابراهيم باشا، من حكم الجبل والمجيء بابن أخيه الامير بشير قاسم للحكم مكانه باسم بشير الثالث ذا أثر هام في الفوضى التي تلت، نظراً لضعف بشير الثالث ومعارضة مختلف الطوائف له • ولكن الانكليز كانوا يدعمونه • وأفاد العثمانيون من الوضع لاثارة الاضطرابات بهدف فرض حكمهم المباشر على جبل لبنان• وفي الواقع فان عدم الاستقرار الذي رافق الثورة على ابراهيم باشا وفترة الاضطرابات التي تلت ذلك قد أضرت بالزراعة ، وعاد الأعيان الى التسلط على الريف • واستغل العثمانيون ذلك لاعادة فرض نفوذهم • وبدأوا يتنافسون مع الدول الاوربية في تشجيع طائفة ضد اخرى ، ومن هنا اشتداد الاضطرابات الطائفية في المنطقة بين ١٨٤٠ و١٨٦٠ •وهكذا أصبحت بلاد الشام ، بنتيجة الحملة المصرية ، ميدانا لتدخل الدول الاوربية• كما أن توسع التجارة الاوربية في الشرق الادنى جعل هذه الدول تزيد من ضغطها للحصول على الامتيازات• ونتج عن فتح البلاد للتجارة الاوربية اشتداد منافستها للصناعات الحرفية ، التي اندثر عدد منها بنتيجة ذلك ، مما ادى الى تغيير جذري في بنية الاقتصاد والمجتمع في بلاد الشام[1] •

هذا عن الآثار التي خلفها انسحاب محمد علي باشا في بلاد الشام •

---

١ – انظر حول تأثير الاقتصاد الاوربي المتصنع على الاقتصاد والمجتمع التقليديين في بلاد الشام :

D. Chevallier, *La Société du Mont Liban à l'époque de la Révolution Industrielle en Europe*, Paris, 1971.

اما بالنسبة اليه فيعتبر انسحابه نهاية احلامه في انشاء امبراطورية • وكان المسؤول عن فشله ، الى حد كبير ، معارضة الدول الكبرى له • ولم ينقذه في ذلك نشوب حرب كبرى في أوربا تلهي قواتها •

لقد عمل محمد علي باشا على تطوير مصر ، ونجح الى حد كبير في ذلك • وتبدى مساوئه في كون حكمه فرديا استبداديا ، فلم يعرف حدوده كملاك كبير وكتاجر كبير • ولم يعلم الى اي مدى يجب تطبيق الاصلاحات الغربية في مصر ذات الظروف المختلفة • ومن مساوئه الرئيسية ان حكمه كان يمثل رجلا واسرة وليس نظاما • وما ان زال الرجل (توفي في ١٨٤٩) حتى اصبحت اصلاحاته ، بل مصر بكاملها ، تحت رحمة خلفائه • ومع ذلك فالتبدلات التي ادخلها غيرت وجه مصر •

وقد ذكر الكثير عن اهمية احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام من وجهة نظر اقامة حكومة عربية • وذكر الشيء الكثير ايضا عن ان محمداً علياً لم يكن يتكلم اللغة العربية وان ابنه ابراهيم باشا ، على خلافه ، كان يفاخر بالأمجاد العربية • والحقيقة ان الامبراطورية التي حاول محمد علي انشاءها كان هدفها خدمة طموحه وطموح اسرته بالدرجة الاولى وليس خدمة الشعب •ولايمكن لوحدة ان تتم اذا لم تكن نابعة من مصلحة الشعب نفسه • وقد سبق محمداً علياً ، قبل نصف قرن ونيف ، علي بك المملوكي في محاولة اقامة سلطنة تضم مصر وبلاد الشام • واذا كان هدف علي بك من ذلك خدمة الطبقة المملوكية التي مثلها ، فان هدف محمد علي لم يختلف، من حيث الطبقة التي مثلها ، كثيرا عن ذلك •

ولكن محمداً علياً افاد القضية العربية بطريقة غير مباشرة • فقد اظهر للشعب ، سواء في مصر او بلاد الشام ، انه يمكن ان يقوم حكم احسن من حكم السلطان ، وانالسلطان كزعيم للمسلمين لم يعد باستطاعته حماية رعاياه • كما ان فكرة التسامح الديني التي طبقها محمد علي اوجدت قاسما مشتركا جمع بين افراد الشعب كافة • ولم تكن الاضطرابات

الطائفية التي اعقبت انتهاء حكمه في بلاد الشام والتي استغلها العثمانيون والدول الاجنبية لخدمة مصالحهم سوى حافز للعمل على التآخي بين الطوائف للعيش بسلام • وكان ذلك في اساس الوعي القومي الذي نظر الى جميع المواطنين كعرب[1] •

التدخل الأجنبي في العالم العربي

تعرض العالم العربي ، منذ عصر الاكتشافات الجغرافية في أواخر القرن الخامس عشر ، الى خطر السيطرة على سواحله المطلة على المحيطات من قبل الدول الناشطة في تلك المياه آنذاك ، وأهمها ، فيما يتعلق بالعالم العربي ، البرتغال • وقد حاول البرتغاليون ، كما سبق القول[2] ، التسلل الى البحر الأحمر فصدهم المماليك ، ثم العثمانيون • وكانوا أكثر نجاحاً في السيطرة على بعض النقاط الاستراتيجية في الخليج العربي ، وأشهرها هرمز[3] • وكان على العثمانيين ، اثر احتلالهم اليمن وعدن والبصرة والاحساء ، الدفاع عن مداخل البحر الاحمر والخليج العربي ، بالتعاون مع القوى المحلية ، البدوية والدينية، ضد البرتغاليين ، ثم ضد الذين حلوا مكانهم ، من هولنديين وفرنسيين وانكليز ، طيلة الحكم العثماني • أما السواحل العربية على البحر الابيض المتوسط فقد تعرضت باستمرار الى غزوات القراصنة ، على اختلاف أنواعهم ، من بنادقة وجنويين وفرنسيين وانكليز ، وذلك لأنه ما من دولة قوية واحدة تمكنت من فرض

---

١ ــ أنظر حول الحكم المصري لبلاد الشام : أسد رستم ، الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ، ٥ أجزاء ، بيروت ، ١٩٣٠ــ١٩٣٤ ، أسد رستم وصبحي أبو شقرا ، فهرس وثائق الشام في عهد محمد علي الكبير ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، اسكندر ايكاريوس ، المناقب الابراهيمية والمآثر الخديوية ، حمص ، ١٩١٠ ، مذكرات تاريخية ، نشر قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٢٥ ؛
وانظر ايضا :
Salibi, *The Modern History of Lebanon*, 28-29; W. Polk, *The Opening of South Lebanon, 1788-1840*, Harvard, 1963, pp. 83-226.

٢ ــ أنظر ص ٨ ، ٧٠ •

٣ ــ أنظر ص ٦٩ •

نفوذها على المتوسط ، بعد زوال هيمنة البندقية وجنوه • وبالتدريج ، فقد البحر المتوسط والدول المطلة عليه الأهمية لمصلحة المحيطات والدول المطلة عليها ، نظراً لأهمية المواد الخام التي كانت تستورد عبر المحيطات، من أمريكا وآسية ، بصورة رئيسية • ولم تشتهر الدولة العثمانية في مجال البحرية ، وفقدت امكانية السيطرة في المتوسط بعد هزيمتها في معركة ليبانتو البحرية في عام ١٥٧١ •

واقتصر النشاط الاوربي في البلاد العربية ، طيلة القرون الثلاثة الاولى من الحكم العثماني ، على النواحي التجارية ، بموجب الاتفاقيات ونظام الامتيازات (Capitulations) ، الذي منح الرعايا الأجانب كثيراً من الفوائد وجعلهم دولة ضمن دولة، يخضعون لقوانين بلادهم، وليس للقوانين العثمانية أو المحلية • وقد نشطت شركة بلاد المشرق (Levant Company) الانكليزية في منطقة حلب ، منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر [1] • وكذلك نشط الفرنسيون في بلاد الشام الجنوبية ، وخاصة في القرن الثامن عشر [2] • وحدث تنافس انكليزي فرنسي في منطقة الخليج العربي في ذلك القرن ، وهو امتداد للتنافس بين الفريقين في الهند وجزر الهند الشرقية • والجدير بالذكر أنه حتى ضمن الدولة الواحدة حدث تنافس بين الشركات التجارية، مثل محاولة شركة الهند الشرقية الانكليزية ، في القرن الثامن عشر ، المتاجرة عبر البحر الاحمر والسويس ، مما أثار معارضة شركة بلاد المشرق الانكليزية التي اعتبرت ذلك تهديداً لمصالحها [3] • وبقيت القرصنة ناشطة ، طيلة هذه القرون ، على سواحل المتوسط ، وخاصة شمال افريقية ، حيث تلقى القراصنة دعم حكوماتهم ، التي حاولت احتلال النقاط الاستراتيجية على هذه السواحل • ومن هنا ردة فعل القراصنة

---

١ ـ انظر ص ١٠٩ •
٢ ـ انظر ص ٢٦٢ •
٣ ـ انظر ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ •

الشديدة،من عرب وعثمانيين،ضدهم، وتسلمهم الحكم في كثير من مناطق افريقية الشمالية [1] •

التدخل العسكري الاوربي في المشرق العربي • — رغم قيام علاقات دبلوماسية وتجارية بين فخر الدين الثاني المعني وتوسكانيا ، في ايطاليا ، في النصف الاول من القرن السابع عشر ، ولجوء فخر الدين الى حلفائه حكام توسكانيا ، في الفترة بين ١٦١٣ — ١٦١٨ [2] ، فلم يبلغ ذلك حد التدخل العسكري من قبل هؤلاء الحكام لمساعدة فخر الدين • وكان أول تدخل عسكري منظم لدولة أوربية على سواحل المتوسط الشرقية ، منذ الاحتلال العثماني ، اشتراك الاسطول الروسي ، الى جانب قوات علي بك المملوكي وحليفه ظاهر العمر ، في قصف منطقة بيروت وانزال القوات فيها في عام ١٧٧٢ [3] • وتم ذلك في عهد القيصرة كاترين الثانية ، التي عرف عنها الاصلاح وتنشيط الدولة ، وكذلك اشتباكها في حرب كبرى مع الدولة العثمانية دامت ست سنوات ، بين ١٧٦٨ و ١٧٧٤ [4] • وبعد ربع قرن من هذا التدخل الروسي بدأ التدخل الفرنسي ، بقيادة نابليون بونابرت ، في مصر ، ثم بلاد الشام • واستفحل التدخل الاوربي، بعد ذلك ، على مختلف المستويات ، في البلاد العربية ، مغربها ومشرقها ، مدفوعاً بمتطلبات الثورة الصناعية التي بدأت توجه سياسة الدول الأوربية الغربية ، وخاصة بريطانيا وفرانسا ، لايجاد الاسواق لمنتجاتها ، والمواد الخام لمصانعها • وجندت جميع امكانات هاتين الدولتين ، في ظل الحكم البرجوازي الذي سيطر فيهما ، نحو الاستعمار ، سواء في العالم العربي أو في العالم• وسنسرد ، في البحث التالى ، الخطوط العامة لتوضع الاستعمار الأوربي في العالم العربي،ثم ننتقل الى دراسة ردود الفعل العربية ، وتطور الحركة الوطنية بصورة عامة •

---

١ — انظر ، مثلا ، ص ٧٦ •
٢ — انظر ص ١٦٣ •
٣ — انظر ص ٢٠٧ — ٢٠٨ •
٤ — انظر ص ٢٢٨ •

وقد أنهت حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام (١٧٩٨-١٨٠١) ، ما يقارب من ثلاثة قرون من العزلة المحلية عن المشاكل الدولية. ومنذ الحملة فتحت هذه المناطق للمؤثرات الغربية على اختلاف أنواعها. وقد بدأ الانزال الفرنسي في الاسكندرية في ١ تموز ١٧٩٨ [١] . وكان هدف الحملة قطع طرق المواصلات بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند والشرق الأقصى . ورغم ما ذكر أيضاً من أهداف أخرى للحملة كابعاد نابليون الطموح عن مسرح الأحداث في فرانسا ، وفتح المجال أمام التجار الفرنسيين الذين ضايقهم تسلط الحكام المحليين من المماليك ومنافسة شركة الهند الشرقية البريطانية ، فان الغاية البعيدة للفرنسيين هي احتلال مصر والتمتع بمصادر الثروة فيها .

هزم الفرنسيون القوة الرئيسية للمماليك في معركة الاهرامات ، قرب القاهرة ، في ٢١ تموز ١٧٩٨ ، واحتلوا القاهرة . وفي محاولة منهم للتقرب من السكان المحليين ، أعلنوا أنهم أتوا لانقاذهم من ظلم المماليك ، وانهم أصدقاء المسلمين والسلطان ، وبدأوا يتقربون من العلماء . وركز البيان [٢] الذي وزعه نابليون على المصريين على استثارة الناحية الوطنية ضد المماليك ، وكذلك الشعور الديني للسكان . ولكن أحداثاً داخلية وخارجية أدت الى ازدياد النقمة ضد الفرنسيين . فقد أدت اجراءات الأمن التي اتخذوها في القاهرة ، كهدم البوابات وتحصين القلعة ، بالاضافة الى فرض الضرائب وتحصيلها من الأهلين الى تصاعد النقمة ضدهم . وزاد في الأمر عداء بريطانيا لفرانسا وتحطيم اللورد نلسن الاسطول الفرنسي في أبي قير في ١ آب ١٧٩٨ . وعمل على اثارة العداء الديني ضد الفرنسيين اعلان السلطان العثماني ، وهو زعيم المسلمين ، الحرب على فرانسا في الشهر التالي . وقد أدت عوامل النقمة هذه الى قيام ثورة في القاهرة على

---

١ - انظر ص ٣٦٦ ، والمصادر المذكورة حول الحملة .

٢ - انظر نص البيان (المكتوب) ، الذي وزعه نابليون على المصريين ، في الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٣ ، ٤ - ٥ .

الفرنسيين في ٢١ تشرين الاول من السنة ذاتها ، ولكن الفرنسيين قضوا عليها بالقوة •

كان يحدق بالفرنسيين أربعة أخطار : الخطر الانكليزي من البحر بما في ذلك وقف ايصال الامدادات من فرانسا الى الحملة في مصر ، والخطر المملوكي الذي تمثل في المماليك الهاربين الى الصعيد أو الى بلاد الشام ، والخطر المحلي كقيام ثورات شعبية ، ثم الخطر العثماني الذي تبدى في أنباء قدوم جيش عثماني بري • ولاستباق هذا الخطر الأخير توجه نابليون الى بلاد الشام لقطع الطريق على الجيش العثماني ولاقامة منطقة عازلة بين حكمه في مصر وبين العثمانيين في الأناضول • وكان يفكر في اقامة حكومة محلية موالية له في بلاد الشام الجنوبية من الامراء الشهابيين أو بقايا أسرة ظاهر العمر • وفي ٢٢ شباط ١٧٩٩ احتل الفرنسيون قلعة العريش ، وسقطت يافا بأيديهم في ٧ آذار • وقد ارتكب نابليون ما عرف بأشد أعماله قسوة ولا انسانية حين قتل ألفين من حامية يافا التي استسلمت له ، لأنه ، كما قيل عنه ، لو احتفظ بهم لأوجدوا له مشكلة ، من ناحية اطعامهم وحراستهم ، ولو أطلق سراحهم فربما انضموا الى صفوف خصومه • وبدأ الطاعون ، بعد احتلال يافا ، يتفشى بين جنوده •

وقد فشلت حملة نابليون على بلاد الشام لامتناع عكا عليه • وكان يدافع عنها أحمد باشا الجزار ويدعمه الاسطول الانكليزي • ورفض الأمير بشير الثاني الشهابي دعوة نابليون للانضمام اليه • ولم يكون أبناء ظاهر العمر ، الذي حاول نابليون كسب دعمهم ، قوة هامة • وعاد نابليون الى مصر في ٢٠ أيار ١٧٨٩ ، بدون أكاليل غار ، وكان ذلك بداية النهاية للحملة الفرنسية •

واضطر نابليون ، بعد قليل ، للعودة الى فرانسا للاسهام في التطورات السياسية فيها • وقتل نائبه كليبر ، الذي خلفه في مصر ، على يد سليمان الحلبي ، وحل مكانه الجنرال عبد الله مينو الذي اعتنق الاسلام • وبدأ

الانكليز والعثمانيون يحاصرون القوات الفرنسية ، من البحرين الاحمر والمتوسط ، ومن البر • وأخيراً جلا الفرنسيون عن مصر في ١٨٠١ •

لم تتوصل الحملة الفرنسية الى النتائج العسكرية والاستراتيجية والتجارية التي توختها • ولكنها أثارت اهتمام الاوربيين والفرنسيين ، على حد سواء ، بمصر • ودرس العلماء المرافقون لنابليون مختلف وجوه الحضارة المصرية وأعلنوها للعالم الأوربي في المؤلف الضخم Description de l'Egypte ، وكذلك أسهموا في فك رموز الهيروغليفية بواسطة قراءة حجر الرشيد • كما أن محاولة الفرنسيين الاعتماد على العلماء والأعيان المحليين من التجار قد زاد من أهمية هذه العناصر ، لاسيما بعد ضعف نفوذ المماليك بفعل الحملة • وحاول نابليون اشراك العلماء والاعيان بمجالس الديوان الذي دعا الى عقده في محاولة منه لتقريب الزعماء المحليين منه واشراكهم معه في السلطة •

ولم يكن فشل حملة نابليون نهاية النفوذ الفرنسي في مصر ، بل على العكس أكدت الحملة هذا النفوذ • وسرعان ما ظهر الفرنسيون بعد حوالي ربع قرن كمؤيدين لسلطة محمد علي باشا ، وأرسلوا خبراءهم لتطوير الادارة في مصر ، واستقبلوا في بلادهم بعثات الطلاب المصريين •

ورغم أن الانكليز لم يحلوا مكان الفرنسيين في استعمار مصر لانشغالهم آنذاك في الحرب النابليونية في أوربا ، ولعدم رغبتهم في اثارة العداء بينهم وبين الدولة العثمانية ، فانهم أدركوا أهمية الحيلولة دون سيطرة أية دولة أوربية على برزخ السويس • وعمدوا ، بعد ذلك ، الى احتلال عدن في ١٨٣٩ ونقاط أخرى على السواحل الجنوبية لشبهالجزيرة العربية لحماية خطوط مواصلاتهم مع الهند • وبدأ ، في الوقت نفسه ، التدخل في قلب العالم العربي • ودعم الانكليز والفرنسيون الأطراف المحلية المتنازعة ، مثل محمد علي باشا والسلطان العثماني ، والطوائف الدينية المتنافسة ، كما سنرى في بحث لاحق •

ولعل أهم أثر سياسي خلفته الحملة الفرنسية في مصر اضعاف المماليك • وقد توفي مراد بك في مصر العليا في عام ١٨٠١ • وبرز من بعده حزبان أسسهما اثنان من مماليكه : عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي • ودعمت انكلترا حزب الأخير، وزار الالفي لندن في ١٨٠٣-١٨٠٤ • وحين انسحب الانكليز من مصر في عام ١٨٠٣ ، بموجب معاهدة اميان ، وجد المماليك المضعفون وجهاً لوجه أمام النفوذ العثماني المتزايد ، وخاصة طموح زعماء الفرقة الألبانية[1] ، كما أن أهمية المماليك المنهزمين قد تضاءلت كثيراً في أعقاب الحملة • وبالمقابل ، وجد بعض كبار العلماء ، من أمثال الشيخ المهدي ، والشيخ الخشاب ، والشيخ العطار ، والشيخ الجبرتي ، في الادارة الفرنسية وفي البحث العلمي لدى الباحثين الفرنسيين المرافقين لنابليون ، ما أعجبوا به ، خاصة وان بعضهم اشترك في الدواوين التي أقامها نابليون في مصر •

وقد نظر المؤرخون في العالم العربي وخارجه الى الحملة الفرنسية كحادث هام ، أيقظت العالم العربي من سباته وأظهرت له كيف يمكن لجيش أوربي أن يغزو بلاده • كما أنها أظهرت لبريطانيا خطر الفرنسيين بالنسبة لخطوط مواصلاتها فيما لو تمكنوا من البقاء في مصر والشام •

وأصبح لانكلترا ، في أعقاب معارضتها لحملة نابليون بونابرت ، دور هام في تقرير السياسة في مصر والمشرق العربي ، خاصة وان الدولة العثمانية اعتمدت عليها في دعم وجودها ضد محمد علي باشا والنفوذ الروسي • وقد سبق القول [2] الى أن انكلترا كانت على رأس الدول الأوربية التي اضطرت محمد علي باشا الى الانسحاب من بلاد الشام ، والاكتفاء بحكم مصر ، وذلك في مؤتمر لندن الاول في ١٨٤٠ ، والثاني

---

١ ـ انظر البحث الموجز عن الحملة الفرنسية في :
Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, 155-163.

٢ ـ انظر ص ٤١٠ •

في ١٨٤١ ، الذي اشتركت فيه فرانسا الى جانب انكلترا والنمسا وبروسيا وروسيا التي دعت الى المؤتمر الاول •

ورغم انسحاب المصريين من بلاد الشام فان تدخل الدول الاوربية قد ازداد حدة ، بسبب ازدياد تصنيعها ، وخاصة بالنسبة لانكلترا وفرانسا، وبحثها عن أسواق ومصادر للمواد الخام ، وكذلك بسبب ازدياد المنافسة فيما بينها • ووجدت هـذه الدول في النزاعات الطائفية ، التي أسهمت في تأجيجها ، مجالا للتدخل ، فدعمت كل دولة طائفة معينة • وكانت الدول الاوربية منذ مؤتمر فينا في ١٨١٥ وحتى الحرب العالمية الاولى في ١٩١٤، تتحاشى الاشتباك مع بعضها في حرب كبرى خوفاً على كياناتها المحافظة من الانهيار ، ولذلك وجهت اهتمامهـا الى قمـع الثورات في الداخل ، سواء منها التي قام بهـا اليسار البورجوازي أو الطبقة العاملة (البروليتاريا) ، وكذلك الى الاستعمار في الخارج لخدمـة مصالح الطبقات البورجوازيـة الحاكمة ، من ناحية ، ولتحويل الانظار عن القضايا الداخلية ، من ناحية أخرى• وباستثناء حرب القرم (١٨٥٤–١٨٥٦)، التي وقفت فيها انكلترا وفرانسا وبيدمونت ــ سردينيا الى جانب الدولـة العثمانية ، ضد روسيا ، وكذلك الحـرب البروسية ــ الفرنسية في ١٨٧٠ ، فلـم تحدث حـرب أوربية اشتبكت فيها أكثر من دولتين • ولطالما وصفت حرب القرم بأنهـا غير ضرورية ، ولكنها على صعيد العلاقات العثمانية ــ الروسية ، قد حالت دون توسـع روسيا في المتوسط في المستقبل • وكانت الرابحـة الكبـرى بيدمونت ــ سردينيا اذ استطاع كافور ببضعة قتلى في القرم أن يجلس الى مائدة الصلح كممثل لايطاليا ، واستغل ذلك في فرض زعامة المملكة التي يمثلهـا في ايطاليا وفي أوربـا • أمـا الحرب البروسية ــ الفرنسية فقـد شنتهـا بروسيا رغبة من بسمارك في توحيد المانيا ، بالدرجة الاولى ، لانه بذلك أثار الروح القومية الالمانية فانضم اليه اتحاد دول الراين ، وتحاشى بذلك ضمها بالقوة •

وهكذا نجد أن الدول الأوربية تحولت عن القتال فيما بينها الى التنافس للحصول على المستعمرات ومناطق النفوذ • وكان الوضع في بلاد الشام ، في أعقاب انسحاب الجيش المصري ، مهيئاً لتدخل هذه الدول •

وتبدو لنا ظاهرتان هامتان في جبل لبنان اثر انسحاب جيش محمد علي باشا من بلاد الشام : الاولى نقمة الأعيان من المقاطعجية (الملتزمين) الدروز على الموارنة الذين استخدمهم ابراهيم باشا في قتالهم ، والذين تسربوا الى مناطقهم في جبل لبنان الجنوبي ، باعداد كبيرة ، وسيطروا على مقدراتها • والجدير بالذكر أن هجرة الموارنة من شمال جبل لبنان الى الجنوب بدأت في عهد فخر الدين المعني المتسامح دينياً [1] • وكان الفلاحون الموارنة في الجنوب يستخدمون من قبل المقاطعجية الدروز في استثمار الأراضي ، ولكن التوازن انقلب الآن بسيطرة الموارنة في الجنوب• والظاهرة الثانية هي التبدلات التي طرأت على الطائفة المارونية نفسها • فقد نشبت منافسة قوية بين أسر الأعيان الاقطاعيين ، الذين أرادوا الحفاظ على سلطتهم بين الموارنة ، وبين رجال الدين الموارنة الذين ازدادوا نفوذاً ودعموا الفلاحين ضد الاقطاعيين • وزاد في اضعاف زعماء الاقطاعيين انتشار الثقافة بسرعة بين المسيحيين وخاصة اثر شيوع افتتاح المدارس في عهد ابراهيم باشا • وبالاضافة الى ذلك فان الثروة الاقتصادية في جبل لبنان كانت تتحول ، تبعاً لازدياد التعامل التجاري مع أوربا ، الى أيدي التجار المحليين والأوربيين ، وفي هذا اضعاف لسلطة الزعماء الاقطاعيين• ورغم هذه الانقسامات في صفوف الموارنة فقد كان يوحد بينهم عداؤهم ككل للدروز •

انتهز الدروز مناسبة عزل الامير بشير الثالث في ١٨٤٢ ، من قبل الاتراك ، والقضاء بذلك على الاسرة الشهابية ، فهاجموا الموارنة في مناطقهم في محاولة منهم لاعادة نفوذهم عليهم • واستغل العثمانيون ذلك لفرض سيطرتهم على الجبل ، وعينوا حاكماً عثمانيا ، هو عمر باشا • ولكن الدروز

---

١ ـ أنظر ص ١٦٧ •

والموارنة عارضوه • واضطرت الدولة العثمانية الى عزلـه • وعمدت في ١٨٤٣ الى تقسيم الجبل الى منطقتين ، يحكـم المنطقة الشمالية قائـم مقام ماروني وفي المنطقة الجنوبية قائم مقام درزي ، ويفصل بين منطقتيهما طريق دمشق ــ بيروت • ولكن الصعوبة في الأمر أن التوزيع الطائفي لم يكن مقتصراً على هاتين المنطقتين ، بوجود أعـداد كبيرة من الموارنة تسكن في المنطقة الجنوبية التي أشرف عليها القائم مقام الدرزي • واحتج الموارنة على ذلك ، ونشبت الاصطدامات بينهم وبين الدروز في ١٨٤٥ • فأرسلت الدولة العثمانية وزير خارجيتها شكيب أفندي الذي أبقى على نظام القائم مقامين وأقام في كل منطقة مجلساً يضم مختلف المذاهب في محاولة لاشراك أصحاب المذاهب من الأقليات في الحكم •

هدأت الاحوال مؤقتاً بين الطائفتين ، وأتاح ذلك المجـال للخلافات أن تعم بين الموارنة•وفي ١٨٥٨ ثار الفلاحون الموارنة،في منطقة كسروان، ضد الاقطاعيين الموارنة من آل الخازن ، الذين ازداد نفوذهـم بأكثر من نفوذ الاقطاعيين الدروز الذين شردوا زمن ابراهيم باشا وعارضهم فلاحوهم من الموارنة•وكان يقود الفلاحين الموارنة في ثورتهم ، التي عرفت بالعامية، زعيم يسمى طانيوس شاهين • وقد طـرد آل الخازن ، وأقام جمهورية فلاحين في جبل لبنان الشمالي في ١٨٥٩ • وكان يؤيده ، في البدء ، كبار رجال الكهنة الذين عارضوا الزعماء الاقطاعيين ، كما أيدته الادارة التركية معنوياً ، أو على الأقل لم تعارضه فعليا ، لانها ستستفيد من تقليم أظافـر الزعماء المحليين •[1]

أثار نجاح الفلاحين في كسروان آمال الفلاحين في المناطق الدرزية في الجنوب • ولكن الفلاحين في الجنوب كانوا بكثرتهم من الدروز فترددوا في الثورة على زعمائهم الاقطاعيين من الدروز في حين أن الفلاحين الموارنة

---

١ ــ انظر حول ثورات الفلاحين في جبل لبنان في هذه الفترة : أ• سميليا نسكايا،الحركات الفلاحية في لبنان ، ترجمة عدنان جاموس ، (عن الروسية) ، بيروت ، ١٩٧٢ •

في الجنوب ثاروا للتحرر من زعمائهم الاقطاعيين الذين صدف أنهم دروز، وهكذا تمزّق النضال الفلاحي في الجنوب وأدّى الى حرب طائفية نتيجة لدعم الفلاحين الدروز للاقطاعيين الدروز ضد الفلاحين الموارنة الثائرين. ومما تجدر ملاحظته أن الزعماء الاقطاعيين في الجنوب استغلوا الخلافات المذهبية وأثاروا الطائفية في محاولة منهم لتدعيم مركزهم الاقطاعي وزعامتهم الفردية .

أتيح المجال الآن لتدخل الدول الاجنبية لابراز نفوذها فأيد الانكليز الدروز، والفرنسيون الموارنة، واستغل العثمانيون الوضع لاعادة سلطتهم. وبدأت المذابح في مناطق لبنان الجنوبي المختلطة ، وسرعان ما انتقلت الى دمشق ، حيث حاول الامير عبد القادر الجزائري وكبار علماء المسلمين الوقوف في وجه الغوغاء الذين تشجعوا بالتأييد الضمني التركي وعدم اتخاذ أي شيء ضدهم . ويذكر أن اعطاء الحكم المصري كثيراً من الامتيازات للمسيحيين قد أثار المتعصبين من المسلمين . كما أن اعلان السلطان العثماني خط شريف همايون في عام ١٨٥٦ ، الذي أقر المساواة ، في كثير من النواحي ، بين الرعايا ، على اختلاف مذاهبهم ، أجج أيضا خواطر المتعصبين . ولابد هنا من وقفة لازالة الغموض فيما كتب حول هذه الأحداث من قبل الغلاة من الطرفين . ولاشك أن المركز الممتاز الذي حصل عليه المسيحيون ، ابان الحكم المصري ، قد أثار غائلة عدد من المتعصبين ، فاستغلت سذاجتهم وجهلهم قوى متربصة ، من اقطاعيين ، ودول استعمارية ، وامبراطورية عثمانية ، وكل جماعة منهم تحاول استعادة نفوذها . فما حدث في جبل لبنان كان محاولة فلاحين للتخلص من تسلط الاقطاعيين ، أو لتحاشي عودة تسلطهم ، بعد أن أضعفهم الحكم المصري . ولم يكن من مجال ، في منطقة كسروان ، لاستغلال الطائفية ، لأن كلاً من الفلاحين والاقطاعيين المتحاربين ، كانوا من الموارنة . ولكن تعقد الصورة في لبنان الجنوبي ، وانقسام الفلاحين الى دروز وموارنة ، وقيامهم ضد أكثرية درزية من الاقطاعيين ، أتاح

المجـال لأصحاب المصالح بالتدخل • ومما يدل على أن العامل الاقتصادي كان هو المسؤول عن الثورات أن كثيراً من المدينين هاجموا دائنيهم ، من المذهب نفسه أحياناً ، للتخلص من الدين • وبرز أيضاً العنصر الاقتصادي في دمشق ، في أحـداث ١٨٦٠ ، ومن قبلهـا في حلب ، في الاصطدامات الطائفية التي حدثت فيها في ١٨٥٠ ، قبل أن تبدأ أحداث جبل لبنان وتنتقل بالعدوى • فقد حدثت تطورات اقتصادية هامة ، منذ الربع الاول من القرن التاسع عشر ، تحت تأثـير الاقتصاد الأوربي المتصنع ، ونتيجة للمنجزات التي أتت بهـا الثورة الصناعية في أوربا • وازداد الاقتصاد المحلي ضعفاً بفعل المنافسة الأوربية •

ومما يذكر أن التجار الأوربيين ، قبل الثورة الصناعية الاوربيةالتي نوضحت آثارها منذ الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، كانوا يتعاملون مع بلاد الشام ، فيصدرون اليها بضائعهم ، ويشترون منتجاتهـا المتنوعة • ولكن ، بنتيجة الثورة الصناعية ، أصبحت البضائع الأوربية أكثر رخصاً ، وبالتالي أكثر قدرة على منافسة وتقويض المنتجات المحلية • ونظراً لكثرة الكميات المصدرة من أوربا فقد ازدادت سعة البواخر التي نقلتها ، ولـم تعد الموانى التقليدية ، مثل عكا وصيدا وطرابلس والاسكندرونة ، بقادرة على استيعاب هذه التجارة المتسعة ، ولذلك أوجد ميناء بيروتلايواء السفن الكبيرة وبضائعها • وبالاضافة الى ذلك ، ففي فترة ما قبل الثورة الصناعية كان التجار الأوربيون يشترون فائض المحاصيل المحلية ، مهمـا اختلفت أنواعهـا ، من قطـن وحبوب وزيت وحرير وقـلي ، ولكـن بعد الثورة الصناعية واتساع صناعة النسيج في أوربـا ، أصبح التجـار الأوربيون لا يشترون الا المواد الخام التي تحتاجها معاملهم • كما أن جودة ورخص البضائع الأجنبية ، التي زاحمت المنتجات المحلية ، جعلت التجار الأوربيين يبيعونها لقاء المال (وهو معدني وليس ورقياً) ، أما لعدم اهتمامهمبالمنتجات المحلية أو لعدم كفاية هذه المنتجات في سد قيمة بضائعهم ، وبذلك انقضى

عصر المقايضة الذي شاع قبل الثورة الصناعية . وهكذا افتقر السكان من ناحيتين : لأنهم لم يبيعوا كافة منتجاتهم ، ولأنهم دفعوا ثمن البضائع الأوربية نقداً ثميناً من الذهب أو الفضة . وبالمقابل ازدهرت طبقة جديدة في بلاد الشام ، وفي العالم العربي بصورة عامة ، لانها عملت كواسطة بين التاجر الأوربي والمستهلك المحلي . وكان معظم أفراد هذه الطبقة البورجوازية التجارية من المسيحيين ، الذين تثقفوا في المدارس التي افتتحها ابراهيم باشا والبعثات التبشيرية في عهده ، وأتقنوا اللغات الأجنبية أكثر من غيرهم ، وهكذا أمكن للتجار الاوربيين الافادة منهم في العمليات التجارية . وفي الاضطرابات الطائفية ، سواء في حلب في ١٨٥٠ أو دمشق في ١٨٦٠ ، كانت الغوغاء تخرج من المناطق الفقيرة لتهاجم الأغنياء الجدد، ومعظمهم من المسيحيين.ومما يذكر أن المحاصيل الزراعية،قبل الحادثتين، كانت شحيحة ، وعمدت الدولة العثمانية الى فرض المزيد من الضرائب لتمويل اصلاحاتها الحديثة . وطبيعي أن قادة الغوغاء ، من الأعيان أو الموظفين العثمانيين المتواطئين ، كانت لهم أهداف تختلف عن أهداف الغوغاء ، وعرفوا كيف يستغلون تعصب هؤلاء وحاجتهم المادية ، ولكنهم دفعوا ثمن ذلك باعدام المئات منهم حين اضطرت الدولة العثمانية لمعاقبة المسؤولين [1] .

وأنزلت فرانسا ، بموافقة الدول الأوربية ، قوات في بيروت في آب

---

١ ـ انظر حول تفاصيل أحداث دمشق : محمد أبي السعود الحسيبي ، حادثة الستين ، مخطوط في الظاهرية ، برقم ٤٦٦٨ ، وانظر الدراسة التي قام بها لهذا المخطوط :

Kamal Salibi, "The 1860 upheaval in Damascus as seen by al-Sayyid Muhâmmad Abu'l-Su'ud al-Hasibı, notable and later *naqib al-Ashraf* of the city", in *Beginnings of Modernization in the Middle East*, edd. W. Polk and R. Chambers, Chicago, 1968, pp. 185-202.

وانظر حول أثر الاقتصاد الاوربي المتصنع على الاقتصاد والمجتمع في بلاد الشام

D. Chevallier, "Western development and Eastern crisis in the mid-nineteenth century : Syria confronted with the European economy", op. cit. pp. 205-222.

١٨٦٠ لتهدئة الوضع ، وأسرعت الدولة العثمانية بارسال وزير خارجيتها فؤاد باشا الذي أمر بمعاقبة زعماء الفتنة في دمشق وغيرها • واشترى انسحاب القوات الفرنسية في حزيران ١٨٦١ باصدار نظام اداري في الشهر نفسه ، بضمانة الدول الاوربية ، لتنظيم أمور لبنان • وقد عدّل النظام في ١٨٦٤ ، واستمر ساري المفعول حتى الحرب العالمية الاولى • ونصّ على الغاء نظام القائم مقامين ، واقامة سلطة موحدة تشرف على شؤون الجبل بكامله ، يرأسها متصرف مسيحي مسؤول مباشرة أمام السلطان (ومن هنا دعي النظام بالمتصرفية) [١] • ويساعد المتصرف مجلس اداري مركزي يمثل المذاهب المختلفة • وأقرّ نظام المتصرفية مساواة جميع المواطنين أمام القانون والغاء الامتيازات الاقطاعية • وتغلب أول متصرف وهو داود باشا (١٨٦١–٦٨) على معارضة الزعماء الاقطاعيين وعلى نفوذ يوسف كرم القائم مقام المسيحي في منطقة لبنان الشمالي الذي سبق أن أطاح بحكومة طانيوس شاهين الفلاحية في كسروان ، ونفي يوسف كرم من لبنان •

وقد اتبع العثمانيون اصلاحاتهم في لبنان باقامة اصلاحات ادارية في بلاد الشام فقسموها الى ولايات جديدة ، وأنشأوا أولا ولايتي الشام وحلب ، ثم ولاية بيروت ، وجعلوا من القدس صنجقاً خاصاً •

وهكذا نرى كيف عملت السياسة والتدخلات الأجنبية بتواطؤ السلطات العثمانية على قلب حركة تحررية تهدف الى تصفية نظام الاقطاع الى حركة دينية أثارها واستغلها الأجنبي ، أما نتائجها فبالرغم من القضاء على نفوذ رجال الدين وعلى النظام الاقطاعي بوجه عام فقد كانت سابقة خطرة في تدخل الاوربيين في شؤون المشرق العربي ، وبالرغم من هذا كله نبهت الأفكار الى خطر الطائفية واستغلالها من قبل الاجانب وقيامها على الجهل • لذلك تضاعفت الجهود لانشاء المدارس والقضاء على الامية ،

---

١ – انظر حول المتصرفية ، أسد رستم لبنان في عهد المتصرفية ، بيروت ، ١٩٧٣ •

وحفزت بعض الشباب المفكر على العمل لتحرير بلاده من الحكم التركي .
وهكذا زرعت بذور الوطنية ، وظهرت حركة تستوحي من الفكرة العربية وتعمل لمثل قومية ، وليس طائفية .

واستمر تدخل انكلترا وفرانسا في شؤون المشرق العربي ، بشكل أو بآخر ، الى أن أقاما انتدابهما عليه في أعقاب الحرب العالمية الاولى .
وكنا رأينا كيف أن الانكليز شددوا قبضتهم على السواحل الجنوبية والشرقية من الجزيرة العربية ، ووقعوا المعاهدات مع امارات الخليج العربي ، في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، كما أنهم احتلوا عدن في عام ١٨٣٩ [1] . وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر جدد الانكليز معاهداتهم مع السلاطين العمانيين في مسقط وزنجبار في ١٨٩٠-١٨٩١ ، ومع البحرين في ١٨٩٢ ، ومع الكويت في ١٨٩٩ .

ثم ظهرت دولة أوربية أخرى ، هي المانيا ، في ميدان السباق على النفوذ في المشرق العربي ، وفي الامبراطورية العثمانية بصورة رئيسية .
ويعزى تأخر ظهورها الى اكتمال وحدتها في وقت متأخر ، أي في عام ١٨٧٠ . وبدأ اهتمام المانيا بقضايا الامبراطورية العثمانية حوالي ١٨٨٠، وعين القائد الالماني فون در غولتز ، في ١٨٨١ ، رئيساً للبعثة العسكرية المكلفة باعادة تنظيم الجيش التركي . وفي الاول من تشرين الثاني ١٨٨٩ أبحر اليخت الامبراطوري الالماني - الهوهنزلرن - في الدردنيل يحمل على ظهره الامبراطور غليوم (وليم) الثاني وزوجه في زيارتهما للسلطان عبد الحميد . وقد مضت سبعمائة سنة منذ أن وطأ أول امبراطور ألماني ، وهو فريدريك بربا روسا ، أرض استانبول ، ابان الحملات الصليبية .
لكن هذا الأخير أتى يحمل السيف في يده بينما أتاها غليوم كرسول السلام وطليعة التغلغل الاقتصادي . وكلما ازدادت العلاقات تأزماً بين تركيا والدول الأوربية الاخرى كلما توثقت علاقاتها مع ألمانيا . وفي زيارته الثانية للامبراطورية العثمانية ، في عام ١٨٩٨ ، ألقى غليوم الثاني

---

[1] انظر ص ٣٣٦ ، ٣٤٢ .

خطاباً في دمشق في ٨ تشرين الثاني جاء فيه : « وليوقن صاحب الشوكة السلطان عبد الحميد خان الثاني والثلثمائة مليون من المسلمين المرتبطين بمقام خلافته العظمى ارتباطا قوياً والمنتشرين في جميع أنحاء الكرةالأرضية ان امبراطور المانيا سيبقى محباً لهم الى الأبد »[1]. وعلق المؤرخ الالماني نومان (Neumann) ، صاحب كتاب ' أوربا الوسطى ' الذي حضر الحفلة ، على خطاب الامبراطور بقوله : « من المحتمل أن يقع سلطان استانبول بأيدي الروس فيقوم آنئذ خليفة مسلم في دمشق أو غيرها ، ومن المفيد أن يكون الامبراطور صديق المسلمين جميعاً لا السلطان وحده . كما أن الدعوة الى الجهاد المقدس في حالة قيام حرب عالمية ستفيد حتماً المانيا صديقة الخليفة » .

ولم يكن هدف زيارة غليوم للشرق حماية البروتستانت في الاراضي المقدسة ولا مجرد مجاملة صديقه عبد الحميد ، وانما اتفق وجوده في استانبول مع منح امتياز مرفأ حيدر باشا الى شركة الخطوط الحديدية الأناضولية الألمانية . ثم وقع البنك الالماني (دويتش بانك) عقداً بمد السكة الحديدية حتى أنقره ، وتم ذلك في عام ١٨٩٢ . والجدير بالذكر أن الدبلوماسية الالمانية في الشرق الادنى كانت « دبلوماسية الخطوط الحديدية » منذ بدئها حتى نهايتها ، كما أن رؤوس الأموال والمصارف الالمانية أخذت تغزو تركيا . ولعل أهم العقود المبرمة مع المانيا والتي أدت الى صراع دولي حاد كان الامتياز الممنوح للشركه السابقة في ١٩٠٢ القاضي بمد سكة حديد استانبول ـ بغداد ، وبذلك تتصل برلين باستانبول وبغداد والبصرة ، مما يفيد التوسع الاقتصادي الالماني . وقد قاومت انكلترا هذا المشروع مقاومة عنيفة . ثم تم مد خط آخر الخط الحديدي الحجازي ، الذي وصل بين دمشق والمدينة ، وأنجز في الفترة بين ١٩٠٠ و ١٩٠٨ ، بمساعدة الالمان . ورغم أن ثلث التكاليف دفعت عن

---

١ ـ أنظر نص الخطاب وتفاصيل زيارة الامبراطور غليوم الثاني لدمشق وغيرها : ابراهيم الاسود، الرحلة الامبراطورية في الممالك العثمانية، لبنان ١٨٩٨ ، ص ١٨١ .

طريق تبزعات المسلمين في العالم ، فقد خدم هذا الخط سياسة عبد الحميد الاسلامية ، وكذلك المصالح الاستراتيجية الالمانية ، لأن من شأنه أن يهدد مواصلات الامبراطورية البريطانية في البحر الاحمر •

والى جانب التدخل الاوربي ، في المجالات السياسية والاقتصادية ، في بلـــدان المشرق العربـي ، فقـد نشطت الارساليات الدينية الاوربية والامريكية في فتح المدارس ونشر الثقافة الغربية • وكانت أولى الارساليات التي قامت بنشاط ديني في بلاد الشام ، منذ القرن السادس عشر ، هـي الكاثوليكية ، ممثلة ، على التتالي ، بالكبوشيين (Capucins) ، ورهبان الأرض المقدســة (Terra Sainta) واليسوعيين (Jesuits) [١] • وكان هدفهم جذب أتباع المذاهب المسيحية الاخرى الى الكاثوليكية ، وتنظيم الموارنة وربطهم بروما • وقد نجحوا في المهمة الاخـيرة في عـام ١٧٣٦ ، وارتبط موارنة الشرق بروما • وقام المبشرون الكاثوليك بالتدريج بايجاد اتباع ، وبالتالى كنائس كاثوليكية ، داخـل الطوائف الارثوذكسية والأرمنية والسريانية والنسطورية[٢] •ورغم أن الدولة العثمانية لم تعترف بالكنائس الكاثوليكية حتى القرن التاسع عشر ، وانحصرت رعايتها بالارثوذكس ، الذين تمتع بطريركهم في اسنانبول بنفوذ كبير ، فان الكنائس الكاثوليكية ، بعد صدام مـع الارثودكس في الربع الاول من القرن الثامن عشر ، أصبحت تتمتع بكيان مستقل [٣] •

أمـا النشاط التبشيري البروتستانتي فلـم يقو في بـلاد الشام حتى القرن التاسع عشر • وفي عام ١٨٤٨ شكل البروتستانت المحليون الكنيسة الانجيلية السورية • وظهر نشاط البروتستانت في الطباعة والتعليم ، ففي

---

١ ـ أنظر :

G. Levenq, *La Première Mission de la Compagnie de Jésus en Syrie, 1625-1774*. Beyrouth, 1925.

٢ ـ أنظر الدراسة المختصرة والهامة حول تطور الطوائف المسيحية في بلاد الشام عبر العصور:
R. Haddad, *Syrian Christians in Muslim Society*, Princeton., 1971.

٣ ـ : بريك ، تاريخ الشام ، ٣ـ٦ •

عام ١٨٣٤ نقلوا الى بيروت من مالطة مطبعة عربية لعبت دوراً هاماً في نشر التراث العربي • ولم تكن هذه أول مطبعة عربية في بلاد الشام ، فالاولى أنشئت في لبنان في ١٦١٠ ، وقد أهدتها روما الى الرهبانية في دير قزحيا• وأنشئت أول مطبعة عربية في حلب عام ١٦٩٨ • وتلتها مطبعة الشوير في ١٧٣٢ ، ومطبعة القديس جاورجيوس في ١٧٥٣ ، ومطبعة بولاق في مصر عام ١٨٢١ ، وكان أول مدير لها لبنانياً •

وقد نشط المبشرون الامريكيون بفتح المدارس ، ولعل أهم عمل قاموا به افتتاح الكلية السورية البروتستانتية في ١٨٦٦ في بيروت ، بمساعي دانيال بلس ، التي أصبحت فيما بعد الجامعة الاميركية • والجدير بالذكر أن الكلية السابقة كانت في بادىء الأمر تدرس الطب والآداب باللغة العربية [١]• أما المرسلون اليسوعيون فلم يكونوا أقل نشاطاً من البروتستانت وقد أسسوا مدارس في بيروت ١٨٣٩ ، وغزير ١٨٤٣ ، وزحلة ١٨٤٤ ، ودمشق ١٨٧٢ ، وحلب ١٨٧٣ • وقدر لمدرسة غزير أن تصبح ذات شأن اذ بانتقالها الى بيروت في ١٨٧٥ تحولت الى جامعة القديس يوسف (اليسوعية) • ثم تلا ذلك انشاء مدارس انكليزية واسكوتلاندية وألمانية وروسية [٢] • الا أن تأثيرات المدارس الامريكية واليسوعية كانت سائدة بالنسبة للاخرى • وفتحت المدارس للمسلمين والمسيحيين على حد سواء، وان اقتصرت على هؤلاء الاخيرين في البدء • وبالرغم من مساهمة هذه المدارس الغربية في تطوير النهضة العلمية وبعث الوعي القومي بالتالي الا أن تأثيرها كان محدوداً •

---

١ ـ انظر حول نشاط الارساليات الامريكية :
A. Tibawi, *American interests in Syria 1800-1901*, Oxford, 1966.

٢ ـ انظر حول النشاط الروسي :
D. Hopwood, *The Russian presence in Syria and Palestine 1843-1914*, Oxford, 1969.

احتلال فرانسا الجزائر • ـ وعلى نقيض التدخل الأجنبي ، الذي اقتصر ، في المشرق العربي ، في القرن التاسع عشر ، على الحصول على المكاسب الاقتصادية والنفوذ الثقافي ، واتجه نحو دعم طائفة أو أخرى ، فان التدخل الأوربي ، في ذلك القرن ، في شمال افريقية ، اتخذ المظهر العسكري والاحتلال • وكان احتلال فرانسا للجزائر في ١٨٣٠ ذروة نزاع مالي ودبلوماسي بدأ بين البلدين منذ العقد الأخير من القرن الثامن عشر • ويذكر أنه بين عامي ١٧٩٣ و ١٧٩٨ بيع قمح الجزائر الى الجيش الفرنسي ، بواسطة أسرتين يهوديتين من الجزائر تنتسبان الى بكري وبشناق • وبلغ مجموع ما تأخر من ثمن القمح في ١٧٩٨ حوالي ثمانية ملايين فرنك • وقد تورط داي الجزائر في هذه العملية لأن التجار اليهود كانوا مدينين للحكومة الفرنسية ، وادعوا بعدم قدرتهم على تسديد الدين مالم يتسلموا ثمن القمح • وفي ٢٩ نيسان ١٨٢٧ اغتاظ الداي حسين من القنصل الفرنسي ديفال حين رفض معالجة الديون ، وضربه « بكشاشة ذباب » ، مما أدى الى قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين • وتلا ذلك حصار بحري فرنسي للجزائر دام ثلاث سنوات • وقد ضج تجار مرسيليا الفرنسيون من هذا الحصار الذي أضر بمصالحهم • ولم تكن الحكومة الفرنسية برئاسة بولينياك قد قررت بعد احتلال الجزائر ، ولكنها فكرت في ١٨٢٩ بتشجيع محمد علي باشا ، حاكم مصر ، على احتلال المغرب بكامله وايجاد دولة قوية حليفة لفرانسا • ولكن معارضة بريطانيا والدولة العثمانية لهذا المشروع ، وكذلك تراجع فرانسا عن خطتها الاولى وطلبها الى محمد علي احتلال طرابلس وتونس فقط ، وترك احتلال الجزائر لها ، أفشل مشروع بولينياك بكامله [1] • وكانت هناك جهتان تضغطان على حكومة فرانسا للتدخل المباشر ، وهما : الحزب الملكي الذي وجد في

---

١ ـ أنظر تفاصيل المشروع ، محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، ١٦٥ـ١٧٥ ؛ وانظر كذلك ؛ ارجمند كوران ، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، نقله عن التركية عبد الجليل التميمي ، تونس ، ١٩٧٤ ، ٢٨ـ٣٤ـ٣٥ •

الحملة توطيداً لنفوذ الملك شارل العاشر ، والدوائر التجارية ، وخاصة في مرسيليا ، التي أملت بتنشيط التجارة في أعقاب احتلال الجزائر • ووجد الملك شارل العاشر أن الحملة ستحول الانظار عن معارضة الأحرار له في الداخل ، وان انتصاراته فيها ستزيد من نجاح الحزب الملكي في الانتخابات المعلن عنها في تموز ١٨٣٠ •

واحتلت القوات الفرنسية مدينة الجزائر في ٥ تموز ١٨٣٠ ، بعد استسلام الداي ، الذي غادر البلاد وأقام في نابولي • ولم يفد شارل العاشر من هذا النصر ، لأن ثلثي مجلس النواب الجديد في باريس كانوا معارضين للملك ، وسرعان ما انتشرت مظاهرات المعارضة في ٢٧-٢٩ تموز ، وأدت الى استقالة الملك في ٢ آب • وتسلم البورجوازيون الحكم ، وأتوا بملك دستوري هو لوي فيليب من أسرة اورلئان • وخدم احتلال الجزائر أغراضهم التوسعية • واقتصر الاحتلال الفرنسي ، حتى عام ١٨٣٤ ، على بضع نقاط على الساحل ، ثم بدأ بالتوسع باتجاه الداخل في وجه معارضة ضارية •

وكانت السياسة الفرنسية في الجزائر تقوم في البدء على سياسة الاحتلال المحدود ، أي أن يقتصر على احتلال المدن الرئيسية في الداخل، وان يمارس النفوذ الفرنسي على بقية المناطق من خلال الحكام المحليين أو العرب • وتبلورت هذه السياسة في عام ١٨٣٤ حين أنشيء منصب الحاكم العام للجزائر ، وحين عقدت أول اتفاقية فرنسية مع الامير عبد القادر في العام ذاته ، وأيضاً حين حاول الفرنسيون فرض سيادتهم على حاكم قسنطينة التركي أحمد باي • ولكن سياسة الاحتلال المحدود فشلت بسبب المقاومة الجزائرية للحكم الفرنسي ، وأيضاً بسبب مطامع المستعمرين الفرنسيين • ولهذا تحول الفرنسيون الى الاحتلال المباشر

فاحتلوا وهران ، بعد أن أقاموا فيها حكما تونسياً ، وأعادوا احتلال عنابه• وقوى الفرنسيون مركزهم باقامة قاعدة عسكرية في بليدا ، ومارس الحاكم العسكري الفرنسي ، في هـــذه المناطق الساحلية ، السلطات العسكرية والمدنيــة •

وتحــول الفرنسيون بعد ذلك الى مقاومــة التدخــل المراكشي في الجزائر•وكان سلطان مراكش مولاي عبد الرحمن قد أرسل المساعدات الى المقاومين في تلمسان ، وشجع الطرق الصوفية التيجانية والطيبية عــلى المقاومة • وأقام مركزاً له في بلدة معسكر ، وأرسل قواته لمهاجمة وهران في ١٨٣١•ولكن الضغط الفرنسي اضطره الى سحب قواته في عام١٨٣٢• وهكذا وقع ثقل المقاومة على شيخ الطريقة القادرية محي الدين وابنه عبد القادر من بعده • ومن ناحية أخرى ، تمكن الفرنسيون من اقصاء الحاكم التركي أحمد باي عن قسنطينة واحتلالها في ١٨٣٧ ، وكان الباي التركي الآخر في تيطري قد استسلم للفرنسيين منذ احتلالهم الجزائــر في تموز ١٨٣٠ • ومما يجدر ذكره أن الامبراطورية العثمانية التي امتدت سيادتها على الجزائر اكتفت بالاحتجاج ولــم تقطع حتى علاقاتهــا بفرانسا [١] • وسندرس المقاومة المحلية للفرنسيين والحركة الوطنية بصورة عامــة في بحث لاحق [٢] •

---

١ ــ أنظر حول الاحتلال الفرنسي للجزائر : المصدر السابق ، ١٧٦ ــ ٢٠١ ؛ وانظر كذلك : Abun-Nasr, 236-241; Ch. André Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord*, Paris, 1931, 574-587;

وانظر حول رد فعل السلطات العثمانية : كوران ، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ، ٣٩ــ٧٧ •

٢ ــ أنظر ص ٤٦٥ •

احتلال فرانسا تونس • ــ رحّب باي تونس ، من الاسرة الحسينية [1]، بالاحتلال الفرنسي للجزائر اعتقاداً منه أن هذا سينقذه من تهديد حكام الجزائر لبلاده • وكانت سلطته قد ضعفت كثيراً تجاه التدخل الأوربي في شؤونه • ففي عام ١٨١٩ أبلغته قوة فرنسية ــ بريطانية مشتركة بمقررات مؤتمر اكس لا شابل في ١٨١٨ بمنع تسليح سفن القراصنة• ووقع الباي حسين في آب ١٨٣٠ معاهدة مع فرانسا تعهد بموجبها بمنع احتكار الدولة للمنتجات ، وبالقضاء نهائياً على القرصنة ، وبتطبيق نظام الامتيازات (Capitulations) ، الذي فرضته الدول الاوربية على الدولة العثمانية ، والذي تمتع الرعايا الاجانب بموجبه بحقوق خاصة ، مثل مقاضاتهم فقط أمام قناصلهم • وأهمية المعاهدة في أنها أتت في أعقاب الاحتلال الفرنسي للجزائر • وقد عرض الفرنسيون على باي تونس مشروع اقامة أميرين تونسيين حاكمين في قسنطينة ووهران تابعين لفرانسا، وذلك ليس لفائدة التونسيين بل لجعل القبائل الجزائرية تخفف من مقاومتها للحكم الفرنسي • ونفذ ذلك في وهران في ١٨٣١ ، ثم غيرت الحكومة الفرنسية خطتها ، وتخلت عن المشروع •

وبعد احتلال الفرنسيين قسنطينة في ١٨٣٧ أصبحت تونس أشبه بمستعمرة تجارية لأوربا • وتراءى للجميع أنها ستسقط تحت النفوذ الفرنسي عاجلا أو آجلا • وحاولت فرانسا اضعاف علاقات تونس بالامبراطورية العثمانية • وكان باي تونس ، ازاء وصول أنباء عن ارسال حملة عثمانية الى تونس ، قد أرسل وفداً الى استانبول ، ضم الاخباري ابن أبي الضياف [2] ، ليبرر تفاوضه مع فرانسا ، وذكر أنه اختار أهون الشرين ، وفضل الدخول في المفاوضات على التعرض للاحتلال • وطلب الوفد أيضاً الاذن من استانبول باستعمال بزات الجيش العثماني النظامي

---

١ ــ انظر ص ٣٧٠ •

٢ ــ انظر وصفه لزيارة استانبول : اتحاف أهل الزمان ، جـ ٣ ، ٢٧٨ـ٢٧٩ •

الجديد لأفراد الجيش التونسي الذي أعيد تنظيمه في ١٨٣١ ، على يد خبراء فرنسيين ، وكان ذلك تدليلا عن حسن النية تجاه استانبول • ولم يكن بمقدور العثمانيين ارسال حملة ضد تونس لأن ذلك سيثير فرانسا ، ولهذا قبلوا أعذار الباي •

وحدثت تطورات في ١٨٣٥ في ليبيا اذ أنهى العثمانيون حكم الاسرة القرامانلية ، وأعادوا الحكم المباشر للبلاد بالقوة [١] • وصادف وفاة الباي حسين في تونس قبل اسبوع من ذلك ، في ٢٠ أيار ١٨٣٥ ، فطلب العثمانيون من الباي الجديد مصطفى دفع ضريبة منتظمة لهم ، ولكنه رفض لأنه أدرك أبعاد التبعية التي سيفرضها ذلك • ثم أرسل العثمانيون اسطولا بقيادة طاهر باشا ، في ١٨٣٦، لمعاقبة القبائل المتمردة في طرابلس ، وطلبوا مساعدة باي تونس • وكانت سفن الباي ، في السابق ، قد اشتركت ، في كثير من المناسبات ، مع الاسطول العثماني ضد القوات الأوربية ، ولكن اشتراكها معه الآن ضد جيران مسلمين يعني تبعية أكبر للعثمانيين • وخشي الباي أن يتحول طاهر باشا ضده ان رفض طلبه ، فأرسل قوات لدعمه• ولم يؤدي ذلك الى خضوع تونس للسيادة العثمانية لان توجه قطع فرنسية الى شواطىء تونس أخاف طاهر باشا ، وهكذا بقيت تونس تعترف فقط بالسلطة الدينية للسلطان العثماني • وحاولت دائماً اقامة نوع من التوازن بين العثمانيين والفرنسيين ، لأنه باحتلال الفرنسيين قسنطينة في ١٨٣٧ وصلوا الى حدود تونس ، كما أن السيطرة العثمانية في ليبيا جعلت الوجود العثماني على مقربة منهم •

ورغم أن الباي أحمد (١٨٣٧-١٨٥٥) ، رفض باستمرار دفع ضريبة سنوية للسلطان وتطبيق الاصلاحات العثمانية في بلاده ، فانه حاول عدم استثارة السلطان العثماني ، فكان يغدق عليه الهدايا ، وأرسل القوات للاشتراك مع العثمانيين في حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٦) • وقد أملى

---

١ ـ انظر ص ٤٦٠ •

سياسة الباي في التودد للعثمانيين عاملان : الرابطة الاسلامية من ناحية ، والخوف من الوقوع تحت الاحتلال الأوربي ، من ناحية أخرى . وليحافظ على استقلاله ، اهتم الباي أحمد بتقوية الجيش ، فأنشأ مدرسة عسكرية في ١٨٤٠ • وارهق الشعب بالضرائب للانفاق على جيشه ، وكذلك على قصوره • ولجأ الى احتكار المتاجرة ببعض السلع ، ليزيد من أرباحه • ولمواجهة تذمر الشعب على كثرة الضرائب ، اعتمد على الجيش وكبار العلماء ، الذين أجزل لهم العطاء لقاء تعليمهم في جامع الزيتونة أو عملهم كقضاة في الجيش • كما أنه تقرب من مشايخ البدو ، ووضعهم في مراكز السلطة ، وهكذا جعل للقوى المحلية مصلحة في استمرار حكم الاسرة الحسينية •

وعلى غرار ما حدث في الامبراطورية العثمانية من ضغط الدول الأجنبية على السلطات الحاكمة لاصدار اصلاحات تساوي بين المواطنين ، وتدعم في الوقت نفسه كيان الطبقة الحاكمة الحليفة لها ، فقد حدث مثل ذلك في تونس ، وأصدر الباي محمد في ٩ ايلول ١٨٥٧ قانوناً أساسياً ، عرف بعهد الأمان [١] • وقد صان هذا القانون حرية الافراد والممتلكات ، وساوى بين المسلمين وغير المسلمين أمام القانون ، ومنح الاجانب حق التملك في تونس ، وفتحت الفقرة الاخيرة الباب لتسرب الاقتصاد الأوربي الى البلاد • وشجع صدور هذا القانون المصلحين التونسيين ، وعلى رأسهم خير الدين باشا ، وهو من أصل شركسي ، للمطالبة باصلاحات أخرى ، وهكذا أصدر الباي التالي محمد الصادق ، في ٢٩ كانون الثاني ١٨٦١ ، دستوراً هو الاول من نوعه في أي بلد اسلامي آنذاك [٢] • وجعل الباي رئيساً للدولة ، واعترف بحق الوراثة في اسرته • كما أصبح الوزراء مسؤولين أمام مجلس تشريعي أعلى (المجلس الأكبر) ، مؤلف من ستين عضواً ، يتألف ثلثهم من موظفي الدولة ، ويستبدل أعضاء المجلس كل

---

١ ــ أنظر تفاصيله ، ابن أبي الضياف ، جـ ٤ ، ٢٢٩ــ٢٤٤ •

٢ ــ أنظر : ابن أبي الضياف ، جـ ٥ ، ٤٢ ــ ٥٥ •

خمس سنوات • ولكن الباي ورئيس الوزراء سيطرا على المجلس وتعيين أفراده مما حدا بالمصلحين ، وعلى رأسهم خير الدين ، الى الاستقالة منه • وعلق الدستور بعد أربع سنوات من صدوره ، مما يدل على شدة تسلط الدولة وعلى ضعف رجال الاصلاح • كما أن كبار العلماء وجدوا في الدستور بدعة جردتهم من امتيازاتهم في العمل كمستشارين لدى الباي • ولم تهتم الجماهير التونسية بالدستور لانهلم يعدل من وضعها السيءبشيء• وعارضت معظم الدول الاوربية ، وخاصة فرانسا ، تطبيق الدستور لانه حرمها في الواقع من الحصول على الامتيازات بالطرق التقليدية المألوفة كتقديم الرشوة للباي وموظفيه ، أو تهديدهم بالقوة • كما أن القناصل الأجانب عارضوا في الدستور اخضاع رعاياهم للمحاكم التونسية ، عوضاً عن محاكمتهم بأنفسهم ، وفق نظام الامتيازات (Capitulations)• ولم يؤيد من الدول الاوربية هذه الاصلاحات غير بريطانيا التي نالت لقاء ذلك حرية التجارة في تونس •

وكانت المشكلة العويصة التي راجهت الحكومة التونسيه ايجاد المال لتمويل الجيش الجديد ، ومشروعات الاصلاح الاخرى ، وجشع الطغمة الحاكمة التي بحثت عن الرشوة وعطلت اشراف المجلس الأعلى على الميزانية التي أقر الدستور انشاءها • ولجأت الدولة الى القروض الأجنبية وفرض الضرائب في الداخل،ولكن القبائل رفضت دفع الضرائب ، وثارت في ١٨٦٤ • وانتشرت الثورة في الساحل ، واتخذت صبغة وطنية ضد المصالح الأجنبية • ولكن الثورة فشلت لانها افتقدت الوحدة في العمل ووضوح الهدف•واتخذ الباي ذلك ذريعة لتعليق الاصلاحات والدستور• وقد ساءت الحالة الاقتصادية ، وازدادت القروض الاجنبية ، وأجبر الباي في ١٨٦٩ على قبول وصاية لجنة مالية دولية ، ووضعت بموجب ذلك مالية تونس تحت حماية فرانسا وبريطانيا وايطاليا • ولكن هزيمة فرانسا في ١٨٧٠ أمام بروسيا ، أضعف نفوذها بعد ذلك ، مما شجع بريطانيا على اقرار المصالحة بين تونس والسلطان العثماني • وصدر ، تبعاً لذلك، فرمان

٢٣ تشرين الاول ١٨٧١ ، الذي أكد السيادة العثمانية على تونس • ولكن هذا بقي حبراً على ورق •

وحاول خير الدين ، الذي أصبح رئيساً للوزراء في ١٨٧٣ ، تطبيق الاصلاحات التي دعا اليها في كتابه : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، الذي نشره في تونس في ١٨٦٧ ، فنظم المالية ، وقضايا الدين ، ومشاكل الأوقاف (الحبوس) ، وأمور العدل • كما أنه نظم التعليم في جامع الزيتونة ، وأنشأ الكلية الصادقية ، لتدريس العلوم التقليدية والحديثة • ومما ساعده على ذلك ، جودة المحاصيل ، وانتعاش التجارة ، والتهاء فرانسا بمشاكلها بعد هزيمتها • ولكن الدول الاوربية لم ترض بمحاولة خيرالدين تطبيق المحاكم المختلطة،وبمعارضة سيطرة رؤوس الأموال الأجنبية في البلاد ، لذلك حرضت الباي ضده ، فاضطر للاستقالة في ١٨٧٧[١] • وحدث في مؤتمر برلين ١٨٧٨ ، أن أطلقت بريطانيا يد فرانسا في ممارسة سلطتها على تونس مقابل توطيد بريطانيا سيطرتها على قبرص • وحصلت فرانسا على موافقة المانيا على ذلك ، ولم يبق سوى معارضة ايطاليا التي حاولت الحصول على امتيازات في تونس • واستغلت فرانسا حادثة غزوة قبلية من تونس عبر الحدود الجزائرية في آذار ١٨٨١ ، فدعت الباي الى الاشتراك معها في حملة عسكرية لتأديب رجال القبائل ، وسرعان ماوصلت القوات الفرنسية الى أبواب مدينة تونس ، وأجبرت الباي على توقيع ميثاق باردو ، في ١٢ أيار ١٨٨١ ، الذي أعلن تونس محمية فرنسية[٢] •

---

١ ـ انظر حول شخصية خير الدين ومنجزاته واهميته في تاريخ الحركة الاصلاحية في تونس :
A. Hourani, *Arabic thought in the liberal age 1798-1939*, London, 1962, pp. 84-95; K. S. al-Husri. *Three Reformers - a study in modern Arab political thought*, Beirut, 1966, pp. 33-53.

٢ ـ انظر حول تطور تونس خلال الفترة السابقة : ابن‌ابي الضياف،ج ٣ـ٦؛وانظر ايضاً:
Abun-Nasr, 187-189, 259-284; A. Raymond, "North Africa in the pre-colonial period", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. II, pp. 292-297; Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord*, 690-712.

احتلال بريطانيا مصر • ـ حكم مصر في الفترة بين تنازل محمد علي باشا والاحتلال البريطاني في ١٨٨٢ ، كل من ابراهيم باشا (تموز ـ تشرين الثاني ١٨٤٨) ، وعباس حلمي الاول (١٨٤٨–١٨٥٤)،ومحمد سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) ، واسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ، وتوفيق (١٨٧٩ ـ ١٨٩٢) • وكانت مصر ، منذ عهد محمد علي ، مركزاً للصراع الانكليزي ـ الفرنسي • فقد دعم الفرنسيون محمداً علياً ، سواء بتدريب جيشه ، أو استقبال بعوثه ، أو مساندته ابان حملته على بلاد الشام • ولكن الاضطرابات الداخلية في فرانسا حالت دون وقفة فرنسية حازمة الى جانبه • وكانت بريطانيا حريصة على ابقاء حكام مصر ضعافاً وخاضعين للدولة العثمانية خوفاً من قيام حاكم قوي في مصر يهدد طرق مواصلاتها الامبراطورية • ومع ذلك فكان لمصر مصلحة في مصادقة بريطانيا التي كانت بحكم تصنعها • وخاصة في مجال النسيج ، قد نشطت الاقتصاد المصري بشراء معظم محصول مصر من القطن • وقد دشن الانكليز ، في عهد محمد علي ، طريقاً برية لنقل المسافرين والبريد ، بين الاسكندرية والسويس ، عبر القاهرة • وزادت فعالية هذا الطريق بمد خط حديدي فيه ، في عهد عباس الاول وسعيد • وكان منح هذا الامتياز لبريطانيا لكسب دعمها في وقت ساءت فيه العلاقات بين عباس الاول والدولة العثمانية حول تطبيق التنظيمات العثمانية وأمور أخرى تتعلق بسيادة مصر • ووفقت بريطانيا بين الطرفين بأن حصل عباس على اذن السلطان في ١٨٥١ ببناء الخط الحديدي ، ومنحت الدولة العثمانية حاكم مصر حق الحكم بالاعدام ضمن شروط معينة •

وقد تهددت مصالح بريطانيا في مصر حين منح سعيد، في عام ١٨٥٤، الى الفرنسي فرديناند دولسبس امتياز حفر قناة بحرية عبر برزخ السويس • وحاولت بريطانيا عرقلة المشروع ، سواء في القاهرة أو استانبول ، الى أن تم أخيراً افتتاح القناة رسمياً في ١٨٦٩ • وكانت العلاقات

المصرية ـ العثمانية قد تحسنت كثيراً في عهد اسماعيل والسلطان عبدالعزيز الذي زار مصر في ١٨٦٣ (وهو أول سلطان يقوم بزيارة مصر منذ فتح السلطان سليم الاول لهـا) • ورد اسماعيل الزيارة في ١٨٦٦ ، وحصل ابانها على فرمـان بأن تكون الوراثة في الحكم لأكبر أبناء الحاكم ، عوضاً عن أكبر أفراد اسرة محمد علي • ولقاء ذلك ضاعف اسماعيل الضريبة السنوية للسلطان • وحصل اسماعيل كذلك على موافقة السلطان،بموجب فرمـان ، صدر في ٨ حزيران ١٨٦٧ ، عـلى أن يطلق عليه لقب خديوي (واللفظ فارسي الأصل يعني الملك) ، وذلك لتمييزه عن بقية الولاة في الامبراطورية العثمانية•ثم ساءت العلاقات المصريةـالعثمانية ، من جديد، عند افتتاح قنـاة السويس ، بسبب تصرف اسماعيل كحاكـم مستقل في زياراته لأوربا ودعوته حكامها للمشاركة في افتتاح القناة ، وأيضاً بسبب احتجاج السلطان علىزيادة القوة العسكرية المصرية•وما ان سويتالامور بين الفريقين بصدور فرمان جامع في ٨ حزيران ١٨٧٣ عـدد الامتيازات التي حصلت عليها مصر منذ عصر محمد علي ، حتى برزت مشكلةازدياد النفوذ الأجنبي ، سياسياً ومالياً ، في مصر مما هدد سيادتها •

وكانت نقطة الخلاف الاولى بين مصر والحكومات الاوربية نظـام الامتيازات ، الذي تمتع بـه الرعايا الأجـانب ، وحوكموا بموجبه هـم ومحميو القنصليات وفق قوانين بلادهم وليس قوانين مصر • وتم الاتفاق في ١٨٧٥ علىإصدار قانون المحاكمالمختلطة الذي عدّل نظام الامتيازات، والغي هذا نهائياً في ١٩٣٧ •

أمـا النقطة الاخرى التي أثارت الخلاف بين الحكومات الأوربية ، وكذلك جشعها ، حـول مصر فكانت قناة السويس • فقد منح امتيازهـا الاول الى فرديناند دولسبس في ١٨٥٤ ، وصدر عقد الامتياز المفصلالثاني في ١٨٥٦ بانشاء شركة قناة السويس • ومنحت الشركة شريطاً منالارض يصل النيل بالقناة،لمد قناة من المياه العذبة،وأعفيت الارض من الضرائب•

كما تعهد سعيد بتقديم العمال اللازمين ، بشكل كالسخرة • ووافق السلطان العثماني بفرمان عام ١٨٦٦ على حفر القناة ، وبلغت حصة الخديوي اسماعيل ١٧٧٫٦٤٢ من مجموع أسهم القناة البالغة ٤٠٠٫٠٠٠ سهم • وكان افتتاح القناة بداية المتاعب لمصر •

وقد حدث أثناء الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) ان توقف تدفق القطن الامريكي على انكلترا ، فاستغلت ذلك مصر ، ونشطت زراعة القطن فيها • وازدادت صادرات القطن في الفترة بين ١٨٦١و١٨٦٤ بمقدار ثلاثة أضعافها ، وازداد ثمن القطن أربعة أضعاف • وتدفق الذهب على مصر في ذيول هذه الثورة الزراعية ، وعمّ التبذير الحكام والاعيان، وعقد اسماعيل القروض معتمداً على وارداته من القطن • وأدى انتهاء الحرب الأهلية الامريكية وعودة أمريكا الى تصدير القطن من جديد الى هبوط في صادرات القطن المصري ، فحاول اسماعيل معالجة الوضع المالي بتشجيع صناعة السكر ، وعقد قرضاً لتمويل ذلك • ولكن نهاية هذه الصناعة ، بعد ازدهار أولي ، لم تكن بأحسن من القطن بسبب سوءالادارة وضياع كثير من الموارد هباء ، الى جانب المخاطر التجارية • ولما فشلت هذه المشاريع في دعم الوضع المالي لجأت الحكومة الى الضرائب وتضييق الخناق على الفلاحين ، ولكن هذه الضرائب لم تغط سوى جزء يسير من الدين • وأصدر اسماعيل في ١٨٧١ قانون المقابلة الذي نص أنه « اذا وضع ملاك الأطيان الضرائب المربوطة على أطيانهم لمدة ست سنوات مقدماً تعفي الحكومة أطيانهم على الدوام من نصف المربوط عليها » • كما أن المتصرف بالأرض يصبح له ، بموجب هذا القانون ، حق ملكيتها • وابتدع اسماعيل في ١٨٧٤ دين الروزنامة ، وهو أن يستثمر الاهالي أموالهم بايداعها في هذه المصلحة ، ويتقاضون فائدة قدرها واحد بالمائة • ولكن الأموال المودعة بالقسر لم تعد لاصحابها ، ولم تدفع الفائدة بانتظام • واضطر اسماعيل ، في عام ١٨٧٥ ، الى بيع حصته من أسهم القناة ، وتقدر ٤٤٪ من الأسهم ، الى حكومة دزرائيلي البريطانية • واعتبر شراء

الحكومة البريطانية لأسهم مصر أول دلالة عن الاستعمار الجديد (الامبريالية) ، اذ أن ذلك ، بالنسبة لدزرائيلي ، خطوة في سبيل توطيد نفوذ بريطانيا في الشرق كله • ولم تكد تمضي سنتان حتى أعلنت الملكة فكتوريا امبراطورة للهند في ١ كانون الثاني ١٨٧٧ (١) •

ونتج عن كثرة الديون الخارجية التي عقدتها مصر وتوقفها عن الدفع في ١٨٧٦ أن أنشىء في ذلك العام صندوق الدين العام ، الذي سيمول من عدد من ايرادات الدولة • ويعتبر أول هيئة رسمية أوربية أنشئت لغرض التدخل الاجنبي في مصر والسيطرة الأوربية عليها ، وهو اعتداء على استقلال مصر المالي والسياسي لانه بمثابة حكومة أجنبية داخل حكومة لاسيما وان ادارته يتولاها مندوبون أجانب تنتدبهم الدول الدائنة • وتلا ذلك اعلان الرقابة الثنائية الانكليزية ـ الفرنسية في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٧٦ على الايرادات والمصروفات • وبعد عامين اضطر الخديوي اسماعيل الى تعيين وزير بريطاني للمالية وآخر فرنسي للاشغال العامة • وحين قررت الحكومة احالة عدد كبير من الضباط على الاستيداع وعدم صرف الرواتب كاملة لعدد آخر ، بحجة عجزها المالي ، ثار الجيش عليها ، فعزلها اسماعيل • ولكن بريطانيا وفرانسا استعدتا السلطان عليه فعزله في حزيران ١٨٧٩ •

واجه الخديوي توفيق ، منذ بداية حكمه ، اشتداد الحركة الوطنية في الجيش (٢) • وبرز بين صفوفه الضابط أحمد عرابي ، الذي يمثل ذروة محاولات قام بها أولاد العرب ، عبر القرون الثلاثة الأخيرة (٣) ، للتوصل الى المراكز العليا في الجيش ، في وجه معارضة مملوكية ـ تركية • وحين وجد الانكليز أن الخديوي توفيق قد أخذ يستسلم خطوة فخطوة للمطالب الوطنية التي جسدها عرابي ورفاقه ، بدءاً من المجابهة الكلامية في ميدان قصر عابدين الى اسناد رئاسة الوزارة لشريف باشا ووزارة

---

١ ـ أنظر : Marriott, *The Eastern Question*, London, 1951, p. 336.

٢ ـ أنظر تطور الحركة الوطنية في مصر في بحث لاحق •

٣ ـ أنظر ص ١٣٥ ـ ١٣٦ •

الحربية الى سامي البارودي ، بناء على نصيحة عرابي ، نسقوا جهودهم مع فرانسا ، وأبلغوا الخديوي مذكرة مشتركة في كانون الثاني ۱۸۸۲ باستعدادهما لدعمه ، مما أثار الوطنين على الخديوي وعليهم • وانفردت بريطانيا بانزال جيوشها في الاسكندرية في تموز ۱۸۸۲ ، وهزمت عرابي في موقعة التل الكبير في ۱۳ ايلول ۱۸۸۲، واحتلت القاهرة [١]، ولا أدل على ضعف الدولة العثمانية من سلبيتها تجاه احتلال مصر ، ومن قبل ذلك احتلال فرانسا للجزائر وتونس •

احتلال السودان • ــ كان الغزو التجاري للسودان يأتيه من الشرق حتى مجيء محمد علي باشا ، الذي تحداه من الشمال• واعتبر محمد علي السودان مصدراً هاماً لتزويده بالعبيد ــ الجنود ، بالاضافة الى ما فيه من ذهب وعاج وريش نعام • وأرسل أولى حملاته اليه في عام ۱۸۲۰ ، ووصلت فتوحاته حتى سنار في الجنوب والعبيد في الغرب [٢] • وهكذا أضاف محمد علي مقاطعة أخرى للأمبراطورية العثمانية اسمياً ، وفي الواقع مورداً هاماً لتغذية مطامعه • وأقيم نوع من الادارة التركية ــ المصرية ترأسها القائد العام والحاكم العام (الحكمدار) ، وقسم السودان الى مقاطعات ، وانتخبت كل قرية شيخاً مسؤولا أمام حاكم المقاطعة • وجعلت العاصمة، في عام ۱۸۳۰ ، في الخرطوم ، عند التقاء النيل الأزرق بالأبيض• وأقيمت قوة احتلال في عدد من المراكز •

واعترف السلطان بحكم محمد علي للسودان • ولكن السيادة المصرية عليه سرعان ما تراخت بعد موته ، فلم يهتم به عباس، وبحث سعيد

---

١ ــ أنظر حول تطور الاحداث في مصر في هذه الفترة : عبد الرحمن الرافعي ، عصر اسماعيل، الجزء الاول والثاني ، القاهرة ١٩٤٨ ، الثورة العربية والاحتلال الانكليزي ، القاهرة ١٩٤٩ ، مصطفى الحفناوي ، قناة السويس ، ١٩٥٢ ؛ وانظر أيضاً :
Holt, *Egypt and the Fertile Crescent,* pp. 193-216; J. Marlowe, *Anglo-Egyptian relations 1899-1953.* London, 1954; H. Schonfield, *The Suez Canal in World Affairs,* London, 1952.

٢ ــ أنظر حول حملات محمد علي باشا في السودان ، ص ٣٩٨ ــ ٤٠١ •

بعد أن زاره في عام ١٨٥٦ ، في أمر التخلي عنه لاسيما والنشاط الاقتصادي الوحيد فيه كان يقوم به تجار الرقيق الذين اعتبروا السلطة الحقيقية الوحيدة في البلاد • ولم يكن لدى الحكومة المصرية لا الرغبة ولا الوسائل لوضع حد لهذه التجارة • وبلغ من فساد الحكم أن الموظفين المصريين أنفسهم كانوا تجارا للرقيق •

جاء اسماعيل وفي مخيلته تتزاحم خطط كبيرة حول السودان فعزز الحاميات المصرية ، بعد تمرد الفرق السودانية في توكار عام ١٨٥٦ • واستحصل من السلطان في عام ١٨٦٦ على الاذن بضم سواكن ومصوع على البحر الأحمر • وكان من ضم مصوع أن اصطدمت مصر مع الحبشة ، خاصة بعد محاولة مصر التوسع داخل الحبشة • واحتل المصريون في ١٨٧٤ كيرين وفي ١٨٧٥ ميناء زايلة حارمين الحبشة من الوصول الى البحر الاحمر • وقامت قوة مصرية في السنة ذاتها بقيادة الكولونيل ارندروب Arendroop ، وهو ضابط دانمركي في الجيش المصري ، بالتوغل في الحبشة ولكنها منيت بخسارة جسيمة • ولم يكن مصير حملة أخرى بقيادة راتب باشا بأحسن منها حين أرادت أن تثأر لسابقتها • ولذلك تراجع المصريون من داخل الحبشة وبقوا يسيطرون على موانيء مصوع وزايله وبربره •

كان المصريون ، في هذه الأثناء ، يعملون على توطيد سلطتهم في السودان الجنوبي والغربي ـ في مقاطعات بحر الغزال ودارفور التي احتلها شخص يسمى الزبير رحمة في ١٨٦٨ و ١٨٧٥ على التوالي • وكان هذا يسيطر على تجارة الرقيق والعاج في منطقته ورفض أن يدفع الضرائب للحكومة المصرية فأرسلت حملة ضده ، ولكنها فشلت ، وطلب الخديوي الصلح • وأعطي الزبير رتبة الباشوية وازداد قوة في مقاطعته • وكان عرب البقارة ، في مقاطعة دارفور ، وهي سلطنة لم تعترف بسيادة الخديوي ولا بممثله في السودان ، قد خرقوا اتفاقهم مع الزبير في عدم التعرض لقوافله التجارية • فهاجمهم هذا مدعيا أنه يريد ارجاعهم لسلطة الخديوي •

ولكن اسماعيل شك في نواياه ، وخاف أن تزداد سلطته ، فأوعز الى القائد العام بمهاجمة دارفور • وكان الزبير قد سبقه الى عاصمتها ، الفاشر ، في ١٨٧٤ • وذهب الى مصر لتسوية الامور فأبقي فيها رهينة حتى نهاية حياته • ولكن أهداف اسماعيل لم تقتصر على ارسال الحملات واقامة الرايات بل طمع في ضم مجرى النيل الابيض حتى منابعه • ولكي يحظى بتأييد بريطانيا لمشروعه أعلن عن رغبته بوضع حد لتجارة الرقيق في السودان ، ولذلك عين في ١٨٦٩ السير صموئيل بيكر حاكما عاما للمنطقة الاستوائية الجديدة التي تمتد على طول النيل جنوبا من غوندوراكو حتى منابعه غير المحدودة بين البحيرات الكبرى • وكانت تعليمات اسماعيل لبيكر باشا أن يمد النفوذ المصري حتى خط الاستواء ، وأن يقضي على تجارة الرقيق ، مع ادخال نظام تجاري،وفتح البحيرات الكبرى في خط الاستواء للملاحة ، واقامة سلسلة من المحطات العسكرية ، متخذاً غوندوراكو قاعدة لعملياته • وقد وصلها بيكر في ١٨٧١ ، وأعلن بأن المنطقة السابقة هي من ممتلكات الخديوي ، وأقام المراكز العسكرية التي حالت دون وصول تجارة الرقيق عن طريق النيل الى أم درمان • أما القضاء على الرقيق واخضاع البلاد كلياً فأمر لم يتم في عهد بيكر •

خلف بيكر في حكم منطقة النيل الاستوائية في ١٨٧٣ شارل غوردن الذي سبق أن اشترك في حرب القرم وأخمد ثورة شنغهاي في ١٨٦٣ • وقد وصل غوندوراكو في شباط ١٨٧٤ • وتابع سياسة القضاء على الرقيق، وحصل من اسماعيل في ١٨٧٦ على لقب حاكم السودان العام • فطهر طرق النيل الأعلى من هذه التجارة ، وكانت الخطوة التالية تطهير السودان الشمالي وحرمان هذه التجارة من خيرة أسواقها • ولكن غوردن استقال من منصبه في عام ١٨٧٩ احتجاجا على عزل الخديوي اسماعيل [١]• ولم ينجح ، مدة اقامته في السودان ، في تحسين الادارة ، اذ بقيت مستبدة في

١ ــ انظر حول السودان في عصر اسماعيل: الرافعي ، عصر اسماعيل ، ج ٢ ، ١٠٤ــ١٧٤.

المناطق المحدودة التي تمكنت من فرض سيطرتها عليها وغير فعالة أبداً في ما عداها •

خلف غوردن في حكم السودان حكمدار مصري يسمى محمد رؤوف باشا الذي سبق له ، في عام ١٨٧٤ ، ان طرد سلطان حرار وضم مقاطعته لأملاك الخديوي • وفي عهده ، في تموز ١٨٨١ ، ظهر محمد أحمد بن عبد الله ، وأعلن نفسه بأنه المهدي المنتظر • وقد وُلد في جزيرة لبب ، في مقاطعة دنقلة ، عام ١٨٤٤ • وادعى أنه شريف ينحدر من السلالة النبوية • وتثقف بعض الثقافة الدينية في كتاتيب قرب الخرطوم، ثم درس على فقيه كبير هو الشيخ محمد الشريف ، والتحق بالطريقة الصوفية السمانية • ثم انقطع الى حياة التدين في جزيرة أبا التي تبعد ١٥٠ ميلا جنوبي الخرطوم على النيل الابيض • وفي احدى زياراته لشيخ طريقته احتج على الرقص والافراح التي جرت في حفلة ختان ابنه وهو الناسك المتعبد • فاستاء الشيخ من نقد طالبه وطرده بالرغم من تقديم اعتذاره • وسرعان ما شاعت أخبار الخلاف ، وتجمع الأتباع حول محمد الذي أعلن نفسه المهدي المنتظر • ووصلت أخبار التجمعات الى حاكم الخرطوم فأرسل وفداً الى المهدي الذي أجاب بأنه سيد هذه البلاد ولن يذهب الى الخرطوم ، وهكذا بدأت الثورة •

وأرسل محمد أحمد ، في حزيران ١٨٨١ ، عدة رسائل ، من جزيرة أبا ، الى أعيان السودان يبلغهم أنه المهدي المنتظر والزعيم الروحي الذي اختاره الله في آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا ومساواة كما ملئت ظلماً واضطهاداً • وسرعان ما كسب المؤيدين من القبائل • وكان أبرز تلاميذه عبد الله بن أحمد ، الذي ينتسب الى قبيلة البقارة • ولكن ماهي العوامل التي جعلت محمد أحمد يقود ثورته على الادارة المصرية في السودان ؟ يعتبر بعض السودانيين محمد أحمد أبا الاستقلال ، وانه قائد قوي وحّد القبائل في السودان وراء فكرة اسلامية ، وطرد الحكام الاغراب ، ووضع

أسس الدولة القومية • واذا كان هذا ينطبق ، بعض الشيء ، على نتائج حركته ، فلا يصح أن يكون تعليلا للعوامل التي أدت الى قيام حركته • ومن السودانيين من يرى في محمد أحمد مجاهداً ومجدداً للعقيدة الدينية، وانه أتى ليزيل الأخطاء والشوائب من الدين • وفي الواقع ، فقد عبَّر محمد أحمد في أحاديثه عن مثل هذا الهدف ، وانه أتى لدعم المبادىء الاسلامية • ويتشابه ، في ذلك ، مع محمد بن عبد الوهاب مؤسس الوهابية • ولكن محمد أحمد ذهب الى أبعد من ذلك ، فرسالته كمصابح أصبحت لها مضاعفات روحانية ، فادعى لنفسه مكانة فريدة تنعكس في ألقابه الثلاثة التي اتخذها : الامام ، الخليفة ، والمهدي المنتظر • فهو كامام انما كان يؤكد زعامته الروحية للمسلمين ، وكخليفة فكان يحيي التقاليد الاسلامية الاولى ، وكمهدي منتظر فان قدومه ينبىء عن نهاية العالم • ولم يكن بغريب أن يظهر في أوقات الأزمات مهدي يدعي القدرة الالهية على استبدال نظام جديد بالنظام القديم ، مثال ذلك ظهور عبد الله مؤسس السلالة الفاطمية في شمال افريقية ومصر في القرن العاشر ، وظهور محمد ابن تومرت الذي حكم أتباعه الموحدون شمال غرب افريقية في القرن الثاني عشر [1] • واعتبرت الحكومة المصرية ظهور المهدي ظاهرة خطرة• وقد خشي الحاكم العام محمد رؤوف باشا خطر المهدي ، ولكنه لم يتصرف بحزم للقضاء على حركته منذ بدايتها ، وفشلت حملة وجهها ضد محمد أحمد وأتباعه في جزيرة أبا ، في آب ١٨٨١ • واعتبر انتصار المهدي وأتباعه الذين يستخدمون الرماح والهراوات ، على جيش محمد رؤوف ، الذي يحمل الأسلحة النارية ، بأنه من العجائب • وبعد هذا الظفر ، عبر المهدي وأتباعه النيل الأبيض الى قادر ، وهي تلة جنوبي كردفان ، في المنطقة التي تفصل بين العرب والزنوج ، وهنا تجمع من حوله الاتباع ، وبدأ فتحه للسودان •

وقبل التعرف على الفئات التي دعمت المهدي وعلى تطور حركته ، يجدر

١ ـ انظر : Holt, *A Modern History of the Sudan*, 76-78

بنا أن نتساءل عن الأسباب العميقة لظهور المهدية في ذلك الوقت بالذات•
كثيراً ما يذكر أن سبب المهدية ظلم وسوء الادارة المصرية في السودان ، ولكن هذا لا يكفي لتفسير سبب حدوث الثورة في الزمان والمكان اللذين ظهرت فيهما • صحيح أنه كان هناك كثير من الظلم والفساد ، ولكن هذا لم يكن شاملا ، كما أن حدوثه كان أمراً مألوفاً لدى الحكام والمحكومين• ولو صح أن سوء الادارة المصرية في السودان كان سبب الثورة المهدية لوجب على هذه الثورة أن تنتشر في جميع السودان • ولكن الواقع خلاف ذلك اذ بقيت الثورة منحصرة لمدة سنتين في المقاطعات العربية التي مركزها كردفان والتي كان احتلالها من قبل أتباع المهدي أول عمل عظيم لهم • وانتشرت الثورة بعد ذلك بالتدريج الى المناطق الاخرى ، وكان آخرها المناطق النهرية الشمالية التي شهدت أطول فترة من الحكم المصري • وبالاضافة الى ذلك ، فان تعليل حدوث الثورة المهدية بظلم وتعسف الادارة المصرية يفشل في تفسير لماذا حدثت الثورة في عام ١٨٨١ ، وليس قبل ذلك • وليس هناك أيضاً من دليل على أن الادارة المصرية أصبحت أشد تعسفاً في عهد الحاكم الضعيف محمد رؤوف • ولاشك أن ضعفه جعل امكانية الثورة أكثر سهولة • ولفهم توقيت حدوث الثورة يجب النظر بعين الاعتبار الى الأحداث التي كانت جارية آنذاك في مصر • فالاستبداد الخديوي قد انتهى فعلاً بعزل اسماعيل في ١٨٧٩ ، وكان ابنه وخليفته توفيق ألعوبة بأيدي الدول الاجنبية • ويعتبر ذلك ضربة قاصمة للنفوذ الذي تمتعت به أسرة محمد علي لا في مصر فحسب بل في السودان أيضاً • ففي مصر تجمعت قوى المعارضة حول القائد أحمد عرابي ، وتمكنت على مراحل من احراز تبدلات هامة في الادارة المركزية الى أن عاجلها الاحتلال الانكليزي في ١٨٨٢ • وأضعفت هذه الأحداث السلطة المصرية في السودان • ورغم أنه ليس هناك ، كما يبدو ، أي اتصال بين أتباع عرابي وأتباع المهدي ، ولكن مما لاشك فيه أن كلاً من الحركتين استفادت من الفراغ الذي خلفه القضاء على استبداد اسماعيل • وقد ملأ

الاحتلال الانكليزي هذا الفراغ في مصر ، بينما ملأه في السودان المهدي وثورتـه •

وعرف أتباع المهدي بالأنصار • ونستطيع أن نميز بينهم ثلاث فئات: أولا ، الرجال المتدينون من تلاميذ المهدي وملازميه،الذين تبعوه على أنه المهدي المنتظر•وقد كرهوا الادارة المصرية لاعتقادهم بوجوب تطبيق أحكام الشريعة عوضاً عنهـا • ثانياً ، جماعتا أو قبيلتا الجعاليين والدناقلة ، الذين نزحوا من الشمال الى الاطراف الجنوبية من الولايات العربية في السودان، وتوغلـوا في منطقتي النيل الابيض وبحـر الغزال ، وعملـوا كأصحاب قوارب وتجار ومغامرين في فتح الجنوب ، وكانت معيشة كثير منهم مرتبطة بتجارة العبيد في الجنوب ، وقد تضرروا كثيراً من معارضة الحاكم غوردن لتجارة العبيد • واغتنموا زوال غوردن واسماعيل لمعاودة نشاطهم في هذه التجارة ، وكانوا على استعداد لدعم كل ثائـر على السلطة • ثالثاً ، عرب البقارة ، الذين لم يكن لهم حماس الفئة الاولى الديني ولا تذمر الجعاليين والدناقلة السياسي • وكانت المهدية بالنسبة لهم وسيلة للغزو وللتوقف عن دفع الضرائب للحكومة المركزية • وكانت القبائل قـد عانت في السنوات العشر السابقة من شدة وطأة الحكومة وفرضها الضرائب • وكان البقارة عماد جيش الثورة المهدية ، وتنعكس أهميتهم في ظهور أحـد أفرادهـم عبد الله بين أتباع المهدي [١] • ولم تتمكن الحكومة المصرية مـن ارسال حملة قوية الى السودان للقضاء على الثورة في مهدها بسبب ما كانت تتخبط فيه من الأحـداث • ولمـا لم يتخذ عمل حاسم استفحلت الثورة • وكان المهديون يسيطرون ، في هذه الأثناء ، على مقاطعة كردفان كلها •

كانت الحال في السودان على هذا الشأن حين احتلت بريطانيا مصر

---

١ ــ أنظر : *Ibid.*, 79-80.

وانظر كذلك :

P. M. Holt, *The Mahdist State in the Sudan 1881-1898*, O.U.P. 2nd. ed. 1970, 45-55.

في ١٨٨٢ • وكانت سياسة انكلترا عقب الاحتلال اثارة الفتنة في السودان لتتذرع بهـا في البقاء في مصر • وكما استغلت ثورة عرابـي للتدخل في مصر كذلك كانت خطتها في السودان •

وقد فشلت عدة حملات وجهتها الحكومة في مصر ضد المهدي ، في الفترة بين ١٨٨١ و ١٨٨٢ • وكان كل انتصار للمهدي يزيد من سمعته ونفوذه وموارده • فتحول من الدفـاع الى الهجـوم في ١٨٨٢ • وكانت استراتيجيته منظمة ، فكان ، قبل الهجوم ، يحرض القبائل الصغيرة على الثورة لاشغال قوات الحكومة ، ومن ثـم يندفـع بقواته ليدمـر القوات الحكومية المنهكة • وقد انضم عـدد كبير من هـذه القوات الى المهدي ، وأصبح يشكل فئة رابعة متمرسة عسكرياً ، عرف أفرادهـا بالجهادية • وفي أوائل عام ١٨٨٣ سقطت مدينة العبيد بأيدي قوات المهدي ، وهي اول مدينة كبيرة يحتلها • وكانت حكومة الخديوي توفيق بحاجة الى نصر في السودان لزيادة نفوذهـا في مصر ، فبعثت اليه بحملة بقيـادة الانكليزي هيكس ، ولكنها أبيدت من قبل أتباع المهدي في تشرين الثاني ١٨٨٣ ، وكانت هذه آخر محاولة مصرية للدفاع عن السودان • وكان من نتيجتها أن المترددين والمتشككين في السودان بقوة المهدي بدأوا يعلنون ولاءهم له•

أما موقف الحكومة الانكليزية الآن فكان يجب عليها متابعة ارسال النجدات الى السودان وأخذ مسؤولية الحكومة المصرية فيه عـلى عاتقهـا لاسيما وأنها أصبحت مسؤولة عن تصريف شؤون مصر ، والسودان جزء متمم منهـا • ولكن اللورد غرانفيل ، وزير الخارجية ، أبرق الى افلـين بارينغ ، المقيم العام في مصر (عرف منذ عـام ١٨٩١ باللورد كرومر) ، يقول : « ان حكومـة صاحب الجلالـة لا يمكنهـا أن تصنع شيئاً يلقي عـلى عاتقهـا مسؤولية العمليات في السودان ، وعـلى الحكومـة المصرية أن تعتمد على مواردها الخاصة • ومن رأى انكلترا الجلاء عن السودان»• ولكن رئيس الوزراء المصري ، شريف باشا ، رفض اتباع سياسة انهزامية

وأخبر افلين بارينغ بأنه يقترح دعوة السلطان العثماني لارسال عشرةآلاف جندي لقمع الثورة في شرقي السودان حيث ثار على السلطة المصرية أحد أتباع المهدي ، على أن يدافع الجيش المصري عن وادي النيل حتى الخرطوم • فأجابت الحكومة الانكليزية بأنها لا تمانع بارسال قواتعثمانية شريطة أن يمول السلطان هذه الحملة • وهو بمثابة فيتو على التدخل التركي الذي قد ينافسهم في مصر • ومع ذلك فانها ترى الانسحاب حتى وادي حلفا • وأتبعت ذلك بارسال مذكرة خاصة الى بارينغ تحدد فيها ، لأول مرة ، العلاقات بين الحكومة المصرية وممثليها في مصر • اذ نصت على أنه « من الضروري في القضايا الهامة التي تمس ادارة مصر وسلامتها أن تتبع نصائح الحكومة البريطانية ما دام الاحتلال قائما • وعلى الوزراء والحكومة تنفيذ هذه النصائح تحت طائلة طردهم من مناصبهم • واذا كان تعيين وزراء من الانكليز أمر غير مرغوب فيه ، فمما لاشك فيه أنه من الممكن ايجاد مصريين ينفذون أوامر الخديوي وفق نصائح بريطانيا • والوزارة (أي الانكليزية) ستمنحك كامل تأييدها » •

لم يقبل شريف باشا بالجلاء ، وقال ان مصالح مصر السياسية والاقتصادية تتطلب منها عدم تنفيذ ذلك ولا يمكن اخلاء الخرطوم ولا غيرها التي لم يصل اليها الثوار بعد • واذ وافقتوفيق على سياسة الجلاء قدم شريف استقالة حكومته ذاكراً بصراحة الأسباب التي دعت الى ذلك وخاتما حياته السياسية بهذا الموقف المشرف وهذه الكلمة المأثورة : « اذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا » •

لم يخب ظن اللورد غرانفيل ، وزير الخارجية ، اذ وجد « مصريين ينفذون أوامر الخديوي وفق نصائح بريطانيا » • فشكل نوبار الوزارة في ١٠ كانون الثاني ١٨٨٤ على أساس الجلاء عن السودان حتى وادي حلفا باستثناء سواكن • وكان ابقاؤها بمشورة بريطانيا لأنها ترغب بايجاد جسر لاحتلال مقبل للسودان • ولذلك أرسل بيكر باشا ، قائد البوليسالمصري، لتدعيم سواكن التي أخذ يهاجمها الثوار وانقاذ الحامية المصرية في توكار

وستيكات القريبتين اذا كان متيقنا مـن النجاح • ولكن مهاجمـة الثوار لقواته وهزيمتها جعل بريطانيا ترسل قـوة انكليزية ـ هندية من أربعة آلاف رجل لاتمام المهمة • ونجحت في الحفاظ على سواكن فقط بعد أن سقطت البلدتان الأخيرتان بأيدي الثوار •

وقد أرسل القائد غوردن في كانون الثاني **١٨٨٤** لتنظيم الجلاء عن الخرطوم والمراكز الاخرى التي يمكن الجلاء عنها واعادة البلاد الى حكم سلالة الملوك الذين حكموها قبل الفتح المصري • وعينه توفيق بناء عـلى طلبه حاكماً عاماً للسودان لتسهيل مهمته • ولاشك أن اختيار غوردن أمر يحوطه الغموض اذ أنه حين كان قبلا قائداً عاما فيه لم يكن يرى اخلاءه• والجدير بالذكر أن الجلاء عن السودان يعتبر أشد ضربة أصيبت بها مصر بعد الاحتلال لان معناه ضياع امبراطورية كبيرة ، ضحت مصر في سبيلها بالكثير من أبنائها وأموالها ، بمافيها من منشآت ومؤسسات ومصالح اقتصادية وجيش عدده عشرون ألف مقاتل كان الاضمن له أن يدافع عن مراكزه بدل الانسحاب منها اذ وقع فريسة في أيدي الثوار • ورفع التجار في مصر عريضة الى الخديوي يلتمسون فيها الاستمرار في الدفاع عـن السودان لاسيما وان بضائع قيمتها نصف مليون جنيه معدة في القاهرة للتصدير اليه « فهل يعقل أن العمل الكبير الذي بدأ به جدكم محمد علي وتابعه خلفاؤه ودافعتم عنه سموكم ينهار بقرار يصدر على عجل ؟ » •

وصل غوردن الى الخرطوم وأرسل الى المهدي يطلب الكف عـن القتال ، وأبلغ الأهلين مهمته في اخلاء السودان وفصله عن مصر • وهذا الكلام كاف لتأييد جانب المهدي وجعل السكان ينضمون اليه مما أحرج مركز غوردن وجعله بالتالي يتحول من سياسته المسالمة • ولذلك اقترح اعادة الثائر الزبير المنفي في القاهرة وجعله حاكما على السودان لانه يستطيع مقاومة المهدي • ولكن غرانفيل وزير الخارجية رفض هـذا الطلب لأن الزبـير قد يقضي على ثورة المهدي ويعيد السلطة المصرية ، وهذا مـا لا

ترغبه انكلترا ، وادعت بأنه قد يعيد تجارة الرقيق ، مع العلم أن المهدي لم يكن أقل اباحة منه لذلك •

كانت الثورة المهدية ، في هذه الأثناء ، قد وصلت الى الخرطوم وأصبح من المشكوك فيه أن ينفذ غوردن مهمته بدون ارسال نجدات له • وسقطت الخرطوم في يد المهدي في ٢٦ كانون الثاني ١٨٨٤، وقتل غوردن• وبذلك سيطر المهدي على غالبية السودان ، باستثناء سواكن ومصوع وبعض المناطق الاستوائية ، وقد نقل المهدي عاصمته الى أم درمان ، حيث قبره الآن ، وضرب النقود باسمه • وكان المهدي يرى في احتلال السودان خطوة أولى في فتوحاته في العالم الاسلامي ، ولكن وفاته في ١٨٨٥ قطعت الطريق على توسع الحركة • وخلفه عبد الله بن محمد التعايشي الذي لقب بخليفة الصديق • وكانت كل القوات المصرية في السودان قد جلت أو أفنيت ، وخسر السودان كثيراً من أراضيه لأن بريطانيا ضمت موانيء بربر وزايله لتشكل مستعمرة الصومال الانكليزية • وضمت فرانسا تدجورا الى ميناء اوبوك لتشكل مستعمرة جيبوتي • واحتلت بريطانيا مصوع ، وألفت نواة مستعمرة اريتريا •

كان على عبد الله التعايشي أن يقضي على الثورات الداخلية والأطماع الأجنبية قبل أن يستقر حكمه ويبدأ في تطوير السودان • وكان يتربص على حدوده الأحباش طمعاً به ، والمصريون لاعادة حكمهم ، والانكليز وغيرهم من الدول الأوربية لاستغلاله • وكان الأحباش يشكلون أكبر خطر تهدده بين عامي ١٨٨٧ و ١٨٨٨ اذ هزم الدراويش (أطلق هذا اللقب في الأساس على جنود المهدي وأتباعه) ، في ١٨٨٧ ، ثم عادوا وانتصروا على الأحباش في العام التالي • وحدثت ثورة في المناطق الغربية على حكم المهدي بتحريض السنوسيين لمناوئتهم المهديين • وكان هجوم القوات المهدية ، في عام ١٨٨٩ ، على حدود مصر ، عند وادي حلفا ، الهجوم الثالث والأخير من نوعه • وانهزمت هذه القوات هنا ، كما

انهزمت في العام نفسه ، بقيادة عثمان دكنه ، حين حاولت احتلال ساحل البحر الاحمر .

وانتهت بهذه الهزائم أحلام الخليفة بالتوسع ، وأخذت سلطته تميل نحو الغروب، وفشلت كذلك محاولته في اقامة حكم استبدادي في الداخل . وثارت عليه القبائل ، على النيل الرئيسي ، التي شكلت دعامة البيروقراطية في حكومته . وازداد الموقف سوءاً بمحاولته جلب البقارة واقامتهم في أم درمان والجزيرة لدعمه . ولجأ الى تعيين أقربائه وزبانيته في المناصب الرئيسية لكسب ولائهم . وزاد في الأمر حدوث مجاعة شاملة في ١٨٨٩ بسبب انحباس الامطار . وكانت أخطر ثورة تلك التي قام بها ، في تشرين الثاني ١٨٩١ ، أفراد من أسرة المهدي، وبطش بها عبد الله بشدة.

ولم يتح تسابق الاوربيين للحصول على مناطق النفوذ في افريقية ، في العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، للسودان أن يبقى مستقلا . ويحسن بنا هنا أن نستعرض وضع الدول الاوربية بالنسبة لمناطق النفوذ في أواسط افريقية . فقد فتحت قناة السويس مجالات جديدة للمتاجرة مع شواطىء افريقية الشرقية . واقتضت المصالح المحلية هذه التوغل في الداخل وانشاء الصداقات مع الزعماء المحليين . وتنافست الدول الاوربية في بسط نفوذها على أكبر منطقة ممكنة ، وهكذا بدأ الزحف على افريقية . واعتبرت انكلترا أن احتلال أية دولة لمنابع النيل سيحرج مركزها في مصر . وحاولت فرانسا اعادة نفوذها في مصر الذي بدأته في عهد نابليون وخسرته عندما لم تساهم في قمع حركة عرابي . أما المانيا بسمارك فكانت أكثر اهتماماً بالتجارة وبالتوسع الاقتصادي . وبالنسبة لبلجيكا ولملكها ليوبولد ، بصورة خاصة ، فكانت تطمح الى الحصول على غنى افريقية . وحفزت البرتغال أمجاد الماضي المقرونة بأسماء هنري الملاح وفاسكو دا غاما . ورغم ذلك حبذ الفرنسيون والبرتغاليون ، بصورة خاصة ، فكرة انشاء امبراطورية تمتد عبر افريقية ، من الشرق الى الغرب ، لا لنتائجها

المباشرة لهم فحسب بل لانها تمنع قيام منطقة لبريطانيا تمتد من رأس الرجاء الصالح حتى القاهرة • وكانت ايطاليا أقل اهتماماً بوادي النيل منها بثروات الحبشة ، كما لم تكن غافلة عن المنافع التي يمكن أن تجنيها من توسعها في شرقي السودان •

وازاء محاولات فرانسا ، بالاتفاق مع بلجيكا والحبشة ، الوصول الى النيل ، لربط مستعمراتها في غرب افريقية مع تلك في شرقها ، قررت بريطانيا احتلال السودان • فأرسلت قائد الجيش المصري ، كتشنر الذي احتل دنقله في ١٨٩٦ ، وهزم الخليفة قرب أم درمان ، في ١٨٩٨ • وقتل الخليفة في تشرين الثاني ١٨٩٩ •

وكانت حملة فرنسية قد تحركت من الغرب ، بقيادة مارشان ، في تموز ١٨٩٨ ، ووصلت فاشودا على النيل الأعلى بأمل الاتصال بالحملة المنطلقة من الحبشة • وشخص كتشنر الى فاشودا ، وكانت تعليمات بريطانيا له بالحيلولة دون سيطرة فرانسا والحبشة على أي جزء من النيل • وأدركت فرانسا أن ألمانيا ستفيد فيما اذا اشتبكت بحرب مع بريطانيا ، ولذلك أمرت مارشان بالانسحاب بطريقة مهذبة حين اعتبرته لا قائداً يمثلها بل مكتشفاً جغرافياً ، واتفقت الدولتان بشأن رسم الحدود •

أظهر موقف بريطانيا في فاشودا عدم استعدادها لتطبيق رقابة دولية على السودان • كما لم يلائمها اعادة السودان الى الحكم المصري المباشر حتى ولو كان ذلك باشرافها • ولم يبد عمليا وشرعيا فصل السودان كليا عن مصر اذ أنه أعيد افتتاحه باسم الخديوي وبجيوش مصرية وأموال مصرية • وأخيراً وقعت اتفاقية السودان بين الحكومتين المصرية والبريطانية في ١٩ كانون الثاني ١٨٩٩ • وأقرت هذه الاتفاقية وضعا شاذاً في العلاقات الدولية أطلق عليه لقب الحكم المشترك (Condominium) • وتكون بريطانيا بذلك قد تجاهلت حقوق سلطان تركيا وبنت اتفاقها على حق الفتح رغم عدم قانونيته لان مصر هي التي ساهمت بالنصيب الأكبر فيه • وبموجب

الاتفاقية اتفق على أن يكون خط العرض ٢٢° شمال خط الاستواء ، وهو المار بوادي حلفا ، حدود السودان من الشمال ، ولم تحدد حدوده في الجنوب • وسيرفع العلم المصري بجانب البريطاني على المباني العامة • وستحكم البلاد من قبل حاكم عام يعينه الخديوي بتوجيه الحكومة الانكليزية ، وسيتمتع بالسلطتين المدنية والعسكرية • واستثني السودان من صلاحيات المحاكم المختلطة • كما نص على عدم جواز تعيين قناصل أجانب فيه بدون موافقة انكلترا ويمنع اعطاء أية امتيازات خاصة لرعايا أية دولة من الدول • وتعني الاتفاقية حكم بريطانيا فقط للسودان بالرغم من شكليات اشتراك مصر معها [١] •

وهكذا انتهت الدولة المهدية الدينية (التيوقراطية) التي أمكنها طرد الحكم المصري من السودان • ولو قارنا بينها وبين الوهابية في الجزيرة العربية ، أو السنوسية في ليبيا ، لوجدنا أنها قصيرة العمر ، رغم ما أظهره وجودها ، الذي دام أقل من عشرين عاماً ، من تنظيم سياسي وضعت أسسه زمن الادارة المصرية • ولاشك أن أسباب ضعفها تكمن في الصراع داخل السلطة الحاكمة فيها ، وفي افتقارها الى قبيلة قوية تدعمها ، وفي وجود عدة قوى في الداخل ، وعدة دول استعمارية في الخارج ، تتصارع للسيطرة في السودان •

---

١ ــ أنظر حول تاريخ السودان في هذه الفترة :

P. M. Holt, *The Mahdist State in the Sudan 1881-1898*, O.U.P., 2nd ed. 1970, *A Modern History of the Sudan*, London, 1961, "Modernization and Recation in the Nineteenth-century Sudan", *Beginnings of Modernization in the Middle East*, edd. W. Polk and R. Chambers, 401-415, "The Nilotic Sudan", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. II, 327-344; H. A. Macmichael, *The Sudan*, London, 1954; S. Tirimingham, *Islam in the Sudan*, London, 1954;

وانظر كذلك : عبد الرحمن الرافعي ، مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ، القاهرة ، ١٩٤٨ ؛ محمد فؤاد شكري ، الحكم المصري في السودان ١٨٢٠ ــ ١٩٨٥ ، القاهرة ، ١٩٤٧ •

احتلال فرانسا مراكش • ـ أدى احتلال فرانسا الجزائر في ۱۸۳۰ الى اثارة مطامعها في بقية بلدان المغرب العربي • وأصبح القناصل الفرنسيون ، والأوربيون بصورة عامة ، مراكز الثقل السياسي في هذه البلدان • والذي خفظ المغرب من الوقوع بكامله بشكل سريع في أيدي الدول الاوربية هو اختلاف هذه الدول على اقتسام مناطق النفوذ • ولكن بعد عام ۱۸۷۸ ، حين تخلت بريطانيا عن دعم الوجود العثماني ، واحتلت قبرص ، وتطلعت الى احتلال مصر ، فانها حاولت التفاهم مع فرانسا وايطاليا حول اقتسام مناطق المغرب بينهم •

وقد سبق القول أن السيادة العثمانية لم تشمل مراكش ، أي المغرب الأقصى [1]، الذي حكمته ، منذ حوالي ١٦٥٤ ، السلالة العلوية القائمة اليوم،والتي قامت على أنقاض الدولة السعدية • وخلال قرن ونصف من حكم السلالة العلوية توطدت سلطتها فيما عرف ببلاد المخزن ، أي مناطق فاس ومراكش والاراضي بينهما حتى الأطلس ، ولكن بقيت تؤرقها مشكلتان: تنظيم المؤسسة الحاكمة والعلاقة مع البربر ، في مناطق الريف والأطلس الأعلى والأوسط ، والمسؤول عن ذلك ، الى حد كبير ، تعاقب الحكام الاقوياء والضعفاء ، مما حال دون استمرار هيبة الحكم ، وأتاح للعناصر المعارضة ممارسة نشاطها • وباشتداد النفوذ الاوربي في القرن التاسع عشر وجد السلاطين العلويون أمامهم أحد طريقين : اما الانطواء والعزلة واغلاق البلاد في وجه المؤثرات الأوربية ، وهذا أمر يصعب القيام به نظراً لقوة الضغط الاوربي ولفقدان الوحدة في الداخل ، أو محاولة تبني الاصلاح، مع ما يتبع ذلك من معارضة القوى المحافظة في الداخل • ونظراً لعجز الحكم عن اتخاذ السبيل الأصلح فقد تمسك بالوضع الراهن ، وهذا أمر شبه مستحيل ، أمام المؤثرات الخارجية والضغوط الداخلية ، وسارت البلاد نحو فقدان استقلالها •

---

١ ـ انظر ص ٧٤ •

أثار احتلال الفرنسيين الجزائر عـدة مشاكل لمراكش ، فقد حدّ ذلك من مطامعها في احتلال الأجـزاء الغربية من الجزائر ، بما في ذلك تلمسان ، وأدخلها في صراع مع فرانسا بتهمة ايواء الأمير عبد القادر أو مده بالمساعدات • واضطر السلطان العلوي ، لكسب تأييد بريطانيا ، الى توقيع معاهدة معها في ١٨٥٦ ، تمنحها حرية التجارة ، وتلغي الاحتكار• ثم اشتبكت مراكش ، في ١٨٥٩ ـ ١٨٦٠ ، في حرب مع اسبانيا هزمت بنتيجتها ، وترتبت عليها أعباء مالية اضطرتها للاستدانة،كما تخلت مراكش لاسبانيا عن تطوان ، ريثما تنتهي من دفع تعويضات الحرب لها • وقامت اسبانيا بتوسيع الاراضي حول سبتة ومليلة اللتين تحتلهما ، وقد شجعت فرانسا اسبانيا لتظهر لمراكش أن انكلترا غير قادرة على حمايتها •

أدت هزائم السلطان العلوي الى اشتداد المعارضة له في الداخل • ومن أبرز الثائرين حاكم منطقة وزان ، وكان من الاشراف وشيخ طريقة صوفية عرفت بالطيّبية • وقد أعلن استقلاله ، واعترف به السلطان ليمارس من خلاله النفوذ على القبائل في منطقة طنجة ـ سبتة • وتمكن الفرنسيون من فرض حمايتهم على شريف وزان في ١٨٨٤ •

وقد لعب مولاي الحسن (١٨٧٣ ـ ١٨٩٤) دوراً هاماً في الحفاظ على وحدة بلاده في الداخل وعلى سيادتها ، فقام بعدة حملات في الداخل ، كما أنه أدخل الاصلاح الى الجيش ، وعهد الى مدربين أوربيين بتدريب أفراده ، وسلحهم بأسلحة أوربية حديثة • ولكن اصلاحاته توقفت عند الحد الذي سمحت به موارده المالية • ولم يشأ ارهاق الناس بالضرائب أو التمادي بالاصلاح خوفاً من اثارة أصحاب الطرق الصوفية ضده • ولكن مصالح الدول الأوربية ، مثل فرانسا وانكلترا واسبانيا والمانيا ، قد نمت في مراكش الى الحد الذي صعب معه التقليل من أهميتها •

وحدثت في العقد الاول من القرن العشرين أزمة أثارها ضعف الحكم تجاه المشكلة القبلية من ناحية،واشتداد التدخل الاوربي من ناحية أخرى•

وكان مولاي عبد العزيز (١٨٩٤ ـ ١٩٠٨) صغير السن ، وقد وقع تحت نفوذ المستشارين الاوربيين ، فحاول في ١٩٠١ ادخال ضريبة موحدة وشاملة ، أسماها الترتيب، لتحل محل الضرائب القائمة . وسرعان ما رفضت القبائل دفع هذه الضريبة ، كما اصطدمت بعدد من المصالح التقليدية ، مما شجع مدعياً للمطالبة بالعرش ، وهو جلالي ابن ادريس الزرهوني . وكانت ثورته أيضاً تعبيراً عن النقمة العامة على السلطان لاعطائه الامتيازات للاوربيين . وكان لاحتلال الفرنسيين واحة توات المراكشية ، عند الحدود الجنوبية مع الجزائر ، وامكانية تسربهم الى موريتانيا والصحراء الغربية من خلالها ، وقعه السيء لدى الشعب ، الذي قام بعدد من الاعتداءات ضد الاوربيين . ووجدت فرانسا في هذه الفوضى مناسبة جيدة للتدخل ، فقامت أولا بالتفاوض مع الدول الاوربية لارضائها . ولم تكن لايطاليا مطامع في هذا الجزء من المغرب فاتفقت مع فرانسا ، في ١٩٠٢، على اطلاق يدها في طرابلس الغرب وبرقة، مقابل فرض النفوذ الفرنسي على مراكش . وفي الاتفاق الودي مع بريطانيا ، في ٨ نيسان ١٩٠٤ ، اعترفت فرانسا باحتلال بريطانيا لمصر مقابل حرية عملها في مراكش . وضغطت بريطانيا على اسبانيا للتفاهم مع فرانسا ، وتم اتفاق بين الطرفين ، في ٣ تشرين الاول ١٩٠٤، حدد منطقة النفوذ الاسبانية في شمال مراكش وجنوبها . وتعهدت اسبانيا بعدم القيام بعمل عسكري دون موافقة فرانسا ، ومنحت الأخيرة حق التدخل العسكري في المناطق الاسبانية ، بعد الحصول على اذن اسبانيا . وبدا من هذه الاتفاقيات ومن اعطاء البنوك الفرنسية القروض لمراكش، كما لو أن الحماية الفرنسية على مراكش وشيكة الوقوع . ولكن تدخل المانيا للحصول على الامتيازات ، وزيارة غليوم الثاني لطنجة في ٣١ آذار ١٩٠٥ ومطالبته بالدعوة لمؤتمر دولي، والصدى الطيب لذلك لدى سلطان مراكش، أفسد خطط فرانسا . وفي مؤتمر الجزيرة ، في ١٩٠٦ ، أصيبت فرانسا بخيبة أمل لأن المؤتمر أكد استقلال مراكش وسيادتها ، وأعطى امتيازات

اقتصادية لجميع الدول الكبرى ، مما فرض نوعاً من الوصاية الدولية على مراكش . ولكنه أبقى لفرانسا واسبانيا مهمة تنظيم الشرطة والمالية .

وتعرضت مراكش ، في الفترة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ ، الى ازدياد الفوضى في الداخل.وبلغ من ذلك أن أعلن الجنوب مولاي عبد الحفيظ، أخا السلطان الحاكم ، سلطاناً ، واعترفت به الدول في ١٩٠٩ ، وتسلم السلطنة محل مولاي عبد العزيز . ولكن حاجته للمال ، وعقده القروض، وازدياد النقمة عليه من رجال القبائل ، الذين حاصروه في فاس ، جعله يطلب الدعم العسكري من فرانسا . واستغل الاسبانيون ذلك، لاحتلال المنطقة التي منحهم اياها الاتفاق مع فرانسا في ١٩٠٤ . وتدخلت المانيا بارسال سفينة حربية الى أغادير في ١٩١١ . واشترى الفرنسيون انسحاب المانيا باعطائها مناطق في الكونغو الفرنسي . وأمكن لفرانسا بعد ذلك توقيع معاهدة الحماية مع السلطان عبد الحفيظ في ٣٠ آذار ١٩١٢ . وجابهت فرانسا مشكلة اخضاع جميع مناطق مراكش لسلطتها ، واستمر ذلك حتى عام ١٩٣٤ [1] .

احتلال ايطاليا ليبيا . ــ انهار حكم الاسرة القرامانلية [2] في طرابلس الغرب ، في عام ١٨٣٥ ، بعد أن مزقته ثورات القبائل المعارضة ، والصراع ضمن السلالة الحاكمة ، والتنافس على النفوذ بين الدول الأوربية ، ومحاولة الدولة العثمانية استرداد سيطرتها . وأقيم من جديد الحكم العثماني المباشر في طرابلس الغرب . وكان هذا ، الى حد ما ، رد

---

١ ــ انظر حول هذه التطورات :

A. Raymond, "North Africa in the pre-colonial period", *The Camb. Hist. of Islam,* Vol. II, pp. 269-277; Abun-Nasr, 202-234, 284-303; Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, 723-743.

٢ ــ أنظر حول انهيار الاسرة القرامانلية في ليبيا : عمر علي بن اسماعيل ، انهيار حكم الاسرة القرمانلية في ليبيا ، ١٧٩٥ــ١٨٣٥ طرابلس الغرب ، ١٩٦٦ .

وانظر كذلك : نقولا زيادة ، ليبيا من الاستعمار الايطالي الى الاستقلال ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ٥٢ــ٥٤ ، ليبيا في العصور الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ٥٢ــ٥٥ .

فعل عثماني على احتلال فرانسا الجزائر ، في محاولة لفرض النفوذالعثماني أيضا على تونس ومنع وقوعها في أيدي الأوربيين .

سيطر العثمانيون ، في الفترة بين ١٨٣٥ و ١٨٤٢ ، على القوى المحلية الثائرة في منطقة طرابلس والواحات ، وامتد حكمهم على معظم ليبيا . وجعل والي برقة ، الملقب متصرف ومركزه بنغازي ، مسؤولا مباشرة أمام استانبول ، ولكنه في الامور العسكرية والعدلية ، والضرائب ، ارتبط بولاية طرابلس . ونشط الأتراك تجارة العبيد ، عبر الطريق الممتد من بورنو ، الى فزان ، الى طرابلس ، ثم نقلوهم الى آسية الصغرى . وقدر عدد العبيد المارين بطرابلس الى هناك ، في ١٨٥٠ ب ٢٧٣٣ عبداً .

وكان لبرقة في هذه الفترة الثانية من الحكم العثماني (١٨٣٥-١٩١١) تاريخ خاص بها ، تميز بسيطرة السنوسية على أوجه الحياة فيها ، بشكل أكبر مما مارسته في طرابلس وفزان . وقد أسس هذه الطريقة متصوف جزائري يسمى سيدي محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧-١٨٥٧) حين كان في مكة [1] . وكان في طريقه الى الجزائر في ١٨٤١ ، حين علم بسيطرة الفرنسيين على معظم مناطقها ، فاستقر في بنغازي ، وأسس في ١٨٤٣ الزاوية البيضاء على الجبل الأخضر . ثم نقل مركز طريقته الى واحة جغبوب في الداخل ، ليكون بمنأى عن سلطة العثمانيين في بنغازي . وسرعان ما أصبحت السنوسية قوة هامة في الصحراء ، وبدلت مركزها باستمرار في الداخل لتمارس نشاطها بين سكانه . وأقامت عدداً من الزوايا في مناطق البدو ، الذين تعلقوا بها ، وأصبحوا من أشد دعاتها . وسيطر السنوسيون على الطرق التجارية ، حيث فرضوا الضرائب لتمويل احتياجاتهم . وقد تعايش السنوسيون والأتراك ، وجمع بينهم كرههم للفرنسيين والأوربيين بصورة عامة . ويذكر أن السلطان عبد المجيد الاول في عام ١٨٥٦ ، أعفى ممتلكات الطريقة السنوسية من الضرائب ، واعترف

---

١ - انظر ص ٣٤٣ .

لزعمائها بجمع ضريبة العشر من أتباعهم • واعترف فيما بعد بحق اللجوء الى زوايا السنوسيين • وحين فصلت برقة اداريا ، في عام ١٨٧٩ ، عن ولاية طرابلس ساعد السنوسيون الموظفين الاتراك في جمع الضرائب واقامة النظام حتى أمكن تسمية ادارة برقة ، بين ١٨٧٩ و ١٩١١ ، بالادارة التركية ـ السنوسية [١] •

ولعب السنوسيون دوراً هاماً ، ابان الاحتلال الفرنسي لتونس ، في تشجيع القبائل التونسية على المقاومة وفي استقبالها حين لجأت اليهم • أما الأتراك في ليبيا فقد هادنوا الفرنسيين بعد ١٨٨٥ ، بسبب تزايد تهديد الايطاليين لهم ، وأيضاً بسبب تحول الفرنسيين عن الطمع في احتلال مناطق ليبية ، وخاصة في الجنوب • وبعد تردد تركيا في عقد اتفاق مع فرانسا حول قضايا الحدود ، لأن ذلك سيشكل اعترافاً ضمنياً باحتلال فرانسا لتونس ، تم تشكيل وفد مشترك من الطرفين لمعالجة ذلك في ١٨٨٩ ، تحت تأثير الخطر الايطالي •

وقد ازدادا تطلع الايطاليين في ليبيا ، وفي ايطاليا ، الى احتلال ليبيا، خاصة بعد احتلال فرانسا لتونس وما سبق أن لمسوه من تغاضي الدول الكبرى حيال المطامع الايطالية في مؤتمر برلين في ١٨٧٨ • ومع ذلك فلم يكن الموقف الفرنسي في تونس ، والبريطاني في مصر ، في الثمانينات مستقراً لتشجع الدولتان احتلال ايطاليا ليبيا ، لاسيما وان ايطاليا أصبحت عضواً في التحالف الثلاثي ، الى جانب المانيا والنمسا ـ هنغاريا • وحين تم التحالف الودي بين بريطانيا وفرانسا ، في ١٩٠٤ ، أعطت الدولتان ايطاليا حرية العمل في ليبيا • ولكن المانيا ، رغم تجدد التحالف الثلاثي ، وقفت في وجه ايطاليا بسبب صداقتها ومصالحها آنذاك في الدولة العثمانية • ومع ذلك فلم ينفك الايطاليون عن تعميق نفوذهم في ليبيا وتوظيف رساميلهم (وخاصة عن طريق بنكو دي روما) وخبراتهم فيها •

---

١ ـ أنظر : Abun-Nasr, 303-307.

وأنظر حول السنوسية : نقولا زيادة ، ليبيا في العصور الحديثة ، ٦٣ـ٧٥ ؛ وانظر كذلك : محمد فؤاد شكري ، السنوسية دين ودولة ، القاهرة ، ١٩٤٨ •

وجاءت ثورة تركيا الفتاة في ١٩٠٨ – ١٩٠٩ وتسلم جمعية الاتحاد والترقي الحكم في استانبول لتدفع ايطاليا الى الاسراع في احتلال ليبيا ، اعتقاداً منها أن السنوسيين الناقمين على الثائرين ضد السلطان عبد الحميد لن يدافعوا عن الحكم التركي ، وخوفاً من توطيد السيطرة التركية في أعقاب الحكم الجديد في استانبول • وجاءت نذر ذلك باصدار استانبول الأوامر بمنع الاجانب ، ومعظمهم من الايطاليين ، بتملك الأراضي في ليبيا•

وقد شكت ايطاليا بنوايا المانيا في ليبيا بعد أن بدأ رعاياها يشترون الأراضي فيها ، وأخذت مؤسساتها المالية تنافس مثيلتها الايطالية • وبعد أن أتمت ايطاليا استعداداتها العسكرية للتدخل احتجت لدى حكومة استانبول حول مضايقة فرع جمعية الاتحاد والترقي في طرابلس لرعاياها فيها • وتلا ذلك انذار لاستانبول في ٢٨ ايلول ١٩٢١ برغبة ايطاليا باحتلال طرابلس وبرقة لحماية رعاياها • وبدأ التدخل العسكري في اليوم التالي• ولمدة عام بعد ذلك اقتصر الاحتلال الايطالي على خمسة مواني ليبية ، منها طرابلس وبنغازي وطبرق • ورغم كره السنوسيين لمبادىء جمعية تركيا الفتاة فقد تعاون الفريقان الآن ضد الايطاليين • وبلغ من عنف المقاومة وكثافة الخسائر الايطالية أن ثار الرأي العام الايطالي مطالباً بحسم القتال• وهددت ايطاليا تركيا باعلان الحرب عليها ان لم تتخل عن ليبيا ، وهكذا تم الاتفاق في معاهدة سرية في ١٥ تشرين الاول ١٩١٢ ، على أن يعلن السلطان الحكم الذاتي في ليبيا ، ويتبع ذلك ، بعد ثلاثة أيام ، بتصريح يشير فيه الى سيادة ايطاليا عليها ، التي كانت قد أعلنتها في تشرين الثاني ١٩١١ • والهدف من ذلك تطمين الرأي العام المسلم أن السلطان باق خليفة المسلمين • وفي المعاهدة العلنية في ١٧ تشرين الاول ١٩١٢ ، في اوشتي (لوزان) ، أعلن انتهاء القتال وانسحاب القوات العثمانية•وهكذا بقي على الليبين أن يقاوموا بمفردهم • وحال الانكليز دون ارسال المساعدات الى ليبيا من مصر • وفي عام ١٩١٤ كان الايطاليون قد احتلوا جميع المراكز الرئيسية على الساحل الليبي وبعض المواقع الهامة في

الداخل [1] • ولكن بقي على الايطاليين آن يجابهوا المقاومة الوطنية في الداخل ، وسنعالج عناصرها وتطورها في بحث لاحق [2] •

الحركات الوطنية والقومية في العالم العربي

بدأ الاستعمار الأوربي يغزو مناطق الاطراف في العالم العربي بشكل حثيث منذ عام ١٨٣٠ ، باحتلال الجزائر ، الى أن أكمل فرض احتلاله على معظم أنحاء العالم العربي في أعقاب الحرب العالمية الاولى • وقد أدى التنوع في هوية القوى المحتلة للعالم العربي ، في القرن التاسع عشر ، من دول أوربية تسيطر على مصر والمغرب العربي ، ودولة عثمانية تحتل مشرقه ، الى تنوع مقابل ضمن حركات المقاومة والاصلاح التي عمت أرجاءه • فهناك حركات وطنية ودعوات اسلامية عمت المناطق الاولى التي احتلها الأوربيون ، وهناك حركات وطنية قومية عمت المناطق التي كانت خاضعة للعثمانيين•وبالاضافة الى ذلك كان من تأثير انتشار الفكر الأوربي في العالم العربي،في القرن التاسع عشر ، وردود الفعل المحلية ، سلباً وايجاباً على ذلك ، ان أصبح الفكر العربي في ذلك القرن غنياً بمختلف الاتجاهات•

الحركات الوطنية في المغرب العربي • ـ يلاحظ أن حركات المقاومة للاحتلال الأجنبي ، في بلدان المغرب العربي ، قد ارتكزت على الريف ، أول الأمر ، وهذا يشبه الى حد كبير أوضاع حركات المقاومة للاحتلال الأوربي في بلدان المشرق العربي ، عقب فرض الانتداب عليها • فالأعيان في الريف ، وزعماء العشائر ، ومشايخ المذاهب الدينية ، وأصحاب الطرق الصوفية هم الذين قادوا ، في مطلع الاحتلال ، قوى المقاومة • ولم تلعب المدن دوراً كبيراً في المقاومة أول الأمر ، لعوامل متعددة ، منها سيطرة

---

١ ـ انظر حول تفاصيل تاريخ ليبيا في هذه الفترة : Abun-Nasr, 303-312.
وانظر كذلك : نقولا زيادة ، ليبيا في العصور الحديثة ، ٧٦ـ٨٦ ، محمد ناجي ومحمد نوري ، طرابلس الغرب ، ترجمة أكمل الدين محمد احسان ، طرابلس الغرب ، ١٩٧٣، ص ١٨٩ـ٢٤٨ •

٢ ـ انظر ص ٤٧٧ •

قوات الاحتلال عليها ، وانتشار الامية ، وبالتالي عدم وجود وعي جماهيري، وطني أو قومي،فيها ، وموالاة الطبقة الحاكمة السابقة فيها ، ومعظمها من أصل غير عربي ، للمحتل ، اما خوفاً أو طمعاً في الحظوة ، وكذلك ارتباط مصالح الطبقات البورجوازية فيها مع مصالح الدول المحتلة •

وقد رأينا [1] كيف أن المقاومة التركية ، المتمركزة في المدن الجزائرية ، قد انتهت عملياً باحتلال الفرنسيين قسنطينة في ١٨٣٧ ،وطرد حاكمها الباي أحمد • وحدّ الفرنسيون كذلك من دعم سلطان مراكش لقوى المقاومة الجزائرية ، ولهذا انحصرت المقاومة في الريف ، حول الأمير عبد القادر الجزائري ، الذي ورث مشيخة الطريقة القادرية عن أبيه محي الدين • ولم يكن أمر مقاومة القبائل شيئاً جديداً في تاريخ الجزائر ، فقد قاومت القبائل الحكم التركي من قبل ، ولكن دورها الآن تميز بالتنظيم وبالعنف لأن مسؤولية مقاومة الاحتلال الفرنسي ألقيت عليها الى حد كبير •

بايع العلماء والأعيان وزعماء القبائل الأمير عبد القادر ، في عام ١٨٣٢ ، في الامارة والجهاد [2]• وكانت صفته الدينية واعتماده الجهاد عنصراً هاماً في جمع العرب والبربر تحت رايته • وبعد أن أخضع منافسيه مثل ابن نونه في تلمسان ، وبعض القبائل المعارضة ، تفرغ عبد القادر لمقاومة الفرنسيين،وهكذا ترتب عبء جديد على الفرنسيين بانتشار المقاومة ضدهم وتنظيمها في الريف •

بدأ الأمير عبد القادر ، كأبيه ، بشن الغارات على الفرنسيين في وهران • وكان الفرنسيون آنذاك في وضع مضطرب حول مستقبل حكمهم في الجزائر ، ولهذا عقد الجنرال ديميشيل ، قائد الحامية الفرنسية في وهران ، اتفاقية مع عبد القادر ، في ٢٦ شباط ١٨٣٤ ، اعترف بموجبها

---

١ ـ انظر ص ٤٣٣ •

٢ ـ انظر : فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، ٢٣٣ـ٢٣٥ •

بسلطة عبد القادر على مناطق الريف ، خارج مدن وهران وارزيو ومستغانم • وكان هذا مفيداً للفرنسيين لأنهم أمنوا هجمات الأمير من الريف • ولم تدم هذه الاتفاقية طويلا لأن الحاكم العام كلوزيل ، الذي خلف ديميشيل ، نقضها ، وهاجم عاصمة الأمير عبد القادر في معسكر ، فأحرقها ، بعد أن أخلاها الأمير • ثم قاد حملة على تلمسان بحجة دعم القولوغلي ، الذين استنجدوا به ضد العرب • وعاد الفرنسيون الى التفاوض مع الامير ، بعد أن هزمهم في موقعة المقطع ، وعقدوا معه ، من جديد ، معاهدة تافنا في ٢٠ أيار ١٨٣٧ • وقد ضم الأمير الى ادارته مناطق كانت بأيدي الفرنسيين ، بالاضافة الى معظم مناطق الريف في بيلكية الغرب • ونصت الاتفاقية كذلك على حرية التجارة بين مناطق الأمير والمناطق التي يسيطر عليها الفرنسيون • وأفاد الفرنسيون من ذلك بأن ركزوا قواتهم ضد قسنطينة ، التي حكمها الباي أحمد ، وتمكنوا من احتلالها في ١٣ تشرين الاول ١٨٣٧ •

وعمل الامير عبد القادر ، في السنوات القليلة التي تلت معاهدة تافنا ، على توطيد سيطرته على البدو في مناطق قسنطينة وفي الجنوب والغرب من الجزائر • واصطدم الامير بأتباع الطريقة الصوفية التيجانية ، الذين رفضوا زعامته ، وأيدهم الفرنسيون في ذلك ليقيموا منهم منافسين للأمير • ومع ذلك أتاح صلح تافنا للأمير أن يوطد سلطته في مناطق وهران وتيطري ، وأن يقيم حكومة منظمة فيها • ويقول الدكتور فارس : « كان الامير يعتبر تنظيم الجبهة الداخلية وتوطيدها الأساس الأول الذي ترتكز عليه حرب التحرير • واذا كان قد قبل التفاوض والتهاون مع العدو فقد كان ذلك بغرض كسب الوقت لاستكمال أسباب هذا التنظيم »[1] •

وقد تلازمت ادارة الأمير مع البنية البدوية لمنطقته • فالى جانب الخلفاء ، الذين عينهم على المناطق الرئيسية ، عهد الى شيخ القبيلة ، الذي أطلق

---

١ ـ انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، ٢٤١ •

عليه لقب آغـا ، بادارة شؤون قبيلته • وكلف موظفيه المباشرين بجمـع الضرائب من القبائل وتنظيم المحاربين في صفوفها، وكانت عاصمته متنقلة، حسب الأوضاع السياسية والعسكرية • ورغـم أن جيشه النظامـي قدر بعشرة آلاف ، فقدكان يُرفد بالمحاربين من القبائل في أوقات الحاجة ومن المناطق التي يقوم فيها القتال • وكانت وارداته الرئيسية من الضرائب ومن التجارة التي نظمها في المناطق التي سيطر عليها • وكسب الامير كثيراً من الاحترام في الخارج ، وخاصة في فرانسا ، بسبب ادارته الحازمة ومعاملته الحسنة للاسرى [1] •

أدى احتلال الفرنسيين قسنطينة ، بعد توقيعهم معاهدة تافنا مع الأمير عبد القادر،الى التخلي عن سياستهم المعلنة في الاحتلال المحدود ، وحاولوا مدّ نفوذهم الى أبعد من وادي خضرة،الذي يقع على بعد أربعين كيلومتراً شرقي الجزائـر ، والذي كان حدود المنطقة الفرنسية بموجب معاهـدة تافنا • وكان الفرنسيون يعانون مـن ثقل تكاليف حربهـم في الجزائر ، ويخشون نشوب نـزاع مـع بريطانيا بسبب دعمهـم لمحمد علي باشا في سورية • كما أن المستوطنين الفرنسيين كانوا يعارضون سياسة التفاهم مع الأمير عبد القادر •وأدرك الأمير ، من ناحيته ، عقم سياسته في الاتفاق مع الفرنسيين • وتجدد القتال بين الطرفين ، على نطاق واسع ، منذ أواخـر عـام ١٨٣٩ ، وخاصة في عهـد الجنرال بيجـو ، بدءاً من العام التالي • وكانت سياسة بيجو احتلال الجزائر بكاملهـا • ولـم يدخـل في معارك مكشوفة مع الامير عبد القادر ، بل اتبع طريقة الغزو ، وعمل على تدمـير القرى والمحاصيل والمواشي ليضعف قوات الامير ، كما قام بعمليات الابادة للسكان • واحتلت قوات بيجـو في ١٨٤١ معسكر وتاغدمت ، وفي العام التالي تلمسان ، وأجبر الامير عبد القادر ، في أواخـر عام ١٨٤٣ ، عـلى اللجوء الى مراكش ، حيث استقبل كبطل • ولكن الفرنسيين ضغطوا على

---

١ ـ أنظر : المصدر السابق ، ٢٤٥ـ٢٤٨ ؛ وانظر أيضا :
Abun-Nasr, 244; Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord*, 597-600.

الحكومة المراكشية ، ثم تدخلوا عسكرياً للحد من نشاط الامير ،وقصفوا طنجة وموغادور • وفي اتفاق بينهما في ١٨٤٤، اعتبرت الحكومةالمراكشية الأمير عبد القادر خارجاً على القانون • واضطر الى العودة الى الجزائر • وكان قد ظهر مركز مقاومة آخر للفرنسيين في الجزائر ، بقيادة زعيم ديني يدعى بومعزة ، مما سهل للامير عبد القادر استئناف نشاطه الثوري في وادي تافنا • فركز بيجو جهوده ضده ، واضطره من جديد الىاللجوء الى مراكش•ولكن بريطانيا خشيت تدخل فرانسا في مراكش فسعت لدى السلطان فيهـا لطرد الامير متهمـة اياه بمحاولة خلـع السلطان • وكان بومعزة قد استسلم في ١٨٤٧ ، وقوى الفرنسيون رقابتهم على الحدود مع مراكش،مما أجبر الأمير عبدالقادر علىالاستسلام لفرانسا في عام ١٨٤٧• وبقي في فرانسا حتى عـام ١٨٥٢ حين سمح له الامبراطور نابليون الثالث بالانتقال الى دمشق [١] ، حيث توفي في عام ١٨٨٣ •

تمزقت المقاومة في الجزائر اثـر فقدان زعامـة الامير عبد القادر ، ونشط المستوطنون الفرنسيون ، في أعقاب ذلك،في استملاك مساحات كبيرة من الاراضي•وتميزت الفترة التالية بالخلافات بـين المستوطنين والحكومات الفرنسية المتعاقبة بأكثر من الثورات المحلية على الفرنسيين • وقد بلغ عدد المستوطنين في الجزائر ، في عـام ١٨٤٧ ، ١٠٩ر٣٨٠ عاش سبعهم فقط خارج المدن الكبرى،ودعوا الى حرية اقتنائهم الاراضي والى تعميم الادارة الفرنسية في الجزائر • وكان الفرنسيون قد استولوا في السابق علىأراضي الدولة التركية ووزعوها ، بالاضافة الى الاراضي التي صادروها من أتباع الامير عبد القادر ، عـلى المستوطنين • واتخذت الحكومة اجراءات أخرى في عام ١٨٤٣ حين وضعت أراضي الأوقاف (الحبوس) تحت ادارتهـا ، وسمحت ببيعهـا ، وأخـذ المستوطنون بشرائهـا • وكذلك بدأوا بشراء الاراضي التي سيطرت عليها القبائل واستغلتها للرعي ، وذلك بحجة أنها غـير مستثمرة أو أن القبائـل لا تستغلها • وتزاحمت الشركـات وكبار

---

١ ـ أنظر ص ٤٢٣ •

التجار على شراء الاراضي بحجة اقامة قرى زراعية للمستوطنين الفرنسيين فيها ، ولكنهم في الواقع استغلوا معظمها لحسابهم • وباتساع مصالح المستوطنين وكبار الشركات والتجار في الجزائر فقد وجدوا أن ضم الجزائر الى فرانسا خير وسيلة لحماية هذه المصالح • وقد شجعهم على ذلك تنظيم الجزائر ادارياً في ١٨٤٥ ، وتقسيمها الى مناطق مدنية ، حيث يسود المستوطنون ويطبق القانون الفرنسي ، ومناطق مختلطة حيث تعيش قلة أوربية في وسط عربي ، وقد طمع المستوطنون بضمها اليهم •وعارض هؤلاء سياسة حكومة لوي فيليب التي اعتمدت على الجيش الفرنسي في حكم الجزائر أكثر من اعتمادها عليهم ، ولهذا صوتوا لصالح الجمهورية في ١٨٤٨ ، ومنحوا حق انتخاب ممثلين للبرلمان الفرنسي • ولم يحبذ نابليون الثالث الاتجاهات الجمهورية لدى المستوطنين ، كما أنه أثارهم باعطاء الاراضي في الجزائر للشركات وكبار الاحتكاريين،وكذلك بايقاف تمثيلهم في البرلمان • وبزوال الامبراطورية واعلان الجمهورية الفرنسية في ١٨٧٠ ، أصبحت الكلمة العليا في الادارة للمستوطنين حتى فيالمناطق العربية ، وازداد عددهم من ٢٧٢٫٠٠٠ في عام ١٨٧٠ الى ٦٨١٫٠٠٠ في عام ١٩١١•كما ألحقت الجزائر رسمياً بفرانسا في تشرين الاول ١٨٧٠، وانتخبت ستة نواب الى المجلس النيابي الفرنسي ، وبدأ وزير الداخلية الفرنسية بتعيين مفتشين مدنيين لمحافظات الجزائر [١] • وقد أدت هذه الاجراءات الى استعار الثورة الجزائرية من جديد ضد الفرنسيين •

وفي الواقع لم تتوقف المقاومة الجزائرية باستسلام الامير عبد القادر للفرنسيين•فقد أثار سكان البلاد ثقل الضرائبالفرنسية والاستيلاء على أراضيهم ، ولهذا قامت ثورة بو ندبان جنوب غرب بسكرة عام ١٨٤٨• وعلى غرار زعماء الثورة الآخرين ، كان بو ندبان رجل دين ، وقد قضي

---

١ ــ انظر حول تفاصيل هذه التطورات :
Abun-Nasr, 247-257; A. Nouschi, "North Africa in the period of colonization", *The Camb. Hist. of Islam,* Vol. II, 299-304.

على ثورته بعد عام ، وأبيد السكان الذين دعموه • وأدى هجوم الفرنسيين على منطقة القبائل الى قيام زعيم ديني آخر ، يدعى بوبغلة ، بثورة بين القبائل ضايقت الفرنسيين حتى وفاته في ١٨٥٤ • وكذلك قامت ثورة في الجنوب ، في منطقة لغواط ، في عام ١٨٥٢ ، بزعامة محمد بن عبد الله ، من قبيلة سيدي الشيخ • وقد هزم في العام نفسه ، واحتل الفرنسيون ، في عام ١٨٥٤ ، المنطقة حيث ثار • وقد حابى نابليون الثالث السكان العرب في الجزائر ، ووصف الجزائر بأنها مملكة عربية ، واعتبر استخدام القبائل للأرض بمثابة ملكية لها ، مما أثار المستوطنين الاوربيين ضده • وحين سيطر هؤلاء على الجزائر ، في أعقاب انهيار امبراطورية نابليون الثالث في ١٨٧٠ ، قام الجزائريون بثورة كبرى في العام التالي ، وكان قد سبق ذلك سنوات صعبة تخللها القحط والأوبئة • ووجد الجزائريون في هزيمة فرانسا أمام بروسيا وفي العار الذي لحق بالجيش الفرنسي فرصة مناسبة للثورة • وراجت شائعات أن الأتراك سيتدخلون في الجزائر ، وان محي الدين ، ابن الأمير عبد القادر ، سيعود لقيادة الثائرين • ورغم هذه الظروف المواتية للثورة فقد أعوز الثائرين زعيم يقودهم • واستغل ذلك محمد المقراني ، الذي سبق أن أيد الفرنسيين ، بغية تحقيق أهداف شخصية • وكان الفرنسيون قد عينوا والد محمد حاكماً في منطقة القبائل، ليعارضوا به الامير عبد القادر ، ومنحوا محمداً لقب باش آغا • ولكن توسع الفرنسيين في منطقة القبائل ، ومصادرتهم أملاك قبيلة المقراني ، وفرضهم الضرائب على السكان ، هدد مصالح اسرة محمد ، خاصة بعد أن استدانت قبيلته ، في فترة المجاعة (١٨٦٧ - ١٨٦٨) ، مليون فرنك من دائنين فرنسيين ويهود • ووجد محمد المقراني أن الثورة هي السبيل الوحيد لاستعادة سيطرته ، ولكن عمله أطلق قوى ثورية لم يستطع السيطرة عليها لأن أهدافها لم تلتق مع أهدافه • وقد أحسن جوليان حين وصف ثورة المقراني بأنها ثورة ارستقراطية وحرب ديمقراطية [١] •

١ - انظر : Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, 622.

وسرعان مـا انتشرت الثورة فشملت مساحة تقدر بثلاثمائة كـم² ، من أطراف مدينة الجـزائر الى أعالـي الأطلس وحتى حـدود الصحراء ، واشترك فيها حوالي ثلث السكان المحليين • وكان المقراني عـلى استعداد للاستسلام فيما لو منح شروطـاً مناسبة له ، ولكنه قتل في أيـار ١٨٧١ • واستسلم ، بعد حوالي شهرين ، الشيخ الحداد ، زعيم الطريقة الرحمانية الصوفية ، التي ألهبت مشاعر الناس للثورة • وأسر ، في حزيران ١٨٧٢، زعيم آخـر ، هـو بو مزراق ، الذي قاد الثائـرين في الجنوب • وفقد الفرنسيون في عملية اخماد الثورة ٢٫٦٨٦ رجلا ، مما يدل على ضراوة المقاومة • واستغل المستوطنون الاوربيون ، الذين أصبحت لهم الكلمـة العليا في الادارة بعد زوال امبراطورية نابليون الثالث ، القضاء على الثورة لزرع الخوف في النفوس ، ففرضوا غرامة حربية قدرت ب ٣٦٫٥ مليون فرنك عـلى منطقة القبائل ، أي حوالـي عشرة أضعاف الضريبة السنوية المقـررة عليهـا ، وصودرت أراضي القبائـل التي اشتركت في الثورة ، وأجبرت على دفـع مبالغ كبيرة من المـال لاسترجاعها • ولمكافحة امكانية الثورة من جديد تسرب مستوطنون جـدد للاقامـة في مناطـق الريف ، وفرضت ضرائب ثقيلة على السكان ، وأصبح القانون الجزائري أكثـر قسوة [١] • وخول الحكام المدنيون فرض العقوبات عـلى الجزائريين في عدد من القضايا بدون محاكمة ، وبالقاء القبض عليهم ومراقبتهم ، بدون محاكمة أيضاً،ومنعوا من مغادرة مناطقهم بدون اذن من السلطات الحاكمة• وظهـرت بـين المستوطنين طبقـة ملاكـين رأسمـالية استغلت مناطـق واسعة ، وسخرت العمال المالطيين والاسبان والجزائريين لخدمةمصالحها• ومما زاد في عدد المستوطنين الفرنسيين ، وفي التعاون بينهم وبين المستوطنين الاوربيين الآخـرين ، صدور قانون في ١٨٨٩ بمنـح الجنسية الفرنسية

---

١ ـ انظر حول هذه الاحداث : Abun - Nasr, 254 - 256

لأبناء الاوربيين المولودين في الجزائر • وفي عام ١٨٩٦ زاد عدد الفرنسيين المولودين في الجزائر على عدد الفرنسيين المهاجرين اليها ، وعرفوا باسم الأرجل السوداء (Pieds noirs) ، ونمى لديهم شعور بالتفوق ، وخاصة تجاه الجزائريين [١] •

وقد حدث تطور هام في القيادات الثورية بعد عام ١٨٧١ • فالزعماء التقليديون من العلماء وأصحاب الطرق الصوفية أضعفوا كثيراً ، بعد أن أوجد الفرنسيون طبقة من العلماء الموالين ، دفعوا لهم المرتبات ، وضمنوا ولاءهم • وشجع الفرنسيون الطرق الصوفية الموالية لهم ، مثل التيجانية• وقد تضاءل نفوذ القادة من العلماء بين الجزائريين اما بسبب تعاون بعض هؤلاء العلماء مع الفرنسيين ، مما سبب النقمة ضدهم بين السكان ، أو بسبب محاولة الفرنسيين احلال القانون الفرنسي محل القانون الاسلامي ، وكذلك اضعاف نظام التعليم المحلي ، مما جعل الحاجة للعلماء أقل الحاجات ، ووضعت قيود على السفر الى الخارج والى الحج الى مكة [٢] •

وبانتشار الثقافة الفرنسية بين الجزائريين حدث انشقاق في صفوف الحركة الوطنية ، بين المحافظين والشبان ذوي الثقافة الفرنسية • وقد رفض المحافظون الانخراط في الجيش الفرنسي ، وهاجرت ثمانمائة أسرة منهم (ستمائة من منطقة تلمسان) الى سورية في ١٩١١ ، لتحاشي ذلك• ونظم الشبان ذوو الثقافة الفرنسية أنفسهم في عام ١٩١٢ في جمعية الجزائر الفتاة ، ودعوا الى الاندماج في المجموعة الفرنسية ، على أساس المساواة • وكان من بينهم بن جلول وفرحات عباس • وظهرت بعد ذلك قوى أخرى تجاوبت مع أماني الجماهير ، الى أن نالت الجزائر استقلالها في ١٨ آذار ١٩٦٢ • ويخرج تفصيل ذلك عن نطاق هذا الكتاب •

---

١ ــ انظر : *Ibid.,* 256 - 257.

٢ ــ انظر : *Ibid.,* 257 - 258.

اختلفت السياسة الفرنسية في تونس عنها في الجزائر ، وكذلك اختلفت ردود الفعل المحلية ضد الفرنسيين . فقد حافظ نظام الحماية في تونس على وجود الباي ومجلس الوزراء رغم أن السلطة الحقيقية كانت بيد وزير مقيم فرنسي (عرف منذ ١٨٨٥ باسم المقيم العام) . ولا تصبح القوانين التي يصدرها الباي نافذة الا بعد أن يوافق عليها المقيم العام . وبقيت الادارة المحلية في الولايات بيد القادة ، يساعدهم نوابهم المسمون خلفاء ، والمشايخ من رؤساء القبائل . ولكن الحكومة الفرنسية عينت مراقبين مدنيين ، ازداد عددهم على مر الزمن ، لمراقبة الاداريين المحليين في مراكز الولايات ، وخاصة النشاط السياسي للزعماء . وبقي للسكان المحليين محاكمهم الخاصة ، بعد أن حدّ من صلاحياتها . ونظرت محاكم أوربية في القضايا بين الأوربيين ، وبينهم وبين السكان المحليين . ورغم أن حركة الاستيطان ، ممثلة بالجمعيات الكبرى ، قد انتشرت في بعض المناطق الغنية ، الا أن الملكية بقيت ، في السنوات الاولى ، مصانة بالشريعة الاسلامية . وقد أصدر الباي قانوناً في ١٨٨٦ أباح فيه للمستوطنين استئجار أراضي الاوقاف (الحبوس) ، بصورة دائمة ، وفق المذهب المالكي ، أي شرائها في الواقع ، أو الاستبدال بها ، وفق المذهب الحنفي، وكذلك شراء أراضي الدولة . وكانت أراضي الأوقاف خصبة، ومهملة في الوقت نفسه، ولم يؤد حصول المستوطنين عليها الى اثارة الخواطر بالقدر الذي يمكن أن يثيرها استيلاؤهم على الملكيات الخاصة أو أراضي القبائل . وكانت هذه الاراضي الاخيرة أقل شأناً، لأنها أصغر حجماً وأصحابها أقل خطراً، مما كان الأمر عليه في الجزائر . ولم توزع الحكومة الفرنسية الاراضي مجاناً على المستوطنين الفرنسيين ، كما فعلت في الجزائر ، ولهذا كان معظم المستوطنين من أصحاب رؤوس الأموال ، الذين أمكنهم شراء الاراضي . ورغم تشجيع الحكومة للاستيطان في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، عن طريق اقامة جمعيات ورصد رؤوس أموال ،

لشراء الأراضي لهم ، فلم يزد عددهم كثيراً ، وبقي الايطاليون أكثر عدداً من الفرنسيين حتى عام ١٩٣٠ ، حين تبدل الوضع •

وكما حدث في الجزائر ، لم تظهر المقاومة في تونس ، بادىءالأمر ، في المدن بل في الريف ، وخاصة الجنوب ، حيث تشجعت القبائل ، بالدعم العثماني من طرابلس الغرب ، فقاومت ، في عام ١٨٨١ ، محاولات الفرنسيين احتلال الجنوب • وكانت القبائل تجتاز الحدود وتلجأ الى طرابلس • وفي عام ١٨٨٢ قام حمزة ظافر ، شيخ الطريقة المدنية الصوفية التي كان لها أتباع كثر في تونس ، بتحريض التونسيين ، من مركزه في طرابلس ، لمقاومة الفرنسيين ، وكان يدعمه العثمانيون في ذلك • ولكن الدعم العثماني للثائرين لم يكن فعالا ، كما لم تكن الثورات عميقة ربما بسبب بقاء الحاكم المسلم ، ولو اسمياً ، على رأس البلاد ، وأيضاً بسبب عدم تبني سياسة استيطان شاملة ، كما في الجزائر • واهتم رجال الفكر المسلمون ، في العاصمة ، من أتباع خير الدين [1] ، ومن المشارقة المقيمين فيها ، من أمثال الشيخ محمد عبده ، الذي حضر الى تونس في ١٨٨٤–١٨٨٥ ، وفي ١٩٠٣ ، بالدعوة الى الاصلاح ، على الطريقة السلفية أو غيرها • وهناك من دعا الى الاعتماد على الفرنسيين في دعم الاصلاح • واعتقد كثير من رجال الاصلاح بضرورة اصلاح التعليم ، والاعتماد على كليات الصادقية ، والزيتونة ، وكذلك الخلدونية التي أنشئت في عام ١٨٩٦ لتدريس العلوم الحديثة•ولعبت الصحافة دوراً هاماً في الدعوة الى الاصلاح•وقد أسس بشير سفار ، أحد أتباع خيرالدين صحيفة الحاضرة ، في عام ١٨٨٨ ، التي هدفت الى نشر الافكار الحديثة بين التونسيين ، دون مهاجمة الفرنسيين ودعت الى تعليم المرأة،كماهاجمت الطرق الصوفية المسؤولة عن نشر الشعوذة •

وقد تداعى ، في العقد الاول من القرن العشرين ، بعض الشباب

---

١ ـ انظر ص ٤٣٨ •

التونسي،وشكلوا جمعية تونس الفتاة ، التي دعت الى ايجاد دولة تونسية عصرية متحررة ، ولو اقتضى ذلك دوام الاحتلال الفرنسي ، شريطة أن يطور البلاد • وأصدر هؤلاء الشباب ، في عام ١٩٠٧ ، مجلة بالفرنسية (Le Tunisien) ، وأصبحت في عام ١٩٠٩ بالعربية ، باسم (التونسي) • ورغم هذا البرنامج المثالي الذي دعت اليه تونس الفتاة ، فقد أقحم أفرادها في حوادث افرادية ، جرت في عامي ١٩١١ و ١٩١٢ ، بين التونسيين والسلطة الفرنسية ، وتطورت الى مصادمات ، مما دعا السلطة الى سجن أو نفي بعض زعمائها ، مثل عبد العزيز الثعالبي • وأدى الصدام بين العثمانيين والايطاليين ، حول ليبيا ، في ١٩١١ ، الى اشتداد نقمة التونسيين على الايطاليين والأوربيين بصورة عامة • وحدثت أيضاً اضطرابات في الريف التونسي ، بسبب طرد الفلاحين من أراضيهم ، أو بسبب اشتداد الجفاف واتخاذ الحكومة موقف اللامبالاة • كما أن الاقتصاد الريفي ، الذي تعرض لتيارات التجارة الفرنسية والعالمية ، لم يقو على الصمود في وجهها ، وشعر الفلاحون بالضائقة المالية •

وازاء هذه الاضطرابات فرض الحكم العسكري في تونس ، في عام ١٩١٢ ، ولم يرفع حتى عام ١٩٢١ ، وأدى الى اعاقة النشاط السياسي • وفي عام ١٩١٩ طالب بقايا أعضاء جمعية تونس الفتاة فرانسا والدول الكبرى باعادة دستور عام ١٨٦١ [١] ، وشكلوا في ذلك العام حزباً جديداً باسم الحزب الحر الدستوري التونسي [٢] •

أصبحت فرانسا مسؤولة رسمياً عن أمور مراكش ، بموجب معاهدة فاس ، في عام ١٩١٢ ، بينها وبين السلطان مولاي عبد الحفيظ • وعهدت

---

١ ـ انظر ص ٤٣٦ •

٢ ـ انظر حول هذه التطورات في تونس : Abun - Nasr, 279 - 284,

A Nouschi, "North Africa in the period of colonization", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. II, 311-316; Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord*, 708 - 723.

فرانسا بسلطانها الى المقيم العام Lyauti ليوتي (١٩١٢ - ١٩٢٥) •
واهتم هذا بتوطيد السلطة الفرنسية أولا في بلاد المخزن ، أي ذلك القسم من البلاد الذي ضم الاراضي الخصبة والمصادر المعدنية ، وشمل المناطق الساحلية وفاس ومكناس ووجدة • أما القسم الآخر من البلاد ، وهو بلاد السيبه ، الذي يسكنه البربر الجبليون ، فقد حاول ليوتي عزله عن مناطق العرب الاخرى •

وقد حدثت أولى الثورات على الفرنسيين في ١٧ نيسان ١٩١٢، حين ثار سكان مدينة مراكش على الفرنسيين فيها ، كما حاصرت القبائل مدينة فاس • ورد ليوتي بعنف على هذه الثورات فأخضعها ، وبدأ بتوسيع الاحتلال الفرنسي • وانطلقت الثورة الاخرى على الفرنسيين من موريتانيا ، بقيادة الزعيم الهبة ، وكان والده ، ماء العينين ، قد اعترف بسيادة سلطان مراكش على المناطق الشمالية من بلاده • ولكن خضوع مولاي عبدالحفيظ للفرنسيين جعل ماء العينين يرفض سيادته ، ويعلن نفسه سلطاناً ، ويتبنى مقاومة الفرنسيين • وبعد اعلان اتفاقية فاس ، أعلن الهبة ، الذي خلف والده ، نفسه سلطاناً على موريتانيا ومراكش ، وتمكن من احتلال مدينة مراكش • ولكن الفرنسيين ، بمساعدة بعض الزعماء المحليين ، تمكنوا من هزيمته في ايلول ١٩١٢ • وكان أبرز هؤلاء الزعماء المتعاونين مع الفرنسيين آل القلاوي ، في منطقة مراكش والاطلس الأعلى ، الذين اعتمد عليهم مولاي عبد الحفيظ ، وعين عدداً من أفرادهم في الوظائف الهامة ، والزعيم متوجي • وكافأهم الفرنسيون بتعيينهم قادة محليين ، وبمدهم بالسلاح لافتتاح بلاد السيبه باسم الفرنسيين • وأفاد اعتماد فرانسا على هؤلاء الزعماء البربر بأن وفر قواتها لفتح بلاد المخزن الغنية عوضاً عن انهاكها في احتلال الجنوب • وعلى خلاف بربر الجنوب هؤلاء المتعاونين مع الفرنسيين ، وقف بربر صنهاجة ، في الأطلس الأوسط ، ضد الفرنسيين • واتهم الفرنسيون مولاي عبد الحفيظ بتشجيع المقاومة ضدهم ، ولهذا استبدلوا به مولاي يوسف ، في آب ١٩١٢ • وبقيت مناطق الاطلس الأوسط والريف

حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، مراكز المقاومة الرئيسية في البلاد ، حيث ظهر الأمير عبد الكريم الخطابي [1] . وقد هزمته قوة عسكرية فرنسية ـ اسبانية مشتركة ، في عام ١٩٢٥ ، وكذلك قضي على المقاومة في الأطلس الأوسط في عام ١٩٣٤ [2] .

اشترك في مقاومة الاحتلال الايطالي لليبيا [3] كل من الأتراك ، والزعماء الدينيين ، وعلى رأسهم السنوسيون ، وزعماء العشائر . وكان شيخ الطريقة السنوسية السيد أحمد الشريف قد سمح لقائم مقام عثماني ، في عام ١٩١٠ ، بالاقامة في الكفرة ، مقر الطريقة ، وبرفع العلم التركي فيها ، رغم كره السنوسيين المبدأي لأفكار جمعية الاتحاد والترقي . وقام زعيم بربري ، يدعى الشيخ سليمان الباروني ، في عام ١٩١١ ، بجمع ألف متطوع من جبل نفوسا والالتحاق بالضابط التركي نشأت باشا ، الذي كان قد أخلى طرابلس . وتأسست ثلاث معسكرات لتتولى أمر الدفاع عن برقة : قرب بنغازي ، حيث كان عزيز علي المصري قائد الحامية التركية ، وقرب درنة ، حيث كان القائد أنور باشا ، بمساعدة أتاتورك المستقبل ، وشرقي برقة ، حيث تولى القيادة أدهم باشا الحلبي . وفي عام ١٩١٢ أرسل أنور باشا ثلاثمائة وخمسة وستين من أبناء مشايخ البدو الى استانبول لتدريبهم عسكرياً فيها . ولكن انسحاب تركيا من القتال واعترافها بالاحتلال الايطالي لليبيا في عام ١٩١٢ ، شل حركة المقاومة ، بعد أن أظهرت بطولات كبرى في المعارك التي دارت مع الايطاليين ، في عامي ١٩١١ و١٩١٢ ، قرب درنة وبنغازي . ويذكر أن أنور باشا ، قبل مغادرته برقة ، زار السيد أحمد الشريف في الجغبوب ، وأبلغه : « اسناد أمر

---

١ ـ أنظر حول ثورته : الدكتور محمد خير فارس ، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب ، ٤٢٩ .

٢ ـ أنظر حول تفاصيل هذه الأحداث : المصدر السابق ، ٣ـ٧٠ ، وانظر كذلك Abun-Nasr, 354-358; A. Nouschi, "North Africa in the period of colonization", *The Camb. Hist. of Islam*, Vol. II, 319-320; Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord*, 732-743.

٣ ـ أنظر ص ٤٦٠ .

الأمة الليبية الى سيادته واخباره بأن الخليفة منح الأمة الطرابلسية (أي الليبية) استقلالها تاركاً لها الحق في أن تقرر مصيرها وتدافع عن نفسها» • ويمكن اعتبار هذه الحادثة بدءاً لاستقلال الامارة السنوسية [1] •

وقع عبء قيادة الثورة ضد الايطاليين ، بعد انسحاب الأتراك ، الى حد كبير على الزعامة السنوسية • واقتصر دعم البلاد العربية ، وخاصة مصر ، على بعض المساعدات المالية والطبية ، والتطوع الفردي • وبدا السنوسيون ، في مطلع الاحتلال ، على مستوى المسؤولية اذ أوقعوا خسائر كبيرة بالايطاليين في موقعة قرب درنة ، في ١٦ أيار ١٩١٣ • وكان يقود العمليات السيد أحمد الشريف بنفسه • ولكن القوة السنوسية تركزت في برقة ، والى الغرب منها حيث مارس السنوسيون نفوذاً كبيراً على قبيلة أولاد سليمان • وكان نفوذهم الى الغرب من ذلك ضئيلا • وقد اشتهر في منطقة طرابلس ، عدد من الزعماء ، في أعقاب انسحاب الأتراك ، كان أبرزهم رمضان السويحلي (ويعرف أيضاً بالشتيوي) ، في مصراته ، وأحمد المريض في طرهونة ، وأسرة كعبار في غريات ، وسليمان الباروني في جبل نفوسا • وعندما أعلن الأتراك استقلال ليبيا (بمعنى آخر التخلي عنها للايطاليين) ، في عام ١٩١٢ ، أعلن سليمان الباروني اقامة حكومة وطنية في طرابلس تحت رئاسته ، وبذلك رفض السيادة السنوسية ، ولكنه فشل في الحصول على دعم الزعماء الآخرين له • ولكن الايطاليين أخذوا بالتوسع باتجاه الجنوب ، واضطر الباروني الى مغادرة ليبيا الى استانبول • وقد عاد الى طرابلس ، فيما بعد ، يحمل فرماناً من السلطان بتعيينه حاكماً على طرابلس ، وجعل مقره في العزيزية • وتوغل الايطاليون في جبل نفوسا حتى الحدود التونسية ، واحتلوا مراكز هامة في فزان ، بما فيها مرزوق ، ولكن عنف المقاومة ، بقيادة السنوسيين ، أجبرهم على الانسحاب منها في عام ١٩١٤ • وعندما نشبت الحرب العالمية الاولى كانت المناطق

---

١ ــ انظر : زيادة . ليبيا في العصور الحديثة ، ٨٤ •

الداخلية في ليبيا مستعصية على الاحتلال الايطالي ، وتمتع السنوسيون ، ابان الحرب ، بدعم تركي وألماني زاد من مقاومتهم للايطاليين • [1] وكان ضروريا توحيد النضال تحت زعامة واحدة ، ولم يتم ذلك حتى عام ١٩٢٢ ، حين بويع السيد محمد ادريس السنوسي أميراً على برقة وطرابلس ، مما زاد في عنف المقاومة للايطاليين • وقد ناب عنه في قيادة الثائرين ، منذ عام ١٩٢٣ ، السيد عمر المختار ، وهو زعيم قبلي ومن أفراد الطريقة السنوسية • وحين استقلت ليبيا في عام ١٩٥١ ، أعلن محمد ادريس السنوسي ملكاً عليها [2] •

الحركات الاصلاحية والوطنية في مصر • ـ كانت هناك ثلاثة تيارات تعمل للاصلاح في مصر ، في القرن التاسع عشر : الاسرة العلوية ، التي قامت بالاصلاح من الاعلى ، في مطلع عهدها ، ليس حباً بالاصلاح وانما لتوطيد سيطرتها ، وقادة الحركات الوطنية ، وبعضهم تأثر بالأفكار الاوربية ، ودعاة الاصلاح الدينيون ، الذين حاولوا ، من خلال مطالبتهم باصلاح المنظمات الدينية والتوفيق بينها وبين الافكار الحديثة ، اثارة تيار اصلاحي ديني ينافس ، وأحياناً يدعم ، الحركات الوطنية • ولاشك أن التيارات الثلاثة كانت متداخلة مع بعضها حتى اذا ما فرض الاحتلال الانكليزي على مصر اتضح منها تياران رئيسيان : أحدهما متعاون مع الاحتلال ، ويضم الاسرة العلوية وعدد من السياسيين ، وثانيهما مشبع بالحركة الوطنية المناوئة للاحتلال •

وكانت المنظمات ، التي تمثل فيها بعض قطاعات الشعب ، قد ظهرت بشكلها الحديث [3] ، ابان الاحتلال الفرنسي لمصر (١٧٩٨ ـ ١٨٠١)،

---

١ ـ انظر حول هذه الاحداث : Abun - Nasr, 310-312 ؛ زيادة ، ليبيا في العصور الحديثة ٨٤ ـ ٨٧ •

٢ ـ انظر بشأن تفاصيل هذه التطورات ، التي تخرج عن نطاق دراستنا ، زيادة ليبيا في العصور الحديثة ، ٨٧ـ١٨٨ ؛ Abun - Nasr, 378-392

٣ ـ وجدت دواوين ، على الطريقة التقليدية ، خلال القرون الثلاثة الاولى من الحكم العثماني •

حين اسس نابليون عدة دواوين ، من اشهرها الديوان العام ، الذي عين فيه اعضاء من العلماء والتجار والاقطاعيين • وليست اهمية هذا الديوان فيما حققه ، بل في الفكرة التي هدف اليها من الربط بين مصالح الاحتلال والطبقات المتميزة في المجتمع • كما انه اكد نفوذ هذه الطبقات امام الشعب، وان يكن اثار شكوك البعض في وطنيتها •

وقد أقام محمد علي باشا في عام ١٨٢٩ مجلس الشورى، وكانت مهمته استشارية وآراؤه غير ملزمة • وكان يجتمع مرة واحدة في السنة لمدة يوم أو اكثر ، ويناقش القضايا التي تتعلق بالادارة والتعليم والاشغال العامة • ومع أن محمداً علياً أعجب بالتطور الأوربي فأدخل النظم الحديثة الى مصر – وكان هذا المجلس الاستشاري على غرارها – فانه لم يسمح للاوربيين ان يملوا عليه ارادتهم ، فهو السيد بلا منازع في بيته • واعتبر الخبراء الأجانب موظفين حكوميين ، وكان دائماً حذراً من خطط الاجانب على مصر • وقد اجاب الذين فاتحوه بحفر قناة السويس انه لا يريد ان يرى بوسفوراً ثانياً في بلاده •

وانعكس الأمر في عهد الخديوي اسماعيل الذي ازداد في عهده التدخل الاوربي في شؤون مصر الى حد كبير • ولم يرَ مانعاً من انشاء مجلس نيابي كعادته في ادخال كل شيء غربي • وقد انشأ مجلس شورى النواب في عام ١٨٦٦ • ويلاحظ عليه انه لم تكن له سلطة قطعية في اي امر من الامور ، فقراراته رغبات ترفع الى الخديوي • وكان عدد أعضائه خمسة وسبعين ينتخبهم الاعيان لمدة ثلاث سنوات ، وما دام حق الانتخاب قد حصر بهم ، فقد اسفرت الانتخابات عن نواب من العمد والاعيان حتى يصح ان نسميه مجلس الاعيان • وكان يجتمع شهرين في كل سنة ، وجلساته سرية • ولم تكن له سلطة على الشؤون المالية ، وهذا نقص كبير اذ لو تمتع بمثل ذلك لامكن وضع حد للقروض الاجنبية ، وبالتالي التدخل الاجنبي •

لقد ذكر ان من اهداف اسماعيل في دعوة مجلس شورى النواب

السيطرة على العمد والاعيان ، الذين شكلوا غالبية الاعضاء فيه ، واقامة جبهة موازنة للنخبة التركية ـ الشركسية ، واضفاء واجهة دستورية على حكمه لكسب عطف الدول الاوربية . ورأى اسماعيل ان مجلس شورى النواب سيكون مظهراً جديداً من مظاهر أبهته . وجاء المجلس فعلا فلم يخيب ظنه اذ افتتحت الجلسة الاولى يوم الاحد ٢٥ تشرين الثاني ١٨٦٦ برئاسة اسماعيل راغب باشا وبتلاوة خطبة العرش التي جاء فيها : « من المعلوم ان جدى المرحوم حين تولى مصر وجدها خالية من آثار العمار ووجد اهلها مسلوبي الامن والراحة فصرف الهمم العالية لتأمين الاهالي وتمدين البلاد بايجاد الاسباب والوسائل اللازمة لذلك ... الى ان قدر الله تعالى تسليم زمام ادارة حكومتها الى يدي ومن حين ما تسلمته لهذا الآن رأيتم دوام سعيي واجتهادي في اكمال ما شرعاه من المقاصد الخيرية ... وكثيراً ماكان يخطر ببالي ايجاد مجلس شورى النواب لانه من القضايا الملحة التي لاينكر نفعها ومزاياها ان يكون الامر شورى بين الراعي والرعية كما هو مرعي في اكثر الجهات وكما ورد بقوله تعالى « وامرهم شورى بينهم »[1] .

وكان الجواب على خطبة العرش كله اعتراف بفضل الاسرة العلوية على مصر « بعد أن قاسى أهلها من الذل والمسكنة ما صاروا به في غاية الحقارة »[2] . اما التعرض للوضع المالي القاسي ، وارهاق الفلاحين بالضرائب لاتمام حياة البذخ ، ومساس امتياز قناة السويس باستقلال مصر فذلك غير وارد اطلاقاً . وفي الدورة الثانية للمجلس ، في عام ١٨٦٨ ، اثار النواب لاول مرة قلقهم للحالة المالية ، فقدمت لهم ارقام غير صحيحة عن الموازنة ، وذكر ان هناك وفراً فيها . وعطلت الحياة النيابية في عامي ١٨٧٤ و ١٨٧٥ ، ولم يحرك النواب ساكناً لدعوة المجلس للانعقاد ، لاسيما والاحداث المالية تستدعي ذلك . ولكن عام ١٨٧٦ كان حاسماً في تاريخ

---

١ ـ الرافعي عصر اسماعيل ، ج ٢ ، ٨٥ .
٢ ـ المصدر السابق ، ٨٧ .

الحياة النيابية[1] اذ ظهرت فيه المعارضة بفضل رجال الفكر من ادباء وصحفيين ، لاسيما واسهم قناة السويس قد بيعت بثمن بخس في ١٨٧٥[2] وأخذت طلائع التدخل الأجنبي تغزو البلاد بوصول لجنة كيف (Cave) في اوائل عام ١٨٧٦ ، لدرس الوضع المالي[3] .

ورغم تعدد الاهداف التي من اجلها انشيء مجلس شورى النواب ، فقد افاد في زيادة ثقة اعضائه بانفسهم، وبأنه مرحلة في طريق انتزاع تنازلات اكبر من الخديوي والحد من سلطته . وتحت تأثير ضغوط مختلفة ، وطنية وأجنبية ومالية ، لتقييد سلطته المطلقة ، أصدر الخديوي في ٢٨ آب ١٨٧٨ أمراً بالفرنسية بانشاء مجلس النظار (الوزراء) . وشكل نوبار باشا اول وزارة[4] ، وعين فيها وزيران اوربيان للمالية والاشغال العامة . وسرعان ما تبين للمصريين ان الوزارة الجديدة أجنبية أكثر منها مصرية. واشتدت النقمة في صفوف الشعب ، مما دعا الى عقد اجتماع في دار السيد البكري نقيب الاشراف ، ثم في دار اسماعيل راغب باشا ، وزير المالية السابق ، حضره الاعيان والعلماء والتجار ، وسمته الصحف بالجمعية الوطنية تشبيهاً له بما حصل في فرانسا . وطالبوا بتأليف وزارة وطنية بدون اجانب، وبتسوية الديون بطريقة معقولة ، وانشاء نظام دستوري تكون الوزارة بموجبه مسؤولة أمام مجلس النواب . ورفعوا مطالبهم في «لائحة وطنية» الى الخديوي ، بعد ان وقع عليها عدد من الاعيان ورجال الدين ، المسلمين والمسيحيين، والتجار والضباط والموظفين وغيرهم . وقبل الخديوي اسماعيل اللائحة ، وكلف شريف باشا بتأليف وزارة جديدة تحقق ماجاء في اللائحة

---

١ ـ انظر حول الحياة النيابية في عصر اسماعيل : الرافعي ، عصر اسماعيل ، جـ ٢ . ٧٨ ـ ١٦٤ .

٢ ـ انظر ص ٤٤١ .

٣ ـ انظر :
J. Landau, *Parliaments and Parties in Egypt*, New York, 1954, 7-40.

٤ ـ انظر : احمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسالة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ٦٤ ـ ٦٥

الوطنية . وجاء في كتاب التكليف ما يلي : «اني بصفة كوني رئيس الحكومة ومصريا أرى من الواجب علي أن أتبع رأي الأمة وأقوم بأداء ما يليق بها من جميع الأوجه الشرعية ، لكنني لما نظرت السير الذي كانت عليه النظارة السابقة حصل لي غاية الاسف من ان ذلك السير كان على غير رضا الملة والاهالي حتى نشأ منه اضطراب ونفور سري في جميع القلوب وحركها . وقد وكلتكم بتشكيل هيئة النظارة بناء على الارادة الصادرة في ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ وان تكون تلك النظارة من أعضاء أهليين مصريين .. مكلفون بالمسؤولية لدى مجلس الامة » . ويعتبر هذا الكتاب خطوة هامة في تاريخ الحركة الوطنية اذ أن الخديوي اعترف بوجوب اتباع رأي الامة . وأشاد بوطنيته حين نص على عدم ادخال أوربيين في الوزارة ، كما نص على مسؤولية الوزارة أمام مجلس النواب لضمان مسؤولية السلطة التنفيذية أمام التشريعية . وبقي هذا المبدأ حتى الاحتلال الانجليزي ليعود من جديد في دستور عام ١٩٢٢ .

وحين عزل الخديوي اسماعيل في حزيران ١٨٧٩، حل مجلس شورى النواب في الشهر التالي . وسعى الخديوي الجديد ، توفيق ، الى تقوية سلطته ، ولكن السلطة الفعلية قد أصبحت في أيدي الدول الاجنبية ، وخاصة بريطانيا . وبلغت الحركة الوطنية ذروتها في ثورة أحمد عرابي ورفاقه ، ودعم الشعب لهم[1] .

نتبين مما سبق أن محاولة الاسرة العلوية القيام بالاصلاح من الأعلى، واقامة مجلس نواب ومجلس وزراء ، في محاولة لتحديث الحكم ، وامتصاص النقمة العامة ، والهاء الشعب ، وكسب الطبقات البورجوازية المثقفة والاقطاعية الى جانبها ، قد فشل في منع الحركة الوطنية من الانتشار في صفوف الجماهير ، واصطدامها ، في عام ١٨٨٢ ، بالخديوي وسلطات الاحتلال .

---

١ ـ انظر ص ٤٩٩ .

واذا استعرضنا تاريخ الحركة الوطنية في مصر لوجدنا آنها تبدت ، في أواخر القرن الثامن عشر ، برد الفعل ضد عجوم نابليون • كما يبدو أن حركة مصرية موجهة ضد الاتراك هي التي مهدت لمحمد علي بالوصول الى السلطة • وبالرغم من أن محمداً علياً جنّد الفلاحين المصريين ، وهيَ أول محاولة من نوعها منذ قرون ، فقد أغلقت المراتب العليا في وجوههم• وقد أفاد المصريون من الحركة التعليميــة التي نشطت في عهد محمد علي باشا ، وخاصة ارسال البعوث الطلابية الى أوربا ، في محاولة منه لايجـاد الكوادر للجيش والبيروقراطية • وأخـذت الثقافـة الاوربية بالانتشار في مصر ، وخاصة بواسطة الترجمة ، وأنشئت في عام ١٨٣٦ مدرسة الالسن بادارة رفاعة الطهطاوي ، الذي لعب دوراً هاماً في نشر التراث الغربي في مصر ودعا الى اقامة النظام البرلماني فيها[١] •

ولد رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١–١٨٧٣) في السنة التي جلت فيها الحملة الفرنسية عن مصر • وهــو ينحدر من أسرة علم أقامت في مدينة طهطا في مصر العليا ، ومن هنا تسميته بالطهطاوي • وقد بدأ حياته العلمية تلميذاً في الجامع الازهر،ثم عيّن اماماً لاحدى الفرق العسكرية فيالجيش الجديد الذي أنشأه محمد علي باشا • وما لبث أن أرسل في عام ١٨٢٦ الى باريس امامــاً لاول بعثة تعليمية أرسلها محمد علي للدراسة في أوربــا • وكان تأثير باريس في تفكير رفاعة الطهطاوي بالغاً ، فقد مكث فيها خمس سنوات ــ حتى عام ١٨٣١ ــ وشهد الثورة التي جرت فيها في عام ١٨٣٠ ــ تلك الثــورة التي يقول عنهــا أنها أدّت الى عزل الملك لخرقه الدستور ومحاولته تعليــق الحريات التي ضمنها • ومــع ان الطهطاوي أرسل الى باريس ليكون اماماً لطلاب البعثة وليس طالباً مثلهم فقد أقبل على الدراسة بشغف وأفاد منها ، كما يبدو ، أكثر من أي منهم • وأتقن اللغة الفرنسية

---

١ ــ انظر حول تطور الحركة القومية ونظام الحكم في مصر منذ حملة نابليون بونابرت وحتى نهاية عهد محمد علي باشا ، عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية في مصر ، ٣ اجزاء ، القاهرة ، ١٩٢٩ ــ ١٩٣٠

وقرأ لمشاهير كتاب العصر مثل راسين وفولتير وروسو و منتسكيو • والتقى في باريس بأعظم مستشرقي أوربا،واطلع على المكتشفات الحديثة عن تاريخ مصر القديمة ، بعد أن كان هذا التاريخ كتاباً مغلقاً الى أن أكتشف الحل الصحيح لرموز كتابة المصريين القدماء الهيروغليفية • وقد حفزت هذه الاكتشافات الآثارية الطهطاوي على التغني بمجد بلاده القديم •

وبعد أن عاد الطهطاوي الى مصر نشر في عام ١٨٣٤ وصفاً لاقامته في باريس في كتاب عنوانه : تخليص الابريز الى زيارة باريس ، وسرعان ما ظهرت ترجمة تركية لهذا الكتاب في عام ١٨٣٩ • وقد وصف الطهطاوي في كتابه هذا ما رآه في فرانسا من عادات وتقاليد ، وعلّق أهمية كبرى على دور الصحافة كواسطة لنقل المعرفة والافكار • وشرح باسهاب نظام الحكم البرلماني ، ونشر في كتابه ترجمة كاملة للدستور الفرنسي مع تعليقاته عليه•

وقد عمل الطهطاوي في ميدان الترجمة في مصر ، وعين في عام ١٨٣٦ مديراً لمدرسة الالسن التي أنشأها محمد علي باشا لتدريب الطلاب • وضمّت مناهج المدرسة دراسة اللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية والانكليزية والايطالية ، الى جانب تدريس الأدب والتاريخ والجغرافية والقانون • وفي عام ١٨٤١ أسس معهد للترجمة ألحق بمدرسة الألسن ووضع تحت اشراف الطهطاوي • ويُذكر أن الطهطاوي وطلاب هذه المدرسة قد ترجموا حوالي ألفي كتاب من اللغات الاجنبية الى العربية •

ويبدو أن الطهطاوي قد أثار حقد الخديوي عباس الاول عليه فنُقل في عام ١٨٥٠ الى الخرطوم ، وكُلّف بفتح مدرسة ثانوية فيها • واعتبر الطهطاوي السنوات الاربع التي أقصي فيها عن مصر بمثابة نفي له • وشغل نفسه خلالها بترجمة مغامرات تليماك Télémaque للكاتب فنيلون Fénélon التي احتوت على نقد لاذع لطغيان الملك لويس الرابع عشر في فرانسا ، وفيها عبرة للطغاة ومن بينهم الخديوي عباس •

وقد أتيح لرفاعه الطهطاوي العودة الى مصر اثر وفاة عباس في عام

١٨٥٤ ، فترأس من جديد مدرسة الالسن فيها ، وشجّع الصحافـة • ثم عُيّن رئيساً لتحرير جريدة الوقائع المصرية ، واستمر حتى وفاته في ١٨٧٣ يتمتع بتأييد حكام مصر • وأسهم في وضع نظام جديد للتعليم •

لقد ترجم الطهطاوي عدداً من المؤلفات الغربية المشهورة الى العربية، من بينها مؤلفات لفولتير ومنتسكيو • وخطّط لكتابة تاريخ عن مصر منذ أقدم العصور ولكن لم يظهر منه سوى مجلدان • ووضع مؤلفاً في التربية بعنوان : المرشد الامين للبنات والبنين • ويعتبر الطهطاوي أول داعية لتعليم المرأة في مصر ، بل في الشرق العربي كله • ولعل أشهر كتبه ، الى جانب تخليص الابريز الى زيارة باريس ، كتاب مناهج الالباب المصرية في مباهج الآداب العصرية •

امتازت كتابات الطهطاوي بدعوته للوطنية • وكـان شعاره « حب الوطن من الايمان » • وقد ذكر أن الهدف الاسمى من التعليم تكوين الشخصية وغرس حب الوطن في نفوس الشباب ـ ذلك الحب الذي يؤدي الى بناء المجتمع الصالح• والوطنية، بالنسبة لرفاعة الطهطاوي ، هي الرابطة التي تشد النظام الاجتماعي الى بعضه • وعرّف أبناء الوطن بأنهم أولئك الذين توحد بينهم لغة واحدة ، وعادت وصفات واحدة ، ويخضعون لدولة واحدة وقانون واحد،واستشهد بالذين عاشوا وضحّوا فيسبيل أوطانهم• لقد شهد الطهطاوي ثورة ١٨٣٠ في فرانسا ورأى بنفسه كيف بذل الفرنسيون أرواحهم في سبيل وطنهم وحريتهم • يقول رفاعة « وارادة التمدن للوطن لا تنشأ الا عن حبه من أهل الفطن كما رغب فيه الشارع ففي الحديث حب الوطن من الايمان ••• وقال بعض الحكماء لولا حب الوطن لما عمرت البلاد الغير مخصبة، وقال الاصمعي دخلت البادية فنزلتُ على بعض الاعراب فقلت له أفدني فقال اذا أردت أن تعرف وفاء الرجل وحسن عهده ومكارم أخلاقه وطهارة مولده فانظر الى حنينه لاوطانه وشوقه الى اخوانه »[١] •

---

١ ـ مناهج الالباب المصرية في مباهج الآداب العصرية ، القاهرة ، ١٢٨٦ هـ ، ص ٧ •

وقد امتدح الطهطاوي العرب وأشاد بالدور الذي لعبوه في التاريخ ، فهو يقول « ان العرب أكثر الامم شجاعة ومروءة وشهامة ولسانهم أتم الألسنة بياناً وتمييزاً للمعاني جمعا وفرقا يجمع المعاني الكثيرة في اللفظ القليل » [١] .

وألح الطهطاوي على أن الغنى القومي هو نتيجة الفضيلة ، وأكد أن العمل هو أساس الغنى ، وذكر أن طائفة الملاك تجني الأرباح من الزراعة وتحتكر منتجاتها ، وتدفع نسبة ضئيلة من الارباح للعمال [٢] .

ولم تكن وطنية الطهطاوي من النوع الثوري ، بل كان موالياً لأسرة محمد علي ، وكل ما طلبه من حكامها أن يلتزموا حدود القانون ، ويحترموا حقوق المواطنين ، وذلك أشبه بالمستبدين المستنيرين . ومزج الطهطاوي بين الحاكم والوطن . وفي عام ١٨٥٥ نشر قصيدة وطنية مصرية امتدح فيها الحاكم الجديد سعيد باشا . ونشر في العام نفسه منظومات وطنية مصرية امتدح فيها الفرقة العسكرية المصرية التي اشتركت في حرب القرم الى جانب القوات التركية . ووجد الخديوي ، من ناحيته ، في دعوة الطهطاوي الى الوطنية المصرية دعماً لمركزه ومطامحه السلالية . وأدى نبش تاريخ مصر القديم ، اثر اكتشاف الهيروغليفية ، والتغني بالامجاد الماضية الى انتشار الفكرة الفرعونية . وانسجاماً مع هذه الفكرة بدأ الطهطاوي بكتابة تاريخ مصر منذ أقدم العصور وليس منذ انتشار الاسلام فيها ، كما فعل كثير من سابقيه . وكتب قصائد امتدح فيها الفراعنة [٣] .

ولم يلق المصريون اهتماماً في عهد عباس باشا ، اذ اعتمد على مزيج

---

١ ـ المصدر السابق ، ١٠٠ .

٢ ـ أنظر المصدر السابق ، ٦٨ـ٧٥ .

٣ ـ أنظر حول الطهاوي : جمال الدين الشيال ، رفاعة رافع الطهطاوي ، القاهرة ، ١٩٥٨ ؛ أحمد احمد بدوي رفاعة الطهطاوي بك ، القاهرة ، ١٩٥٠ ؛ عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، القاهرة ، ١٩٤٧ ؛ وانظر كذلك :
K. al-Husri, *Three Reformers,* Beirut, 1966, pp. 11-31; A. Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age,* 1798-1939, O-U-P 1962, 69-83.

من الاتراك والعلماء ، وشجع العنصر الالباني في الجيش . واختلف الوضع نسبياً في عهد سعيد باشا حين أكد ، في كثير من خطاباته ، على المصريين ، مغيظاً بذلك الاتراك ، ورفع كثيراً من المصريين الى المراتب العليا . وجاء اسماعيل فمال في أول عهده الى الاوربيين والاتراك مما اقتضى اضطهاده للشعب ، ثم انقلب مضطراً في آخر حكمه الى صف الشعب ضدالاجانب. وكان من نتائج السياسة الغربية التي اتبعها وكثرة القروض التي أرهق بها الشعب ومقاومته للمصريين أن ثار الضباط واحتج الملاكون والاعيان . ولكن مثل هذه الجهود الفردية المبعثرة المنبثقة عن الطبقات العليا لا يمكن أن تؤتي أُكُلها ما لم يساندها الشعب . وقد أخذ هذا يتحرك بفعل الضرائب الثقيلة التي وضعها عليه اسماعيل لسد نفقاته وقروضه ، وبعد ما رأى من تدخل الاجانب في بلاده . وسمعت صيحة « مصر للمصريين » منذ ١٨٧٨ .

ولا بد هنا من القاء نظرة على الاصلاحات التي أدخلت في مصر ، في هذه الفترة ، متممة ما جرى منذ عهد محمد علي باشا ، ولكنها الآن لم تكن بارادة الحاكم وصنعه بمفرده ، كما في السابق ، بل تمت تحت ضغط المطالب الشعبية الملحة . وقد نشطت في عهد اسماعيل النهضة التربوية والعمرانية والأدبية، التي لعبت دوراً هاماً في تطور الحركة الوطنية في مصر . ويمكن القول أن النهضة التعليمية بدأت فعلاً في عهد اسماعيل ، فقد فصل المدارس عن وزارة الدفاع ، لان انشاءها أصلاً ، في عهد محمد علي، كان بهدف تأمين جيش مدرب حديث ، وليس تثقيف الشعب . وقد أحدثت في عهده وزارة للتربية ، وكان أبرز من شغلها علي باشا مبارك ، صاحب كتاب الخطط الجديدة ، الذي يبحث في أحوال مصر في القرن التاسع عشر .

وفي عام ١٨٦٨ أصدر اسماعيل قانون المعارف الذي نص على انشاء المراحل التعليمية الثلاث : الاولية والاعدادية والعالية ، فالاولية شملت مراكز المقاطعات ، بما فيها المدن والقرى ، والثانوية القاهرة والاسكندرية،

أما العالية فاقتصرت على القاهـرة فقط • كما أنشئت مدارس اختصاصية للموسيقى والزراعة والقانون والطب وغيرها•ووصلت المدارس العسكرية والبحرية الى مستوى رفيع•وافتتحت أول مدرسة للاناث في الشرق عام ١٨٧٣ من قبل الخديوي ، كما أنشأت البطريركية القبطية مدرستين للبنات•ومما يجدر ذكره أن الدولة كانت تنفق على طلاب المدارس بمختلف أنواعها[١]• وقد أمر الخديوي اسماعيل بانشاء أول مكتبة وطنية ، بجمع بقايا المكتبات القديمة في مكان واحد ، وسميت المكتبة الخديوية•وأضحت دراسة تاريخ مصر علماً قائماً بذاته ، وشيد متحف وطني لحفظ آثار مصر القديمة •

وكان اصلاح القضاء من الامور الهامة التي تمت في عهد اسماعيل،فأعاد للمصريين كثيراً من حقوقهم،ولقوانين البلاد كثيراً من احترامها ، ان لم يكن احترامها كلـه • فقد كانت المحاكـم القنصلية ، بموجب نظـام الامتيازات (Capitulations) [٢]،من أسوأ ما بقي بعد عهد محمد علي،وهي من جملة الامتيازات التي ضمنها الباب العالي للدول الاوربية في الممتلكات التركية• وعندما ضعفت الرقابة الحكومية في عهد اسماعيل أخذ الأوربيون المتوافدون الى مصر للعمل فيهـا يدعون بامتيازات تضعهم فوق قانون البلاد • ويعود الفضل في اصلاح القضاء في مصر الى وزير اسماعيل الارمني نوبار باشا،الذي وضع في ١٨٦٨ منهاجاً لاصلاح القضاء • وكان يقول بأن القضاء يجب أن يصدر عن الحكومة ، وأن يكون مستقلاً عنها ، وعن المحاكم القنصلية في الوقت ذاته • ولذلك عمل على انشاء محاكم مصرية مختلطة [٣]• وبالرغم مما لهذه المحاكم من مساوىء الا أنها كانت خطوة تقدمية بالنسبة للمحاكم القنصلية آنذاك ، وحثت الحكومة على الاسـراع بتشكيل محاكم وطنية ، فأنشئت لأول مرة في ١٨٨٣ • وقد نصت المحاكم المختلطة على صلاحيتها في

---

١ ـ انظر حول التعليم في عهد اسماعيل : عبد الرحمن الرافعي ، عصر اسماعيل ، جزءان القاهرة ، ١٩٤٨ ، جـ ٢ ، ١٩٧ـ٢٠٦ •

٢ ـ انظر ص ٤٤٠ •

٣ ـ انظر : الرافعي ، عصر اسماعيل ، جـ ٢ ، ٢٤٠ـ٢٤٨ •

محاكمة الخديوي وأعضاء الاسرة الحاكمة في القضايا التي تمس مصالح الاوربيين • وتساهل الخديوي بذلك ليدلل على احترامه لالتزامه تجاه دائنيه من الاجانب وليشجعهم على عقد القروض • وفي الحقيقة ، فقد شلت هذه المحاكم الحياة القضائية في الدولة ، حتى جاء اتفاق مونترو في ١٩٣٧ فألغى نظام الامتيازات ، ونص على ابقاء المحاكم المختلطة لمدة انتقالية قدرها اثنا عشر عاماً •

وبالرغم من ضائقة اسماعيل المالية فقد بنى الكثير من الابنية ليطلع عليها مدعويه الى حفلة افتتاح القناة • فجدد بناء الأزبكية، وبنى داراً للاوبرا أقام أمامها تمثالاً لابراهيم ، كما بنى قصر عابدين وجعله المقر الرسمي للخديوي • وبنى الى الشمال الغربي منه حي الاسماعيلية الجديد ، وأقيم جسر قصر النيل ، وأعد قصر الجزيرة لاستقبال الضيوف الملكيين •

وأتم اسماعيل تمديد شبكة حديدية تبلغ ٩١٠ ميل ، وبنى أقنية للري بلغ طولها ٧,٤٠٠ ميل • ولكن أعظم عمل قام به ، بعد قناة السويس، هو بناء ميناء الاسكندرية ، لأنه عرف أن القناة ستقضي على تجارتها ، فأراد أن يعوضها عن ذلك • وأفادت هذه التسهيلات رؤوس الأموال الأجنبية التي تدفقت على البلاد في غياب رأس المال الوطني • واشترى عام ١٨٦٥ مصلحة البريد من مديرها الايطالي ، وجعلها ادارة حكومية • وأنشأ أسطولاً تجارياً ، وأقام شركة الملاحة العزيزية، وطرح أسهمها للجمهور، ولكن ، بعد رواجها ، اشترى اسهمها للدولة ، وسميت خطوط النقل الخديوية في ١٨٧٣[1] •

ونشطت الحركة الادبية في عهد اسماعيل ، فظهرت، في عام ١٨٦٨، جمعية أدبية ، باسم جمعية المعارف ، مؤلفة من كبار الموظفين والاعيان ، وأخذت على عاتقها اعادة طبع كتب التراث ، مثل تاريخ ابن خلدون ،

---

١ ـ أنظر : حول اعمال اسماعيل العمرانية : الرافعي ، عصر اسماعيل ، جـ ٢ ، ٤ـ٢٤ ، ١٥٨ـ١٦١ •

واحيـاء العلوم للغزالي وغـيرها • وأنشئت ، في عام ١٨٧٥ ، الجمعيـة الجغرافية الخديوية ، واهتمت خاصة بالاكتشافات الافريقية • وأصبحت الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » التي صدرت في عهد محمد علي ، في ١٨٢٨ ، يومية في عهد اسماعيل • وظهرت كذلك مطابع أهلية ، كالمطبعة الوطنية في الاسكندرية،والمطبعة القبطية في بولاق ، ومطبعة وادي النيل • وأخذ محمد جلال يترجم القصص الغربيـة ويمصرها أحياناً ، كما فعل باحدى مسرحيات موليير اذ عربها باسم «الشيخ متلوف» • وبدأت فرق التمثيل تجيء من بلاد الشام لتمثل على مسرح الاوبرا والازبكية ، فلمـا مثل يوسف خياط مع فرقته رواية المظلوم على مسرح الاوبرا رحب بـه اسماعيل أول الامر ، كعادته في تشجيع الافكار الحديثة، الا أنه طرده حين لمس الطعن المبطن في أقوال ممثليهـا •

وظهرت ، في عهد اسماعيل ، الصحافة السياسية ، المعارضة ، فصدرت « وادي النيـل » ، لصاحبهـا أبو السعود ، ثـم أغلقت بعد ست سنوات • وظهرت « نزهـة الأفكار » للمويلحي وفؤاد جـلال ، لتغلق بعد صدور عددين فقط•وأصدر اليهودي يعقوب بن صنوع جريدة « أبو نضارة » ، التي أدخلت الكاريكاتور في الصحافة المصرية لاول مرة • وأشارت كل هذه الصحف الى مباذل الخديوي[١] •

ولعب السوريون واللبنانيون دوراً هاماً في الصحافة المصرية في هذه الفترة•وكان أبرزهم ، في عهد اسماعيل ، أديب اسحق (١٨٥٦–١٨٨٥)، وقد درس عند الآباء العازاريين في دمشق ، واليسوعيين في بيروت ، وكتب في عدد من الصحف اللبنانية • وفي وعام ١٨٧٥ ذهب الى مصر ، حيث نبغ بين تلاميذ جمال الدين الافغاني،وأصدر جريدتي «مصر»،في عام ١٨٧٧ ، و «التجارة»،في عام ١٨٧٨•وقدكتب فيالحقوقوالواجباتوالحريةوالوطنية• والوطن ، بالنسبة لأديب اسحق ، هو المكـان الذي تضمن فيـه حقـوق

---

١ ــ انظر : حول الصحافة في عهد اسماعيل، الرافعي، عصر اسماعيل، جـ ١ ، ٢٤٧–٢٦٠ •

الانسان وتترتب عليه الواجبات تجاهه ، ولا وطن بدون حرية ، ولا حرية بدون فضيلة • وبرز أيضا اسم عبدالله النديم (١٨٤٤-١٨٩٦) ، تلميـذ الافغاني أيضا ، وكان من مشاهير الخطباء والصحافيين في مصر ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر • وقد دعم أحمد عرابي في ثورته ضد الخديوي والنفوذ الاجنبي • وكان الناطق باسم عرابي وجماعتـه إبان الاحتلال ، وتبنى قضيتهم في مجلة « الطريـق » ، وفي الصحيفة الهزليـة « التنكيت والتبكيت » • وحين فشلت ثورة عرابي ، اختبأ عبد الله النديم ، ثم اعتقل في ١٨٩١ ، ونفي الى فلسطين • وعاد الى مصر في عهد الخديوي عباس حلمي ، وأصدر فيهـا مجلـة أسبوعية باسم « الاستاذ » ، حيث هاجم الاحتـلال البريطاني ، وأدى ذلك الى طرده ، بحجة نشر الافكار الثورية • وذهب الى استانبول حيث توفي فيها • وأكد عبدالله النديم ، على غرار أديب اسحق ، على فكرة أن الوطن يضم بين ظهرانيه الاقباط والمسلمين ، على حدٍّ سواء •

وقد أسهمت التطورات التي حدثت في عهد اسماعيل ، سواء منهـا ما حدث على نطاق مجلس شورى النواب ، أو على نطاق الاصلاح في مجالات التربية والقضاء والعمران ، أو في ميادين الادب والصحافة ، أو في مجـال ازدياد النفوذ الاجنبي ، الى دفع الحركة الوطنية خطوات الى الأمام • وعلى خلاف الحركة الوطنية في بلاد الشام ، في الفترة ذاتها ، التي كانت قومية عربية ، ولا تعود الى جـذور أقدم من العروبة ، رغم قـدم تاريخ المنطقة وأهمية منجزاتها الحضارية ، والتي كانت علمانية ، منشأً وفكراً وواقعاً ، فان الحركة الوطنية في مصر ، التي استمدت مـن الفكرة الفرعونية بعض مقوماتهـا ، اندمجت ، الى حـد كبير ، بحركـة الجامعة الاسلامية التي عاصرتها ، ودعا اليها كل من جمال الدين الافغاني ومحمد عبده • وقد توضح هذا التأثير الاسلامي في أعقاب الاحتلال البريطاني ، حين وجد الوطنيون في الدولة العثمانية ، أي في التـآخي الاسلامي ، ركيزة هامة في نضالهـم ضد المستعمر الاوربي • ولاشك أن التيار الاسلامي قد أفاد الوطنية المصرية

في عدم اندماجها بالفرعونية ، وكذلك في شد أزرها في النضال ، ولكنه بالمقابل طبعها بطابعه منذئذ •

أثار جمال الدين الافغاني ، الذي كان « يوزع السعوط بيمناه والثورة بيسراه » ، نقمة الشعب ضد الاسرة العلوية المتعاونة مع الاجنبي ، وخاطب أبناء الشعب بقوله : « لو كان في عروقكم دم وفي رؤوسكم أعصاب لما رضيتم بهذا الذل » • ويعتبر جمال الدين (١٨٣٩-١٨٩٧) ، الذي شاعت نسبته بالافغاني ، من زعماء الاصلاح الاسلامي الداعين للجامعة الاسلامية ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر • وقد درس العلوم الاسلامية في أفغانستان ، وحج في عام ١٨٥٧ ، ثم أقام خلال فترات في الهند ومصر وفارس وتركيا • وأمضى بضع سنوات في فرانسا وروسيا ، كما أنه زار لندن• وقد عاش في مصر ثمان سنوات ، بين ١٨٧١-١٨٧٩، ومنحته الدولة مرتباً شهريا تكريماً له• وقد دعا الى وحدة وطنية لمقاومة التدخل الأجنبي، والى وحدة اسلامية أوسع ، حيث يحد الدستور من سلطة الحاكم • ولم ينكر الافغاني أهمية الروابط القومية ، وقال بأهمية اللغة في انشاء مجتمع مترابط • وارتاد حلقة تدريسه في الازهر محمد عبده وسعد زغلول ، وكان يدرس الشبان فن الخطابة والصحافة • وحين عزل اسماعيل ، طرد خلفه الخديوي توفيق الافغاني من مصر ، فذهب الى الهند ، ثم الى باريس في عام ١٨٨٤ ، حيث أصدر مع محمد عبده مجلة العروة الوثقى ، ودعيا على صفحاتها الى مقاومة التدخل الاجنبي •

وقد دعا الافغاني الى توحيد العالم الاسلامي في ظل خليفة ، تركياً كان أم أفغانيا أم مصريا ، شريطة أن يتمتع بسلطة قوية • وطالب الشعوب الاسلامية أن ترتفع الى مصاف الامم الحرة والمتطورة ، عن طريق التعلم وملاءمة الدين مع متطلبات العصر ، ولكنه اعتقد بحتمية العمل الثوري كوسيلة للوصول الى هذه الاهداف • وكلما فقد ثقته في حاكم هاجمه بعنف • وقد حاول ، في أوقات مختلفة ، التعاون مع الخديوي والشاه والسلطان العثماني ، لكنه اصطدم معهم جميعا • وأمضى حياته يبحث عبثاً

عن حاكم مسلم يكون عنده أشبه ببسمارك أو كافور • واذا كان الافغاني قد أخفق في حياته السياسية فان وقوفه الى جانب الشعب في معارضة ظلم الحكام والتدخل الاجنبي شد من أزر الحركة الوطنية[١] •

وعندما غادر جمال‌الدين الافغاني مصر لآخر مرة عام ١٨٧٩ قال لبعض أصدقائه من المصريين الذين خرجوا لوداعه في السويس أنه يترك لهم الشيخ محمد عبده ، فهو يكفي مصر كعالم •

عاش محمد عبده في الفترة بين ١٨٤٩ و ١٩٠٥ ، وكان مصرياً صميماً على نقيض الافغاني الذي لم يُعرف أصله بعد بالتأكيد • وينتسب محمد عبده الى أسرة من الفلاحين عُرِفَت بالعلم والتقى• وقد بدأ دراسته لدى الحافظ المحلي ، ثم أرسل عام ١٨٦٢ ليدرس في الجامع الاحمدي في طنطا • وكان هذا الجامع آنذاك من المراكز الثقافية التي تلي الازهر في الاهمية • وبعد أن أتمّ محمد عبده دراسته في طنطا عاد الى قريته ليعمل في الزراعة • وفي عام ١٨٦٦ استأنف دراسته في الازهر ، وما لبث أن وقع تحت تأثير الصوفية ، ثم لازم جمال الدين الافغاني ، ورافقه كظلّه •

وقد أطلع الافغاني تلميذه محمد عبده على كثير من المؤلفات والعلوم الحديثة الغربية التي كانت قد ترجمت الى العربية • وهكذا فُتِح عالم جديد أمام أعين محمد عبده،الذي سرعان ما تحوّل عن الصوفية الى الاصلاح • وبدأ يكتب في الصحف في موضوعات أدبية واجتماعية وسياسية • وكان الافغاني قد درّب طلابه على الخطابة ، وبعد فترة وجيزة فاق محمد عبده أستاذه في هذا الميدان •

وفي عام ١٨٧٧ حاز محمد عبده على درجة (عالم) من الازهر ، وما لبث أن عُيِّن مدرساً فيه•وقد عُيِّن أيضاً في العام التالي أستاذاً للتاريخ في دار العلوم ، ومدرسا للغة العربية وآدابها في المدرسة الخديوية للألسن •

---

١ _ أنظر حول مناقشة آراء الافغاني :
Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age*, 103-127.

ورغم انشغاله في التدريس في مؤسسات مختلفة، فقد بقي محمد عبده حتى آخر أيامه طالب علم • وكان هدفه ايجاد جيل جديد بين سكان مصر لاحياء اللغة العربية والعلوم الاسلامية ، ولتقويم أخطاء حكومة الخديوي التي كانت تقع بالتدريج تحت سيطرة الاجانب •

وعندما استقال الخديوي اسماعيل في عام ١٨٧٩ لصالح ابنه توفيق الذي كان يعارض سياسة الاصلاح ، قام هذا الاخير بطرد الافغاني من مصر ، وأعفى محمد عبده من وظائفه التدريسية في دار العلوم والمدرسة الخديوية للألسن ، وأمره بالتزام قريته (محلة نصر) في الدلتا • وبوساطة رئيس الوزراء رياض باشا ، الذي كان يميل الى الاصلاح ، عُيِّن محمد عبده في عام ١٨٨٠ محرراً في الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) ، وأصبح بعد قليل رئيس تحريرها •.

وقد اهتم محمد عبده ، في منصبه الجديد في (الوقائع المصرية) ، بحالة التعليم في البلاد ، ونشر نقداً لاذعاً لاوضاع المدارس والمعلمين وطرق التعليم • كما أنه لعب دوراً بارزاً في توجيه الرأي العام بكتابته سلسلة من المقالات حول الوضع الاجتماعي والاقتصادي ، وذلك إبان الازمة التي سبقت الاحتلال البريطاني لمصر في ١٨٨٢ • وما لبث محمد عبده أن رمى بثقله الى جانب الوطنيين أثناء الاحتلال • وقد حُكِم عليه من قبل سلطات الاحتلال بالنفي مدة ثلاث سنوات الى خارج مصر • فأقام عاما في بيروت ، ثم التحق بالافغاني في باريس حيث عملا معاً في سبيل القضية الوطنية • وقد أصدرا في باريس مجلة العروة الوثقى ، وأسسا فيها منظمة سرية تحمل الاسم نفسه • وقام محمد عبده بزيارة انكلترا وتحدّث الى الفيلسوف البريطاني سبنسر Spencer .

وعندما توقف صدور العروة الوثقى في باريس غادرها الافغاني الى فارس ، وتوجّه محمد عبده الى تونس • وفي عام ١٨٨٥ عاد محمد عبده الى بيروت ، وأصبح بيته فيها مقرّ العلماء والطلاب • وقام في بيروت بالقاء

محاضرات في الفقه جمعها ، بعد ذلك ، في كتاب عنوانه : **رسالة التوحيد** . وقد سمح له بالعودة الى مصر في العام نفسه ، وسرعان ما أصبح قاضياً ، ثم مفتياً ، وبقي يشغل هذا المنصب حتى وفاته في ١٩٠٥ .

لقد مارس محمد عبده أثراً كبيراً على اصلاح القانون ، كما أنه أدخل تعديلات هامة على طرق التعليم في الأزهر . وكان العامل الوطني قويا في تفكيره منذ وقت مبكر ، وقد ألحّ على دور التاريخ المشترك والمصالح المشتركة في ايجاد رابطة قوية بين أبناء الوطن الواحد . وكانت الوحدة ، بالنسبة اليه ، ضرورية في الحياة السياسية ، وأقوى أنواع الوحدة هي تلك التي تنشأ بين الذين ينتسبون الى وطن واحد[١] .

ورغم الروابط الفكرية والدينية الكثيرة التي جمعت بين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ، فاننا نلاحظ اختلافاً في مواقفهما السياسية . لقد اتصفت مواقف الافغاني بالعنف ضد الاجانب ، بينما اعطى محمد عبده الاولوية للنهوض بالاسلام والمسلمين ، عن طريق الثقافة . ورغم ان غاية محمد عبده البعيدة من دعوته للنهوض بالمسلمين انقاذ البلاد الاسلامية من براثن الاجنبي ، فقد دعا الى تقبل منجزات الغرب في العلوم والتقنية ، وحتى في مجال التربية .

ولم تكن دعوة محمد عبده الى اصلاح الاسلام والمسلمين امراً طارئاً أو فريداً في البلاد الاسلامية آنذاك،فقد رأينا [٢]كيف أنالسلطانالعثماني العثماني عبد الحميد الثاني جعل من فكرة الجامعة الاسلامية سياسة رسمية للدولة وسلاحاً استخدمه ضد الحركات القومية ، وخاصة العربية ، وضد الدول الغربية التي كانت تحتل مناطق اسلامية وخشيت اعلان السلطان الجهاد ضدها . ويذكر ايضاً ان المعارضة الاولى للسلطان ، المتمثلة

---

١ ــ انظر حول اهمية محمد عبده وافكاره : المصدر السابق ، ١٣٠ ــ ١٦٠ .
٢ ــ انظر ص ٣٨٢ .

بالجمعية العثمانية الفتاة [1] (التي كانت أقل تطرفاً من خليفتها جمعية تركيا الفتاة) ، قد تحدثت عن اتحاد المسلمين •

وشهدت الحركة الوطنية في مصر اولى تنظيماتها العسكرية في عام ١٨٧٦ حين انشئت جمعية سرية لضباط الجيش ضمت احمد عرابي وعلي فهمي وعبدالعال حلمي • وكان أحمد عرابي ، الذي اقترنت الحركة الوطنية ، لبعض الوقت ، باسمه ، من أصل فلاحي ، درس في مدرسة القرية ، ثم انتسب الى الجيش ، وأثاره احتكار الاتراك والشراكسة والألبانيين الرتب العليا في الجيش • وليدلل على اصله المحلي وعلى مصريته ، ازاء هذا الاحتكار ، اسمى نفسه أحمد عرابي المصري [2] • وقد عمل الى جانب الجماهير ، واعتقد بحكومة دستورية ، ولكنه ادرك صعوبة تحقيقها ، فقال اننا نعمل في سبيل ذلك ليس لانفسنا بل لاولادنا •

وقد بلغت نقمة الضباط ذروتها حين قررت الحكومة ، في شباط ١٨٧٩ احالة ٢٥٠٠ ضابط من الجيش على الاستيداع ، بحجة انها عاجزة عن الانفاق عليهم • واضطر نوبار باشا ، رئيس الحكومة ، الى الاستقالة في أعقاب ذلك لتهدئة الخواطر • واتسعت جمعية الضباط السرية ، في أواخر عهد اسماعيل ، فشملت بعض الأعيان وأعضاء مجلس شورى النواب ، وضمت كذلك جمال الدين الأفغاني وعبد الله النديم وسعد زغلول ، وتسمت بالحزب الوطني [3] ، وبقي العسكريون في قيادتها • وكان لها اتصال مع آخر أبناء محمد علي باشا الاحياء ، حليم باشا ، الذي كان من الممكن أن يعين خديوياً ، لكونه اكبر افراد الاسرة العلوية سناً لولا تغيير القانون في ١٨٦٦ وحصر اسماعيل الوراثة باكبر ابناء الخديوي الحاكم •

وحين قبل الخديوي اسماعيل اللائحة الوطنية التي رفعها اليه المجتمعون

---

١ ــ أنظر ص ٣٨٣ •

٢ ــ أنظر مقالتنا : « ثورات العساكر ••• » •

٣ ــ أنظر حول هذا الحزب : Landau, 84-100.

في دار البكري ، الذين شكلوا ما عرف بالجمعية الـوطنيـة[١] ، وتدخلت الدول الاجنبية لدى السلطان العثماني فاقاله ، في اعقاب ذلك[٢] ، لم يكن المقصود اسماعيل وحده بل ضرب الحركة الوطنية التي رضخ لهـا ، ممـا يدل على اشتداد قوتها • وقد علق أحمد عرابي على عزل اسماعيل قائلا : « كان من الافضل لو قمنا بذلك بانفسنا (أي الوطنيين) ، لانه يمكننا آنئذ ان نتخلص من جميع افراد اسرة محمد علي ، الذين لم يكن احد منهم ، باستثناء سعيد ، مؤهلا للحكم ، وكنا أعلنا الجمهورية »[٣]• ولكن مشكلة الوطنيين آنذاك كونهم أضعف من القيام بذلك ، بسبب معارضة بريطانيا ، وحتى تركيا ، لهم •

وقد رفض الخديوي توفيق ، الذي خلف اسماعيل ، مطالب الوطنيين بتشكيل مجلس نواب ، ووقف بحزم في وجههم • وهكذا أصبح الخديوي علانية في صف أعداء الثورة • ولكنه اضطر ، تحت تهديد الجيش ، الذي سار الى قصر عابدين في ١ شباط ١٨٨١ ، الى عـزل عثمان رفقي وزيـر الحربية ، الذي اتبع سياسة ضارة بمصلحة الضباط المصريين ، وعين محمود سامي البارودي الذي رشحوه • وكرد فعل على الحركة الوطنية نفى توفيق الأفغاني بقرار وصفه بأنـه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » •

وكانت في الاسكندرية جمعية اخرى ، عرفت بجمعية «مصر الفتاة» • وقد رفعت عريضة الى الخديوي توفيق ، تطالب بـالحريـة والاصـلاح ، وانشأت جريدة « مصر الفتاة » للدعوة لمبادئها ، ولكن الحكومة عطلتهـا • وكانت الحكومة قد عطلت جريدتي « مصر » و « التجارة » ، لاديب اسحق ، فأوفده الحزب الوطني الى باريس لانشاء جريـدة « القاهـرة » ، وكانت نسخها ترسل وتوزع سراً في كافة أنحاء البلاد •

---

١ ـ انظر ص ٤٨٢ •

٢ ـ انظر حول عزله : احمد عبد الرحيم مصطفى ٦ ، ٨٢ •

٣ ـ انظر : J. M. Ahmad, *Intellectual Origins of Egyptian Nationalism*, p. 26.

وشعر الضباط بان الخطر يحدق بهم ، حين عزل توفيق البارودي من وزارة الحربية ، وعين صهره مكانه ، فتداعوا لتظاهرة ٩ ايلول ١٨٨١ المعروفة ، وتحركت قواتهم يومئذ الى قصر عابدين ، بقيادة عرابي ، لابلاغ الخديوي طلبات الجيش والشعب ، وهي : اقالة وزارة رياض باشا ، دعوة المجلس النيابي الذي لم يجتمع منذ اكثر من عامين ، ورفع عدد أفراد الجيش الى ١٨٫٠٠٠ رجل، كماهو محدد في فرمان السلطان. ونتنقل هنا الى مادار في الحديث نقلا عن مذكرات احمد عرابي : « فاجاب الخديوي : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي ، وما أنتم الا عبيد احساناتنا . فقلت (أي عرابي) : لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ، فوالله الذي لا اله الا هو سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم » . ورد عرابي على قول القنصل الانكليزي، الذي كان يرافق الخديوي: « ان طلب اسقاط الوزارة وتأليف مجلس النواب من حقوق الامة لا من حقوق الجيش » ، فقال : « ان طلباتي المتعلقة بالاهالي لم اعمد اليها الا لأنهم اقاموني نائباً عنهم في تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم اخوانهم وأولادهم ، فهم القوة التي ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة . وانظر الى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر فهم الاهالي الذين انابونا عنهم في طلب حقوقهم » .

بهذه الكلمات شق عرابي للشعب المصري طريق الكفاح . ورضخ الخديوي ومن يدعمه لهذه المطالب تدريجياً ، وتشكلت وزارة شريف باشا المؤيدة من احمد عرابي . « وكان تعيين شريف باشا في رئاسة الوزارة ، دون احمد عرابي ، اول تنازل استراتيجي من قيادة الثورة بوضعها في يد مترددة تميل بحكم مصالحها الاقتصادية الى الارتباط بالسراي أكثر من ارتباطها بمصالح الشعب . ان شريف كان يمثل جزءاً من كبار الملاك الذين يحملون جزءاً يسيراً من العقلية المعادية للاقطاع ، ولكن هذا الجزء اذا كان كافياً لكي يجعلهم في عداد احتياطي الثورة ، فهو غير صالح مطلقاً

لكي يلعب دوره القيادي ، وفي اخطر مراحل الثورة ، وهي مرحلة الحشد والتعبئة »[1] •

ان تأييد شريف باشا للضباط شيء واختيارهم له ليكون رئيس وزارة شيء آخر ، اذ عارضهم في تعيين البارودي لوزارة الحربية ، خوفاً من سيطرة الجيش عليه ، ثم مالبث ان رضخ لمطلبهم • ويدل ترحيب جميع الفئات ، الحاكمة والمعارضة والاجنبية ، بشريف باشا على اعتداله ، ولكنه بقي يخشى قوة الجيش ، الذي اعتبر نفسه ممثلا للشعب • وقد دعى شريف باشا مجلس شورى النواب ، الذي يعتبر الممثل الشرعي للشعب، للانعقاد في كانون الاول ١٨٨١ ، لازالة ادعاء الجيش أنه يمثل الشعب • وحاول ايضاً ابعاد قادة الجيش الموجودين في القاهرة ، فنقل عبد العال الى دمياط وعرابي الى رأس الوادي قرب الزقازيق ، وبعد ثلاثة اشهر عين عرابي وكيلا لوزارة الحربية ، بغية ابعاده عن الجيش والهائه بالمسؤوليات الادارية • وخشيت بريطانيا من تمكين قبضة الجيش داخل الوزارة ، ثم من محاولة عرض دستور للبلاد على مجلس النواب وتقييد ذلك لسلطة الخديوي ولتدخل الاجانب في المالية ، فأشركت معها فرانسا في مذكرة[2] للخديوي ، في كانون الثاني ١٨٨٢ ، تؤيدانه فيها ظاهرياً وتغريانه ضمنياً على عدم منح الدستور ، وعلى استرداد سلطاته المطلقة ، والقضاء على الحركة الوطنية • وكان سبب اشتراك فرانسا بالمذكرة قلقها وحرصها على مصالحها في تونس وشمال افريقية ، وذلك بقمع الحركة الوطنية في مصر • وكان للمذكرة مفعول عكسي اذ وحدت الشعب كله ، اعيانه وجيشه ، ضد الخديوي والاجانب ، واثارت شريف باشا لأن آخر شيء يتمناه عودة الجيش للضغط عليه فاستقال • وشكل البارودي الوزارة ، وأصبح عرابي وزيراً للحربية • وهكذا بدأ اتجاه الثورة يتبلور ، قيادة وقاعدة ومنهاجاً •

---

١ ـ انظر : فوزي جرجس ، دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٨٧ •

٢ ـ انظر حول هذه المذكرة : احمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٧٠ ـ ١٧٨ •

عندئذ قررت بريطانيا التدخل،وطالبت باقالة الوزارة وابعاد عرابي وزملائه• وقبل الخديوي ذلك ، لأن هذا يخدم مصالحه • ولكن عرابي عاد الى وزارة الحربية في الوزارة الجديدة • واحتجت بريطانيا بمظاهرات الاسكندرية في حزيران ۱۸۸۲ ضد الاوربيين ، واتهمت عرابي بتدبيرها ، وانزلت قواتها فيها في تموز ۱۸۸۲ • وهكذا بدأ الاحتلال البريطاني لمصر[١] •

ولم تفعل الدولة العثمانية شيئاً رغم طلب الدول الكبرى منها في مؤتمر استانبول في ۲۳ حزيران ۱۸۸۲ ، التدخل للقضاء على الحركة الوطنية في مصر ، وسبب ذلك ضعف السلطان العثماني وكرهه الحركة الوطنية في مصر ومطالبتها بالدستور ، في الوقت الذي قضى فيه على دستور مدحت باشا في بلاده[٢] • وبقيت ، مع ذلك ، السيادة العثمانية قائمة اسمياً في مصر•واذا قارنا بين الاحتلال الفرنسي لمصر،في عهد نابليون بونابرت، والاحتلال الانكليزي الآن ، لوجدنا ان الحملة الفرنسية نبهت اوربا لمكانة مصر الاستراتيجية وأثارت انكلترا ضدها،في حين لاقى الاحتلال الانكليزي الآن لمصر،ان لم نقل قبولا من الدول الاوروبية ، فعلى الأقل عدم معارضة من جانبها • وحتى فرانسا صاحبة المصلحة الاساسية لم تحتج ولم ترسل قوتها لمنعه ، وان بقيت تعارضه حتى الاتفاق الودي ، في عام ١٩٠٤ ، وذلك لان المصالح الاستعمارية واقتسام مناطق النفوذ كان يحول دون اي تدخل•

واعلن مجلس النواب في القاهرة تأييده لعرابي ، وعزل توفيق،وتسلم السلطتين التشريعية والتنفيذية • ولكن هزيمة عرابي في موقعة التل الكبير في ۱۳ ايلول ۱۸۸۲ ، واحتلال القاهرة ، وعودة توفيق اليها ، ثم محاكمة عرابي وزملائه ونفيهم الى سيلان ، كان نهاية مرحلة وبداية اخرى في الحركة الوطنية في مصر • وقد علق اللورد كرومر على فشل عرابي بقوله:

---

١ ـ أنظر ص ٤٤٣ •
٢ ـ أنظر ص ٣٨٢ •

« لو ترك وشأنه ، فليس هناك من شك بانه سينجح ، وان عدم نجاحه يعود الى التدخل البريطاني »[1] . وقد ادرك عرابي انه ، ازاء القوى المعارضة للحركة الوطنية ، يصعب عليه النجاح ، ولكنه ، بالمقابل ، ادرك انه يستحيل عليه عدم القتال[2] .

وهناك من يقول ان الثورة العرابية ، بطيش قادتها وتسرعهم ، مسؤولة عن الاحتلال البريطاني لمصر . وطبيعي أن القصد من ذلك تشويه الحركة الوطنية وتجاهل العوامل الاستعمارية التي كانت سائدة في أوروبا آنذاك . فبريطانيا ، صاحبة اكبر امبراطورية استعمارية اوربية ، كانت تنتهز الفرصة للتدخل في مصر ، عن طريق افتعال حوادث اعتداء بين المصريين والاوربيين ، وذلك لحماية خطوط مواصلاتها مع الهند ، ومستعمراتها في افريقية ، وموازنة الاحتلال الفرنسي للجزائر وتونس . وفوجئت الحركة الوطنية وهي ما زالت غضة العود ، تصارع الخديوي والاقطاع ، بالمخططات الاستعمارية وانهزامية الدولة العثمانية ، فهزمت في المرحلة الاولى .

وقد عين الانكليز قادة منهم على الجيش والشرطة في مصر ، واستولوا كذلك على المالية والاقتصاد والاشغال العامة . وحلوا مجلس شورى النواب ، واقاموا مكانه : مجلس شورى القوانين ، ويتألف من ثلاثين عضواً ، والجمعية العمومية ، وتضم اعضاء المجلس السابق والوزراء وآخرين ، بحيث كان المجموع اثنين وثمانين . وتجتمع الجمعية مرة واحدة كل سنتين . ثم مجالس المديريات ، وهي هيئات اقليمية تنظر في مصالح المديريات المحلية . وكان طبيعياً انعدام روح المعارضة في هذه الأجهزة ، لأن أعضاءها كانوا أشبه بالموظفين ، ولا أثر لهم في توجيه السياسة .

---

١ ـ انظر :
Earl Cromer (Evelyn Baring), *Modern Egypt*, 2 Vols., London, 1907, II. 334.

٢ ـ انظر الدراسات التالية الخاصة بعرابي : عبد الرحمن الرافعي ، الثورة العرابية والاحتلال الانكليزي ، القاهرة ، ١٩٣٧ ؛ محمود الخفيف ، احمد عرابي ، الزعيم المفترى عليه ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

ونظراً للوعود المتكررة التي قطعتها بريطانيا بالجلاء خلال سنوات قليلة ، ونكوثها عن ذلك ، خشيت الدول الاوربية من سيطرة بريطانيا على القناة ، فدعت الى مؤتمر الأستانة أو القسطنطينية ، في ١٩ تشرين الاول ١٨٨٨ ، وبموجبه وقعت معاهدة نصت مادتها الاولى على ان « تكون قناة السويس البحرية على الدوام حرة ومفتوحة ، سواء في وقت الحرب أو في وقت السلم ، لكل سفينة تجارية أو حربية بدون تمييز لجنسيتها » • وحفظت المعاهدة حق مصر على منطقة القناة من حيث انها ارض مصرية •

وتميزت الحركة الوطنية ، بعد الاحتلال،باتساع القاعدة الشعبية ، رغم الانقسامات التي تعرضت لها ، بسبب صراع الزعامات البورجوازية المثقفة التي حاولت قيادتها • وكان هدف الحركة انهاء الاحتلال البريطاني بالدرجة الاولى ، ولذلك انفصلت لبعض الوقت عن الحركة القومية العربية العامة ، التي كانت تحاول التخلص من الحكم العثماني • ورغم أن مصر ما زالت جزءاً من الامبراطورية العثمانية ، فانها تطلعت اليها لمساعدتها ضد الاحتلال • وكان هذا وهماً لم يفد الحركة الوطنية في مصر ، وحال دون تعاضدها مع مثيلتها في الشام •

ولو استعرضنا القوى المحلية في مصر لوجدنا السلطة الحاكمة مطية للانكليز •فقد اضطهدت الصحافة ، ومنعت «العروةالوثقى» التي يصدرها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده في باريس ، من دخول مصر « حفظاً على النظام العمومي » • وعطلت صحف أخرى ، مثل « الاهرام » ، و « مرآة الشرق »•وبقي مصطفى باشا في رئاسة الوزارة ثلاثة عشر عاماً (١٨٩٥ ـ ١٩٠٥) ، لأنه كان أداة طيعة في يد الانكليز • وما دام أعضاء مجلس شورى القوانين ، والجمعية العمومية ، ومجالس المديريات ، يعتبرون موظفين ، عينهم القصر والانكليز ، وليس ممثلين للشعب ، فقد ألقي عبء المطالبة بحقوق الشعب على أبناء الشعب أنفسهم ، خاصة وان

الجيش ، الذي سيطر عليه الانكليز ، لم يعد وسطاً صالحاً لنمو الحركات الثوريـة •

واذا تركنا جانباً السلطة الحاكمة في مصر ، التي اتصفت بالتخاذل، بالنسبة للقضية الوطنية ، وتعاونت مـع الاحتلال ، فاننا نجد عـلى رأس المجتمع المصري الملاكين الكبار ، الذين يعود بعضهم الى عهد محمد علي، وبعضهم الآخر اغتنى نتيجة تطور الزراعة ، وخاصة القطن ، ابان الأزمة الاميركية [1]• وقد وصفت هذه الطبقة بأنها تركية ـ مصرية ، وعارضت بمجموعها أي تحرر ، والتقت مصلحتها مع مصلحة الاحتلال الذي حافظ على امتيازاتهـا • واذا قاومت الاحتلال أحياناً فمناورة لتوطيد مركزها ، وليس لخدمة الأغراض الوطنية • أما الطبقة المتوسطة ، المؤلفة من محامين وأطباء ومعلمين وصحفيين وموظفين ، والتي كانت عـلى احتكاك بالثقافـة الغربية ، فقد اعتبرت مصالحهـا السياسية والاقتصادية ، وحتى الحياتية، مهـددة من قبل الاحتلال وخبرائـه وموظفيه ، ولـذلك كانت في طليعة الحركـة الوطنية • ولـم يكن لدى الطبقة الدنيا مـن العمـال الريفيين والمدنيين ، الذين كونـوا غـالبية الجنود في الجيش الوطني ، ودعمـوا عرابي في ثورته ، وعي سياسي كاف لمقاومة الاحتلال ككتلة قائمة بذاتها، لها قياداتهـا وتنظيماتهـا ، بل نجد الطبقة البورجوازية تستغل قضيتهم ، كما حدث مثلا في دنشواي [2] ، لتوطيد سلطتها السياسية • ومـا أعـوز الحركة الوطنية في مصر وجـود طبقة متوسطة مصرية تجارية وصناعية ورأسمالية تناوىء منافسة الاحتلال لها في ميادينهـا • ونجـد أن معظـم أصحاب الصناعة والتجارة والمالية كانوا من غير المصريين ، من اليونانيين والايطاليين والبريطانيين والفرنسيين والسوريين والأرمن واليهود•ولهذا وقـع العبء الأكبـر مـن النضال الوطني عـلى الطبقة المتوسطة المثقفة ، وانتظمت هذه في عدد من الاحزاب •

---

١ ـ أنظر ص ٤٤١ •

٢ ـ أنظر ص ٥٠٦ •

وكان في طليعة الوطنيين ، من هذه الطبقة المتوسطة المثقفة ، مصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٠٨) [1]، وقد درس الحقوق في المدرسة الخديوية ، ثم في جامعة طولوز بفرانسا • وفي عام ١٩٠٠ أصدر جريدة اللواء ، وأضاف اليها ، فيما بعد ، ملحقين باللغتين الفرنسية والانكليزية • وقد تمتع بدعم الخديوي عباس ، الذي وجد في مصطفى كامل وسيلة مفيدة للحد من تسلط كرومر ، المقيم البريطاني في مصر ، كما أن مصطفى كامل وجد في الخديوي دعماً للوصول الى الشهرة • وقد موّله الخديوي بالمال، وأرسله الى أوربا في ١٨٩٥ ، للحصول على الدعم لجلاء القوات البريطانية عن مصر • وكان مصطفى كامل يأمل بالدعم الفرنسي ، ولكن الاتفاق الودي بين فرانسا وبريطانيا ، في عام ١٩٠٤، خيب أمله • ووجد الخديوي من مصلحته التفاهم مع الانكليز • ولهذا تحول مصطفى كامل الى طلب الدعم من العثمانيين • وفي عام ١٩٠٤ منحه السلطان لقب باشا • ووجد مصطفى كامل في الرابطة الاسلامية وسيلة لمقاومة الاحتلال ، كما أنه وجد في الدول الآسيوية التي قاومت الاستعمار الأوربي ، مصدر الهام للحركة الوطنية في مصر، (وفي ذلك بدايات التضامن الافريقي-الآسيوي)، وأعجب خاصة بنهضة اليابان ، وبانتصارها على البلد الاوربي ، روسيا ، في حرب برية وبحرية ، في عام ١٩٠٥ • وقد أضعفت هذه الهزيمة هيبة القيصر الروسي ، بقدر ما أخافته من قيام حركة ثورية ، فمنح نوعاً من الدستور ودعا الى عقد أول مجلس تمثيلي (الدوما)، ولكن ذلك لم يمنع قيام الثورة الروسية الاولى • واستمد مصطفى كامل من انتصار اليابان العبرة بأن الشرق لم يمت • وألف كتاباً ، بهذه المناسبة ، دعاه « الشمس المشرقة »، أظهر فيه كيف أن أمة شرقية ، مثل اليابان ، يمكنها تجديد نفسها والوصول الى النجاح • وكتب حافظ ابراهيم (١٨٧٣ - ١٩٣١) ، شاعر النيل ، الذي تبنى الاصلاح الاجتماعي في كتابه « ليالي سطيح » (وهو مجموعة مناقشات بين عدد من أبناء النيل ، وبينهم

---

١ - انظر حول سيرته : عبد الرحمن الرافعي ، مصطفى كامل ، القاهرة ، ١٩٥٠ •

وبين الفيلسوف الناسك سطيح ، الذي تخيله ، انتقد فيها المجتمع المصري، ووصف له الدواء) ـ كتب معلقاً على انتصار اليابان بقوله :

أتى على الشرقي حين اذا ... ما ذكر الأحياء لا يذكر
حتى أعاد الصفر أيامه ... فانتصف الأسود والأسمر

وقد شجع انتصار اليابان الحركات الوطنية في فارس ، حيث حدثت ثورة ضد الشاه في ١٩٠٦ ، وفي الامبراطورية العثمانية ، حيث حدثت الثورة في ١٩٠٨ •

وقد أثار الحركة الوطنية في مصر حادثان آخران في ١٩٠٦ : أولهما ، نزاع بريطانيا مع الدولة العثمانية،حول منطقة قرب خليج العقبة، رفض الانكليز الحاقها ببلاد الشام العثمانية • وقد عارض مصطفى كامل وبعض المصريين موقف بريطانيا ، فيما عرف بحادثة الطابة هذه • وكان هدفهم كسب التأييد العثماني ضد الاحتلال الانكليزي • أما الحادث الآخر والأهم فهو مأساة دنشواي [1]، وهي بلدة تابعة لمركز شبين الكوم بالدلتا، أصيبت فيها امرأة وأتلفت الغلال ، أثناء قيام بعض الضباط الانكليز بالصيد في ١٣ حزيران ١٩٠٦ • فثار الفلاحون وجرحوا أحد الضباط ، الذي توفي اثر ضربة شمس ، وحكم على أربعة مصريين بالاعدام ، ونفذ الحكم مكان الحادث ، وسجن آخرون • وقد ثار الشعب لهذه الفظاعة ، وأثار مصطفى كامل الرأي العام الأوربي ضد الاحتلال ، وألهب شوقي مشاعر الشعب حين قال في هذه الحادثة :

يا دنشواي على رباك سلام ... ذهبت بانس ربوعك الأيام
شهداء حكمك في البلاد تفرقوا ... هيهات للشمل الشتيت نظام
مرت عليهم في اللحود أهلة ... ومضى عليهم في القيود العام
ياليت شعري في البروج حمائم ... أم في البروج منية وحمام
نيرون لو أدركت عهد كرومر ... لعرفت كيف تنفذ الأحكام

---

١ ـ انظر حول أحداثها : الرافعي ، مصطفى كامل ، ١٩٧ ـ ٢٣٦ •

حتى أن كرومر نفسه ، الذي كان غائباً عن مصر آنذاك ، كتب يقول : « انني أعترف أن الأحكام كانت قاسية جداً بدون ضرورة » [١] . وأدرك الانكليز نقمة الشعب المصري ، فأرادوا انتهاج سياسة جديدة كان من أولى ثمارها احالة كرومر على التقاعد ، في نيسان ١٩٠٧ ، بعد أن حكم مصر أربعاً وعشرين عاماً .

وفي تشرين الاول ١٩٠٧ شكل الوطنيون المتطرفون ، بزعامة مصطفى كامل ، حزباً أسموه : الحزب الوطني [٢] . ولا علاقة لهذا الحزب بالحزب الوطني [٣] ، الذي شكل أثناء فترة عرابي واندثر . ودعا مصطفى كامل الى مقاومة الاحتلال والى اعتماد شعب مصر على نفسه في ذلك ، بعد أن خاب ظنه في مساعدة كل من فرانسا والدولة العثمانية والخديوي . وفي سبيل تحقيق الاستقلال طالب بوحدة جميع أبناء البلاد ، وقال ان الدين الصحيح يعلم الوطنية الصحيحة . ولكن موته المبكر حرم الحركة الوطنية من أحد عمالقتها ، وخلفه في رئاسة الحزب محمد فريد [٤] . ويمتاز بخبرته الواسعة ، التي اكتسبها في أوربا ، في التنظيمات الشعبية . وقد طالب بتعميم التعليم الابتدائي ومجانيته ، ولفت الأنظار الى الضرائب المجحفة التي ترهق الفلاحين ، وشرح أهمية وضرورة تنظيم العمال في النقابات ، وأشار الى الدور الهام الذي تلعبه نقابات العمال في أوربا [٥] .

وعلى نقض الحزب الوطني ، الذي دعا الى عدم مهادنة الاحتلال ، ومن هنا قاعدته الشعبية الكبيرة ، فقد دعا حزب الامة ، الذي أنشيء قبل الحزب الوطني بأسابيع ، الى الاعتدال والتعاون مع الاحتلال ، مشيراً الى

---

١ ــ انظر : Earl of Kromer, Abbas II, London, 1915, Preface, P. X.

٢ ــ أنظر حول تاسيسه : الرافعي ، مصطفى كامل ، ٢٥٦ ــ ٢٦٢ ؛ وانظر كذلك : Landau, 137-140; Jamal Muhammad Ahmad, 69-76.

٣ ــ انظر ص ٤٩٧ .

٤ ــ أنظر حول سيرته : عبد الرحمن الرافعي ، محمد فريد ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٥ ــ أنظر حول تطور نقابات العمال في مصر : رؤوف عباس ، الحركة العمالية في مصر ١٨٩٩ ــ ١٩٥٢ ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

الفوائد التي يمكن بلوغها من ذلك ، عوضاً عن معارضة شيء لا يمكن التخلص منه.وكان الامام محمد عبده قد دعا من قبل الى مثل هذه الأفكار. وقد لعب الانكليز دوراً هاماً في انشاء هذا الحزب لمقاومة الحركة الوطنية المتطرفة . وكان حزب الامة يتكون من الملاكين الزراعيين وبعض المثقفين، الذين التقت مصالحهم ، اقطاعا وثقافة ، مع الاحتلال . وكان لهذا الحزب صحيفة تنطق باسمه ، هي « الجريدة » ، ويرأس تحريرها أحمد لطفي السيد . وكان بين أعضاء حزب الامة المؤسسين محمود سليمان باشا ، وحسن عبد الرزاق ، وحمد الباسل ، وعبد الخالق ثروت باشا . وضم كذلك سعد زغلول . واهتم أفراد هذا الحزب بالزراعة والصناعة ، وطالبوا بالتحرر من الاقتصاد البريطاني ليحلو محله . وقد خيب ظنهم التقرير الذي نشره كرومر ، بعد مغادرته مصر ، وقال فيه بعدم أهلية مصر للاستقلال . وبالتدريج ، تحول هذا الحزب الى مقاومة الاحتلال، واقتضت مصلحته المطالبة بالدستور والاستقلال [1] ، لكي لا يفقد الزمام لمصلحة الحزب الوطني.واذا كان نفوذ الحزب الأخير قد تضاءل بعد وفاة مصطفى كامل ، فان حزب الامة ازداد قوة ، حين انقلب الى حزب الوفد، اثر الحرب العالمية الاولى ، وتسلم قيادته سعد زغلول .

وتشكل حزب ثالث ، في تشرين الثاني ١٩٠٧ ، يمثل مصالح الخديوي ، وسمي حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية . وكان بزعامة الشيخ علي اليوسف ، صاحب جريدة « المؤيد » ، التي أصدرها في عام ١٨٨٩ ، بعد أشهر من صدور جريدة «المقطم» التي كان يمولها الانكليز. وقد دعا على صفحاتها الى التعاضد الاسلامي . ورغم وطنيته في الظاهر الا أنه كان في حقيقته رجعي ، وقد دعا الى اقناع بريطانيا بالجلاء وليس الى اخراجها بالقوة ، كما قال مصطفى كامل . وكان الشيخ علي اليوسف

---

١ ـ انظر حول هذا الحزب :
Landau, 104-135; Jamal Muhammad Ahmad, 76-79.

كل شيء في هذا الحزب • ومما يدل على تناقض تفكيره ومنهاجه دعوته الى حكومة دستورية ، كما نص اسم الحزب ، ودعمــه في الوقت ذاتــه لسلطة الخديوي المستبدة • ويدل عـلى موالاة الحـزب للخديوي مادة دستوره الاولى التي نصت على دعم سلطة الخديوي ضمن حدود فرمانات السلطان •[1] وليس أدل على سطحية هذا الحزب وعدم ارتباطه بمصلحة الجماهير من تلاشيه اثر وفاة مؤسسه في عام ١٩١١ •

والجدير بالملاحظة ان لكل حزب صحيفته ، وللاحتلال كذلك صحفه • ويدل هذا على ان الحركة الوطنية كانت في اساسها حركة مدن ، ومن صنع أقلية مثقفة ، لأن حوالي ثمانين بالمائة من أهالي مصر كانوا أميين آنذاك • وربما لهذا السبب سمح الاحتلال الانكليزي بصدور الصحف بهذه الكثرة بسبب انتشارها المحدود من ناحية ، ولاعطاء الصفة التحررية لحكمــه من ناحية أخرى • ولكنه أدرك أن المقاومة لا تقاس بعدد أفرادها ، وقد أصدر قانون المطبوعات ، في عام ١٩١٠ ، للقضاء على حرية الصحافة •

وتحت ضغط الحركة الوطنية فشلت محاولة تمديــد امتيــاز قنــاة السويس مدة أربعين سنة بعد انتهائه في عام ١٩٦٩ • وابتدع كتشنر فكرة الجمعية التشريعية في عام ١٩١٣ ، لعرقلة مسيرة الحركة الوطنية ، وتنص على دمج مجلس الشورى والجمعية العمومية ، بقصد السيطرة عليها بصورة اكبر • وتتألف من اعضاء قانونيين هم الوزراء ، واعضاء منتخبين ، واعضاء معينين ، وعقدت آخر اجتماعاتها في حزيران عام ١٩١٤ ، ثم توقفت بسبب نشوب الحرب العالمية الاولى •

وكانت مصر ما تزال تعتبر قانونياً ولاية عثمانية ، وهــذا يقتضي ان تكون في حالة حرب مع بريطانيا اذا ما دخلت الدولة العثمانية الحرب الى جانب المانيا • وشعر الانكليز أن الوطنين سيفيدون من هــذا التناقض ،

---

١ ــ انظر حول دستوره :

Landau, 141-142; Jamal Muhammad Ahmad, 80-81.

كما خشوا الدعوة الى الجهاد التي سيثيرها السلطان • واعلنت الحرب بين الدولة العثمانية وبريطانيا في ٦ تشرين الثاني عام ١٩١٤ ، وفرضت بريطانيا الحماية على مصر في ١٨ كانون الاول عام ١٩١٤ ، وازالت سيادة الدولة العثمانية عليها • واعلن ، في اليوم التالي ، خلع الخديوي عباس الثاني ، وتنصيب عمه الامير حسين كامل ، ابن اسماعيل ، بلقب سلطان •

الحركة القومية في المشرق العربي • ـ لاحظنا ، خلال دراستنا لبلدان المشرق العربي ، في القرون الثلاثة الاولى من الحكم العثماني ، كيف أن العثمانيين فتحوا هذه البلدان وأخضعوها بقوة السلاح • وحين أخذت الدولة العثمانية بالضعف ، منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر ، بدأت الثورات المحلية بالانتشار ضدها ، أولا في صفوف العساكر ، ثم بين الامراء المحليين • حتى اذا ما استفحل الضعف العثماني وغدا انحطاطاً ، في القرن الثامن عشر ، اتسعت قاعدة التحدي ووصلت الثورات الى المستويات الشعبية ، في المدن والريف • كما ظهرت الاسر المحلية الحاكمة ، مثل آل العظم والزيادنة ، الى جانب ازدياد نفوذ البدو في البادية وفي أطراف المدن • وازدادت الهوة اتساعاً ، بين العثمانيين والعرب ، في القرن التاسع عشر ، اثر احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام ، ونتيجة لانتشار الفكرة القوميـة •

وقد رأينا [1] كيف أن سكان بلاد الشام قد ثاروا على حكم محمد علي باشا ، ولعبوا دوراً هاماً في اجلائه عن بلادهم ، مما أكسبهم كثيراً من الثقة بالنفس ، ونشر بينهم بذور التحرر والقومية • وتبين لهم ضعف الامبراطورية العثمانية ، لا بالنسبة لدول أوربا فقط ، بل بالنسبة لمحمد علي نفسه • وأظهرت لهم تسع سنين من الانفصال عن العثمانيين امكانات لم يحلموا بها من قبل ، فاستتب الأمن ، وابتعد خطر البدو ، وازدادت المساحات المزروعة ، ونشط الاقتصاد ، بصورة عامة ، وافتتحت المدارس ،

---

١ ـ انظر ص ٤٠٨ •

المصرية منها والتبشيرية ، واعتز الناس بحمل السلاح ، سواء في الخدمة في جيش محمد علي أو في الثورة عليه .

ورأينا [1] كيف انقلبت ثورة الفلاحين التحررية على الاقطاع ، في جبل لبنان ، الى حرب طائفية ، أثارها الاقطاعيون والدولة العثمانية والتدخل الأوربي ، وسرعان ما امتدت الى بلاد الشام مستفيدة من التناقضات الاقتصادية والاجتماعية التي وجدت فيها ، حيث ازدهرت طبقة بورجوازية تجارية غير مسلمة أثارت كره الطبقات الدنيا الجاهلة والمستغلة . وأدرك عدد من المفكرين العرب ، وخاصة في لبنان ، الذي مزقته الحرب الطائفية ، خطورة هذه الظاهرة ، ودعوا الى رابطة عربية تجمع بين المواطنين ، على اختلاف مذاهبهم . واستوحي التاريخ المشترك والمنجزات الحضارية العربية المشتركة ، التي أسهم فيها الناطقون بالعربية، من كافة المذاهب ، لجمع أبناء الأمة وراء هدف واحد ، يؤكد الهوية القومية للعرب ، كخطوة أولى في سبيل وحدتهم وتحررهم ورقيهم .

وككل الأمم التي تتلمس وحدتها القومية وتحاول ، في الوقت نفسه، التخلص من المستعمر ، بدأت الدعوة ، من خلال الأدب العربي ، الى كشف ماضي الامة ومنجزاتها والاشادة بعظمة لغتها التي تحدت لغة الحاكم الغريب لأكثر من سبعمائة سنة (منذ قيام السلطنة المملوكية في ١٢٦٠ على الأقل) ، وكذلك محاولات اللهجات المحلية والعامية النيل منها ، مما أكسبها الثقة بالنفس وأكد شخصيتها من جديد .

ومن الأدباء العرب الذين عملوا على احياء الأدب العربي وعرفوا اخوانهم بعظمة الحضارة العربية ، ونبهوهم بالتالي الى قضاياهم الأساسية، نذكر ناصيف اليازجي وابنه ابراهيم ، وبطرس البستاني [2] .

---

١ ــ انظر ص ٤٢٢ .

٢ ــ انظر بشأنهم G. Antonius, *The Arab Awakening*, London, 1955, 45-51.

ولد ناصيف اليازجي عـام ١٨٠٠ في لبنان ، ودرس عـلى الطريقة التقليدية التي لم تنجح في اثارة مواهبه ، فتحول الى المخطوطات في الأديرة يطالعها بشغف • وتعرف الى عظمة التراث القديم • وأصبح شغله الشاغل بعد هـذا احيـاء الماضي • فقد أثـار جمـال الأدب الديني ذلك العربي الكامن في نفسه ، فألف الكتب المدرسية في العلوم العربية ، وعم انتشارها الى ما بعد وفاته في عام ١٨٧١ • وبعد أن ترك خدمـة الامير بشير الثاني الشهابي ، في عـام ١٨٤٠ ، انقطع الى قريته ، قـرب بيروت ، يعلم اللغة العربية التي لم يتقن سواها ، ويعقد الحلقات الادبية للعرب ، من كافـة المذاهب • وتظهر مقاماته ، التي أصدرها في كتابه « مجمع البحرين » ، وقلّد بهـا الحريري ، معرفته القوية باللغة العربية • وكان معظـم كتاب العربية في القرن التاسع عشر من تلاميذه بصورة مباشرة أو غير مباشرة • ثم تلاه ابنه ابراهيم اليازجي ، الذي تغنى بأمجاد العرب ، ودعا الى التسامح الديني بقصائـده • وكان لقصيدته التي أهـاب فيهـا بالعرب أن يتنبهوا ويستفيقوا أصداء واسعة •

أما الشخصية الأدبية الاخـرى فهـي بطرس البستاني (١٨١٩ – ١٨٨٣) • ويختلف عن اليازجي بسعة ثقافته وبالمامه بعدة لغات أجنبية ، الى جانب العربية • وقد درس في مدرسة عين ورقة المارونية ، وانصرف الى التعليم بعد ذلك • كما أنـه اعتنق البروتستانتية ، واحتك بالارساليات الغربية ، وأسهم في ترجمة الانجيل الى اللغة العربية • وقبل انهاء الترجمة عكف على تأليف قاموس للغة العربية ظهـر في جزئـين في ١٨٧٠ بعنوان « محيط المحيط » ، واختصره الى « قطر المحيط » ، لكـي يصبح بمتناول الطلاب • ثـم انتقل الى وضع موسوعة عربية باسم « دائـرة المعارف » ، ظهر منها ستة مجلدات قبل موته ، وأتمها أولاده وبعض أفراد عائلته بعد ذلك ، وظهر منها أحد عشر جزءاً بمجموعها • وكان بطرس البستاني قد أسس ، في عام ١٨٦٣ ، المدرسة الوطنية التي قامت عـلى الفكرة الوطنية

وليس الدينية • وقد أيد الاقتباس عن الغرب ، شريطة ملاءمة ذلك للأوضاع المحلية • وقال ان أوربا تعلمت في الماضي من العرب ، ولا يضيرهم أن يتعلموا منها • واتخذ من الحديث المنسوب الى النبي العربي، « حب الوطن من الايمان » ، شعاراً لأشهر صحفه الاسبوعية على الاطلاق، « نفير سورية »،التي أصدرها ، في عام ١٨٦٠ ، في أوج الحرب الطائفية• وكانت أول جريدة في سورية تدعو الى وحدة الصف وجمع الكلمة بين الطوائف • وخاطب ، من خلالها ، أبناء الوطن ، ووقع مقالاته باسم محب الوطن • والوطن الذي عناه هو سورية بكاملها ، أي بلاد الشام ، حيث يجب على السوريين ، في سبيل ازدهارهم ، أن يعيشوا بوئام ، يحترم اتباع كل مذهب اتباع المذهب الآخر [1] • وأصدر بطرس البستاني ، في عام ١٨٧٠ ، « الجنان »، وهي مجلة أدبية سياسية نصف شهرية،استمرت حتى عام ١٨٨٦ • كما أصدر « الجنة » ، وكانت هي الاخرى نصف شهرية ، و « الجنينة » ، التي استمرت ثلاثة أشهر •

وقد لعبت الصحافة السياسية والمجلات العلمية دوراً هاماً في نشر الفكرة القومية العربية في القرن التاسع عشر•ويذكر ان ابراهيم اليازجي قد أصدر مجلتي « البيان » و « الضياء » ، في عام ١٨٨٣ • وصدرت،قبل ذلك ، جريدة « الأحوال » في الشام عام ١٨٥٥ • وكانت أول صحيفة عربية صدرت في بيروت هي « حديقة الأخبار » ، وذلك في عام ١٨٥٧ • وفي عام ١٨٦١ أصدر أحمد فارس الشدياق في استانبول جريدة اسبوعية باسم « الجوائب » ، واستمرت في الصدور حتى عام ١٨٨٤ • وكان أحمد هذا مسيحياً في الأصل ، وشقيق الاخاري طنوس الشدياق • وقد ألف كتاباً عنوانه « الساق على الساق فيما هو الفرياق » ، يحوي نقداً اجتماعياً ومقدرة فائقة باللغة العربية • أما « الجوائب » فكانت أشهر الصحف العربية آنذاك ، وانتشرت حيثما انتشرت اللغة العربية ، وعنيت بالسياسة

---

١ ـ انظر حول افكاره : Hourani, *Arabic Thought*, 99-102.

الدولية.واستغل السلطان العثماني هذه الجريدة لاعلان سياسته الاسلامية على الرأي العام العربي .[1] وفي عام ١٨٦٩ أصدر الآباء اليسوعيون في بيروت جريدة اسبوعية باسم «البشير» ، وأصدروا كذلك ، في عام ١٨٩٨ مجلة علمية نصف شهرية دعيت « المشرق » ، وما زالت حتى الآن . وأصدر مسلمو بيروت ، في عام ١٨٧٤ ، جريدة اسبوعية باسم « ثمرات الفنون » ، ورد عليها ، في الوقت نفسه ، باصدار جريدة « التقدم » ، وقد اشترك في تحريرها نخبة من الشبان التقدميين ، مثل أديب اسحق[2] . وفي عام ١٨٧٧ أسس خليل سركيس ، صهر بطرس البستاني ، جريدة نصف شهرية باسم « لسان الحال » ، وتحولت الى يومية منذ ١٨٩٤ . وأسس الموارنة في ١٨٨٠ جريدة « المصباح » ، والبروتستانت « كوكب الصبح المنير » ، والارثوذكس « الهدية » . وأصدرت السلطة العثمانية في بيروت ، في عام ١٨٨٦ ، جريدة باسم « بيروت » لتنطق باسمها . ومع تعدد ولاءات هذه الصحف فقد أسهمت في نشر الثقافة وأغنت الفكر العربي بمناقشاتها وأبحاثها على الرغم من أنها كانت لا تخلو من الهجوم الواحدة ضد الأخرى[3] . وسهل ظهور هذه الدوريات انتشار المطابع[4]. وهكذا تكون المطبعة قد لعبت دوراً هاماً ، في نشر التراث العربي، واعادة الثقة الى نفوس العرب ووضعهم وجهاً لوجه أمام العثمانيين والأوربيين . كما أنها فتحت أعين العرب على حاضرهم المرير ونبهت حيويتهم التي أثقلها الجهل ، كما عملت على التقريب بينهم بنشر الكتب واصدار الصحف بلغة سهلة لا تخرج عن الفصحى .

والى جانب المجهود الفردي للأدباء ، وبث الأفكار عن طريق

---

١ ـ انظر : Hourani, 98-99.

٢ ـ انظر ص ٤٩١

٣ ـ انظر حول هذه الصحف :

Cl. Huart, *A History of Arabic Literature*, Beirut, 1966, pp. 438-441.

وانظر حول الصحافة العربية بعامة : فيليب دي طرازي ، تاريخ الصحافة العربية بيروت ١٩١٣ .

٤ ـ انظر ص ٤٣٠ .

الصحف ، فقد ظهرت في هذه الفترة ، أي حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، فكرة العمل المشترك ، عن طريق الجمعيات ، لنشر الثقافةوالوعي القومي • وظهرت أول جمعية علمية في بيروت عام ١٨٤٧ باسم « جمعية الآدابوالعلوم »، وضمت بين أعضائها بطرس البستاني وناصيفاليازجي، صاحب الفكـرة ، وبعض المبشرين الأجانب ، واقتصرت عضويتها عـلى المسيحيين فقط • ودامت هذه الجمعية خمس سنوات أصدرت في نهايتها سجلا بما قامت به من أعمال • واذا كانت هذه الجمعية قد ظهرت باسهام المبشرين الأميركيين ، فقد قامت ، في عـام ١٨٥٠ ، « الجمعية الشرقية » بجهود اليسوعيين ، وتتشابه مـع الجمعية السابقة بهوية أعضائها المحليين وباجتماعاتها ، وانحلت تقريباً في زمن سابقتها • ويلاحظ عـلى الجمعيتين لسابقتين أنهما لم تمثلا عناصر السكان كلها ، الذين توجسوا شراً من وجود الأجانب فيهما • ثم مـا لبثت عناصر الشعب ، عـلى اختلاف مذاهبها ، أن تمثلت بجمعية جديدة ، هي « الجمعية العلمية السورية » ، التي ظهـرت عام ١٨٥٧ ، بالرغم من أن هذا التاريخ هو زمن الحوادث الطائفية التي أثارها واستغلها الأجانب والعثمانيون • وارتفع عـدد أعضائهـا الى مائة وخمسين ، نذكر منهـم محمد ارسلان الدرزي ، وحسين بيهم السني ، وابراهيم اليازجي المسيحي • واعترف بها رسمياً عـام ١٨٦٨ ، واتسعت عضويتها فشملت شخصيات عربية من استانبول والقاهرة • والتقت الطوائف المختلفة ، لأول مرة بعد ثلاثمائة وخمسين عاماً من الحكم العثماني ، حول أهداف ومثل واحـدة تسعى الى تطوير البلاد ناهلـة من التراث المشترك الأصيل • ويمثل ظهور هـذه الجمعية بحق أول تعبير فعلي عن الوعـي القومي [1] • وهكذا زرعت بذور الوطنية ، ونشأت حركة عربيةالايحاء، قومية المثل ، لا طائفية ، وستكون السنون الأربعون التالية قصة طفولتهـا ونشأتها • وبالرغـم من اضطهادهـا ، زمن السلطان عبد الحميد الثاني ، وظهور بوادر الضعف عليها ، كانت حية تسير وئيداً الى أهدافها •

---

١ ـ انظر حول الجمعيات السابقة : Antonius, 51-55.

وقبل أن ننتقل الى النشاط السياسي العربي ، الذي أعقب النشاط الأدبي،وتجلى بقيام عدد من الجمعيات المعتدلة والمتطرفة ، العلنيةوالسرية، يجدر بنا أن نعرف أين تقف الحركة العربية هـذه من تياري الفكر اليساري العلماني والفكر اليميني الديني • ولاشك أن الحركة العربية أفادت من الاتجاهين دون أن تذوب في أي منهما • وفي الواقع ، فانها كانت صلة الوصل بين الاتجاهين اللذين عملا،كل باسلوبه ، على تقويتها ، وعملت هي بدورها على استقطابهما نحوها ، وجعلتهما ، بالتالي ، يعملان لهدف عربي واحد ، وان اختلفت الوسائل • واشتهر في الجانب اليساري العلماني كل من فرنسيس مراش وشبلي شميل وفرح أنطون ، بينما اشتهر بين دعاة الاصلاح الديني من العروبيين عبد الرحمن الكواكبي • وكان هذا حلقة الوصل ، في مجال الفكر الديني ، بين الحركة العربية اللاطائفيةوالحركة الدينية اليمينية السلفية الداعية للجامعة الاسلاميةوالتي تمثلت في مصر بجمال الدين الأفغانـي ومحمد عبده ، وفي الشام بمحمد رشيد رضا •

كان فرنسيس فتح الله مراش الحلبي (١٨٣٦ – ١٨٧٣) ، من أوائل المفكرين العلمانيين العرب في بلاد الشام ، الذين دعوا الى التحرر والعلم والحضارة • وقد ولد في حلب،من اسرة أنتجت عدداً من الأدباء ، ثم سافر الى باريس حيث درس الطب • وعاد الى حلب لممارسة مهنته ، ولكنه كان معتل الصحة • وقد ترك كتابين : « غابة الحق » ، الذي ألفه في باريس ، و « مشهد الأحوال » ، الذي وضعه في حلب [1] • وكان كتاب « غابة الحق » على شكل حوار ، تدور مواضعه حوال اقامة « مملكة الحضارة والحرية » • ويبدو فيه أثر الفكر الأوربي المعاصر ، حين دعا الى الحرية والمساواةوالقضاء على الرق • وقال ان العرب يحتاجون قبل كل شيء الى مدارس حديثة و « حب للوطن خال من الاعتبارات الدينية »•

---

١ ـ وقد نشرت له بعض المقالات ، الى جانب كتاب آخرين معاصرين ، في « مجالي الغرر لكتاب القرن التاسع عشر » ، جمع يوسف صفير ، بعبدا ، ١٧٩٨ •

واهتم فرنسيس مراش بمفهــوم المدنية ، واعتبرها ضرورية ليصل الانسان الى تكامل أوضاعه المادية والخلقية • وقال ان المدنية لا تتوافر الا اذا توافر لها عدد من الشروط ، أولها التربية السياسية • وهذا يعني أن على الحاكـم أن يعد لمنصبه بصورة مناسبة وان يحوز الصفات الفكريـة والخلقية الضرورية • ومن الشروط الاخرى أن يتساوى الجميع أمـام القانون بدون استثناء ، وان تتلاءم القوانين مع المجتمع ، وان يكون الصالح العام هدف الحكومة،وأن ينمّى الفكر وتُطور العادات الاجتماعية والخلقية، وان تتوافر النظافة في المدن وحسن البناء [1]• وقد آمن مراش بالديمقراطية وبحق الشعب ، الذي هو أساس الحكم ، وقـال في ذلك : « لماذا يوجـد حق لأصوات الأغنياء ، فترن في قاعات السياسة ولا يوجد الحق لاصوات بقية الشعب ، الذين هم الجانب الأكبر والأهـم ، والذين تقوم بواسطتهم سطوة الممالك وقوات الملوك ، وعليهم يتوقف مـدار السياسات » [2] • ودعا الى المساواة « ومعاملة الجميع عـلى حـد سواء •• فكما أن العظماء والأغنياء هم القوة الواصلة ، كذلك الصغار والفقراء هم الآلة الموصلة • فلولا يد الصغير لم يطل ساعد الكبير ، ولولا تعب ذوي الفاقة لـم تسهل متاجر أرباب الغنى ، ولـم تحرس أموالهم ، ولم تقـم قصورهم العالية ، وسرادقهم المشيدة » • [3]

عاصر فرنسيس مرّاش سوري وطبيب آخـر يدعى شبلي شميّل (١٨٦٠ ـ ١٩١٧) • وجمع بين الاثنين أن أفكارهما العلمانية لـم تكن واقعية في زمنهما ، ولكنهـا تنبيء ، بدون شك ، بميلاد تيار جديـد من التحرر في العالم العربي ، أخـذ يقوى ويزداد أهمية عـلى مـر الزمن • وقد ولد شبلي في بلدة كفرشيما ، التي كانت تابعة لولاية الشام،كما يذكر

---

١ ـ انظر : Hourani, 248.

٢ ـ انظر : منير موسى ، الفكر العربي في العصر الحديث (سوريا من القرن الثامن عشر حتى العام ١٩١٨) ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٣٤ •

٣ ـ انظر : سامي الكيالي ، الحركة الأدبية في حلب ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ١٩٤٤ •

هــو نفسه ، ودرس الطب في الكلية البروتستانتية السورية ، ثم سافر الى باريس لمتابعة دراسته ، واطلع فيها على نظرية التطور لداروين ، التي كانت مدار نقاش في أوربا آنذاك • واستقر في مصر ، بعد عودته من فرانسا ، وكتب في معظم مجلاتهــا ، ونشرت مقالاته في كتاب بعنوان : « مجموعة الدكتور شبلي شميّل » • واشتبك شميّل في جــدال عنيف مع الأوساط المسيحية والمسلمة ، بمافي ذلك الافغاني ، واتهــم بالالحاد بسبب كتابه : « فلسفة النشوء والارتقاء » الذي يظهر تأثراً بداروين [1] • وكتب كتاباً آخر بعنوان : «شكوى وأمل» ، وجهه الى السلطان عبد الحميد الثاني في عام ١٨٩٦ • وقد أجمل فيه ما يراه خطأ في الامبراطورية العثمانية ، وقال ان ثلاثة أشياء تعوز الامبراطورية : العلم ، والعدل ، والحرية ، وان العلم أهمها ، لانه مفتاح سر الكون ، ويقوم على وحدة جميع الكائنات الحية ، ويحرر الانسان من أنانيته [2] •

وكان شبلي شميّل قانعاً بأن شكل الحكومة عامل أساسي في تطور الأمة • وقال بأن حكومات الشرق هي المسؤولة عن الانحطاط الخلقي في بلادها • ولاشك أن مثال حكومة السلطان عبد الحميد كان له الأولوية في قوله•وأعتقد أن الفرق بين أمم الغرب وأمم الشرق هو أن الاولى تحكمها قوانينها ، بينما يحكم الثانية حكامها ، الذين هم فوق القوانين ، وان هؤلاء بحكمهم الاستبدادي وتكريسهم الجهل قد أماتوا في نفوس الناس صفات الكرامة والمبادرة•وقال ان الاستبداد يعلم الناس التملق والرياء ويحولهم الى أرقــاء ، ولكنه اعتقد بانتصار الشعب في النهاية وبسقوط الاستبداد • وكلما ارتقت الامة عــلى طريق الحضارة ، كلما ارتقى شكل حكومتها ، ولا يتوقع أن تكون الحكومة بأحسن من الامة التي انبثقت عنها [3] •

لقد آمن شبلي شميّل بقوة الجماهــير ، ودهش لفشل ثورة عــام

---

١ ـ انظر حول حياته : منير موسى ، ٦٤ ـ ٦٥ •

٢ ـ انظر : Hourani, 248.

٣ ـ انظر : Nuseibeh, *The Ideas of Arab Nationalism*, New York, 1956, 139

١٩٠٨ ، في الامبراطورية العثمانية ، في تحقيق أي تبدل جذري ، وعزا ذلك الى عدم دعم الجماهير لها عملياً • وكان قد أيد جمعية تركيا الفتاة ضد السلطان عبد الحميد ، لانها تدافع عن الحرية ، وعن الوحدة الاجتماعية ، التي تتجاوز الاختلافات الطائفية ، وعن نشر التعليم • وعندما ينتشر التعليم ، كما يقول شميّل ، تأتي أيام الطغاة الى نهايتها • وأقر شبلي شميّل بضرورة الثورة في بعض الاحيان ، شريطة أن تكون نابعة من الحاجة العميقة للكثرة من الناس • وثورة الشعب لا تقهر لانها ليست من عمل قلة متآمرة •

واعتقد الشميّل بحتمية الاشتراكية وقال : « ان الاشتراكية نتيجة لازمة لمقدمات ثابتة لابد من الوصول اليها ، ولو بعد تذبذب طويل ـ الاشتراكية كالاجتماع نفسه ذات نواميس طبيعية تدعو اليها » •[١] وكان يطلب من الحكومة في الدولة الاشتراكية التي دعا اليها أن تتدخل ايجابياً لتحقيق التعاون بين المواطنين في سبيل الصالح العام ، ويجب عليها ايجاد العمل لمن يستطيعه ، وتأمين الاجور المتكافئة ، وتحسين الصحة العامة • وهدد أصحاب رؤوس الأموال « الذين جمعوا بذكائهم (!) ودهائهم الأموال على ظهور العمال » بـ « ثورة العمال القائمة اليوم والتي سيكون هولها أشد من تلك (الثورة الفرنسية) ان لم تدفع بالحكمة (!) لانحصار تلك في بقعة من الارض وفي شعب من الشعوب ، ولانتشار هذه في كل العالم المتمدن » •[٢] وقد هاجم شميل التعصب الديني ، الذي فرق بين الناس وأضعف بناء المجتمع بكامله • وقال ان أوربا أصبحت قوية عندما حطم الاصلاح الديني والثورة الفرنسية سيطرة رجال الدين على المجتمع • ولكن شميّل ، وهو المسيحي ، هرع للدفاع عن الاسلام حين وجه اللورد كرومر في مصر الانتقادات اليه[٣] •

---

١ ـ منير موسى ، ٨٧ •

٢ ـ المصدر السابق ، ٨٦ •

٣ ـ انظر حول عرض مفصل لافكار شبلي شميل : منير موسى ، ٦٤ ـ ٩٤ ؛
وانظر ايضاً : Hourani, 248-253.

ومـن الذين نادوا بالعلمانية واعتماد العلـم كأساس لنهضة العرب الكاتب فرح أنطون (١٨٧٢ – ١٩٢٢) ، من طرابلس الشام • وقد نزح الى مصر في ١٨٩٧ ، برفقة صديقه محمد رشيد رضا ، وأمضى حياته فيها وفي نيويورك يعمل في ميادين الصحافة والترجمة ، والكتابـة الاجتماعية بصورة عامـة • وكان أشهر أعماله اصداره مجلة « الجامعة » في مصر ، ونشره كتاب «ابن رشد وفلسفته »، وفيه عرض آراءه فيالسياسةوالمجتمع• واختياره الكتابة عن ابن رشد أمر له دلالته ، فهو يدل ، الى جانب اقتفائه اثـر استاذه رينان ، على تبنيه آراء ابن رشد ومحاولته نشرهـا في سبيل مجتمع متآخ يعتمد على العقل ولا تمزقه النزاعات بـين الطوائف • وقال لو بحثنا عن المبادىء الأساسية في الديانات لوجدناها متشابهة • ودعا الى فصل السلطة الدينية عن الزمنية ، لان هدف الدولة الحفاظ على الحرية الانسانية ضمن حدود الدستور ، ولان المجتمع الصالح يقيم المساواة بـين أبناء الامة • وقال ان مزج الدين بالسياسة يضعف الدين نفسه لانه يزج بـه في ميدان الحياة السياسية ، ويعرضه الى مخاطرهـا • وقد دخـل في مناقشات طويلة ، وأحياناً عنيفة ، مـع محمد عبده حـول كيف يجب أن تكون العلاقة بـين الدين والدولة • وكتب محمد عبده كتابـه « الاسلام والنصرانية » ليظهر أن الاسلام دين ودنيا • ولم يوافق فرح أنطون محمد عبده في قوله ان الاتراك قد هدموا وحدة الاسلام وقوته ، وان هذه يمكن استعادتها بنقل مركـز الثقل الديني ، أي الخلافة ، الى العالـم العربي • وهاجـم فرح أنطون الاستبداد ، وقال ان الحاكم يجب ألا يحكم وفـق رغباته ، بل بموجب القوانين التي وضعها ممثلو الشعب علىاختلافطوائفه•

وآمن فرح أنطون ، مثل شبلي شميّـل ، بالاشتراكية العلمية التي وحدها توصل الشعب الى تحقيق الحرية والعدالة والمساواة • والدولةالتي ترتكز على هذه المبادىء تحقق القوة الوطنية والسلام بين الشعوب [1]•

Hourani, 253-259

١ – انظر شرح آراء فرح أنطون

وانظر أيضاً : هشام شرابي ، المثقفون العرب والغرب ، بيروت ، ١٩٧١ ، ٨٤ •

وعلى نقيض هؤلاء المفكرين المتحررين العلمانيين ، وقف سوري آخر هو محمد رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) ، يدعو ، على غرار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، الى بعث الامة الاسلامية وتطبيق مبادىء الاسلام الاولى ، في عهد السلف الصالح ، والى الملاءمة بين العلم الحديث وقواعد الدين • ولكنه ، على نقيضهما ، آمن بالقومية العربية تجمع بين أبناء الامة الواحـدة •

ولد رشيد رضا في عـام ١٨٦٥ ، في طرابلس الشام ، وبدأ تعليمه على الطريقة التقليدية ، ثم انتسب الى المدارس الحديثة في طرابلس ، حيث تعلم بعض العلوم الحديثة ، بالاضافة الى اللغة الفرنسية • وفي عام ١٨٩٧ ذهب الى مصر ، حيث حصل على درجة العالمية ، وأمضى هناك بقية حياته يصدر جريدة « المنار » ، التي استمر يصدرها ، مع بعض الانقطاع ، بين عامي ١٨٩٨ و ١٩٣٥ • وقد ترك عدداً من الكتب ، كان بعضها مجموعة مقالات نشرها على صفحات « المنار » • ومن أشهر مؤلفاته كتابه « تاريخ الاستاذ الامـام » ، الذي ترجـم فيه لاستاذه محمد عبده • ويؤرخ هـذا الكتاب بحق للفكر الاسلامي ـ العربي في القرن التاسع عشر • ومن كتبه المشهورة كتاب « الخلافة » الذي وصف بأنه أحسن عرض موثق للنظرية الاسلامية في الدولة منذ ظهـور كتاب « الاحكام السلطانية » للماوردي ، قبل قرابة تسعة قرون •

تأثر رشيد رضا أشد التأثر بتعاليم محمد عبده ، الذي زار طرابلس أكثر من مـرة ، وشده اليه شعور من عـدم الرضا بالوضع الذي وصلت اليه البلاد الاسلامية والرغبة باصلاح ذلك • وأصبح رضا الزعيم الروحي للحركة السلفية ، التي دعا اليها من قبله الافغاني وعبده ، ونادت بالعودة الى السلف الصالح ، حين كانت الخلافة العربية في الأوج • وقد تساءل رشيد رضا عن أسباب تخلف العالـم الاسلامي آنذاك في مجـال العلـم والحضارة ، وذلك ليس فقط بالمقارنة مع أوربا ، بل بالمقارنة مع المسيحيين

الشرقيين ، الذين ، بعد قرن من الاحتكاك بالحضارة الغربية ، سواء عن طريق المدارس أم التجارة ، صبحوا رواد النهضة • وقال لو اتبعت تعاليم الاسلام بشكلها الصحيح فستؤدي الى النجاح في هذه الدنيا وفي الآخرة • وأنشأ دار الدعوة والارشاد في القاهرة لتهيئة الدعاة والموجهين الدينيين المسلمين•وكونه من بلاد الشام ، التي وصف المصريون المهاجرين منها الى مصر بالدخلاء ، أبقاه على هامش الحياة السياسية في مصر ، ولكن انتسابه الى محمد عبده جعله يقوم بدور فيها • وبعد أن انتقد ، على غرار محمد عبده ، الاسرة العلوية ، عاد وتصالح معها ، ومن هنا دعم الخديوي لدار الدعوة التي أنشأها • واقتضى وقوفه الى جانب الخديوي تأييده لعلي اليوسف ، الناطق باسم الخديوي [1] ، ومهاجمته لمصطفى كامل [2] والحركة الوطنية المصرية •

وفي عدد من المقالات في « المنار » ، وقف رشيد رضا الى جانب العرب ضد العثمانيين ، ونوه بالدور الذي لعبه العرب في الفتوحات الاسلامية ، وأشار الى ازدهار الدين الاسلامي في عهدهم • وقد هاجم السلطان العثماني عبد الحميد الثاني بسبب استبداده ، وذعا الى وحدة جميع العثمانيين لاستبدال حكومة الشورى بالحكم الاستبدادي ، وفقاً لتعاليم الاسلام • وحين قضت ثورة تركيا الفتاة ، في عام ١٩٠٨ ، على استبداد عبد الحميد ، وأجبرته على اعادة اعلان الدستور ، أيدها رشيد رضا ، وغيره من العرب ، على أمل تحقيق علاقات أفضل • ولكن تحول الحكومة التركية الجديدة الى تبني القومية الطورانية ، التي تعود الى ما قبل الاسلام ، وتتنكر للاخوان في الدين ، جعل العرب يعارضونها ، واستمال رشيد رضا الى جانب مطالب العرب في الحصول على الحكم الذاتي ، ضمن الاطار العثماني • وقد أسهم في تشكيل حزب اللامركزية الادارية العثماني [3] في القاهرة • كما أنه

---

١ ـ انظر ص ٥٠٨ •
٢ ـ انظر ص ٥٠٥ •
٣ ـ انظر ص ٥٣٦ •

أنشأ جمعية شبه سرية تسمى « جمعية الجامعة العربية » ، تهدف الى ايجاد نوع من الوئام بين ملوك الجزيرة العربية ، بغية فرض ضغط أكبر على الأتراك لصالح العرب • وأصبح للقضية العربية المكانة الاولى على صفحات « المنـار » •

وقد لعب رشيد رضا ، ابان الحرب العالمية الاولى ، دوراً فعالا في الدفاع عن استقلال العرب • ووجد في سياسة التتريك التي اتبعها جمال باشا خطراً على العرب ولغتهم • ولذلك أهاب رشيد رضا بالعرب بأن واجبهم الديني انقاذ اللغة العربية وان كان ذلك سيؤدي الى مقاومة العثمانيين واضعاف دولة مسلمة شقيقة،وما يقتضيه هذا من خطر السيطرة الاوربية • وقام رشيد رضا ، في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، بدور هام في الحركة الوطنية العربية وفي مقاومة الحكم الفرنسي لسورية ، وذلك حين أصبح رئيس المؤتمر السوري في ١٩٢٠ ، وعضواً في المؤتمر السوري-الفلسطيني المنعقد في جنيف في ١٩٢١ ، وعضواً في اللجنة التنفيذية التي أقامها هذا المؤتمر في القاهرة والتي ناصرت الاستقلال السوري والفلسطيني •

ولا أدل على المفهوم العربي القومي الذي كان نامياً لدى رشيد رضا مما كتبه في «المنار» (المجلد ٢٠ لعام ١٩١٧-١٩١٨)، من أنه أخ في العرق للآلاف تلو الآلاف من العرب ، مسلمين وغير مسلمين • وعندما سئل عن رأيه في القومية الحديثة كتب في « المنار » عام ١٩٣٣ يقول انها ليست سوى وحدة سكان الوطن ، الذين يمكن أن يختلفوا في المذهب ، ولكنهم يظلوا يتعاونون في الدفاع عن وطنهم المشترك ، وفي الحفاظ على استقلاله، وفي استعادته اذا ما فقدوه ، وفي زيادة رخائه [1] •

ولعله من الطريف أن نعرف رأي رشيد رضا ، الذي عاش طويلا

---

١ ـ انظر حول رشيد رضا الدراسة التحليلية التي قام بها :
Hourani, 222-244, 299-306.

وانظر أيضاً : الامير شكيب ارسلان : السيد رشيد رضا او اخاء اربعين عاماً دمشق ، ١٩٣٧ •

وشهد أحداثاً جساماً في الوطن العربي والدولة العثمانية والعالم ، في الشيوعية التي ظهرت في موسكو ابان الحرب العالمية الاولى • يقول ان البلشفية اسم أخر للاشتراكية ، وتعني الاشتراكية تحرير العمال من الرأسماليين والحكومات المتعسفة ، وعلى المسلمين أن يأملوا بنجاحها لأنهم هم أيضاً عمال ويقاسون من الاضطهاد نفسه ، واذا انتصرت الاشتراكية فسينتهي استعباد الشعوب [١] •

واذا كان الشعور القومي العربي أكثر ظهوراً لدى رشيد رضا مما كان عليه الأمر لدى الأفغاني وعبده ، فان هذا الشعور بلغ درجة أكبر لدى عبد الرحمن الكواكبي • وفي الواقع ، يمكننا القول ان تفكير الكواكبي يعتبر نقطة الوصل بين دعاة الاصلاح الديني وبين أصحاب الاتجاهالقومي العربي ، فهو ، كالمصلحين ، دعا الى اقامة الخلافة ، ولكنه اشترط أن يكون الخليفة عربياً لا تركياً • كما أنه يشترك مع دعاة التحرر العلمانيين بقوله باشتراكية متطرفة •

ولد عبد الرحمن الكواكبي في حلب حوالي عام ١٨٤٩ • وقد بدأ حياته المهنية في الصحافة والقانون ، واشترك في عام ١٨٧٨ في تحرير جريدة « الشهباء »، وهي أول جريدة عربية صدرت في حلب • ثم أنشأ بعد عام من ذلك جريدة « الاعتدال » • وشغل الكواكبي عدة وظائف ادارية قبل تسميته رئيساً لبلدية حلب عام ١٨٩٢ • وقد أثار استبداد السلطان عبد الحميد الثاني نقمة عبد الرحمن فرفع صوته بالشكوىوالنقد ضد السلطان وضد مستشاره أبي الهدى الصيادي الحلبي مما أدى الى اضطهاده • وأخيراً لجأ الى مصر حيث توفي عام ١٩٠٢ •

وقد خلف لنا الكواكبي كتابين مشهورين : أم القرى ، وطبائع الاستبداد • وقد طبع الكتابان في مصر ووزعت بعض نسخهما سراً في سورية • ويشتمل كتاب أم القرى على وقائع مؤتمر تخيّل المؤلف أنه

---

١ ــ انظر : Hourani, 304.

عقد في مكة وضمّ اثنين وعشرين عالماً ، يمثل كل منهم بلداً من بلدان العالم الاسلامي ، وكلهم يحسنون اللغة العربية ، ولهذا أهميته لأنه يعكس لنا تفكير الكواكبي القومي واعتزازه باللغة العربية • وقد هدف المؤلف من تصور وسرد المناقشات التي دارت في المؤتمر الى نقد واقع الشعوب الاسلامية وعرض آرائه الاصلاحية على لسان العلماء المختلفين • واتفق العلماء على أن أسباب المصير الذي آل اليه المسلمون هي دينية وفكرية وسياسية ، فلم يعد الناس يتمسكون بتعاليم الدين كالسابق ، وحل مكان الاعتقاد بحرية الارادة الاستسلام للقدر،وسخّر بعض رجال الدين أنفسهم لخدمة الحاكمين المستبدين ، وسيطر الجهل على السكان ، وحال الجبن الأخلاقي دونهم والمطالبة بحقوقهم ، وأمات الخوف نفوسهم •

أما كتاب طبائع الاستبداد فكان في الأصل مجموعة مقالات تدور حول موضوع الاستبداد ونقد الحكومات المستبدة،وقد نشرت بمعظمها في الصحافة المصرية • ولم يقصد بالاستبداد حكم الفرد فقط ، بل يمكن للحكومة الدستورية أن تكون مستبدة اذا لم تكن السلطة التنفيذية خاضعة للسلطة التشريعية ، واذا لم تكن هذه مسؤولة أمام الشعب • والاستبداد يسيء الى أخلاق الامة ، لأن الشعب يضطر الى ممارسة الكذب والخداع والنفاق والتذلل [1] وتنعدم المحبة ، المحبة للبلد وللاصدقاء وحتى للعائلة ، ويحل الخوف والريبة مكان الثقة المتبادلة • وفي عهد الحكومة الطاغية تبعثر موارد الامة ، ويكون نصيب الشعب البؤس والفقر ، ويُستغل حتى الدين لالهاء الشعب عن واقعه المؤلم • يقول الكواكبي : « والخلاصة ان المستبد يتخذ المتمجدين سماسرة لتغرير الامة باسم خدمة الدين ، أو حب الوطن ، أو توسيع المملكة ، أو تحصيل منافع عامة » [2] •

---

١ ــ انظر : طبائع الاستبداد ، حلب ، ١٩٥٧ ، ص ١٢٢ ــ ١٢٣ •
٢ ــ المصدر السابق ، ص ٦٢ •

يعتبر الكواكبي أول مفكر عربي عالج في كتاباته المفهوم الحديث للقومية العربية • وكان أول من تبنى قضية العرب ضد الاتراك • وقد فرّق بين مفهوم الحركة العربية وفكرة الجامعة الاسلامية التي نادى بها جمال الدين الأفغاني وتبناها السلطان عبد الحميد لخدمة أغراضه وابقاء العرب خاضعين له • وانتقد الكواكبي الامبراطورية العثمانية لانها تتبع سياسة متحيزة تجاه القوميات المختلفة التي تتألف منها • وأشار الى أن العرب ، الذين يشكلون نحو ثلثي سكان الامبراطورية ، محرومون من حقهم في المناصب الحكومية ومن التمتع بواردات مناطقهم • ولهذا رفض الكواكبي فكرة الخلافة العثمانية ، ونادى باعادة الخلافة الى العرب• وقد بنى آراءه في ذلك على الدور الذي لعبه العرب في قيام الاسلام وانتشاره ، وعلى المكانة الخاصة التي تمتع بها العرب في العالم الاسلامي بحكم لغتهم وتاريخهم •

وأشار الكواكبي الى أن الجزيرة العربية هي قلب العالم الاسلامي، ولذلك وجب نقل مركز الثقل في هذا العالم من استانبول اليها • وفي حديثه عن العرب في كتابه أم القرى [1] ، ذكر الكواكبي أنهم « أقدم الأمم اتباعاً لاصول تساوي الحقوق وتقارب المراتب الاجتماعية •• وهم أعرق الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية •• ومن أحرص الامم على احترام العهود عزة ، واحترام الذمة انسانية ، واحترام الجوار شهامة ، وبذل المعروف مروءة » • وفي كلام الكواكبي عن أهمية اللغة العربية ، ذكر أنها « من أغنى لغات المسلمين في المعارف ، وهي مصونة بالقرآن الكريم من أن تموت » [2] •

لقد آمن الكواكبي بالوطن العربي يضم جميع أبنائه ، وبالرابطة القومية تنتظم صفوفهم • ودعا الى التآخي بين الطوائف وتناسي الأحقاد

---

١ ـ انظر : ص ٣٠٣ـ٣٠٤ ، من الطبعة التي نشرها محمد عماره بعنوان : الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ، القاهرة ، ١٩٧٠ •

٢ ـ المصدر السابق ٣٠٣ •

التي أثارها أصحاب الغرض ، وقال : « يا قوم ، وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين،أدعوكم الى تناسي الاساءات والاحقاد ، وما جناه الآباء والأجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين ، وأجلكم أن لا تهتدوا الى وسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون » [1] .

وهتف في كتاب طبائع الاستبداد : « لتحي الامة ، ليحيى الوطن ، لنحيى طلقاء أعزاء » . وقد جعل العروبة والاخلاص للوطن مقياس الولاء بين أفراد الامة . وأهاب بالناشئين أن يكتبوا على جباههم : « أكون حيث يكون الحق ولا أبالي ؛ أنا حر وسأموت حراً ؛ أنا مستقل لا أتكل على غير نفسي وعقلي ؛ أنا انسان الجد والاستقبال لا انسان الماضي والحكايات ؛ الحياة كلها تعب لذيذ ؛ الشرف في العلم فقط » ونصحهم : « ان ابنوا قصور فخاركم على معالي الهمم ومكارم الشيم ، لا على عظام نخرة.وان تعلموا أنكم خلقتم أحراراً لتموتوا كراماً ، فاجهدوا أن تحيوا تلكما اليومين حياة رضية ، يتسنى فيها لكل منكم أن يكون سلطاناً مستقلا في شؤونه ، لا يحكمه غير الحق ، ومديناً وفياً لقومه لا يضن عليهم بعين أو أعون ، وولداً باراً لوطنه ، لا يبخل عليه بجزء من فكره ووقته وماله، ومحباً للانسانية يعمل على أن خير الناس أنفعهم للناس ، ويعلم أن الحياة هي العمل .. » [2] .

ومما يميز الكواكبي عداؤه الشديد لعدم المساواة الاجتماعية واستغلال الانسان للانسان . ونبّه الى أن العرب أهدى الأمم لاصول المعيشة الاشتراكية . وأشار الى أهمية الجهد وضرورة مكافأته . قال الكواكبي: « ... لا يقتضي أن يتساوى العالِم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النافع أو الصنعة المفيدة بذاك الجاهل النائم في ظل الحائط ، ولا ذاك التاجر المجتهد المخاطر بالكسول الخامل ، ولكن العدالة تقتضي غير ذلك

١ - انظر : طبائع الاستبداد ، ١١٨ - ١١٩ .
٢ - المصدر السابق ، ١٥٣ - ١٥٤ .

التفاوت بل تقتضي الانسانية أن يأخذ الراقي بيد السافل فيقربه من منزلته ويقاربه في معيشته ويعينه على الاستقلال في حياته »[1]. ويقول الكواكبي أيضاً « ... لا يطلب الفقير معاونة الغني ، انما يرجو أن لا يظلمه ، ولا يلتمس منه الرحمة ، انما يلتمس العدالة ، لا يؤمل منه الانصاف ، انما يسأله أن لا يميته في ميدان مزاحمة الحياة »[2] . وطالب الكواكبي « أن تكون الأراضي والأملاك الثابتة وآلات المعامل الصناعية الكبيرة مشتركة الشيوع بين عامة الامة ، وان الأعمال والثمرات تكون موزعة بوجوه متقاربة بين الجميع ، وأن الحكومة تضع قوانين لكافة الشؤون حتى الجزئيات وتقوم بتنفيذها » .

لقد عاش عبد الرحمن الكواكبي أفكاره الاشتراكية ، واتخذ الفقراء أصدقاء له حتى أنه لقب بأبي الضعفاء . وقد قال فيه رشيد رضا انه رجل عظيم من رجال الاصلاح الاسلامي ، وعالم من علماء العمران ، وحكيم من حكماء الاجتماع البشري .

وقد ثار، وما يزال ، كثير من الجدل حول اصالة أفكار الكواكبي في مجال الاستبداد[3] . فمن قائل أنه اقتبسها من الكاتب الايطالي الفيري (Alfieri) الذي ترجم كتابه عن الاستبداد الى التركية ، ومن قائل أنه اقتبسها من منتسكيو أو غيره . وسواء صح ذلك أم لم يصح ، فانه لا ينتقص من ادراك الكواكبي للأوضاع السياسية التي سادت في عصره . كما أن الاستبداد الذي مارسه السلطان عبد الحميد ، وعانى منه الكواكبي ، مما ألجأه الى مصر ، أثار لدى أحرار العرب كثيراً من النقد والذم[4] .

---

١ ـ المصدر السابق ، ٧٩ .

٢ ـ المصدر السابق ، ٧٩ .

٣ ـ انظر مثلا المقالات المتعددة للمؤلفة اليهودية Sylvia Haim

٤ ـ انظر حول الكواكبي الدراسات التالية :
Khaldun al-Husri, 55-112; Hourani, 271-273;

وانظر كذلك : نوربير تابييرو ، الكواكبي المفكر الثائر ، ترجمة علي سلامة ، بيروت ، ١٩٦٨ .

واذا كان الكواكبي قد ظهر في الشرق يعارض الاستبداد الحميدي، ففي باريس ظهرت حملة أخرى ضد عبد الحميد يقودها نجيب عزوري. وسبق لنجيب أن شغل وكالة متصرفية القدس مما أتاح له الإطلاع على أحوال الدولة العثمانية ، وذلك قبل انتقاله الى فرانسا ، حيث أسس « عصبة الوطن العربي » ، في عام ١٩٠٤ . وكانت تهدف الى تحرير سورية والعراق من الحكم العثماني ، وحرضت في منشوراتها على الثورة. وأصدر في العام التالي كتاباً باللغة الفرنسية بعنوان « يقظة الامة العربية ». ثم أصدر ، بعد سنتين ، مجلة شهرية اسمها « الاستقلال العربي » ،وظهر العدد الاول منها في نيسان ١٩٠٧ ، وكان هدفها نشر المعلومات عن البلاد العربية واثارة الاهتمام بذلك ، وقد توقفت عن الصدور باعلان الدستور العثماني في ١٩٠٨ ، واذا كانت جهود عزوري قد أثارت بعض الاهتمام في أوربا الا أنها كانت عديمة الفائدة بالنسبة للحركة في المشرق .

وفي كتابه « يقظة الامة العربية » أكد عزوري آيمانه بوجود أمة عربية واحدة ، تضم المسيحيين والمسلمين على حد سواء . وذكر أن المشاكل الدينية التي تنشأ بين أبناء هذه الامة سببها سياسي أكثر مما هو ديني،أما حدود الامة العربية التي تحدث عنها فتقتصر على المشرق العربي. وقد هاجم الاتراك الذين أخروا العرب ، ولم يعتقد بامكانية الاصلاح في الدولة العثمانية . ولهذا فالسبيل الوحيد أمام العرب هو العمل للاستقلال، حتى بمساعدة أوربا . وقال برئاسة سلطان عربي مسلم للدولة العتيدة ، وباقامة خليفة عربي في الحجاز ، وباحترام الاستقلال الذاتي لكل من لبنان ، ونجد ، واليمن . ولعل عزوري أول من لفت الانتباه الى مطامع الصهيونية في فلسطين [1] .

لم تزل حركة التحرر القومي ، التي رأينا نشأتها في بلاد الشام في الصفحات السابقة ، في بدايتها ، ولم تتجاوز نطاق الحركة الأدبية قبل

---

١ ــ انظر بشأنه : Hourani, 277-279; Antonius, 98-9.

الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، كما أنها لم تثر أكثر من أشخاص قلائل هنا وهناك • الا أنها في عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦-١٩٠٩)، خطت خطوات حاسمة ، وانتقلت من حركة أدبية الى حركة سياسية • كما أن بوادر الوعي القومي ، التي ظهرت أول ما ظهرت في بلاد الشام، بدأت تنتشر الى الأقطار العربية المجاورة •

وظهر أول جهد سياسي منظم عام ١٨٧٥ ، حين أسس بعض الشباب المثقف جمعية سرية في بيروت • ووضعوا برنامجاً قومياً متبعين طريقة جديدة للتصريح به بواسطة الاعلانات والنشرات الثورية التي وزعت وعلقت على الجدران سراً في مدن سورية ولبنان • وحملت هذه النشرات على مساوىء الحكم التركي ، وحضت الشعب على الثورة والاطاحة به • ولما ازدادت وطأة استبداد عبد الحميد رؤي من الحكمة تعليق نشاطها • أما مضامين هذه النشرات فتؤكد أهمية الوحدة بين عناصر الشعب المختلفة، وتحضهم على نبذ خلافاتهم ، وتوحيد جهودهم تحت شعار العروبة • وهي موشحة في أعلاها بشعار سيف مسلول كتبت تحته العبارة التالية : « بالسيف تتحقق الأهداف البعيدة فجرده ان كنت ترغب في النجاح » • وجاء في النشرة الثالثة أول تعبير مسجل لبرنامج سياسي عربي اذ بدأت بذكر مساوىء الحكم التركي التي منها القضاء على اللغة العربية،وسردت « بعد التشاور مع حلفائنا في كل البلاد » بنود البرنامج الذي تنوي الجمعية تنفيذه بالقوة اذا اقتضى الأمر ، وأهم نقاطه ما يلي : منح الاستقلال لسورية بعد توحيدها مع لبنان ، الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد،ازالة الرقابة على الصحف والقيود على حرية التعبير ونشر الافكار، واستخدام الفرق العسكرية المحلية في الخدمة المحلية فقط •

يلاحظ على الأهداف السابقة أنها أول أهداف صادرة عن أقدم منظمة سياسية • ولكنها تبدو ، بالنسبة لزمنها وللحوادث التالية ، انها سابقة لأوانها ، بمعنى أنها افترضت تطور الوعي القوي بشكل أوسع مما

كان فعلا • كما أنهـا دعت للنضال السياسي مدعومـاً بثورة مسلحة اذا اقتضى الأمر • ولهذا فشلت في هـذه الناحية ، ولكنهـا أثمرت في نواح أخرى ليس أقلها صهر رغبات الشعب ، التي لم تتبلور بعد ، وراء أهداف محددة ، واعطاؤهـا الوعي القومي بذلك حافـزاً للتقدم • كما دعت الى تبني مفهوم جديد يقوم على بناء دولة مستقلة ذات أسس قومية صرفة • فالعمل عـلى توحيد سورية ولبنان ، بعد أن فرض للبنان نظـام خاص في ١٨٦٤ ، يعكس لنا رفض فكـرة التقسيم والتجزئة والميل نحو الوحـدة بالتالي • أما الهدف الآخر فيعكس الغرض الأدبي للحركة ، وهو ارجاع العربية الى مكانتهـا ، ومكافحة الجهل والتعصب ، بعد أن فرض استعمال التركية على نطاق واسع في سورية وفق خطة المركزية الشديدة التيبدأت عام ١٨٦٤ • ولم يقتصر الامر على هذا فقد فرضت الرقابة الشديدة عـلى المطبوعات بعد الغاء عبد الحميد الدستور مما حزّ في نفوس أعضاء جمعية بيروت السرية وجلهـم من الأدبـاء والعلماء • وأريـد باستخدام الفرق المحلية منـع ارسال الفرق العربية المجندة في سورية لمحاربة اليمنين بعد أن فشل العثمانيون بعد ١٨٧٢ في فرض سيطرتهم الكاملـة عـلى اليمن ، فلجـأوا الى هـــذه الوسيلة لضعف مقاومـة اليمنين للجنود العثمانيـين العرب • كما أن بعض هذه الفرق أرسل للاشتراك في الحرب الروسيةـ التركية • وهكذا يمكننا اعتبار العمل الثوري لجمعية بيروت السرية أول حلقة في سلسلة حركات متتابعة ، وهي وان انعدمت نتائجها الملموسة الا أن أهدافها أصبحت شعاراً للحركات السرية [1].

ورغم وجود حركات وطنية وقومية في عدد من الأقطار العربية في هذه الفترة فلـم يكن هناك تعاون واع بـين هـــذه الحركات المختلفة ، فالمواصلات البطيئة عقبة في سبيلذلك ، والخطوط الحديدية غير معروفة آنذاك في العالـم العربي ، والصحافة مكمومـة ، كما أن تنقلات الأفراد

١ ـ انظر Antonius, 79-89.

مقيدة ، وهذا ما يعيق حركة عربية شاملة في ذلك الزمن • ومع ذلك يمكننا القول أن بوادر الاضطراب التي ظهرت في سورية قد انتقلت الى البلاد العربية الاخرى ونتج عنها حركات موضعية • ويجب أن ننتظر مدة ثلاثين سنة أخرى ، حتى عزل عبدالحميد ومجيء حكم دستوري تركي، أكثر استبداداً في الحقيقة ، لنرى ثورة عربية شاملة •

وفي محاولة من السلطة العثمانية ، في عهد عبد الحميد الثاني ، لتوطيد سيطرتها في البلاد العربية ، قسمت بلاد الشام في ١٨٨٧ الى ثلاث ولايات وصنجقين : ولاية حلب في الشمال ، ولاية بيروت في الغرب، وولاية سورية في الشرق ، ثم صنجق لبنان وصنجق القدس • وقسم العراق كذلك الى ولايات ثلاث : الموصل في الشمال ، وبغداد في الوسط، والبصرة في الجنوب • أما في الجزيرة العربية فقد عين وال للحجاز في ١٨٤١ ، وأخفقت حملة في اخضاع اليمن في ١٨٤٩ ، ونجحت أخرى جزئياً في حوالي ١٨٧٥ (١) ، بعد شق قناة السويس ، واستعادت الدولة العثمانية سيطرتها على بعض المدن الرئيسية • كما انتزع العثمانيون في منطقة الخليج العربي الاحساء من الوهابيين في ١٨٧١ • أما في منطقتي نجد وشمّر ، في الداخل ، حيث يتنازع ابن سعود مع ابن رشيد ، فلم تكن السلطة العثمانية ذات قيمة وسلكت هاتان السلالتان سلوك المستقلين• ووجد العثمانيون منافساً لهم في بريطانيا التي احتلت واحة البريمي في ١٨٥٧ ، وعقدت معاهدة مع سلطان مسقط ،كما احتلت عدن في ١٨٣٩ • وخسر العثمانيون جميع شمال افريقية ، في القرن التاسع عشر ، باستثناء ليبيا التي سلخت عنهم في ١٩١٢ •

وفي هذه الفترة تنطوي مصر على نفسها وتنسحب من الحركة العربية لتتبع سياسة قومية خاصة بها • وكانت الحركة القومية في مصر حتى عصر اسماعيل تسير جنباً الى جنب مع الحركة في بلاد الشام ، فيما

---

١ ـ انظر ص ١٨٣ •

يختص باحياء التراث العربي • وكل ردة فعل في الواحدة لها استجابة في الاخرى • ولكن حين احتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ ظهر تيار جديد مصري الايحاء يهدف قبل كل شيء الى انسحاب قوات الاحتلال • وبهذا ولدت القومية المصرية ، واتخذ زعماؤها طريقا ازداد انفصاله عن الحركة العربية العامة على مر السنين • ورغم هذا بقيت العلاقات الثقافية تربط مصر والعالم العربي اذ أصبحت مصر ملجأ لأحرار العرب بعد أن ضعفت سيطرة السلطان عليها • وهذا ما حدث بالنسبة للمغرب العربي الذي حاول أولا التخلص من الاستعمار الفرنسي ، ولذلك اقتصرت الحركة القومية العربية على بلدان المشرق العربي • ولم تتوحد الحركات القومية في البلاد العربية كافة الا بعد الحرب العالمية الاولى ، حين تلا تحرر العرب من العثمانيين الاحتلال الأجنبي بدلا من الاستقلال •

وهكذا نرى أن فترة حكم السلطان عبد الحميد ، على وجه العموم، هي فترة نمو بطيء بالنسبة للفكرة القومية ، التي أسفرت عن نفسها • ولم تظهر نفسها الا في مرحلتين : الاولى عند بدء حكمه بجمعية بيروت السرية ، والثانية في أواخره بظهور الجمعيات السياسية •

ولم تستطع سياسة عبد الحميد على شدتها ، منع انتشار أفكار التحرر ، والحكومة المسؤولة ، ونظام الاحزاب ، وحرية التعبير بين الشعب • كما أنها لم تستطع منع تطور الصحافة اليومية والشهرية باللغة العربية التي لم يسمح لها ، بالطبع ، بالتصريح بما تريد كتابته ، ولكنها رفعت مستوى التفكير والفهم السياسيين وعملت كقوة فكرية موحدة •

وظهرت في أواخر حكم عبد الحميد حركتان متعارضتان تعمل احداهما على الحد من سلطاته وارجاع دستور ١٨٧٦ كخطوة أولية لبعث الامبراطورية ، وهذا هو برنامج جمعية « تركيا الفتاة » التي انتظم أفرادها بعد ذلك في « جمعية الاتحاد والترقي » • أما الحركة الاخرى فهي التي اقتصرت على البلاد العربية وحدها وطالبت بالوحدة والحكم الذاتي • ولم

تتميز هاتان الحركتان في البدء عن بعضهما لانهما تسعيان نحو هدف مشترك عاجل وهو الاطاحة بعبد الحميد واستبداده ، ولان بعض الاحزاب العربية كانت تطمع بالاستقلال الذاتي في الامبراطورية العثمانية كخطوة أولية نحو الاستقلال التام بعد ذلك •

هذا وكنا ذكرنا [1] أن الاصلاح من الأعلى في الدولة العثمانية قد فشل في استقطاب الوطنيين وامتصاص نقمة الشعب ، ولذلك لم يكن بد من ثورة جذرية تطيح بالاصول كلها ، وهذا ما حصل حين اضطر عبد الحميد تحت ضغط ثورة عسكرية نظمتها جمعية الاتحاد والترقي الى اعلان دستور مدحت باشا من جديد في ٢٤ تموز ١٩٠٨ • وانضم الى هذه الجمعية بعض العرب بصفتهم مواطنين عثمانيين لا قوميين عرب ، كما برز فيها بعض اليهود ، الذين أتو بالدرجة الثانية بعد العثمانيين ، بالاضافة الى قوميات أخرى ، يجمعهم هدف مشترك وهو التخلص من الحاكم المستبد واعادة الدستور •

هلل العرب كثيراً للانقلاب الجديد وظنوه خطأ عهد تحرر حقيقي غير عالمين بدعوته الى تمثيل جميع الرعايا في دولة تركية تتخذ التركية لغة رسمية لها • وفي وسط هذا الحماس أعلن تأسيس أول جمعية عربية وهي « الاخاء العربي العثماني » في اجتماع ضم العرب والأتراك في استانبول في الثاني من ايلول ١٩٠٨ • ومن أغراضها حماية الدستور ، وصهر العرب والعثمانيين ، ومساواة المقاطعات العربية مع غيرها من مقاطعات الامبراطورية العثمانية ، واستعمال اللغة العربية في التعليم ، ومراعاة التقاليد العربية • وأتيحت عضويتها لجميع العرب على اختلاف عقائدهم ، كما تأسست لها فروع في العالم العربي ، وأصدرت جريدة تنطق باسمها •

حصل أول انقسام بين العرب والعثمانيين في الانتخابات التي جرت

---

١ ـ انظر ص ٣٧٨ وما بعد •

للبرلمان الجديد بعد اعلان الدستور اذ تحيز أعضاء جمعية الاتحادوالترقي ضد العرب • ومع أن الاحصاءات التقريبية لسكان الامبراطورية تشير الى كثـرة العرب اذ كان عددهـم عشرة ملايين ونصف مقابل سبعة ملايـين ونصف للاتراك وأربعة ملايين لقوميات أخرى ، فقد حصلوا عـلى ستين مقعداً مقابل مائـة وخمسين للاتراك من أصل ٢٤٥ مقعدا • وكان لهم في مجلس الشيوخ الذي يعينه السلطان ثلاثة مقاعد من مجموع أربعين مقعدا • وازداد هذا التحيز بعد زحف محمود شوكت باشا على العاصمة من سالونيك في ٢٤ نيسان ١٩٠٩ وخلع عبد الحميد ، الذي حرض في ١٣ نيسان حرسه على التمرد ومهاجمة النواب ، مما سبب مقتل النائب العربي محمد رسلان • واتبع أعضاء جمعية الاتحـاد والترقي ، التي حكمت مدة خمس سنوات باسم السلطان محمد رشاد الخامس ، سياسة استبدادية كـان مـن أولى ثمارها بالنسبة للعرب تعطيل جمعية الاخاء العربي العثماني ولما يمض على تأسيسها ثمانية أشهر •

ماهي أسباب هـذا التبدل في سياسة جمعية الاتحاد والترقي وهي التي دعت الى مساواة الجميع بموجب الدستور ؟ قـد يكون السبب كامنا في الدستور ذاته حـين فشل واضعه مدحت باشا في ادراك أهمية الوعـي القومي وضرورة مراعاته ، ولكن السبب أبعد من ذلك ، وهو تأثر أعضاء هذه الجمعية برئاسة أنور باشا بالفكرة الطورانية لتدعيم السياسة القومية التركية • وتؤكد هذه الفكرة الأصل الطوراني للاتراك ، كما تنص على أن السبيل الوحيد لاحياء العرق التركي هـو الاتحاد مع جميع طورانيي الأصل ، مع العلم أن أكثرهم يخضع للحكم الروسي • وهدفت الحركة الطورانية من وراء ذلك لا الى زيادة عدد الأتراك العثمانيين ، وهـم أقلية في الامبراطورية العثمانية ، كما رأينا ، فحسب ، بل الى مجابهة حركـة الجامعة السلافية وخطط روسيا في دعمها ، وكذلك الحركة القومية العربية أيضاً • وهكذا اكتشف العثمانيون فجأة ـ وهم الذين اعتبروا أنفسهم لعدة قرون أعضاء في الحضارة الاسلامية ومن روادها ـ اكتشفوا من جديـد ماضيهم

العرقي واللغوي في ما قبل الاسلام ، فحاولوا بعثه من جديد • وعلى هذا فالطورانية على نقيض الفكرة العثمانية التي تهدف الى توحيد القوميات المختلفة في الامبراطورية في دولة واحدة على أساس المساواة •

كان من نتائج هذه السياسة أن ذهل العرب مع غيرهم لان ذلك يعني بالنسبة لهم التخلي عن آمالهم في الاستقلال ، وتتريكهم • ولم تستطع الحكومة العثمانية الوقوف في وجه الحركات القومية التي استطاعت في الفترة بين ١٩١٠ — ١٩٢٢ تحطيم المركزية العثمانية وانشاء كيانات خاصة بها • وحين وضح للعرب ، بعد الغاء جمعية الاخاء العربي العثماني ، أن الحكومة الجديدة لم تكن أكثر عطفاً على أمانيهم من السلطان المخلوع تحولوا الى اتجاه عربي خالص يناوىء الفكرة القومية العثمانية أو الطورانية • كما أنهم اضطروا الى احاطة جهودهم بالسرية رغم أن بعضها بقي علنيا • وعملوا على توحيد كل المقاطعات العربية في الامبراطورية العثمانية ، وتضم بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية • وذهب بعض مفكريهم الى حد الدعوة بوجوب توحيد كل البلاد التي تتكلم العربية بما فيها وادي النيل وشمال افريقية • أما مراكز هذه الحركة فكانت سورية بصورة رئيسية •

لم تجرؤ الجمعيات العربية العلنية على الدعوة صراحة الى استقلال الولايات العربية لذلك تابعت برنامج جمعية الاخاء العربي العثماني التي تقول بالحكم الذاتي ضمن الامبراطورية العثمانية مع ادخال الاصلاحات، ومن هذه : المنتدى الأدبي ، وحزب اللامركزية الادارية العثماني •

أما المنتدى الأدبي فتأسس في استانبول عام ١٩٠٩ ، وضم موظفين ونوابا وأدباء وطلاباً ، من بينهم عبدالكريم الخليل الذي أصبح رئيساً له، وصالح حيدر ، ورفيق سلوم ، وجميل الحسيني وغيرهم • وأصبح ملتقى العرب في العاصمة العثمانية ، وأصدر مجلة باسمه أسهم في تحريرها نخبة من الأدباء عالجوا في مواضيعهم كل ما يتعلق بالعروبة • وتساهلت

السلطات العثمانية معه وشملته برعايتها في بعض الفترات لاسيما وأهدافه غير سياسية • وبالرغم من هذه الصفة فقد لعب دور الوسيط في التوفيق بين أهداف العرب وجمعية الاتحاد والترقي ، وأفاد القضية العربية بالدعوة لها عن طريق المناقشات التي كانت تجري في مراكزه المنتشرة في سورية والعراق • وظل يتابع رسالته الى أن أغلقته الحكومة الاتحادية في عام ١٩١٥ •

أما حزب اللامركزية الادارية العثماني فقد تأسس في القاهرة في أواخر عام ١٩١٢ ، وأسهم في تأسيسه نخبة من السوريين المقيمين في مصر ، وكان رفيق العظم رئيسه ، واسكندر عمون نائب الرئيس، وحقي العظم أمين السر • ومن بين الأعضاء رشيد رضا وفؤاد الخطيب وعلي النشاشيبي وغيرهم • وسعى نحو غايتين : حث الحكام الأتراك على ضرورة تبني نظام اللامركزية في الحكم ، وتكتيل الرأي العام العربي وراء هذا الهدف • ونص دستور الحزب على أن يعهد بادارته الى هيئة تتألف من عشرين عضواً مركزها مصر الى جانب هيئة تنفيذية من ستة أعضاء • وسمح له بافتتاح فروع في كل مدينة وقرية في البلاد العثمانية شريطة أن يوجد فيها عشرة يعتنقون مبادىء الحزب • وهو وان دخل في عضويته بعض الأتراك ، وشملت صفته البلاد العثمانية ، الا أنه بقي حزباً عربياً يعمل في سبيل أهداف عربية مما جعل نشاط فروعه في البلاد العربية يجري خفية وبتحفظ خوفاً من النقمة • وقد أقام علاقات مع الأحزاب العربية الاخرى • وأفاد القضية القومية بتكتيل جهود العرب في وجه المركزية العثمانية •

ظهرت بعد ذلك جمعيات سرية تدعو الى استقلال البلاد العربية نذكر منها : الجمعية القحطانية وجمعية الفتاة •

تأسست الجمعية القحطانية في أواخر عام ١٩٠٩ ودعت الى قلب الامبراطورية العثمانية الى ملكية ثنائية للرد على محاولات المركزة

العثمانية ، فتكون الولايات العربية ، وفق هـذا النظام ، مملكة موحـدة لها برلمانها وحكومتها ولغتها العربية على أن تكون جـزءاً من امبراطورية تركية ـ عربية كالامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية ، ويرتدي السلطان العثماني تاج المملكة العربية الى جانب التاج العثماني كأباطرة آل هابسبورغ في فيينا • وهكذا تتحقق الوحدة وتقام العلاقات التركية العربية على أسس دائمة وواقعية • أما وأهدافها واضحة جريئة كما هـي عليه فلا يمكـن التبشير بهـا علانية ، وتحتاج الى أعضاء ترتفع وطنيتهـم فوق الشبهات ، ولذلك اختيروا بدقة • وقد استمدت قوتها من شخصيات أعضائها ، وقامت بأول محاولة لكسب الضباط العرب في الجيش العثماني الى صفها ، فانضم اليها بعض كبارهم ، وساهم أحدهم في تأسيسها وهو عزيز علي المصري• وأنشئت لها فروع في البلاد العربية ، وكان لها كلمة سر للتعارف•وتجلى نشاطها على شكل واسع في السنة الاولى من قيامهـا الى أن ظهرت بوادر خيانة من أحد أعضائها ، رغم الدقة في اختيارهم ، فحال ذلك دون اتمامها مهمتها • وأهمل الاعضاء أمرهـا فانحلت من تلقاء نفسها •

وتأسست جمعية الفتاة في باريس عام ١٩١١ على يد سبعة من العرب كانوا يتابعون دراستهم فيها وهـم : رستم حيـدر ، عوني عبد الهادي ، جميل مردم ، محمد المحمصاني ، عبد الغني العريسي ، رفيق التميمي ، توفيق السويدي ، وانضم اليها غيرهـم • ولعبت دوراً حاسماً في تاريـخ الحركة القومية ودعت الى الاستقلال والتحرر من الحكم الاجنبي [1]• وامتازت بالحذر والسرعة في بلوغ أهدافهـا وتنظيم أساليبها والدقـة في اختيار أعضائها اذ كانوا يختبرون طويلا فيرشح أحـد الأعضاء القدمـاء العضو الجديد ولا يصبح من أفرادها حتى تثبت أمانته وجدارته فيدعـى

---

١ ـ يقول الدكتور أحمد قدري في كتابه : مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ، دمشق ١٩٥٦ ـ ص ١٢ : « وقد تحاشينا ذكر اسم الاستقلال في مضامين برنامج جمعيتنا وان كنا في السر نسعى ونعمل وراءه » •

آنئذ لأداء قسم تحقيق غايات الجمعية ولو كلفه ذلك حياته . ولا يتعرف الى كل الاعضاء وانما يكون العضو الذي رشحه واسطة الاتصال ومرجعه.
بقي مركـز جمعية الفتاة في السنتين الاوليتين في باريس ، ثـم انتقل الى بيروت في ١٩١٣ ، ومنها الى دمشق بانتقال مؤسسيهـا . واعتبر الاعضاء المؤسسون أنفسهم هيئة مركزية دون اجراء انتخابات ، كما كان للجمعية معتمدون فرديون في المدن المهمة . وبقيت أعمالها سراً حتى تحرر العرب من الحكم العثماني حيث حلت . ومما يجدر ذكره أن الديوان الحربي الذي أقامه جمال باشا في عاليه كشف الجمعيات السرية العربية كلهـا وأسماء المشتركين فيها باستثناء جمعية الفتاة وأعضائها بسبب السرية التي أحاطت بها أعمالها .

لم تكن هذه الجمعيات المتعددة الا دليلا على حيوية الوعـي القومي وتجاوبه مـع السكان اذ سرعان ما كانت ترفد الجهود السابقة بجهـود جديدة وتصبح الحركة أعـم وأكثـر شمولا . فـلا تكاد تظهـر جمعية الاصلاح في بيروت أواخر ١٩١٢ حتى يعقد المؤتمـر العربي في باريس وتبلغ الحركة ذروتها في جمعية العهد السرية .

دعت الى جمعية الاصلاح جماعة من الواعين تضم مختلف الطوائف وعلى رأسها أحمد مختار بيهم وسليم سلوم وأيوب ثابت . وعملت عـلى نيل الحكـم الذاتي عـلى غرار حزب اللامركزية الادارية العثماني الذي أنشىء في القاهرة والذي كانت على اتصال به . وأعلنت برنامجها في منتصف شباط ١٩١٣ ، ويرتكز على مبـدأ اللامركزية ، وتبقى شؤون الخارجية والدفاع والمواصلات والمالية تابعة للعاصمة ، وما عدا ذلك فيبقى في أيدي الادارة المحلية . كما أنهـا طالبت بجعل اللغة العربية لغة رسمية ، وبأن تستعمل في مجلس النواب الى جانب التركية ، وبجعل الخدمة العسكرية للعرب محلية .

قابل الشعب ظهور هذه الجمعية بمظاهر الابتهاج في مختلف البلاد

العربية الأمر الذي لم يرق للحكومة الاتحادية فداهمت مراكزها في بيروت في الثامن من نيسان ١٩١٣ وحلتها ، فعم الحقد اذ ذاك جميع السكان ، وأغلقت المصالح التجارية في بيروت ، وظهرت الصحف موشحة بالسواد بعد اعتقال أعضاء الجمعية البارزين . ولم تر السلطات الحاكمة بداً من الرضوخ ، فأطلقت سراح المعتقلين ، وأصدرت قانونا جديداً للولايات في ٥ أيار من العام ذاته يحقق بعض الاصلاحات لالهاء الشعب .

وجد بعض الاحرار ضرورة الاعراب عن أهدافهم في بلد محايد ونقل قضيتهم الى الصعيد الدولي اذا أمكن . فتألفت لجنة تحضيرية من عبدالغني العريسي ، جميل مردم ، عوني عبد الهادي ، محمد المحمصاني ، ندرة مطران ، وغيرهم ، وقررت عقد أول مؤتمر لهم في باريس . ووجهوا الدعوات الى الجمعيات العربية لحضوره . وجاء في الأسباب الموجبة لعقده : « ان مناظرات الاجانب ومغامرات الساسة العامة قد أوقفتنا على استقراء ما يجري بشأن البلاد العربية وخاصة زهرة الوطن سورية ، ولم يبق بين جمهور الناطقين بالضاد من لا يعلم أن ذلك نتيجة سوء الادارة المركزية . فحدا بنا ذلك الى الاجتماع في هذه المدينة والبحث في التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الارض المترعة بدم الآباء ورفات الأجداد من عداء الاجانب وانقاذها من صبغة التسيطر والاستبداد واصلاح أمورنا الداخلية على أساس ما يتطلبه أهل البلاد من قواعد المركزية حتى يشتد بها ساعدنا وتستقيم قناتنا فينقطع بذلك خطر الاحتلال والاضمحلال وتنتفي مذلة الرق وتخفت نأمة الاستعباد ويظهر للاعبين بحياة الشعوب أننا أمة تأبى الضيم ولا تستسلم للذل » . وقد رحب حزب اللامركزية وأعضاء جمعية الاصلاح المنحلة بذلك وأرسلوا وفودهم ، وافتتحت الجلسة الاولى في ١٨ حزيران ١٩١٣ في قاعة الجمعية الجغرافية في باريس .

حضر المؤتمر أربعة وعشرون عضواً نصفهم من المسلمين والآخر من المسيحيين ، وغالبيتهم من السوريين . وقد تمثل العراق بعضوين

وأرسلت الجالية العربية في الولايات المتحدة ثلاثة أعضاء • وعقد المؤتمر أربع جلسات رسمية برئاسة عبد الحميد الزهراوي استغرقت ستة أيام• وألقى الاعضاء خطباً نذكر بعض مواضيعها : تربيتنا السياسية ـ حقوق العرب في المملكة العثمانية ـ الحياة الوطنية في البلاد العربية العثمانية ـ أماني السوريين المهاجرين ـ تحية العراق للمؤتمر ـ الهجرة من سورية واليها ـ الاصلاح على قاعدة اللامركزية ، ورقي المهاجرين وتعضيدهم للمؤتمر •

وقد اقتصرت الجلسات الثلاث الاولى على العرب،ثم سمح للاجانب بدخول الجلسة الرابعة ، وجرت مناقشتها بالفرنسية•ومن مقررات المؤتمر: أن يكون تمتع العرب بحقوقهم السياسية مضمونا وذلك بأن يشتركوا في الأدارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا ، أن تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لا مركزية تنظر في حاجاتها ومتطلباتها للرقي ، أن تكون اللغة العربية معتبرة في مجلس النواب العثماني ، وان يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية ، أن تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية الا في الظروف والاحيان التي تدعو الى الاستثناء الأقصى • وأيد المؤتمر مطالب الأرمن العثمانيين القائمة على أساس اللامركزية وأرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم ، كما حيا العراق •

ورأى المؤتمر أنه اذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها فالأعضاء المنتخبون في لجان الاصلاح العربية يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية الا بموافقة خاصة من الجمعيات التي ينتمون اليها • وأقر المؤتمر أن تكون القرارات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانين ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات النيابية الا اذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وتنفيذه • وسلمت نسخة من قرارات المؤتمر الى السفارة العثمانية في باريس ،

استاءت الحكومة الاتحادية من مقررات المؤتمر • وكانت قد حاولت احباطه ، ولما فشلت باقناع الحكومة الفرنسية بمنع انعقاده أرسلت أمين سـر جمعية الاتحاد والترقـي لمفاوضة المؤتمرين ، فتوصلوا الى شروط مقبولة اذ اعترفت الحكومة بالتجنيد المحلي ، وجعل العربية لغـة رسمية في المقاطعات العربية واستعمالهـا في التدريس في المـدارس الابتدائيـة والثانوية العربية،كما وافقت على تعيين مشرفين أوربيين لاصلاح الادارة• وبالرغـم من أنهـا زادت في صلاحيات الادارة المحلية ، وأعطت بعض الوظائف العليا للعرب ، ونصت على ادخال ثلاثة وزراء عرب على الأقل في الوزارة التركية ، وتعيين عدد آخر في مجلس الشورى ومحكمة التميز والمشيخة الاسلامية ، بجانب اثنين عن كـل ولاية في مجلس الأعيان •• بالرغم من هذا كله ، لم تكن الحكومة الاتحادية جـادة في تعهداتها التي تساهلت فيها بسبب مصاعبها في البلقان • وهي وان أحاطت مندوبي مؤتمر باريس الثلاثة الذين أوفدوا الى العاصمة التركية بمظاهر الحفاوة الا أنها أصدرت فرماناً سلطانياً في ٨ آب ١٩١٣ نقضت مـا وعدت بـه وأحاطت القليل الذي أعطته بالتحفظات والشروط • مثال ذلك أنها وافقت على جعل العربية لغة التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية العربية ، ولكنها أضافت أن التعليم في المدارس الثانوية في عواصم المقاطعات يجب أن يكون بالتركية، مع العلم أنه لا توجد ثمة مدارس ثانوية خارج العواصم • كما لم ينص على جعل اللغة العربية لغة رسمية في الدولة •

أدرك العرب مخاطر فرمان آب لاسيما والحكومة أرسلت تعليمات لتنفيذ بنوده بالقوة ، كما عملت على استمالة بعض كبار العرب ونخص منهم عبد الحميد الزهراوي ، رئيس مؤتمر باريس ، فجعلته عضواً في مجلس الشيوخ مـع أربعة آخرين بالرغـم مما تقرر في المؤتمـر من عـدم قبول الوظائف مالم تجب مطالب الاصلاح•ولهذا وضع اخلاله موضع التساؤل• وحجته في ذلك أنه قبل المنصب ليستغل نفوذه ويقنع الحكومة بالاصلاح

وقد تأكد صدق نيته في مراسلاته وتأييد بعض أصدقائه له [1].

كان من ظفر الاتحاديين الموقت أن عادت الحركة العربية تعمل من جديد في السر • وزاد في الأمر اعتقال الضابط عزيز علي المصري في ٩ شباط ١٩١٤ بتهمة الخيانة والتواطؤ مع الايطاليين في ليبيا ومحاولة اقامة حكومة عربية مستقلة في شمال افريقية • وليس هناك من ذكر لاتهامه بتأليف جمعية سرية بالرغم من جميله للدولة في التوسط بين اليمنيين والعثمانيين ودفاعه المشهود في ليبيا ضد الغزاة مما حرك شعور العرب من جديد بالسخط ضد الاتحاديين • ومع أن عزيز علي المصري حكم عليه بالاعدام ثم أطلق سراحه بعد ذلك الا أن الشعور العربي الذي غضب له ازداد قوة وتكاتفا وتعبئة للثورة الكبرى •

ومما يجدر ذكره أن عزيز علي المصري، بعد أن نقم على الاتحاديين لتحيزهم الظاهر ضد العرب ، وضع خطة ايجاد جمعية العهد التي تتشابه بأهدافها مع الجمعية السابقة انما تمتاز عنها بالصفة العسكرية فقط • ولم يدخلها من المدنيين سوى اثنين ، وبرز فيها العنصر العراقي لكثرة الضباط العراقيين في الجيش العثماني • وافتتحت لها فروعاً في بغداد والموصل بالاضافة الى دمشق وحلب وبيروت • وبالرغم من تقاربها مع جمعية الفتاة في الأهداف فلم تنسقا نشاطهما سوية حتى عام ١٩١٥ • وكان أعضاؤها أول من ساهم في الثورة العربية ، ونذكر منهم مولود مخلص وجميل المدفعي من العراق، ومصطفى وصفي واسماعيل الطباخ من دمشق وغيرهم •

اعتقد بعض الوطنيين وهم على أبواب حرب عالمية أنه يمكنهم افادة قضيتهم بالاتفاق مع الحكومة التركية لاسيما والامبراطورية أخذت تتمزق • فقد فقدت حتى عام ١٩١٤ كل مقاطعاتها البلقانية ، وخسرت كل شمال افريقية بالرغم من الاعتراف الاسمي بسيادة السلطان على مصر • وقدر

---

١ — انظر حول آرائه الوطنية وارثه الفكري بصورة عامة : جودة الركابي ، وجميل سلطان ، عبد الحميد الزهراوي ، دمشق ، ١٩٦٢ •

أن الأتراك خسروا ٤٢٤٫٠٠٠ ميل مربع من مساحة بلغت ١٫١٥٣٫٠٠٠ ميل مربع ، وفقدوا كذلك خمسة ملايين نسمة من مجموع سكان الامبراطورية البالغ أربعة وعشرين مليوناً.وكانت أهم خسارة أصيب بها الأتراك روميلية التي كانت لقرون خلت قلب الامبراطورية ، وكانت ولاياتها أكثر الولايات تطوراً وانتاجاً ، وأسهمت في غنى الامبراطورية ، كما أمدتها بالجنود والبيروقراطية . وأعطت روميلية صفة تعدد القوميات للامبراطورية وأدت خسارتها الى تعديل ايديولوجية تركيا الفتاة لأن مركز الثقل انتقل الآن الى الأناضول [1].

وهكذا اقتصرت الامبراطورية العثمانية على منطقة أوربية صغيرة حول العاصمة وهي تراقيا . وبقي لها في آسيا الأناضول وبلاد الشام والعراق وجزء من غربي الجزيرة العربية مع اعتراف اسمي بسيادتها على أطراف أخرى منها . وهنا جابه القوميون العرب مشكلة هامة وهي : ماذا سيكون مصير المقاطعات العربية بعد انهيار الامبراطورية ؟ هل سيكون باستطاعتهم تشكيل دولة موحدة مستقلة أم أن أسياداً جدداً سيتآمرون عليهم ؟ واذا كان العرب قد قرروا الثورة على العثمانيين فان خطرين آخرين كانا يتربصان بهم : خطر الاستعمار الأوربي ، والخطر الصهيوني .

حاولت بريطانيا استغلال الحركات القومية في المشرق العربي لصالحها ، كما أنها أدركت أهمية الرابطة الاسلامية نظراً لاختباراتها في الهند . وكان كتشنر في القاهرة يرقب بحذر النفوذ الالماني المتزايد في الدولة العثمانية،والذي تمثل بخط حديد بغداد ، مما يهدد مركز بريطانيا في الخليج العربي والهند [2] . كما أن وقوف تركيا ، في حرب مقبلة ، ضد بريطانيا من شأنه تهديد مواصلاتها في السويس وعدن نظراً لوجود حامية تركية في اليمن . وخشيت بريطانيا من اعلان السلطان العثماني

---

١ ـ انظر : Feroz Ahmad, 152-153.

٢ ـ انظر ص ٤٢٨ .

الجهـاد ضدها لأن هـذا سيثير ، اضافـة الى العرب ، الشعوب الاسلامية بما في ذلك الهند • ولهذا فكرت بريطانيا بالاستيلاء على المنطقة الممتدة بين حيفا وخليج العقبة لحماية خطوط مواصلاتهـا ، وبتشجيع العرب عـلى الانفصال عن العثمانيين طمعاً في كسبهم الى جانبها ، وبهذا تلتقي بريطانيا مع القوميين العرب مع أن غاياتهما تختلف ، اذ نظرت الى استقلال البلاد العربية من وجهة القضاء على النفوذ الالماني ـ التركي ، بينما تطلع العرب الى الاستقلال التام وعـدم الوقوع تحت سيطـرة أجنبية • ووجب عـلى بريطانيا أن تقرر عـلى أيـة فئة مـن القوميين العرب ستعتمـد للوصول الى أهدافهـا •

كان النفوذ البريطاني في الجزيرة العربية أقوى منه في غيرها ، حيث احتلت عدن في ١٨٣٩، وعقدت المعاهدات مع الكويت وقطر وعمان وغيرها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وأعلنت حمايتها عليها بشكل أو بآخر •[1] وكان الأمير عبد العزيز بن سعود ، الذي سيطر عـلى نجد ، عـلى علاقات ودية مـع بريطانيا ، بينما تحول عدوه ابن رشيد الى جانب الأتراك • وقد وقـع اختيار بريطانيا على الحسين ، شريف مكـة ، لقيادة الثورة عـلى الأتراك بسبب موقـع الحجاز الاستراتيجي وامكانية فصل الحاميات التركية في الجنوب عن الشمال ، وفازت بهذا الاختيار الدبلوماسية الانكليزية في مصر عـلى سميتها في الهند التي فضلت صداقة ابـن سعود لتحييده اذا ما تدخلت في العراق ، ولأنهـا تمانع أصلا في تشجيع العرب على الثورة على السلطان ـ الخليفة العثماني خوفـاً من اثارة مسلمي الهند ضدها • وفي الواقع عقدت بريطانيا مع ابن سعود معاهدة صداقة في ١٩١٥• وكـان للحسين أهميته السياسية والدينية في العالـم الاسلامي بسبب شرف نسبه ، وأيضاً بسبب منصبه كحام للحرمين الشريفين • وكان الحسين ، بالمقابـل ، يسعى لاقامـة مملكة عربية ، بمساعدة الانكليز • ومـن هنـا

---

١ ـ انظر ص ٣٣٦ •

المفاوضات المشهورة بين الحسين ومكماهون ، المندوب السامي البريطاني في مصر والسودان ، بين عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ ، والتي هدفت ، من ناحية الحسين ، الى تجاوز وضعه كأمير وشريف في الحجاز الى ملك للعرب وممثل لحركتهم القومية ، ومن المحتمل خليفة لهم .

وقد برزت في سياق محادثات الحسين ـ مكماهون مطامع فرانسا في المشرق العربي ، وذلك حين ماطلت بريطانيا في الموافقة على حدود سوريه الطبيعية المستقلة ، كما طالب بها القوميون في الشام . وكانت فرانسا تطمع بالاستيلاء على الساحل السوري ، كما كانت بريطانيا تطمع بفرض نفوذها على ولايتي بغداد والبصرة . وقد تأكد التآمر البريطاني ـ الفرنسي على الحركة القومية العربية باتفاقية سايكس ـ بيكو في ١٦ أيار ١٩١٦ ، قبل حوالي شهر من اعلان الحسين الثورة على العثمانيين . وكانت روسيا القيصرية طرفاً فيها الى أن انسحبت منها في أعقاب الثورة الشيوعية فيها ، وأعلنت بنودها السرية . وأقرت هذه الاتفاقية ، التي أطاحت بكل تعهدات مكماهون للحسين ، تقسيم بلاد الشام والعراق الى مناطق نفوذ بريطانية ـ فرنسية ، وأقر ذلك في معاهدة سان ريمو في نيسان ١٩٢٠ ، ووضع موضع التنفيذ مباشرة [١].

لم يكد العرب يكتشفون اتفاقية سايكس ـ بيكو حتى صعقوا بخيانة ثانية هي وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ ، الذي قلب رأساً على عقب ما جاء في هذه الاتفاقية من تدويل فلسطين . وهنا يجدر بنا أن نلقي نظرة على تاريخ الحركة الصهيونية في العهد العثماني لنتمكن من استجلاء شدة خطرها سابقاً ولاحقاً . كانت الأقلية اليهودية ، التي وجدت في فلسطين ، قد رفدت ، شأن الأقليات اليهودية في مناطق أخرى في المشرق والبلقان ، باللاجئين اليهود السفارديم ، الذين طردوا من اسبانيا والبرتغال في العقد

---

١ ـ انظر حول مفاوضات الحسين ـ مكماهون واتفاقية سايكس ـ بيكو :
Holt, Egypt and the Fertile Crescent, 264-277; Antonius, 164-183, 248-254.

الأخير من القرن الخامس عشر •وشغل بعض هؤلاء القادمين الجدد مناصب هامة ، بحكم خبرتهم ، في الادارة المالية في العهدين المملوكي والعثماني، على غرار ما كان يفعله اليهود المحليون • ويذكر أن صدقة اليهودي ، معلم دار الضرب فيدمشق ، نثر على السلطان المملوكي قانصوه الغوري، عندما دخل دمشق في ١٨ جمادى الاولى ٩٢٢/٢٠ حزيران ١٥١٦ ، دراهم وأشرفية اصطنعها لذلك خفيفة [١]• واشتهر في الادارة المالية في بلاد الشام الجنوبية ، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، أفراد من اسرة فرحي اليهودية ، وبرز بينهم حاييم ، الذي اعتمد عليه كل من أحمد باشا الجزار ، وسليمان باشا العادل ، وعبد الله باشا ، الذي قتله • ويذكر أن اليهود العاملين في المالية ، في بلاد الشام ، كانوا يستخدمون الكتابة العبرية في سجلاتهم ، في محاولة منهم لاحتكار هذه المهنة • وقد قال في ذلك الشاعر الحمصي الشيخ أمين الجندي في قصيدة مدح بها السلطان محمود الثاني [٢] :

حيث الدفاتر عبرانية رقمت ... خلاف ألسنتا والحال مجهول
وليس تعلم أتراك ولا عرب ... ما خط فيها ولا المنقول معقول

وقد اشتهر في الامبراطورية العثمانية منالبهود اللاجئين منالبرتغال يوسف ناسي ، الذي حصل على امتيازات كثيرة من السلطانين سليمان القانوني وابنه سليم الثاني [٣] •

وكان اليهود الذين أتوا للعيش في فلسطين ، قبل ظهور الفكرة الصهيونية ، أحد فريقين : متعبدون رغبوا العيش والموت في الأرض المقدسة ، وأفراد لاجئون من الاضطهاد الأجنبي وجدوا تسامحاً في ظل العرب والحكم التركي • ولم يكن هؤلاء من نسل العبرانيين القدماء بل

---

١ ــ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج ٢ ، ١٦ •

٢ ــ انظر : الشيخ أمين الجندي ، ديوان ، بيروت ، ١٣٢١ هـ ، ص ٧٥ •

٣ ــ انظر : Holt, Egypt and the Fertile Crescent, 245.

مـن سلالة الهنود ــ الأوربين ، الذين اعتنقوا الديانة اليهودية في وقت متأخر ، مثل يهود بحر الخزر •

وقد حاول اليهود منذ القديـم اقامة وطـن قومي لهم في فلسطين ، ولكنهم ردوا في كل مرة الى أن تهيأت لهـم أسس ذلك على يـد بريطانيا وأمريكا • وكان توطين اليهود في فلسطين قد أصبح من عناصر السياسة الدولية منذ أواخر القرن الثامن عشر ، ويذكـر أن حكومة المديرين في فرانسا حاولت كسب دعـم يهود الشرق بوعدهـا بتأسيس (كومنولث) يهودي في فلسطين ، وذلك من أجل تسهيل مخططاتها في استعمار المشرق العربي • ووجه نابليون بونابرت ، حـين كان يحاول تأسيس امبراطورية فرنسية فيالشرق ، نداء الى يهود آسية وافريقية يدعوهم لتأييده ووعدهم باعادة مملكة القدس القديمة [1]• ثـم وجدت بريطانيا أن توطين اليهود في فلسطين يخدم مصالحها الامبراطورية ، ومن هنا حماية بريطانيا لليهود في فلسطين ومحاولاتها المتعددة ، في القرن التاسع عشر ، لتوطينهم فيها • وكان لسيطرة البورجوازية في أوربا ،آنذاك، أنفتح المجتمع البورجوازي المجال أمام المواهب • ولم يرحب بالاعتماد على الكفاءة أكثر من الأقليات، مثل اليهود ، الذين اكتفوا سابقاً بأمور التجارة أو الدين ، وقلما تجرأوا على الظهور بشهرة كبيرة ، فآل روتشيلد كانوا أغنياء سابقاً ، ولكن الآن اشتهروا كأغنياء ، وقبلوا في عداد الطبقات المتميزة ، ومنحوا لقب بارونات ورائين في عام ١٨٢٨ • واشتهر عدد من أصحابالكفاءات اليهود في مجال السلطة ، مثل رئيس وزراء بريطانيا دزرائيلي • وازداد اهتمـام اليهـود الاوربين بيهود فلسطين ، فيالقرن التاسع عشر • ويذكر أن السير موسى مونتفيوري قام بسبع زيارات الى فلسطين لحماية يهود دمشق من تهمـة قتل في ١٨٤٠ • وأنشأ عدد من اليهود الفرنسيين ، في عام ١٨٦٠،الاتحاد الاسرائيلي العالمي (Alliance Israéelite Universelle) ، في باريس،وكانت

---

١ ــ انظر : خيرية قاسمية ، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، بيروت، ١٩٧٣ ، ١٢ •

مهمته الرئيسية نشر التعليم والحرف ، والاهتمام باللغة العبرية بين يهود فلسطين ، وأقيمت له مراكز أخرى في أوربا [١].

وحدث تطور هام في وضع اليهود في فلسطين ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، اذ أن الاسر السفارديم القديمة بدأت تفقد نفوذها ، مثل اسرة فرحي التي ذكر أن عدداً كبيراً من أفرادها قد أصبحوا فقراء في حوالي منتصف القرن . [٢] ولم تظهر بين يهود فلسطين أية حركة قومية أو ثقافية ، وانما جاءت تلك من أوربا ، حين بدأت في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر هجرة يهودية أوربية الى فلسطين من قبل أناس طالبوا بجعلها وطناً قومياً لليهود ، يتميز عما حوله بثقافة خاصة ، ويسيطر على ما حوله . وفي موجة الهجرة (عالية بالعبرية) الاولى ، التي بدأت في عام ١٨٨١ ، ودامت قرابة عشرين عاماً ، وصل الى فلسطين بين عشرين وثلاثين ألف يهودي ، وكانوا من أصل أوربي شمالي اشخنازيم وبذلك يختلفون عن اليهود السفارديم والشرقيين في فلسطين . ومن الاستيطان تحولوا الى طرح فكرة الدولة اليهودية . وكانوا علمانيين ، بالمقارنة مع اليهود المحليين المتدينين ، واعتمدوا على الزراعة لكسب معيشتهم . وكانت هذه الهجرة بداية التنفيذ العملي للفكرة الصهيونية ، قبل انعقاد أول مؤتمر صهيوني دعا اليه هرتزل في مدينة بال بسويسرا ، في عام ١٨٩٧ . ورغم أن الحركة الصهيونية قد تأثرت بالأفكار القومية الأوربية ، وخاصة في دعوتها الى العلمانية ، فقد ركزت نشاطها بين يهود أوربا الشرقية ، وخاصة روسيا ، وشجعتهم على الهجرة الى فلسطين . وقد رحبت الرأسمالية اليهودية في الغرب بفكرة الوطن القومي لان ذلك يمكنها من توسيع عملياتها . واتخذ العثمانيون عدة اجراءات ، في أواخر القرن التاسع عشر ، للحد من استيطان اليهود في فلسطين ، كتحديد مدة الاقامة ، ودفع غرامة على المخالفين ، والاحتجاج على محاولات السفارات الاجنبية ،

---

١ ـ المصدر السابق ، ١٤ .

٢ ـ انظر : Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, 245.

وخاصة البريطانية ، حماية اليهود بموجب نظام الامتيازات ، ولكنها لـم تتجاوز ذلك الى اجراءات حاسمة في الموضوع ، ربما خوفاً من الدخول في منازعات مع الدول الاوربية • وكانت هذه الدول الرأسمالية ، وخاصة منها بريطانيا الاستعمارية ، تجد في فكـرة الوطن القومي اليهودي سنداً لاستراتيجيتها • وجاءت الحرب العالمية الاولى وضرورة استجداء بريطانيا العطف اليهودي الامريكي لدعم المجهود الحربي ، واقناع يهـود روسيا بالضغط على حكومة الثورة للاستمرار في الحرب ، فأصدرت وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ ، بانشاء وطـن قومي لليهود في فلسطين • ولم يكد يصدر هذا القرار حتى سارعت تركيا والمانيا ، في كانون الاول ١٩١٧ وتموز ١٩١٨ ، لاعطاء اليهـود امتيازات في فلسطين لكسب ودهم • وقد عمل الصهاينة على كسب التأييد للتصريح الذي أعطي لهم فأيدته فرانسا وايطاليا وأمريكا في ١٩١٨، وهكذا ارتبط مصير الصهيونية بمصير الحلفاء•

ولاستكمال تاريـخ الحركـة القومية في المشرق العربي يجدر بنا التعرف على الاوضاع في العراق بصورة عامة ، وتطور الفكر القومي فيه بصورة خاصة ، منذ القضاء على المماليك في عام ١٨٣١ •

حاول العثمانيون ، اثر قضائهم على داود باشا ، آخر الولاة المماليك في بغداد [١]، فرض نفوذهم بقوة في العراق ، خاصة وان الدولة في عهد السلطان محمود الثاني كـانت قـد أقامت أسس الاصلاح [٢]، وضربت مراكز القوة ، كالانكشارية ، وحاولت استعادة سيطرتها على الولايات • وقد عينت القائد علي رضا باشا،الذي قضى على داود باشا ، والياً على ولايات بغداد ، وحلب ، وديار بكر ، والموصل ، تقديراً لجهوده،وتدعيما لموقفه في حكم العراق •

وكان على الادارة العثمانية ، في عهدها الاصلاحي الجديد في القرن

---

١ ـ انظر ص ٣٢٣ •

٢ ـ انظر ص ٣٧٨ •

التاسع عشر ، مواجهة المشاكل التقليدية التي هددت الامن في العراق : الأكراد والبدو • وبعد أن قضى العثمانيون على حكم المماليك في بغداد وآل الجليلي في الموصل ، بدا من الضروري لهم القضاء على الامارات الكردية شبه المستقلة في المناطق الشمالية ، وهكذا قضوا ، في الفترة بين ١٨٣٥ و ١٨٥٠ ، على الامارة الصورانية ، ومركزها راوندوز ، والامارة البابانية، ومركزها السليمانية ، والامارة البهدينانية ، ومركزها العمادية ، والامارة البوتانية ، ومركزها جزيرة ابن عمر [1]• كما قضى العثمانيون ، في عهد والي بغداد مدحت باشا (١٨٦٩ – ١٨٧٢) ، على نفوذ اليزيديين ، وهم عشائر كردية في سنجار • ورغم أن القضاء على الامارات الكردية قد أعاد النفوذ العثماني الى المنطقة ، الا أن الاكراد ، في غياب الامارات المتنازعة ، شعروا بوجودهم ككل وبضرورة تحررهم من العثمانيين • واتفق ذلك مع الحركة القومية العربية في العراق ، التي ناضلت هي الاخرى للتحرر من العثمانيين ، ومن هنا التماثل والعمل المشترك بين الفريقين ، الى أن تدخل الاستعمار الاوربي ، في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، وأثار فكرة الدولة الكردية •

ولم يكن تمرد البدو في العراق أمراً طارئاً، كما لم تختلف السياسة العثمانية في فترة قوتها ، في القرن التاسع عشر ، عن سياستها التقليدية تجاههم ، بضرب قبيلة بأخرى ، أو بتأليب اقسام القبيلة بعضها على بعض• وطبيعي أن هذه السياسة لا تؤدي الى نتيجة ايجابية اذ سرعان ما يلاشيها ضعف السلطة المركزية • والأجدى تشجيع القبائل على الاستقرار ، ومساعدتها على حفر الأقنية ، وضمان ملكية الارض لها ، أو حق التصرف بها ، ووضع ضرائب عادلة عليها ، واتباع سياسة المكافأة بشكل سخي والمعاقبة بصورة بناءة [2] • وقد عمد واليا بغداد : نجيب باشا (١٨٤٢ –

---

١ – انظر حول هذه الامارات : عبد العزيز نوار ، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ٩٩ – ١٢٠ ، وانظر كذلك: Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*, 285-287.

٢ – انظر : Longrigg, *Four Centuries of Modern* Iraq, 289.

١٨٤٩) ونامق باشا (١٨٥٢-١٨٥٣ و ١٨٦١-١٨٦٨) ، الى العنف في معالجة البدو ، ولكنهم فشلوا في ذلك • وقاوم البدو ، وفي طليعتهم المنتفق والخزاعل ، وبنو لام ، كل محاولة عثمانية للحد من نفوذهم وجعل رؤسائهم مجرد موظفين في الدولة • وقد جابه مدحت باشا ، المعروف بأبي الدستور ، تمرد البدو في منطقة الحلة ، جنوبي بغداد ، في أعقاب قضائهم على بعثة حكومية حاولت جمع الضرائب منهم • ولهذا جعل مدحت باشا همه ، وكذلك الولاة الذين خلفوه ، ايجاد حل لمشكلة البدو عن طريق معالجة قضية الأرض التي يرتادونها • وكانت البصرة ، بموجب قانون الولايات العثماني الصادر في عام ١٨٦٤ ، تابعة لبغداد ، مما ألقى مسؤوليات كبيرة على ولاة بغداد ، نظراً لشمول ولايتهم معظم قبائل العراق• وارتأى مدحت باشا الحل في تطبيق قانون الاراضي العثماني الصادر في ١٨٥٨ ، وبموجبه يعطى حق تملك الأرض للمتصرفين فعلا بها • وكانت الفوضى شاملة في نظام الاراضي، فبعض الولاة أعطوا الاراضي مجاناً لمن يريدون، وتمسك أبناء أصحاب الاقطاعات (التيماريون) باقطاعات آبائهم ، وتم بيع وشراء أراضي الدولة لاجيال دون علم الحكومة ، كما ادعى مشايخ القرى والقبائل بملكية الاراضي التي تصرفوا بها • وقد أعاقت هذه المخالفات تطور النظام الزراعي ، ولذلك ارتأى مدحت باشا بيع الاراضي للمتصرفين بها بمبالغ زهيدة ومقسطة ، لاغرائهم على حسن استغلالها والاستقرار فيها وقد أنشأ مكاتب (الطابو) لهذه الغاية • وهدف من وراء ذلك تسوية أوضاع مغتصبي الأراضي ، وخاصة مشايخ القبائل ، الذين يمكن للدولة فرض سلطتها عليهم بهذه الوسيلة ، لانها ، عندئذ ، تتحكم بمياه الري الضرورية لأراضيهم ، وتفرض الضرائب على منتجاتهم ، وفي نهاية الأمر يزداد محصول الدولة • وقد اعترض هذا الاصلاح صعوبتان : جهل موظفي الطابو وسوء تصرفهم ، وشك أصحاب العلاقة ، وخاصة مشايخ البدو ، بحسن نية الحكومة • وكره هؤلاء الاستقرار وما يترتب عليه من تجنيد أبنائهم في الجيش ، والاعتماد على السوق المحلية لكسب العيش •

وبالنتيجة ، تكتلت معظم الاراضي في أيدي بعض المتنفذين من سكان المدن ، من التجار والاسر الاقطاعية ، الذين عرفوا كيف يحصلون عليها بأساليب ملتوية ، من موظفي الطابو . ورغم أن بعض زعماء القبائل ، مثل الشيخ ناصر السعدون زعيم المنتفق ، تعاون مع مدحت باشا ، وحوّل أراضي قبيلته الى صنجق ، وعين هو متصرفاً ، ثم والياً ، على البصرة ، التي فصلت عن بغداد في عام ١٨٧٦ ، فان زوال منصبه وزعامته في ١٨٨١ ، أعاد قبائل المنتفق الى الثورة . وهكذا يكون مشروع الدولة في السيطرة على البدو بجعلهم مزارعين قد فشل ، وبقيت القبائل تعتبر الارض التي بامكانها الدفاع عنها ملكها [١] .

وشهد العراق في القرن التاسع عشر ازدياد النفوذ البريطاني بحكم مصالح شركة الهند الشرقية فيه . ولم يكن النفوذ التبشيري الأوربي ناشطاً فيه ، كما كان الأمر في بلاد الشام ، حيث العلاقات مع أوربا قديمة ، دينياً وثقافياً . ولم يحدث تنافس بريطاني — فرنسي حول العراق بالدرجة التي كان عليها في مصر والى حد ما في بلاد الشام . وتركز النفوذ البريطاني حول خطوط المواصلات ، والسعي لاستخدام الانهار في الملاحة ، لاجل تسهيل الاتصال بالهند ، عن طريق بلاد الشام . وفي عام ١٨٣٦ قام الانكليزي شيزني (Chesney) بتسيير باخرة في الفرات الى الخليج العربي ، ورغم التنافس بين الشركات البحرية البريطانية والمحلية ، خاصة تلك التي تديرها الدولة العثمانية ، فقد دامت شركة لينش (Lynch) البريطانية ، التي تأسست في عام ١٨٦١ حتى عام ١٩٥١ . وكان ينافس طريق العراق النهري هذا الطريق المار بمصر ، سواء ذلك المار بالسويس الى الاسكندرية ، أو عبر قناة السويس ، فيما بعد [٢] . وكنا رأينا [٣] كيف

---

١ — *Ibid.*, 306-311, 317 Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, 250-252;
وانظر كذلك : نوار ، ٣٦٧ — ٣٨٠ .

٢ — انظر حول النشاط النهري هذا :
Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, 252-253; Longrigg, 292-295.

٣ — انظر ص ٤٢٨ .

أن الالمان ، في العقد الاول من القرن العشرين ، قد أسهموا في مـد خط حديدي يربط استانبول ببغداد والخليج العربي • وقـد نشطت التجارة الاجنبية بنتيجة هذه التطورات في المواصلات •

ولم تشهد علاقات العراق مع بلاد فارس ، في القرن التاسع عشر ، العنف الذي كانت عليه في القرون الثلاثة السابقة•ويعزى ذلك الىانشغال الاسرة القاجارية الحاكمة في فارس (١٧٩٤ـ١٩٢٥)، بالخطر الروسي، الذي هدد أغنى مناطقها ، أذربيجان ، في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وجرجان وخراسان ، في نصفه الثاني • وتدخلت بريطانيا في هـذا الصراع خوفاً من تهديد روسيا لمصالحها في الهند [١]• واقتصرت العلاقات السياسية بـين فارس والعراق على حوادث عادية عـلى الحدود ، وايواء اللاجئين ، ودعـم كل طرف لقبيلة معينة ، أو امارة كردية ، في أراضي الطرف الآخر • ووقعت بين الطرفين معاهدة أرضروم في ١٨٤٧، وبموجبها أعطيت فارس المحمَّرة،كما سويت قضايا قبائل الحدود ، والحجوالملاحة•

وقد أتاح غياب الاعتداءات العنيفة عـلى الحدود مـع فارس المجال لحكام العراق للقيام بعدد من الاصلاحات ، امتداداً لما جرى في استانبول، مثل ايجاد جيش حديث تألف من أفراد نظاميين ومن احتياط ، وادخـال الجندية الاجباريـة (رديف) ، وتنظيم الولايات ، وتحسين أقنية الـري والمواصلات النهرية والحديدية • كما افتتحت ، في عـام ١٨٦٨، مصلحة للبريد ، بريطانيةـهندية ، في بغداد والبصرة ، وسرعان ما تلتها مصلحة بريد تركية • ورغم الخطوات البطيئة في مجال التربية ، فقد تحسنأمرها في عهد مدحت باشا ، وازداد عـدد المثقفين من حوالي نصف بالمائـة في ١٨٥٠ الى ما بين خمسة وعشرة بالمائة في ١٩٠٠ • وافتتحت الدولة ، الى جانب المـدارس الحربية ، مدرسة ابتدائية في كـل قضاء [٢] • وتأسست

---

١ ـ انظر : A.K.S. Lambton, "Persia : the breakdown of sciety". *The Camb. Hist. of Islam,* Vol. i, 433.

٣ ـ انظر : Longrigg, 316.

وانظر كذلك،القس سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٢٣، ٣٢١ •

مدرسة ثانويه للبنين في بغداد في عام ١٨٧٠ ، ومدرسة ابتدائية للبنات في ١٨٩٨ ، وافتتح المسيحيون واليهود المدارس في المدن الكبرى ، وعرفت المدرسة اليهودية بالأليانس [١] . وأقيمت المطابع في المدن الكبرى، وكانت أولاها تلك التي تأسست في بغداد في عـام ١٨٦٩ ، من قبل مدحت باشا . وأنشأ هذا الوالي جريدة حكومية أسماها « الزوراء » ، وهي أول جريدة في العراق ، واستمر اصدارها حتى عام ١٩١٧ [٢] .

أسهمت هـذه الاصلاحات في رفـع المستوى الثقافي لـدى الشعب العراقـي وجعلته بالتالـي أكثـر وعيـاً لقضاياه الوطنية . ومـع ذلك ، فلـم تكـن الحركـة القومية العربيـة في العـراق بـاشـدة نفسهـا التي كانت عليهـا في بـلاد الشام ، لأن هـذه احتكت بالغرب وتأثرت بأفكاره قبل العراق والى حـد أبعد منه . وكـان نشر التراث العربي ، ودعـوة الادباء الى التآخي الوطني ، وايقاظهم الوعـي القومـي في الشام ، بسبب الأحداث التي مروا بهـا ، سواء ابان الحكم المصري أو خلال الاحـداث الطائفية التي تلت ، في أساس الجمعيات الوطنية التي ازدهرت فهيا. ولكن العراق شهد الى جانب ثورات البدو ، التي كانت ظاهرة دائمة في تاريخه ضد السلطة المركزية ، عـدة ثورات شعبية ، في القرن التاسع عشر ، في المدن والريف ، ضد شدة الولاة الاتراك ومحاولتهم اتخاذ اجراءات ،مثل التجنيد ، ليست في صالح الشعب العراقي [٣] . واذا كان العراق لا يوازي الشام في عدد الجمعيات السياسية ونشاطها ، فان ذلك لم يمنع العراقيين ، وخاصة العسكريين منهم ، الذين خدموا جنباً الى جنب معاخوانهم العرب

---

١ ــ انظر حول يهود العراق : يوسف رزق الله غنيمة ، نزهة المشتاق فيتاريخيهود العراق، بغداد ، ١٩٢٤ ، ١٧٧ ــ ١٧٨ .

٢ ــ انظر : Duri, s.v. Baghdad, *E.I.²*;

وانظر أيضاً العزاوي ، جـ ٧ ، ٢٤١ ، جـ ٨ ، ٢١ .

٣ ــ انظر حول هـذه الثورات ، ابراهيم الوائلي ، الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر ، بغداد ، ١٩٦١ ، ٦٠ــ٦٧ .

في الجيش العثماني ، من المشاركة في عضوية ونشاط هذه الجمعيات ، التي لم تكن في الواقع لبلد واحد بل للامة العربية .

ثم تسارعت الاحداث ، على صعيد الحركة القومية ، في العراق في أعقاب ثورة ١٩٠٨ في استانبول . وتمثل العراقيون بعدد من النواب في مجلس المبعوثان الذي دعي للانعقاد في استانبول في كانون الاول ١٩٠٨ . ومن أبرز هؤلاء النواب فؤاد الدفتري والشاعر جميل الزهاوي .وتعانوا في استانبول مع النواب السوريين ، وشكلوا معاً كتلة متراصة ، سواء في المجلس أو في «المنتدى الأدبي» . ولكن المقاومة التي لقيتها جهودالعرب، بعد أن وطد جماعة الاتحاد والترقي سيطرتهم ، وجندوا العراقيين في الجيش التركي ، وأرسلوهم للموت في مناطق بعيدة ، أخذت تنشرالتذمر بين أعداد أكبر من العراقيين وتقرب ، أكثر فأكثر ، بينهم وبين دعاة القومية والتحرر في الشام . وجرى اتصال بين العراقين والجمعية القحطانية السرية التي طالبت بمملكة عربية ضمن الاطار العثماني [١]، وكذلك بينهم وبين الجمعية العربية الفتاة [٢] . ولعب العراقيون دوراً أكبر في حزب اللامركزية الادارية العثماني [٣]، الذي اشتد نشاطه فيكل من بغداد والبصرة . وكثرت المطبوعات ، في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى ، وكانت تدعو اما الى الجامعة الاسلامية أو الى القومية العربية . وفي عام ١٩١٣ بدأت الملصقات المناوئة للاتراك تملأ شوارع بغداد في الليل . ومثلما ظهر مدنيون وعسكريون في العمل القوميفي بلاد الشام ، فقد اشتهر في العراق السيد طالب النقيب في البصرة ، وشيخقبائل خزعل في المحمرة ، الى جانب العسكريين العراقيين في الجيش التركي ، من أمثال نوري السعيد وجميل المدفعي ، اللذين انتسبا الى جمعية العهد

---

١ ــ انظر ص ٥٣٧ .
٢ ــ انظر ص ٥٣٨ .
٣ ــ انظر ص ٥٣٧ .

السرية ، [1] التي افتتحت لها فروعاً في بغداد والموصل [2] .

ولم يهمل القوميون العرب في الشام ، من ناحيتهم ، دعاة القومية في العراق ، فقد أشركوهم في مؤتمر باريس [3] . وعندما اعترف الانكليز، في محادثات حسين ــ مكماهون ، باستقلال العرب كانت احدى تحفظاتهم « وضع البصرة وبغداد تحت ادارة خاصة » ، وهذا يعني سيطرة انكليزية مباشرة على العراق الأسفل ، فأصر الشريف حسين بأن العراق يجب أن يدخل في المنطقة العربية المستقلة ولكنه وافق أن القسم الاسفل منه يمكن أن يحتله الانكليز مؤقتاً ريثما تقرر المفاوضات أمره . وبقيت القضية معلقة على هذا النحو حتى نهاية الحرب العالمية الاولى .

وكانت سياسة الاتحاديين التي نفذها أحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع في سورية قد اشتدت وطأتها على العرب منذ أن فشل الهجوم التركي ــ الألماني على قناة السويس في شباط ١٩١٥ . وكان جمال هذا ، أول ما قدم سورية ، قد حاول التقرب من العرب ، وأخذ يلح على الناحية الاسلامية لاستثارتهم في الحرب . ولم يستغل الوثائق التي عثر عليها في قنصليتي فرانسا ، في بيروت ودمشق ، حول اتصال عدد من الوطنين بفرانسا ، لان بعض المشتركين فيها من المسلمين . ولكنه سرعان ما تنكر لهم بعد فشله في السويس وشعوره بنقمة العرب على العثمانيين . فجرد الحركة العربية من ضباطها وجنودها في الجيش التركي ، وأرسل الفرقة الخامسة والعشرين الى جبهة غاليبولي واستبدل بها جنوداً تركاً،ثم لاحق الوطنيين بتهمة الاتصال بالأجانب استناداً الى الوثائق السابقة وأحالهم الى المحاكم العرفية في عاليه فحكم على ثلاثة عشر منهم بالاعدام ، ونفذ الحكم في أحد عشر ، كما حكم على خمسة وأربعين شخصاً غيابياً . ولم

---

١ ــ انظر : S. Longrigg, *Iraq, 1900 to 1950.* London, 1968, 42-46.

٢ ــ انظر ص ٥٤٣ .

٣ ــ انظر ص ٥٤٠ .

ينفع وجـود فيصل في دمشق والتماسه العفو من جمال وتدخـل الحسين بالذات لمنع تنفيذ الاعدام في ٦ أيار ١٩١٦ بسبعة وطنيين في دمشق وأربعة عشر في بيروت بتهمـة العمل عـلى فصل سورية وفلسطين والعراق عـن الدولة العثمانية • وكانت الفرصة مواتية لاعلان الثورة العربية على الأتراك في ٥ حزيران ١٩١٦ •

واذا لم نعتبر الثورة العربية عملية عسكرية من الدرجة الاولى (١) لانها تمت بمساعدة الانكليز ، الا أن تأثيرها على الفكرة القومية من الاهمية بمكان • فقد أثارت مشاعر العرب كلهـم حتى أن طبقات الشعب التي لم تمارس أي نشاط سياسي حتى الآن ، بـدأت تشعـر بالفكـرة القومية ، وانقلبت على تركيا ، وابتهجت بالانتصارات العربية • ويذكر أن القوات التركية التي كانت تقاتـل العرب أكثـر مـن القوات التي كانت تقاتـل الانكليز ، وذلك بالرغم من شدة وطأة الحكم العسكري التركي في السابق ، وانهاك قوى الشعب بالمجاعة التي كانت ضحاياهـا بمئات الالوف في بلاد الشام أثناء سنوات الحرب • وثار ، كذلك ، كثير من العراقيين ودعمـوا الانكليز بأمل الحصول على استقلالهم • وحدثت الثورات على الأتراك في النجف وكربلاء والحلة والكوفة في ١٩١٥ ــ ١٩١٦ • ولم يتعاون الانكليز في العراق مع العرب ضد الاتراك رغم نجاح العرب في الحجاز والشام • وسبب ذلك ، بالدرجة الاولى ، موقف الادارة الانكليزية في الهند التي عارضت تنميـة آمـال العرب القومية لانهـا ترغب في ضـم العراق الى الامبراطورية البريطانية •

وخسر العثمانيون بنتيجة الحرب العالمية الاولى كافة البلاد العربية ، وفي الواقع جميع امبراطوريتهم خارج الاناضول باستثناء استانبول • وهكذا عادوا ، بعد ستمائة سنة من التوسع ثم الانحسار ، الى المنطقة التي خرجت منها في امارة عثمان في الأناضول •

---

١ ــ انظر حول هذه الثورة : دراسات في الثورة العربية الكبرى ، الشركة الاردنية العالمية للنشر والتوزيع ، عمان •

أما العرب فقد خاضوا أولى تجاربهم في الثورة،في القرن العشرين، بقيادة البورجوازية المثقفة والزعماء التقليديين • ووقع المشرق العربي ، بنتيجة الحرب العالمية الاولى ، تحت الاستعمار الاوربي ، وتساوى في ذلك مع المغرب العربي • وأدت وحدة الاستعمار الى وحدة النضال • ورغم أن القوى التقليدية ، التي ارتكزت على زعامات قبلية أو دينية ، بقيت ناشطة في الساحة الوطنية ضد الانتداب ، الا أن قوى جديدة من البورجوازيين وبعض الاقطاعيين المثقفين المقيمين في مراكز المدن ، بدأت أولاً تتعاون معها ، ثم حلت بالتدريج مكانها • وبانتشار الثقافة أخذت قاعدة الحركة الوطنية تتسع وجماهيريتها تزداد ، وظهرت تيارات جديدة في الثلاثينات والى حد أكبر في الأربعينات ، تهتم بالقضايا الاجتماعية الى جانب السياسية•

• • •



المصــــادر

المصادر العربية

١ ـ المخطوطات(١) ٠ ـ

(مجهول المؤلف) ٠: تاريخ ما وقع في مصر من ابتداء عام ١١٩٠ هـ (حتى ذي القعدة ١١٩٨) ، المكتبة الوطنية في باريس ، رقم Arabe 1856 .

» » ٠ تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، جامعة Yale في الولايات المتحدة الاميركية ، رقم Landberg 229 (٢) ٠

» » ٠ الدرة المنصانة في وقايع الكنانة ، المكتبة الوطنية في ميونيخ بالمانيا ، رقم Cod. Arab. 399 .

» » ٠ ذكر أسماء من تولى قضاء دمشق الشام من سنة ١١٠٠ هـ ، الظاهرية ، رقم ٤٤١٩ ٠

---

١ ـ يمكننا أن نشير هنا الى الوثائق والحجج المخطوطة باللغتين العربية والتركية والعائدة للمحاكم الشرعية في بلاد الشام من العهد العثماني ٠ وتوجد وثائق بعض هذه المحاكم ، مثل وثائق محاكم حلب ودمشق ، في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ٠

٢ ـ لايوجد ذكر في المخطوط لاسم المؤلف ٠ وفي الورقة اب من المخطوط ترد العبارة التالية بعد العنوان : لعالم دهره الشيخ (دون ذكر أي اسم بعد ذلك) ٠ وجاء في فهرس مخطوطات مكتبة جامعة :

Leon Nemoy, *Arabic manuscripts in the Yale University Library*, Yale University Press, 1956, p. 141 (item 1323) :

أن اسم المؤلف هو محمد بن يوسف الحلاق ٠ ويبدو أن مؤلف هذا الفهرس قد استعار اسم المؤلف من مخطوط آخر يحمل نفس العنوان ويوجد في المكتبة الوطنية في فيينا ، ومؤلفه هو محمد بن يوسف الحلاق ، كما أشار الى ذلك كارل بروكلمان في كتابه :

Geschichte der Arabischen Literature, G. II. 298.

ومما تجدر الاشارة اليه أن مؤلف الفهرس أشار الى مصدر بروكلمان هذا دون تعليق ، وذلك في نهاية وصف المخطوط ٠ ويجب القيام بدراسة مقارنة لهذين المخطوطين وغيرهما من النسخ المخطوطة اذا وجدت للتأكد من اسم المؤلف ٠

(مجهول المؤلف) • ذكر من تـولى دمشـق من البكلربكيـة العظام في دولـة بني عثمان ، الظاهرية ، رقم ٤٦٨١ .

» » • ذكر من تولى الوزارة وامارة الحج الشريف من الوزراء الفخام بدمشق الشام من سنة ١١٠٠ هـ ، الظاهريـة ، رقم ٤٤١٩ .

» » • ذكر نبذة في الدولة الروميـة والسلطنة العثمـانيـة ، مخطوط في مجموعة برلين(١) ، رقم 9728. Mq. 461 .

» » • رسالة في من تولا وقضا وافتا (كذا !) في مدينة الشام من حين انقضاء دولة الجراكسة الى سنة الف ومـايتين وأربعين ، (للمخطوط عنـوان آخر هو : ذكر دمشـق الشـام وتاريخ وزرها وقضاتها ومفتييهـا) ، جامعـة تيوبنغن (Tübingen) ، ألمانيا ، رقم M. a. VI. 8 .

» » • زبدة اختصـار تاريخ ملوك مصر المحروسـة ، المتحف البريطاني بلندن ، رقم Add. 9972 .

» » • لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبـد الوهـاب ، المتحف البريطـاني ، رقـم Add. 23. 346 وقـد نشر هـذا المخطوط الدكتور أحمد أبو حاكمة ، بيروت ، ١٩٦٧ .

» » • نزهة الزمان في حوادث جبل لبنان ، المكتبـة الوطنيـة في باريس ، رقم Arabe 1684 .

» » • هذا تاريخ جبل الدروز (أي جبل لبنان) ابتداه سنـة ١١٠٩ هـ وغـايتـه ١٢٢٣ هـ ، مخطوط في مجمـوعـة برلين ، رقم 9790. We. (II) 377 .

» » • (تاريخ أسرة بشير الشهابي) ، المكتبـة الـوطنيـة في باريس ، رقم Arabe 2111 .

» » • (كناش عن تاريخ آل الصباغ) ، المكتبة الوطنيـة في ميونيخ بألمانيا ، رقم Cod. Arab. 901 .

» » • (مخطوط مجهول العنوان عن تـاريخ مصر من ٨٥٧/ ١٤٥٣ الى ١١٢٠/١٧٠٩) ، المكتبة الوطنية في باريس، رقم Arabe 1855 .

---

١ ـ وجد مجموعة مخطوطات برلين اليوم في مكتبة جامعة تيوبنغن بألمانيا الغربية :
Universitätsbibliothek, Tübingen.

ابن جمعة ،محمد • الباب الرابع والسبعون في ذكر الباشات والقضاة بدمشق المحمية (من) زمن مولانا السلطان سليم خان عليه الرحمة والرضوان ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 418 (II) 9785 We. توجد نسخة مخطوطة أخرى في مجموعة برلين ، برقم 9785. Spr. 188 ، وقد نشر النسخة الاولى الدكتور صلاح الدين المنجد تحت عنوان : « الباشات والقضاة » ، في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ١٩٤٩ • وتوجد في الظاهرية بدمشق نسخة غير كاملة عن مخطوط ابن جمعة هذا ، وهي تتفق تقريباً مع نسخة برلين المذكورة أولا ، وقد أعطاها المصنف عنوان : قطعة من تاريخ ، رقم ٧٥٢٢•

ابن زنبل (الرمال) ، أحمد • (تاريخ مصر) ، المكتبة الوطنية في ميونيخ ، رقم Cod. Arab. 411 انظر نسخة أخرى فيها برقم Cod. Arab. 413

ابن الصديق ، حسن • غرائب البدائع وعجائب الوقائع ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 417 (II) 9832. We. •

ابن عبد اللطيف ، الحاج حسن • (تراجم علماء ومشايخ عاشوا في القدس في القرن الثاني عشر الهجري) ، المتحف البريطاني • رقم Or. 3047 •

ابن علوان ، مرتضى • (وصف طريق الحج الشامي) مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 1860 (II) 6137. We. •

ابن كنان ، محمد بن عيسى • الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر والف ومية (كذا !) ، جزءان مخطوطان في مجموعة برلين ، أرقامهما : 9479. We. (II) 1114; 9480. We. (II) 1115

» » » » » • المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية ، نسخة فوتوغرافية في مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق ، رقم ٢٦ ، مصورة عن مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة •

الانصاري ، شرف الدين موسى • نزهة الخاطر وبهجة الناظر ، الظاهرية ، رقم ٧٨١٤ •

الايوبي،محمد سعيد • مجموعة تراجم لرجال من دمشق توفوا في القرن الثاني عشر ، الظاهرية ، رقم ٤٣٢٤ •

البديري ، أحمد • حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ ــ ١١٧٦ هـ ، تنقيح محمد سعيد القاسمي • الظاهرية ، رقم ٣٧٣٧ • توجد نسخة أخرى في الظاهرية ، برقم ٤٢٨٣ • نشر هذا المخطوط الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٥٩ • انظر : البديري،احمد، في قسم الكتب المطبوعة من قائمة المصادر هذه •

البرزنجي،جعفر • النفح الفرجي في الفتح الجتهجي ، الظاهرية ، رقم ٨٧٢٤ •

البصري،عثمان بن سند • مطالع السعود في أخبار أعلم الوزراء وأعظمهم داود ، المتحف العراقي ببغداد ، رقم ٢٣٣ •

البرلسي ، محمد • بلوغ الارب برفع الطلب ، مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، رقم ٨١ تاريخ ، (يوجد فلم مصور عن هذا المخطوط ، برقم ٢٦ ، في معهد احياء المخطوطات العربية ، التابع لجامعة الدول العربية في القاهرة) •

البوريني ، الحسن بن محمد • تراجم الاعيان من ابناء الزمان ، المكتبة الوطنية في فيينا ، رقم Cod. Arab. 1190, Mixt. 346 • انظم قسم الكتب العربية المطبوعة في قائمة المصادر هذه حيث نذكر أن الدكتور صلاح الدين المنجد نشر قسماً من هذا المؤلف معتمداً على نسخ أخرى من هذا المخطوط • انظر أيضاً ص ٤٩ هامش(١) من كتابنا هذا •

البيتماني ، حسين بن طعمة • (ديوان شعر) ، المتحف البريطاني ، رقم Or. 3175 •

الترك ، نقولا • حوادث الزمان في جبل لبنان ، الظاهرية ، رقم ٤٧٢٤ •

الحسيبي ، محمد • مجموعة تراجم لدمشقيين توفوا في القرن الثاني عشر ، الظاهرية ، رقم ٤٦٦٨ •

الحنبلي ، مرعي بن يوسف • نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين ، المكتبة الوطنية في ميونيخ ، رقم Cod. Arab. 889 •

الخياري،ابراهيم • تحفة الادباء وسلوة الغرباء ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم We. (II) 125 .6135 •

الرباط ، أحمد • مجموعة أزجال ومواويل عن دمشق ، الظاهرية ، رقم ٨٧٤٩ .

السمان، محمد سعيد • (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 8040. Spr. 1124 .

» » » • مختصر الروض النافح فيما ورد على الفتح الفلاقنسي من المدائح ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 8047. We. (II) 1771 .

السويدي، عبد الرحمن • تاريخ بغداد أو حديقة الزوراء في سيرة الوزراء ، المتحف البريطاني ، رقم Add. 18, 507 وقد نشر الدكتور صفاء خلوصي قسماً منه • انظر قسم الكتب العربية المطبوعة في قائمة المصادر هذه .

السويدي، عبد الله • النفحة المسكية في الرحلة المكية ، المتحف البريطاني ، رقم Add. 23. 385 (توجد نسخة أخرى عن هذا المخطوط في المتحف البريطاني ، برقم Add. 7337) .

شلبي ، أحمد • أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، جامعة Yale في الولايات المتحدة ، رقم Landberg, 3 .

شهاب، حيدر أحمد • نزهة الزمان في حوادث عربستان ، مكتبة جامعة كيمبردج (انكلترا) ، رقم Or. 63 (9) .

الشهالي، علي بن حسن • نزهة الناظرين فيمن تولى مصر من البشوات والسلاطين ، الظاهرية ، رقم ٨٣٧٦ .

الصالحي ، ابراهيم (الحنبلي) • تراجم الصواعق في واقعة الصناجق ، المكتبة الوطنية في باريس ، رقم Arabe 1853 (١) .

الصباغ ، عبود • الروض الزاهر في أخبار ظاهر ، المكتبة الوطنية في باريس ، رقم Arabe 4610 .

الصديقي ، محمد بن أبي السرور البكري • التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية ، المكتبة الوطنية في فيينا ، رقم Cod. Arab. 925, A. F. 283 .

» » » » » • عيون الاخبار ونزهة الابصار ، دار الكتب المصرية ، رقم ٧٣ .

» » » » » • المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، دار الكتب المصرية ، رقم تاريخ ١٩٢٦ .

---

١ ــ انظر ص ١٨١ ، هامش (١) ، من كتابنا هذا .

الصديقي، محمد بن أبي السرور البكري • الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة ، المتحف البريطاني ، رقم Add. 9973 •

» » » » » • النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، دار الكتب المصرية ، رقم ٢٢٦٦ •

الصديقي، مصطفى بن كمال الدين • كشف الردأ وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان ،مكتبة جامعة كيمبردج (انكلترا) ، رقم Qq. 111 •

» » » » » • الخمرة الحسية في الرحلة القدسية ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم Mq. 460 .6149 •

الطرزي، مصطفى • (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 8034. Pet. (I) 287 •

عثمان ، (؟) • (وصف لطريق الحج الشامي في ١١٥٦ هـ) ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 6147. Pm. (II) 105 •

الغزي، نجم الدين • لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر ، (وهو ذيل كتابه : الكواكب السائرة) ، الظاهرية ، رقم ٤١ •

القيناي ، مصطفى بن الحاج ابراهيم المداح • مجموع لطيف يشتمل على وقايع مصر القاهرة من سنة ١١٠٠ الى آخر تاريخ المجموع (أي ١١٥٢ هـ) ، المكتبة الوطنية في فيينا ، رقم Cod. Arab. 931, H. O. 38 •

الكردي ، مرتضى • كتاب تهذيب الاطوار في عجائب الامصار ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 6142. Spr. 23 •

الكعبي ، فتح الله بن علوان • زاد المسافر ولهفة المقيم والحاضر فيما جرى لحسين باشا ابن افراسياب ، المتحف العراقي ببغداد ، رقم ٢١١٣ •

الكيواني ، أحمد • (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 8041, 8163. We. (II) 202 •

اللقيمي ، مصطفى أسعد • موانح الانس برحلتي لوادي القدس ، مكتبة جامعة كيمبردج (انكلترا) ، رقم Qq. 238 •

المرادي ، محمد خليل • عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام ، الظاهرية ، رقم ٩٠٥٨ •

» » » • مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد ، المتحف البريطاني ، رقم Or. 4050 •

المكي ، قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي • البرق اليماني في الفتح العثماني ، مكتبة **Top Kapi Seray** في استانبول ، رقم ٢٨٨٠ • وقد نشر هذا المخطوط من قبل حمد الجاسر ، تحت عنوان : غزوات الجراكسة والاتراك في جنوب الجزيرة (المسمى) البرق اليماني في الفتح العثماني ، دار اليمامة ، الرياض ، ١٩٦٧ •

المنيني ، أحمد • (ديوان شعر) ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 8039. We. (II) 158 •

الموزعي ، عبد الصمد بن اسماعيل • الاحسان في دحول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ، نسخة بالميكروفيلم مصورة عن نسخة مكتبة علي اميري باستانبول ، معهد المخطوطات المصورة ، القاهرة ، رقم ١٠١ تاريخ ، فيلم ٧١٢ •

الموصلي ، عبد الرحمن • كتاب مجموع فيه ديوان المرحوم الشيخ عبد الرحمن الموصلي وبهجة جده الشيخ ناصر الدين الموصلي وديوان المرحوم منجك باشا وغيره وفوائد ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 9482. We. (II) 1748

الموقع ، أحمد كمال الدين • كتاب البرق اللامع في التاريخ الجامع والكوكب الساطع ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 9483. We. (II) 346 •

النابلسي ، عبد الغني • الابيات النورانية في ملوك الدولة العثمانية ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 9727. Pet. 347 •

« « « • تاريخ الدولة العثمانية ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 9727. We. (II) 1808 •

« « « • الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ، جامعة كيمبردج (انكلترا) ، رقم Qq. 300 (توجد عدة نسخ عن هذا المخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق) •

« « « • حلة الذهب الابريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز ، المتحف البريطاني ، رقم Or. 3622 •

« « « • الصلح بين الاخوان في حكم اباحة الدخان ، المتحف البريطاني بلندن ، رقم Add. 19, 547 •

الوكيل ، عمر بن محمد • ترويح القلب الشجي في مآثر عبد الله باشا الجتهجي ، المكتبة الوطنية في فيينا ، رقم Mixt. 195 •

٢ ــ الكتب المطبوعة ٠ ــ

(مجهول المؤلف) ٠ قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة من قريش ، القاهرة ، ١٣١٦ هـ ٠

» » ٠ مذكرات تاريخية ، تحقيق الخوري قسطنطين الباشا ، لبنان ، ١٩٢٥ ٠

ابن ابي الضياف ، احمد ٠ اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان ، ٨ اجزاء ، تونس ، ١٩٦٣ ــ ١٩٦٨ ٠

ابن اياس ، محمد ٠ بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الاجزاء ٣ ــ ٥ ، الطبعة الثانية ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ــ ١٩٦٣ ٠

ابن جمعة ، محمد ٠ الباب الرابع والسبعون في ذكر الباشات والقضاة بدمشق المحمية (من) زمن السلطان سليم خان عليه الرحمة والرضوان ، (يشير اليه المنجد باختصار في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، باسم « الباشات والقضاة ») ، مخطوط في مجموعة برلين ، رقم 188 .9785. Spr ، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٤٩ ٠ وقد ترجم H. Laoust هذا المخطوط الى الفرنسية ، ونشره مع مخطوط ابن طولون : اعلام الورى ٠٠٠ ، في كتابه :
Les *Gouverneurs de Damas*, Damas, 1925.

ابن الحنبلي ، رضي الدين محمد ٠ در الحبيب في تاريخ اعيان حلب ، تحقيق محمود فاخوري ويحي عبارة ، صدر منه الجزء الاول في قسمين ، والجزء الثاني ، القسم الاول ، دمشق ، ١٩٧٢ و ١٩٧٣ ٠

ابن طولون ، محمد ٠ أعلام الورى بمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دمشق ، ١٩٦٤ ٠ وقد ترجم H. Laoust هذا المؤلف الى الفرنسية ، ونشره مع مخطوط ابن جمعة السابق في كتابه :
Les Gouverneurs de Damas, Damas, 1952.

» » » ٠ الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام ، نشره صلاح الدين المنجد ، دمشق ، ١٩٥٦ ٠

» » » ٠ مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، جزءان ، نشرهما محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ ٠

ابن طولون، محمد • (قطعة من مخطوط) ، منشورة مع ترجمتها الالمانية في كتاب :

Das Tübinger Fragment der Chronik des Ibn Tulun, ed. R. Hartmann, Berlin, 1926.

ابن عربشاه، محمد • عجائب المقدور في أخبار تيمور ، القاهرة ، ١٣٠٥ هـ •

ابن يحي ، صالح • تاريخ بيروت وأخبار الامراء البحتريين من بني الغرب ، نشره الآب لويس شيخو ، بيروت ، ١٩٢٧ •

ابو حاكمة ، احمد • محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٨ •

ابو شقرا ، يوسف • الحركات في لبنان الى عهد المتصرفية ، تحقيق عارف ابو شقرا ، بيروت ، ١٩٥٢ •

الاسحاقي ، محمد بن عبد المعطي • أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، القاهرة ، ١٣١٥ هـ •

الاسود ، ابراهيم • الرحلة الامبراطورية في الممالك العثمانية، لبنان، ١٨٩٨ •

الاشبيلي ، علي بن محمد اللخمي • الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان ، نشره هانس ارنست ، القاهرة ، ١٩٦٢ •

البديري ، أحمد • حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ ـ ١١٧٥/١٧٤١ ـ ١٧٦٢ ، نشره الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٥٩(١) •

بريك ، الخوري ميخائيل • تاريخ الشام (١٧٢٠ ـ ١٧٨٢) ، نشره الخوري قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٠ •

البغدادي ، ابراهيم فصيح • عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد ، بغداد ، ١٩٦٢ •

البكري ، محمد توفيق • بيت الصديق ، القاهرة ، ١٣٢٣ هـ •

البوريني ، الحسن بن محمد • تراجم الاعيان من أبناء الزمان ، صدر منه جزءان ، نشرهما صلاح الدين المنجد، دمشق ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٦ ؛ انظر : البوريني ، الحسن بن محمد ، في قسم المخطوطات العربية من قائمة المصادر هذه •

---

١ ـ المخطوط ينتهي فعلا في سنة ١١٧٦ هـ ، كما ذكر البديري في عنوان النسخة الاصلية ، وليس في ١١٧٥ كما ذكر الشيخ محمد سعيد القاسمي الذي نقح المخطوط ؛ انظر : البديري ، أحمد ، في قسم المخطوطات من قائمة المصادر هذه •

البيطار ، عبد الرزاق • حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، ٣ أجزاء ، تحقيق محمد بهجة البيطار ، دمشق ، ١٩٦١ ـ ١٩٦٣ •

الترك ، نقولا • ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية : نشره بالعربية مع ترجمة فرنسية :

M. Desgranges Ainé, *Histoire de l'Expédition des Français en Egypte*, Paris, 1839.

توتل ، الأب فرديناند • وثائق تاريخية عن حلب ، ٤ أجزاء ، بيروت ، ١٩٥٨ ـ ١٩٦٤ •

رستم ، أسد • فهرس وثائق الشام في عهد محمد علي الكبير ، مصر ، ١٩٥٢ •

» » • الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ، ٥ اجزاء ، بيروت ، ١٩٣٠ ـ ١٩٣٤ •

» » • بشير بين السلطان والعزيز ، جزآن ، بيروت ، ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ •

الرسنه‌نلي،نيازي • خواطر نيازي أو صفحة من تاريخ الانقلاب العثماني الكبير ، تعريب ولي الدين يكن ، مصر ، ١٩٠٩ •

الجبرتي ، عبد الرحمن • عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ٤ أجزاء ، بولاق ، ١٢٩٧ هـ •

» » • مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ، نشره محمد عطا في جزئين برقم (٥٩ ، ٦٠) ، في سلسلة « اخترنا لك » ، القاهرة • طبعة اخرى من تحقيق محمد جوهر وعمر الدسوقي ، القاهرة ، ١٩٦٩ •

الدبس ، المطران يوسف • تاريخ سورية ، ٨ أجزاء ، بيروت ، ١٨٩٣ ـ ١٩٠٥ •

الدمشقي ، ميخائيل • تاريخ حوادث الشام ولبنان (١١٩٧ ـ ١٢٥٧ / ١٧٨٢ ـ ١٨٤١) ، نشره الأب لويس معلوف ، بيروت ، ١٩١٢ •

الدهمان ، محمد أحمد • « زلزال سنة ١١٧٣ هـ » ، مجلة المشرق ، مجلد ٤٢ (١٩٤٨) ، ص ، ٣٣٣ ـ ٣٤٧ •

» » » • انظر : ابن طولون ، محمد ، اعلام الورى •••

الدويهي ، اسطفان • تـاريـخ الازمنـة (١٠٩٥ ـ ١٦٩٩) ، نشره الآب فرديناند توتل ،، مجلة المشرق ، مجلد ٤٤ (١٩٥٠) •

رافق ، عبد الكريم • بلاد الشـام ومصر ، من الفتح العثمـاني الى حملـة نابليون بونابرت (١٥١٦ ـ ١٧٩٩) ، الطبعة الثانية، دمشق ، ١٩٦٨ •

• ثورات العساكر في القاهرة ، في الربع الاخير من القرن السادس عشر والعقد الاول من القرن السـابـع عشر ، ومغزاها ، ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس ـ ابريل ١٩٦٩ ، ٣ اجزاء ، القاهرة ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ ، الجزء الثاني ، ٧٤٥ ـ ٧٧٥ •

زيادة ، نقولا • ليبيا في العصور الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٦ •

» » • محاضرات في تاريخ ليبيـا من الاستعمـار البريطـاني الى الاستقلال ، القاهرة ، ١٩٥٨ •

سالم ، السيد مصطفى • الفتح العثمـاني الاول لليمن ، ١٥٣٨ ـ ١٦٣٥ ، القاهرة ، ١٩٦٩ •

السويدي ، عبد الرحمن • تاريخ بغداد لابن السويدي ، أو حديقـة الزوراء في سيرة الوزراء ، الجزء الاول ، نشره صفاء خلوصي ، بغـداد ، ١٩٦٢ • يوجـد المخطـوط الاصلي في المتحف البريطـاني ، برقم Add. 18. 507 ؛ (انظر ص ٣٠٥ هامش (١) من كتابنا هذا) •

الشدياق ، طنوس • أخبار الاعيان في جبل لبنان ، جزءان ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٥٤ ، (الطبعة الاولى ، بيروت ،١٨٥٩) •

الشطي ، محمد جميل • روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر، دمشق ، ١٩٤٦ •

» » » • ذيل روض البشر ، دمشق ، ١٩٤٨ •

شهاب ، حيدر أحمد • تاريخ أحمد باشا الجزار ، نشره الأب أنطـونيـوس شبلي والأب أغناطيوس عبده خليفة ، بيروت ، ١٩٥٥ •

» » » • تـاريخ الامير حيـدر أحمد الشهـابي ، نشره نعوم مغبغب ، القاهرة ، ١٩٠٠ ـ ١٩٠١ •

» » » • لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، ٣ أجزاء ، نشرها فؤاد افرام البستاني وأسد رستم ، بيروت ، ١٩٣٣ •

الصباغ ، ميخائيل • تاريخ ظاهر العمر الزيداني ، نشره الخوري قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٥ •

الصفدي ، أحمد الخالدي • تاريخ الامير فخر الدين ، نشره أسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، بيروت ، ١٩٣٦ •

الطباخ ، محمد راغب • اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ أجزاء ، حلب ، ١٣٤٢ ـ ١٣٤٥/١٩٢٣ ـ ١٩٢٦ •

الطهطاوي،رفاعةرافع • تخليص الابريز الى تلخيص باريس ، القاهرة ، ١٩٠٥ •

» » » • مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية ، القاهرة ، ١٢٨٦ •

الظاهر ، سليمان • « صفحة من التاريخ الشامي لم يدون أكثرها » ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ١٧ (١٩٤٢) ، ص ٤٤٥ ـ ٤٥٠ •

عزالدين، يوسف • داود باشا ونهاية المماليك في العراق ، بغداد ، ١٩٦٧ •

العزاوي ، عباس • تاريخ العراق بين احتلالين ، ٨ أجزاء ، بغداد ، ١٣٥٣ ـ ١٣٧٦/١٩٣٥ ـ ١٩٥٦ •

العش ، يوسف • فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، التاريخ وملحقاته ، دمشق ، ١٣٦٦/١٩٤٧ •

العظم،عبدالقادر • الأسرة العظمية ، دمشق ، ١٩٦٠ •

العمري ، ياسين • منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء ، نشره سعيد الديوهجي ، الموصل ، ١٩٥٥ •

العورة ، ابراهيم • تاريخ ولاية سليمان باشا العادل ، لبنان ، ١٩٣٦ •

الغزي ، كامل • نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ أجزاء ، حلب ، ١٣٤١ ـ ١٣٤٥/١٩٢٢ ـ ١٩٢٦ •

الغزي،نجم‌الدين • الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، ٣ أجزاء ، نشرها جبرائيل جبور ، بيروت ، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٩ •

فارس ، محمدخير • تاريخ الجزائر الحديث ، دمشق ١٩٦٩ •

فرفور ، صالح • الدر المنثور على الضياء الموفور في أعيان بني فرفور ، دمشق ، ١٩٦٣ •

فوزي، محمد ومحمدناجي • طرابلس الغرب، ترجمة أكمل الدين محمد احسان، طرابلس ، ١٩٧٣ •

القاري ، رسلان • هذه أسماء الوزراء الذين حكموا في دمشق الشام من خلافة السلطان سليم من سنة ٩٢٢ هـ ، (يشير اليه المنجد باختصار في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني، باسم « الوزراء الذين حكموا دمشق ») ، مخطوط في الظاهرية ، رقم ٤٧٧٢ ، نشره صلاح الدين المنجد في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٤٩ •

علي، عمر بن اسماعيل • انهيار حكم الاسرة القرمانلية في ليبيا ، ١٧٩٥ ـ ١٨٣٥ ، طرابلس ١٩٦٦ •

القاسمي ، محمد سعيد • قاموس الصناعات الشامية ، الجزء الأول • وقد كتب جمال الدين القاسمي وخليل العظم الجزء الثاني من هذا المؤلف • نشر الجزئين ظافر القاسمي ، باريس ـ لاهاي ، ١٩٦٠ •

قدري ، أحمد • مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ، دمشق ، ١٩٥٦ •

القدسي ، الياس • « نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية » ، كتبت في دمشق في ١٢ آب ١٨٨٢، وقدمت للمجتمع العلمي الشرقي الملتئم في مدينة ليدن ١٨٨٣ ، ونشرها Carlo Landberg مع مقدمة ، في :

Actes du Sixième Congrès International des Orientalistes, tenue en 1883 à Leide, Deuxième partie, Leide, 1885.

قرألي، الخوري بولس • فتوحات ابراهيم باشا في فلسطين ولبنان وسورية ، حريصا ، ١٩٣٧ •

القساطلي، نعمان • الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، بيروت ، ١٨٧٩ •

قسطون ، وديع • الأفرنج في حلب في القرن الثامن عشر ، حلب ، ١٩٦٩ •

كحالة،عمر رضا • جغرافية شبه جزيرة العرب ، دمشق ، ١٩٤٤ •

« « « • معجم قبـائل العرب القديمـة والحديثـة ، ٣ أجزاء ، دمشق ، ١٣٦٨/١٩٤٩ •

كرد علي ، محمد • خطط الشام ، ٦ أجزاء ، دمشق ، ١٣٤٣ ـ ١٣٤٧ / ١٩٢٥ ـ ١٩٢٨ •

الكركوكلي،رسول • دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، نقله عن التركية موسى كاظم نورس ، بيروت ، (؟) •

الكواكبي،عبدالرحمن • أم القرى ، حلب ، ١٩٥٩ ،

« « « • طبائع الاستبداد •

الكيواني ، أحمد • ديوان ، طبع دمشق ، ١٣٠١/١٨٨٣ ـ ١٨٨٤ •

المحاسني،اسماعيل • (له كناش في الخزانة التيمورية بالقاهرة ، رقم أدب ٦٧٧) ، نشر بعض أجزائـه صلاح الدين المنجـد تحت عنوان : « صفحات في تاريخ دمشق في القرن الحادي‌عشر الهجري » ، في مجلة معهد المخطوطات العربية المصورة التابع لجامعةالدول‌العربية في القاهرة، مجلد٦، (١٩٦٠)•

المحاسني، سليمان • حلول التعب والآلام بوصـول أبي الـذهب الى دمشق الشام ، نشره صلاح الدين المنجـد ، بيروت ، ١٩٦٢ •

المحبي،محمدالأمين • خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة، ١٢٨٤/١٨٦٩ (أعيد طبعه في بيروت، ١٩٦٦)•

المدني، الشيخ أمين بن حسن الحلواني • خمسة وخمسون عاماً من تاريخ العراق، ١١٨٨ـ١٢٤٢ هـ • (مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود) ، القاهرة ، ١٣٧١ هـ •

المرادي،محمد خليل • سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، ٤ أجزاء ، بولاق ، ١٣٠١ (أعيـد طبعه في بغـداد ، ١٩٦٦) •

مشاقة ، ميخائيل • مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ، مصر ، ١٩٠٨ •

المعلوف، عيسى‌اسكندر • « تاريخ الشيخ ظـاهر العمر الزيـداني » ، مجلة المشـرق ، مجـلد ٢٤ (١٩٢٦) ، ص ٥٣٩ ـ ٥٦٠ •

المعلوف، عيسى اسكندر • تاريخ فخر الدين المعني الثاني ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٦٦ •

» » » • دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف ، لبنان ، ١٩٠٧ _ ١٩٠٨ •

» » » • «قصر أسعد باشا العظم» ، مجلة المشرق ، مجلد ٢٤ (١٩٢٦) ، ص ٥ _ ٢٦ •

» » » • « المرحوم جميل بك العظم » ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ١٤ (١٩٣٦) ، ص ٥٦_٦١ •

المكي، قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي • البرق اليماني في الفتح العثماني ، نشره حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض ، ١٩٦٧ • (وضع المؤلف عنواناً آخر للكتاب : أنظر : المكي ، قطب الدين ••• في قسم المخطوطات من قائمة المصادر هذه) •

المنجد ، صلاح الدين • «حمامات دمشق » ، مجلة المشرق ، مجلد ٤١ (١٩٤٧)، ص ٤٠١ _ ٤٢٥ •

» » » • « قصر أسعد باشا العظم بدمشق » ، مجلة الأديب (ايلول ، ١٩٤٦) ، ص ٣٧ _ ٤٤ •

» » » • المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطة ، بيروت ، ١٩٦٤ •

» » » • كتاب وقف أسعد باشا العظم ، دمشق ، ١٩٥٣ •

» » » • ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٤٩ •

» » » • أنظر : ابن جمعة ، محمد •

» » » • أنظر : ابن طولون ، محمد •

» » » • أنظر : البوريني ، الحسن بن محمد •

» » » • أنظر : القاري ، رسلان •

» » » • أنظر : المحاسني ، اسماعيل •

» » » • أنظر : المحاسني ، سليمان •

المنير، حنانيا • الدر المرصوف في تاريخ الشوف، نشره أغناطيوس سركيس، مجلة المشرق، المجلدات ٤٨ ــ ٥١ (١٩٥٤ ــ ١٩٥٧) .

ميكاكي، رودلفو • طرابلس الغرب تحت أسرة القرمانلي، نقله الى العربية طه فوزي، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦١ .

النابلسي، عبدالغني • الصلح بين الاخوان في حكم اباحة الدخان، نشره محمد أحمد دهمان، دمشق، ١٣٤٣ .

ناجي، محمد ومحمد فوزي • أنظر : فوزي، محمد .

النمر، احسان • تاريخ جبل نابلس والبلقاء، الجزء الأول، دمشق، ١٩٣٨، الجزء الثاني، نابلس، ١٩٦١ .

نوار، عبدالعزيز • تاريخ العراق الحديث، القاهرة، ١٩٦٨ .

« « « • داود باشا والي بغداد، القاهرة، ١٩٦٨ .

يني، جرجي • « ظاهر العمر »، مجلة المقتطف، مجلد ٢٨، جـ ٤، (نيسان ١٩٠٣) .

WORKS IN FOREIGN LANGUAGES.

I. Archives.

1. Archives Nationales, Paris.[1]

a) Répertoire numérique de la Sous-Série B[1], Correspondance Consulaire — Lettres Reçues.

	Numéros des Volumes	Nombres des Volumes	Années [2]
Alep.	76	1	1630 - 1707
	...	..	....
	97	22	1787 - 1791
Alexandrette.	98	1	1696 - 1750
	99	2	1751 - 1778
Bagdad.	175	1	1742 - 1775
	...	..	....
	177	3	1787 - 1791
Le Caire.	313	1	1669 - 1698
	...	..	....
	336	24	1776 - 1781

١ ـ تعتبر التقارير القنصلية الفرنسية (رقم B[1]) أهم المصادر من نوعها ، وتفيد كثيراً في كتابة تاريخ الولايات العربية في العهد العثماني،وخاصة منذ أوائل القرن الثامن عشر، وذلك بسبب دقتها والتفاصيل السياسية التي تعطيها . وتوجد التقارير القنصليةالتي تتعلق بالفترة قبل سنة ١٧٩٣ في دار الوثائق الوطنية (Archives Nationales) في باريس . وقد صدر في تلك السنة قرار عن حكومة الثورة الفرنسية نقل مسؤولية الاشراف على القنصليات من وزير البحرية وغرفة تجارة مرسيليا الى وزير الخارجية الفرنسي . وعلى هذا ، فالتقارير القنصلية التي تعود الى الفترة بعد سنة ١٧٩٣ توجد في مقر وزارة الخارجية الفرنسية (Quai d'Orsay) ، في باريس .

٢ ـ يدل العدد الاول على رقم المجلد ، والعدد الثاني على اعداد المجلدات العائدة لقنصليةما، ويحتوي كل مجلد على وثائق السنوات المذكورة بجانبه . وتحاشياً للاطالة ، فقد ذكرنا فقط رقم وعدد وسنوات المجلدين الاول والاخير في كل قنصلية ، وتشير النقاط الى المجلدات بينهما . ويلاحظ أن أغلب الوثائق تتعلق بالقرن الثامن عشر حين ازداد اهتمام فرنسا بالتجارة مع بلاد الشام بسبب تشجيع كولبير (Colbert) ، وزير لويس الرابع عشر لذلك ، وأيضاً بسبب ازدياد قوة البورجوازية الفرنسية وبحثها عن الاسواق .

	Numéros des Volumes	Nombres des Volumes	Années
Constantinople.	376	1	1637 - 1675
	....	..	....
	448	73	1787 - 1790
Jerusalem.	628	1	1699 - 1717
St. Jean d'Acre.	978	1	1721 - 1755
	....	..	....
	981	4	1790 - 1791
Seyde.	1017	1	1645 - 1704
	....	..	....
	1041	25	1785 - 1790
Tripoli de Syrie.	1114	1	1667 - 1715
	....	..	....
	1124	11	1788 - 1792

b) Répertoire numérique de la Sous-Série B^{III}, Papiers de l'ancien bureau des consulats.

Levant et Barbarie.	33	1	1664 - 1682
	....	..	....
	122	90	1829 - 1830

c) Archives de la Marine B^7, Lettres Reçues. Mémoires et documents divers.

2. **Public Record Office, London.**[1]

a) S. P. (State Papers), 105. Archives of British Legations — Levant Company.

b) S.P. 110. Archives of British Legations (Supplementary) — Levant Company, Aleppo.

c) S.P. 97. General Correspondence - Turkey. This correspondence is resumed in F. O. 78.

---

١ _ معظم الوثائق الانكليزية التي تهمنا هنا والمحفوظة في دائرة الارشيف في لندن التي تسمى (Public Record Office)، اي دائرة السجل العام،صادرة عن ممثلي شركة بلاد المشرق (Levant Company) وخاصة من حلب حيث تركز نشاط الشركة · ويعالج معظم هذه الوثائق الشؤون التجارية والاقتصادية ؛ وهي بوجه عام ، اقل فائدة في معلوماتها عن التاريخ السياسي من الوثائق الفرنسية ·. وتعتبر تقارير قنصلية استانبول اكثر اهمية من تقارير القنصلية الانكليزية في حلب ، بالنسبة للتاريخ السياسي ·

3. **Radcliffe Archives (Guildhall Library, London).** [1]
MS. No. 6645. 7 bundles (c. 1500 items), arranged by addresses and date of dispatch, covering the years 1702-1768.

II. **Published works.**

Abu-Hakima, Ahmad. "The Development of the Gulf States", *The Arabian Peninsula : Society and Politics,* ed. D. Hopwood, London, 1972, 31-53.

Abun-Nasr, Jamil. *A History of the Maghrib,* Cambridge, 1971.

Ahmad, Feroz. *The Young Turks — The Committee of Union and Progress in Turkish Politics,* 1908-1914, O.U.P. 1969.

Ahmad, J. M. *The intellectual Origins of Egyptian Nationalism,* London, 1960.

Ambrose, G. « English traders at Aleppo (1658-1756)», *Economic History Review,* III. 2 (Oct., 1931), pp. 246-267.

Anderson, R.C. *Naval Wars in the Levant,* 1559-1853, Liverpool, 1952.

Arvieux, Laurant D'. *Mémoires du Chevalier d'Arvieux,* 6 vols., Paris, 1735.

Auriant, L. (pseud.). « Catherine II et l'Orient, 1770-1774 », *L'Acropole,* V, (Paris, 1930), pp. 188-220.

Ayalon, D. *Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom,* London. 1956.

« « «The Plague and its effects upon the Mamluk army», *Journal of the Royal Asiatic Society, (JRAS),* April, 1946, pp. 67-73.

« « «Studies on the structure of the Mamluk Army» — I, II, III, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies, (BSOAS),* Vols. XV. 2 (1953), pp. 203-228; XV. 3 (1953), pp. 448-476; XVI. 1 (1954), pp. 57-90.

---

١ ـ تتالف هذه الوثائق من مراسلات التجار الانكليز في حلب وغيرها من المراكز التجارية في الشرق الادنى ، مع رؤسائهم في لندن ٠

Ayn-i 'Ali. *Kavanin-i al-i Osman*, translated from Turkish into French by M. Belin in « Du Régimes des fiefs militaires», *Journal Asiatique (JA)*, XV, (1870), pp. 187-301.

Baer, G. A. *History of Landownership in Modern Egypt*, 1800-1950, London, 1962.

Bathurst, R. D. "Maritime Trade and Imamate Government", *The Arabian Peninsula : Society and Politics*, ed. D. Hopwood, London, 1972, 89-106.

Belin, M «Du Régimes des fiefs militaires», *(JA)*, XV. (1870), pp. 187-301.

Bianchi, M. *Itinéraire de Constantinople à la Mecque*, (Extrait de l'ouvrage Turc intitulé *Kitab Menässik El-Hadj*), par Muhammad Adib b. Muhammad Darwish, Paris, 1825.

Bodman, Herbert L. Jr. *Political Factions in Aleppo* 1760-1826, The University of North Carolina Press, 1963.

Bowen, H. and Gibb, H.A.R. *Islamic Society and the West*, Vol, I. in 2 parts, London, 1951, 1957.

Braudel, F. *La Mediterrannée et le Monde méditerranéen a l'époque de Philippe II*, Paris, 1949.

Bruce, James. *Travels to discover the sources of the Nile in the years*, 1768-1773, 8 vols., 3rd ed. Edinburgh, 1831.

Cahen, Cl. «La Campagne de Mantzikert d'après les sources Musulmanes», *Byzantion*, t. IX (1934), pp. 613-642.

« « *Pre - ottoman Turkey*, London, 1968.

Carruthers, Douglas. ed. *The Desert route to India*, London, 1929.

Charles-Roux, François. *Les Echelles de Syrie et de Palestine au XVIII^e Siècle*, Paris, 1927.

« « «La Politique Française en Egypte à la fin du XVIII^e Siècle», *Revue Historique*, 91 (1906).

Chevallier, D. *La Société du Mont Liban è l'époque de la Révolution Industrielle en Europe,* Paris, 1971, "Western development and Eastern crisis in the mid-nineteenth century : Syria confronted with the European economy", *Beginnings of Modernization in the Middle East,* edd. W. Polk and R. Chambers, Chicago, 1968, 205-222.

Choupet de l'île de France, M. «Nouveau voyage dans l'Arabie Hereuse en 1788», *Annales des Voyages de la Géographie et de l'Histoire,* vol. X, Paris, 1810, pp. 154-180.

Creasy, E. *History of the Ottoman Turks,* reprinted by Khayats, Beirut, 1963.

Dodwell, H. H. *The Founder of Modern Egypt,* Cambridge, 1931.

Dussaud, René. *Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale,* Paris, 1927.

Écochard, M. «Le Palais Azem de Damas», *Gazette des Beaux-Arts,* XIII, Paris, 1935, pp. 230-241.

Egmont, J. A. Van and Heyman, J. *Travels through parts of Europe, Asia Minor ... Syria, Palestine, Egypt.,* 2 vols., translated from Dutch, London, 1759.

Encyclopaedia of Islam, 1st edition, 4 Vols., and Supplement, Leiden, 1913-1938; 2nd edition (proceeding), Leiden, 1954.

Evliya Efendi. *Narrative of travels in Europe, Asia, and Africa in the 17th century, translated* from Turkish and edited by Joseph Von Hammer - Purgstall, 1 Vol., in two parts, London, 1834, 1846.

Gaudefroy-Demombynes, M. *Le Pèlerinage à la Mekke,* Paris, 1923. (Annales du Musée Guimet, Bibliothèque d'Etudes, Vol. XXXIII).

Ghorbal, Shafik. *The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali,* London, 1928.

Gibb, H.A.R. See Bowen, H.

Green, J. *A Journey from Aleppo to Damascus in* 1725, London, 1736.

Haddad, F. N. «Political parties in Syria and Palestine (Qaisi and Yemeni)», *Journal of the Palestine Oriental Society, (JPOS)* I. 4 (Oct. 1920), pp. 209-214.

Haddad, George M. «The Historical work of Niqula El-Turk. 1763-1828», *Journal of the American Oriental Society. (JAOS)* Vol. 81. No. 3 (Aug.-Sept. 1961), pp. 247-251.

Haddad, R. *Syrian Christians in Muslim Society,* Princeton, 1970.

Hammer-Purgstall, Joseph von. *Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours,* traduite de la langue allemande par J. J. Hellert, 18 Vols., Paris, 1835-1843.

Hartmann, R. ed. *Das Tübinger Fragment der Chronik des Ibn Tulun.* Berlin, 1926.

Hasselquist, F. *Voyages and Travels in the Levant, in the years* 1749, '50, '51, '52, London, 1766.

Hess, Andrew. "The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginnings of the Sixteenth-century World War", *International Journal of Middle Eastern Studies,* Vol. 4 (Jan. 1973), No. 1, 55-76.

Heyd, U. *Ottoman Documents on Palestine,* 1552-1615, Oxford, 1960.

« « "The Later Ottoman Empire in Rumelia and Anatolia", *The Cambridge History of Islam,* 2 Vols., edited by P. M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. I, 354-373.

Heyman, J. See Egmont, J. A. van.

Hikmat, Muhammad 'Ali. *Essai sur l'Histoire des Relations Politiques Irano-Ottomanes de* 1722 à 1747, Paris, 1937.

Holt, P. M. «The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century», *BSOAS*, XXIV. 2 (1961) pp. 214-248.

« « «The career of Küçük Muhammad (1676-94)», *BSOAS*, XXVI. 2 (1963), pp. 269-287.

« « «The (Cloud - Catcher) : 'Ali Bey the Great of Egypt», *History Today,* London, IX. 1 (January, 1959), pp. 48-58.

Holt, P. M. *Egypt and the Fertile* Crescent, 1516-1922, London, 1966.

« « «The Exalted Lineage of Ridwān Bey : some observations on a seventeenth-century Mamluk genealogy», *BSOAS*, XXII. 2 (1959), pp. 221-230.

« « «Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt», *BSOAS*, XXV. 1 (1962), pp. 38-51.

« « *The Mahdist State in the Sudan*, 1881-1898, O.U.P. 2nd. ed. 1970.

« « *A Modern History of the Sudan*, London, 1961.

« « ed. *Political and Social Change in Modern Egypt*, London, 1968.

« « and Lewis, B. edd. *Historians of the Middle East*, London, 1962.

Hopwood, D. *The Russian presence in Syria and* Palestine 1843-1914, Oxford, 1969.

Hourani, A. H, *Arabic thought in the liberal age*, 1798-1939. London, 1962.

« « *A Vision of History*, Beirut, 1961.

Hours, F. S. J et K. Salibi. "Muhammad ibn al-Hanash Muqaddam de la Biqa', 1499-1518" *Mélanges de l'Université Saint-Joseph*, t. XLIII (1968), 1-23.

al-Husri, K. S. *Three Reformers - a study in modern Arab political thought*, Beirut, 1966.

Inalcik, H. "The Emergence of the Ottomans", *The Cambridge History of Islam*, 2 Vols., edited by P. M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. I, 263-291.

« « «The Heyday and Decline of the Ottoman Empire», *The Cambridge History of Islam*, 2 Vols., edited by P. M. Holt, A. K. S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970. Vol. I, 324-353.

« « «Ottoman methods of conquest», *Stvdia Islamica*, II (1954), pp. 102-129.

Inalcik, H. «The Rise of the Ottoman Empire», *The Cambridge History of Islam,* 2 Vols., edited by P.M. Holt, A.K.S Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. I, 295-323.

Ismail, Adel. *Histoire du Liban du XVII^e Siècle à Nos Jours,* Vol. I : *Le Liban au temps de Fakhr-eddin II (1590-1933),* Paris, 1955.

(Jesuites) *Lettres édifiantes et curieuses, écrites des Missions étrangères par quelques missionnaires de la Compagnie de Jésus,* ed. C. Le Gobien, J. B. Du Halde, L. Patouillet, 34 Vols., Paris, 1707-73.

Julien, Ch.-André. *Histoire de l'Afrique du Nord,* Paris, 1952.

Kelly, J. B. «A Prevalence of Furies : Tribes, Politics, and Religion in Oman and Trucial Oman», *The Arabian Peninsula: Society and Politics,* London, 1972, 107-141.

Lambton, A. K. S. «Persia : The Breakdown of Society», *The Cambridge History of Islam,* 2 Vols., ed by P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. I, 430-476.

Lammens, H. *La Syrie : Prècis Historique,* 2 vols., Beyrouth, 1921.

Laoust, H. *Les Gouverneurs de Damas,* 1952.

Laurey, E. de et Sauvaget, J. «Le Palais Azem à Damas», *La Revue de Paris,* Paris, VI (Mars, 1926), pp. 433-448.

Le Tourneau, Roger. «North Africa to the Sixteenth Century», *The Cambridge History of Islam,* 2 Vols, edited by P. M. Holt, A. K. S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. II, 211-237.

Levenq. G. *La Première Mission de la Compagnie de Jésus en Syrie,* 1625-1774, Beyrouth, 1925.

Lewis, B. *The Arabs in History,* London, 1960, (Revised edition, 1958).

Lewis, B. *The Emergence of Modern Turkey*, Oxford University Press, London, 1961.

« « «The Ottoman archives as a source for the history of the Arab lands», *JRAS*, (1951), pp. 139-155.

« « «Studies in the Ottoman Archives-I», *BSOAS*, XVI. 3 (1954), pp. 469-501.

« « «and P. M. Holt, edd. See Holt, P. M.

Longrigg. S. *Four Centuries of Modern Iraq*, Oxford, 1925.

Lucas, P. *Voyage du Sieur Paul Lucas fait en 1714 par ordre de Louis XIV*, 3 vols. Rouen, 1719.

Lusignan, S. *A History of the revolt of 'Ali Bey*, London, 1783.

« « «*Letters addressed to Sir William Fordyce*, 2 vols., London, 1788.

Mandaville, J. «The Ottoman Province of Al-Hasa in the Sixteenth, and Seventeenth Centuries», *Journal of the American Oriental Society* (JOAS), Vol. 90, No. 3 (Juky-Sept. 1970), 486-512.

Mantran, R. «Bagdad à l'époque Ottoman», *Arabica*, 1962.

« « «North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries», *The Cambridge History of Islam*, 2 Vols. edited by P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. II, 238-265.

« « et Sauvaget, J. *Règlements Fiscaux Ottomans, Les Provinces Syriennes*, (Institût Français de Damas), Beyrouth, 1951.

Mariti, Giovanni (Abbé). *Travels through Cyprus, Syria, and Palestine*, translated from Italian, 3 vols., London, 1791-2.

Marlowe, J. *Anglo-Egyptian relations* 1899-1953, London, 1954.

Marriott, I. *The Eastern Question*, London, 1951.

Marsigli, L. F. *L'Etat militaire de l'Empire Ottoman*, La Hague, 1732.

Masson, P. *Histoire du Commerce Française dans le Levant au XVII^e Siècle,* Paris, 1896.

« « «*Histoire du Commerce Français dans le Levant au XVIII^e Siècle,* Paris, 1911.

Maundrell, H. *The Travels of H. Maundrell from Aleppo to Jerusalem,* published in The World Displayed, 3rd edition, Vol. XI, London, 1774 (reprinted by Khayats, Beirut, Lebanon, 1963, under the title : *A Journey from Aleppo to Jerusalem in* 1697).

Mingana, A. «List of the Turkish governors and high judges of Aleppo from the Ottoman Conquest to A. D. 1747», *Bulletin of the John Rylands Library,* (*BJRL*), X 2. (July, 1926).

Minorsky, V. trans. and ed. *Tadhkirat al-Muluk — a manual of Safawid administration* (circa 1137/1725), London, 1943.

Muhammad Adib, See Bianchi, M.

Musil, Alois. *The Northern Hegaz,* New York, 1926.

Neibuhr, C. *Travels through Arabian and other Countries in the* East, trans. into English by R. Heron, 2 vols., Edinburgh, 1790.

d'Ohsson, M. *Tableau général de l'Empire Ottoman,* 7 vols., Paris, 1788-1824.

Otter, J. *Voyage en Turquie et en Perse,* 2 vols., Paris, 1748.

Paradis, Venture, de. *Alger au XVIII^e Siècle,* ed. E. Fagnan, Alger, 1898.

Pearson, J. D. *Index Islamicus,* 1906-1955, Cambridge, 1958; *Supplement,* 1956-1960, Cambridge, 1962; *Supplement II,* 1961-1965, Cambridge, 1967.

Perry, Charles. *A view of the Levant,* London, 1743.

Pocoke, R. *A Description of the East and some other Countries,* 2 vols. London, 1939.

Porter, James. *Observations on the religion, law, government, and manners of the Turks,* 2nd ed., London, 1771.

« « *Turkey,* 2 vols., London, 1854.

Rabbath, A. *Documents inédits pour servir à l'histoire du Christianism en Orient,* 2 vols., 6 fascicles (Fasc. I-V, Paris, 1905-11; Fasc. VI, ed. F. Tournebize, Beyrough, 1921).

Rafeq, A-K *The Province of Damascus,* 1723-1783, Khayats, Beirut, 1966.

Ramzaur, E. *The Young Turks,* rep. Khayats, Beirut, 1965.

Raymond, A. «Essai de Géographie des Quartiers de Résidence Aristocratique au Caire au XVIIIe Siècle», *Journal of the Economic and Social History of the Orient.* VI. 1 (1963), pp. 58-103.

« « «North Africa in the Pre-Colonial Period», *The Cambridge History of Islam,* 2 Vols., edited by P. M. Holt, A. K. S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. II, 266-298.

« « Une Révolution au Caire sous les Mamelouks : La crise de 1123/1711», *Annales islamologiques,* t. VI (Le Caire, 1965), pp. 95-120.

Rentz, G. «Wahhabism and Saudi Arabia», *The Arabian Peninsula : Society and Politics,* ed. D. Hopwood, London, 1972, 54-66.

Ricaut, (Sir Paul). *Histoire de l'Empire Ottoman,* trans. from English, 6 Vols., La Hague, 1709.

Rossi, E. «Due Lettere Di Dahir, Signore Di S. Giovani d'Acri al Gran Maestro Di Malta (1752)», *Rivista Degli Studi Orientali,* Vol. XIV, 1934, pp. 61-67.

Russell, A. *The Natural History of Aleppo, 2 vols., 2nd ed.,* London, 1734.

Rycaut, (Sir Paul). See Ricaut (Sir Paul).

Sahillioglu, H. «Sivis Year Crises in the Ottoman Empire», *Studies in the Economic History of the Middle ast,* ed. M. A. Cook, London, 1970, 230-252.

Saint-Maure, C. de. *Nouveau Voyage de Crèce, d'Egypte, de Palestine*...fait en 1721, 1722 et 1723, La Hague, 1724.

Salibi, K. S. «The 1860 upheaval in Damascus as seen by al-Sayyid Muhammad Abu'l-Su'ud al-Hasibi, notable and later *naqib al-Ashraf* of the city», *Beginnings of Modernization in the Middle East*, edd. W. Polk and R. Chmabers, Chicago, 1968, 185-202.

« « «Lebanon in Historical perspective», *Middle East forum*, XXXIV. 3 (March, 1959), pp. 16-21.

« « *Maronite Historians of the Lebanon*, Beirut, 1959.

« « *The Modern History of Lebanon*, London, 1965.

« « and F. Hours S. J. voir Hours, F.

Savory, R. M. «The Principal offices of the Safawid State during the reign of Isma'il I (907-930/1501-24)», *BSOAS*, XXIII. 1. (1960), pp. 91-105.

« « «Safavid Persia», *The Cambridge History of Islam*, 2 Vols., edited by P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. I, 394-429.

Sauvaget, J. Alep, *Paris*, 1941.

« « «Les Caravansérails Syriens du Hadjdj de Constantinople», *Ars Islamica*, IV, (1937), pp. 98-121.

« « «La Citadelle de Damas», *SYRIA*, XI (1930), pp. 59-90, 216-241.

« « «Esquisse d'une histoire de la ville de Damas», *Revue des Etudes Islamiques*, IV (1934), pp. 421-480.

« « *Introduction à l'Histoire de l'Orient Musulman*, edité par Cl. Cahen, Paris, 1961.

« « *Les Monuments Historiques de Damas*, Beyrouth, 1932.

Sauvaget, J. et Laurey, E. de; voir Laurey, E. de.

« « et Mantran, R.; voir Mantran, R.

Schonfield, H. *The Suez Canal in World Affairs*, London, 1952.

Seetzen, M. V. J. «Mémoire pour arriver à la connaissance des tribus Arabes en Syrie», *Annales des Voyages de la géographie et de l'histoire*, VIII, (Paris, 1809), pp. 281-324.

Shaw, Stanford J. *The Financial and administrative organization and development of Ottoman Egypt*, 1517-1798, *Princeton*, 1962.

« « *Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution*, Harvard, 1964.

« « *Ottoman Egypt in the Eighteenth Century — The Nizamname-i Misir* of *Cezzar Ahmad Pasha*, Harvard, 1962.

Shaw, Thomas. *Travels or Observations relating to several parts of Barbary and the Levant*, Oxford, 1738. Another edition is entitled *Travels into Syria and the Holy Land*, in the World Displayed Series, Vol. XI, London, 1774.

Shay, Mary L. *The Ottoman Empire from* 1720 *to* 1734, Uubana, 1944.

Spuler, B. "The Disintegration of the Caliphate in the East", *The Cambridge History of Islam*, 2 Vols., edited by P. M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. I, 143-174.

Svoronos, M. N. «Les Correspondances des Consuls de France comme sourcé de l'histoire du Proche-Orient», *Acts du XXI^e Congrès International des Orientalistes*, Paris, 1949.

Thévenot Jean de. *Voyages de Monsieur de Thévenot en Europe, Asie et Afrique*, 5 Vols., Amsterdam, 1727.

Tibawi, A. *American interests in Syria* 1800-1901, Oxford, 1966.

Tresse, R. *Le Pèlerinage Syrien aux Villes Saintes de l'Islam.* Paris, 1937.

Turan, Osman. «Anatolia in the period of the Seljuks and the Beyliks», *The Cambridge History of Islam,* 2 Vols., edited by P. M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, Cambridge, 1970, Vol. I, 231-262.

Voll, J. « The Non-Wahhabi Hanbalis of Eighteenth-Century Damascus », *Der Islam,* Vol. 49 (2) Nov. 1972, 277-293.

Volney, C. F. Chasseboeuf, comte de. *Voyage en Egypte et en Syrie,* ed. Jean Gaulmier, Paris, 1959.

Wiet, G. *Chronique d'Egypte,* 1798-1804, Le Caire, 1950.

Wilkinson, J. C. "The Origins of the Omani State", *The Arabian Peninsula : Society and Politics,* ed. D. Hopwood, London, 1972, 67-83.

Wilson, A. *The Persian Gulf,* London, 1954.

Wittek, P. «De la Défaite d'Ankara à la prise de Constantinople», *Revue des Etudes Islamiques, (REI),* 1938, pp. 1-34.

« « « Deux Chapitres de l'Histoire des Turcs de Roum», *Byzantion,* t. XI (1936), pp. 285-319.

« « «Devshirme and Shari'a», *BSOAS,* XVII. 2 (1955) pp. 271-278.

« « «Les Gagaouzes — Les Gens de Kaykaus», *Roeznik Orientalistyczny,* t. XVII (1951-2), pp. 12-24.

« « *The Rise of the Ottoman Empire,* London, 1938.

« « «Le Sultan de Rum», *Annuaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire Orientales et Slaves, Mélanges Emile Boisacq,* VI (1938), pp. 361-390.

« « «Fath Mubin», an article published with others in a booklet entitled : *The Fall of Constantinople,* a symposism held at the School of Oriental and African Studies (University of London), May, 1953.

Wood, Alfred C. *A. History of the Levant Company,* London, 1935.

فهرس عـــام

آ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

غ

ف

ق

ك

ل

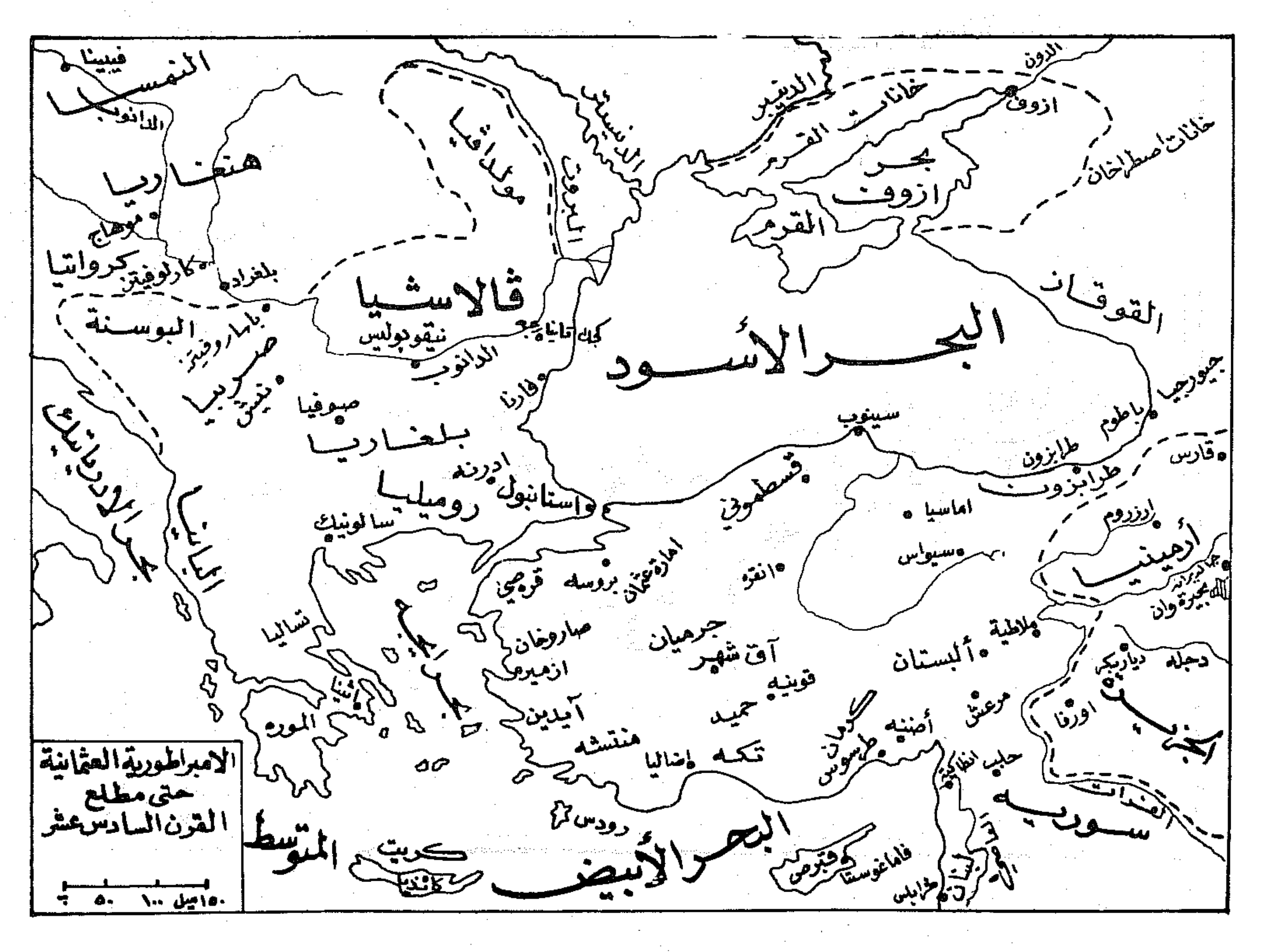
م

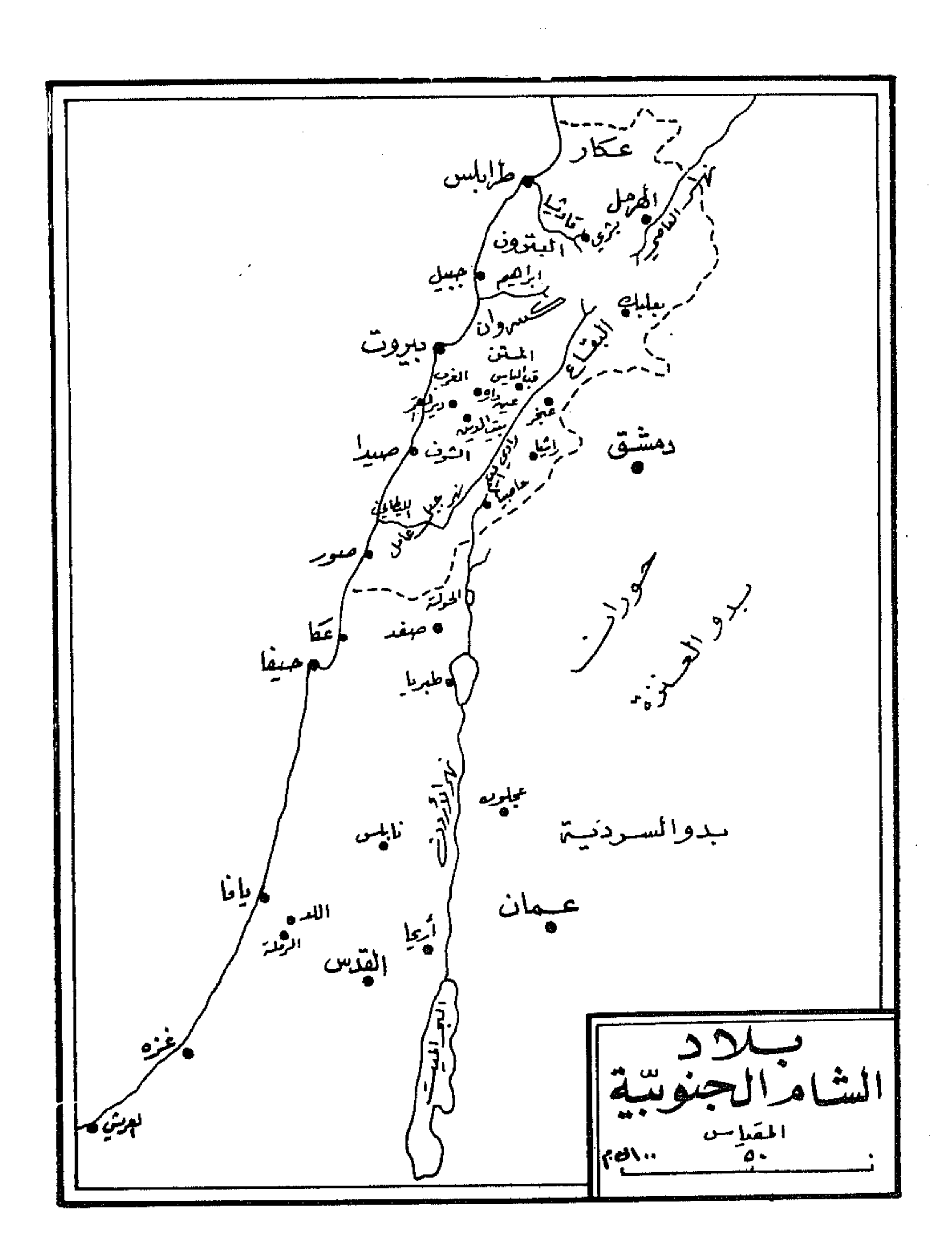
ن

تصويب :

تصحح عبارة « وتسلم الحكم أول الأئمــة الزيديين » الواردة في السطر (٧) من الصفحة (١٧) ، الى :

« وتسلم الحكم فرع جديد من الأئمة الزيديين »

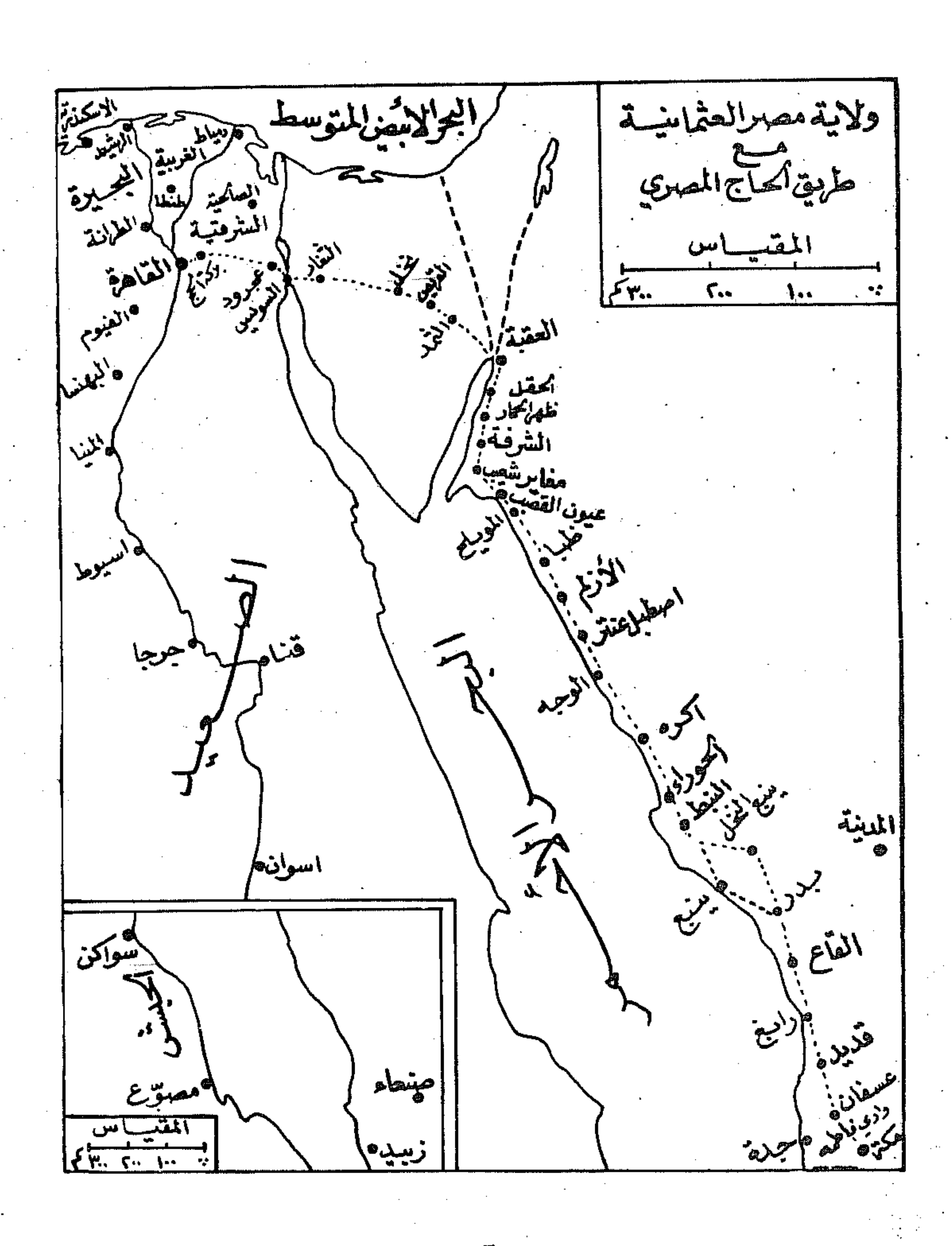

الامبراطورية العثمانية
حتى مطلع
القرن السادس عشر
١٥٠ ميل ١٠٠ ٥٠ ٠
البحر الأسود
البحر الأبيض المتوسط
بحر الادرياتيك
بحر ازوف
خانات القرم
خانات أصطرخان
القوقاز
فالاشيا
مولدافيا
هنغاريا
النمسا
البوسنة
كرواتيا
صربيا
بلغاريا
روميليا
البانيا
أرمينيا
سورية
الجزيرة
القرم
ازوف
فيينا
موهاج
بلغراد
نيقوبولس
الدانوب
فارنا
ادرنة
استانبول
سالونيك
صوفيا
سينوب
قسطموني
اماسيا
سيواس
طرابزون
باطوم
قارس
ارزروم
بحيرة وان
ملاطية
ألبستان
مرعش
أضنه
طرسوس
حلب
انطاكية
ديار بكر
اورفا
دجلة
الفرات
انقرة
بروسه
جرميان
آق شهر
قونيه
حميد
تكه
اضاليا
منتشه
آيدين
ازمير
صاروخان
قره صي
رودس
كريت
كانديا
قبرص
فاماغوستا
طرابلس
المورة
اثينا
تساليا
الدنيبر
الدنيستر
البروت
الدون


بلاد
الشام الجنوبية
المقياس
٥٠
١٠٠ كلم
عكار
طرابلس
الهرمل
البترون
جبيل
كسروان
بيروت
المتن
الغرب
صيدا
الشوف
صور
عكا
حيفا
صفد
طبريا
دمشق
حوران
بدو العنزة
نابلس
بدو السردية
يافا
اللد
الرملة
القدس
أريحا
عمان
غزه
العريش

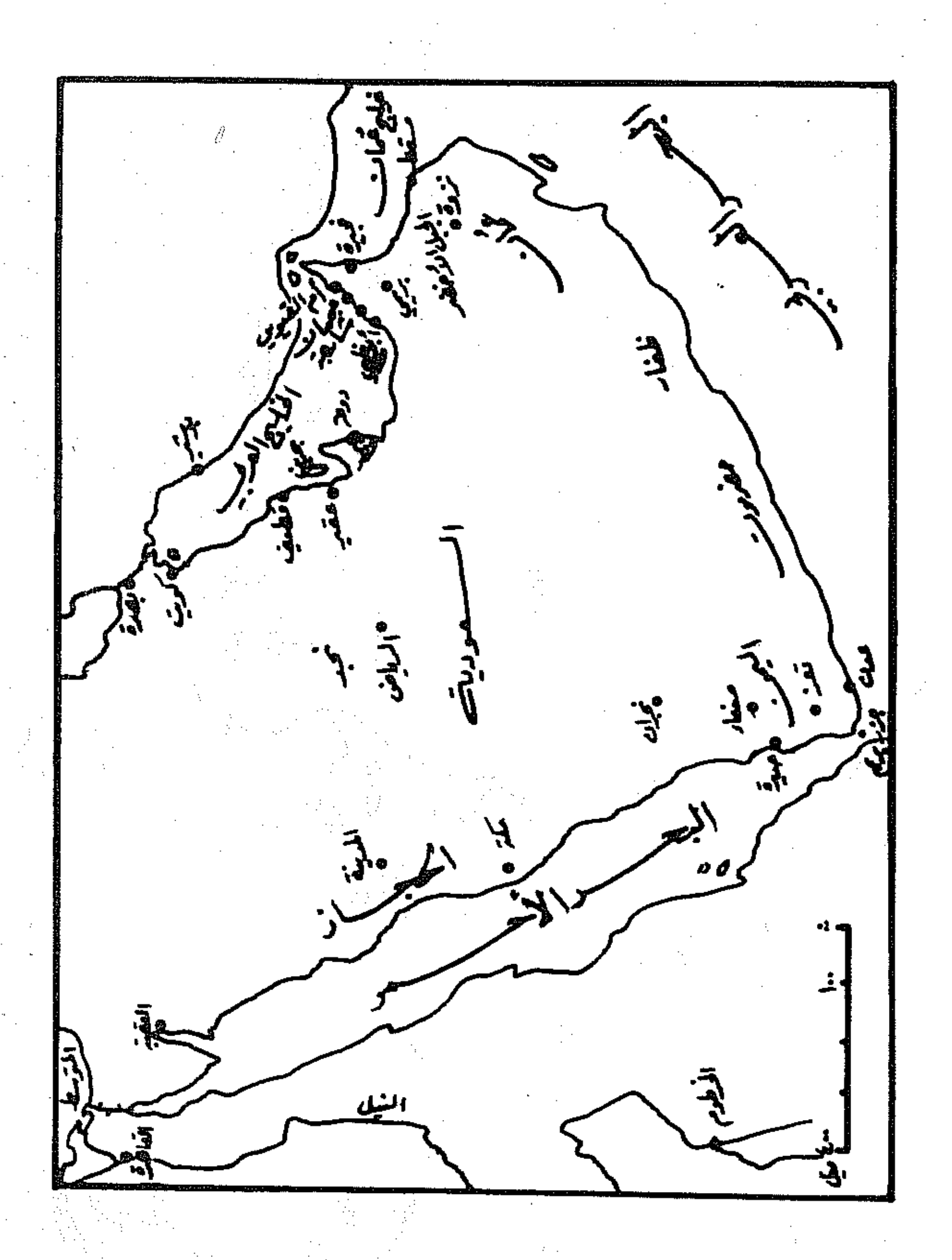
الطريق السلطاني للحاج الشامي

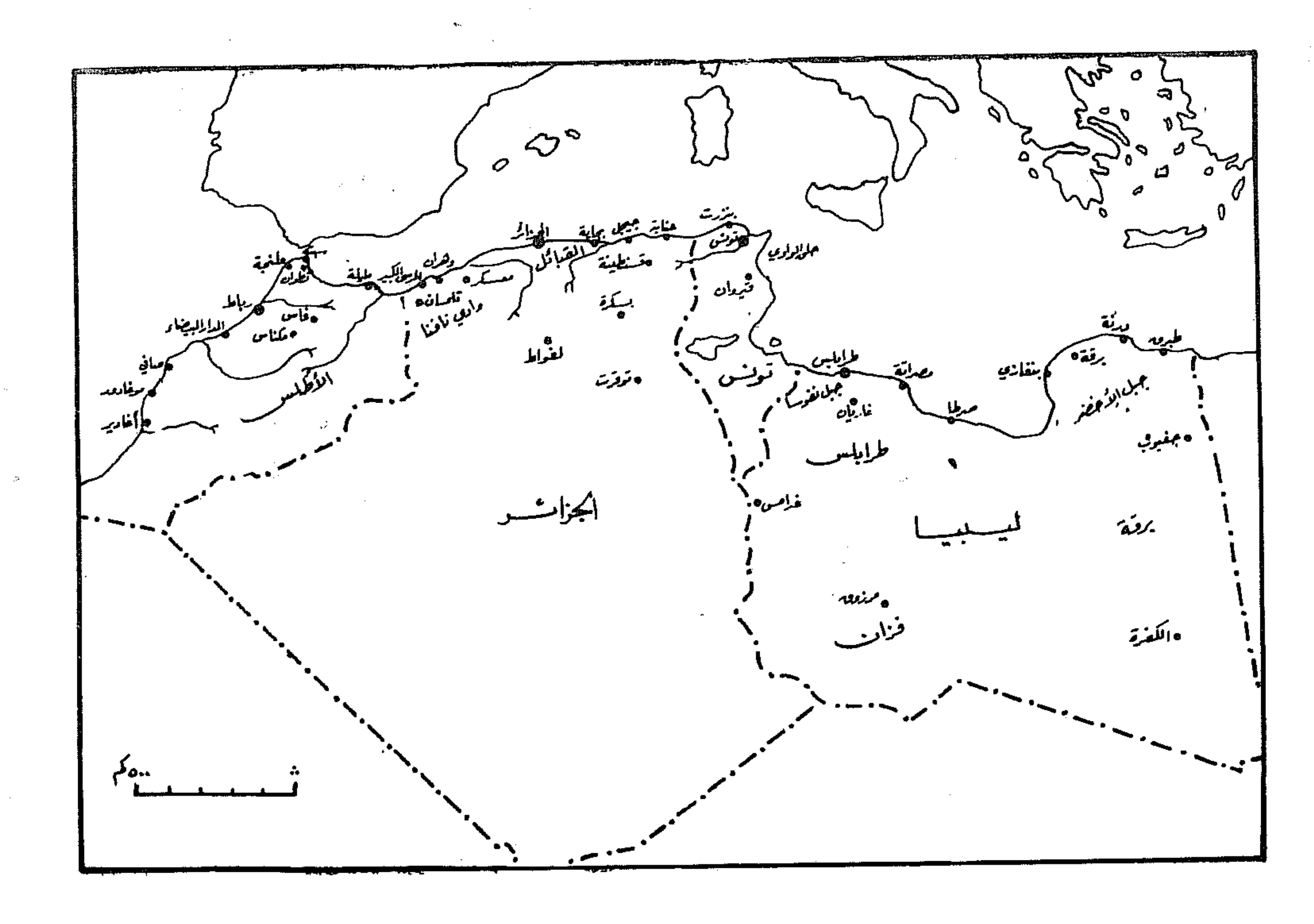
١٥٠كم ١٢٠ ٩٠ ٦٠ ٣٠ ٠

المتوسط
القدس
اريحا
عمان
بلاد بني صخر
البحر الميت
الكرك
قطرانة
الحسا
الشوبك
عنزة
البتراء
معان
العقبة
ظهر العقبة
المدورة
ذات حج
خليج العقبة
تبوك
الأخضر
تيما
المعظم
دار الحمرا
البحر الأحمر
مدائن صالح
العلا
بئر الزمرد



ولاية مصر العثمانية
مع
طريق الحاج المصري
المقياس
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ كم
البحر الأبيض المتوسط
الاسكندرية
الرشيد
دمياط
الغربية
البحيرة
طنطا
الصالحية
الشرقية
الطرانة
القاهرة
الفيوم
البهنسا
المنيا
اسيوط
جرجا
قنا
الصعيد
اسوان
عجرود
السويس
نخل
العقبة
الحقل
ظهر الحمار
الشرفة
مغاير شعيب
عيون القصب
المويلح
ظبا
الأزلم
اصطبل عنتر
الوجه
اكره
الحوراء
النبط
ينبع النخل
المدينة
بدر
ينبع
القاع
رابغ
قديد
عسفان
وادي فاطمة
مكة
جدة
سواكن
مصوع
صنعاء
زبيد
المقياس
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ كم


الرياض
نجد
الحجاز
البحر الأحمر
الخليج العربي
البصرة
الكويت
نجران
صنعاء
عدن
مكة
المدينة
القاهرة
النيل
الخرطوم



الجزائر
ليبيا
تونس
طرابلس
فزان
برقة
الأطلس
طنجة
تطوان
رباط
فاس
مكناس
الدار البيضاء
صافي
أغادير
مليلة
وهران
تلمسان
معسكر
الجزائر
القبائل
بجاية
جيجل
عنابة
قسنطينة
بسكرة
لغواط
توقرت
بنزرت
تونس
القيروان
غدامس
طرابلس
جبل نفوسة
غاريان
مصراتة
سرت
بنغازي
برقة
درنة
طبرق
الجبل الأخضر
جغبوب
الكفرة
مرزوق
٥٠٠كم

مطابع الف باء - الاديب - دمشق

٦٢٤=٦٠٨+١٦



مكتبة أطلس ـ دمشق